الحكم العثماني في اليمن

١٨٧٢ - ١٩١٨

تأليف

د. فاروق عثمان أباظة



١٩٨٦

الحكم العثمانى فى اليمن
(١٨٧٢ - ١٩١٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للاستاذ الدكتور محمد محمود السروجي

استاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

لا شك أن المكتبة العربية فى حاجة مطردة الى المزيد من الكتب العلمية التى تعالج تاريخ العالم العربى وتطوره فى العصر الحديث · واذا كانت بعض البلدان العربية قد لقيت اهتماما أكبر من عدد من المفكرين والباحثين ، فان اليمن لم يكن أحدها · ولذا ظلت الحاجة ملحة الى الدراسات العلمية التى تكشف جوانب تاريخ اليمن الحديث ، ولا سيما فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين · وهى فترة تحول هامة فى تاريخ حياة الشعوب العربية بصفة عامة والشعب اليمنى بصفة خاصة ·

وقد عكف أحد مؤرخينا الشبان وهو الدكتور فاروق عثمان أباظة على دراسة تاريخ اليمن الحديث ، وبذل جهدا كبيرا موفقا فى اعداد هذا البحث الذى اختار له عنوان «الحكم العثمانى فى اليمن من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٩١٨» ونال به درجة الماجستير فى التاريخ الحديث بتقدير ممتاز من كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٦ · وقد سعدت بالمساهمة فى الاشراف عليه أثناء اعداده لهذا البحث الذى يسعدنى أيضا تقديمه اليوم لجمهور الدارسين والقراء ·

وأهمية اختيار الباحث لموضوع البحث ترجع ـ فى نظرى ـ الى اعتبارات عديدة :

أولا ـ أن اليمن يمثل أقصى ما وصل اليه المد العثمانى فى زحفه جنوبا لاحتواء

الشعوب العربية ، فوجود العثمانيين فى اليمن كان ضروريا لتدعيم سلطانهم فيما يليه شمالا ٠

ثانيا ـ أن بعد اليمن عن مركز السلطنة العثمانية يساعد اليمنيين على الخروج عن طاعة الدولة ، وهذا بدوره يشجع اخوانهم فى شبه الجزيرة العربية على الثورة أيضا ضد الحكم العثمانى ، فتدعيم الوجود التركى فى اليمن يعمل على استقرار الأوضاع لصالح الأتراك فى شبه الجزيرة العربية كلها خصوصا فى الحجاز حيث الأماكن المقدسة التى تهفوا اليها أفئدة المسلمين فى كل أجزاء العالم ، وما يحظى به الأتراك العثمانيون من قوة روحية كبيرة نتيجة اشرافهم على تلك البقعة الشريفة ٠

ثالثا : أن العثمانيين حرصوا على تدعيم نفوذهم فى البحر الأحمر ، خصوصا بعد استيلاء الانجليز على عدن فى سنة ١٨٣٩ ، كما تطلع الفرنسيون والايطاليون الى ايجاد نقط ارتكاز لنفوذهم على مقربة من اليمن ، وفى مواجهته على الساحل الافريقى الشرقى ٠

رابعا ـ أنه مع بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت انجلترا تتحول عن سياستها التقليدية القديمة التى ظلت تنتهجها طوال الثلاثة الأرباع الأولى لهذا القرن ، ألا وهى سياسة المحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية بما فيها اليمن ، الى سياسة تقسيم تلك الممتلكات ٠ ومذ ذلك الوقت أصبح الوجود البريطانى فى عدن يشكل خطرا على اليمن ، ولا سيما وانها تقع على الطريق الامبراطورى المؤدى الى الهند وجنوب شرقى آسيا ٠

ويمكننا أن نقسم تاريخ اليمن فى الفترة التى عالجها المؤلف فيما بين عامى ١٨٧٢ و ١٩١٨ الى أربع فترات مميزة توضح الجوانب الرئيسية لموضوع البحث ٠

الفترة الأولى :

وهى الفترة التى عملت فيها الدولة العثمانية على استعادة سيطرتها الفعلية على اليمن بعد أن نجحت بالتعاون مع بريطانيا فى القضاء على قوة محمد على وطرده من اليمن ، وساعدها على ذلك نجاحها فى اعادة بناء جيشها من جديد على النظام الأوروبى الحديث ٠ وبعد محاولات مريرة بدأت مع عام ١٨٤٩ تمكنت من استعادة اليمن فى عام ١٨٧٢ ٠

الفترة الثانية :

وتتميز بمحاولة الدولة العثمانية تشديد قبضتها على البلدان العربية التى بقيت فى حوزتها ولا سيما بعد هزيمتها فى الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ – ١٨٧٨) ، وانتزاع معظم أجزاء البلقان من أيديها ٠ وقد اتخذ السلطان عبد الحميد مختلف السبل فى بسط سيطرته على اليمن ، فسخر حركة الجامعة الاسلامية لخدمة أهدافه فى تدعيم نفوذ الدولة فى المناطق العربية عن طريق الدين ٠ وباسم الدين أيضا مد الخط الحديدى الذى ربط بلاد الشام بالحجاز تسهيلا للحجيج ، ولم يكن هذا فى حقيقة الأمر الا لتأكيد السيادة والسيطرة التركية على المناطق العربية النائية ٠ فازداد بذلك الخطر التركى على اليمن واقترب منه ٠

والى جانب سياسة الترغيب التى اتبعها السلطان عبد الحميد ، فقد انتهج سياسة الشدة والبطش فى اخضاع اليمنيين للحكم التركى ، وقد استمرت تلك الفترة أكثر من ثلاثين عاما ٠

الفترة الثالثة :

وتبدأ بقيام ثورة الاتحاديين الأتراك فى عام ١٩٠٨ واعلان الدستور وعزل السلطان عبد الحميد ٠ واذا كانت عودة الدستور قد قوبلت بفرح عظيم فى أنحاء الدولة العثمانية ، فان نتيجة الانتخابات قد خيبت آمال العرب ٠ فالمجلس النيابى تسيطر عليه أغلبية تركية ، أما سائر العناصر الأخرى ومنها العرب فكانت غير ممثلة تمثيلا صحيحا فى هذا المجلس ، فالمساواة التى نادت بها حكومة الاتحاديين كانت غير موجودة ٠

وفضـــلا عن ذلك فان الاتحاديين قد اتبعوا سياسة المركزية الشديدة ، وصبغ الدولة بالصبغة التركية ، والعمل على اذابة كافة القوميـــات الخاضعة لحكمهم فى القومية التركية ٠ ففكرة ادماج القوميات التركية ، وخلق دولة قومية عثمانية لم تكن سهلة التنفيذ ٠ واذا كانت هذه الفكرة مقبولة فى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر عند اعلان دستور سنة ١٨٧٦ ، فانها لم تعد كذلك فى القرن العشرين ٠ فنمو القوميات جعل العرب غير مستعدين للتضحية بقوميتهم فى سبيل الأتراك ٠

وووجهت الحكومة التركية الجديدة بمشاكل خارجية متعددة لا قبل لها عليها ٠ أولاها اعلان بلغاريا الاستقلال عن الدولة التركية ، ثم أعقب ذلك اقدام النمسا على ضم اقليمى البوسنة والهرسك اليها ، واعلان كريت الانضمام الى اليونان ٠

واذا يممنا وجهنا شطر العالم العربى نجد الأطماع الايطالية ازاء ليبيـــا

تزداد وضوحا ، وخطر ايطاليا يزداد اقترابا منها · أما اليمنيون فيرفضو نسياسة الحكومة التركية الجديدة ، وتتعاون القوى العربية فى كل من اليمن وعسير لمواجهة الأتراك والتصدى لهم · وبدلا من أن تعمل الحكومة التركية على استرضائهم لتتفرغ للدول الأوروبية المتربصة بها ، فانها تسحب جزءا كبيرا من قواتها فى ليبيا لتضرب الثورة فى اليمن · فأضاعت بذلك ليبيا ، ولم تستفد من النصر المؤقت الذى أحرزته فى اليمن ·

الفترة الرابعة :

وتشمل فترة المهادنة بين اليمنيين والأتراك منذ عام ١٩١١ الى جلائهم نهائيا عن اليمن مع مطلع عام ١٩١٩ ·

ولم يكن النزاع التركى اليمنى فى صالح أى منهما فى وقت تعرضت فيه ليبيا للغزو الايطالى · وادراكا لدقة الموقف يغلب اليمنيون النزعة الاسلامية على ما عداها فيعقدون هدنة مع الأتراك فى عام ١٩١١ ليتيحوا فرصة التفرغ لمواجهة الخطر الايطـالى ·

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وقف الامام يحيى منها موقف الحياد، فلم ينضم لأى من الفريقين المتحاربين حتى انتهت · وقد حاولت انجلترا فى نهاية الحرب أن تبقى فى ميناء الحديدة لكى تملأ الفراغ الذى سيتركه جلاء الأتراك عن البلاد وللضغط على الامام يحيى ليسلم لها ببعض الامتيازات قبل أن تجلوا قواتها عن الميناء ، ولكنها لم تفلح ·

وبخروج الأتراك العثمانيين يظهر اليمن الى حيز الوجـود دولة عربية مستقلة فى ظل حكم الامام يحيى · وكان من الممكن لو استغلت الامامة أهمية موقع اليمن الجغرافى وثرواته الطبيعية ، مع تطوير النظم الاصلاحية التى وضع الأتراك أساسها لقطع اليمن شوطا بعيدا فى سبيل التقدم ، لا سيما وأنه من أوائل الدول العربية التى حصلت على استقلالها مبكرا عن شقيقاته العربيات · ولذا لم يستفد اليمن من استقلاله فى عهد الامامة كثيرا ·

هكذا كان « الحكم العثمانى فى اليمن من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٩١٨ » الذى يقدمه اليوم الدكتور فاروق عثمان أباظة فى محاولة جادة لتقصى الحقائق· وانى لأقدر له حق التقدير ما بذله من جهد مشكور فى معالجة هذا الموضوع الذى كان يكتنفه الكثير من الغموض ، نظرا لقلة المراجع ، بل وندرتها فى بعض

الأحيـان . كمـا انه رجع الى المصـادر الصحيحة رجوعا حسنا ، واستخدمها استخدام انصاف وتعقل وأناة ، فجاء بحثه متسما بروح الاعتدال . وأرجو له دوام التوفيق فى خدمة التاريخ اليمنى والعربى الحديث .

والله ولى التـــوفيق ....

الاسكندرية فى ٧ يناير ١٩٧٥

محمد محمود السروجى

مقدمة المؤلف

يتناول هذا البحث دراسة موضوع الحكم العثمانى فى اليمن فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٧٢ و ١٩١٨ ٠ وهى فترة تحول هامة فى التاريخ اليمنى الحديث أحاط بها الغموض وتضاربت عنها الآراء ، وان بدا أثناءها كفاح شعب اليمن ونضاله واضحا جليا ضد حكم الأتراك العثمانيين الذين حاولوا أن يسيطروا على مقدراته ، وأثروا تأثيرا عميقا فى نواحى حياته المختلفة ٠

وقد عالجت هذا الموضوع فى رسالتى للماجستير التى أجازتها كلية الآداب بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٦٦ ٠ وكان اتجاهى لهذه الدراسة ناتجا عن ملاحظتى لحاجة المكتبتين العربية والأجنبية للمؤلفات المنهجية الحديثة والأبحاث العلمية الجادة التى تسجل تاريخ اليمن وتتناول بالدراسة والبحث أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ٠

ويشتمل البحث على ستة فصول أولها تمهيدى ، عرضت فيــه المراحل المتتالية لتطور العلاقات العثمانية اليمنية منــذ بدايتها حتى مطلع العصــور الحديثة حتى قبيل عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ ٠ وكان لمصر دور فعال فى هذه العلاقات أثناء تبعيتها هى الأخرى للسيادة العثمانية ، حتى تعاونت دولة العثمانيين مع بريطانيا لتصفية العلاقات المصرية اليمنية عندما شكلت خطرا على مصالح البريطانيين والعثمانيين على السواء ٠

وقد لعبت الامامة الزيدية دورا خطيرا فى حيــاة الشعب اليمنى ٠ فعلى أساس نظريتها التى أوضحتها فى الفصل الثانى قام حكم الأئمة الدينى فى اليمن ، كما انها كانت سببا فى اثارة الاضطرابات السياسية التى مهدت لعودة العثمانيين اليه ٠

وقد اتجهت الدولة العثمانية نظرا للظروف القاسية التى واجهتها فى منتصف القرن التاسع عشر الى استعادة سيطرتها الفعلية على الممالك التابعة لها اسميا ومن بينها اليمن · ولهذا بذل العثمانيون نشاطا واسع النطاق فى تهامة والمخلاف السليمانى وعسير بشمالى اليمن منذ سنة ١٨٤٩ تمهيدا للسيطرة على صنعاء حتى حققوا غايتهم هذه فى سنة ١٨٧٢ ·

وقد اتسم نظام الحكم الذى أقامه العثمانيون فى اليمن منذ وصولهم اليه حتى قيام العهد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩٠٨ باتباع أساليب الادارة المركزية المستبدة وخاصة فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى على النحو الذى أوضحته فى الفصل الثالث ، وأدى فساد الادارة العثمانية الى انفجار ثورة اليمنيين فى عامى ١٨٩١ و ١٩٠٤ ، وحاول العثمانيون دون جدوى مفاوضة اليمنيين عقب كل ثورة لتهدئة الموقف المتأزم فى اليمن حينذاك ·

وفى مطلع العهد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩٠٨ تعرض الحكم العثمانى فى اليمن لهزة عنيفة نتيجة لسياسة المركزية الاستبدادية المتطرفة التى اتبعتها حكومة الاتحاديين الأتراك والتى أدت الى تجدد الثورة اليمنية فى سنة ١٩١٠ ·

وقد شارك فى هذه الثورة الأدارسة الذين ظهروا على مسرح الأحداث فى عسير والمخلاف السليمانى منذ سنة ١٩٠٧ ووقفوا الى جانب الأئمة الزيديين فى بداية الأمر لمحاربة النفوذ العثمانى فى اليمن · واضطر العثمانيون أمام عنف الثورة اليمنية وضراوتها أن يوجهوا حملة عسكرية الى اليمن لاخمادها · وخلال هذا الصراع الدامى بين العثمانيين واليمنيين الذى استعرضته فى الفصل الرابع أوضحت حقيقة موقف الرأى العام العثمانى واليمنى والعربى بوجه عام من القضية اليمنية والمناقشات التى دارت بشأنها فى البرلمان العثمانى · كما أبرزت الدور الذى قامت به الصحافة العربية حينذاك فىالدفاع عن قضية اليمن وشعبه ضد افتراءات صحافة الاتحاديين الأتراك باتجاهاتها الطورانية ونزعاتها العنصرية ·

وفى نفس الوقت واجهت الدولة العثمانية مشكلات عديدة فى ممتلكاتها الأوربية كما ان تورطها بسحبها لجزء من قواتها العثمانية فى ليبيا لضرب ثورة اليمن أدى الى تعرض ليبيا لخطر الغزو الايطالى · ومن هنا بدت أهمية استرضاء اليمنيين بالصلح الذى عقده العثمانيون مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١ حتى تتفرغ دولتهم لمواجهة مشكلاتها · وقد اشتمل الفصل الخامس على دراسة تحليلية لموضوع الصلح ، وموقف القوى المحلية فى اليمن من زيديين وأدارسة

وغيرهم من الادارة العثمانية فى أعقابه · فالادريسى استمر على عدائه للعثمانيين ونضاله للتخلص من حكمهم ، بينما اتخذ الامام يحيى موقفا مهادنا منهم وتحول الى معاداة الادريسى لخشيته من منافسته اذا ما تم جلاء العثمانيين عن البلاد · وفى ختام هذا الفصل أوضحت معالم السياسة البريطانية فى جنوب اليمن ، مستعرضا اتفاقية الحدود التى عقدت بين العثمانيين والبريطانيين فى سنة ١٩١٤ ولم يعترف بها اليمنيون باعتبارها تمت بين مغتصبين للأراضى اليمنية مما يفقدها تماما صفة الشرعية ·

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وصل ميدان الحرب بين العثمانيين والبريطانيين الى الجزيرة العربية · وفى اليمن حاول العثمانيون فى مطلع الحرب اجتذاب القوى المحلية هناك ليساندوهم ضد بريطانيا ، وخاصة عنـدما قرر العثمانيون السيطرة على لحج ومحاولة الهجوم على عـدن · وقد أوضحت هذه المحاولات العثمانية فى الفصـل السادس ، كمـا استعرضت التحركات العسكرية العثمانية والبريطانية فى شمال اليمن وجنوبه ، وكيف وقف حكام النواحى اليمنية الجنوبية المجاورة لعدن بين الأتراك وبريطانيا · وقد نشأت بعض العلاقات الودية بين عدد من قادة العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن فى فترة الهدوء النسبى الذى عم المنطقة أثناء العامين الأخيرين من سنى الحرب العالمية الأولى فرضتها ظروف خاصة أهمها البعد عن ميدان الحرب الرئيسى فى أوروبا · وبوصول أنباء الهدنة الدولية الى اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى تحدد موقف كل من البريطانيين والعثمانيين من جهة والقوى المحلية اليمنية وخاصة الامام يحيى والادريسى وحكام النواحى الجنوبية فى اليمن من جهة أخرى · وقد عرضت فى هذا الفصل الأخير دراسة مفصلة للظروف التى صاحبت جلاء العثمانيين عن اليمن عقب هزيمة دولتهم فى سنة ١٩١٨ موضحا اختلاف موقف كل من الوالى العثمانى فى صنعاء عن زميله قائد القوات العثمانية فى لحج بالنسبة للامام يحيى وقضـية تسليمه ما تحت أيدى العثمانيين من الأراضى اليمنية ·

وفى ختام هذا البحث أوردت تقييما للحـكم العثمانى فى اليمن مظهرا مساوئه ومميزاته وموضحا الآثار التى تركها هذا الحكم فى مقدرات اليمنيين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ·

وقد بدت مسئولية حكم الأئمة آل حميد الدين فى تقاعسهم عن تطوير الأنظمة والمشروعات الاصلاحية التى وضع العثمانيون الأساس الأول لها أثناء حكمهم لليمن ، اذ كان فى امكان الأئمة لو أرادوا ـ أن يرتقوا بالشعب اليمنى بتطوير هذه النظم والمشروعات الاصلاحية ، مستغلين ثروات اليمن الطبيعية وموقعه الممتاز وطاقاته البشرية وحصوله على الاستقلال · ولهذا فان اليمن لم

يقطف ثمار استقلاله المبكر وعاش فى عزلة قاتمة فرضها عليه حكم الأئمة · على أن الأمل كبير فى أن تتحقق له ثورته الحديثة من التقدم والرقى ما يتناسب مع تاريخه الحافل وحضارته العريقة ، رغم كل المعوقات التى يواجهها ·

وعلى مدار هذا البحث اتبعت منهجا علميا محددا تمثل فى محاولتى المستمرة ارجاع تفصيلات الموضوع لأصولها الأولى وجذورها المتفرعة · وهذا ما جعلنى أحاول معرفة طبيعة البيئة اليمنية التى شاعت فيها ضروب مختلفة من المذاهب والاتجاهات ، وجدت لزاما على أن أقوم بدراستها والتعرف على نظرياتها التى اتخذت أساسا لنظم الحكم فى اليمن ، وأثرت تأثيرا عميقا فى تاريخه الحديث · كما حاولت أن أعرف أبعاد الصلة التى تربط الأحـداث الجارية داخل اليمن بالتغيرات التى كانت تطرأ على الأوضاع القـــائمة فى عاصمة الامبراطورية العثمانية ذاتهـا ، بل وبالتطورات التى كانت توجـه الأحـداث العالمية فى ذلك الحين ·

وقد بذلت جهدى لتخليص نفسى أثناء كتابة هذا البحث من عوامل الرضا أو السخط ونوازع الحب أو الكره ، حتى تكون كلمتى فى الموضوعات التى طرقتها موضوعية خالصـــة مبعثها الضوء الذى تجمع أمامى من حقائق أكدتها وثائق واضحة ودعمتها مصادر دقيقة وأثبتتها المقارنة والتحليل ·

وأخيرا فقد ألحقت بالبحث مجموعة من النصوص الأصلية لأهم الخطابات والبرقيات والقوانين والاتفاقيات المتصلة بالموضوع ، رتبتها تبعا للاشارة اليها وعقبت على كل منها لتوضيح أهميتها · كما أوردت أربعة جـداول توضيحية لتتابع سلاطين الدولة العثمانية ، والأئمة الزيديين فى اليمن ، وأسرتى العبادلة فى لحج والأدارسة فى عسير · ثم عرضت دراسة توضيحية لأهم المصادر العلمية التى رجعت اليها والتى أدرجتها فى قائمة المصادر ، كما أوضحت الأسلوب العلمى الذى اتبعته فى الاستناد اليها والافادة منها · ولقد ذيلت البحث أيضا بخريطة توضيحية لحدود ولاية اليمن العثمانية ، وموجز لموضوع البحث باللغة الانجليزية ·

ويشرفنى الآن أن أشيد بالتوجيهات القيمة والتشجيع المثمر الذى شملنى به أساتذتى : الدكتور أحمد أحمد الحتة والدكتور محمد محمود السروجى أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الاسكندرية وقد أشرفا على حتى أنجزت هذا البحث ، والدكتور محمد أحمد أنيس والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى أستاذا التاريخ الحديث بجامعتى القاهرة وعين شمس وعضوا اللجنة العلمية التى ناقشتنى فيه ، فلسيادتهم جميعا وافر شكرى وتقديرى ·

كما يهمني أن أنوه بالمساعدات التى أحاطنى بها أصدقائى العاملون بالمكتبات الجامعية والعامة بالقاهرة والاسكندرية ، ودار الوثائق القومية بالقاهرة ، ومعهد المخطوطات بدار الأمانة العامة لجامعة الدول العربية . فلسيادتهم جميعا ولزملائى المهتمين بالدراسات اليمنية وللأخوة الأحرار من أبناء اليمن الذين ساعدونى وشجعونى لانجاز دراستى هذه ، ولغيرهم كثيرين ، خالص الشكر والتقدير .

وأرجو أن أكون بهذا البحث قد أسهمت ببعض الواجب فى خدمة التاريخ اليمنى والعربى الحديث .

والله ولى التوفيق ...

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٧٥

فاروق عثمان اباظة

الفصل الأول

علاقة الأتراك العثمانيين ببلاد اليمن قبل سنة ١٨٧٢

أولا ـ الحـــكم العثمانى الأول فى اليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) ٠

ثانيا ـ جنود مصر فى عهد محمد على تحت اللواء العثمانى فى اليمن فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠

ثالثا ـ الحملة العثمانية على اليمن فى سنة ١٨٤٩ ٠

علاقة الأتراك العثمانيين ببلاد اليمن قبل سنة ١٨٧٢

بدأت علاقة الأتراك العثمانيين ببلاد اليمن في مطلع العصور الحديثة ، عندما كان التجار والحجاج يتنقلون بين البــلاد العثمانية وبين البــلاد العربية التى تحــكمها حينــذاك دولة المماليك ، كمــا أن ســلاطين الدولتين : المملوكية والعثمانية كانوا يتخابرون ويتكاتبون بوسائل عديدة ولأسباب متنوعة • وحرص سلاطين آل عثمان كل الحرص على أن يذيعوا فى مختلف الأقطار الاسلامية أخبار انتصــاراتهم على الشعوب الأوروبية مما أكسب العثمانيين مكانة معنــوية رفيعة ساعدتهم فى استيلائهم على البلاد العربية عندما كانت دولتهم فى بداية مرحلة توسعها التاريخى • واستطاعت الدولة العثمانية دون عناء كبير أن تستولى على معظم البــلاد العربية فى مطلع القرن السادس عشر فى مدة لم تتجاوز الأربعين عاما ، امتد فى أثنائها حكم العثمانيين جنوبا فشمل بلاد اليمن فى سنة ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ) (١) •

على أن علاقة العثمانيين ببلاد اليمن بدت واضحة بعد أن قضوا على الدولة المملوكية ودخل السلطان سليم الأول مصر فاتحا فى سنة ١٥١٧ (٩٢٣هـ) • اذ أخذ العالم الاسلامى والعربى فى ذلك الوقت يتحسس القوة الاسلامية الجديدة التى يمثلها العثمانيون • وتوالت الوفود تقدم للسلطان سليم فروض الطاعة والولاء وعروض الصداقة والمودة • ومن بين هذه الوفود بعثتا شريف مكة وأمير اليمن ـ وكانت بلادهما تابعة من قبل للدولة المملوكية(٢) ـ فأرسل الأول نيابة عنه ابنه حاملا معه مفاتيح الكعبة(٣)، بينما أرسل أمير اليمن مبعوثه الى السلطان

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٩ ـ ٢٠ •

(٢) عبد الله بن داعر : الفتوحات المرادية فى الجهات اليمانية ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٦٥ •

(٣) محمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ٣ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ •

العثمانى يحمل فى أعطاف هداياه الود والصداقة (١) . وكان خطر الغزو البرتغالى قد أوجب عليهما ـ وقواهما محدودة ـ أن يضعا بلادهما تحت حماية العثمانيين المسلمين بعد أن هدد البرتغاليون جدة فى سنة ١٥٠٥ (٩١١هـ) (٢)، وتمكنوا من التسلل الى مكة نفسها (٣) التى أقسم ملكهم أن يستولى عليها وأن يقوم بنبش قبر الرسول فى المدينة (٤) . وكان هذا التهديد البرتغالى قد هز المسلمين جميعا والعرب ومن بينهم اليمنيون على وجه الخصوص(٥) ، مما جعل الكثيرين منهم يستنجدون بالمماليك فى مصر(٦) قبل انهيار دولتهم ، ثم يتقبلون حماية العثمانيين بعد ذلك وتدخلهم فى بلادهم ، درءا لهذا الخطر البرتغالى .

وكانت دولة المماليك قد حاولت من قبل العثمانيين أن تقضى على المنافسة البرتغالية (٧) التى هددت المدن الاسلامية المقدسة ، وحولت طريق التجارة عن مصر الى طريق رأس الرجاء الصالح . واستعان المماليك بآل عثمان الذين شاركوهم غيرتهم الدينية ، وبالبندقية التى حرمت مثلهم من التجارة الشرقية التى كانت تقوم بتوزيعها فى أسواق أوربا ، وذلك للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية . وكان على العثمانيين بعد أن ورثوا حكم الدولة المملوكية أن يحملوا لواء الحرب ضد البرتغاليين الذين تحالفوا مع الشيعة الصفويين أعداء الدولة العثمانية فى ايران مما زاد من خطورتهم . كما كان ذلك محاولة من العثمانيين لمعالجة أهم المشكلات السياسية والاقتصادية التى واجهتها مصر بعد تحول طريق التجارة عنها (٨) .

وكان موقع اليمن من العوامل التى أبرزت أهميتها فى تحقيق الأهداف العثمانية ضد البرتغاليين . فوجود اليمن فى الجنوب الغربى لشبه الجزيرة العربية ، وامتداد حدودها من جنوب نجد والحجاز فى الشمال الى خليج عدن فى

---

(١) ابن اياس : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٦ .

(٢) Stripling : The Ottoman Turks and the Arabs, p. 28.

(٣) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٤ . ص ١٩١ .

(٤) Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie, et l'Arabie depuis l'Antiquité, vol. II, p. 144.

(٥) نور الدين بن لطف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، ص ٩ .

(٦) قطب الدين الحنفى : البرق اليمانى فى الفتح العثمانى ، ص ٨ ـ ١٠ .

(٧) عبد الصمد الموزعى : كتاب الاحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان ، ص ٦ .

(٨) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ ـ ١٨٦٦ ، ص ٩٣ .

الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالي شرقا الى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا ، وكانت هذه هي الحدود القديمة لليمن الكبرى (١) ، فقد جعلها هذا الموقع الممتاز وتلك الحدود التي تطوق جنوب الجزيرة العربية (٢) منطقة دفاع هامة عن حدود الامبراطورية العثمانية من الجنوب • وقد أدى هذا الى اقتنـاع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سـلامة الأماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز ، والتحكم في البحرين : الأحمر والعربي ، وامتلاك موطيء صالح للوثوب على البحرية البرتغالية في البحار الشرقية ، وتطـويق أعدائهم الشيعة الصفويين في ايران من الجنوب ، وتحقيق أحلامهم بمد سيطرتهم شرقا الى أقاصي العالم الاسلامي (٣) •

وهكذا أراد العثمانيون أن يسيطروا على اليمن ليحققوا أهدافهم الدفاعية والتوسعية وأن يحلوا محل المماليك الذين كان حكمهم قد استقر هناك منذ سنة ١٥١٤ (٤) • وقد تمكن العثمانيون من تحقيق بغيتهم على مرحلتين ، بدأت الأولى بعد فتح مصر مباشرة في سنة ١٥١٧ بارسال بعثة عثمانية حملت أوامر السلطان العثماني لقـادة المماليك في اليمن لكي يعلنوا خضـوعهم وتبعيتهم للسـيادة العثمانية • غير أن بعض القادة المماليك لم يذعنوا لأوامر السلطان العثماني وتمسكوا باستقلالهم وخرجوا على من أعلن الطاعة منهم وقضوا عليه • لهذا رأت الدولة العثمانية أن ترسل ولاة عثمانيين من قبلها ليتولوا الحكم في اليمن وليضمنوا تبعيته وولاءه للدولة ، غير أنها لم ترسل معهم في بداية الأمر قوة حربية تدعم حكمهم مما شجع المماليك على تهديدهم (٥) حتى أجبروهم على الفرار من البلاد ناجين بأنفسهم • ثم حاولت الدولة العثمانية أن تنصب بعض القادة المماليك ليكونوا ولاة لليمن من قبلها على أن يضمنوا تبعية البلاد لسيادتها ، غير أن هؤلاء القادة كانوا يستبدون بالأمر ويعلنون استقلالهم • وقد أدى كل ذلك الى أن الدولة العثمانية رأت أخيرا أن لا سبيل الى ضمان سيادتها على اليمن الا بالاحتلال الفعلي ، واقامة حكم عثماني مدعم بالقوة العسكرية ، وكانت هذه هي المرحلة الثانية من مراحل العلاقات العثمانية اليمنية استمرت بين عامي (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) أي قرابة قرن كامل من الزمان •

---

(١) أبو محمد الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ •

(٢) عبد الواسع الواسعي : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٨ •

(٣) Scott, H. : In the High Yemen, p. 227.

(٤) Bury, G. W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 12.

(٥) عبد الصمد الموزعي : المصدر السابق ، ص ٧ •

عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ص ١٨٧ (ب) •

وقد بدأت تلك المرحلة فى عهـد السلطان العثمانى سليمان القـانونى (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) الذى أمر بتجهيز قوة ضخمة أبحرت من ميناء السويس فى ٢٧ من يونية سنة ١٥٣٨ ٠ وكان الهدف الواضح من توجيه تلك الحملة هو القضـاء على البرتغاليين الذين كانوا يعيثون فسادا فى موانىء البحر الأحمر والعربى ، بينما كان الغرض الكامن من ورائها هو احتلال اليمن(١) الذى كان يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتوسعية للدولة العثمانية حينذاك٠ وقد وصل الأسطول العثمانى الى عدن فى سنة ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ) يقوده سليمان باشا الأرناءوطى الذى كان من أبرز القادة العثمانيين فى ذلك الوقت (٢) ٠ واستدعى هذا القائد العثمانى أمير عدن اليمنى عامر بن داود الطاهرى لزيارة سفينة القيادة ٠ وكان عامر هـذا قد كتب الى السلطان العثمانى طالبا منه المساعدة ليتغلب على الامام الزيدى : شرف الدين الذى كان يسيطر على المنطقة الوسطى فى اليمن ويطمع فى ضم عدن الى منطقة نفوذه (٣) ٠ وقد أبدى القائد العثمانى لأمير عدن استعداده لمساعدته ــ بناء على موافقة السلطان العثمانى ــ مما شجع عامر على تلبية الدعوة والصعود الى سفينة القيادة ٠ غير أن القائد العثمانى غدر بعامر قبل أن يستقر به المقام على ظهر السفينة وأمر بقتله ونصب جثته على السارية (٤) ومن ثم أنزل قواته العثمانية فاستولت على عدن بدون قتال فى اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨ (٥) ٠ بل ان سليمان باشا أمر بقتل من بقى من آل طاهر ومصادرة ممتلكاتهم بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين ، على أن بعض المؤرخين أزاحوا هذه التهمة عن الطاهريين (٦) ٠ وعلى أية حال فقد أناب سليمان باشا على ادارة عدن أحد ضباطه ويدعى بهرام ، بينما أقلع أسطوله تجاه الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، غير أن مهمته هذه انتهت بالفشـل وانسحب الأسطول العثمانى عائدا الى عدن (٧) ٠ واذا كان العثمانيون قد نجحوا فى السيطرة ــ بعض الوقت ــ على الثغور البحرية الواقعة

---

(١) عبد الله بن داعر : المصادر السابق ج ١ ق ١ ، ص ١٨٨ (أ) ٠

أحمد شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، من القرن الرابع عشر قبـل الميلاد الى القرن العشرين ، ص ٢٦١ ٠

(٢) Scott, H. : Op. Cit., p. 227.

(٣) عبد الصمد الموزعى : المصدر السابق ، ص ٧ ٠

(٤) عبد الله الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٨٨ ٠

قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ص ٦٥ ــ ٦٦ ٠

(٥) عبد الصمد الموزعى : المصدر السابق ، ص ٨ ٠

(٦) أحمد شرف الدين : المصدر السابق ، ص ٢٦٢ ٠

(٧) محمد بن أحمد العقيلى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التـاريخ ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ٠

على طول الساحل الجنوبى للجزيرة العربية بما فيهـا ثغور حضرموت ، فان سلطانهم لم يستقر هناك لأن سكان المناطق الداخلية لم يعترفوا بالولاء للسلاطين العثمانيين مما أدى الى زوال نفوذهم عن تلك المناطق (١) ٠

وبعد عودة الأسطول العثمانى الى عدن رأى قائده سليمان باشا أن يعود الى مصر مارا بسواحل اليمن بعـد أن يضمن تبعيتها للدولة العثمانية ، لهذا عندما وصل الى ميناء مخا اليمنى طلب من الناخوذة أحمد الحاكم المملوكى فى اليمن حينذاك اعلان تبعية البلاد للسيادة العثمانية ٠ وقد تردد الناخوذة أحمد فى بداية الأمر ثم استقر رأيه أخيرا على اعلان الطاعة للدولة والاعتراف بتبعية اليمن لسيادتها (٢) ٠ وكان العثمانيون قد اتجهوا فى ذلك الوقت الى ميناء الصليف حيث أنزلوا قواتهم التى تقدمت الى زبيد ، وغدروا بالناخوذة أحمد وأعدموه هو وجمعا من رفاقه وقضوا نهائيا على الحكم المملوكى فى اليمن (٣) ٠ وهكذا خضعت اليمن خضوعا فعليا للسيادة العثمانية فى أواخر عـام ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ) ٠

وهنا تجدر الاشارة الى أن العرب ومن بينهم اليمنيون رحبوا — فى بداية الأمر — بمساعدة العثمانيين المسلمين لهم فى الكفاح المرير ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية ، كمـا قبلوا أن ينزلوا لهم عن قيادة المعركة ، بل أيضـا عن السيادة فى دارهم ، مما مهد السبيل أمام العثمانيين للسيطرة على البلاد العربية ومن بينها اليمن فى فترة قصـيرة ٠ وكان ذلك بمثابة الثمن الذى تقاضـاه العثمانيون لقاء الحملات البحرية التى وجهوها من قاعدة السويس الى البحار الشرقية ، التى انتهت جميعها الى الخليج العربى ، وان كان بعضها قد وصل الى سواحل الهند ٠ واذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى، وتأمين البلدان العربية ومن بينها اليمن من عدوان البرتغاليين ، فانهم قد عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهى تحطيم السيطرة البرتغالية فى البحار الشرقية ، وشق طرق واسعة للتجار والملاحين العرب ٠ ويرجع سبب اخفاق العثمانيين فى تحقيق هذه الغاية الى عجزهم عن تألفة العرب المسلمين فى البحار الشرقية ليوحدوا قواهم جميعا لمكافحة السيطرة البرتغالية ، ومن النتائج التى أسفر عنها اخفاق العثمانيين فى هذا السبيل أنهم أهملوا قواعدهم

(١) Sanger, R.H. : The Arabian Peninsula, p. 220.
(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ٠
(٣) عبد الصمد الموزعى : المصدر السابق ، ص ٨ ٠
قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ، ص ٣٩ ٠

فى الخليج العربى ، مما أتاح الفرصة للعرب هناك للاحتفاظ باستقلالهم (١) . وكانت بلاد اليمن أقرب للعثمانيين من بلدان الخليج مما شجعهم على التمسك بها ، ومحاولة الابقاء على تبعيتها الفعلية لدولتهم . على أن العرب ومن بينهم اليمنيون ثاروا على العثمانيين عندما أحسوا برغبتهم فى انتزاع حريتهم والسيطرة على مقدراتهم ، وبخاصة عندما بالغ العثمانيون فى اتباع سياسة الغدر والتسلط والعنف ازاء العناصر العربية التى كانت تحرص على التمتع بحريتها واستقلالها فى أراضيها . ولهذا فان تاريخ اليمن الحديث ملىء بالثورات العنيفة والمقاومة الضارية ضد العثمانيين الذين لم يتمكنوا من البقاء فى بلاد اليمن بعد أن فتحوها فى سنة ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ) أكثر من قرن واحد من الزمان ، ثم تركوها ولم يعودوا اليها الا فى منتصف القرن التاسع عشر ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن آخر ، تحولت فيه الى « مقبرة لأبناء الأناضول » (٢) ويمكننا دراسة تطور العلاقات العثمانية اليمنية قبل سنة ١٨٧٢ بتقسيمها الى موضوعات ثلاثة :

أولا ـ الحكم العثماني الأول فى اليمن

(١٥٣٨ ـ ١٦٣٥)

سوف نستعرض فيما يلى بايجاز بعض الأحداث التى تعرض لها اليمن فى أثناء خضوعه للحكم العثمانى الأول فى الفترة الممتدة بين عامى (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) لأنها تمثل ما رسب فى ذاكرة اليمنيين عن تاريخ العثمانيين فى بلادهم، وهذا سيفسر بالتالى حقيقة موقف اليمنيين من العثمانيين عندما عادوا الى اليمن فى خلال القرن التاسع عشر فى الفترة التى سنتناولها بالدراسة .

لم يمض وقت طويل منذ سيطر العثمانيون على عدن فى اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨ حتى أعلنت القبائل اليمنية ثورتها على الحامية العثمانية المرابطة فى المدينة عندما رأت ما حدث من غدر العثمانيين بأميرهم عامر بن داود الطاهرى . واضطر العثمانيون أن يرسلوا أسطولا حربيا عبر البحر الأحمر تحت قيادة « بيرى » الذى تمكن من استعادة عدن بعد أن أخمد ثورة القبائل (٣) . أما القائد العثمانى سليمان باشا الذى كان مرابطا فى ميناء الصليف فانه اعتبر مهمته قد انتهت وقرر العودة الى بلاده (٤) بعد أن أسند حكم اليمن للوالى

---

(١) صلاح العقاد (دكتور) : الاستعمار فى « الخليج الفارسى » ، ص ٦ .

(٢) Jacob, H. F. : Kings of Arabia, p. 75.

(٣) أحمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ، ص ١٨٨ (ب) .

العثمانى مصطفى غزة (١) ٠ وقد اتخذ هذا الوالى مدينة زبيد مركزا لولايته ، وأرسل نوابه الى أقسام تهامة التى امتدت الى جازان الواقعة فى شمال اليمن ٠ كما توجه هذا الوالى الى الحجاز لأداء فريضة الحج فى سنة ١٥٣٩ (٩٤٦ هـ) واستصحب معه « محملا يمنيا تضرب أمامه الطبول وتنفخ الأبواق » (٢) ، واستمر تسيير هذا المحمل سنويا من قبل ولاة اليمن العثمانيين قرابة ثلاثين عاما (٣) تعبيرا عن تكريمهم للأماكن الاسلامية المقدسة ومحاولة لاجتذاب قلوب اليمنيين اليهم ٠

وقد بدأ العثمانيون القيـام بعمليات التوسع فى اليمن منذ مطلع سنة ١٥٣٩ (٩٤٦ هـ) مما أدى الى وقوع الصدام بينهم وبين الامام الزيدى « فكان بينهم وبين ولاة الامام شرف الدين حروب فى جهات شتى » (٤) ٠ وقد سيطر العثمانيون على تعز فى سنة ١٥٤٥ (٩٥٢ هـ) (٥) ، كما سقطت بعدها صنعاء فى قبضتهم (٦) ، ولكن المحافظة على صنعاء أو أى من المدن الأخرى فى جبال اليمن ما كانت تقوى عليه قواتهم أمام مقاومة أتباع الامام الزيدى الذى كان يسيطر على المنطقة الجبلية الشمالية الممتدة من صعدة شمالا الى ذمار ورداع جنوبا (٧) ٠ وعلى الرغم من أن بقية أجزاء اليمن يدين معظم سكانها بالمذهب الشافعى السنى فقد التفوا مع اخوانهم الزيديين(٨) حول راية الامام شرف الدين لمقاومة العثمانيين الذين اختلفوا عنهم فى الجنس واللغة ، وأحسوا أنهم أعداء مغتصبون ، وان كانوا يدينون مثلهم بالاسلام ويتبعون المذهب السنى ٠

وازاء تضامن الشعب اليمنى وتكاتفه فى مقاومة العثمانيين ، فان هؤلاء لجئوا فى بعض الأحيان الى استعمال أساليب المكر والدهاء والوقيعة بين اليمنيين على طريقة « فرق تسـد » وكانوا يحققون بها ما لا تستطيع أن تحققه قواتهم المجهـدة ، أو على الأقل يشغلون بهـا عناصر المقـاومة اليمنية حتى تصل اليهم الامـدادات الكافية لتحقيق أغراضهم الحربية ٠ وقد فعلوا ذلك مع الامـام

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٠٧ ٠

قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ، ص ٧٩ ٠

(٢) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٨٩ ٠

(٣) العقيل : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣١٧ ٠

(٤) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٦٠ ٠

(٥) عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ص ١٨٩ (أ) ٠

(٦) عبد الصمد الموزعى : المصدر السابق ، ص ١٠ ٠

(٧) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 98.

(٨) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ١٢٦ ٠

شرف الدين عندما أرسلوا اليه أحدهم ويدعى حسن البهلوان ، فأحدث هـذا العثمانى فتنة بين الامام وابنه المطهر أثارت قتالا مروعا بينهما (١) شغلهما عن صد تيار التوسع العثمانى فى أرجاء اليمن ٠ ولم يخمد ذلك القتال سوى تدخل بعض العقلاء ، وتنازل الامام لابنه المطهر عن الامامة حقنا للدماء ، بينما استولى الترك فى أثناء ذلك النزاع على المنطقة الممتدة من تعز جنوبا الى جيزان شمالا ٠ ثم تقدم الوالى العثمانى أزدمر من زبيد تجاه صنعاء والتحم مع قوات المطهر الذى هزم بعد قتال عنيف انسحب بعده الى ثلا ٠ بينما دخل أزدمر صنعاء بمعاونة بعض أتباع المطهر فى سنة ١٥٤٧ (٩٥٤ هـ) ، بعد أن سفكت دماء كثيرة ، ونهبت المنازل والمتاجر فى أثناء سقوط المدينة فى قبضة العثمانيين (٢) ٠

وبعـد سيطرة العثمانيين على صنعاء توطد مركزهم فى اليمن وتم لهم الاستيلاء على كثير من بلاده ٠ وقام الوالى العثمانى أزدمر برحلة تفقد فيها شئون تلك البلاد فمر بذمار ، وتعز ، وزبيد ، وبيت الفقيه ، وريمة ٠ كما قام هذا الوالى بزيارة مدينة أبى عريش الواقعة فى شمال اليمن ، وأصدر عفوا عن « الخارجين على النظام » ، هذا فضلا عن أنه خفف الضرائب التى كانت مفروضة على أهالى مدينة جيزان (٣) ٠

ولم تضعف مقاومة الامـام المطهر للعثمانيين على الرغم من استيلائهم على مدينة صنعاء ومحاولاتهم المستمرة لتثبيت دعائم حكمهم فى اليمن ، اذ استعاد هذا الامام قواه فى عهد الوالى العثمانى رضوان باشا (٤) ، وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجبلية الخاضعة للعثمانيين ، بل ان المطهر تغلب على الوالى العثمانى مراد باشا ، الذى قتل فى احدى المعارك (٥) ، بينما تمكن المطهر من دخول صنعاء فى سنة ١٥٦٨ (٩٧٥ هـ) وعقد صلحا مع العثمانيين ، انسحبوا بموجبه الى زبيد وسهول تهامة (٦) حتى ترد اليهم الامدادات لتساعدهم على دعم حكمهم فى اليمن بأكمله ٠ وقد وجه المطهر عدة حملات بقيادة على بن محمد الشويع لاحتـلال مدينة زبيد التى احتفظ بهـا العثمانيون كخط للرجعة ، غير أن تلك الحملات الامامية باءت جميعها بالفشل ٠

وعندما علمت الدولة العثمانية بالمقاومة الضارية التى تزعمها الامام المطهر

---

(١) قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ، ص ٨٤ ٠

(٢) أحمد شرف الدين : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ٠

(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣١٢ ٠

(٤) قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ، ص ١٣٦ ٠

(٥) عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٠١ (ب) ٠

قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ٠

(٦) عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠١ (أ) ٠

ضد قواتها فى اليمن ، أرسلت حملة عثمانية مزودة بأحدث الأسلحة فى عصرها يقودها سنان باشا (١) ، الذى كان من أبرز قادة الدولة حينذاك ، كما انضمت لهذه الحملة معظم القوات العثمانية التى كانت ترابط فى مصر · وعلى خريطة مصر التى رسمها بيجافتا «Pigafetta» الايطالى التى صدرت فى روما فى سنة ١٥٩١ (١٠٠٠ هـ) توجد قناة بين السويس والبحر المتوسط حتى بحيرة المنزلة الحالية (٢) · وقد ذكر أن سنان باشا فاتح بلاد اليمن لجأ الى هذا المشروع ليجمع البحرين بحيث يمكن مرور المراكب الحربية والمدفعية الى البحر الأحمر(٣)· وعلى أية حال فقد وصلت تلك الحملة الى زبيد ، ثم واصلت زحفها تجاه المواقع التى عسكرت فيها قوات المطهر حيث جرت بين الجانبين حروب كثيرة استطاع فى خلالها سنان باشا أن يدك مراكز المقاومة بمدافعه · وقد استعاد العثمانيون مدينة صنعاء فى سنة ١٥٧٠ (صفر ٩٧٧ هـ) بعد أن غادرها المطهر الى حصن ثلا بحجة اشفاقه على أهالى صنعاء من معاناة أهوال الحرب والحصار (٤) · وقد أعاد هذا النصر الحاسم للعثمانيين هيبتهم فى اليمن ، على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من التقدم شمال صنعاء أمام مقاومة المطهر فى كوكبان (٥) ·

وأخيرا رأى سنان باشـا أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن بأكمله الا بالقضاء على مقاومة المطهر وأتباعه ، فأخذ يوالى حشد قواته ، ولكن دون جدوى · وقد أعقبــه فى تنفيــذ تلك السياسة بهرام باشـا الوالى العثمانى الجديد (٦) ، ودامت الحرب سجالا ما يقرب من عامين انتهيا بموت المطهر فى مدينة ثلا فى سنة ١٥٧٣ (٩٨٠ هـ) · وقد أتاح موت المطهر للعثمانيين مزيدا من السيطرة وبسط النفوذ ، حتى تمكن الوالى العثمانى حسن باشا الذى أعقب بهرام باشا من الاستيلاء على ثلا ، ومدع ، وعفار ، ذى مرمر ، والشرفين الأعلى والأسفل وصعدة مركز الامامة الزيدية ، فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت (٧) · واستطاع حسن باشا أن يأسر الامام الحسن بن داود الذى استحوذ على الامامة بعد وفاة المطهر ، وأمر بنفيه مع عدد من أعيان البلاد الى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية فى سنة ١٥٨٦ (٩٩٤ هـ) · على أن

---

(١) العرشى : المصدر السابق ، ص ٦١ ·

(٢) Kammerer : Op. cit., vol. II, p. 139.

(٣) عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ج ١ ق ١ ، ص ٢٠٥ (ب) ـ ٢١٢ (ب) ·

(٤) أحمد شرف الدين : المصدر السابق ، ص ٢٦٤ ·
عبد الصمد الموزعى : المصدر السابق ، ص ١٦ ·

(٥) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 98.

(٦) عبد الله بن داعر : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٢١٣ (ب) ·

(٧) نور الدين بن لطف الله : المصدر السابق ، ص ٥٩ ·

القتال استؤنف من جديد بتولى الامامة المنصور القاسم بن محمد الذى حارب الوالى العثمانى فى عدة مواقع (١) ، ولكن الوالى العثمانى تمكن من محاصرة الامام المنصور فى شهارة ، وأسر ابنه محمدا وعددا من أقاربه وسجنهم فى حصن كوكبان (٢) ٠

ولا يعنى هذا أن الحكم العثمانى الأول فى اليمن كان كله بلاء عليها ، بل كان بين الولاة العثمانيين من ظفروا بثناء الشعب اليمنى وتقديره ٠ ومثال هؤلاء الوالى العثمانى محمـد باشا الذى حكم اليمن فى سنة ١٦١٧ (١٠٢٦ هـ) الذى اتصف بمقدرته الادارية وتقديره الصائب للأمور والعمل لما فيه خـير البلاد (٣) ٠ وكان من مساعيه الموفقة ذلك الصلح الذى تم بين الدولة العثمانية والامام المنصور القاسم بن محمد (٤) ، الذى لم يدم أكثر من عام واحد نشبت فى أعقـابه الحرب من جديد ، وانتصرت قوات القاسـم بقيادة ولديه الحسن والحسين على العثمانيين وسيطرت على معظم الجهات الشمالية فى اليمن (٥) ومهما قيل عن أهداف محمد باشا من هذا الصلح كاخفاء الفشل العسكرى الذى منيت به القوات العثمانية أمام مقاومة اليمنيين ، فان هذا الوالى العثمانى قد أحل الطرق الدبلوماسية السلمية محل القتال والحرب ، واستطاع أن يقنع الباب العالى بضرورة ابرام الصلح مع الامام القاسم ٠ بل ان الدولة العثمانية بموجب هـذا الصلح أقرت الامام على ما تحت يده من البـلاد اليمنية لمدة عشر سنوات مقابل اعترافه بسيادتها فى بلاده ، كما اتفق الجانبان على وقف القتال ، ومنع تدخل الجنود العثمانيين فى المنطقة الشمالية التى كان يحكمها الامام ٠ وكان العرشى ــ وهو مؤرخ يمنى زيدى ــ منصفا عندما ذكر أن محمد باشا هذا كان « ممن أحسن الرياسة ، وأدرك السياسة ، وعامل بالعدل الرعية ، وتفقد أحـوال المتمسكين بالسلطنة العثمانية » ٠ بل انه قال أيضـا عن هذا الوالى العثمانى أنه « كان ألين من وطىء اليمن قدمه » (٦) ٠

على أن العثمانيين من جانبهم حاولوا انتهـاز فرصـة عقد الصلح لدعم نفوذهم فى زبيد وعدن (٧) غير أن نيران الحرب كانت لا تلبث أن تشتعل من

(١) العرشى : المصدر السابق ، ص ٦٥ ٠
(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٨٠ ٠
(٣) قطب الدين الحنفى : المصدر السابق ، ص ٤٣٩ ٠
عبد الصمد الموزعى : المصدر السابق ، ص ٥٥ ٠
(٤) الجرافى : المصدر السابق ص ٩٣ ٠
عيسى بن لطف الله : المصدر السابق ، ص ٧٨ ٠
(٥) أحمد شرف الدين : المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ٠
(٦) العرشى : المصدر السابق ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ٠
(٧) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 99

جديد بين العثمانيين واليمنيين الذين يحرضهم الامام المؤيد محمد بن القاسم بعد أن استحوذ على الامامة اثر وفاة والده • وقد استولى المؤيد هذا على معظم البلاد اليمنية ، ولم تستطع القوات العثمانية التى وصلت من مصر الى اليمن عن طريق الحجاز وقوامها عشرة آلاف جندى ، أن تهيىء للحكم العثمانى أى دعم أو استقرار (١) • بل ان المؤيد تمكن من السيطرة على جميع مدن تهامة عدا زبيد ، ومخا ، وموزع ، حيث كانت ترابط فلول القوات العثمانية • كما أن قائد القوات العثمانية الذى جاء من مصر وكان يدعى قاتصوه هرب من معسكره فى زبيد ولجأ الى الجيش الامامى ، فأكرمه المؤيد وساعده على العودة الى مصر عبر الحجاز (٢) •

وأخيرا وجد العثمانيون أنفسهم فى اليمن يواجهون تيارا عنيفا من التذمر والعداء والثورات المستمرة والمقاومة العنيفة الضارية التى كان يشترك فيها مع الزيديين فى الجبال اخوانهم الشافعيون فى تهامة على الرغم من اتفاقهم المذهبى مع العثمانيين (٣) • وكانت القوات العثمانية تتكبد بصفة دائمة خسائر فادحة فى الأموال والأرواح مما جعل العثمانيين يفكرون فى الجلاء عن اليمن تخلصا من هذا الحلم المزعج الذى عاشوا فيه قرابة قرن من الزمان (٤) • وأصبح الأمـر منطقيا لديهم وبخاصة عنـدما ضعفت سيطرتهم على مصر فى منتصف القـرن السابع عشر على التقريب ، كمـا ضعف نفوذهم فى البحـار الشرقية ، وقلت أهمية البحر الأحمر بزيادة الاقبال على طريق رأس الرجـاء الصـالح (٥) • ولا شك أن وقوع اليمن فى أقصى جنـوب البلاد العربية بعيدة عن عاصمة السلطنة العثمانية بما يقرب من ألفى ميل (٦) ، وصعوبة توصيل الامدادات اليها ، والتكاليف الباهظة التى كانت تتحملها الدولة نتيجة لما كانت تنفقه على جنودها للابقاء على ولائهم ، بينما كانوا يعتبرون اليمن منفى لهم ، والبقاء فيه من أقسى التبعات ، كان كل ذلك يدعم فكرة الجـلاء عن اليمن لدى العثمانيين فى ذلك الوقت الذى هدأت فيه المنافسة البرتغالية ، وخبا فيه نجم الدولة الصفوية ، وبلغت فيه مرحلة التوسع العثمانى التاريخى غايتها بقـدر ما كانت تسمح به الامكانات العثمانية • وهكذا كان جلاء العثمانيين عن اليمن الذى تم فى سنة ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) فى عهد السلطان العثمانى مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠) ، استجابة طبيعية لما فرضته المقاومة العنيفة التى قام بها

---

(١) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٣ •
(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣١٥ ـ ٣١٦ •
(٣) أحمد فخرى (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ •
(٤) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 25.
(٥) Scott, H. : Op. cit., p. 227.
(٦) Bury, G.W. : Op. cit., p. 13.

الشعب اليمنى ضد العثمانيين ، وللظروف التى تعرضت لها الدولة العثمانية ذاتها وانتهاء مرحلة توسعها التاريخى ، وللموقف الدولى وما اعتراه من تطورات جديدة فى ذلك الحين ٠

وقد تمت أحداث جلاء العثمانيين عن اليمن فى منتصف الأربعينات من القرن السابع عشر اثر المقاومة العنيفة التى قامت بها قوات الامام المؤيد محمد بن القاسم ضدهم مما هددهم بأسوأ العواقب ٠ ولم تمض فترة طويلة حتى وصلت قواته فى سنة ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) الى أبواب صنعاء ، وأخذت فى محاصرة القوات العثمانية ، بقيادة أخيه الحسن ٠ وعند ذلك أمر القائد العثمانى بفتح أبواب صنعاء ، والتحم الجانبان فى معركة « الصافية » وهى من أشهر المعارك التى دارت بين اليمنيين والعثمانيين فى أثناء فترة الحكم العثمانى الأول ٠ وقد قتل فى تلك المعركة عدد كبير من الأتراك ، بينما استسلم الباقون لقوات المؤيد التى سيطرت على جميع المدن اليمنية التى كانت فى قبضة العثمانيين بما فيها زبيد ، ثم جزيرة كمران ، وجزائر فرسان ٠ وقد تم ترحيل العثمانيين جميعا من اليمن الى بلادهم فى نهاية عام ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) (١) ٠

وتجدر الاشارة الى أن بلاد اليمن فى أثناء خضوعها للحكم العثمانى الأول (١٥٣٨ ــ ١٦٣٥) كانت تمثل احدى الايالات الأربع عشرة التى كانت تتألف منها البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية بينما بلغ مجموع الايالات التى قسمت اليها الدولة اثنتين وثلاثين ايالة ٠ وكانت ايالة اليمن تضم تسعة ألوية هى : صنعاء ، مخا ، زبيد ، تعز ، صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، عدن ٠ وكانت بلاد اليمن فى تلك الفترة تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيديين فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة للاضطرابات المستمرة والثورات الدائمة وحركات المقاومة العنيفة التى كانت تواجههم ، وفى الوقت نفسه كانت البلاد « يضبطها الأئمة ــ تغلبا ــ من وقت الى آخر » (٢) ٠ وقد ترتب على استمرار الفوضى وعدم الاستقرار عدم تمكن الترك من فرض النظام الاقطاعى على اليمن على الرغم من أنهم فرضوه على كل بلاد الامبراطورية العثمانية (٣) ٠

وجدير بالذكر ــ قبل أن نسدل الستار على أهم أحداث الحكم العثمانى الأول فى اليمن ــ أن العثمانيين حرصوا على حماية الثغور اليمنية فى تلك الفترة من عدوان البحرية البرتغالية ، وتأمين الأماكن الاسلامية المقدسة من التهديد

---

(١) أحمد شرف الدين : المصدر السابق ، ص ٢٦٥ ٠
(٢) الحصرى : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ ــ ٢٣٩ ٠
(٣) محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ٠

الصليبى ، كما أنهم وقفوا فى وجه محاولات التدخل الأوروبى الأخرى فى بلاد اليمن وغيرها من بلدان الجزيرة العربية حينذاك • ولا أدل على ذلك من المحاولة التى قامت بها شركة الهند الشرقية البريطانية عندما أرسلت الى عدن لحسابها فى سنة ١٦٠٩ (١٠١٨ هـ) السفينة البريطـــانية أسنشن «Ascension» يقودها شاربى «Sharpey» البريطانى • غير أن العثمانيين اعتقلوه وصادروا حمولة سفينته ، ثم أطلقوا سراحه ، ورحلوه الى مخا التى كانت حينذاك الميناء الحيوى لليمن • وقد أخفقت بذلك أولى المحاولات التى قام بها الانجليز للوصول الى اليمن والتدخل فى شئونها ، غير أن تلك الشركة أعادت محاولتها فى السنة التالية فأرســلت ثلاث ســفن بريطــانية الى عــدن بقيادة السير هنرى ميدلتون «Sir Henry Middleton» (١) • وقد رحب العثمانيون بهنرى هذا فى بادىء الأمر ، ثم غدروا به وقتلوا ثمانية من رجاله وساقوه أسيرا الى صنعاء وبرفقته جماعة من أصحابه ، كما أن العثمانيين هاجموا سفينة بريطانية بقوة قوامها ثلاثمائة وخمسون مقاتلا عثمانيا ، فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها على الرغم من حدوث مذبحة عظيمة • وقد أطلق العثمانيون سراح هنرى ومرافقيه فيما بعد ، غير أنهم أنذروهم بألا يعودوا على الاطلاق الى الجزيرة العربية (٢) • تلك كانت سياسة العثمانيين فى ذلك الوقت ازاء محاولات التدخل الأوروبى فى اليمن حينما كانت دولتهم قوية مهابة قادرة على حماية البــلاد التابعة لها والخاضعة لسيادتها • غير أن هذه السياسة العثمانية تغيرت فيما بعد نتيجة لعوامل الانهيار التى اعترت الدولة العثمانية عاما بعد عام ، حتى أصبحت أضعف من أن تحمى حدودها الأصلية •

ثانيا : جنود مصر فى عهــد محمــد على تحت اللواء العثمانى فى اليمن فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

عرضنا فيما سبق المرحلة الأولى من مراحل العلاقات العثمانية اليمنية التى تمثلت فى الحكم العثمانى الأول لليمن فى الفترة الممتدة بين عامى ١٥٣٨ ــ ١٦٣٥ (٩٤٥ ــ ١٠٤٥ هـ) • وسوف نستعرض فيما يلى مرحلة تالية من مراحل العلاقات العثمانية اليمنية كان يمثل الدولة العثمانية فيها جنود أرسلهم والى مصر محمد على باشا فى العشرينات من القرن التاسع عشر (*) بنــاء على تكليف من الباب العالى للقضــاء على الوهابيين الذين هددوا أمن الدولة فى

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 25.

(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٠١ •

(*) لم تلحق العناصر المصرية الخالصة بجيش محمد على باشا الا فى أوائل الثــلاثينات من القرن التاسع عشر ، وقبل ذلك كان معظم جنوده من الترك والألبانيين ولهذا فلا يمكننا أن نطلق عليهم صفة المصريين قبل ذلك الحين •

الجزيرة العربية · وفى أثناء قيام هؤلاء الجنود بتلك المهمة اقتضت الضرورة الحربية أن يتتبعوا فلول الوهابيين فى بلاد اليمن ، وبخاصة فى شمالها وفى منطقة سهولها الساحلية التى تعرف بتهامة · وهكذا وصل جنــود مصر الى اليمن فى أواسط العشرينات من القرن التاسع عشر وقضوا على الوهابيين هناك، ثم أقام المصريون بعد ذلك ادارة منظمة فى أواخر الأربعينات من القرن المذكور ، انتهى عهدها عندما إقتضت الظروف الدولية أن يرحلوا عن اليمن · فترتب على ذلك تعرضها من جديد لتسلط العثمانيين أنفسهم · غير أن بلاد اليمن فى تلك المرحلة الجديدة كانت أسلس قيادا فى يد العثمانيين عن ذى قبل بعد أن لمستها يد الادارة المصرية بالاصلاح والتنظيم فى أثناء وجود المصريين فيها على النحو الذى سنوضحه فيما يلى ·

وبعد زوال الحــكم العثمانى الأول عن اليمن فى أواخر عــام ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) تمتعت البلاد اليمنية باستقلالها الذاتى لمدة قرنين من الزمان تحت حكم الأئمة الزيديين الذين امتد نفوذهم فى عهد الامام المتوكل على الله : اسماعيل بن القاسم فى سنة ١٦٤٤ (١٠٥٤ هـ) فشمل لحج ، وعدن ، وبلاد البيضا ، ويافع ، وحضرموت ، ومعظم تهامة ، والمخلاف السليمانى (١) · وكان عهد هذا الامام بالذات أزهر عهد للامامة الزيدية فى اليمن (٢) ، فقد « كثرت فى أيامه الخيرات ، وترادفت البركات وتنافس الناس فى العلم والعمل ، فكان العلماء فى زمانه عددا كثيرا لم يقع فى أيام غيره » (٣) ·

غير أن حــكم أئمــة صنعاء اعتراه الضعف والانهيار نتيجة التنافس على الامامة وعدم الإستقرار الكامن فى نظام الحــكم ذاته ، مما كان يشجع الحكام المحليين فى أرجاء اليمن على الانفصال والاستقلال · فانفصلت حضرموت (٤) ، وأعلن شيخ قبيلة العبادل نفسه مستقلا فى لحج فى سنة ١٧٢٨ (١١٤١ هـ) كمــا سيطر على عدن بعــد أن تحالف مع جاره سلطان يافع فى ســنة ١٧٣٥ (١١٤٨ هـ) واتفقا على أن يتبادلا معا خراج عدن بالمناوبة (٥) · أما القسم الشمالى من اليمن فكان الأئمة الزيديون قد أسندوا حكمه لآل خيرات الذين قسموه فيما بينهم الى قطاعات منفصلة ، ثم استقلوا عن الأئمة وانصرفوا الى مصالحهم الشخصية عن مصــالح رعاياهم ، فقاسى اليمنيون من جراء ذلك أشد

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ، ص ٣٨٣ ·
(٢) أحمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ــ ١٥٥ ·
(٣) العرشى : المصدر السابق ، ص ٦٧ ·
(٤) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٤ ·
(٥) العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٢٤ ــ ١٢٧ ·

المتاعب والأهوال (١) ، ولم تنعم بلادهم بالوحدة السياسية ٠

على أن بلاد اليمن فى ذلك الوقت شاهدت نشاطا تجاريا كبيرا ساعد على تهيئة انسحاب الأسطول العثمانى من البحار الشرقية ، فلم يعد فى امكان العثمانيين أن يطبقوا سياسة اغلاق البحر الأحمر فى وجه التجارة الأوروبية ، فأخذت هذه التجارة تتدفق الى ميناء مخا اليمنى حتى أطلق اسمها على البن اليمنى الذى كان يصدر منها الى أسواق العالم المتحضر حينذاك ٠ وقد أشار الرحالة الدانمركى نيبور (Neibuhr) الذى زار اليمن فى سنة ١٧٦٣ الى سياسة التسامح التى كانت تتبعها اليمن مع العناصر غير الاسلامية حينذاك مما أدى الى تنشيط حركة التجارة بين اليمنيين والأجانب (٢) ٠

وعلى الرغم من جلاء العثمانيين عن اليمن بعد الحكم العثمانى الأول (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) فقد ظلوا متمسكين من الناحية النظرية بأنهم أصحاب الحق فى البلاد اليمنية وكانوا يكررون دعواهم كلما استدعى الأمر ذلك (٣) ٠ حتى قامت دعوة محمد بن عبد الوهاب فى نجد واستطاع أن يستعين بقوة أمير الدرعية محمد بن سعود لنشر مبادئه بين قبائل الجزيرة العربية حتى رأى بشائر نجاحه قبل موته فى سنة ١٧٩٢ (١٢٠٦ هـ) (٤) ، ثم تمكن الوهابيون بعد ذلك من الاستيلاء على الحجاز فى فترة قصيرة ٠ وكان العثمانيون منذ سيطرتهم على الحجاز فى القرن السادس عشر قد اتخذوا من جدة قاعدة لحكم هذا القطر العربى ، وأطلقوا عليه اسم « ولاية الحبش » كما أقاموا واليا عثمانيا فى جدة كان يخضع لسلطته شريف مكة ٠ واستمر الحجاز خاضعا لحكم العثمانيين حتى استولى عليه الوهابيون فى أوائل القرن التاسع عشر ٠

عند ذلك رأى السلطان العثمانى سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) أن حركة الوهابيين حركة انفصالية خطيرة ينبغى القضاء عليها ، اذ أنهم أعلنوا سخطهم على كل الطوائف الاسلامية الحضرية التى استسلمت للترف والرخاء ، وأخذوا يصارحون الدولة العثمانية بالعداء والتحدى (٥) ٠ واستطاع سعود الثانى أن يفتح مكة فى سنة ١٨٠٣ (١٢١٨ هـ) وأن يدخل « المدينة » بعدها بعامين (٦) ٠ وكتب سعود الى السلطان العثمانى ينبئه بهذا الفتح ويخبره أنه

---

(١) Scott, H. : Op. cit., p. 228 : Jacob H. F. : Op. cit., p. 23.

(٢) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٩١٤) ، ص ٢٢٤

(٣) أحمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ٠

(٤) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ٣٣٨ ٠

(٥) Sanger, R. H. : Op. cit., p. 27.

(٦) Longrigg, S. H. : Four Centuries of Modern Iraq, p. 25.

هدم القباب التى فوق القبور ، ويطلب اليه منع مجئ المحمل من دمشق أو القاهرة « فان ذلك ليس من الدين فى شئ » (١) . كما أعد سعود حملات لم تلبث أن أغارت على العراق ، وعلى حـدود الشام (٢) ، وتقدمت تجاه اليمن فاستولت على عسـير فى شمالها ، وجعلتها قاعدة لنشر الدعوة الوهابية . وقد ذكر المؤرخ اليمنى الواسعى فى حولياته أن « من نجد قامت الفتنة وعظمت المحنة بقيام عبد العزيز وولده سعود ، واستولى على الحرمين والعراق ، فخرجوا على تهامة وغلبوا الأشراف ، وخرجت القبائل عن الطاعة للامام المنصور ، وكثر منهم النهب والقتل وقطع الطرق ، وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة ، وكاد يهلك أهل صنعاء ، وبلغ الطعام من الغلاء مبلغا عظيما » (٣) . وقد استنجد امام اليمن فى ذلك الوقت المتوكل على الله أحمد بالسلطان العثمانى من جهة ، وبوالى مصر القوى محمد على من جهة أخرى لصد الزحف الوهابى عن بلاده ، وقد أرسل اليه كل منهما هدايا قيمة ووعداه بالمساعدة (٤) .

ولا شك أن الدولة العثمانية فزعت من هذا التوسع الوهابى وخشيت أن يعيد تاريخ الفتح العربى نفسه (٥) . وأحست الدولة بحاجتها الماسة الى تغيير سياساتها السلبية ازاء الولايات التابعة لها اذا كانت تريد البقاء لامبراطوريتها . ورأى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) أن يعيد الأمن والاستقرار فى الحجاز واليمن ، ويقضى على الحركة الوهابية التى كادت تودى بتمامية الدولة . وعلى الرغم من أن بلاد العرب لم تكن من المنـاطق الغنية التى تحرص الدولة العثمانية على المحافظة عليها ، فان بقاءها فى يد الخليفة العثمانى كان أمرا لابد منه حتى تتم المظاهر الشكلية لخلافته ، وحتى لا يقع الشك فى مقدرته على حماية « الحرمين الشريفين » الأمر الذى كان يجعل لدولته المقام الممتاز بين الممالك الاسلامية (٦) .

غير أن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كانت تقاسى الأمرين من اختلال نظـام الانكشارية الذى كان مصـدر قوة الدولة ودعامتها فى أعقاب توسعها ، ولكن هذا النظام فقد تدريجيا كل مزاياه ، وتحول فى نهاية الأمر الى معول هدم فى شئون الحرب والادارة على السواء ، وصارت الحروب التى تخوض غمارها

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، ج ٢ عصر محمد على ، ص ١٢١ .

(٢) Playfair, R. L. : A History of Arabia Felix or Yemen, p: 127:

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٤) أحمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥٩

(٥) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 103.

(٦) حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ص ١٩٢ .

الدولة كثيرا ما تنتهي بهزائم شنيعة (١) . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى اختلاف نظام الحكم من جميع الوجوه ، وبخاصة فى الأقطار العثمانية البعيدة عن عاصمة الدولة . ولم يجد السلطان تحت يده القوة اللازمة للقضاء على الوهابيين مما اضطره أن يلجأ الى والى مصر محمد على ، وكلفه بالقيام بهذه المهمة فى سنة ١٨٠٧ ، ثم جدد طلبه فى السنتين التاليتين (٢) . وكان محمد على يتعلل باشتغاله بمحاربة المماليك حتى انتهى من حملته عليهم بالوجه القبلى ، وعاد الى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ ، حيث ألفى رسولا من الأستانة يحمل أوامر السلطان بتجريد حملة لمحاربة الوهابيين ، فلم يجد محمد على لديه من الأعذار ما يبرر به التأجيل فبادر الى الاستجابة (٣) . وقد رأى محمد على حينذاك انه اذا نجح حيث أخفقت الدولة فى القضاء على الوهابيين واستخلاص الأراضى المقدسة منهم والاسراع الى نجدة امام اليمن ومحاربة فلول الوهابيين فى بلاده ، فان ذلك سيؤدى حتما الى توطيد مركزه أمام السلطان ويسمو بمكانته لدى الشعوب الاسلامية . وكانت فكرة استقلاله عن الدولة قد بدأت تملك عليه مشاعره منذ ذلك العهد ، ولا شك أن نجاحه فى تلك المهمة سيكسبه عطف الشرق والعالم الاسلامى ويمهد له السبيل لتحقيق طموحه وآماله ، مما شجعه على تلبية مطلب الباب العالى .

وهكذا كانت جزيرة العرب هى أول ميدان لحروب مصر الخارجية فى عهد محمد على . وقد وصل اليها جنوده وهم يحملون الراية العثمانية ، وبدءوا يحاربون الوهابيين فى الحجاز ويتتبعون فلولهم فى اليمن ، بصفتهم عثمانيين يدافعون عن دولة الخلافة الاسلامية . وكانت تلك الحرب من أشق الحروب التى خاضها جنود مصر فى عهد محمد على ، وأطولها مدى ، وأكثرها ضحايا فى الأرواح والأموال (٤) . ومن الصعاب التى واجهوها قطع المراحل البعيدة المترامية بين الفيافى والقفار ، الى جانب وعورة الطرق ، وشدة القيظ ، وقلة المئونة ، وندرة المياه وفقدانها فى معظم الجهات ، هذا فضلا على المقاومة الضارية التى واجهوها من الوهابيين وأعوانهم الذين بذلوا النفس والنفيس دفاعا عن دعوتهم .

وقد استطاعت مصر بعد جهود كبيرة أن تسيطر على الحجاز فى الفترة الواقعة بين عامى ١٨١٢ — ١٨١٩ . وكان يقود جيوشها هناك طوسون ابن محمد على ، ثم محمد على نفسه الذى وصل اليها فى أغسطس سنة ١٨١٣

---

(١) الحصرى : المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 13.

(٣) الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١١٥ .

(٤) الرافعى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٦

على رأس حملة لمساندة قواته ، وعندما رأى محمد على أن أهالى عسير ومنطقة الساحل الشمالى اليمنى يناصرون الوهابيين ويناوشون وحدات جيشه فى الحجاز فقد وجه حملة الى شمالى اليمن تمكنت من الاستيلاء على ميناء قنفدة · وقد أمر محمد على بتحصين هذا الميناء توطئة للزحف الى داخل اليمن ، كما أبقى حامية هناك تتألف من ألف ومائتى جندى غير أن قائد الحامية فاته أن يحتل عين الماء التى تحصل منها المدينة على المياه اللازمة فاحتلها العربان وساندهم الوهابيون بقيادة طامى بن شعيب أمير عسير ، فلم تنجح محاولات جنود محمد على لاستعادتها · ولم يجد قائدهم وسيلة لانقاذ جنوده من الظمأ سوى اخلاء قنفدة والعودة الى جدة فنجا من الحامية من استطاع ركوب السفن بينما قتل الوهابيون عددا كبيرا ممن أدركوهم (١) ·

على أن عزيمة محمد على لم تنثن أمام مقاومة الوهابيين فأرسل امدادات جديدة الى قواته فى جزيرة العرب قوامها سبعة آلاف من الجنود ومبالغ طائلة من الأموال ، وتحمل المصريون فى سبيل ذلك تضحيات جسيمة · وقد تقدمت من الحجاز احدى قوات محمد على بقيادة عابدين بك لاحتلال وادى زهران الذى يفصل اليمن عن الحجاز · غير أن الوهابيين هاجموها واضطروها الى الانسحاب كما تعقبوها الى داخل الحجاز وحاصروها فى الطائف ، ولكن محمد على نجح فى أن يخدع الوهابيين بذكائه فأوهمهم بقدومه الى الطائف على رأس قوة كبيرة ، مما اضطرهم الى الانسحاب ورفع الحصار عن المدينة خوفا من مواجهته ·

وفى ذلك الوقت قدم الى حسن باشا نائب محمد على فى الحجاز أميران يمنيان هما : على بن حيدر ومنصور بن ناصر يشكوان عمهما حمود وريث آل خيرات فى المخلاف السليمانى (٢) الواقع فى شمال اليمن الذين كانوا يدينون بالولاء لأئمة صنعاء · وكان حمود قد سجن ابن أخيه يحيى بن حيدر ظلما ، كما كان يمالىء الوهابيين الذين يسيطرون على شمالى اليمن · وقد طلب الأميران اليمنيان من حسن باشا أن يمدهما بقوة تمكنهما من الاستيلاء على اليمن باسم الدولة العثمانية والتخلص من استبداد حمود · وهكذا صاحب الأميران احدى قوات محمد على التى توجهت الى عسير بقيادة سنان باشا كما رافق أحدهما وهو على بن حيدر القوة الأخرى التى توجهت الى تهامة بقيادة خليل

---

(١) الرافعى : المصدر نفسه ، ص ١٣٢ ·

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٢ · ذكر الواسعى أن المخلاف يشتمل على مدن وقرى يوجد فيه أودية وسهول وجبال وان اليمن كان ينقسم عند العرب الأقدمين الى ٤٨ مخلافا ·

باشا (١) · وكانت هاتان الحملتان تمثلان البداية الفعلية لوصول قوات محمد على باشا الى اليمن لدعم السيادة العثمانية ·

وعندما انتصر جنود محمد على باشا على الوهابيين فى موقعة بسل بين الطائف وتربة فى سنة ١٨١٥ انسحب الوهابيون الى عسير فى شمال اليمن · وحاول القـائد الوهابى طامى بن شعيب أن يلجأ الى الشريف حمـود حاكم المخلاف السليمانى · غير أن أنباء الهزيمة شجعت حمود على التنكر للوهابيين فطردهم من قلعة صبيا وأسر قائدهم طامى بن شعيب (٢) · كما رأى حمود من مصلحته أن يقيم علاقات ودية مع محمد على خاصة بعد أن علم بانتصاراته على الوهابيين ، ولهذا سلم القائد الوهابى الأسير لديه الى رجال محمد على دون أدنى مساومة ، فأرسل طامى الى مصر ورحل منها الى الآستانة حيث طوف به فى شوارعها ، ثم أمر السلطان العثمانى باعدامه · كما أهدى حمود الى محمد على أربعة رءوس من كرائم الخيل مصحوبة برسالة تظهر له المودة والصداقة · وقد استحسن محمد على الهدية وبعث برسالة الى حمود حثه فيها على رعاية شعبه فى المخلاف السليمانى حتى يعزز مطلبه لدى الباب العالى « مالك الزمام ومرجع الأمور » بابقاء حمود على امارته على أن يعاد اليه كل ما انتزعه الوهابيون من أملاكه · غير ان حمـود تنكر لمحمـد على كما فعل من قبل مع الوهابيين واستجاب لنداء أشراف عسير الذين اتخذوا موقفا معاديا من قوات محمد على باشا المعسكرة هناك · ولهذا قام حمود بمهاجمتهم فى عسير وألحق الهزيمة بقائدهم جمعة باشا · غير أن قوات محمد على عاودت هجومها على عسير بقيادة سنان باشا ، ولكن النصر كان حليف حمود فى تلك المرة أيضا ، فتراجع جنود محمد على عن عسير وقتل قائدهم سنان باشا فى أثناء الانسحاب (٣) ·

وفى تلك الفترة كانت هناك مفاوضات للصلح بين محمد على والوهابيين انتهت بالاخفاق نتيجة لتمسك كلا الجانبين بمطالبه · وقد أرسل محمد على فى أعقاب اخفاق المفاوضات ابنه ابراهيم باشا على رأس حملة أخرى الى الحجاز فى سنة ١٨١٦ · وقد تمكنت تلك الحملة على الرغم من الصعوبات التى واجهتها من التغلب على الوهابيين حتى اقتحمت عاصمتهم الدرعية بعد حصار دام ستة أشهر وانتهى فى سبتمبر سنة ١٨١٨ · وقد سلمت مدن نجد لقوات محمد على بعد فتح الدرعية ، وأرسل الزعيم الوهابى عبد الله بن سعود الى مصر أسيرا ، ثم رحل منها الى الآستانة حيث أمر السلطان العثمانى باعدامه (٤) · وقد حول

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١٨ ·

(٢) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 106.

(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٢٠ — ٥٢٤ ·

(٤) الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ٩ ، ص ١٤٢ — ١٥٥ ·

جيش محمد على عملياته الحربية من الميدان النجدى الى اليمن بعد السيطرة على الدرعية (١) ٠ وتحركت قواته بقيادة خليل باشا لتقضى على فلول الوهابيين فى شمال اليمن ٠ وكان أحمد بن حمود قد خلف أباه فى حكم عسير والمخلاف السليمانى وتهامة فاستعد وزيره لملاقاة قوات محمد على من ناحية عسير ، غير انهم عدلوا عن طريق عسير وتقدموا فى حركة خاطفة تجاه مدينة أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى ، مما اضطر أحمد بن حمود أن يسرع فى التحرك الى هناك ٠ وكان يدور فى خلد ابن حمود أن مقصد خليل باشا هو فرض السيادة العثمانية على اليمن مع الابقاء عليه أميرا فى بلاده ، لهذا تهاون فى أمر المقاومة والدفاع ، واطمأن الى أن قواته من رجال قبائل همدان وغيرهم من المرتزقة سوف يستطيع أن يقاوم بهم جنود محمد على للحصول على صلح يحقق أغراضه، ولكن جيش محمد على بعد أن سيطر على صبيا واستولى على قلعتها ، طلب قائده من ابن حمود أن يحضر الى معسكره للتفاهم معه ٠ وقد قدم ابن حمود الى معسكر خليل باشا معلنا طاعته وولاءه ، فأمر خليل باشا بالعودة الى أبى عريش رفق مأمور يتولى ادارتها من قبله ، كما طلب من ابن حمود أن يكتب الى جميع عماله وحامياته فى أرجاء البلاد بالتسليم ، فصارت البلاد الواقعة من أبى عريش شمالا الى زبيد فى الجنوب تحت امرة خليل باشا (٢) ٠

وهنا تجد الاشارة الى أنه بعد أن استقرت الأمور فى يد خليل باشا قائد قوات محمد على فى بلاد اليمن ، فانه قد بعث رسولا من قبله الى امام صنعاء الزيدى ومعه رسالة من محمد على تشير الى أن قواته جاءت الى اليمن لانتزاع البلاد من ورثة الشريف حمود ، باعتبارهم من أتباع الوهابيين ، واعادتها الى الامام ٠ وطلب خليل باشا من امام صنعاء أن يوفد مندوبين من قبله للتفاوض معهم فى أمر اعادة البلاد اليه ، وتمت المفاوضة بالاتفاق على أن يدفع الامام الزيدى مبلغا من الخراج سنويا الى الباب العالى ٠ وبذلك أعادت قوات محمد على تبعية امام صنعاء للسيادة العثمانية اذ كان الأئمة الزيديون قد خرجوا عن طاعة الدولة العثمانية منذ نهاية الفتح العثمانى الأول لبلادهم فى سنة ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) ولم يكن للخليفة العثمانى سلطان عليهم ، فكان تعهد الامام لقائد قوات محمد على فى اليمن بأن يدفع للباب العالى سنويا جزءا من الخراج اعترافا من أئمة صنعاء بعودتهم الى حظيرة الدولة العثمانية منذ ذلك الحين (٣) ٠

---

(١) Sanger, R.H. : Op. cit., p. 28.

(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٤٣ ٠

(٣) حسين مؤنس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٩٦ ٠

وقد قام امام صنعاء بارسال عماله لتسلم البلاد اليمنية التى سيطر عليها جيش محمد على باشا ، وذلك باستثناء أبى عريش التى اتفق الامام مع قائد هذا الجيش على أن يكون تسليمها لعلى بن حيدر ، المنافس الأول للشريف حمود ولابنه أحمد من بعده ٠ وكان أحمد هذا قد وقع أسيرا فى قبضة هذا القائد الذى أرسله الى مصر حيث توفى فيها ، بينما عاد خليل باشا الى الحجاز بعد أن سلم ما فتحه من البلاد اليمنية للامام الزيدى (١) ، وانتهت بذلك مهمته فى بلاد اليمن ٠

غير أنه فى أثناء الفترة التى بقيت فيهـا القوات المصرية فى الحجاز فى اعقاب عودة جنود محمد على باشا من اليمن ، نشبت عدة ثورات وفتن احتملت مصر فى سبيل اخمادها متاعب هائلة ونفقات طائلة ٠ وكان من بينها تلك الفتنة التى نشبت فى جدة وكان قوامها بعض الضباط من العناصر غير النظامية فى الجيش المصرى العثمـانى معظمهم من الأرناءوط والترك بقيـادة « زنار أغا » و « تركى بيلمز » مطالبين برواتبهم المتأخرة ٠ وقد توسط شريف مكة بين والى الحجاز خورشيد بك وبين المتمردين غير أنهم أسروا الوالى فى جدة ونصـبوا « تركى بيلمز » واليا على الحجاز ، كما انضم أهالى مكة وبخاصة أتباع الوهابيين الى صفوف المتمردين نكاية بالمصـريين ٠ وقد حـدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه الحرب السورية الأولى مستمرة بين محمد على والدولة العثمانية ، فأرسل الباب العالى فرمانا الى « تركى بيلمز » يقره واليا على الحجاز نكاية بمحمد على ، الذى خرج عن طاعته فى سنة ١٨٣٢ (٢) ٠

لم يرض محمد على بطبيعة الحال عن قيام تلك الفتنة ولم يعترف بفرمان السلطان ، بل انه أراد أن يوطد نفوذ حكومته فى الحجاز واليمن ، لما للحرمين الشريفين من الأهميـة الدينية والسياسية ، ولأن ثغور الحجاز واليمن كانت بمثابة العقد الوثيقة فى خيط الاتصال بين مصر ومتاجر الهند ٠ لهذا أرسل محمد على حملة مصرية بقيادة أحمد باشا يكن الى ينبع قوامها أربعة آلاف مقاتل، وسارت منها الى جدة فاحتلتها بعد أن انسحب منها تركى بيلمز الى قنفدة التى كانت تعسكر فيها حامية مصرية ٠ فلما استعصى على تركى بيلمز فتح قنفدة ، استمر فى انسحابه الى الحديدة ، ثم استقر فى مخا ، ولم يقو امام صنعاء على مقاومته ٠ وأخيرا عهد محمد على الى أحمد يكن باشا والى الحجاز بمطاردة تركى بيلمز ، فسار اليه على رأس قوة قوامها خمسة عشر ألف مقاتل ، وكان ذلك فى سنة ١٨٣٣ ٠ وقد اشترك حاكم عسير مع الجيش المصرى فى محاصرة مخا التى

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ص ٥٤٥ ٠

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 13.

سقطت فى أيديهم ، وهرب تركى بيلمز والتجأ الى احدى السفن البريطانية . وبذلك انتهت الفتنة التى أشعلها فى الحجاز واليمن (١) ·

على أن فكرة اقامة امبراطورية فى البلاد العربية كانت قد تبلورت فى ذهن محمد على فى ذلك الوقت وبدأ يتخذ الاجراءات الكفيلة بتحقيقها ، فرأى أن يجتث جذور المتمردين فى الجزيرة العربية ويستولى فى الوقت نفسه على ما يمكنه من بلاد اليمن · وكانت الأمراض قد اجتاحت صفوف الجيش المصرى فى الجزيرة فأضعفتها ، كما كانت الحاميات العسكرية موزعة بين قنفدة والحديدة وبعض المدن اليمنية الأخرى مما أضعف قوة الوحدات المتحركة من الجيش . لهذا أرسل محمد على قوة جديدة الى اليمن كانت تضم ثلاثة آلايات من المشاة . وألفين من الفرسان ، يقودهم ابراهيم يكن باشا الذى عينه محمد على « سر عسكر اليمن » عندما توجه اليها فى سنة ١٨٣٦ ، وكان يسانده فى تحركه الشريف عون شريف مكة · وقد احتمل المصريون فى أثناء زحفهم الى عسير والمنطقة الممتدة على طول الساحل اليمنى حتى الحديدة ، مشقات هائلة نتيجة لوعورة الطرق وسوء المناخ وقلة الماء وفداحة المتاعب · وقد وقعت بينهم وبين رجال القبائل اليمنية ، وبخاصة تلك التى اندس بينها بعض دعاة الوهابية كثير من المصادمات والمناوشات التى ألحقت بالمصريين خسائر فادحة ، اضطرتهم الى التقهقر الى الحجاز بعض الوقت غير أن المصريين استجمعوا قواهم واستأنفوا زحفهم من جديد ، فاحتلوا معظم الثغور اليمنية ، وبعض المواقع الداخلية فى تهامة · وقد اتخذ القائد المصرى ابراهيم يكن باشا ميناء الحديدة مركزا لادارته ، وأصبح واليا لليمن من قبل محمد على (٢) ·

وقد أشار عبد الرحمن الرافعى الى أنه من الاحصاء الذى أورده كلوت بك فى كتابه (لمحة عامة الى مصر) فى سنة ١٨٣٩ عن الجيش المصرى فى عهد محمد على — وهذا الاحصاء أقرب الى الحقيقة لما كان لكلوت بك من مكانة فى الحكومة المصرية حينذاك — يمكننا أن نتبين أن الآلاى الثالث من المشاة المصريين وعدده ١٥٢٦ جنديا ، والآلاى العشرين من المشاة أيضا وعدده ٢٦٧٧ جنديا ، ثم الآلاى السابع والعشرين من المشاة كذلك وعدده ٢١٢٩ جنديا ، كانت جميعها تمثل جنود مصر النظامية فى اليمن ، وكان الآلاى الأخير بالذات يعسكر فى ميناء الحديدة مركز الادارة المصرية هناك ·

---

(١) الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٤١ ·

(٢) العقيل : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٤٩ ·

أما عن القوات غير النظامية فى الجيش المصرى فى اليمن فى عهد محمد على فقد كان بيانها كما يلى :

الفرسان : ٥ ضباط	، ١٩٧٠	عسكريا
المشـــاة : ٩ ضباط	، ٧٦٠	عسكريا
المدفعية : ــــ	، ٢٠٠	عسكرى
١٤ ضابطا	٢٩٣٠	عسكريا

هذا مع العلم بأن الاحصاء المتقـدم قد أوضح أن مجموع جنود الجيش البرى المصرى فى سنة ١٨٣٩ كان يبلغ ٢٣٥٫٨٠٠ جنديا (١) ، وهذا يساعدنا على معرفة ما بلغته القوة المصرية فى اليمن بالنسبة للقوة العامة للجيش المصرى . وكانت وحدات الجيش المصرى موزعة فى شتى أرجاء الامبراطورية التى أقامها محمد على ، وبخاصة فى ذلك الوقت العصيب الذى اصطدمت فيه القوات المصرية مع قوات الدولة العثمانية فى أثناء النزاع الذى نشب بين محمد على والباب العالى.

وهنا تجد الاشارة الى أن المصريين أقاموا ادارة منظمة فى اليمن أتاحت استقرارا نسبيا للبلاد لم تنعم به من قبل ذلك فى أثناء الفترة القصيرة التى عاشوها هناك ، كما أنهم اكتسبوا أصدقاء كثيرين من بين اليمنيين ظلوا على وفائهم للمصريين حتى بعد جلائهم عن اليمن . ولا أدل على ذلك من مطالبة أهالى الحديدة فى أوائل الثلاثينات من القرن العشرين بانضمامهم الى « الحكومة العربية المصرية » بعـد زوال الحـكم العثمانى عن اليمن فى أعقـاب الحرب العالمية الأولى (٢) .

وقد حاول امام صنعاء فى أثناء وجود المصريين فى اليمن أن يقوى العلاقة بينه وبين محمد على فأوفد رسولا من قبله هو السيد عبد الرب الى حاكم الحجاز المصرى أحمد يكن باشا ليسهل له السفر الى مصر لمقابلة محمد على والتفاهم معه . كما أن عـددا من الرسائل وردت الى محمـد على من حضرموت وغيرها يطالبه أصحابها بالانضمام الى الادارة التى أقامها ابراهيم يكن باشا فى اليمن . ومن أهم هذه الرسائل رسـالة حضرموت المحفوظة بدار المحفوظات بعابدين يطلب أصحابها من محمد على ارسال موظفين وجنودا لتنظيم أحوال حضرموت واعادة الأمن اليها ، وكان على رأس موقعى هذه العريضة على بن عمر بن سقاف ، وسالم ابن حماد باعبيد ومحسن بن علوى (٣) .

---

(١) الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٩ .
(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .
(٣) صلاح البكرى : فى جنوب الجزيرة العربية ، ص ١٦ .

ومن الملاحظ كذلك أن المصريين ألقوا كثيرا من الضوء على البلاد اليمنية عندما أتاحوا الفرصـــة لعدد من الأوروبيين ، من بينهم بعض الضباط والأطباء الفرنسيين والايطاليين ، بمرافقة القوات المصرية التى عملت فى اليمن (١) • فقد كتب هؤلاء وصفا للبلاد التى زاروها وعادات أهلها وطباعهم • وقد وضعت مؤلفـاتهم التى نشرت فى ذلك الوقت حدا للقول بأن تلك البـلاد ظلت من المناطق المجهولة •

وقد استمرت حالة الهدوء النسبى فى تهامة فى ظل الادارة المصرية فى الفترة الممتدة بين عامى ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠ ، ولم يتخللها سوى محاولة قبائل يام اليمنية غزو المنطقة ونهبها • وقد وجه اليهم الوالى المصرى ابراهيم يكن باشا قوة مصرية يقودها شاب يمنى هو الحسين بن على بن حيدر الذى كان والده حاكما للمخلاف السليمانى فى شمال اليمن ، وقد تمكن الحسين من التغلب على قبائل يام ووضع حدا لتمردهم • وقد رأى الوالى المصرى أن يكافىء الحسين على جهوده فعينه خليفة لوالده فى حكم مدينة أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى • غير أن الحسين أبدى نشـاطا ملحوظا فى دعم مركزه فى المخلاف مما أقلق الوالى المصرى ، فتوترت العلاقات بينهما ثم آلت الى العداء السافر • وقد تضامن الحسين مع عائض حاكم عسير الذى كان يطمع فى السيطرة على تهامة ، ثم تقدمت قوات الحليفين لمحاربة المصريين فى الحديدة • وقد شجعهما على ذلك علمهما بانشغال محمد على فى محاربة قوات الدولة العثمانية فى سوريا ، كما انتهزوا فرصة نزاع نشب فى الوقت نفسه بين والى الحجاز المصرى وشريف مكة محمد بن عون ، الذى ساند والده المصريين فى أثناء زحفهم الى اليمن • على أنه قبل أن تصـــل قوات الحسين وعائض الى الحديدة ، كانت أوامر محمد على قد وصلت من مصر الى ابراهيم يكن باشا بتسليم ما تحت يده من البلاد اليمنية الى الحسين بن على ابن حيدر ، ليتولى الحكم فيها باسم الدولة العثمانية • فدخل الحسين الحديدة بعد جلاء المصريين عنها فى سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦ هـ) وأعلن اعترافه وتبعيته للسيادة العثمانية (٢) •

على أن ثمـــة دورا خطيرا لعبته السياسة البريطانية الاستعمارية لاجلاء المصريين عن اليمن فى ذلك الوقت • اذ هال الانجليز تقدم المصريين فى جزيرة العرب والسودان ، ومساهمة محمد على فى تجارة الهنـــد ، ومنعه للسفن الأوربية الآتية من بومباى أن تصعد فى البحر الأحمر شمالى جدة • وكان اعتماد الانجليز فى البحر الأحمر على موانىء السودان واليمن ، فلما أصبح السودان فى يد محمد على زاد اعتمادهم على اليمن ، فلما دخل اليمن فى طاعته أحس الانجليز أن البحر

---

(١) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 108.

(٢) Jacob, H. F. : Op. Cit., p. 23.

الأحمر خرج من يدهم الى مصر (١) . لهذا احتلت بريطانيا عدن فى سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥ هـ) وأرسخت قدمها فيها ، وبذلك مساعيها السياسية ومنها تهديد محمد على بأن تثير عليه الباب العالى والدول الأوربية . ولا شك أن احتلال بريطانيا لعدن كان ضربة موجهة لمحمد على لارغامه على الانسحاب من اليمن ، بينما كان الوالى المصرى هناك يبذل كل طاقته لدعم الادارة المصرية والتقرب الى اليمنيين . وقد أعلن امام صنعاء ولاءه لابراهيم يكن باشا ليتقى بطش الانجليز بعد سيطرتهم على عدن (٢) ، وبخاصة أن هينز Capt. Haines حاكم عدن البريطانى كان يتصل بمشايخ القبائل المجاورة لعدن التى ارتضت الحكم المصرى ، متوددا اليهم بالهدايا والهبات ، كما شرع يحرضهم على عدم دفع الزكاة المفروضة عليهم للادارة المصرية فى اليمن ، وقد نجح فى ذلك الى حد كبير .

وقد خشى محمد على أن يقوى نفوذ الانجليز ويمتد سلطانهم فى جنوب اليمن ، فأرسل الى ابراهيم يكن باشا يستفسر عن صلة الانجليز « بالعرب » وطلب اليه عدم السماح بارسال أحد من الصناع وأرباب الحرف من مخا الى عدن . وقبيل أن يتسلم ابراهيم باشا أوامر محمد على بعث اليه رسالة يوضح فيها الموقف بقوله ان « القائد هينز الذى احتل عدن مقيم بجوار الأماكن التى ألحقت حديثا بالحكومة المصرية » . وأضاف ابراهيم باشا الى ذلك أن هينز هذا « أخذ يقوى مشايخ بعض المراكز والقرى ويتودد اليهم ، ويجتذب قلوب الذين يتبعونه بالكسوة والمرتب ، وأن سلوكه هذا يؤدى الى حدوث خلل فى المصالح المصرية فى اليمن » (٣) .

وعندما تلقت وزارة الخارجية البريطانية تقارير قناصلها فى الشرق التى تنبأت بأن محمد على سيرسل جيوشه لاحتلال مدخل البحر الأحمر عند باب المندب وسواحل حضرموت ، كتب بالمرستون «Palmerston» رئيس الوزارة الانجليزية حينذاك الى القنصل الانجليزى فى مصر كامبل Campbell ليقابل محمد على ، ويخبره بأن مثل هذه الخطوة لا ينظر اليها بعين الرضا فى انجلترا أو فى الهند . وقد أكد محمد على للقنصل الانجليزى أنه لا يفكر فى التوسع خارج البحر الأحمر ، ولا يبغى امتداد أملاكه فى شرق صنعاء (٤) .

وفى الوقت الذى تعقدت فيه المشكلات بين محمد على والسلطان العثمانى واستحكم النزاع وثارت الحرب ، طلب بالمرستون من محمد على جلاء القوات

---

(١) حسين مؤنس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .
(٢) الرافعى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ .
(٣) صلاح البكرى : المصدر السابق ، ص ١٦ ـ ١٧ .
(٤) صلاح البكرى : نفس المصدر ، ص ١٨ .

المصرية عن اليمن ٠ غير أن محمد على اكتفى بالاجابة بانه سيضع هذا المطلب موضع النظـر عندما تفرغ الدول من بحث « المسألة الشرقية » ٠ ثم شـاءت السياسة الدولية أن تقف موقف العداء من محمد على فى مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦ هـ) فأخذت بريطانيا على عاتقها تنفيـذ قرارات المؤتمر بالقوة مما اضطر محمد على الى سحب القوات المصرية من اليمن (١) ٠ وبذلك انفسح المجال أمـام بريطانيا للتوسع الاستعمارى فى جنـوب اليمن بعد أن توطدت أقدامها فى عدن ، وتخلصت من المنافسة المصرية ٠

واذا كان وجود المصريين فى اليمن قد شكل منافسا خطيرا للتوسع البريطانى الاستعمارى فى جنوب البلاد ، فان اليمنيين أنفسهم قاموا بدورهم فى مقاومة الانجليز منذ بداية وصولهم الى اليمن ٠ والمعروف أن القائد الانجليزى هينز Haines الذى اقتحم جنوده عدن عنوة ، لقى مقاومة شـديدة من جنود سلطان لحج فى خلال يومين من وصوله ، رجحت بعدها كفة الانجليز نتيجة لتفوقهم الحربى (٢) ، وتم لهم احتلال عدن فى السادس عشر من يناير سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥ هـ) ٠ كما ذكر الواسعى أن أحد أشراف مكة ويدعى السيد اسماعيل خرج الى اليمن فى سنة ١٨٤٦ (١٢٦٢ هـ) ، واستنهض همم الناس للجهاد « واخراج الأفرنج من عدن » ، فأجابه جماعة من الناس حتى وصل الى قرب عدن بنحو فرسخ ، ولم يزل محاصرا لها حتى مات مسموما هناك ، وتوفى وتفرق من كان بصحبته من المجاهدين (٣) ٠ وفى رواية أخرى ذكرها أحـد شهود العيان ونشرها العبدلى ، أن ذلك الشريف جاء ومعه جيش من عسـير وانضم اليهم كثيرون من أهالى لحج وهجموا على الانجليز على الرغم من تفشى الطـاعون فى الجيش العسيرى ، فقابلهم الانجليز باطـلاق المدافع فانهزموا وتفرقوا ، وأن الشريف ومن بقى من أصحابه توجهـوا الى أبين بعـد اخفاق محاولتهم (٤) ٠ وواضح من الروايتين أن هذه الدعوة لاخراج الانجليز وتحرير عدن « من الأجانب غير المسلمين » لم تأت الا من الشمال أى من الحجاز وأنها كانت بتأثير دعوة الوهابيين (٥) ، ولكن الشعب اليمنى نفسه قد استجاب لهذا النداء واشترك فى محاولة تحرير بلاده ٠

---

(١) Bury : G.W. Op. cit., p. 14.

« ابرمت معاهدة لندن فى ١٥ من يولية سنة ١٨٤٠ بين انجلترا ، وروسيا ، والنمسا ، وبروسيا والدولة العثمانية » ٠

(٢) Hurewitz j. c. ; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol.. 1, p, 126.

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٣١ ٠

(٤) العبدلى : المصدر السابق ، ص ١٥٠ — ١٥١ ٠

(٥) أحمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٦٢ — ١٦٣ ٠

أما الأتراك العثمانيون فلم يفعلوا شيئا جديا للاحتجاج على الانجليز عندما قاموا باحتلال عدن فى سنة ١٨٣٠ (١٢٥٥ هـ) على الرغم من أنهم كانوا يدعون أحقيتهم الاسمية فى بلاد اليمن ٠ بل ان الانجليز استطاعوا أن يحصلوا على فرمان من الباب العالى يسمح لهم باستخدام الأسطول البريطانى لميناء عدن ، وان فضل الانجليز عقد معاهدة مع أهالى البلاد الأصليين ليعطوا لوجودهم هناك شيئا من الشرعية ٠ ويبدو من دراسة الموقف ما يساعد على قبول الرأى الذى ذكره الكثيرون ، وهو أن العثمانيين قبلوا هذه السياسة البريطانية ، ورأوا أن احتلال الانجليز لعدن ليس الا من نوع المكافأة لبريطانيا عن معاونتها للدولة العثمانية فى وقف أطماع والى مصر الثائر محمد على ٠ ولعل عدن لم تكن حينذاك ـ وهى تقع فى أقصى جنوب الامبراطورية العثمانية ذات أهمية للعثمانيين اذا ما قورنت برغبتهم فى المحافظة على علاقتهم مع بريطانيا (١) وبخاصة وهم يواجهون تحديات محمد على وطموحه الى تكوين امبراطورية فى البلاد العربية على حساب ممتلكات الباب العالى ٠

وهكذا وصل جنود محمد على باشا والى مصر الى بلاد اليمن فى العشرينات من القرن التاسع عشر وهم يحملون اللواء العثمانى لمحاربة فلول الوهابيين أعداء الدولة العثمانية ، وكان ذلك بناء على تكليف من السلطان العثمانى من جهة ، وتلبية لنداء امام صنعاء الذى استنجد بهم لصد الزحف الوهابى عن بلاده من جهة أخرى ٠ وبعد أن انتصرت قوات محمد على باشا على فلول الوهابيين سلموا ما تحت أيديهم من بلاد اليمن الى امام صنعاء بعد أن تأكد اعترافه بسيادة الدولة العثمانية ، بينما انسحبوا منها الى الحجاز ٠ غير أن قيام بعض الفتن فى بلاد الحجاز فى الأربعينات من القرن التاسع عشر وهروب المتمردين الى اليمن اضطر المصريين الى التوجه اليها للتخلص نهائيا من قادة التمرد ٠ وهنا كانت فكرة اقامة امبراطورية فى البلاد العربية قد تبلورت فى ذهن محمد على مما دفعه الى الدخول فى صراعه المعروف مع الباب العالى ٠ وقد حاول المصريون أن يحققوا فكرة هذه الامبراطورية باقامة حكم منظم فى المناطق التى تحت أيديهم ومن بينها تهامة اليمن ٠ وقد نجحت الادارة المصرية فى اليمن أيما نجاح ، وهيأت حالة من الأمن والاستقرار فى تلك البلاد ، كما دعم المصريون ادارتهم هذه بخلق روح من المودة والصداقة مع أهالى البلاد ظلت ذكراها قائمة فى نفوسهم حتى بعد جلاء المصريين عن بلادهم بأمد طويل ٠

غير أن بريطانيا خشيت على مصالحها الاستعمارية التى أصبح يهددها ذلك التوسع المصرى فاندفعت الى احتلال عدن فى سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥ هـ)

---

(١) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ٠

والتوسع حولها ، والى مساندة الباب العالى ضد طموح محمد على • أما الدولة العثمانية فقد تنازلت عن حقوق الشعب اليمنى بترك عدن للانجليز دون أن تفعل شيئا جديا للاحتجاج عليهم ، كما أنها تعاونت مع بريطانيا لاجلاء المصريين عن اليمن • وقد نجحت الدولتان فى مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ (١٢٥٦ هـ) فى فرض الجلاء عن اليمن وغيرها على المصريين ، كما أن بريطانيا تصدت لتنفيذ هذا القرار الدولى بالقوة • ولهذا اضطر المصريون الى الجلاء عن اليمن بعد أن قضت قوات محمد على باشا على فلول الوهابيين أعداء الدولة العثمانية ، ونشر المصريون فى ربوع تهامة ألوية الأمن والطمأنينة ، وأقاموا ادارة مستقرة فى تلك البلاد ، وكانوا أول من ألقى الضوء على أهلها فى العصور الحديثة ، وقد تسلم العثمانيون بلاد اليمن من المصريين بعد أن أصبحت أكثر انتظاما واستقرارا ، فتهيأت لهم الفرصة لأن يحكموها بيد أقوى وسلطان أظهر مما كان لهم قبل أن تتعهدها يد الادارة المصرية بالتنظيم والاصلاح •

ثالثا ــ الحملة العثمانية على اليمن فى سنة ١٨٤٩

أشرنا فيما سبق الى أن جنود محمد على باشا والى مصر وصلوا الى اليمن فى العشرينات من القرن التاسع عشر وهم يحملون اللواء العثمانى ويوطدون سلطة الدولة العثمانية وسيادتها فى تلك البلاد • وأوضحنا أن بريطانيا والدولة العثمانية تعاونتا معا فى اجلاء المصريين عن اليمن فى الأربعينات من القرن التاسع عشر بعد أن حاول المصريون تكوين امبراطورية فى البلاد العربية ، والاستقلال عن الباب العالى ، ونجحوا فى اقامة حكم مستقر فى تهامة اليمن • وكان لمحاولة المصريين هذه صدى عميق لدى الحكومة العثمانية جعلها لا تتردد فى استغلال فرصة جلائهم عن اليمن لتشديد قبضتها على تلك البلاد • وقد ذكرنا أن ابراهيم يكن باشا الوالى المصرى فى اليمن سلم مدينة الحديدة ، التى كانت مركزا للادارة المصرية هناك ، الى حسين بن على بن حيدر حاكم المخلاف السليمانى الذى كان قد تحالف مع جاره أمير عسير لمناوأة المصريين واخراجهم من اليمن • وقد فعل الوالى المصرى ذلك بناء على الأوامر التى وردت اليه من محمد على الذى اضطر الى تنفيذ قرارات مؤتمر لندن فى سنة ١٨٤٠ بسحب قواته من الجزيرة العربية • وهكذا تولى الحسين زمام الأمور فى تهامة والمخلاف السليمانى ، بعد أن أعلن اعترافه وتبعيته للسيادة العثمانية ، كما تعهد بأن يدفع سنويا للباب العالى مبلغا من المال (١) •

وقد رأت الدولة العثمانية أن تبادر بتأييد الحسين فى حكم البلاد اليمنية

---

(١) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ •

التي تسلمها من المصريين ، حتى يحفظ لها سيادتها الاسمية عليها الى أن تحين الفرصة المناسبة لاخضاعها لسيطرتها الفعلية · ولهذا أرسل السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) تأييده للحسين (١) عن طريق حاكم جدة وأمير مكة ، مشترطا أن تكون الخطبة « للخليفة العثماني » على منابر المساجد اليمنية· كما أطلق الباب العالي على الحسين لقب « حاكم اليمن حسين باشا » وذلك في سنة ١٨٤٣ (٢) حتى يطبعه بالطابع العثماني الذي يرمز الى تبعيته للدولة · وكان طبيعيا أن يتلقى الحسين هذا التأييد العثماني بالقبول والرضا لان ذلك سيدعم مركزه أمام أعدائه ومنافسيه ، كما سيمكن لنفوذه أن يقوى في المنطقة التي يحكمها ·

وقد استقر الحسين في مدينة الحديدة وأخذ ينظم شئونها ، كما بدأ يوسع حدود المنطقة التي يحكمها في تهـــامة ، فاستولى على مخا ، وزبيد ، وحيس ، حتى امتد نفوذه من المخلاف السليماني في الشمال الى ميناء مخا في الجنوب · وفي مدينة أبي عريش عاصمة المخلاف السليماني شيد الحسين قلعته المعروفة باسم « نجران » التي وصفت بأنها من أمنع المعاقل في تهامة ، كما كانت تشتمل على أربعين منزلا على أحسن نسق بلغه فن العمارة اليمنية حينذاك ، وقد حصنها بثلاثة أبراج مجهزة بالمدافع ، ونقل اليها تحفا ثمينة ومكتبة تحتوي على ثلاثمائة مجلد (٣) ·

وعلى الرغم من أن الحسين حاول القيام بالمهمة الملقاة على عاتقه خير قيام ، فانه لم يسلم من المخاطر التي سببها ذلك الصراع الدامي المستمر بين المتنافسين على الامامة الزيدية في صنعاء ، واستعانة كل منهم بحشود القبائل الطامعة في السلب والنهب للانتقام من أعدائه ، ثم رغبة من يستأثر منهم بالامامة بمد سيطرته على أملاك الحسين في تهامة والمخلاف السليماني باعتبارها كانت تابعة لأسلافهم من الأئمة السابقين · بل ان أشراف عسير كانوا يطمعون أيضا في ملك الحسين في تهامة ، ولم يكن تعاونهم معه في محاولة اجلاء المصريين عن المنطقة ليسلموها اليه لقمة سائغة ، بل ليسيطروا عليها بعد أن يطيحوا بحكمه· وقد تأكد ذلك عندما التجأ الامام الزيدي محمد بن يحيى بن المنصور الى الحسين في تهامة ، يرجو مساعدته ضد منافسه الامام المهدي عبد الله بن المتوكل أحمد في صنعاء · وقد رأى الحسين في الاستجابة الى مساعدة ابن يحيى ما يحقق أهدافه التوسعية في المنطقــة الجبلية التابعة للأئمة الزيديين ، فجنــد قواته لمناصرة ابن يحيى ، وشغل بذلك عن تنفيذ الفكرة التي كانت تراوده في ذلك

---

(١) Hogarth. D.G.. op. cit., p. 111.

(٢) Bury, G.W. Op. cit., p. 14.

(٣) العقيلي : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٥٢ ــ ٥٥٣ ·

الوقت بغزو عدن وطرد الانجليز منها بعد أن أخفقت المحاولات العربية الأخرى لاستعادتها ، كما شغل فى الوقت نفسه باخماد تمرد قبيلتى « القحرية » « وأسلم » حتى أخضعهما لطاعته (١) وقد تمكن ابن يحيى بمساعدة قوات الحسين من الانتصار على منافسه ودخول صنعاء والاستئثار بالامامة ٠ وأهدى ابن يحيى الى الحسين مكتبة تشتمل على مخطوطات كانت فى حوزة منافسه المهدى (٢) وكان الحسين مشغوفا بالكتب النادرة فأضافها الى مجموعته الثمينة ٠

غير أن ابن يحيى هذا أراد أن يضم الى منطقة نفوذه بعض البلاد التى استولى عليها الحسين ، وعين لحكمها عمالا من قبله ٠ وكانت وجهة نظر ابن يحيى أنه صاحب الحق الشرعى فى هذه البلاد التى كانت تضم تعز والجند وغيرها ، وأن الظروف قد اضطرته الى الاستعانة بالحسين الذى كان أسلافه تابعين لأئمة صنعاء ، كما رأى أنه قابل جميل الحسين بالمثل عندما أرسل اليه هدية الكتب، وعلى الحسين أن يسحب جنوده من تلك البلاد لتعود اليه بعد أن أصبح اماما لصنعاء (٣) ٠ وقد اتصل ابن يحيى بالعناصر المناوئة للحسين فى تهامة ، وتعاون معهم فى مهاجمة جيش الحسين الذى أخذت خيانة الهمدانيين تفرق صفوفه ، نظرا لولائهم للامام الزيدى ٠ وأدى كل هذا الى هزيمة الحسين ووقوعه أسيرا فى قبضة ابن يحيى ، فتنازل له عن أملاكه لقاء تأمينه واطلاق سراحه ٠ وفى ذلك الوقت حاول محمد بن الحسين أن يستعين بعائض حاكم عسير لتخليص والده من الأسر ، غير أن عائض هذا تخاذل عن نصرة الحسين ، بل انه اغتنم هذه الفرصة وأخذ يستعد لضم تهامة الى منطقة نفوذه فى عسير ٠ وأخيرا استطاع أخوة الحسين أن يخلصوه من الأسر بعد أن استعانوا برجال قبائل يام اليمنية ، وهاجموا القوات الامامية فى زبيد ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها فى سنة ١٨٤٨ (١٢٦٤ هـ) (٤) ٠ وهكذا انسحبت قوات الامام الزيدى الى صنعاء دون أن تحقق بغيتها من السيطرة على تهامة ، بينما عاد عائض أيضا الى عسير بخفى حنين ٠

وقد أثرت تلك الأحداث فى نفسية الحسين أبلغ تأثير ، وخاصة تعرضه لجحود الامام محمد بن يحيى على الرغم من المساعدة التى قدمها له حتى استحوذ على الامامة فى صنعاء ، ثم تنكر عائض حاكم عسير وامتناعه عن المشاركة فى تخليصه من الأسر الى جانب خيانة الهمدانيين الزيديين داخل صفوف جيشه وخذلانهم له حتى وقع أسيرا فى يد امامهم الزيدى ٠ وقد ترتب على ذلك أن

---

(١) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٥٤ ٠
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٣٠ ٠
(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٥٦ ٠
(٤) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٠ ٠

الحسين زهـد فى ملكه المضطرب ، ورأى أن يستنجد بالسلطان العثمـانى عبد المجيد عله يعيد الى البلاد حالة الأمن والاستقرار التى نعمت بها فى ظل الادارة المصرية ٠ ولهذا طلب الحسين من الباب العالى ارسال من يتسلم منه المنطقة اليمنية التى يحكمها ، باعتبارها أمانة فى عنقه يعيد أمرها الى الخليفة (١) بعد أن عجز عن احتمال عبء المحافظة عليها ٠ كما أن تجار تهامة وأعيانها ، وخاصة المقيمين منهم فى الحديدة ، طالبوا السلطان العثمانى بالتدخل لاقرار الأمور فى اليمن (٢) ، بعد أن كسدت متاجرهم ونهبت أموالهم فى أثناء المعارك التى دارت رحاها بين قوات الحسين التهامية والقوات الامامية المهاجمة ، التى كانت تضم مجموعة من القبائل اليمنية الطامعة فى النهب والسلب والتخريب٠

وقد تلقى السلطان العثمانى عبد المجيد مطلب « حاكم اليمن حسين باشا » وتجار تهامة وأعيانها بالقبول والرضا ، اذ اعتبر ذلك فرصة لا تعوض بالنسبة للدولة لاعادة فرض سيطرتها الفعلية على اليمن ٠ لهذا أصدر الباب العالى أوامره الى نائبه فى الحجاز توفيق باشا ، والى أمير مكة محمد بن عون بسرعة التحرك الى اليمن على رأس قوة عثمانية ضاربة أبحرت من ميناء جدة ، وكان قوامها ثلاثة آلاف من الجنود المشاة والفرسان ٠ وقد وصلت الحملة العثمانية الى ميناء اللحية اليمنى ، واتجهت بعد ذلك الى الحديدة حيث استقبلها الحسين مرحبا مستبشرا ، وكان ذلك فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) (٣) ٠

وعنـدما علم امام صنعاء محمد بن يحيى بوصول القوات العثمانية الى الحديدة ، أراد ألا ينفرد خصمه الحسين بالتزلف الى العثمانيين والاعتماد عليهم فى دعم حكمه فى تهامة والمخلاف السليمانى بالدرجة التى تجعله يشكل خطرا على الامامة الزيدية فى المستقبل ، كما أنه أراد أن يفوت الفرصة على منافسه فى الامامة على بن المهدى حتى لا يستعين بالعثمانيين لنصرته عليه فتئول له الامامة فى صنعاء ٠ ولهذا سارع الامام محمد بن يحيى الى الاتصال بالعثمانيين مرحبا بقدومهم الى اليمن ، بل انه ذهب لاستقبالهم عند أطراف المنطقة الجبلية المواجهة لتهامة(٤) ، واتفق مع قائدهم ، دون مشاورة لزعماء القبائل الزيدية ، على أن يصحبه الى صنعاء ليستعين بما لديه من قوات فى اخماد بعض القلاقل الداخلية ٠ وأخيرا قدم الامام محمد بن يحيى الى صنعاء مصطحبا توفيق باشا « ضيف الاحتلال » وكتائبه العثمانية حيث أنزلهم فى قصر غمدان (٥) ٠ وهكذا

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٣٤ ٠
(٢) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٧٢ ٠
(٣) العرشى : المصدر السابق ، ص ٧٢ ٠
(٤) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٣٥ ٠
(٥) شرف الدين : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ ٠

تمكن العثمانيون من دخول مدينة صنعاء فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) (١) دون أن تلقى قواتهم أية مقاومة ٠

على أنه فى أثنـــاء غياب الامام محمد بن يحيى عن صنعاء عنـد قيامه باستقبال الترك على حدود تهامة ، استطاع منافسه فى الامامة على بن المهدى أن يجمع من حوله عددا كبيرا من رجال القبائل اليمنية ويحرضهم على مهاجمة صنعاء ٠ وقد اغتنم على بن المهدى فرصة استقبال خصمه للأتراك وتسليمهم مدينة صنعاء ، وأخذ يشعل نار الثورة ضده بين القبائل اليمنية معلنا أن ابن يحيى باع اليمن وأهله للأتراك الدخلاء (٢) ٠ وزاد من تفاقم الموقف أن أهالى صنعاء أنفسهم أنكروا على ابن يحيى فعلته أشد الانكار ، وشاركوا القبائل اليمنية ثورتها على العثمانيين ٠ ولهذا انهمرت سيول القبائل اليمنية على مدينة صنعاء من كل جانب ، وضاعف من حماسهم ما كان ينتظرهم من المغانم داخل المدينة ، فاكتسحوا تحصينات الدفاع وأبادوا معظم رجال الحملة العثمانية ٠ أما بالنسبة لأهالى صنعاء فقد أوضح الواسعى دورهم فى مقاومة العثمانيين بقوله : « قام أهـل صنعاء قومة رجـل واحـد على حين غفلة فأبادوا الأتراك قتلا ، ولم يسلم منهم الا من كان ملتجئا فى القصر أو فى بستان السلطان ، وسبب ذلك ــ كما سمعت والله أعلم ــ أن اليوم الأول كانت العساكر تمر فى الشوارع وتقول هذا البيت غدا نأخذه وهذه الحرمة نأخذها (٣) ٠ وعلى أية حال فقد فوجىء العثمانيون بهذا الهجوم من رجال القبائل اليمنية ، وبتلك الثورة التى فجرها أهالى صنعاء ، فتفرقت صفوفهم وأصيب قائدهم توفيق باشا بجراح خطيرة فى أثناء القتال الذى دار فى شوارع المدينة الثائرة ٠ وقد أعلن أهالى صنعاء تنصيب على بن المهدى اماما لهم ، كما حاصروا من بقى من العثمانيين فى القصر الحكومى حتى تم عقد الصلح بين الجانبين ٠

وقد انتهت تلك الأحداث بخروج العثمانيين من صنعاء وانسحابهم الى الحديدة (٤) بينما اقتحم رجال القبائل وأهالى صنعاء الثـائرين قصر الامام محمد بن يحيى ، واقتادوه أسيرا الى امامهم الجديد على بن المهدى ، الذى أمر بحبسه ثم باعدامه ٠ بل ان هؤلاء هاجموا بيوت أتباع ابن يحيى ، وكان من بينهم أحد العلماء : وهو عبد الرحمن بن محمد العمرانى الذى كان ناظرا للأوقاف فى صنعاء ، فنهبوا داره وبددوا مكتبته الثمينة التى حوت ما يقدر بألف من

---

(١) Hogarth D.G. : Op. Cit., p. 111.

(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٢ ٠

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٣٤ ٠

(٤) Scott. H. : Op. cit., p. 228.

الكتب المخطوطة النادرة (١) . ولهذا كان وصول الأتراك العثمانيين الى صنعاء فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) سببا فى خلع أحد الأئمة وتنصيب امام آخر ، كما ترتب على مقاومتهم واخراجهم من تلك المدينة أن تعرضت فى الوقت نفسه للخراب والدمار بعد أن عاثت فيها القبائل سلبا ونهبا وحولت شوارعها الى ميادين للقتال . ولقد أشار الى ذلك سلفاتور أبونتى بقوله : « عندما دخل الألف والخمسمائة رجل (من العثمانيين) الذين استحضرهم (الامام محمد ابن يحيى) فى صنعاء ، هاج الشعب اليمنى واشتد غضبه ، فارتكب الكثير من أعمال العنف وسالت الدماء أنهارا ، وغزا العاصمة وهدمها على من فيها وقتل الامام شر قتلة ، وبذلك سقطت البلاد فى الفوضى وعم الفساد » (٢) .

أما بالنسبة للحسين فقد تعاون مع العثمانيين الذين عادوا الى تهامة واستقروا فيها بعد انسحابهم من صنعاء ، وكانوا قد اتخذوا مدينة الحديدة مركزا لهم لسهولة الاتصال بينها وبين موانىء الحجاز حتى يمكنهم تلقى الامدادات والمؤن اللازمة من هناك . وقد وجه القائد العثمانى توفيق باشا قوة من رجاله تحت قيادة الحسين لاخضاع قبيلة أسلم ، وقد نجح الحسين فى مهمته ، غير أنه أراد أن يبتعد عن الاشتغال بأمور الحكم فتوجه الى مسقط رأسه فى مدينة أبى عريش ، حيث أقام فى قصره المعروف « بنجران » . وأخيرا أصدر الباب العالى أوامره بترحيل حسين باشا الى الآستانة حيث تقرر له هناك راتب شهرى ، ثم خير فى الاقامة فى أى بلد من بلدان الدولة ، ففضل الاقامة فى مكة التى مكث فيها حتى توفى فى سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣ هـ) (٣) .

وهكذا لم تتمكن حملة العثمانيين التى وصلت الى اليمن فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) من السيطرة على صنعاء واقامة حكم عثمانى مستقر فيها ، على الرغم من المساعدات التى قدمها الحسين للعثمانيين فى تهامة ، والتسهيلات التى هيأها لهم الامام محمد بن يحيى حين أدخلهم صنعاء دون مقاومة . وقد استطاعت القبائل اليمنية التواقة الى السلب والنهب ، التى ألهبتها دعايات على بن المهدى ضد منافسه الامام محمد بن يحيى بأنه باع اليمن « للأتراك الأجانب » حتى يتمكن بذلك من خلعه عن الامامة والاستحواذ عليها لنفسه ، الى جانب ثورة أهالى صنعاء العنيفة ضد الأتراك الدخلاء الذين لم يراعوا حرماتهم ولم يحترموا مقدساتهم ، استطاعت هذه وتلك أن ترد العثمانيين عن صنعاء بعد أن قضت على معظم قواتهم . ولهذا عاد العثمانيون الى تهامة يجرون أذيال الخيبة والاخفاق ، وقنعوا بالاقامة فى الحديدة ومنطقة الساحل اليمنى

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٢) سلفاتور ابونتى : مملكة الامام يحيى (ترجمة طه فوزى) ، ص ٥٣ .

(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٢ .

القريبة من مراكزهم فى الحجاز ، بعيدين عن جبال اليمن الوعرة فى طبيعتها ، ورجالها ، ومشكلاتها . على أن تلك الحملة كانت تجربة مفيدة للعثمانيين ، وتقييما لما يلزمهم من رجال وعتاد وظروف مناسبة لفرض سيطرتهم الفعلية على اليمن . ولهذا سيعاود العثمانيون الكرة من جديد فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) وهم أكثر قوة وخبرة واستفادة من الظروف ، مما سيمكنهم من دخول صنعاء واقامة حكم عثمانى فيها استمر حتى هزمت دولتهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

الفصل الثانى

عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن
سنة ١٨٧٢

أولا ــ الامامة الزيدية والاضطراب السياسى فى اليمن قبيل سنة ١٨٧٢ ٠

ثانيا ــ النفوذ العثمانى فى تهامة والمخلاف السليمانى وعسير قبيل سنة ١٨٧٢ ٠

ثالثا ــ اتجاه الدولة العثمانية لاستعادة سيادتها الفعلية على اليمن فى منتصف القرن التاسع عشر ٠

رابعا ــ سيطرة العثمانيين على صنعاء فى سنة ١٨٧٢ ٠

خامسا ــ حدود ولاية اليمن العثمانية ٠

عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢

أولا ـ الامامة الزيدية والاضطراب السياسى فى اليمن قبيل سنة ١٨٧٢

عرضنا فى الفصل السابق المراحل المتتالية لتطور علاقة العثمانيين ببلاد اليمن قبل عودتهم اليها فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) ، وأوضحنا كيف فشلت حملتهم عليها فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) وارتدت مهزومة عن صنعاء لتستقر فى تهامة والمنطقة الساحلية اليمنية القريبة من المراكز العثمانية فى الحجاز ٠ وقد أراد العثمانيون أن يكتسبوا ببقائهم هناك موطئا صالحا يمكنهم من مراقبة الأحداث الجارية داخـل اليمن عن كثب ، حتى تتاح لهم الفرصـة من جديد للسيطرة على صنعاء واخضاعها للحكم العثمانى ٠

وقد أشرنا فيما سبق الى أن العثمانيين تمكنوا من دخول صنعاء دون قتال فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) بوساطة التسهيلات التى قدمها لهم الامام الزيدى محمد بن يحيى ليدرأ عن نفسه محاولات منافسه على بن المهدى لانتزاع الامامة منه والسيطرة على صنعاء ٠ غير أن على بن المهدى أثار حمية القبائل اليمنية ضد الأتراك وضد حليفهم محمد بن يحيى فأشاع عنه أنه باعهم البلاد وشعبها من أجل مصالحه الشخصية ، وبذلك تمكن ابن المهدى من السيطرة على صنعاء واجلاء الترك عنها والتخلص نهائيا من منافسه الزيدى واستأثر لنفسه بالامامة٠ وكانت تلك صورة معتادة من نتاج الامامة الزيدية ونظامها العتيق الذى حرم شعب اليمن من الأمن والاستقرار وأشاع بين صفوفه التفرق والتحزب والحروب الأهلية ، كما أفقده أيضا الوحدة السياسية التى لو تحققت لأتاحت له اللحاق بالشعوب الأخرى فى ركب التقدم والمدنية ٠ وسوف يؤدى هذا الاضطراب السياسى الذى كانت تسببه نظرية الامامة الزيدية فى الحكم الى اثارة الصراع

المستمر بين مدعيها ، مما هيأ الفرصة للعثمانيين للعودة الى اليمن والسيطرة على مقدراته فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) ، منتهزين حالة الضعف والانهيار الذى مضى به الشعب اليمنى فى ذلك الحين • ويجدر بنا أن نستعرض الأسس التى قام عليها نظام الامامة الزيدية فى اليمن نظرا لتأثيره العميق فى توجيه أحداث التاريخ اليمنى الحديث ، وبخاصة قبيل وفى أثناء خضوع اليمن للحكم العثمـــانى •

كان نظام الامامة الزيدية الذى واجهه العثمانيون فى اليمن هو نتاج عشرة قـرون ونيف من الزمان لم يتغير فى خلالها شكله وجوهره • وكان الصراع الدموى بين السادة (١) اليمنيين الطامعين فى منصب الامامة هو المثل النمطى لتاريخ اليمن فى عهـد الامامة الزيدية • وحتى فى الوقت الذى سـيطر فيه العثمانيون على العاصمة اليمنية ، فان ذلك لم يعطهم سيطرة فعلية على اليمن بأكمله ، فقد ظلت الامامة الزيدية فى الشمال وفى صعدة ـ الحصن الحصين للمذهب الزيدى منذ ظهوره فى البلاد ـ تواصل جهودها لتؤكد « حقها المقدس » فى الحكم • ومنذ وصول العثمانيين الى اليمن فى مطالع العصور الحديثة قامت بينهم وبين اليمنيين بصفة مستمرة حروب كثيرة ، وكانت تلك الحروب التى تزعمها الأئمة لأسباب فرضتها عليهم مصالحهم الشخصية ، فرصة ذهبية للامامة الزيدية أكسـبتها اثراء سياسيا على حسـاب ثورة الشـعب اليمنى ضـد العثمانيين (٢) • وسوف نلقى نظرة سريعة على تاريخ اليمن الزيدية لنستخلص الأسس التى قام عليها نظام الامامة ، وان كان ذلك الموضوع يعد من النواحى المجهولة فى مصادر التاريخ الاسلامى ، التى ينـدر فيها ما يغنى عن اليمن الزيدية (٣) • كما سنشير من وقت لآخر الى بعض جوانب الحياة اليمنية ونظم الحكم فى ظل الامامة الزيدية حتى يمكننا ملاحظة ما طرأ على اليمن فيما بعد من أوضاع جديدة فى أثناء خضوعها للحكم العثمانى •

لقد أسس دولة اليمن العربية الاسلامية الشيعية الزيدية الامام « الهادى الى الحق » يحيى بن الحسين فى سنة ٨٩٧ (٢٨٤ هـ) • وهو ينتسب الى الحسين بن على بن أبى طالب ويعتنق الامام مذهب الامام زيد بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى جاهد ليسترجع الامامة التى اغتصبها

---

(١) يطلق اليمنيون لقب السادة على سلالة النبى من ابنته فاطمة زوجة على بن أبى طالب ، ومن هؤلاء الأئمة الزيديون وكانوا يمثلون الطبقة العليا فى اليمن قبل قيام ثورته الوطنية فى سبتمبر سنة ١٩٦٢ •

(٢) محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن ، ص ٥٨ ـ ٥٩ •

(٣) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : دولة اليمن الزيدية (نشأتها ، تطورها ، علاقاتها) ص ١٥ •

الأمويون فاضطهد وصلب (١) ، وكان من أعلام آل بيت النبى ، عالما مجتهدا ذا رأى ومكانة ، طلق اللسان ، حلو الحديث ، قوى الحجة ٠ وقد اعتنق المذهب الزيدى كثيرون من آل بيت النبى ومن غيرهم ، وتعددت الفرق الزيدية بعد مقتل الامام زيد وانتشر مذهبه فى بلاد كثيرة ، فى ايران التى كانت معروفة ببلاد العجم ، وفى الكوفة ببلاد العراق وفى الحجاز وفى اليمن ٠ وقد فر الى السند « القاسم الرسى ابن ابراهيم طباطبا » وهو أحد أحفاد الامام زيد ومات هناك فى سنة ٨٥٩ (٢٤٥ هـ) فذهب ابنه الحسن الى اليمن ، وكان من نسله الأئمة الزيديون الذين دعوا لأنفسهم « بصعدة » فى شمال اليمن ٠ فرأس الدولة الزيدية فى اليمن « حسنى نسبيا ينتسب الى الحسن بن على ، حسينى مذهبا ، باعتبار أن زيدا صاحب المذهب من أبناء الحسين » (٢) ٠ وكان « يحيى ابن الحسين بن القاسم الرسى » هو أول من خرج منهم داعيا لنفسه بصعدة ، فبويع بها فى سنة ٩٠٠ (٢٨٨ هـ) وتسمى بالهادى الى الحق (٣) ٠ وقد توفى الامام الهادى فى ١٩ من أغسطس سنة ٩١١ (٢٠ من ذى القعدة سنة ٢٨٩ هـ) بعد أن نجح فى نشر المذهب الزيدى فى جبال اليمن ، وبعد أن وضع الأساس لدولة اليمن الزيدية ، وقد ورثه الأئمة الزيديون فى حكم اليمن ٠ ويبدو أن أئمة المذهب الزيدى قد اختاروا اليمن بالذات هربا من الاضطهاد السياسى الذى شاع عندما اضطربت أحوال الخلافة العباسية وضعفت السلطة المركزية فى بغداد ٠ وكانت اليمن فى ذلك الوقت أكثر اضطرابا من بقية بلاد الدولة العباسية الأخرى لبعدها عن مركز الخلافة ، وانقطاعها عن مقر الحكم ، ولطبيعتها الجبلية الوعرة ، فأصبحت معقل الزيدية الحصين خلال عشرة قرون (٤) مضت ٠

فالدولة الزيدية قامت فى اليمن فى مطلع القرن العاشر الميلادى وأواخر القرن الثالث الهجرى على أساس دينى ، وهى الدولة الاسلامية العربية الوحيدة التى واصلت حكمها وحافظت على كيانها أكثر من ألف سنة منذ قيامها حتى شروق شمس ثورة اليمن الوطنية فى سبتمبر سنة ١٩٦٢ ٠ وكان نفوذها يمتد تارة حتى يشمل جميع بلاد اليمن وكل أجزاء القسم الجنوبى من الجزيرة العربية، وتارة ينحصر سلطانها فى قسم من البلاد الجبلية اليمنية كمدينة « صعدة » وما يحيط بها ، وكمدينة « شهارة » ومدينة « حجة » ٠ وكل هذه المناطق جبلية حصينة كانت تعتبر من حصون الزيدية فى اليمن ومعاقلها (٥) ٠ وقد عاصر

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ٠ ج ١ ، هامش ص ١٢٦ ٠

(٢) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٣ ٠

(٣) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ١٣٥ – ١٣٦ ٠

(٤) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩ – ٣١ ٠

(٥) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر نفسه ، ص ١٥ ٠

الدولة الزيدية فى اليمن كثير من الدول التى قامت أيضا هناك وعاشت مدة ثم أصبحت فى ذمة التاريخ (١) ، وكان لكل منها علاقات بدولة الأئمة الزيديين ، كما كان للكثير منها حروب معها ٠

وبعد القاء هذه النظرة السريعة على تاريخ اليمن الزيدية سنعرض فيما يلى فكرة الدولة فى النظرية الزيدية التى شكلت الأساس الذى قام عليه نظام الامامة ، ذلك التنظيم الدينى السياسى الوحيد الذى اصطدم به الأتراك العثمانيون فى بلاد اليمن ٠

يعتبر المذهب الزيدى أكثر المذاهب الشيعية اعتدالا وأقربها الى مذهب جماعة المسلمين من السنيين ٠ وأهم ما يمتاز به عن بقية مذاهب الشيعة عدم المبالغة فى تقديس على وجعله فى مصاف الآلهة ، كما هو مذهب الغلاة من الشيعة (٢) ٠ وعلى الرغم من أن أتباع الزيدية قد حصروا الامامة فى أولاد فاطمة، فانهم لم يقصروها على فرع معين ، بل أجازوا لكل فاطمى ، عالم ، زاهد ، شجاع ، سخى ، خرج بالامامة أن يكون اماما واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين ، وهم بذلك يرفضون الفكرة القائلة بأن لا امام بعد الامام الثانى عشر (٣) ٠

وعلى الرغم من اتفاق الزيديين مع جمهرة الشيعة فى أحقية على وأبنائه من

---

(١) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣٣ ــ ٣٤ ٠

وهذه الدول هى : دولة « بنى زياد » فى « زبيد » التى وصل « الهادى » الى اليمن وهى قائمة = ثم انتهى عهدها فى سنة ١٠٠١ (٣٩١هـ) ، ودولة « بنى نجاح » التى قامت على أثر دولة « بنى زياد » وانتهت فى سنة ١١٦٠ (٥٥٥هـ) ، ودولة « بنى يعفر الحوالى الحميرى » فى « شبام » التى انتهت فى سنة ١٠٠٣ (٣٩٣هـ) ، وهؤلاء كانت لهم حروب مع « الهادى » فى « صنعاء » . ودولة « على بن محمد الصليحى الهمدانى » وأبنائه ، التى قامت « بصنعاء » من سنة ١٠٤٨ (٤٣٩هـ) الى سنة ١١٣٨ (٥٣٢هـ) ، وكانت تدعو للعبيديين ، ودولة « بنى زريع » الهمدانيين أيضا التى قامت « بعدن » من سنة ١٠٧٦ (٤٦٧هـ) الى سنة ١١٧٤ (٥٦٩هـ) ، والدولة الأيوبية « باليمن » من سنة ١١٧٤ (٥٦٩هـ) الى سنة ١٢٢٩ (٦٢٦هـ) وكانت عاصمتها مدينة « زبيد » ودولة « بنى الرسول العسانيين » بتعز من سنة ١٢٩٩ الى سنة ١٤٥٥ (٨٥٨هـ) ودولة « بنى طاهر القرشيين » فى « عدن » و « صنعاء » من سنة ١٤٥٥ (٨٥٨هـ) الى سنة ١٥٢٧ (٩٣٣هـ) ، ثم امتد نفوذ « دولة المماليك » بمصر الى اليمن ، وأعقب ذلك « الحكم العثمانى الأول » من سنة ١٥٨٨ الى سنة ١٦٣٥ ثم عودة العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٧٢ وبقاؤهم فيها حتى نهاية الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٨ ٠

(٢) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر نفسه ، ص ٢٢ ٠

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، هامش ص ١٢٦ : يقول الريحانى أن الشيعة يعتقدون أن هذا الامام هو « الذى ظهر فترة فى الأرض ثم اختفى فى سنة ٥٢٦ هـ وهو الامام المنتظر الذى سيظهر ليطهر العالم من الفساد والضلال » ٠

فاطمة بالامامة ، فانهم يقولون بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل والأفضل (١) • ولهذا فزيد وأتباعه لا يتبرءون من أبي بكر وعمر ، كما يفعل غيرهم من الشيعة ، بل انهم يقولون بصحة امامتهما (٢) ، وبذلك تبدو الزيدية أكثر الفرق الشيعية اعتدالا ، وأقربها الى السنة بوجه عام (٣) ، وشروط الامامة عند الزيديين هي أربعة عشر شرطا تتلخص في أن يكون الامام مكلفا ، ذكرا ، حرا ، مجتهدا ، علويا ، فاطميا ، عدلا ، سخيا ، ورعا ، سليم العقل ، سليم الحواس ، سليم الأطراف ، صاحب رأى وتدبير ، مقداما فارسا (٤) • وكان الشرط الأخير للامامة من الأمور الهامة في المذهب الزيدي التي أثرت في تاريخ اليمن ، وأدت الى تعدد الأئمة الزيديين في وقت واحد • اذ كان الامام زيد يرى الخروج على « الظالم المتغلب » ويرى الخروج شرطا في كون الامام اماما ، حتى ان أخاه « محمد الباقر » اعترض عليه في هذا الرأى وقال له : « على قضية مذهبك والدك ليس بامام (يقصد عليا زين العابدين) لأنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج » (٥) •

وأدى هذا الشرط من شروط الامامة الزيدية الى قيام كثير من الفتن والاضطرابات في اليمن ، وبخاصة عندما أضعف الحكم العثماني من سلطة الامامة المركزية وأخرجها من صنعاء ، فلجأت الى مدينة صعدة المركز التاريخي للزيدية في شمال اليمن • وقد عزا « هانز هلفرتز » أسباب اضطرابات اليمن في عهد الحكم العثماني الى تعلق اليمنيين بفكرة الامامة الزيدية ، مما أظهر العديد من أدعيائها الذين تنافسوا فيما بينهم في الوقت الذي ضعفت فيه السلطة العليا في البلاد (٦) •

ويذكر « سلفاتور أبونتي » ـ الكاتب الصحفي الايطالي الذي زار اليمن في سنة ١٩٣٧ ـ أن اختيار الأئمة الزيديين غالبا ما كان يجرى في أحوال شاذة مضطربة ، وأن في تاريخ اليمن حادثا فريدا وهو أن أحد المطالبين بالامامة وهو « المهدى عباس » الذى ظهر لمجلس الرؤساء المجتمعين لانتخاب الامام أنه لا تتوافر فيه الا سبعة شروط من الأربعة عشر الواجب توافرها في الامام ، قال للمجتمعين : « أما عن الشروط الأخرى فان في استطاعتي أن أقدم لكم ما يغنى

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ـ ٢١٦ •
(٢) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٢ •
(٣) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 33.
(٤) أمين الريحاني : المصدر السابق ، ج ١ ، هامش ص ١٢٧ •
(٥) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٣ •
(٦) Helfritz, H. : The Yemen, A Secret Journey, p. 129.

عنها وهو هذا » وأخرج سيفه من غمده ، وعندئذ تم انتخابه اماما ، « ولا يرى القانون الزيدى بأسا من الحصول على الامامة بحد السيف » (١) .

وهكذا تعتقد الزيدية أن الامامة ليست شأنا عاما تفوض للأمة الاسلامية للنظـر فى تعيين الشخص الصالح لشغل المناصب ، بل تؤمن أن النبى فوض الامامة لعلى زوج ابنته ، ولنسله من زوجته ابنة النبى . كما أن الزيدية تختلف عن غيرها من فروع الشيعة فى أنها لا توافق على تعيين الامام لمن يخلفه ، بل تصر على أن الامام يجب أن يختاره المسلمون ذوو الكفاية أهل الحل والعقد . ويتضح من هذا أن رئيس الدولة فى النظرية الزيدية يعتبر موضع صفات يخلعها الله عليه لا يقدر غيره على بلوغ مثل هذه المكانة . وهذا معبر عنه بوضوح أكبر باشتراط أن يحوز الامام بجانب الصفات الأخرى السابق بيانها ، صفة العصمة. كما اشترطت الزيدية أن يكون الامام « على استعداد لامتشاق سيفة لتأكيد حقه واعلاء شأن العقيدة » ، وجعلت الثورة ضد الامام مشروعة اذا ما رئى أنه غير عادل أو خالف الشرع ، أو أن شخصا أكفأ منه طالب بالمنصب على أن يكون من « السادة نسل النبى » والا دفع بأنه زنديق ، مخالف ، باغ ، وعدو الله (٢) . وأجازت الزيدية أن يكون هناك أكثر من امام فى الوقت نفسه اذا كانت مناطق نفوذ كل منهم متباعدة بعدا كافيا . وكانت عواقب هذه الشروط بالاضافة الى ضرورة الانتخاب أن تقوم دائما حروب متصلة بين المطالبين بالامامة ، بل ان هذه الحروب أعطيت لها صفة القداسة واعتبرت أساسية للدفاع عن العقيدة ، وللضرب على أيدى الطغاة والزنادقة (٣) .

ونظرا لأن اليمنيين لم يعتنقوا جميعا المذهب الزيدى فان بعض متعصبى الأئمة الفقهاء ، لأغراض سياسية ، برروا حروبهم ضد معارضيهم من الأسر التى تحكم حكما دنيويا ، وضد الأقليات من الشيعة غير الزيدية ، بأنها دفاع عن العقيدة الحقة . وكان رجال القبائل اليمنية وسكان الريف الميالون للحرب من أهل الشمال مستعدين دائما للقتال مع أى كان ضد من كان ، تدفعهم الى ذلك الأسباب الاقتصادية ، وكانت هذه الفوضى المستمرة على حساب رخاء البلد المادى حتى ان تاريخ اليمن لم يسجل قط أى عمل انشـائى عام قام به الأئمـة الزيديون يستحق الذكر سوى اقامة «قصور امامية ، ومساجد ، وأضرحة» (٤) . وبالاضافة الى تبرير الحروب الأهلية بأسس دينية ، فقد استغل الأئمة الدين لنشر روح التزمت وصرف الجهد الانسانى للحياة الأخرى ، الأمر الذى يتعارض

(١) سلفاتور ابونتى : مملكة الامام يحيى (ترجمة طه فوزى) ، ص ٥٥ .
(٢) محمد محمود الزبيرى : الامامة وخطرها على وحدة اليمن ، ص ١٩٠ .
(٣) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٤) محمد محمود الزبيرى : المصدر السابق ، ص ١١ .

مع الروح التقدمية التى يتصف بها الاسلام الحنيف · وقد عبر عن ذلك القاضى الزبيرى بقوله : «ان مهمة الامام هى نشر روح الزهد والعزوف عن العمران» (١)·

ولم يكن لنظام الامامة فى الحكم قانون ادارى أو قواعد تحدد الأعمال وتوزعها تبعا لطبيعة أهدافها ، بل كانت الوظيفة الادارية الأولى للامامة هى جباية الضرائب والمحافظة على النظام كخطوة للاحتفاظ بالوضع القائم ، وكان الامام هو الشخص الوحيد الذى يرجع اليه فى جميع الأمور · ولينفذ الامام هذه الوظيفة الادارية المحدودة والسلبية كان يعين من قبله حاكما لكل لواء وقضاء وناحية ، ومديرا للعمال ، وأمينا للصندوق ، ومديرا للأوقاف ، وما يلزم من الكتبة (٢) ·

وفى أثناء حكم الأئمة الزيديين فى اليمن احتفظت الملكية الخاصة للأرض ببقائها بصرف النظر عن المفهوم النظرى أن الملكية النهائية على الأرض للدولة · فعند التطبيق كانت معظم الأرض دائما مملوكة ملكية خاصة مع الاعتراف بكامل الحقوق للمالك فى التصرف بالمال · **ويمكن أن تعزى سيادة الملكية الخاصة فى اليمن فى خلال تاريخها الاسلامى الوسيط والحديث الى عاملين :**

العامل الأول ــ أن اليمن خلافا للأقطار الأخرى خارج بلاد العرب لم تدخل تحت سيطرة الاسلام بالفتح ، وتبعا لذلك بقيت أراضيها فى يد مزارعيها الأصليين ، كما أن الحكم العثمانى الأول فى اليمن فى القرن السادس عشر لم يستطع أن يضمن سيطرة حقيقية على البلاد حتى ان الأتراك خرجوا من اليمن بعد قرن من الحروب التى كادت تكون مستمرة دون أن يتمكنوا هناك من فرض النظام الاقطاعى الذى فرضوه على بلاد الامبراطورية (٣) ·

العامل الثانى ــ الذى ساعد على بقاء الملكية الخاصة فى اليمن قد نتج عن الطبيعة الجغرافية التى جعلت الهضبة الوسطى أكثر ملاءمة من ناحية الظروف المناخية ، مما زاد من كثافة السكان الذين اكتسبوا معظم الأراضى الصالحة للزراعة ، والتى احتاجت لجهود انسانى مباشر لتكون منتجة ولم تكن منحة الطبيعة · ولم يهيىء هذا لنظام اقطاعى أو اقتصاد قائم على العبودية أن يقوم فى الهضبة الوسطى فكادت الملكية الكبيرة أو ملكية الدولة تكون مختفية تماما لأن كل بقعة قابلة للاستصلاح قام الأفراد باستغلالها · بينما على العكس من ذلك قلت كثافة السكان بالنسبة الى الأرض المنخفضة فى تهامة نظرا لسوء الظروف المناخية فعاشت الملكية الكبيرة هناك كدليل على قيام نظام اقطاعى ، كما وجد

---

(١) محمد محمود الزبيرى :المصدر نفسه ، ص ١١ ·
(٢) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ٧٧ ــ ٧٨ ·
(٣) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ·

اقتصاد قائم على العبودية ، وظلت هناك حتى الآن مساحات واسعة من الأرض تعود ملكيتها قانونا الى الدولة (١) ٠

وقد ساهم جمود قانون الارث والوصايا فى تفتيت ملكية الأرض ، وهذا لا يتضمن الحجم الصغير غير الاقتصادى فحسب ، بل الوقت الضائع فى الانتقال بين رقعة وأخرى أيضا ٠ ولتجنب تطبيق قانون الارث ، توضع الأرض كوقف عائلى وبه تصبح غير قابلة للانتقال ٠ وفى معظم الحالات يمنع الوقف الأضرار التى تنتج عن تفتيت الأرض اذ أن الأرض تقسم بين المنتفعين بالوقف طبقا لأنصبتهم النسبية ، وفوق ذلك كله تعدم جواز نقل ملكية الأرض مما قد يؤدى الى افتقار التحسينات ان لم يكن المنتفع مهتما بالاصلاح ٠ ومن مشكلات الانتفاع بالأرض فى اليمن عدم وجود موثقين عموميين وعدم وجود نظام ملائم للتأكد من صحة الوثائق وتسجيلها ٠ وقد زاد هذا النقص من حدة النزاع حول ملكية الأراضى وشجع التقاضى بين اليمنيين (٢) ٠

وفى عهد الامامة قام اقتصاد اليمن على الزراعة ، بينما كان معظم الانتاج للاستهلاك المباشر ٠ ومن العوامل التى أدت الى تخلف الاقتصاد اليمنى شدة الافتقار الى الأمن والطمأنينة نتيجة للصراع الدائم بين المتنافسين على الامامة ، وعدم ملاءمة المواصلات ، وعدم وجود مؤسسات مالية أو نظام نقدى مناسب ٠ وأدى احتكار التجارة الخارجية المحدودة بوساطة قلة من أصحاب النفوذ فى البلاد الى هجرة رجال الأعمال الكفاة ، كما أقام سدا فى وجه نمو طبقة تجارية تعمل على تنشيط التجارة وتقدمها (٣) ٠

أما النظام الضرائبى فى اليمن فى أثناء حكم الأئمة فقد كان يقوم من الناحية النظرية على أساس الشريعة الاسلامية ولا سيما بالنسبة للأنواع المختلفة من الضرائب ، ولكن من الناحية العملية قام النظام الضرائبى على أسس دنيوية لا دينية ، وبخاصة بالنظر لاستعمال حصيلة الضريبة مما شكل أكبر اساءة لتطبيق الأسس الشرعية ٠ وقد كانت الحاجة الى المال لاسناد سلطة أية حكومة قائمة قد حجبت دائما كل اعتبار للشريعة حتى ان السيد محمد بن اسماعيل الأمير ، وهو فقيه زيدى ، قد انتقد ما جرى عليه العمل فى عهد الامامة فى قصيدة مشهورة ، على أساس مخالفته لقانون الدين وأخلاقه ٠ ويلاحظ أن الامام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) فى مهاجمته للحكم العثمانى فى اليمن انتقد فرض ضرائب ورسوم جمركية على أساس أن مثل هذه الرسوم والضرائب غير

---

(١) محمد أنعم غالب : المصدر نفسه ، ص ٩٦ ٠

(٢) محمد أنعم غالب : المصدر نفسه ، ص ١٢٥ ٠

(٣) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ٠

مشروعة ، ولكن كل هذه الرسوم استمرت حتى بعد استيلائه على السلطة (١) عقب جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ ٠

وقد كان حكم الأئمة الزيديين لا يزيد على أن يكون قوة تفرض الضرائب ولا يتلقى المجتمع اليمنى أى شيء مقابل الضرائب التى يدفعها ، حتى فى شكل الوظائف التقليدية للحكومة مثل اقامة العدالة بطريقة ملائمة وحماية حقوق الملكية ٠ كما أن طرق تقدير وجبـاية الضرائب كانت بدائية للغاية وأفقدت المزارعين اليمنيين الشعور بالأمن والطمأنينة ٠ وكانت نتائج هذا النظام الضرائبى هجرة متواصلة ، ونقصا فى المساحة المزروعة وقلة فى انتاج المواد الغذائية ، وعدم تشجيع لتربية الحيوانات ، وأخيرا تعويقا للتجارة الداخلية والخارجية ، بل ان تعداد سكان اليمن كان يتم لأغراض ضرائبية بحتة ، وبطريقة بدائية فى عهد الامامة (٢) ٠ وكانت الحروب الدائمة التى أثارها مدعو الامامة فيما بينهم فى أثناء تنافسهم على السلطة ، والتى وجهت فيما بعد ضد الأتراك العثمانيين ، من العوامل التى أدت الى عدم تزايد السكان نظرا للمجاعات والدمار الذى كانت تسببه تلك الحروب الطاحنة ٠

أما النظام القضائى فى اليمن فى عهد الامامة فقد كان يقوم على ركام من الفقه ، صيغ منذ قرون ، ونظرا لاعتباره جزءا من النظام الدينى فقد كان جامدا لا يتغير ، كما كان غامضا ومفتقدا يقينية القاعدة القانونية لوجود آراء متناقضة للفقهاء المختلفين ٠ وتقف هذه الآراء المتناقضة على قدم المساواة ، وللقاضى سلطة تقديرية مطلقة لاختيار أحد الآراء ٠ وترتب على ذلك اختلاف أحكام المحاكم فى قضية معينة أو قضية مشابهة ، كما أن حق الاستئناف لم يكن محدودا ٠ وقد شجع التقاضى بهذا الشكل أن تظل القضايا معلقة لأمد طويل ، وكان هذا الموقف يعوق استثمار الأموال ، وكانت معظم الدعاوى كذلك تتضمن نزاعا حول ملكية

---

(١) محمد أنعم غالب : المصدر نفسه ، ص ١٠٩ ٠

(٢) عبد الواسع الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط ٢ ، ص ١٩ ٠

قال الواسعى أن تعداد سكان اليمن « على الأقل خمسة عشر مليونا ، وقد قدر هذا بعض السياح الألمان فى أيام الحكومة العثمانية ، وقدر هذا أيضا بعض كبار الأتراك وأفادنى أيضا بمثل هذا بعض أفاضل حضرموت السيد العلامة محمد بن عقيل ، وأفادنى أيضا بمثل هذا السيد العلامة محمد رشيد رضا أفاده بذلك كبار الأتراك فى الأستانة ٠ وقدر بعض السواح الأجانب ممن جال فى جميع اليمن مشارقها ومغاربها وشمالها وجنوبها الى حد الحجاز بعشرين مليونا ٠ وبعض الأتراك قدر اليمن بخمسة ملايين وهذا التقدير هو ما كان تحت سلطة الحكومة العثمانية لا ما كان داخلا تحت حكم الامام يحيى وأطراف اليمن من جميع الجهات » ٠

غير أننا نميل الى قول سانجر sanger بأن تعداد سكان اليمن بحدوده الحالية يقدر بنحو اربعة ملايين نسمة ، وتجدر الاشارة الى أنه لم يتم فى اليمن بعد تعداد للسكان بالمعنى الحديث ٠

الأراضى . وهكذا كانت الادارة القضائية فى اليمن فى عهد الامامة تعانى من انعدام تنظيم حديث ، وسجلات المحاكم كانت غير مرتبة ويصعب الوصول اليها ، كما لم يعرف أى اختصاص اقليمى أو نوعى مما جعل المدعى وليس القانون هو الذى يقرر اختصاص المحكمة .

وهكذا شكل نظام الامامة الزيدية بنظريته السياسية الدينية على النحو السابق توضيحه العقبة الأولى فى وجه الاستقرار السياسى والتطور التقدمى فى اليمن ، وكان ذلك نتيجة لعوامل متداخلة اقتصادية واجتماعية ، وجغرافية ، وثقافية ، وتاريخية . وكانت الدولة فى النظرية الزيدية مؤسسة مقدسة وظائفها أن تحقق بعض القيم والمثل التى تقررت سلفا . وكل الوظائف الاجتماعية والاقتصادية للدولة الزيدية تدور حول هذه الأهداف الدينية . وليست فكرة الدولة ذات طبيعة مقدسة فحسب ، بل ان أية اجراءات لاقامة تنظيم سياسى وتسيير دفة الحكم يتضمنها الدين . وقد صيغ المذهب الزيدى على هذه الأسس ، وصمم بحيث يناسب الحق الالهى المدعى لنسل النبى فى الحكم . وقد كانت مؤهلات الامام واجراءات اختياره يترتب عليها عدم وجود استقرار سياسى الى جانب كثرة الحروب الأهلية . وكانت المبادىء الخاصة بالنظرية الزيدية هى المسئولة عن هذا الاضطراب السياسى ، وهى الاصرار على الانتخاب ، واستعداد الامام المنتخب على تأكيد حقه والدفاع عنه بحد السيف ، وحق أى مدع أن يثور ضد الامام القائم ، حتى شجعت هذه الشروط التنافس بين « السادة » الطامحين لمنصب الامامة (١) .

كانت هذه هى الأنظمة التى واجهها الأتراك العثمانيون فى اليمن ، وهى تعكس تراثا تاريخيا لنظام الامامة ، كما كانت تعكس الريبة التقليدية للامام الذى كانت سلطته دائما تحت تهديد المنافسين ، مما جعله يركز كل شئون الدولة فى يده وينظر فى كل التفاصيل ويقرها . فهو رئيس القضاة ، ورئيس الادارة ، وقائد الجيش ، ويعين كل الموظفين من مختلف الرتب ، وخزانة الدولة تحت سيطرته الشخصية ، ويعتمد كل المصاريف بندا بندا ، والجهاز الادارى المحدود معد فقط لتنفيذ أوامره .

وكان نظام الامامة الزيدية ــ القائم على تدعيم أتباع المذهب الزيدى فى اليمن الذين يقل عددهم عن نصف تعداد السكان هناك ــ فى حاجة ماسة لايجاد ضمانات لبقائه أمام أتباع المذاهب الأخرى ، خاصة وأن بعضها سبق أن نجح فى اقامة دول مستقلة عن دولة الامامة الزيدية فى داخل البلاد اليمنية . وقد سار الأئمة على طريقة أخذ الرهائن من القبائل غير الزيدية ، وتمثلت هذه الرهائن فى الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشرة ، وكانت القبائل

---

(١) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

تستبدلهم كل بضعة أشهر بغيرهم من الصبية ، وبذلك تضمن الامامة الزيدية ألا يقوم أولياؤهم من زعماء القبائل بالتمرد على الأئمة والثورة ضدهم • وكان شيخ القبيلة الذى لا ولد له يحضر هو نفسه كرهينة أو يأتى بأخيه أو ببدل رهين جديد ليبقى هو فى الحالة الأولى رهينة مدى الحياة لدى الامام الحاكم (١) • والقبائل التى أخذت منها هذه الرهائن كانت تتولى الانفاق على طعامهم وملبسهم، وكذلك تفعل أسر المحبوسين فى الجرائم العادية فهى التى ترسل اليهم المأكل والملبس ، وتكتفى الامامة بأن تقدم لهم المسكن والقيود (٢) •

ويذكر عن الامام « الهادى الى الحق » يحيى مؤسس الدولة الزيدية باليمن فى أواخر القرن العاشر الميلادى والثالث الهجرى أنه كان يتبع مع المخالفين الشدة والعنف ، وأنه كان يأخذ الرهائن من القبائل التى كانت تنتقد عليه ولا يأمن لغدرها فيقبض على بعض رؤسائها ضمانا ضد ثورتهم ، كما فعل مع « وائلة » من قبائل « همدان » التى كانت تسكن شرق « صعدة » (٣) •

وحتى فى عهد الامام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) كان الرهائن يقيمون فى مدينة (صنعاء) فى (القصر) وهو حصن العاصمة اليمنية المنيع ، وهذا الحصن قلعة ضخمة تكسبها مداخلها الملتوية وجدرانها العالية الخالية من الفتحات منظرا قاسيا مخيفا ، ولكن مدافعها الموضوعة فى أبراجها الجانبية لا تطلق الا للتحية وفى المواسم والأعياد الرسمية • وقد وضع الامام للرهائن نظاما خاصا بين نظام الجنود ونظام الأيتام (الذين كان يعلمهم القرآن وأصول الدين ويلبسهم حلة صفراء) وبين نظام المسجونين ، فالرهائن يشتركون أحيانا فى الاستعراضات العسكرية ويسيرون فى صفوف الجيش بدون أن يحملوا سلاحا • وفى اليمن يخجل الشاب كل الخجل اذا ما ظهر أمام الناس دون أن يحمل سلاحا أو على الأقل خنجرا فى خصره وهو يسير بين صفوف الجنود المسلحين (٤) •

واذا كان محمد حسن عضو البعثة العسكرية العراقية الى اليمن فى سنة ١٩٤٠ يمتدح نظام الرهائن ويرى أن ما كان « يفعله بيت الرهائن فى اليمن من نتائج تتمثل فى الأمن والهدوء والاستقرار ما لا يفعله أى قانون دستورى فى الممالك الشرقية التى منيت بالقلاقل والفتن والاضطرابات » (٥) ، فان هذا الرأى فيه تجن على الحقيقة لأن الرهائن لم تكن على الاطلاق الطريقة المثلى التى

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٢٠ •
(٢) سلفاتور أبونتى : المصدر السابق ، ص ٨٤ •
(٣) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣٢ •
(٤) سلفاتور أبونتى : المصدر السابق ، ص ٨٤ •
(٥) محمد حسن : المصدر السابق ، ص ١٢٠ •

يمكن اتباعها لتكوين وحدة روحية أو سياسية متينة في اليمن ، بل انها على العكس كانت تحيي الأحقاد وتجدد الخلافات ٠

وقد بدا لسلفاتور أبونتي أن الرهائن هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع حكومة تقوم سلطتها على شعور الشعب الديني أن تستعملها لكي تكون في مأمن من دسائس أقليات تخالفها في العقيدة الدينية (١) غير أنه من الأمور التي لا تتفق مع الانسانية والتي تأباها الشريعة الاسلامية « أن تنتزع فلذات الأكباد، ومهج الأرواح من أحضـــان الآباء والأمهات قسرا ، ويزج بهم في أعالي القلاع وظلام السجون ، لا لذنب اقترفه آباؤهم ، ولا لجرم ارتكبوه ، وانما تنفيذا لبدعة ابتدعوها (الأئمة الزيديون) وسنة ابتكروها ، ولبئس ما ابتـــدعوا ولبئس ما سنوا ٠٠ لينفذوا ما أرادوا من ظلم وعسف في قبائلهم وأسرهم ، وأفخاذهم وعشـــائرهم ، بدوهم وحضرهم ، في سهولة ويسر ٠ ومما يثير السخط والأسى والحزن والأسف والغضب أن هذه التصرفات الشائنة كانت تجري باسم دين محمد وشريعة الله السمحاء ٠٠ أليس هذا الاجراء من حكومة صنعاء دليلا على عجزها في الحكم وعدم استقرار الأمور » (٢) في عهد الامامة الزيدية ٠

وتجدر الاشارة الى أن المذهب الزيدي في اليمن أدى الى تكوين طبقة عليا ذات سيادة من اليمنيين كانت لها امتيازاتمعينة فاقت ما لبقية الطبقات الأخرى، وأبرزت نوعـــا من الصراع الطبقي كانت له مســـاوئه الواضحة في المجتمع اليمني ٠ فاشتراط النظرية الزيدية أن يكون الامـــام من نسل النبي جعل لطبقة « السادة » الذين ينطبق عليهم هذا الشرط امتيازهم من خلال سيطرتهم على المراكز الحساسة في اليمن الزيدية باستغلالهم للدين (٣) ٠ فكانوا أسمى طبقات اليمن وأوفرها احتراما واعتزازا ، فقبضوا على عنان العقائد والميـــول ووجهوا الآراء والنزعات ٠ وكان اذا صادف اليماني واحدا من هؤلاء السادة وان صغرت ســـنه ورق حاله فانه يهـــوى على ركبتيه ويديه بالتقبيل ٠ وكل الامارات والوظائف الهامة في اليمن كانت للسادة بادىء ذي بدء مهما قلت معرفتهم وكفايتهم ٠ وكل صدقات الفطر والهدايا ، والنذور الدينية في الأعياد والمواسم ، وغيرها من الأوقاف كانت تجبى لهم مهما كثر ما لهم وسعد حالهم ، كما كانت القاعدة عند السادة أن يصاهر بعضهم بعضا (٤) ٠

ويأتي بعد السادة في الترتيب الطبقي القضاة أي العلماء وهم مؤهلون في

---

(١) سلفاتور أبونتي : المصدر السابق ، ص ٨٣ — ٨٤ ٠
(٢) اليمن المنكوبة : (مجهول المؤلف) ، ص ٤٨ ٠
(٣) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ٢٨ ٠
(٤) المقتطف : مجلد ٩١ ، ج ٤ ، عدد أول نوفمبر ١٩٣٧ ، ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ٠

علوم الدين والشريعة الاسلامية ، وكانوا يقاسمون السادة فى وظائف الادارة والقضاء • ومهما كان السادة فقراء فعلى الناس أن يحترموهم لأنهم ينتسبون فرضا الى النبى ، وقد زادت قبيل قيام ثورة اليمن الوطنية فى سنة ١٩٦٢ حالة الكراهية للسادة كنتيجة للمعارضة النامية ضد سيطرتهم السياسية ، كما أن القضاة باعتبارهم شركاء السادة فى السيطرة على شئون الدولة الزيدية السياسية والادارية كانوا على قدم المساواة من حيث الكراهية العامة (١) • وقد روى الرحالة الصحفى أمين الريحانى قصة يرجع تاريخها الى وقت زيارته لليمن فى أوائل الثلاثينات من القرن الحالى أن سيدا خلع نعله لجندى ليحمله معه وهم مسافرون ، وقال الريحانى : (فاقترب الجندى منى وهمس قائلا : « كل الناس فى اليمن فقراء ما عدا السادة ، والسيد طماع وكسلان ومتكبر ، وهذا هو المثل « وأشار الى السيف » ، وهذه هى أعمالهم « وأشار الى الحذاء » (٢) •

وتلى طبقة السادة والعلماء من ناحية المكانة الاجتماعية فى اليمن طبقة كبار ملاك الأرض الذين كانوا يسيطرون أيضا على جزء من احتكار التجارة ، وهؤلاء كانوا يكرهون أى تغيير كما أنهم كانوا تقليديين فى نظرتهم ، وقد ظلوا عاجزين عن اقامة أى استقرار سياسى طويل الأمد (٣) • وكانوا يظهرون الولاء ويقدمونه من أجل مصلحتهم الشخصية الى الدرجة التى توقعهم فى الاضطراب عند اختيار الجانب الذى يساندونه فى حالات الصراع السياسى (٤) • أما سواد الفلاحين فانهم يستمدون مركزهم الاجتماعى من ملكية الأرض ، وتغلب فى الهضبة الوسطى الملكية الصغيرة والمتوسطة التى تعد قديمة فى أصلها ، أما من كان لا أرض له فى ذلك المجتمع الزراعى فمركزه الاجتماعى منخفض بطبيعة الحـــال •

على أن سواد الفلاحين وأصحاب الحرف والقبائل البدوية فى اليمن تشكل كل فئة منهم طائفة خاصة مغلقة لها وظيفتها المحددة (٥) • والحرف فى اليمن عموما تقليدية ، وهى وراثية الى حد كبير ، وكان الانتقال الرأسى من طبقة الى أخرى يكاد يكون منعدما ، وحتى فى الزراعة فان انتاج بعض المحاصيل مقرون بمركز اجتماعى منخفض ، وفى الحرف والأعمال اليدوية فان بعض المهن مدعاة للاحتقار بصرف النظر عن مدى الكسب فيها أو المهارة التى تتطلبها • بينما نجد

---

(١) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ٢٩ •

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج٢ ص ١٨٥ •

(٣) أحمد محمد نعمان : انهيار الرجعية فى اليمن ، ص ٣٢ — ٣٣ •

(٤) محمد أنعم غالب : المصدر السابق ، ص ٢٩ •

(٥) Jean-Jacques Berreby : La Péninsule Arabique, p. 124.

القبائل ورجالها هم عصب اليمن الحقيقى يعيشون فى مختلف المناطق وفيهم قبائل عدنانية وأخرى قحطانية ٠

والى جانب هذه الطبقات التى وجدت فى المجتمع اليمنى فى عهد الامامة الزيدية ، فقد كانت هناك مجموعات من الناس لهم مراكز اجتماعية مختلفة ويعيشون على هامش المجتمع كجماعات « الأخدام » فى تهامة ، وأصلهم موضع اختلاف ويحتمل أنهم خليط من أصل حبشى وفارسى وزنجى ، وكانوا يعيشون فى أحيـــاء خاصة بهم ويقومون بخدمات مختلفة من بينها الترفيه كالرقص والموسيقى ٠ وتلاقى طبقة « الأخدام » فى معاملة غيرها ما لا يمكن أن يوصف بالعدل أو الانسانية ، وكذلك كان الحال مع من كانوا رقيقا وأعتقهم سادتهم ٠

أما اليهود اليمنيون الذين هاجر معظمهم الى فلسطين فى سنة ١٩٥٠ فان اقامتهم فى اليمن نحو ألفى سنة أصبحت جزءا من التـــاريخ اليمنى ٠ وكانت الجالية اليهودية فى اليمن لا تقـل عن ٦٠٫٠٠٠ ــ ٧٠٫٠٠٠ وكانوا يعيشون متفرقين فى جميع بلاد الهضبة ، اذ كانوا يجدون بين الزيدية من التســامح الدينى ما شجعهم على الاقامة ٠ وكان فى صنعاء وحدها نحو سبعة آلاف يهودى، كانت قراهم متفرقة فى جميع بلاد الهضبة وتبلغ ٣٥٩ قرية ، كما كانت تبنى اما وحدها بعيدة قليلا عن قرية جيرانهم من المسلمين ، أو يكونون لأنفسهم حيا خاصا داخل المدن « كقاع اليهود » فى صنعاء (١) ٠

وفى عهد الامامة الزيدية كانت تعيش مجموعات كبيرة من اليهود فى مدن اليمن الوسطى فى أحيائهم الخاصة ، وكان معظمهم من أصحاب الحرف ، وعندما جاء العثمانيون الى اليمن أظهروا اهتماما باليهود هناك ، وحرصوا على أشعارهم بالأمن والطمأنينة ، واعتبروهم أحد العوامل الاقتصادية الهامة فى البلاد ٠ وفى مدينة مناخة الواقعة فى غرب صنعاء والتى كانت أحد المراكز الهامة للأتراك ، كان يعيش هناك أمهر محترفى صناعة المعادن والنجارين من اليهود ، وقد سمح لهم الأتراك بامتلاك الحدائق والأراضى ، غير أنهم لم يسمحوا لهم باقامة المدارس أو الكنائس فاكتفوا باقامة بيوت غير مطلية ليقيموا فيها شعائرهم ٠ وسيقل الاهتمام باليهود بعد أن يستعيد الأئمة سيطرتهم على البلاد اثر جلاء العثمانيين عن اليمن فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (٢) ٠

كانت هذه فكرة عامة عن الامامة الزيدية فى اليمن من ناحيــة تاريخها ونظريتها السياسية فى الحكم ، أشرنا فى ثناياها اشارة سريعة لبعض جوانب الحياة اليمنية التى انعكست فيها ملامح هذا النظام ٠ وسوف نستعرض فيما يلى

---

(١) أحمد فخرى (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ٠

(٢) أحمد فخرى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣٤ ــ ٣٥ ٠

أحداث المنطقة الجبلية التى خضعت لحكم الأئمة الزيديين فى بلاد اليمن قبيل عودة العثمانيين اليها فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) وكيف مهدت تلك الأحداث الى نجاح العثمانيين حينذاك فى السيطرة على صنعاء واقامة الحكم العثمانى فى تلك البــلاد ٠

ان الأوضاع الداخلية المضطربة فى اليمن ، وخاصـــة فى المنطقة الجبلية الخاضعة لحكم الأئمة الزيديين كانت من أهم العوامل التى ساعدت العثمانيين على العودة الى اليمن ومكنتهم من دخول صنعاء واقامة الحكم العثمانى فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) (١) ٠ اذ أن بعض الأئمة الزيديين أنفسهم ، ومعهم بعض علماء اليمن وزعمائه ، استنجدوا بالسلطان العثمانى عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) ليســاعدهم على اقرار الأمور فى اليمن بعــد أن عمت الفوضى أرجاء البلاد (٢) ٠ وكانت الامامة الزيدية فى منتصف القرن التاسع عشر تجتاز محنة من أعظم المحن ، وتمر بها أسود أيامها ، اذ توالى على حكم اليمن أئمة ضعاف انصرفوا الى شئونهم الشخصية ، حتى ضعفت سلطتهم وسقطت هيبتهم ، وأعلن اليمنيون الثورة عليهم ، وانقسمت مدينة صنعاء شيعا وأحزابا ، وتآمر الإخوة ضد بعضهم البعض ، وقضى المنتصر فيهم على المنكسر قضاء مبرما (٣) ٠ وكان تعدد مدعي الامامة الزيدية فى وقت واحد وتنافسهم فيها بينهم للاستحواذ على السلطة فى البلاد من الظواهر الواضحة فى تاريخ اليمن فى ذلك الوقت ، ومن أهم عوامل الفــوضى والاضطراب ٠ وكثــيرا ما كان الأئمــة يستنجدون برجال القبائل ضد بعضهم البعض ، مما عرض مدينة صنعاء وغيرها من المدن اليمنية لغاراتهم التى كان يكثر فيها السلب والنهب والتخريب ، بل ان بعض الأئمة كانوا يتنازلون عن السلطة وعن الامامة لغيرهم من الأئمة الأقوياء ، بينما ادعى الامامة بعض المحتــالين والمشعوذين فى عــدد من الأقاليم التى رفضت الخضوع لأوامر الامامة المركزية فى صنعاء (٤) ٠ وقد أوضح العرشى صورة لتلك الفوضى عنــدما قال « حكى لى من عرف تلك الأزمة أن رجلا من آل القاسم أعطى أرباب الدولة (أصحاب الحل والعقــد فى اليمن) خمسمائة ريال ، لينصبوه اماما ، فنصبوه ليــلة واحــدة أو بعضها وعزلوه صباحا » (٥) وهكذا كانت الامامة

---

(١) Bury, G. W. : Op. cit., p. 31.

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٤ ٠

(٣) محمد بن أحمد العقيل : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ١ ق ٢ ، ص ٣٨٣ ٠

(٤) سلفاتور ابوتتى : المصدر السابق ، ص ٥٢ ٠

(٥) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٧٤ ٠

الزيدية بمشكلاتها من العوامل التى أشاعت الفوضى والاضطراب فى بلاد اليمن مما مهد لسقوطها فى يد العثمانيين ·

ومنذ تراجع العثمانيون عن صنعاء فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) ولجأوا الى تهامة التى اتخذوها موطنا صالحا يتجمعون فيه لمراقبة الأحداث وانتهاز الفرصة لاعادة الكرة من جديد ، فان اليمن أمضى حوالى ربع قرن كانت الخلافات فيه على أشدها ، وبخاصة فى المنطقة الجبلية الخاضعة لحكم الأئمة الزيديين · وأهم تلك الخلافات ذلك الصراع الذى نشب بين الامام على بن المهدى بصنعاء وبين المنصور أحمد بن هاشم بصعدة ، وبين المؤيد العباس بن عبد الرحمن القائم بعد المهدى وبين المنصور · ثم تجددت تلك الخلافات بين الامام أحمد ابن هاشم وبين المتوكل المحسن بن أحمد صاحب الأهنوم ، وتفرع من هذا الصراع خلافات قبائلية(١) مزقت وحدة الشعب اليمنى وأضعفت مقاومته أمام أية قوى دخيلة كما أن الصراع المذهبى الذى نشب بين الزيديين والشوافع وأتباع الباطنية من الشعب اليمنى كان ظاهرة واضحة أيضا فى تاريخ اليمن ، وأدى الى احداث كثير من الانقسامات والاضطرابات التى أفقدت البلاد وحدتها الروحية الى جانب فقدانها لوحدتها السياسية · وكان كل فريق يتهم الفريق الآخر بالكفر والالحاد، مما كان يزيد من حدة الصراع بين أتباع المذاهب المختلفة·وكان الأئمة الزيديون يستفيدون من هذا الصراع المذهبى فى تجميع القبائل اليمنية من حولهم بحجة الدفاع عن الدين ويكتسبون عن هذا الطريق تدعيما لمراكزهم · وقد ذكر العرشى بأسلوب الزيدى المتعصب لمذهبه « وقد أعيى الباطنية ملوك اليمن وأئمته مع الاجماع على كفرهم والحادهم » (٢) مؤكدا كراهية الزيديين وأئمتهم لدعاة الباطنية·

ويبدو أن الأئمة الزيديين أنفسهم سئموا الحروب وملوا القتال وتاقوا الى السلام والاستقرار ، وقبلوا أن يتولى زمام الأمور فى اليمن أحدهم على أن يقدم له الآخرون العون والمساعدة · وقد أشار الواسعى الى ذلك بقوله : « أما السادة الذين كانوا ادعوا أولا وخلعوا أنفسهم وذهبت بسببهم نفوس وأموال ، وحدثت غصص وأهوال ، فاجتمعوا فى الروضة (بشمال صنعاء) منهم غالب بن محمد ابن يحيى ، والعباس بن المتوكل أحمد ، وأحمد بن عبد الله بن أبى طالب ، وأجمع رأيهم على نصب امام منهم ، وقيام الآخرين بالأمر معه والاعانة له ، ويكونون كالبنيان أو كالبنيان يشد بعضه بعضا · ثم قام بالأمر غالب بن محمد وتلقب بالهادى » · غير أن أحمد الحيمى الذى كان وزيرا للامام غالب حاول أن يسيطر على صنعاء مما أثار الحرب بينه وبين الامام · وعلى الرغم من انتصار الامام غالب على وزيره المتمرد واتفاقهما على الصلح فقد نشب النزاع بينهما من جديد ، مما دفع

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٦٦ ·

(٢) العرشى : المصدر السابق ، ص ٧٤ – ٧٧ ·

الحيمي الى التفكير في الاستعانة بالعثمانيين المعسكرين في تهامة لنصرته على الامام غالب . كما أن أهالي صنعاء ثاروا على الحيمي هذا عندما أمر بهدم دار الطواشي التي كانت تعد من أروع قصور صنعاء ، كما أنهم غضبوا منه عندما حرض العامة من أهالي المدينة على اهانة أحد علمائها وهو أحمد بن محمد الكبسي فهدموا بيته ونهبوا مكتبته القيمة . ولهذا حاصر أهالي صنعاء الحيمي في قصره في سنة ١٨٥٧ (١٢٧٤ هـ) مما اضطره الى الرحيل الى « الصافية » في جنوب المدينة ليجمع من حوله قبائل بني جبر وبلاد الروس ، غير أنه أخفق في استعادة صنعاء . وأخيرا توجه الحيمي الى كوكبان والتجأ الى رئيسها ، ثم اتجه بعد ذلك الى تهامة للاستنجاد بالأتراك لنصرته على الامام غالب واقرار الأمور في صنعاء(١). ويبدو أن أحمد الحيمي لم يتمكن من الاتصال بالعثمانيين ، اذ منعه عن ذلك بعض رجال القبائل اليمنية في « الخبت » الواقعة في شمال جبل حفاش على حدود تهامة ، وضربوه وجرحوه في فمه جرحا خطيرا ، ثم سلموه الى الامام الهادي حسين بن أحمد الذي آل اليه الأمر في صنعاء حينذاك . وقد أمر هذا الامام بحبس الحيمي ، فظل محبوسا لمدة عام توفي بعده (٢) . وهكذا انتهت محاولة الحيمي في مهدها دون أن يتحرك الترك من تهامة ، وبذلك لم تبلغ تلك المحاولة ما بلغته محاولة الامام محمد بن يحيى من قبل عندما دعا الترك الى صنعاء في سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) وان كانوا قد أخفقوا في البقاء هناك في ذلك الحين .

وعلى أية حال فان الفوضى والاضطراب والمنازعات استمرت قائمة في اليمن بين الأئمة الزيديين مع بعضهم البعض ، وبينهم وبين نوابهم ومن يعارضهم من علماء اليمن وزعماء القبائل ودعاة المذاهب الأخرى من اليمنيين . وقد ألحقت تلك الفوضى بالتجارة اليمنية أبلغ الأضرار نتيجة لهجوم القبائل على قوافل التجارة والأسواق حتى عم الكساد . وقد فكر التجار اليمنيون في الفائدة التي قد يحصلون عليها اذا دعوا الأتراك لاقرار الأمور في صنعاء ، ورأوا أن ذلك يهيئ حالة من الأمن والاستقرار تؤدي بالتالي الى رواج التجارة اليمنية وازدهارها . لهذا انضم التجار اليمنيون الى غيرهم ممن رأوا الاستعانة بالسلطان العثماني لاقرار الأمور في اليمن . وكان التجار اليمنيون يعلمون أيضا أن مجيء العثمانيين الى بلادهم سيعود عليهم بالربح الوفير نتيجة لما توقعوه من تزايد الطلب من العثمانيين على شراء بضائعهم (٣) .

وهكذا سئم الأئمة الزيديون أنفسهم من الحروب المستمرة والمنازعات ،

---

(١) الواسعي : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

(٢) عبد الله الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٠٥ .

(٣) Harris, W.B. : A Journey through the Yemen ; and some general remarks upon that country, p. 99.

وزادت حاجة التجار اليمنيين الى الأمن والاستقرار الذى يهيىء لمتاجرهم الرواج والازدهار ، وتجددت الرغبة لدى أهالى صنعاء فى حياة هادئة مطمئنة بعـد أن ضاقوا ذرعا بغارات القبائل على مدينتهم وبالصراع الدامى بين الأئمـة داخل المدينة نفسها ، هذا فضلا عما أحدثته محاولة أحمد الحيمى للاتصال بالعثمانيين والاستعانة بهم فى اقرار الأمور من توجيه الأنظار الى خوض تلك التجربة ، خاصة وأنه كان من المعروف أن العثمانيين يملكون من القوة ما يمكنهم من السيطرة على الموقف واعادة الأمن الى البلاد • لهذا استنجد الامام على بن المهدى ، والامام الهادى غالب بن محمد بن يحيى ، والامام الحسين بن المتوكل أحمد ، ومعهم كثيرون من العلماء والرؤساء والأعيان ، بالخليفة العثمانى عبد العزيز عن طريق شريف مكة محمد بن عون (١) • وقد أوضحوا للسلطان العثمانى « ان العرب حول صنعاء قد شقوا عصـا الطاعة واستبدوا بالبلاد بالعتو والفساد ، فنرجو أن تمدونا ببعض العساكر (٢) لانقاذ اليمن من الفوضى والانهيار » •

وبطبيعة الحال لم يكن مستغربا أن يلبى السلطان العثمانى نداء اليمنيين ويستجيب الى مطلبهم ، وبخاصة فى الوقت الذى ضعفت فيه شـوكة الامامة الزيدية وعمت الفوضى أرجاء اليمن • وكان ذلك هو التوقيت المناسب لكى تحقق السياسة العثمانية أهدافها باعادة اخضـاع اليمن لسيادتها الفعلية ، وقد تم للعثمانيين تحقيق غايتهم هذه بسيطرتهم على صنعاء فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) ونجحوا فى اقامة الحكم العثمانى فى اليمن •

ثانيا ــ النفوذ العثمانى فى تهامة والمخلاف السليمانى وعسير قبيل سنة ١٨٧٢

أشرنا فى الفصل السابق الى أن العثمانيين بعد أن أخفقت حملتهم فى السيطرة على صنعاء فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) ارتدوا عنها الى تهامة حيث قنعوا بالبقاء هنـاك حتى تحين لهم الفرصة لاعادة الكرة من جديد فى ظروف أفضل • وقد اتخذ العثمانيون من الحديدة مركزا لتجمعهم • كما نصبوا الحسن ابن الحسين حاكما للمخلاف السليمانى فى شـمال اليمن على أن يكون تابعا للسيادة العثمانية • غير أن ثمة نزاعا نشب بين الحسن بن الحسين وبين ابن عمه الحسين بن محمد فى مدينة أبى عريش عاصمة المخلاف السليمانى ، مما أدى الى انقسام أهلها الى فريقين متصارعين • فتحصن الحسن فى قصر « نجران » وأخذ يطلق نيران مدافعه على خصمه المتحصن فى قصر « الشامخ » • فكانت قذائف الفريقين تتساقط وسط المدينة وتقتل الأبرياء • وأخيرا أرسل الحسين جماعة من رجاله اغتالوا الحسن فى قصره ثم انفرد هو بحكم أبى عريش بينما كان العثمانيون يوطدون نفوذهم فى أرجاء تهامة •

---

(١) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٦ •
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٣ •

على أن حكم الحسين للمخلاف لم يكن أفضل من سابقه ، اذ افتقدت البلاد حالة الأمن والاستقرار مما دفع أهالى أبى عريش الى الاستنجاد بالعثمانيين فى الحديدة حتى يخلصوهم من ظلم الحسين وجبروته وقد استجاب قائد العثمانيين لمطلب أهالى المخلاف واستدعى الحسين لمقابلته فى الحديدة · وقد روى العقيلى أن الحسين بن محمد عندما بلغ منتصف الطريق بين أبى عريش والحديدة وصلته قصيدة من أحد أعوانه وهو الشاعر المعروف بالابى ، **وصف فيها القوات العثمانية بقوله :**

« كأنما الردف منها وهى تحمله غوائل الروم أو سر هناك خفى »

مما أوقع الرعب فى قلب الحسين فبادر بالعودة الى أبى عريش تفاديا للتصادم مع العثمانيين فى معركة خاسرة (١) ·

غير أن الحسين بن محمد لم يغير من سياسته فى حكم المخلاف السليمانى ، بل ساءت الأمور عما كانت عليه من قبل ، حتى اضطر رئيس مدينة أبى عريش أحمد بن حسن الحمزى الى الاستنجاد بأمير عسير محمد بن عائض ، بعد أن تعهد له نيابة عن أهل المدينة بالتأييد والمساندة · ولقى هذا المطلب لدى أمير عسير كل قبول ورضا ، لأنه كان يطمع فى السيطرة على المخلاف من جهة ، كما كان يهدف ــ من جهة أخرى ــ الى طرد الترك من تهامة واخضاعها لحكمه · لهذا تقدم أمير عسير صوب مدينة أبى عريش ، منتهزا فرصة اشتغال الترك عنه فى الحديدة بتسكين الفتن والثورات التى نشبت ضدهم فى تهامة نتيجة لضعف السيطرة العثمانية واضطراب الأمور فى تلك البلاد · وقد اقتحم العسيريون على الحسين قصر « الشامخ » فى أبى عريش ، وسيطروا على المدينة بأسرها بعد أن تخلى أهلها عن مساندته ، مما اضطره أخيرا الى الفرار ناجيا بنفسه فى سنة ١٨٦٣ (١٢٨٠ هـ) (٢) · وقد شجع النجاح الذى أحرزته قبائل عسير فى المخلاف السليمانى على تدعيم المقاومة اليمنية ضد السلطات العثمانية فى تهامة التى أزعجها هذا الانتصار · وتحرج موقف متصرف الحديدة التركى على ياور باشا ، وطلب النجدة من عزت باشا حاكم عام الحجاز · وكان مجىء قوات عثمانية جديدة الى اليمن كافيا لانسحاب القبائل الثائرة عن الحديدة واعتصامها فى المناطق الجبلية المجاورة لها (٣) ·

على أن خطر الثوار لم ينته بهذا الانسحاب لأنهم ظلوا يسيطرون على بعض

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٣ ·

(٢) العقيلى المصدر نفسه ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٤ ·

(٣) محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير ١٨٦٤ ــ ١٨٦٦ ، ص ٩٦ ·

المناطق الحصينة على الساحل ، والتى مكنتهم من مطاردة السفن التجارية المارة بمحازاة ساحل عسير ، والاستيلاء على ما تحمله من متاجر(١) وكان على السلطات العثمانية الحاكمة فى الحجاز والتى تتمثل فى عزت حقى باشا الوالى العثمانى والشريف عبد الله حاكم مكة أن تقضى على تلك الثورة ، حتى لا ينحسر نفوذ الدولة عن اليمن وبلدان الجزيرة العربية تدريجيا ٠ ولكن نظرا لعدم تحديد اختصاص كل من الرجلين المسئولين تحديدا دقيقا فقد حاول كل منهما أن يفتئت على سلطة الآخر ، فكثر الاحتكاك بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين ، وساعد على ذلك الكراهية المتبادلة بينهما ٠ فعزت باشا كان يمثل العصبية التركية الحاكمة ، بينما الشريف عبد الله يمثل العصبية العربية المحكومة ، وأدى ذلك فى النهاية الى عدم القيام بعمل ايجابى مشترك لاخماد تلك الثورة ٠ كما أن موقف شريف مكة تحرج كثيرا عندما كلفه الباب العالى بالقضاء على ثورة قبائل عسير ، وذلك لأن تلك القبائل كانت من أهله وعشيرته ٠ بل انه كان على العكس من ذلك يحرضهم سرا على الثورة ضد الحكم العثمانى ٠ ولهذا لم تستطع السلطات العثمانية الحاكمة فى الحجاز القيام بعمل ايجابى حاسم للقضاء على ثورة العسيريين ضد العثمانيين فى المخلاف السليمانى وتهامة اليمن ٠

وازاء هذا الموقف اضطر الباب العالى أن يلجأ الى والى مصر (اسماعيل) للاستعانة به فى اخماد ثورة العسيريين ضد العثمانيين فى اليمن ، حتى لا تخرج تلك البلاد نهائيا عن حظيرة الدولة ٠ ولما كان والى مصر يسعى فى ذلك الوقت للحصول على فرمان من الباب العالى يجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر أبنائه ، رحب بتلك الدعوة ارضاء للسلطان العثمانى ٠ ومن ثم فقد أعدت مصر قوة حربية قوامها ٥٤٤٤ جنديا من المشاة والفرسان الباشبوزق (غير النظاميين) مزودة بأربعة مدافع جبلية تحت قيادة اسماعيل صادق بك ٠ وأبحرت تلك القوة فى ٣ يونيه سنة ١٨٦٤ من ميناء السويس على الباخرة « الحديدة » ، متجهة الى جدة ومنها الى شمال اليمن ٠ وهكذا كان تدخل مصر فى بلاد اليمن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وهو يشبه ــ الى حد كبير ــ تدخلها فى شئون شبه الجزيرة العربية فى عهد محمد على حينما استعان به السلطان العثمانى لاخماد الثورة الوهابية ٠ ولكن والى مصر (اسماعيل) لم يكن على استعداد لأن يقدم تضحيات كبيرة كتلك التى قدمها محمد على ، ثم يكون شأنه فى النهاية شأن جده من قبل ٠ ولهذا فقد آثر سياسة اللين ، وعدم المخاطرة بالدخول فى حرب ضد الثوار ، بأية حال من الأحوال ، مع بذل كل المساعى الممكنة للوصول الى تسوية سلمية بين الطرفين المتنازعين (٢) ٠ هذا فضلا عن أن مصر حرصت أيضا على

---

(١) Douin : Histoire du règne du Khédive Ismail, T. 1, p. 316.

(٢) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٩٧ ٠

اقناع رجال الحكومة فى الآستانة بوجهة نظرها فى حسم النزاع بالطرق الودية . ونجحت فى الحصول على موافقة الباب العالى على تلك السياسة (١) ، وخصوصا بعد أن أظهر الثوار اليمنيون ميلهم للتفاهم والدخول فى طاعة الدولة العثمانية حقنا للدماء وحفظا للأموال والممتلكات (٢) .

وقد زاد من اشتعال ثورة العسيريين ضد النفوذ العثمانى فى تهامة والمخلاف السليمانى انضمام ثلاثة قبائل عربية كبيرة كانت تقيم بالقرب من الطائف الى الثوار اليمنيين ، بعد أن خضعت تلك القبائل فترة طويلة من الزمن لحكومة الحجاز . وقد أصرت السلطات العثمانية على عودتها ، واتخذت التدابير اللازمة للقيام بعمل حاسم ، فاجتمع مجلس عسكرى ضم كلا من اسماعيل صادق بك ، والشريف عبد الله ، وعزت حقى باشا ، وبعض الضباط العظام لبحث الموقف ووضع الخطط الحربية الكفيلة بقمع الفتنة . وقد استقر رأى المجلس العسكرى على ايفاد القوات المصرية والعثمانية الى بلدة قنفدة لاتخاذها مركزا أماميا للعمليات الحربية (٣) .

وفى ١٢ من أغسطس سنة ١٨٦٤ خرج شريف مكة على رأس قوة قوامها ٢٥٠٠ من الفرسان الباشبوزق والمشاة والمدفعية ، متخذا الطريق البرى المؤدى الى قنفدة من ناحية الشرق ، حيث تتجمع القوات المصرية والعثمانية قبل بدء الهجوم . ولحقت به أيضا قوة حربية من فرسان الباشبوزق قوامها ١٨٠٠ فارس. بينما سارت قوة حربية أخرى تحت قيادة أخى شريف مكة لدخول قنفدة من ناحية الغرب . فأصبحت جملة القوات الزاحفة على عسير حوالى ٨٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريفين ، منها ٢٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريف عبد الله ، و ١٨٠٠ تحت قيادة أخيه ، و ٤٢٠٠ جندى مصرى تحت قيادة اسماعيل صادق بك . وكان يقابل هذا العدد من الثوار عشرون ألف مقاتل ، مزودين بأربعين مدفعا ، وبعدد كبير من البنادق ويعتصمون بمناطق جبلية حصينة . فكانت فرصة الفوز أمام القوات المصرية والعثمانية ضئيلة للغاية ، وهذا ما وجه شريف مكة الى التروى وعدم القيام بأية عمليات حربية ضد الثوار (٤) .

---

(١) محفظة سايرة من الجناب العالى الى صاحب العزة قومندان العساكر المصرية بالحجاز ، وثيقة بدون رقم فى أغسطس سنة ١٨٦٥ (١٥ من ربيع أول سنة ١٢٨٢ هـ) . من مجموعة الوثائق المعربة المنقولة عن دار الوثائق القومية بعابدين بالقاهرة .

(٢) دفتر ٢١ عابدين من الجناب العالى الى كامل بك « القبوكتخدا » (ممثل مصر لدى الباب العالى) ، وثيقة رقم ٣٧ فى مايو سنة ١٨٦٥ (٢٠ من ذى الحجة سنة ١٢٨١ هـ) .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٤) Aff. Etrang. Corr. Polit. S., Marie au Ministre, No. 212 Djeddah, 12-24 Oct. 1865.

(من مجموعة الوثائق الفرنسية المنقولة عن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية والمحفوظة بدار الوثائق القومية بعابدين بالقاهرة) .

وكان والى مصر (اسماعيل) أشد حرصا من شريف مكة على عدم خوض معارك حربية ضد قبائل عسير ، كما يبدو هذا من الكتاب الذى أرسله الأول الى اسماعيل صادق بك قائد الحملة المصرية فى أواخر أغسطس سنة ١٨٦٥ حيث يقول : « واذا صدر اليكم تنبيه بالسفر الى جهة ما أو بالهجوم ، ورأيتم فى ذلك خطرا فلا تعيروهم أذنا صاغية وتمهلوا فى تنفيذ طلباتهم • واعلموا جيـدا أن أمراء وضباط الجانب الآخر (يقصد العثمانيين) أناس غريبو الأطوار ، لا يهتمون قيد شعرة اذا ما هلكتم جميعكم ، ولا يسألون عنكم • فكونوا على حذر وبصيرة واجتنبوا اتلاف الجنود واتعابهم » (١) • بل ان اسماعيل حذر قائده فى نهاية الكتاب أيضا من الدخول فى حرب جدية مع قبائل عسير اليمنية وأمره بأن يتجنب القتال قدر المستطاع • كما أرسل والى مصر كتابا آخر الى شريف مكة يلفت نظره الى ضرورة ابعاد القوات المصرية عن ميناء قنفدة ، لأن جوه لا يتلاءم مع الحالة الصحية للجنـود المصريين • وطالب بسحبهم فى الحال الى منطقة أكثر ملاءمة لطبيعتهم (٢) • ومن الملاحظ أن والى مصر أراد أن يوفق بين مصلحته وبين تنفيذ بنود فرمان سنة ١٨٤١ ، الذي نص على اعتبار الجيش المصرى جزءا من الجيش العثمانى ، وعلى وجوب مساعدة مصر للدولة العثمانية اذا ما طلب منها ذلك فى أي وقت من الأوقات • أى أنه أراد أن يحافظ على نصوص هذا الفرمان من ناحية الشكل ، لا من ناحية الجوهر • ولذا حرصت مصر على مساندة الدولة العثمانية فى مختلف المناسبات دون أن تكبد نفسها خسائر كبيرة ، كان فى مقدورها تجنبها وتلافيها (٣) ، ودون أن تثير حربا جدية مع اليمنيين الا لالزامهم باحترام السيادة العثمانية ، مع تجنب القتال قدر المستطاع • ولا أدل على ذلك من رفض والى مصر اجابة مطلب شريف مكة وتزويده بأورطتين سودانيتين علاوة على ما لديه من جنود لاخماد ثورة العسيريين ، لأن والى مصر لم يشأ أن يذهب فى مساعدته للباب العالى في مسألة عسير الى أبعد من هذا الحد ، كما أنه كان يخشى على الحالة فى السودان من جراء سحب هاتين الأورطتين نظرا لقلة ما لديه من القوات • ولذا أمر والى مصر قائد قواته فى الحجاز بتجاهل طلب شريف مكة « وبأن ينفـذ التعليمات السرية حرفيا وبكامل الدقة والعنـاية ، وألا يهتم بتعليمات الباب العالى اذا ما تعارضت مع تلك التعليمات » (٤) •

---

(١) محفظة سايرة • من الجناب العالى الى إسماعيل صادق ، وثيقة بدون رقم فى أواخر أغسطس سنة ١٨٦٥ (٦ من ربيع آخر سنة ١٢٨٢هـ) •

(٢) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى الى سيادة الشريف أمير مكة المكرمة ، وثيقة رقم ٨٦ فى سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٣ من ربيع آخر سنة ١٢٨٢هـ) •

(٣) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٠٠ •

(٤) محفظة سايرة من الجناب العالى الى اسماعيل صادق بك ، وثيقة رقم ٩٣ فى أوائـل سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٣ من ربيع ثان سنة ١٢٨٢ هـ) •

بل ان والى مصر حاول أن يتوسط لفض مشكلة عسير وديا موجها النصح الى أمير عسير اليمنى محمد بن عائض حتى يخلد الى الهدوء والسكينة ويحترم سيادة الدولة العثمانية ، اذ أرسل اليه كتابا (١) فى شهر سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٤ من ربيع ثانى سـنة ١٢٨٢ هـ) يوضح له فيه ما تأمر به تعاليم الدين الاسلامى الحنيف من اطاعة ولى الأمر ، ويعده فى حالة استجابته لنصحه بأن يسعى لدى الباب العالى للحصول على عفوه وموافقته على تعيينه أميرا على عسير ، بعد أن يتنازل عن الأراضى والقبائل التى ضمها اليه ٠ وفى ختام هذا الكتاب وجه والى مصر تحذيره لأمير عسير من عاقبة تماديه فى العصيان بقوله : « واذا لم تقبـلوا النصيحة الخيرية فى الدين ٠٠ فتكونون السبب فى ســوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القـاهرة الى تلك البقاع ، وخراب تلك الديار وسفك الدماء ٠٠ فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة » (٢) ٠

وجدير بالذكر أن هذا الخطاب أرسله والى مصر مع مندوب خاص من قبله، ويدعى (أحمـد أفنـدى اليمنى) لتسليمه الى أمير عسير ٠ كما طلب الى هذا المندوب أن يتفاوض معه سرا بشأن الوصول الى اتفاق فيما بينهما ٠ وفى الوقت نفسه أرسل الوالى المصرى لاسماعيل بك صادق قائد القوات المصرية فى الحجاز بأن يترقب عودة المندوب ، وألا يعلن عن نتيجة تلك المفاوضات الا اذا أسفرت عن نجاحها ، حتى لا يضعف مركزه أمام شريف مكة وأمام الباب العالى (٣) ٠ ومما يلاحظ فى هذا الخطاب أن الحكومة المصرية كانت تقوم من نفسها بالوساطة للصلح وأنها تقـدم كل هـذه الوعود السخية لأمير عسير فتعده لا بالعفو عنه فحسب ولكن أيضا بتعديل حدود امارته وتغيير اسمها تبعا لذلك وبالانعام عليه بالباشوية ، ولا شك أن هذا يدل دلالة واضحة على مدى نفوذ مصر فى بلاد اليمن فى ذلك الحين ٠ بل ان أمير عسير أظهر ميله الى السلم والرجوع الى حظيرة الدولة العثمانية بعـد أن تلقى هذا الخطاب مما يظهر مدى فعالية النفوذ المصرى فى تلك الجهات ٠ هذا فضلا على أن والى مصر عندما علم أن دعوته الى السلم وجدت قبولا لدى أمير عسير ، بعث اليه بكتاب آخر يبشره بقرب صدور فرمان سلطانى يمنحه رتبة أمير الأمراء والباشوية كما وعده من قبل (٤) ٠ على أن مصر طالبت

---

(١) دفتر صادر عابدين من لدن الجناب الأعظم الى محمد بن عائض أمير عسير ، وثيقة رقم ٩٠ فى سبتمبر ١٨٦٥ (١٤ من ربيع ثانى سنة ١٢٨٢ هـ) ٠

(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ – ١٨٧٩) ص ٤١٥ – ٤١٧ ، (انظر الملحق رقم ١) ٠

(٣) محفظة سايرة بدون رقم ٠ من الجناب العالى الى اسماعيل صادق بك ، وثيقة بدون رقم فى أكتوبر سنة ١٨٦٥ (١٩ من جمادى الأولى ١٢٨٢هـ) ٠

(٤) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى الى محمد بن عائض أمير عسير ، وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ ٠

الباب العالى أيضا بتنفيذ ما وعدت به أمير عسير ، حتى لا تحرج معه وحتى لا تتجدد ثورة العسيريين كما أشارت مصر الى ما كان « لمسألة العسير من الأهمية القصوى فى البلدان العربية ، ولذا فان حسمها بالطريقة المفتوحة يوفر على الدولة الشيء الكثير من الجهود والنفقات » (١) ٠

وعلى الرغم من جنوح أمير عسير للسلم ، فان الباب العالى لم يسمح للقوات المصرية بالانسحاب من الأراضى الحجازية واليمنية ، بل أصدر أمره بأن تظل تلك القوات مرابطة فى قنفدة ريثما يحسم الأمر بصفة نهائية ، فربما تتطور الأمور فجأة ٠ وهكذا لم يكن هناك مناص من بقاء القوات المصرية فى مواقعها فى الحجاز واليمن فترة أخرى من الزمن ، فلم يجد والى مصر بدا من الرضوخ لهذا الأمر (٢) ٠ على أن والى مصر خشى من قيـام اضطرابات أخرى فى قلب شبه الجزيرة العربية خصوصا وأن الأحوال فى اليمن والحجاز كانت غير مستقرة بصفة عامة مما كان يتعذر معه سحب القوات المصرية من هنـاك ٠ وأخيرا انتهز الوالى المصرى فرصة تجمع تلك القوات فى ميناء جدة ، وأخذ يلح على الباب العالى فى سحب قواته بعد أن استقرت الأمور محتجا بأن بقاءها خارج مصر فى مهمة حربية يحمل الميزانية المصرية أموالا اضافية ، خصوصا وأن جملة تكاليف الحملة بلغت حتى ذلك الوقت فى أكتوبر سنة ١٨٦٥ أربعين ألف كيسة (٢٠٠ر٠٠٠جنيه) (٣)٠ كما أن مصر فى ذلك الوقت لم تكن لها سياسة عربية تشجعها على ابقاء جنودها فى بلاد الجزيرة على النحو الذى حدث فى عهد امبراطورية محمد على ، وان حاولت مصر أن تفيد من وجود قواتها فى اليمن عندما علمت بوجود بعض الأماكن الغنية بالفحم الحجرى فى منطقة الحديدة ، وكانت مصر تهدف من استخراج تلك الثروة الطبيعية الى انعاش البـلاد اليمنية من جهة ، ودر الخير الجزيل على الخزانة المصرية وخزانة الدولة العثمانية من جهة أخرى ٠ ولهذا أرسل والى مصر الى ممثل الدولة العثمانية فى الحديدة خطابا فى نوفمبر سنة ١٨٦٥ (١٠ من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ) يخطره فيه بأنه أرسل الى الحديدة على باخرة خاصة بعثة برئاسة (أمين بك) مهمتها التنقيب والبحث عن هذا النوع من الفحم ، وطلب منه أن يسهل لهذه البعثة مهمتها وأن يقدم لها كل عون ومساعدة (٤) ٠ كما

---

(١) دفتر ٢٢ صادر عابدين ، وثيقة ١٢٢ فى أكتوبر ١٨٦٥ (٥ من جمادى الأولى ١٢٨٢هـ) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٨ ، (انظر الملحق رقم ٢) ٠

(٢) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى الى الباب العالى ، وثيقة رقم ١٤٦ فى أكتوبر سنة ١٨٦٥ (١٩ من جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ) ٠

(٣) دفتر ٢٢ عابدين من الجناب العالى الى كامل بك القبوكتخدا ، وثيقة رقم ١٩٥ فى أكتوبر ١٨٦٥ (١٠ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ) ٠

(٤) دفتر ٢٢ صادر عابدين ، وثيقة رقم ٢٠٤ فى نوفمبر ١٨٦٥ (١٠ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ) ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٩ ، (انظر الملحق رقم ٣) ٠

أرسل والى مصر خطابا آخر فى التاريخ نفســه الى اسماعيل صادق بك قائد العساكر المصرية فى الحجاز يخطره فيه بارسال بعثة التنقيب المذكورة ، ويأمره بتخصيص « بلوكين من الجنود النظامية المصرية » لمصاحبة البعثة واطاعة أوامر رئيسها حتى تنتهى مهمته فى بلاد اليمن (١) ٠

وعلى أية حال فقد وردت أوامر القاهرة الى اسماعيل صادق بك قائد القوات المصرية فى الحجاز فى ٢٧ من ديسمبر سنة ١٨٦٥ (٧ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) بأن يشرع فورا فى ترحيل الجنود النظامية الى مصر أولا ، على أن تتلوها القوات غير النظامية (٢) ٠ وقد تم بذلك انسحاب القوات المصرية من الحجاز وشمال اليمن فى يناير سنة ١٨٦٦ ، بعد أن أمضت حوالى السنتين دون حرب أو قتال مع محمد بن عائض أمير عسير ٠

وتقديرا لما قام به والى مصر من خدمات لفض هذا النزاع ، أرسل الباب العالى جميل باشا (أحد المعاونين العسكريين فى الديوان السلطانى) الى مصر يحمل خطا شريفا يسجل فيه شكره لاسماعيل على ما بذله من مساع موفقة لحسم مشــكلة عســير دون اراقة دماء (٣) كما تبودلت التهانى أيضا بين الباب العالى وشريف مكة بهذه المناسبة (٤) ٠

وتجدر الاشارة الى أن الوالى المصرى أرسل تهانيه الى « محمد باشا بن عائض قائمقام سنجق العزيزية اليمانية » فى يناير سنة ١٨٦٦ (٢٨ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) بمناسبة تسوية النزاع بينه وبين الدولة (٥) ، كما بشره بوفاء الباب العالى بالوعود التى وعده بها فى أثناء قيامه بالوساطة بينهما ٠ بل ان الحكومة المصرية أرسلت هدية لمحمد بن عائض فى ١٠ من مارس سنة ١٨٦٧

---

(١) دفتر ٢٢ صادر عابدين ، وثيقة رقم ٢٠٦ فى نوفمبر ١٨٦٥ (١٠ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ) ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٩ ، (انظر الملحق رقم ٤) ٠

(٢) محفظة مسايرة ٠٠ من الجناب العالى الى اسماعيل صادق بك ، وثيقة بدون رقم فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٥ (٧ من شعبان سنة ١٢٨٢ هـ) ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٠ (انظر الملحق رقم ٥) ٠

(٣) الوقائع المصرية ٠ العدد رقم ٦ فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٦٥ ٠

(٤) Aff. Etrang. Corr. Polit, S. Marie au Ministre, No. 212, Djeddah 24 Oct. 1865.

(٥) دفتر ٢٢ عابدين (بند متفرقات) من اسماعيل باشا الى محمد باشا بن عائض أمير عسير ، وثيقة بدون رقم ، ص ٩٣ فى يناير ١٨٦٦ (٢٨ من شعبان ١٢٨٢ هـ) ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢١ ــ ٤٢٢ (انظر الملحــق رقم ٦) ٠

(٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨٣ هـ) عبارة عن « بندقية مذهبة مسدسة من المصنوعات المصرية ، وخيمة كبيرة مع ما يتعلق بها من الأدوات وزوج طبنجات من الذى يضرب ست مرات » كما أرسلت مع الهدية خطابا آخر يدعوه فيه للمحافظة على صلات الود والصداقة • وكانت مصر تحرص على تنمية هذه الصلات الطيبة مع الحكام المحليين فى الحجاز واليمن وتعمل على توثيقها خاصة مع الحكام أصحاب النفوذ الحقيقى فى تلك البلاد (١) •

على أنه لم تمض فترة طويلة حتى ظهرت من جديد بوادر استعدادات أمير عسير العسكرية وتحركاته العدوانية ، لتحقيق أهدافه التوسعية على حساب النفوذ العثمانى فى اليمن • عند ذلك كتب اليه خديوى مصر اسماعيل فى سنة ١٨٦٨ (١٢٨٤ هـ) محذرا اياه من نتائج العودة للعصيان من جديد بقوله « انكم اذا كنتم قد تخطيتم الى محل خارج حدود سنجق العزيزية اليمانية ، على خلاف ما سبق الاتفاق بينكم وبين امارة مكة المكرمة وولاية الايالة الحجازية فتخلوا عنه وأخلوا جندكم منه وعودوا للطاعة والموادعة وصدق النية واخلاص الطوية لجانب السلطنة السنية ، حسما للشر ، وحقنا للدماء ، وحفظا للعهود ، ورعاية للوفاء ، وابقاء للأمن والأمان ، وخروجا من غضب حضرة السلطان » • كما أوضح خديوى مصر لأمير عسير أن مثل هذا التعدى سيؤثر فى صلات الود والصداقة بينهما وأنه قد يضطر يوما ما أن يوجه الى عسير « العساكر والجنود لأداء ما عقدت بينكم (أمير عسير) وبين السلطنة السنية أيدى العهود ، فهنالك لا يحصل لكم الا الندم من تجاسركم على ما يوجب فى المسلمين اراقة دم » (٢) •

بل ان الحكومة المصرية خشيت أن يساء تأويل موقفها من أمير عسير محمد ابن عائض لدى الباب العالى ، فأرسلت خطابا الى « القبو كتخدا » • وهو ممثل مصر بعاصمة السلطنة فى ١٤ من مايو سنة ١٨٦٧ (٩ من محرم سنة ١٢٨٤ هـ) لتوضيح حقيقة موقفها • ونتبين من هذا الخطاب أن كلا من أمير مكة ، ووالى الحجاز كتبا لمصر مباشرة يرجوان تدخلها لحل مسألة عسير ، ودعوة محمد ابن عائض أن يخلد للهدوء ويلتزم بتبعيته للسيادة العثمانية • وعندما بدأت قوات عسير تدخل الأراضى التابعة لأمير مكة ووالى الحجاز فقد أعادا الكتابة من جديد لمصر يطلبان من الخديوى أن يرسل خطابا لأمير عسير أشد لهجة من خطابه

---

(١) سجل ٢٤ صادر عابدين ، صورة المكاتبة العربية رقم ٣٤٣ فى ١٥ من مارس ١٨٦٧ ، (٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨٣ هـ) •
شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٥ ، (انظر الملحق رقم ٧) •

(٢) دفتر ٢٤ عابدين ، ص ١٠٦ ، وثيقة بدون رقم فى (٧ من محرم ١٢٨٤ هـ) •
شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ ، (انظر الملحق رقم ٨) •

الأول • ويدلنا هذا على ما كان لمصر من مكانة فى هذه الجهات وعلى اقتناع حكامها المحليين بمركز مصر ونفوذها ، وبأن لها كلمة مسموعة فى هذه المنطقة (١) • أما أمير عسير فقد أبدى لخديوى مصر اعتزازه بصلات الود والصداقة مع الحكومة المصرية ، وأوضح ذلك فى الخطاب الذى أرسله اليه فى ٣٠ من يوليو سنة ١٨٧٠ (غرة جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ) • وقد ذكر محمد بن عائض فى هذا الخطاب أن الخديوى هو « محط رحال الآمال » وأن الحساد يحسدونه على مابينه وبين مصر من ود ، كما طلب ارسال أخصائيين أو فنيين مصريين لاصلاح المدافع فى عسير ، عندما ذكر أنه « اذا رأى حضرة أفندينا ارسال واحد سباك لفك المدافع خاصة وتوضيب جمجيع مايتعلق بها فهو لدينا من جزيل الاحسان وقوتنا لأفندينا ، والله يعلم أنا صادقون فى ذلك » (٢) •

غير أن محمد بن عائض كان يعد العدة لتحقيق آماله فى طرد العثمانيين من المخلاف السليمانى وتهامة واخضاعها لحكمه • ولهذا قام فى سنة ١٨٧١ (١٢٨٧ هـ) فى أواخر عهد السلطان العثمانى عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦) بغزو المخلاف السليمانى ، وتمكن من طرد القوات العثمانية ورحلها بحرا الى الحديدة التى كانت مركزا لتجمع القوات العثمانية فى اليمن • ثم تقدم أمير عسير صوب تهامة حتى وصلت طلائع جيشه الى مخا وزبيد ، واشتبكت قواته مع العثمانيين فى الحديدة فى نوفمبر سنة ١٨٧١ (رمضان سنة ١٢٨٨ هـ) (٣) • وكان يتولى زمام الأمور فيها القائد العثمانى على باشا الحلبى (٤) • غير أن قوات عسير منيت بالهزيمة ، وارتكبت فى أثناء تراجعها الى عسير من الفظائع ما تقشعر له الأبدان ، وخاصة فى قرية الزيدية (٥) •

وعندما وصلت أخبار اغارة الجيش العسيرى على تهامة الى عاصمة الدولة العثمانية ، فقد رأت من الضرورى لابقاء اليمن تابعة لها وللمحافظة على الحامية العثمانية هناك ، أن تجرد حملة قوية الى اليمن للقضاء على أمير عسير المتمرد • ولهذا وصلت حملة عثمانية الى ميناء القنفدة فى سنة ١٨٧١ (١٢٨٨ هـ) يقودها

---

(١) سجل عابدين ، وثيقة رقم ٤٠٢ فى ١٤ من مايو سنة ١٨٦٧ (٩ من محرم ١٢٨٤) • شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ – ٤٢٩ ، (انظر الملحق رقم ٩) •

(٢) محفظة ١٩ ، وثيقة رقم ١٢٥ فى ٣٠ من يوليو سنة ١٨٧٠ (غرة جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ) • شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٣٠ ، (انظر الملحق رقم ١٠) •

(٣) Bury, G. W. : Op. Cit., p. 14.

(٤) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ •

(٥) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٥ •

محمد رديف باشا « فى عسكر يزيد عدده على ستة آلاف ، ومعهم المدافع المستديمة، والمدافع الشاشخانة (١) ٠

وجدير بالذكر أن مصر ــ بناء على تكليف من الباب العالى ــ تكفلت بارسال المؤن اللازمة من أرز وسمن وسكر للقوات العثمانية المرسلة للحجاز واليمن ، وقد تبينا ذلك من الخطاب الذى أرسله خديوى مصر الى الباب العالى فى ١١ من فبراير سنة ١٨٧١ (١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ) يخبره بوصول مكاتبته التى يطلب فيها ارسال خمسمائة ألف أقة أرز وخمسين ألف أقة سمن ، وخمسة وعشرين ألف أقة سكر لأجل « الفرقة العسكرية الشاهانية » التى أرسلت الى الحجاز واليمن ٠ ويرد خديوى مصر على الباب العالى بأنه أصدر الأوامر المؤكدة والمشددة للمختصين باعداد وتجهيز الكميات المذكورة وارسال نصفها الى ميناء الحديدة ، والنصف الآخر الى المناطق التى يخصصها رديف باشا ، أما أثمان هذه المؤن وتكاليف ارسالها فسيعد بها كشف فيما بعد ٠ كما عبر الخديوى فى ختام هذا الخطاب عن استعداده لتلبية أى طلب يصدر اليه من الباب العالى (٢) ٠

أما عن الدور الذى قامت به تلك الحملة العثمانية فى اخماد ثورة العسير فيتلخص فى أن القائد العثمانى محمد رديف باشا بعث بانداراته للعسيريين ليعلنوا تبعيتهم للدولة العثمانية ودخولهم فى طاعتها ، غير أنه لم يجد لنداءاته وانداراته أى صـــدى ، فأمر قواته بالزحف على عسير ٠ وقد احتلت القوات العثمانية « حلى بن يعقوب » التى كانت أول مركز عسيرى على الحدود ، ثم سيطرت بعدها على « محائل » عند ذلك رابط محمد بن عائض بحشوده من رجال القبائل اليمنية فى « باحة شعار » وأخذ فى اقامة التحصينات والاستحكامات وتهيئة خط للدفاع ، ظنا منه أن الأتراك سيتقدمون فى عسير من تلك الجهة وكان ابن عائض قد استنجد بقبائل ألمع اليمنية التى رابط رجالها فى « وادى حلى » غير أنهم لم يتمكنوا من صد الزحف العثمانى فولوا منهزمين ٠

على أن رديف باشا بعد أن انتصر على رجال قبائل ألمع اليمنية الموالية لأمير عسير ، واصل زحفه حتى وصل الى وادى « العوص » وتسلقت قواته « العقبة الصعبة » ونصبت خيامها فى سطح « تهلل » ٠ وقد ارتبكت خطة دفاع محمــد ابن عائض ، فاضطر الى الانسحاب محاولا القيام بحركة خاطفة لمفاجأة العثمانيين بالهجوم ، غير أنه منى بالفشل واضطر الى الانسحاب تجاه « الحفير » ، بينما

---

(١) العرشى : المصدر السابق ، ص ٧٦ ٠

(٢) سجل ٢٤ عابدين ، الوثيقة رقم ١٢٧٢ فى ١١ من فبراير سنة ١٨٧١ (١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ) ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ص ٤٣١ (نشر ملخصا لترجمة الوثيقة أوردته فى الملحق رقم ١١) ٠

تقدم القائد العثمانى واحتل « السقا » وضيق الخناق على أمير عسير الذى التجأ الى قرية « ريدة » وتحصن بها · ونظرا لما امتازت به قرية « ريدة » من حصانة طبيعية ، وما أعده ابن عائض فيها من وسائل الدفاع فان الأتراك لم يظفروا من هجماتهم المتتالية عليها بطائل · فأصدر القائد العثمانى رديف باشا أوامره الى قسم من الجيش الاحتياطى المرابط فى ميناء « القنفدة » بأن يبحر الى « الشقيق » بقيادة أحمد مختار باشا ، على أن تزحف هذه القوات العثمانية الى قرية « ريدة » من جهة الغرب · وقد نجحت هذه الخطة لأنها جعلت القرية محصورة بين قسمى الجيش العثمانى (١) ·

وهكذا شدد العثمانيون الهجوم على قرية « ريدة » من الشرق بقيادة محمد رديف باشا ، ومن الغرب بقيادة أحمد مختار باشا ، واستمر القتال خمسة أيام متتالية ، ضعفت بعدها مقاومة العسيريين ودب اليأس فى قلوبهم · كما أن الخيانة لعبت دورها فى هزيمة أمير عسير حتى استسلم من أتباعه كل من كان منهم فى قصر « شهدان » ، كما استسلم « آل مفرح » ، ولم يجد ابن عائض لدى حرسه الخاص ورجاله المقربين الرغبة فى المثابرة على المقاومة والدفاع · وأخيرا استسلم العسيريون للأتراك الذين حاصروا قصر أميرهم محمد بن عائض ، مما اضطره أخيرا الى طلب الأمان من الترك ، ثم سلم نفسه اليهم بعد أن تعهد قائدهم أحمد مختار باشا بتأمينه (٢) ·

وقد ذكر الواسعى فى تاريخه أن محمد بن عون ــ الذى نصبه الترك شريفا لمكة فى سنة ١٨٥٦ (٣) اتصل بأمير عسير محمد بن عائض الذى وافق على أن يسلم بلاده للدولة العثمانية « وأن أملاكه وخيوله وحصونه تحفظ ، وتخصص مرتبات له ولعائلته ، ولبعض الرؤساء المستحقين ، ويستخدم جميع من يستحق الخدمة فى الوظائف العالية » · وقد رفع شريف مكة ما تم الاتفـاق عليه الى السلطان العثمانى الذى أصـــدر فرمانا ، أوصله الى أمير عسير رسول من قبل شريف مكة وتضمن تأمينه وضمان سلامته وموافقة السلطة على مطالبه التى عرضها عنه شريف مكة · وقد طلب السلطان العثمانى من أمير عسير أن يسلم كل ما تحت يده من الأراضى اليمنية الى القائد العثمانى محمد رديف باشا ، على ألا ترد له الدولة أمواله وخيوله وجميع أملاكه الخاصة الا اذا وافق على قرار السلطان · وبعد أن اطلع أمير عسير على ما ورد بالفرمان ، فقد كتب الى القائد العثمانى أحمد مختار باشا الذى كان يحاصر قصره بقواته ما يؤكد أنه أصبح

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ١ : ق ٢ ، ص ٥٨٤ ــ ٥٨٥ ·

(٢) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٨٦ ·

(٣) Jacob H. F. : Kings of Arabia p. 24.

تابعا للسلطان وفقا للشروط التى أوردها الفرمان المشار اليه (١) .

وقد تمكن العثمانيون بعد ذلك من دخول قصر أمير عسير الذى سلم نفسه اليهم ، كما تمكنوا من السيطرة على القلاع الهامة فى الامارة (٢) . وعلى الرغم من العهد الذى قطعه على نفسه القائد العثمانى أحمد مختار باشا بسلامة أمير عسير وأهله ومواليه وعدم تجريدهم من أسلحتهم ، فقد ألقى الأتراك القبض على جميع من كانوا مع ابن عائض ، وجردوهم من سلاحهم ، وأودعوهم السجن . بل ان القائد العثمانى رديف باشا عندما عاد من « السقا » ودخل قرية « ريدة » فى اليوم نفسه الذى دخلها فيه زميله أحمد مختار باشا ، فقد شاهد محمد ابن عائض جالسا بجوار مختار باشا ، فأصدر أوامره فورا بالقبض عليه وايداعه السجن غير مراع لما قطع له من العهود من قبل زميله ، وما جاء بالفرمان من قبل السلطان العثمانى نفسه . بل ان رديف باشا فى مساء تلك الليلة أمر بقتل محمد بن عائض مع خمسة وثلاثين شخصا من رؤساء رجاله العسيريين ، وكان ذلك فى شهر أبريل سنة ١٨٧٢ (صفر سنة ١٢٨٩ هـ) . وقد علق العرشى فى تاريخه على هذا الحادث بقوله ان محمد رديف باشا قد خالف بذلك أوامر الباب العالى الذى كان قد أوصى بعدم قتل أمير عسير محمد بن عائض طالما أنه أعلن استسلامه للعثمانيين . وأضاف العرشى الى ذلك أن السلطان العثمانى أسف لهذا الحادث وأمر بعزل محمد رديف وتنصيب أحمد مختار باشا (٣) قائدا للقوات العثمانية العاملة فى اليمن .

وهكذا سيطر العثمانيون على بلاد المخلاف السليمانى وعسير وضموها الى المنطقة الخاضعة لنفوذهم فى تهامة ، واستولوا على كل ما كان يملكه أمير عسير « من خيل ونقود وأسلحة ومدافع وغير ذلك من الأحجار النفيسة » (٤) . ولم تكن سيطرة العثمانيين على تلك المناطق سيطرة كاملة على الاطلاق ، اذ كانت سلطة المدير التركى لا تتعدى بناية المركز الحكومى فى معظم الأحيان (٥) . كما أن هذه المناطق لم تعرف الهدوء والاستقرار النسبى الذى شهدته تهامة فى ظل الادارة المصرية فى الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ذلك لأن القبائل اليمنيـة لم تكن لتهدأ قليلا عن شن الغارات المستمرة على بعضها البعض من جهة ، وعلى القوات العثمانية المعسكرة فى أراضيها من جهة أخرى . وعلى أية حال فقد شكلت سيطرة العثمانيين هذه على تلك المناطق أكبر تمهيد لسيطرتهم

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢٥٣ .
(٢) Bury, G. W. : Op. cit., p. 15.
(٣) العرشى : المصدر السابق ، ص ٧٦ .
الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٦ .
(٤) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٥٣ .
(٥) العقيل : المصدر السابق ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٥ .

على صنعاء ذاتها فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) وبالتالى نجاحهم فى اقامة الحكم العثمانى فى اليمن من جديد ، بعد مضى قرنين ونيف من زواله ٠

ثالثا ــ اتجاه الدولة العثمانية لاستعادة سيادتها

الفعلية على اليمن فى منتصف القرن التاسع عشر

حاولت الدولة العثمانية فى منتصف القرن التاســع عشــر أن تقوم بعدة اصلاحات فى أجهزتها المختلفة حتى تلحق بركب الدول الأوربية التى فاقتها فى مضمار الحضارة الحديثة والمدنية ٠ كما حاولت فى الوقت نفسه أن تبسط نفوذها الفعلى وتحكم قبضتها على المناطق التابعة لها اسميا حتى تعوض نفسها عن الخسائر الاقليمية التى توالت عليها فى أوربا ٠ وقد سعت الدولة لتحقيق غايتها هذه بمحاولة اخضاع تلك المناطق للحكم المباشر بتوجيه الحملات العسكرية اليها ، كما لجأت الى شق طرق المواصلات التى تربطها بها ، أو اصطناع أدوات الدعاية الروحية التى تجذبها اليها ، كاحياء نظام الخلافة أو نشر فكرة الجامعة الاســلامية (١) ٠

وكانت الجزيرة العربية فى ذلك الوقت تابعة للسيادة العثمانية من الناحية الاسمية فى بعض مناطقها ، ومن الناحية الفعلية فى بعض مناطقها الأخرى (٢) ٠ وكان التفكك السياسى فى شواطئها الشرقية الواقعة على الخليج العربى ، الى جانب مهادنة الباب العالى لبريطانيا عند احتلالها عدن فى سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥هـ) وتعاونه معها لاجلاء المصريين عن الجزيرة العربية اثر تمرد محمد على ، فان ذلك أدى الى اضعاف مركز العثمانيين فى الجزيرة ، بينما دعم النفوذ البريطانى هناك فأصبح المنافس الأول للنفوذ العثمانى ٠ وقد بدا تفوق البريطانيين واضحا عندما أصبح لا يرى للعثمانيين فى الخليج العربى سفن ترفع العلم التركى سوى السفن الصغيرة ، كما أن الآستانة اصطدمت بمعارضة بريطانية شديدة عندما اقترحت ارسال سفينتين حربيتين الى الخليج العربى فى سنة ١٨٤٧ لمشاركة بريطانيا فى التفتيش على تجــارة الرقيــق وذلك بمناسبة توقيع أول اتفاق معها لمنع هذه التجارة ٠ بل ان بريطانيا بدأت تتوسع فى المنطقة المحيطة بعدن خاصة بعد أن تخلصت من المقــاومة المصرية التى كانت تعوق توسعها وتقف حائلا بينها وبين بسط نفوذها هناك (٣) ٠

---

(١) سيتون وليمز (م٠ف) : بريطانيا والدول العربية ــ عرض للعلاقات الانجليزية العربية (١٩٢٠ ــ ١٩٤٨) ، ص (د) ٠

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ٢٥٣ ٠

(٣) صلاح العقاد (دكتور) : الاستعمار فى « الخليج الفارسى » ، ص ١٦٧ ــ ١٦٩ ٠

وكان طبيعيا أن تخشى الدولة العثمانية من النفوذ البريطانى المتزايد فى الجزيرة العربية وما حولها ، خاصة بعد أن رأت أن الأمر لن يقتصر على بريطانيا وحدها ، بل زاد اهتمـام الأوربيين عامة بشئون الجزيرة العربية ، نتيجة للأضواء التى وجهت اليها بوساطة كتابات بعضهم من الذين صاحبوا قوات محمد على باشا الى مصر أثناء الحروب الوهابية (١) • وكان العثمانيون يقدرون أهميـة المحافظة على نفوذهم فى الجزيرة العربية التى تحتضـن بين جنباتها مقدسات المسلمين ، فكانت حماية العثمانيين لتلك المقدسات ضمانا لزعامتهم للدول الاسلامية ، واحتفاظا بلقب السلطان العثمانى « خليفة للمسلمين وحاميا للحرمين الشريفين » (٢) • ونظرا لأن بلاد اليمن بموقعها الممتاز كانت تعتبر من الناحية الاستراتيجية خط الدفاع الأول من الجنوب عن بقية أجزاء الجزيرة العربية ، فقد رأت الدولة العثمانية أن لا تكتفى ببقاء سيادتها الاسمية ، بل يجب أن تفرض سيطرتها الفعلية عليها حتى تحول دون تسرب أى نفوذ أجنبى هناك — وخاصة النفوذ البريطانى — فيهدد الأماكن المقدسة الاسـلامية من الجنـوب •

وقد فكر العثمانيون فى العودة الى اليمن ليحاولوا ملء الفراغ الذى خلفه جلاء المصريين عنها ، خاصة وأنهم لم يكونوا فقط درعا للدولة يحميها من حركات التمرد أو يحول دون توسع النفوذ البريطانى على حسابها • بل ان المصريين كانوا أيضا ناشرين لواء الحضارة والمدنية فى تلك الجهات ، باذلين الجهـد والمـال فى تعميرها حتى أوجدوا الادارة المنظمـة ، والجيش ، والجمرك ، والقضاء والقوانين واللوائح ، والمرافق العامة ، وكان طابع الاستقرار المصرى فى بلدان الجزيرة العربية متمثلا فى احياء السيادة العثمانية التى شكلت قاعدة جديدة للعمل لسياسى يواجه بها التوسع الاستعمارى الأوربى بوجه عام من جهة (٣) ، ويتعهد تلك المناطق بالتنظيم والاصلاح من جهة أخرى واذا كان المصريون قد تركوا الجزيرة العربية للدولة أسلس قيادا وتنظيما عن ذى قبل ، فان العثمانيين أردوا أن يحلوا محل المصريين وأن يعيدوا لحكمهم العثمانى ثقة أهالى البلاد ، الذين شهدوا ميزات الادارة المصرية الصالحة (٤) • وكانت رغبة العثمانيين هذه تتفق من جميع النواحى مع الاتجاه العام لسياستهم فى فرض سيطرتهم الفعلية على المناطق التابعة لهم من الناحية الاسمية وذلك حفاظا على المصالح العثمانية •

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ٢٢٢ •
Hogarth, D. G. : Arabia, pp. 99-107.
(٢) حسين مؤنس (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ، ١٩٢ •
(٣) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٣ ، ٤ •
(٤) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ •
Hogarth, D.G. : Op. Cit., pp. 110-111.

بل ان السياسة العثمانية حرصت أيضا على أن تفرض سيطرتها الفعلية على المناطق التى انسحب منها المصريون فى الجزيرة العربية ، حتى لا تتيح الفرصة للقوى المحلية كالوهابيين وغيرهم من العودة الى الظهور على مسرح الحوادث وتهديد النفوذ العثمانى من جديد ، بعد الجهود الضخمة التى بذلها جنود محمد على باشا والى مصر فى اقرار الأمور فى بلدان الجزيرة واعادتها الى حوزة الدولة • ولهذا أقام العثمانيون فى الحجاز الى جوار الوالى العثمانى وشريف مكة قوة عثمانية كبيرة لتوطيد النفوذ العثمانى فى تلك البلاد ، ونجح العثمانيون الى حد كبير فى تدعيم سلطانهم على الحجاز نتيجة لانتهاجهم تلك السياسة الجديدة (١) • أما بالنسبة لليمن فقد سبق أن أشرنا الى أن العثمانيين تشجعوا فى سنة ١٨٤٩ (١٢٦٥ هـ) فأنزلوا قوة حربية عثمانية فى الحديدة لاسترجاع سيطرتهم الفعلية عليها (٢) غير أن النجاح لم يحالفهم فى السيطرة على صنعاء على الرغم من انتهازهم فرصة الفوضى السياسية فى جبال اليمن نتيجة لتنافس الأئمة الزيديين على الامامة ونشوب القتال المستمر بينهم • واستطاعت القبائل اليمنية التى حرضها الامام على بن المهدى أن تلحق الهزائم بالعثمانيين فى صنعاء كما ثار عليهم أهالى صنعاء نفسها • وقد ارتدت فلولهم المجهدة الى الحديدة حيث قنعوا بالبقاء فى تهامة ، بعيدين عن ثورات القبائل اليمنية ، وعلى مقربة من مراكز التموين والامدادات فى الحجاز ومصر ، التى كانت ترد اليهم عن طريق البحر الأحمر • وقد ظلوا هناك يترقبون الفرصة لاعادة الكرة على صنعاء من جديد ، عندما يجدون فى أنفسهم المقدرة على التنفيذ (٣) • ومن الحديدة وتهامة راقب العثمانيون عن كثب جميع الأحداث الجارية داخل اليمن (٤) ، وبخاصة فى المنطقة الجبلية الخاضعة لنفوذ الأئمة ، وطالب العثمانيون دولتهم بالمساعدات والامدادات التى تحقق لهم النصر ، كما أنهم أخذوا يتدارسون الخطط ، ويحاولون الاتصال بشخصيات يمنية تمهد لهم السبيل الى اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على البلاد •

وعندما افتتحت قناة السويس للملاحة البحرية فى سنة ١٨٦٩ (١٢٨٥هـ) وجهت اهتمام العثمانيين الى البحر الأحمر الذى أصبح أهم طريق للمواصلات بين الشرق والغرب ، والى مناطق الجزيرة العربية المطلة على هذا البحر وخاصة اليمن التى تشرف على مضيق باب المندب فى جنوبه (٥) • وقد أكدت قناة

(١) محمد محمود السروجى (دكتور) : المصدر السابق • ص ٩٦ •
(٢) Scott, H. : In the High Yemen, p. 228.
(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٠ •
(٤) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٥ •
(٥) Bury, G. W. : Op. cit., p. 14.

السويس للعثمانيين ضرورة اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على اليمن بعد أن تضاعفت أهمية موقعها وخطورته اثر تحول التجارة العالمية الى طريق القناة(١) . بل ان هذا الممر البحرى الجديد يسر للأسطول العثمانى العبور الى البحر الأحمر والخليج العربى ، ووصل ميناء الآستانة بموانىء الجزيرة العربية مباشرة(٢) . وبذلك سهلت عمليات توصيل القوات والامدادات العسكرية فى أقصر وقت ممكن الى بلدان الجزيرة العربية ، وهو ما حاول أن يحققه القائد العثمانى سنان باشا عندما أمر بحفر قناة تصل ما بين السويس والبحر الأبيض ، لتسهيل مرور المراكب الحربية والمدفعية ، فى أثناء توجيه الحملات العسكرية العثمانية الى اليمن فى القرن السادس عشر (٣) على النحو الذى سبق أن أوضحناه . بل ان نتائج فتح القناة ظهرت واضحة فى أثناء محاولات الدولة العثمانية لاخماد ثورة العسير ، اذ أمكن للدولة أن تسهم بدور أكثر فعالية فى اخماد تلك الثورة . وان استعانت فى الوقت نفسه بالمصريين الذين كانوا أكثر تحفظا فى تقديم مساعداتهم للدولة عما كان عليه الحال فى عهد محمد على ، وان كانت مصر قد قامت بدور دبلوماسى كان له أكبر الأثر فى تسكين ثورة العسير وحل الأزمة مؤقتا بالطرق السلمية . على أن ثورة العسير نفسها كانت من المشكلات التى حاولت الدولة أن تتجنب قيامها عندما فكرت فى أن تحل محل قوات والى مصر محمد على باشا فى الجزيرة حتى لا تتيح الفرصة للقوى المحلية هناك للعودة الى الظهور وتهديد السيادة العثمانية . أما وقد قامت ثورة العسير من جديد وشرعت الدولة فى توجيه الحملات لاخمادها ، فان ذلك كان من الأسباب القوية التى حملت الدولة على اعادة فرض سيطرتها الفعلية على اليمن مهما كلفها هذا الأمر ، حتى لا تواجه من جديد ثورات أخرى تهدد مركزها فى جزيرة العرب ، بل وتفقدها هيبتها فى كافة الولايات العثمانية وأمام الشعوب الاسلامية والدول الكبرى فى ذلك الحين .

وتجدر الاشارة الى أن حركات الاصلاح والتجديد فى الدولة العثمانية ذاتها كان لها أكبر الأثر فى توجيه سياسة الآستانة الى ضرورة بسط نفوذها الفعلى على المناطق التابعة لها اسميا ومن بينها البلاد اليمنية . اذ بدأت تلك الحركات الاصلاحية فى أواسط القرن الثامن عشر وصادفت سلسلة طويلة من العراقيل فلم تدخل فى طور التأثير المثمر الا فى أواسط القرن التاسع عشر . وسارت هذه الاصلاحات على أساس « اقتباس النظم الغربية أو استلهامها » ، وذلك لأن انحطاط الدولة العثمانية بدأ فى الوقت الذى كانت فيه الحضـارة

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 24.

(٢) صلاح العقاد (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(٣) Kammerer : La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité, Vol. II, p. 139.

الأوربية قد ازدهرت كثيرا فاكسبت دولها قوة عظيمة ، فكان من الطبيعى أن يشعر رجال الاصلاح فى الدولة العثمانية بوجوب الاقتداء بتلك الدول واستلهام النظم التى صارت سببا لقوتها ٠

وقد بدأت حركات الاقتباس والاصلاح تأخذ طريقها الى النواحى العسكرية التى كانت بمثابة المحور الأساسى لجميع شئون الدولة العثمانية ، وذلك بتنظيم وتنسيق الأمور البحرية والمدفعية على أساس الاستفادة من الأصول والأسلحة الأوربية فى هذه الميادين واستعانت الدولة فى هذا الاصلاح بطائفة من الضباط والخبراء الأوروبيين ٠ غير أن الانكشارية قاوموا النظم العسكرية الجديدة وبخاصة المشاة ، مما اضطر السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) الى أن ينشىء جيشا جديدا ينضم اليه من يرغب من الانكشارية ومن غيرهم ، ويتدرب وفق ما تقتضيه نظم الحرب الحديثة على أيدى ضباط وخبراء أوربيين ٠ وشيد السلطان ثكنة خاصة « للنظام الجديد » ، كما أنشأ صندوقا خاصا لضمان حاجاته المالية ٠ وقد شجع السلطان سليم الولاة أيضا على الأخذ بهذا النظام وقام بعضهم بأعمال بارزة فى هذا المضمار ، فوالى بغداد سليمان باشا الكبير استقدم ضابطا انجليزيا من الهند وعهد اليه بتنظيم الجيش ، كما أن والى مصر خسرو باشا شرع فى انشاء ثكنة خاصة لجيش « النظام الجديد » ٠

على أن الانكشارية يساندهم رجال الدين المتعصبون والنفعيون والوصوليون من رجال الدولة تمكنوا من القضاء على هذا النظام ، فعادت الفوضى الى الجيش وتوالت الهزائم فى الحروب والثورات فى الولايات حتى سنة ١٨٢٦ التى عم فيها الاعتقاد بضرورة اصلاح الجيش اصلاحا جديا ٠ وقد استطاع السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) أن يقضى على الانكشارية القضاء المبرم ، فأصبحت الدولة العثمانية تسير فى طريق الاصلاحات والتنظيمات العسكرية سيرا مطردا ، كما أنها تخلصت من المساوىء الادارية التى كانت مرتبطة بأحوال الانكشارية ارتباطا وثيقا ٠ وقد وضعت الدولة العثمانية القوانين اللازمة لتنظيم « المكلفية العسكرية » وتحديد مراحلها مع تحسين شروط الاعفاء منها ، وأنشأت المصانع العسكرية المتنوعة لتموين الجيش بما يحتاج اليه من لوازم وذخائر ، كما أنشأت المدارس العسكرية لتنشئة الضباط الصغار والكبار لمختلف الأسلحة من برية وبحرية ، ومشاة ، وخيالة ، ومدفعية ، واستعانت بضباط وخبراء من جنسيات مختلفة ، ولكنها بعد البحث والاختيار قررت الاعتماد على النظم الألمانية فى الشئون الحربية العامة ، وعلى النظم الانجليزية فى الشئون البحرية (١) ٠

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ٠

كما أن العلوم العصرية على اختلاف أنواعها دخلت الى الممالك العثمانية عن طريق المدارس العسكرية وبدا تعليم الطب الحديث فى « الطبية العسكرية » التى أنشئت لتخريج الأطباء والجراحين والصيادلة الذين يحتاج اليهم الجيش العثمانى ، بل ان مدارس الفنون البحرية والهندسة الملكية أعقبها انشاء مدارس الحقوق والادارة والتجارة والزراعة فى أواخر القرن التاسع عشر ٠ وقد أفادت المدارس العالية العسكرية بعض الولايات أكثر مما أفادتها المدارس غير العسكرية التى تركزت فى عاصمة السلطنة وكانت تتطلب شروطا كثيرة لا تتيسر الا لعدد قليل من طلاب الولايات ، بينما كانت المدارس العالية العسكرية داخلية ومجانية بوجه عام ، وكانت الحكومة تتعهد بجميع نفقات الطلاب ، كما كانت تتولى نقلهم من مراكز الولايات الى عاصمة الدولة ٠ وقد اشتركت بعض الفرق العسكرية التابعة لولايتى مصر والحجاز والتى تدرب قادتها فى المدارس العالية العسكرية مع القوات العثمانية التى تمكنت من اعادة فتح اليمن فى منتصف القرن التاسع عشـــر ٠

وهكذا كان اصلاح الجيش فى الدولة العثمانية من العوامل التى جعلته أداة قوية طيعة فى يد القادة العثمانيين ليتمكنوا من اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على المناطق التابعة لهم اسميا ، وكانت اليمن من بين هذه المناطق التى استعادوا سيادتهم الفعلية عليها وتمكنوا من اخضاعها للحكم العثمانى فى سنة ١٨٧٢ ٠

ولم تكن اصـــلاحات النظـــم الادارية فى الدولة العثمانية أقــل تأثيرا من الاصلاحات العسكرية فى احكام توجيه سياسة الدولة نحو استعادة سيادتها الفعلية على الممالك التابعة لها ومن بينها بلاد اليمن ٠ اذ تمت هذه الاصلاحات فى مرحلتين عرفت المرحلة الأولى باسم « التنظيمات » لأنها امتازت بتنظيم أمور الدولة على أسس جــديدة ، فى جميع الميـــادين الادارية والمالية والقضائية والتعليمية ، واستمرت فى عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) وخلفه السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ــ ١٨٧٦) ، وفى عهدهما حاول العثمانيون أن يعيدوا فتح اليمن فى ســنة ١٨٤٩ وتمكنوا من اقامة حكمهم فيها فى ســنة ١٨٧٢ ٠ أما المرحلة الثانية من اصلاحات النظم الادارية فقد عرفت باســـم « المشروطية » لأنها حاولت أن تقضى على نظام الحكم المطلق وأن تجعل حكم السلطان « مشروط » بمراعاة القيود المقررة فى « القانون الأساسى » العثمانى الصادر فى سنة ١٨٧٦ ، وقد بدأت هذه المرحلة فى عهد السلطان عبد الحميد الثـانى (١٨٧٦ ــ ١٩٠٩) واستمرت حتى قيام الحركة الكمالية واعــلان الجمهورية التركية ، فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ (١) ٠

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ٧٥ ــ ٨٥ ٠

وقد استندت « التنظيمات » الى مرسومين ، صدر الأول في سنة ١٨٣٩ وقرر (حقوق التبعة) ، كما قضى باصدار قوانين جديدة لتثبيت « التكاليف المالية » وتحديد مدة « الخدمة العسكرية » ، وقرر « أمنية الروح والعرض والمال » من تعرضات رجال الأمن وجنود الانكشارية . أما المرسوم الثاني فقد صدر عقب حرب القرم في سنة ١٨٥٦ وأكد ما كان قد تقرر بالمرسوم السابق ، ولكنه أضاف اليه « معاملة جميع تبعة الدولة معاملة متساوية » مهما كانت أديانهم ومذاهبهم . كما وضع قانون الولايات المتحدة حدا للاقطاعيات القديمة ، وحدد صلاحيات كل من الولاة والمتصرفين والقائمقامين ، واقتبس كثيرا من أحكامه من النظم الفرنسية . كما ألغى النظم الباقية من عهود تقسيم الدولة الى « تيمارات وزعامتات » وكان معمولا بها أثناء الحكم العثماني الأول لليمن (١٥٣٨ — ١٦٣٥) ، وعين لكل موظف راتبا يتلقاه من خزينة الدولة . كما أنشأ رجال التنظيمات محاكم نظامية تعمل بجانب المحاكم الشرعية القديمة بموجب قوانين جديدة ، ووضعوا الأنظمة اللازمة لاصلاح شئون المحاكم الشرعية . وبذلك يكون رجال الاصلاح في الدولة العثمانية قد وضعوا القوانين اللازمة ليجعلوها بصفة عامة دولة عصرية . على أن رجال الاصلاح العثمانيين رغم تأثرهم بضغط الدول الأوربية ومطالبتها باصلاح أحوال المسيحيين التابعين للدولة العثمانية ، فانهم كانوا مؤمنين بضرورة اصلاح أنظمة دولتهم وتجديدها . وبذلك صار عهد « التنظيمات » بداية عهد التقدم والنهوض في الدولة العثمانية مما ساعدها على أن تسترد سيادتها الفعلية على المناطق التابعة لها اسميا ومن بينها البلاد اليمنية .

وتجدر الاشارة الى أن هذه التنظيمات لم تطبق في ولايات الدولة العثمانية في درجة واحدة من السرعة والشمول ، فسوريا وبيروت وحلب كانت أولى الولايات التي طبقت فيها بسرعة وشمول ، ولكن تطبيقها في ولايتي بغداد والبصرة كان أقل سرعة وأقل شمولا ، وأما تطبيقها في الحجاز ، وفي اليمن بعد اعادة فتحها في سنة ١٨٧٢ فقد كان ضئيلا . كما أن التنظيمات لم تغير تغييرا يذكر مواقف كل من المسلمين وغيرهم من اليهود والمسيحيين في البلاد العربية نحو الدولة العثمانية ، فقد ظل اليهود والمسيحيون يشعرون بأنها غريبة عنهم لأنها تعتبرهم رعايا ، ويتوجهون نحو الدول الأوربية لأنها تحميهم في كثير من المناسبات ، حتى أنها تقدم لهم بعض المساعدات . أما المسلمون فقد ظلوا يعتبرون الدولة العثمانية دولتهم ويستسلمون لحكمها لأنها دولة الخلافة الاسلامية (١) ، وكما رحب المسلمون في مطلع العصور الحديثة بمساعدة العثمانيين لهم في مقاومة الغزو البرتغالي ، فانهم كثيرا ما كانوا يستنجدون

---

(١) ساطع الحصري : المصدر السابق : ص ٨٧ — ٩٥ .

بالخليفة العثمانى لاقرار الامور فى بلادهم • وقد يسر هذا للعثمانيين فتح البلاد العربية ، كما كان من العوامل الممهدة لعودة العثمانيين الى اليمن فى أواسط القرن التاسع عشر •

وهكذا كان يسود الدولة العثمانية فى منتصف القرن التاسع عشر اتجاه قوى ورغبة أكيدة لاعادة بسط نفوذها الفعلى على المناطق التابعة لها اسميا ومن بينها اليمن • وكان يؤكد هذا الاتجاه عدة عوامل أهمها ، حاجة الدولة الى تدعيم مكانتها فى تلك البلاد استعاضة عن ممتلكاتها التى فقدتها فى أوربا ، ورغبتها فى ملء الفراغ الذى خلفه جلاء المصريين عن الجزيرة العربية مما أتاح للنفوذ البريطانى فرصة التوسع حول عدن وأصبح المنافس الأول للنفوذ العثمانى ، كما أرادت الدولة أن تضع حدا لعودة القوى المحلية الى الظهور والتمرد على سلطانها فى الجزيرة العربية بعد التجربة التى واجهتها واستعانت فيها بالمصريين لاخماد ثورة أمير عسير • وكانت حركات الاصـلاح التى نشطت فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ، والتى لمست النواحى العسكرية والمدنية قد أحكمت توجيه امكانيات الدولة الى تحقيق سياستها هذه • كما أن قناة السويس ، الى جانب ابرازها لأهمية موقع اليمن وتحكمه فى طريق التجارة الدولية عبر البحر الأحمر ، قد سهلت أيضا توصيل القوات والامدادات اللازمة التى مكنت الدولة من استعادة سيطرتها الفعلية على اليمن • هذا فضلا عن أن حملة العثمانيين على اليمن فى سنة ١٨٤٩ التى انتهت باستقرارهم فى تهامة ، على الرغم من فشلها فى السيطرة على صنعاء ، فقد أتاحت الفرصة للعثمانيين لمراقبة أحداث اليمن الداخلية عن كثب ، وأصبحت تهامة موطئا صالحا تمكن العثمانيون عن طريقه من اعادة الكرة على صنعاء من جديدة والسيطرة عليها فى سنة ١٨٧٢ ، واقامة الحـكم العثمانى فى ربوع اليمن ، على النحو الذى سنوضحه فى نهـاية هذا الفصـل •

رابعا — سيطرة العثمانيين على صنعاء فى سنة ١٨٧٢

استعرضنا فى بداية هذا الفصل نظرية الامامة الزيدية فى الحكم وكيف أدت الى اثارة الاضطراب السياسى فى اليمن قبيل سنة ١٨٧٢ مما أوجد حالة من الفوضى والانهيار بلغت أقصاها فى مدينة صنعاء ، نتيجة لتصارع الأئمة فيما بينهم حول الاستئثار بالامامة والاستحواذ على السلطة ، وتحريض القبائل اليمنية على بعضها البعض لنصرة امام على آخر ، وتعريض البلاد للحروب الأهلية التى صاحبها السلب والنهب والدمار مما أفقد اليمنيين الأمن والطمأنينة وجعلهم يتوقون الى الهدوء والسلام ، ورأينا كيف دفعت تلك الأحوال أحمد الحيمى الى محاولة الاتصال بالعثمانيين فى تهامة لطلب العون منهم ، ثم أعقبته محاولة بعض أئمة اليمن وعلمائه وأعيانه للاستنجاد بالسلطان العثمانى عبد العزيز بوساطة

شريف مكة محمد بن عون ، بعد أن عم الاعتقاد بمقدرة العثمانيين العسكرية على اقرار الأمور فى البلاد واعادة الأمن والاستقرار اليها ٠

وانتقلنا بعد ذلك الى توضيح موقف العثمانيين فى تهامة والمخلاف السليمانى وعسير بعد أن فشلت حملتهم على صنعاء فى سنة ١٨٤٩ ، وكيف تطورت علاقتهم بأمير عسير الثائر محمد بن عائض التى انتهت بالقضاء عليه وسيطرتهم على امارته فى سنة ١٨٧١ ٠ وكانت الدولة العثمانية قد حشدت قواتها على سواحل اليمن فى ذلك الوقت مما شجع اليمنيين الذين رأوا الاستعانة بالدولة أن يطلبوا معونتها وتدخلها لمساعدتهم فى اقرار الأمور فى بلادهم ، بينما كان العثمانيون تدفعهم العوامل العديدة التى أشرت اليها أخيرا الى اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على اليمن سواء ما كان متصلا من تلك العوامل بأوضاع الدولة العثمانية نفسها أو ما كان متصلا منها بأوضاع اليمن الداخلية فى ذلك الحين ٠ وسوف نتبين فيما يلى كيف أدت هذه العوامل المتعددة وتلك الأحداث مجتمعة الى عودة العثمانيين الى اليمن وتمكنهم من اقامة الحكم العثمانى فيها بعد سيطرتهم على صنعاء فى سنة ١٨٧٢ ٠

لقد اتفق وصول مطلب اليمنيين الى السلطان العثمانى بالتدخل لاقرار الأمور فى اليمن ، فى نفس الوقت الذى كانت القوات العثمانية قد تجمعت فى أثنائه على سواحل البلاد وفرغت من عملياتها الحربية بالقضاء على ثورة أمير عسير محمد بن عائض ٠ وكانت تلك القوات على استعداد لتنفيذ ما يصدر اليها من أوامر بالتحرك فى أى اتجاه طالما أن الامدادات اللازمة كانت ترد اليها تباعا٠ وجدير بالذكر أن الدور الفعال الذى قامت به مصر — بناء على تكليف من الباب العالى — فى تقديم مواد التموين اللازمة للجيش العثمانى فى الحجاز واليمن فى أثناء اخماد ثورة العسيريين قد استمر أيضا فى أثناء العمليات العسكرية التى صاحبت عودة العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ م (١٧٨٩ هـ) (١) ٠ وقد بادر السلطان العثمانى الى تلبية دعوة اليمنيين الذين طلبوا منه التدخل لاقرار الأمور فى بلادهم ، لأن تلك الدعوة كانت تتفق تماما مع سياسة الدولة العثمانية واتجاهاتها ٠

وهكذا صدرت الأوامر من الآستانة الى أحمد مختار باشا القائد العثمانى فى الحديدة بالتوجه الى صنعاء والقاء القبض على المتمردين واقرار الأمور فى بلاد اليمن ٠ وتنفيذا لهذه الأوامر توجه أحمد مختار باشا على رأس قواته

---

(١) سجل ٢٤ عابدين ، الوثيقة رقم ١٢٧٢ فى ١١ من فبراير سنة ١٨٧١م (١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٧ هـ) ٠

شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٣١ ، (نشرت موجزا لترجمة الوثيقة وأوردته فى الملحق رقم ١١) ٠

العثمانية من الحديدة الى صنعاء حتى وصل الى « عتارة » الواقعة فى بلاد حراز فى الجانب الغربى من مناخة ، حيث اصطدمت قواته مع أتباع الدعوة الباطنية الذين اتخذوا من عتارة مركزا لتجمعهم ٠ وقد منى أتباع الباطنية بالهزيمة أمام القوات العثمانية التى فاقتهم عـددا وعـدة ، واستسلم زعيمهم بعد أن تعهد العثمانيون بتأمينه وكل من يستسلم معه على حياتهم ، غير أن العثمانيين غدروا به وقتلوه هو وأولاده وصادروا أمواله وممتلكاته (١) ٠

ثم واصل العثمانيون زحفهم تجاه صنعاء حتى وصلوا الى مناخة الواقعة فى غربها ، حيث كان الامام على بن المهدى قد أرسل من قبله وفدا من السادة والعلماء والأعيان اليمنيين كان من بينهم أحمد بن محمد الكبسى ، وزيد بن أحمد الكبسى ، وحسين بن على غمضان لاستقبال القائد العثمانى ومرافقيه (٢) ٠ وقد راعهم ما شاهدوه من استعدادات العثمانيين العسكرية ومن قوتهم الحربية التى تمكنت بسـهولة من الفتك بالباطنيين ٠ واذا كان اليمنيـون قد سرهم تغلب العثمانيين على الباطنية مما جعل العرشى يقول « كنت أسمع من بعض العقلاء أن هذه الكائنة (القضاء على الباطنية) من مناقب السلطان وولاته » (٣) ، فان أهالى اليمن استاءوا من سياسة الغدر والخيانة التى اتبعها العثمانيون مع زعيم الباطنية ومع أمير عسير من قبـل رغم تعهدهم بتأمين حياتهما ، وعادت ذاكرة اليمنيين الى ما عهدوه فى الترك من غدر وخيانة منذ وصولهم الى اليمن لأول مرة فى الأربعينات من القرن السادس عشر عندما غدروا بحاكم عدن ثم حاكم المخا وأولاده ، رغم تعهدهم لهؤلاء بضمان سلامتهم ٠

وقد التقى وفد الامام على بن المهدي بالقائد العثمانى أحمد مختار باشا فى « مناخة » ودعوه الى دخول صنعاء تنفيذا لأوامر الباب العالى الذى استجاب لندائهم ، حتى يؤدب العصاة والمتمردين الخارجين عن طاعة الامام ، على أن يرجع من حيث أتى بعد انقضاء مهمته ٠ ويذكر الواسعى فى تاريخه أن مختار باشا «هز لهم رأسه وتكلم بكلمات تركية لايفهمونها فظنوا أن الأمر كما يريدون» (٤)٠ غير أن الأمر فعلا لم يكن كمـا أراده اليمنيون ، اذ أخفى القائد العثمانى عنهم اتجـاه الدولة ورغبتها فى اعادة بسط نفوذها الفعلى على اليمن ، واحالتها الى ولاية عثمانية ٠ ولعل مختـار باشـا أراد أن يطمئن اليمنيين فى بادىء الأمر ، ويقنعهم بأنه جـاء ليساعدهم على أن يحكموا بلادهم بأنفسهم بعد القضـاء على الفوضى والاضطراب ٠ وكان يهدف من ذلك الى ضمان جانبهم والابقاء على ثقتهم

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ط ٢ ص ٢٥٣ ٠
(٢) سلفاتور ابونتى : المصدر السابق ، ص ٥٤ ٠
(٣) العرشى : المصدر السابق ، ص ٧٧ ٠
(٤) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ٠ ص ٢٥٤ ٠

حتى يتمكن من دخول صنعاء ويسيطر على زمام الأمور فيها ، ثم يواجههم بعد ذلك بحقيقة نواياه وبسياسة دولته ٠

وهكذا واصل العثمانيون زحفهم تجاه صنعاء حتى وصلوا الى (نقيل عصر) فى غرب المدينة ٠ وهنا خرج من صنعاء لاستقبالهم الامام على بن المهدى ، والامام غالب بن محمد ، وحسين بن المتوكل أحمد ، وغيرهم من أعيان البلاد ووجوهها ٠ وقد طلب اليهم القائد العثمـــانى أن يسلموا اليه جميع المعـــاقل والحصون المحيطة بصنعاء وخاصة قصر « غمـــدان » على أن تحتلها على وجه السرعة قواته العثمانية ٠ وقد تم ذلك على هذا النحو دون أدنى معارضة ، ودخل العثمانيون مدينة صنعاء فى يوم الخميس ٢٦ من أبريل سنة ١٨٧٢ (١٦ من صفر سنة ١٢٨٩ هـ) فأثاروا الخوف والرهبة فى قلوب أهالى المدينة الذين راعهم حشود العثمانيين بأسلحتهم الحديثة ٠ وقد قسم القائد العثمانى جنده الى قسمين ، استقر أولهما فى « وهب » الواقعة فى جنوب صنعاء ، بينما استولى القسم الآخر على بقية المعاقل والحصون ومن بينها قصر « غمدان » ، كما سيطر العثمانيون أيضا على الأبواب العشرة لمدينة صنعاء ٠

وبعد سيطرة العثمانيين على الموقف فى صنعاء طلب القائد العثمانى أحمد مختار باشا من الامام الزيدى على بن المهدى الدفاتر والسجلات الخاصة بادارة البلاد وايراداتها ومصادر الثروة فيهـــا ٠ وهنا استشار الامام أعوانه وأعيان البلاد فى مطلب القائد العثمانى ، فأشاروا عليه بعدم تسليم الدفاتر والسجلات للأتراك لأن ذلك سيطلعهم على شئون الادارة الداخلية للبـــلاد ، ويكون سببا لسيطرتهم عليها والتحكم فى مقدراتها ، وخاصة بعد أن احتلوا المعاقل والحصون التى كان يمكن أن يعتمد عليها اليمنيون فى مقاومتهم ٠ وقد أعلن أولو الأمر من اليمنيين أن مطلب القـــائد العثمانى ومسلكه مخالفين لما طلبـــوه من السلطان العثمانى فى بداية الأمر ، فقد أرادوا من الدولة العثمانية أن تســـاهم فى قمع المتمردين ومنع غارات القبـــائل واقرار الأمور فى البـــلاد واعادة الأمن والسلام اليها ، ولم يكن مقصدهم بطبيعة الحال أن يقـــدموا اليمن لقمة سائغة للأتراك يتحكمون فيها ويسيطرون على مقدراتها (١) ٠

وعلى أية حال فقد كاد الموقف يتأزم بين العثمانيين واليمنيين لولا تدخل بعض أولى الأمر من اليمنيين وعلى رأســـهم الشـــيخ محسن معيض رئيس مدينة صنعاء حينذاك ، اذ أشار هذا الرجل على القائد العثمانى بأن يضع حدا لتمرد أحد الأشقياء العصاة كان يدعى على حسين الدفعى الذى اتخذ من « شعوب » الواقعة فى شمال صنعاء مركزا لجرائم القتل والنهب التى كان يرتكبها من آن

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٥ ٠

لآخر حتى أقلق صنعاء وجعلهم يتوقون للتخلص من ظلمه وجبروته (١) ۰ وقد رأى الشيخ محسن ومن معه أن القائد العثمانى بقضائه على هذا التمرد سيستجلب قلوب العامة والخاصة من أهالى اليمن فيرتضون تسليمه دفاتر الادارة وسجلاتها ، وبذلك تصبح البلاد فى قبضته ، فيشكل حكومة عثمانية وفقا لرغبته ۰ وقد لقى هذا الرأى قبولا لدى مختار باشا الذى بادر الى الكتابة للدفعى يدعوه للدخول فى طاعة الدولة والاقلاع عما يرتكبه من الجرائم حفاظا على الأمن والاستقرار ۰ غير أن الدفعى أبى أن يذعن لمطلب القائد العثمانى ، وظن أن تحصينه فى « نوبته » — وهى على هيئة بيت من الطين مستدير الشكل — وفى حراسة عشرين رجلا من أعوانه ، سيدفع عنه غائلة الجند والمدافع العثمانية ۰ لهذا لم يجد مختار باشا بدا من توجيه قوة من جنوده هدموا على الدفعى بيته بعد ساعة واحدة ، وقبضوا عليه وعلى أعوانه ، كما صادروا ما كان لديه من أموال وأسلاب ، ثم أمر القائد العثمانى بعد ذلك باعدامه ، فانتهت بذلك أسطورة الدفعى الذى هدد أمن أهالى صنعاء ۰

واذا كان اليمنيون قد شعروا بالأمن والطمأنينة والرضا للتخلص من ظلم الدفعى وجرائمه فقد ترتب على تلك الحادثة أن « رجفت القلوب هيبة للعساكر السلطانية وصار الأمن فى جميع الربوع اليمانية » على حد تعبير الواسعى فى تاريخه ۰ وهنا طلب مختار باشا من الامام الزيدى للمرة الثانية أن يمسك دفاتر الادارة وسجلاتها لمعرفة « العشور اليمانية » مظهرا أن هدفه من ذلك ليس مطمعه فى ولاية اليمن ، بل للافادة منها فى العمل على تأديب العصاة المتمردين من أمثال الدفعى وأعوانه ۰ وفى ذلك الوقت لم يكن فى استطاعة الامام على ابن المهدى ومن معه من أولى الأمر فى صنعاء أن يرفضوا مطلب القائد العثمانى وهو يملك القوة العسكرية التى تستطيع أن تكرههم على الاستجابة لكل ما يفرضه عليهم من مطالب ، وخاصة بعد أن استجلب العثمانيون قلوب عامة اليمنيين بالقضاء على الباطنية الخارجين على الامامة الزيدية من جهة ، وبوضع حد لمظالم الدفعى وأعوانه الذين أقلقوا راحتهم من جهة أخرى ۰ ولهذا اضطر الامام على بن المهدى الى تسليم مختار باشا جميع الدفاتر والسجلات الخاصة بشئون الادارة فى اليمن ، فشرع العثمانيون يتدارسونها لمعرفة شئون الحكم فى تلك البلاد (٢) ۰ وقد شكلت حكومة عثمانية فى مدينة صنعاء لتسيير دفة الحكم فى ولاية اليمن التى أصبح مختار باشا واليا عليها من قبل السلطان العثمانى عبد العزيز فى سنة ١٨٧٢ (١٢٨٩ هـ) (٣) ۰

---

(١) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٩٦ ، ٢٠٦ ۰

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٥ ۰

(٣) Jacob, H.F. : Op. Cit., p. 24.

وقد حاول الوالى العثمانى أحمد مختار باشا أن يجتذب اليه قلوب العامة من اليمنيين دون الخاصة حتى يحببهم فى النظام العثمانى الجديد · وقام هذا الوالى بطرد الموظفين اليمنيين وعين فى وظائفهم مأمورين من الأتراك حتى يكونوا أداة طيعة فى يده لتدعيم الحكم العثمانى فى البلاد · أما بالنسبة للامام فقد عرف العثمانيون مكانته الروحية بين أتباعه الزيديين ، فرأوا أن يسترضوهم بالسماح له بالاقامة فى صنعاء مع منحه معاشا شهريا ، بشرط أن يقتصر نشاطه على ممارسة نفوذه الروحى بين أتباعه بما لا يتعارض مع مصالح الحكومة العثمانية فى الولاية (١) · أما أقارب الامام فقد أمر الوالى العثمانى بوقف المرتبات التى كانت تصرف لهم ، كما سد فى وجوههم أسباب المعيشة حتى أن الامام نفسه وجميع أقاربه شرعوا فى بيع أملاكهم بعد ذلك بوقت قصير · وعلى أى حال فقد اجتاح اليمن شعور بالرهبة من العثمانيين ، حتى أن القبائل اليمنية العاتية هالها وروعها ما كان لدى الأتراك من « مدافع وآلات » ·

ولم يكتف العثمانيون بسيطرتهم على صنعاء بل قاموا بعدة عمليات حربية توسعية فى أرجاء اليمن بعد انقضاء أربعة أشهر على دخولهم العاصمة اليمنية (٢) · فقد توجه من صنعاء موسى كاظم باشا وفضلى باشا على رأس قوة عثمانية للسيطرة على كوكبان الواقعة فى شمال غرب صنعاء · وكان يحكم تلك المدينة من قبل الامام الزيدى أميرها أحمد بن محمد شرف الدين الذى كانت تخضع لحكمه فى نفس الوقت المنطقة الممتدة غرب كوكبان حتى حدود تهامة · وقد أخذ هذا الأمير يدعم الحصون التابعة له فى جبل كوكبان حتى يصد غزو الترك عن بلاده · غير أن العثمانيين حاصروه سبعة أشهر ، وتمكنوا من السيطرة على المنطقة بأكملها بعد أن نشبت بين الجانبين معارك دامية استسلم فى نهايتها أمير كوكبان ، وقتل فيها أخوه وقائد جنده (٣) ·

وبرغم ما أحس به اليمنيون من الرهبة ازاء حشود العثمانيين وشدة فتك أسلحتهم ، فقد تمردت على الادارة العثمانية فى فجر ظهورها قبيلة « الحدا » اليمنية ، ودار بين رجالها وبين العثمانيين قتال عنيف انتهى بمقتل رئيس القبيلة وخضوعها لحكومة الولاية · كما تمردت على العثمانيين قبيلة خولان فى عهد الوالى العثمانى أحمد أيوب الذى خلف مختار باشا فى منصب الولاية ، غير أن الأتراك حملوا على هذه القبيلة وأذاقوها الهوان حتى أعلنت ولاءها للادارة العثمانية فى صنعاء · وقد أقام العثمانيون فى عاصمة الولاية ثكنات للعساكر العثمانيين وتحصينات ضخمة خارج الأسوار ، وشيدوا مساكن جديدة لكبار

---

(١) Harris, W.B. : Op. cit., p. 99.

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 15.

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٦ ·

الشخصيات العثمانية فى حى الروضة فى القسم الغربى من صنعاء . كما أصلحوا جامع بكيل الذى أقاموه أثناء حكمهم الاول فى اليمن (٥٣٨ ــ ١٦٣٥) وهو ملاصق للحائط الشرقى للمدينة · أما فى تهامة فقد اهتم العثمانيون اهتماما بالغا بميناء الحديدة وجعلوه الميناء الأول لليمن ، مما أدى الى اضمحلال ميناء مخا القديم الذى أطلق اسمه على محصول البن الذى كان يصدر من اليمن عن طريق هذا الميناء (١) ·

وهكذا تمكن العثمانيون من العودة الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ م (١٢٨٩هـ)، بعد جلائهم عنها منذ قرنين ونيف من الزمان . وأقاموا حكومة عثمانية فى صنعاء التى أصبحت عاصمة الولاية · وسوف يستمر حكم العثمانيين فى اليمن حتى هزيمة دولتهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى على النحو الذى سنوضحه فى الفصول التالية · وقبل أن نختتم هذا الفصل سنوضح فيما يلى حدود ولاية اليمن العثمانية فى سنة ١٨٧٢ لنعرف الى أى مدى تغيرت تلك الحدود عما كانت عليه فى أثناء الحكم العثمانى الأول بين عامى (١٥٣٨ ــ ١٦٣٥) ·

خامسا ــ حدود ولاية اليمن العثمانية

عندما فتح الأتراك العثمانيون بلاد اليمن فى مطلع القرن السادس عشر كانت حدودها تمتد من جنــوب نجد والحجاز فى الشمال الى خليج عــدن فى الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالى شرقا الى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا ، وكانت هذه هى الحدود القديمة المعروفة لليمن الكبرى(٢) · غير أن حدود ولاية اليمن العثمانية تغيرت تبعا لما انتهت اليه تطورات الأحداث عندما أعاد العثمانيون فتحها فى منتصف القرن التاسع عشر ، فأصبح يحــد الولاية العثمانية من الشمال خط عرض ٥٢٠ ، بينما تحدها من الجنوب النواحى التسع الخاضعة للنفوذ البريطانى ، والتى تقرر بوضوح تحديدها فيما بعد بين عامى (١٩٠٢ ، ١٩٠٤) بمعرفة لجنــة الحدود الانجليزية ــ التركية · أما الحدود الشرقية فيميزها خط طول ٥٤٥ ، وان تعرضت كثيرا للتغير تبعا لحركات التوسع العثمانية ، بينما يمتد البحر الأحمر على طول حدود الولاية العثمانية من جهة الغــرب (٣) ·

وبعــد أن سيطر الأتراك العثمانيون على مدينة صنعاء فى سنة ١٨٧٢ لم

---

(١) Scott, H. : Op. cit., p. 229.

(٢) ابو محمد الحسن بن أحمد الهمدانى · صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ ·

(٣) Bury, G.W. : Op. cit., p. 20.

يمتد حكمهم بعيـدا فى شرقيها • وعلى الرغم من أن شريف مأرب كان يعترف بالسيادة العثمانية على بلاده ، فان ابن عمه شريف بيحان تحالف مع الانجليز فى جنوب اليمن ، بينما قريبهما شريف حريب لم يقبل الخضوع أو الارتباط بأى نفوذ أجنبى ، وان انتهز الأشراف الثلاثة أية فرصة تتاح لهم للانتفاع من القوى التى تتوق الى بسط نفوذها على بلادهم كالدولة العثمانية وبريطانيا • وقد عرف سكان المنطقة الصحراوية الشرقية من أواسط اليمن « بأهل المشرق » ، ومن بينهم قبائل نجران ، والجوف ، والقبائل التى تعيش فى المنطقة الجنوبية الغربية من الربع الخالى ، وهذه القبائل لا تعترف بأى نفوذ أجنبى الا اذا أجبرت على ذلك • وقد استطاع الامام يحيى الذى تولى الامامة فى سنة ١٩٠٤ أن يجتذب الى صفه « أهل المشرق » أتباع المذهب الزيدى فساندوه فى مقاومته للأتراك العثمانيين السنيين (١) •

وجدير بالذكر أن المذهب السنى هو المذهب السائد فى تهامة على الرغم من وجود كثير من الزيديين فى ميناء الحديدة • أما فى الشمال فى منطقة عسير فان اليمنيين سـكان السهول والجبال هناك معظمهم من الشافعية الملتزمين بالأصول الاسلامية • ويكثر أتباع المذهب السنى على امتداد مسافة من الساحل اليمنى الى داخل البلاد على طول سلسلة الجبال المطلة على البحر الأحمر • لهذا نجد (حجيلة) على سبيل المثال سنية بينما يعم المنطقة من حجيلة الى صنعاء أتباع المذهب الزيدى (٢) • أما مناخة فتخف فيها حدة التعصب الدينى لمذهب معين نتيجة لاتصالها بالمراكز الكبرى فى الهند كمدينة بومباى ، ودلهى ، وحيدر آباد ، عن طريق انتقـال التجـار ومراسلاتهم • وقد كان الموظفون الأتراك العثمانيون السنيون يقيمون شعائرهم الدينية فى المساجد المحلية اليمنية والتى تخص بطبيعة الحال أتباع المذهب الزيدى من الشعب اليمنى •

على أن سكان اليمن الأوسط أقل تعصبا من سكان شمالى اليمن الذين يعيشون بالقرب من مركز الزيدية فى صعدة • وقد رأى سكان الجبال اليمنيون عبر قرون عديدة ظهور وتدهور كثير من العقائد والمذاهب ، كما انهم اهتموا بأرضهم وبمشكلاتهم المحلية أكثر من اهتمامهم بالعالم الخارجى ، وكانوا فى مأمن من محصلى الضرائب لبعدهم عن مراكز الادارة ولوعورة جبالهم ، ولكن اذا مس تيـار السياسة مصالحهم الشخصية فانهم يشكلون خطرا كبيرا على الحكومات القائمة ، اذ أن رجال الجبال اليمنيين يستطيعون الزحف والتسلق فى أرضهم الوعرة عبر ممرات ينفردون بمعرفتها ، بينما تلاقى القوات والفرق العسكرية النظامية صعوبات لا قبل لهم بهـا ، وكثيرا ما يضلون الطريق وهم مهددون

---

(١) Burry, G.W. : Ibid, pp. 32-33.

(٢) Bury, G.W. : Ibid., p. 34.

بالهلاك بين القمم العالية ، والمنحدرات السحيقة • لهذا كان اختراق الأراضى اليمنية من أشق الصعوبات التى واجهت القوات العثمانية ، ووقفت دائما حائلا منيعا بينها وبين تمكنها من السيطرة الفعلية على اليمن بأكمله • هذا الى جانب تمرد القبائل اليمنية وصعوبة حصول العثمانيين على الماء فى سهول تهامة القاحلة، والمناخ القاسى الذى يلفح بشدة حرارته ويردى الجنود الأتراك الذين لم يعتادوه فى بلادهم ذات البرودة المعتدلة (١) ، هذا فضلا عن الأمراض الكثيرة التى كانت تنتشر عقب بداية فصل سقوط الأمطار •

ولم تصل سيطرة العثمانيين الفعلية الى شرقى اليمن الأعلى وشماليه ، ولا جنوب اليمن الأسفل ، حتى أن « مأرب » ، و « صعدة » ، و « نجران » ، و « شهارة » ، و « قفلة عذر » ، وما حولها من القبائل شديدة البأس مثل « حاشد » ، و « بكيل » ، و « أرحب » ، و « ذو حسين » وأمثالها من القبائل اليمنية ظلت تحت سلطة الأئمة والمشايخ المحليين ، وكذلك كان الحال فى النواحى الجنوبية التسع التى تعرضت للنفوذ البريطانى المتمركز فى عدن (٢) •

ويمكننا القول بأن ولاية اليمن العثمانية فى سنة ١٨٧٢ كانت تقع حدودها بين خطى طول ٤١° و ٤٦° شرق جرينتش وبين خطى عرض ١٢° و ٢٠° شمال خط الاستواء • وخط الحدود كان يبدأ من الجنوب على بعد عشرة أميال شمال مضيق باب المندب من رأس « الشيخ سعيد » التى تبرز تجاه جزيرة ميون أوبريم «Perim» ويفصل بينهما مضيق يبلغ اتساعه ١ر٥ ميل • ومن هناك الحدود فى الاتجاه الشمالى الشرقى فتمر مقتربة من شرق تعز ، الى جنوب ماوية ، وتلاصق أراضى أمير الضائع ، ثم تضم هذه الحدود الى الولاية العثمانية مدينة قعطبة ، الواقعة فى الشمال الشرقى من تعز • ومن هذه النقطة تتجه الحدود الى الشرق لتضم للولاية مدينتى بريم ، وذمار ، وهاتان المدينتان تمثلان الحدود الشرقية لليمن العثمانية • ثم يمتد خط الحدود شمالا من شرق ذمار الى شرق صنعاء بمسافة ١٤٠ ميلا تقريبا ، ويستمر الامتداد الى حدود الحجاز بعد أن يضم منطقة عسير الى بقية اليمن العثمانية (٣) •

على أننا يجب أن نشير الى أن الأراضى اليمنية المحصورة داخل الحدود التى أوضحناها لم تكن تخضع جميعها للحكم العثمانى ، بل وجدت قبائل يمنية بأكملها لم تقبل الخضوع للأتراك وان كانت تابعة من الناحية الاسمية للسيادة العثمانية •

---

(١) Bury, G.W. : Op. cit., p. 35.

(٢) أحمد وصفى زكريا : المقتطف ، المجلد ٩٠ ، ج ١ ، ص ٨٠ •

(٣) Harris, W.B. : Op. cit., pp. 24-25.

الفصل الثالث

نظام الحكم العثمانى فى اليمن قبيل العهد الدستورى
(١٨٧٢ _ ١٩٠٨)

اولا _ سياسة العثمانيين المركزية وآثارها فى نظام الحكم العثمانى فى اليمن ٠

ثانيا _ فساد الادارة العثمانية فى اليمن وموقف اليمنيين ازاءها ٠



نظام الحكم العثماني في اليمن قبيل العهد الدستوري
(١٨٧٢ ـ ١٩٠٨)

اولا ـ سياسة العثمانيين المركزية وآثارها في نظام الحكم العثماني في اليمن

يتضمن هذا الفصل في بدايته عرضا موجزا لتطور اتجاه الدولة العثمانية نحو تطبيق السياسة المركزية في حكم الولايات التابعة لها ، تلك السياسة التي كانت تهدف الى تقوية قبضـــة الدولة على ممتلكاتها المترامية الأطراف ٠ وسوف تنعكس ملامح هذا الاتجاه بطبيعة الحال على سياسة العثمانيين في حكم اليمن منذ عودتهم اليها في سنة ١٨٧٢ حتى بداية العهد الدستوري العثماني في سنة ١٩٠٨ ٠ كمـا سيبدو تطرف هـذه السياسة في عهـــد السلطان عبد الحميد الثاني الذي سيتمسك بالمركزية الشديدة في الحكم ، مما سيؤدي الى تفاقم الأمور في نهاية عهده في الولايات التابعة للدولة ، ومن بينها ولاية اليمن ، على النحو الذي سنوضحه فيما بعد ٠

تطور اتجاه الدولة العثمانية نحو تطبيق السياسة المركزية :

عندما بدأ الأتراك العثمانيون توسعهم التاريخي في مطلع العصور الحديثة لم يفرضوا على الولاية الجـديدة التي دخلت في حوزتهم القوانين والأنظمـة العثمانية الصرف حتى لا يخلوا بالتنظيمات الاقتصادية لهذه البلاد (١) ٠ بل

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٤٢ ٠
Zeine, Z. : Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, p. 20.

كانوا يكتفون بعد اخضاعها بفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية عليهـا ويتركون لشـعوبها أنظمتهم القـديمة ، وحرية الاحتفـاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وممارسة طقوس دياناتهم بصورة علنية ، وحرية التقاضى فى الأمور الشخصية والمدنية لدى رؤسائهم الروحيين ، وان كانوا قد فرضوا على الذميين منهم الجزية التى كانت بمثابة بدل الاعفاء من الخدمة العسكرية (١) ٠ ولهذا فان مناطق من ألبانيا والجزيرة العربية وبخاصة اليمن ، قد احتفظت بتنظيماتها القبلية والاقطاعية برئاسة أمرائها المحليين الذين كانوا يقلدون الرئاسة بألقاب عثمانية وفقا لمقتضيات الخدمة العسكرية مع عـدم تبعيتهم للادارة العثمانية المباشرة الا من الناحية الاسمية (٢) ٠

والعرب فى ذلك الوقت لم يعتبروا فتوحات الأتراك العثمانيين فى البلاد العربية عدوانا عليهم ، بل اعتبروها انقاذا لهم من ظلم المماليك ، ومواصلة لجهاد الأتراك فى سبيل الله بعد أن وسعوا رقعة الاسلام فى أوربا ، ونالوا بذلك مكانة رفيعة لدى الشعوب الاسلامية ٠ وكانت تلك الشعوب ترى أن العثمانيين أقوى وأقدر على الدفاع عن الممالك الاسلامية فى الوقت الذى كانت فيه هدفا للأطماع الأجنبية الاستعمارية (٣) ٠ وقد أوجد الدين تقاربا كبيرا بين الأتراك العثمانيين ورعاياهم فى بلاد اليمن فى عصر كانت فيه السيادة للرعوية الدينية لا للقومية الخاصة ، وعلى وجه الخصوص فى منطقة الشرق الأوسط ، بعكس ما كان عليه الحال لدى القوميات البلقانية التى خضعت للنفوذ العثمانى ٠ كما أن الشرق العربى كانت تسوده فكرة الزعامة الدينية ووجود خلافة تشمل العالم الاسلامى كله ، حتى كان التفكير القومى لدى المثقفين من العرب فى القرن التاسع عشر مجرد مطالبة باصلاحات معينة تحت السيادة العثمانية ٠ ويدعم هذا القول تأييد العرب المطلق للانقلاب الدستورى العثمانى فى ١٩٠٨ ، حتى ان المتطرفين نسبيا من العرب اقتصروا على المطالبة باستقلال ذاتى تحت السيادة العثمانية ، أو بامبراطورية ثنائية وخاصة بعد انهيار الامبراطورية فى البلقان بين عامى ١٩١٢ ــ ١٩١٣ ٠ وحتى هذه الأفكار كانت وقفا على عرب الشمال أى فى الشام والعراق ومصر وهم أكثر تقدما واحتكاكا بالأفكار الغربية من سكان الجزيرة العربية ٠

لهـذا فان اليمنيين عامة ، وحتى معتنقى المذهب الزيدى منهم ، كانوا لا يشعرون بالنفور الدينى من العثمانيين ، وان استنكروا فى بعض الأحيان أفعالهم وعاداتهم غير الملتزمة بأصـول الدين والقريبة الشـبه من تصرفات الأوربيين ٠ وأما القول بأن اليمنيين الزيديين لم يقبلوا الخلافة العثمانية وثاروا

(١) Ferid, M. : Etude sur la crise ottomane actuelle (1911-1912), p. 6.

(٢) Saab, H. : The Federalists of the Ottcman Empire, p. 101.

(٣) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٠ ــ ٢٨ ٠

ضدها لأنها خلافة سنية ، وان المذهب الزيدى يحصر الخلافة أو الزعامة الدينية فى الأئمة الزيديين فقط ، فان هذا الشعور العدائى لم يكن موجودا الا عند الغلاة المتعصبين من الزيديين وخاصة الأئمة . بل ان الأئمة أنفسهم كانوا دائما على استعداد للاعتراف بالسيادة العثمانية اذا اعترف العثمانيون بزعامتهم الدينية ، وتنازلوا عن بعض مظاهر السلطة الزمنية على شيعتهم الزيديين .

على أن الحروب والثورات التى تزعمها الأئمة الزيديون والرؤساء المحليون ضد الحكم العثمانى فى اليمن ، والتى قيل انها تعبير خفى عن رفض الأئمة للخلافة العثمانية تحت ستار محاربة الفساد ، ورفع الظلم فان هذه الحروب والثورات لم تكن الا دفاعا عن المصالح الخاصة للأئمة الزيديين والرؤساء المحليين أنفسهم ، منبثقة من أوضاع محلية مؤقتة ، والحاحا من هؤلاء لتأكيد زعامتهم الدينية وسلطتهم الزمنية التى حرموا منها نتيجة لسيطرة الأتراك العثمانيين على بلادهم (١) .

وقد حددت هذه الحروب والثورات الاطار العام لسياسة العثمانيين فى حكم اليمن بعد عودتهم اليها فى سنة ١٨٧٢ ، مما جعلهم يقررون برنامجا للعمل على تضييق الخناق على الأئمة ، وحصر نفوذهم ، ومحاربة دعاتهم ، وجعلهم فى شبه عزلة تحول دون اتصالهم المباشر برؤساء القبائل وبجماهير الشعب اليمنى . كما حاول الأتراك أن يوقفوا دفع عوائد الزكاة للأئمة الزيديين ويقصروا دخل الأئمة على راتب شهرى بلغ ثلاثة آلاف ريال شهريا للامام وأسرته (٢) .

وقد بدأت الكراهية تطل برأسها بين العرب والترك فى غضون القرن التاسع عشر نتيجة لسرعة انتشار الفساد الذى عم أنحاء الامبراطورية العثمانية كلها وسرعة سير الدولة فى طريق الانهيار (٣) ، وتغلغل التأثيرات الغربية فى البلاد فى كلا الجانبين العربى والتركى ، وتشجيع هذه التأثيرات لنمو الأفكار القومية ولتمايز الأجناس ، ولسير كل منهما فى طريق الوعى العنصرى القومى وازدياد الثقافة الفكرية .

على أن أهم أسباب الكراهية بين العرب والترك هى النتائج التى أسفرت عنها حركة التنظيمات التى شرعت الدولة فى تنفيذها منذ مطلع القرن التاسع

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ـ اليمن والامام يحيى ١٩٠٤ ـ ١٩٤٨ ، ص ٣١ .

(٢) محمد بن أحمد العقيلى : تاريخ المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ج ١ ق ٢ ، ص ٥٣٠ .

(٣) Zeine, Z. : Op. cit., p. 36.

عشر والتى اصطبغت بالصبغة المركزية • فقد حاولت الدولة أن تتخلص من نظام الالتزام الفاسد فى جمع الضرائب ، حيث كان الوالى الملتزم يعد كحاكم فرد فى ولايته لا تحد من سلطانه وطغيانه أية سلطة طالما أنه يقدم لخزينة الدولة ما تعهد بتقديمه من الأموال باعتباره ايرادا سنويا للولاية (١) ، وأن تستعيض عنه بنظام آخر للجباية هو أكثر ملاءمة لمصلحة السكان ، وبنظام آخر لادارة المقاطعات بتقسيم الدولة الى وحدات ادارية متسلسلة فى المراتب ترتبط بالحكومة المركزية وتتقيد بأوامرها بدلا من أن تترك للطوائف الدينية وللقبائل استقلالها المحلى (٢) •

وعلى الرغم من أن بعض سلاطين آل عثمان قد حاولوا ادخال بعض التنظيمات الجديدة فى الدولة ـ خلال القرن الثامن عشر ـ ولم يكتب لمحاولاتهم النجاح • فان محاولة السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) أخذت طابعا جديا بعد قضائه على الانكشارية واعتماده على الجيش الجديد الذى كان أكثر استجابة للتدريب العسكرى الحديث • وقد كثرت فى عهده الأقوال حول اصلاحات شاملة فى الحقل الدينى ، والادارة ، والجيش والقضاء ، والزراعة ، والتجارة ، ويهمنا الآن أن نعرف أن هذه الاصلاحات ارتدت الطابع المركزى عندما أقدم السلطان محمود الثانى على اختصار عدد الايالات أو الباشويات الثمانى عشرة ودمجها فى أربع حاكميات ، رغبة منه فى اخضاع الادارة العامة الى أصول مركزية الحكم ، وان حال دون تنفيذ ذلك العجز المالى فى الدولة ومحاولة تلافيه • على أن ما عجز عنه السلطان محمود الثانى قام به خلفه وابنه السلطان عبد المجيد فى سنة ١٨٥٢ • فألغى نظام الالتزام واستبدله بنظام ضرائبى جديد يقضى بتعميم الضريبة حسب مقدرة المكلف ودخله ، وجبايتها بواسطة جباة رسميين • كما أحال الادارات المحلية الى وحدات يسيطر عليها الباب العالى سيطرة تامة ، حتى أصبح الحكام مجرد موظفين مسئولين يتقاضون رواتبهم المحددة من الدولة ويرتبطون بها وبقوانينها ويأخذون على عاتقهم مسئولية تنفيذ أوامرها (٣) •

وقد واجهت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت حركتين قامتا فى العالم العربى نتج عنهما زيادة تمسكها بتنفيذ السياسة المركزية ، أولاها حركة الوهابيين التى كانت تستند الى قوة آل سعود ، وثانيتها حركة محمد على فى اصلاح ولايته على الطريقة الغربية ، وتوفير أسباب القوة لها ، ومحاولة تكوين امبراطورية فى البلاد العربية ، مما أقض مضجع السلطان محمود الثانى •

(١) Engelhardt : La Turquie et le Tanzimat, Vol. I, pp. 105-108.

(٢) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ، ص ٥ •

(٣) Engelhardt : Op. cit., Vol. I, p. 108.

وقد اتجه هذا السلطان الى منافسة محمد على فى الاصلاح والى اتخاذ موقف الدفاع تجاه كل حركة ترمى الى الانفصال مهما كلفه ذلك (١) . فبدأ على الفور بتشديد قبضته على أطراف دولته الواسعة الأرجاء ، وحاول أن يتدارك كل أسباب التشتت فيما يختص بالولايات العربية بصفة خاصة . وقد تمكن بسلسلة من التدابير من تصفية المناطق التى كانت تتمتع بالاستقلال الذاتى ، وكذلك تشديد قبضة الدولة على البلاد العربية التابعة لها اسميا . وكانت عودة العثمانيين الى اليمن فى منتصف القرن التاسع عشر احدى حلقات هذه السياسة على النحو الذى سبق أن أوضحناه فى الفصل السابق .

قانون الولايات العثمانى سنة ١٨٦٤ وآثاره فى التقسيمات الادارية فى اليمن :

حاولت الدولة العثمانية أن تنظيم سياستها المركزية الجديدة فى السيطرة على الولايات التابعة لها فأصدرت فى سنة ١٨٦٤ قانون الولايات فى عهد السلطان العثمانى عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦) . وقد نقل هذا القانون نقلا أمينا عن النظم الادارية الفرنسية من حيث تقسيم السلطنة الى ولايات تتألف من متصرفيات ، وهذه تتألف من قائمقاميات يتبع كلا منهم عدد من النواحى (٢) . وفى عهد هذا السلطان عاد العثمانيون الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ وأقاموا حكمهم فى صنعاء فكان طبيعيا أن تتأثر اليمن بقانون الولايات المذكور .

وعلى الرغم من أن قانون الولايات الذى قدم من قبل الوزير العثمانى المصلح على باشا كان يقصد منه تطبيق قاعدة اشتراك السكان فى تدبير مصالحهم العامة ، والتخفيف من حدة الحكم المطلق الملازم لأصول الادارة المركزية التى سارت عليها السياسة الجديدة للدولة العثمانية (٣) ، فان هذه الادارة بقيت هى الغاية التى تهدف اليها الدولة حتى ان تصرفات الولاة ظلت قاصرة على تطبيق أوامر الآستانة . وكان البرق الذى لقى اهتماما خاصا وعناية كبرى فى ذلك الحين ، احدى وسائل الدولة لتعزيز خطتها المركزية (٤) .

ويضاف الى ذلك أن الهيئات المنتخبة التى أوجدها قانون الولايات الجديد لتعاون الولاة والمتصرفين والقائمقامين لم تكن خاضعة لقاعدة التصويت العام

---

(١) Lammens, S.J. : La Syrie, Précis Historique, Vol. II, p. 172.
(٢) Bérard, V. : La Révolution Turque, p. 64.
(٣) Englhardt : Op. cit., Vol. I, p. 193.
(٤) Lammens : Op. cit., p. 191.

غير المقيد بشروط مالية وادارية (١) . ولم يكن جميع أعضائها منتخبين انتخابا، بل ان الأعضاء المنتخبين لم يكونوا يشكلون سوى أربعة من تسعة أعضاء بما فيهم الوالى . أما الأربعة الباقون فيكونون من كبار موظفى الدولة الذين يعملون الى جانب الوالى أو المتصرف أو القائمقام فى كل وحدة من الوحدات الادارية(٢) . وأما طريقة التصويت فقد كان للمجلس الادارى المكون على هذا الشكل ، والذى يجتمع على شكل لجنة انتخابية ، نصيب كبير فى توجيه عمليات الانتخاب الجديدة . اذ كان هذا المجلس ينظم قوائم المرشحين بعدد يعادل أضعاف عدد الأعضاء المطلوب انتخابهم ، وترسل القوائم الى الوحدات الأدنى فتنظر فيهـا المجالس المحلية التى لا يحق لها أن تنتخب سوى ثلثى عدد الأسماء الموجودة فى القوائم ، ثم تعود هذه القوائم الى الوحدات الأعلى حيث تقوم عمليات الفرز فتسقط أسماء ثلث المرشحين غير الفائزين ، وتقدم الجداول الى المتصرفين أو الولاة ، ولا تكون حاوية سوى ضعف عدد الأعضاء المطلوبين فيسقط المتصرف أو الوالى ، كل فى دائرة اختصاصه ، نصف الأسماء الباقية ويبقى النصف الآخر من الأسماء كممثلين للسكان فى مجالس الادارة (٣) . وفيما عدا كل ذلك ، لم يكن لهذه الهيئات شأن كبير فى الادارة لأن الرأى الأخير هو للوالى الذى يتصرف برأيه ، وقوله هو القول الفصل فى مختلف أمور ولايته (٤) .

وقد قسمت البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية اثر تنفيذ قانون الولايات الجديد الى الولايات التالية : حلب ، بيروت ، دمشق ، بغداد ، الموصـل ، البصرة ، طرابلس الغرب ، بالاضافة الى المتصرفيات المستقلة التابعة رأسـا للباب العـالى : جبل لبنان ، القـدس ، دير الزور ، بنغازى . وفى جنـوب الامبراطورية العثمانية كانت هناك أيضا ولاية الحجاز ، وولاية اليمن اللتان لم يطبق فيهما قانون الولايات تطبيقا تاما ، كما أنه لم يطبق فى الولايات العربية المذكورة بصورة متساوية .

ويذكر ساطع الحصرى أن الدولة العثمانية قسمت الى ولايات ، والولايات الى ألوية (سناجق) ، والألوية الى أقضية ، والأقضية الى نواح ، وكان على رأس الادارة فى كل لواء « متصرف » ، وفى كل قضاء « قائمقام » ، وفى كل ناحية « مدير ناحية » . وكانت الدولة تنشر كل سنة حولية رسمية ، تسميها « الكتاب السنوى للدولة العلية العثمانية » . وكانت تبين فى الحولية المذكورة تفاصيل التقسيمات الادارية ، وتذكر أسماء رؤساء الموظفين فى جميع

(١) Bérard, V. : Op. cit., p. 65 ; Englehardt : Op. cit., p. 272.
(٢) Engelhardt : Op. cit., p. 271.
(٣) Bérard, V. : Op. cit., p. 65, Engelhardt : Op. cit., p. 191.
(٤) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤٢ .

الأقضية والألوية والولايات ، فضلا عن العاصمة . وقد تبين الحصرى من الحولية الرسمية العائدة لسنة ١٣٢٢ هجرية ـ الموافقة لسنة ١٩٠٤ ميلادية ، والتى يؤكد أنه لم يطرأ تغيير على التقسيمات الادارية المتعلقة بالبلاد العربية بعد هذا التاريخ ، تبين منها أن ولاية اليمن العثمانية كانت تضم أربعة ألوية هى : صنعاء ، الحديدة ، عسير ، تعز . ويوضح الجدول التالى عدد الأقضية والنواحى والقرى التابعة لكل لواء من هذه الألوية :

	أقضية	نواح	قبائل	عزلات	قرى
لواء صنعاء	٨	٢٦	ــــ	١٠٣	٣٦٧٢
لواء الحديدة	٨	١٦	٣٨	١٧٢	ــــ
لواء عسير	٦	١	٣٤٣	ــــ	ــــ
لواء تعز	٥	١١	ــــ	ــــ	٢٦٦٧
المجموع	٢٧	٥٤	٣٨١	٢٧٦	٦٣٣٩

وكان يحكم ولاية اليمن وال عثمانى مقره فى صنعاء عاصمة الولاية ويصدر بتعيينه فرمان من الباب العالى ولم يكن الفرمان يحدد مدة ولايته . وكان يتبع هذا الوالى متصرفون فى ألوية اليمن الأربعة ، والمتصرف يمثل الوالى فى حدود اللواء الذى يحكمه ويرجع اليه فى مختلف الأمور. وكان يتبع المتصرفين قائمقامون للأقضية التى تنقسم اليها الألوية ، ويلى هؤلاء المديرون الذين يبسطون نفوذهم على مناطق محدودة داخل الأقضية . ولم يكن النفوذ العثمانى ممثلا فى المناطق اليمنية التى لا يمكنه فيها حماية ممثليه العثمانية ، حتى ان كثيرا من الأتراك المكلفين بمهام ادارية أو دبلوماسية فى المناطق النائية داخل الولاية كانوا يتعرضون لصعاب جمة ولأخطار تكاد تودى بحياتهم (١) . وقد اشتمل كل لواء من ألوية اليمن الأربعة على عدد من المدن الهامة ، فلواء صنعاء كان يضم : حراز ـ حجة ـ ذمار ـ بريم ـ رداع ـ عمران . بينما كان يضم لواء الحديدة : زبيد ـ اللحية ـ الزيدية ـ ريمة ـ بيت الفقيه ـ باجل ـ أبى عريش . أما لواء عسير فقد اشتمل على أبها وقنفدة . ولواء تعز كان يضم : أب ـ الحجرية ـ مخا ـ قعطبة (٢) .

التنظيمات العسكرية العثمانية فى اليمن :

عرضنا فيما سبق التقسيمات الادارية لولاية اليمن العثمانيةوالوظائف الادارية المناط بها تصريف شئون الادارة هناك تبعا للسياسات المركزية التى

(١) Burry, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, pp. 163-164.
(٢) Jacob, H.F. : Kings of Arabia, p. 68.

اتبعتهـا الدولة العثمانية فى حكم الولايات التابعة لها · وسوف نستعرض فيما يلى نظام الادارة العسكرية فى الدولة العثمانية بصفة عامة لتكون الاطار العام الذى يمكننا من خلاله معرفة نظام الادارة العسكرية العثمانية داخل اليمن وقوة الحامية العثمانية فيها بالنسبة لقوات الدولة ·

لقـد كانت الممالك العثمانية مقسمة فى أوائل القـرن التاسع عشر من الناحية العسكرية الى سبع دوائر كبيرة · فى كل واحدة منها جيش كامل من المشـاة والخيالة والمدفعية · وكانت الجيوش تسمى ــ بالنسبة الى تسلسل هـذه الدوائر ــ بالأول والثانى والثالث الى نهاية عددها · وكان مركز قيادة الجيش الأول الذى كان يسمى « بالخاصة الهمايونية » فى مدينة استانبول . بينما كان مركز الجيش الثانى فى مدينة « أدرنة » ، والجيش الثالث فى « مناستر » والجيش الرابع فى « أرزنجان » ، والجيش الخامس فى دمشق الشام ، والجيش السادس فى بغداد ، وكان الجيش السابع فى ولاية اليمن · ويلاحظ أن مراكز قيادة ثلاثة من هذه الجيوش السبعة كانت فى البلاد العربية، هذا بالاضافة الى أنه كانت هناك ثلاث دوائر عسكرية فرعية تضم بعض الفيالق، دون أن تكون جيشا كاملا : هذه الدوائر كانت فى طرابلس الغرب ، وكريت ، والحجاز ، أى أن اثنتين من هذه الدوائر الفرعية الثلاث أيضا كانت فى البلاد العربية ·

وبالنسبة للخـدمة العسكرية فى الدولة العثمانية فانهـا كانت اجبارية للمسلمين من رعاياها ، لمدة عشرين عاما ، تبدأ من سن العشرين ، وتستمر حتى الأربعين · وكان الأفراد خلال السنوات الست الأولى من خدمتهم العسكرية يدخلون فى عداد « العساكر النظامية » فيقومون بجميع مهام الخدمة الفعلية · ولكن فى السنوات الثمانى التى تلى ذلك يعتبرون من صنف «العساكر الرديفة» ويدعون الى الخدمة عند مسيس الحاجة · وأما فى السنوات الست الباقية من مدة الخدمة ، فيعتبرون من « العساكر المستحفظة » فلا يدعون الى الخـدمة الفعلية الا عند الحاجة القصوى لخدماتهم (١) ·

وكان كل جيش من الجيوش العثمانية يضم بين صفوفه العساكر النظامية مع ضباطهم من جهة ، والضباط الذين تحتاج اليهم العساكر الرديفة والمستحفظة ــ عند اللزوم ــ من جهة أخرى · وكانت الخدمة العسكرية الاجبارية تنحصر فى المسلمين من رعايا الدولة ، أما غير المسلمين فكانوا معفون من الخـدمة العسكرية ، غير أنهم مقابل ذلك كانوا مكلفين بضريبة خاصة تسمى « البدل العسكرى » يدفعونها عند وصولهم لسن العسكرية أو التجنيد · ومع هذا فان الأهالى المسلمين فى بعض الولايات أيضا كانوا معفون من الخدمة العسكرية

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ٢٥٠ ــ ٢٥١ ·

كأهالى ولايات استانبول وكريت ، وجزائر البحر الأحمر ، وطرابلس الغرب والحجاز . كما كان اهالى ولاية اليمن العثمانية من جملة المعفون من الخـدمة العسكرية . وقد أعفى قانون الخدمة العسكرية بعض الأفراد من الخدمة لبعض الأسباب . كما أن هذا القانون لم يطبق على العشائر البدوية (١) وكانت كل فرقة فى الجيش العثمانى تضم لواءين من المشاة فى كل منهما طابور قناصة . وكل لواء ينقسم الى آلايين . وكل آلاى كان يتألف من أربعة طوابير . وتجدر الاشارة الى أن القوات العسكرية العثمانية كانت تتألف من الوحدات التالية :

١ ــ المشــاة :

٦٩ لواء ، ٣١ منها فى الولايات العربية
٢٦٢ آلايا ، ١٢٢ منها فى الولايات العربية
١٥ طابور قناصة ، ٧ منها فى الولايات العربية

٢ ــ الخيــالة :

٣٩ آلايا ، ٣١ منها فى الولايات العربية
١٩٧ بلوكا ، ١٠٢ منها فى الولايات العربية

٣ ــ مدفعية الصحراء :

٣٣ آلايا ، ٩ منها فى الولايات العربية
٢٣١ بطارية ، ٧١ منها فى الولايات العربية

٤ ــ مدفعية الاستحكام :

١٨ طابورا ، ٦ منها فى الولايات العربية

٥ ــ الهنــدسة :

١٩ طابورا ، ٦ منها فى الولايات العربية (١) .

وقد أقام الأتراك العثمانيون عددا من المستشفيات العسكرية لمعالجة المرضى والجرحى من الجنود العثمانيين ، وقد أقيم بعضها فى عدد من المدن العربية كدمشق ، وحلب ، وبيروت ــ وبغداد ، وحلة ، وكركوك ، وجدة ، وطرابلس الغرب . وفى ولاية اليمن العثمانية أقام الأتراك مستشفيات عسكرية فى صنعاء والحديدة وعسير كانت تقدم خدماتها الطبية لجنود الجيش السابع العثمانى المعسكر فى الولاية .

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ .
(٢) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

وجدير بالذكر أن الجيش السابع العثمانى المرابط فى اليمن كانت تتألف وحداته من عساكر نظامية على النحو التالى :

ألوية المشاة هناك كانت تحمل الأرقام التالية : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، وأما الآلايات ، فكانت تحمل الأرقام التالية :

٤٩ ، ٥٠ (تابعان للواء ٢٥)
٥١ ، ٥٢ (تابعان للواء ٢٦)
٥٣ ، ٥٤ (تابعان للواء ٢٧)
٥٥ ، ٥٦ (تابعان للواء ٢٨)

هذا بالاضافة الى وجود طابورى قناصة ، رقماهما ١٣ ، ١٤ (١) ٠

تشكيلات الجندارمة من اليمنيين :

وبالاضافة الى التشكيلات العسكرية العثمانية فى اليمن التى كان قوامها جنود الجيش السابع العثمانى ، فقد عرفت اليمن أيضا جنود « الضبطية » أو « الحميدية » أو « الجندارمة » من اليمنيين أنفسهم ٠ اذ حاول الأتراك العثمانيون فى عهد الوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا الذى تولى حكم اليمن فى سنة ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ) أن يكونوا من بين صفوف الشعب اليمنى تشكيلات للجندارمة لمساعدتهم فى حفظ الأمن فى البلاد ، وحفظ النظام فى الأسواق التجارية ، وتبليغ أوامر الادارة العثمانية الى المعنيين من أفراد الشعب اليمنى ، ونقل الرسائل والبرقيات الحكومية ، وحماية محصلى الضرائب ، ومرافقة المبعوثين والمسافرين الذين تتعهد الادارة العثمانية بتأمينهم ٠

وقد تكون هذا التشكيل ممن اختارتهم الادارة العثمانية فى اليمن من بين رجال القبائل اليمنية ، وبخاصة القاطنين منهم فى المناطق الجبلية لما عرف عنهم من قوة الشكيمة وشدة التحمل ٠ كما ضم العثمانيون الى هذا التشكيل عددا كبيرا من اليمنيين القاطنين فى السهول الرملية فى تهامة ، والذين تميزوا بأن منهم الى جانب العرب اليمنيين كثيرين من السودانيين والأحباش والصوماليين، وكان معظم هؤلاء يمتطون ظهور الجمال التى تعد أنسب وسيلة للانتقال فى سهول تهامة الرملية ٠

وكل كتيبة من الجندارمة تتكون من أربع فصائل ، وتتلقى أوامرها من مركز قيادتها بعاصمة الولاية ، وقد وزعت فصيلتان من هذه الكتيبة فى أرجاء اليمن حيث تقوم كل منهما فى المواقع المحددة لها بالمهام الملقاة على عاتقها ٠

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر نفسه ، ص ٢٥٦ ٠

بينما تعسكر الفصيلة الثالثة فى صنعاء لتكون على أهبة الاستعداد للتوجه فى اى اتجاه تحدده الادارة العثمانية ٠ أما الفصيلة الرابعة فكانت خدماتها بصفة دائمة تنحصر فى مقر الحكومة بمدينة صنعاء عاصمة الولاية (١) ٠

وفضلا عن الفصائل الأربع سالفة الذكر فانه قد وجدت فصيلة أخرى من الجندارمة الراكبين فى اليمن عرفت باسم « السوارى » وكانت تنقسم الى أربع مجموعات ٠ كانت المجموعة الأولى تقوم بمهمتها فى مدينة الحديدة بينما مجموعتان منها موزعتان فى أرجاء الولاية ، أما المجموعة الرابعة فكانت تختص بالعمل فى مقر حكومة الولاية فى صنعاء ٠ ويقوم رجال الضبطية السوارى بحراسة الموظفين العثمانيين من ذوى المراكز الهامة فى الولاية ، وتأمين مراكز الادارة العثمانية وتوصيل البريد والمراسلات والبرقيات الحكومية ٠

أما عن المرتبات الشهرية التى كان يتقاضاها رجال الجندارمة فى اليمن فتنحصر فى أن الفرد كان يتقاضى اثنى عشر ريالا شهريا ، ويحصل الأومباشى على ثلاثة عشر ريالا شهريا بينما الجاويش كان يحصل على خمسة عشر ريالا ٠ على أن رجل الجندارمة السوارى كان يحصل شهريا على ثلاثين ريالا ، وأسباب زيادة مرتبه عن غيره ترجع الى أنه كان مكلفا بالحصول على الدابة التى يركبها كما كان يتولى الانفاق على اطعامها والعناية بها ، وكان ذلك يكلفه مالا يقل عن عشرة ريالات شهريا ، ويزيد هذا المبلغ بطبيعة الحال فى زمن الجدب والمجاعة نظرا للارتفاع المفاجىء فى الأسعار فى مثل هذه الظروف ٠ وكان الجاويش السوارى يتقاضى خمسة وثلاثين ريالا شهريا بزيادة خمسة ريالات عما يتقاضاه الرجل السوارى العادى ٠ وكان لابد لكل منهما أن يستحضر دابة جديدة اذا ماتت دابته أو أصبحت غير لائقة للخدمة ٠ أما ضابط الجندارمة الملازم فكان يتقاضى ثمانية جنيهات شهريا ، بينما يتقاضى رئيسه اليوزباشى اثنى عشر جنيها فى الشهر ٠ وكان يرأس كل فصيلة ضابط برتبة بكباشى بينما يرأس الفصائل الأربع ضابط برتبة أميرالاى ٠ على أن مرتبات الجندارمة كثيرا ما كانت تتأخر عن المواعيد المحددة لصرفها بشهور عديدة (٢) ٠

وكان زى رجال الجندارمة يتكون من عمامة زرقاء داكنة ، ونقبة (جونلة) ورداء له زرائر فضية ٠ على أن معظم رجال الجندارمة اليمنيين كانوا كثيرا ما يرتدون النقبة المعتادة لدى قبائلهم والمصنوعة محليا فى اليمن (٣) ٠

وقد قام جنود الجندارمة اليمنيون بدور هام فى اخماد الفتن وحركات التمرد مما ساعد الادارة العثمانية على اقرار الأمور فى الولاية ٠ وكانوا يظهرون

---

(١) Bury, G.W. : Op. cit., p. 167.

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 168.

(٣) Bury, G.W. : Ibid., p. 169.

شجاعة فائقة فى اخماد الفتن . فكان الطابور منهم يقوم مقام طوابير كثيرة من الأتراك مما جعل المتمردين يخلدون الى الطاعة اثر ظهور جنود الجندارمة اليمنيين · وكانت جنسيتهم اليمنية تقربهم من رجال القبائل اخوانهم فى الوطن والدين ، وتؤدى الى تصفية حركات التمرد ضد الادارة العثمانية دون قتال فى بعض الأحيان · وقد شاع فى ذلك الوقت أن الأتراك يتركون الصلاة ولا يحافظون على الواجبات الدينية وكثيرا ما يرتكبون المعاصى والفجور ويبيحون شرب الخمور ، فاستباح اليمنيون لذلك قتالهم واستحلوا محاربتهم مما زاد من حدة التوتر بين الأتراك واليمنيين · وعندما استعان الأتراك بطوابير الجندارمة اليمنيين فى اخماد الثورات ومحاربة التمرد ، هدأت الأحوال نسبيا فى البلاد ورغب كثير من اليمنيين فى الحاق أبنائهم بطوابير الجندارمة وترقيتهم فى مناصبها (١) ·

وقد أدت هذه النتيجة المرضية الى ازكاء الرغبة لدى الوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا فى استبدال العساكر التركية بعساكر غيرهم من العرب اليمنيين على أن يتم ذلك دون اثارة الشك وسوء الظن لدى الأهالى اليمنيين من جهة ، أو لدى السلطان العثمانى من جهة أخرى · فكتب الوالى الى الآستانة يطلب السماح له بذلك · غير أن الباب العالى كان محاطا بمن أولوا مطلب اسماعيل حقى باشا بتأويلات باطلة زاعمين أنه اتفق مع أشراف اليمن على اخراج « العساكر التركية » من هناك واستبدالها « بالعساكر العربية » والاستقلال بالولاية بعد ذلك عن سيادة الدولة · لهذا لم يوافق السلطان على مطلب الوالى وأمر بمنع أى اجراء يتخذ فى هذا السبيل · بل ان الأوامر وصلت من الآستانة بعد ذلك بالغاء الطوابير الحميدية بدعوى عدم وجود فائدة من الابقاء عليها · والأدهى من ذلك أن السلطان العثمانى عزل الوالى اسماعيل حقى باشا نفسه بسبب ما أشيع عن اتفاقه فى الرأى مع زعماء اليمن ، مما اضطر اسماعيل باشا الى مغادرة اليمن متجها الى مصر حيث توفى بمدينة الاسكندرية (٢) ·

ولا شك أن محاولة الأتراك العثمانيين تكوين تشكيلات الجندارمة من اليمنيين أنفسهم هو حادث له أهميته فى تاريخ اليمن · اذ كانت هذه التشكيلات رغم بساطتها تمثل نواة لتكوين جيش نظامى من أبناء اليمن ، ولم تكن الامامة الزيدية تساعد على نجاح هذا التشكيل بل كانت تقف عقبة كأداء فى سبيل تقدمه حتى لا يكون سلاحا جديدا فى يد الأتراك يدعمون به سيطرتهم على اليمن

---

(١) عبد الواسع الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط ٢ ، ص ٣٦٠ ·

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢٦١ ·

على أنه فى الوقت الذى تصافت فيه الامامة مع الأتراك العثمانيين عقب الصلح الذى انعقد بينهم فى سنة ١٩١١ فقد انخرط فى سلك الجيش العثمانى فى اليمن طواعية واختيـارا عدد غير قليل من أبنـاء الشخصيات الممتازة والأسر المحترمة ، وأبناء المشايخ ورؤساء القبائل اليمنية ، ووصلوا الى أرقى المناصب وتقاضوا أعلى المرتبات (١) ٠

النظام الضرائبى فى اليمن أثناء الحكم العثمانى :

بعـد أن استعرضنا التنظيمـات الادارية والعسـكرية فى ولاية اليمن العثمانية ، سوف نشير الى النظام الضرائبى الذى فرضه الأتراك على اليمن ، والطريقة التى اتبعوها فى جمع الضرائب مما شكل أحد الأسباب الهامة فى اثارة الثورات اليمنية ضد الحكم العثمانى ٠

لقد وجد اليمنيون أنفسهم عدة مرات فى تاريخهم الحديث أمام سلطتين كانت كل منهما تدعى لنفسها حق جباية الضرائب ٠ فأثناء خضوع اليمن للحكم العثمانى كان الامام الزيدى يطالب الشعب اليمنى بالزكاة والعشور تبعا لما تقتضيه الشريعة وفى الوقت نفسه كان الأتراك يطـالبون اليمنيين بالضرائب المختلفة كالجمارك وغيرها (٢) ٠ فالامام الزيدى اعتاد أن يأخذ من المسلم اليمنى أعشار الأرض عينا ، وكان انتاج الأرض الزراعية من الثمار يقيم ثمنه ويدفع أصحابه العشر نقدا للامام ٠ وهناك أيضا زكاة المواشى والدواجن والدواب ٠ وزكاة التجارة والمخازن ثم الزكاة الأصلية ومنها الفطر أى زكاة البدن وتدفع فى رمضان ، وزكاة الحلى « حلى النساء » من ذهب وفضة ٠ ويضاف الى ذلك كله أعانة الجهاد عند الحاجة اليها أثناء الحروب ٠ كما كان هناك رسم مفروض على يهود اليمن يدفعونه للامام باعتبارهم ذميون عليهم دفع الجزية وهى ثلاث درجات : ثلاثة ريالات فى السنة على الغنى ، وريالان على المتوسط ، وريال ونصف على الفقير ٠ وكل هذه الضرائب كانت تدعى فى اليمن زكاة ، وكل ما يجمع من العشور والأموال كان يحفظ فى بيت المال الذى له فروع فى جميع الأقضية ٠ وفى هذه الفروع أو المسـتودعات كانت توجد دائما كميـات من الحبوب والبن وغيرها من لوازم المعيشة ، التى لا يصرف شىء منها الا بأمر من الامام ٠ على أنه من حسنات بيت المال ، أن يقرض المحتاجين مما فيه ، ويستوفى الدين منهم من الموسم الجديد دون تحصيل فائدة لأنها ممنوعة اطلاقا فى اليمن سواء فى التجارة أو فى المعاملات الأخرى وذلك تبعا لما توجبه الشريعة الاسلامية

---

(١) اليمن المنهوبة المنكوبة : (مجهول المؤلف) ، ص ٢٥ ٠

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الامام يحيى – رحلة فى بلاد العـربية السعيدة ٠ ط ١ ص ٧٨ ٠

وما دون القروض فما كان ينفق من بيت المال سوى القليل لأن الامام الزيدى فى الوقت الذى كان يسيطر فيه على أمور البلاد كان يحصل على خراج اخر هو الجمرك ورسم القوافل . فكل ما كان يدخل الى صنعاء من عدن او من الحديدة كان يدفع رسما معلوما على كل جمل وكل دابة محملة . ومن هـذه الرسوم كان ينفق الامام على مظاهر حكمه بينما بيت المال ما كان ينفق منه الا القليل وقد كانت هذه الضرائب عامة مثار شكوى اليمنيين وتذمرهم (١) .
وعندما خضعت اليمن للحكم العثمانى تولى الأتراك جمع الضرائب من اليمنيين حتى يتمكنوا من تغطية نفقات الحامية العثمانية فى اليمن ، وأن يقيموا بعض المشروعات والمرافق العامة التى تخدم مصالح الأتراك بصفة خاصة ، ومصلحة اليمنيين بصفة عامة ، التى اهتم بها بعض الولاة الأتراك المصلحين فنالوا تقدير الشعب اليمنى . على أن كثيرين من الولاة والمتصرفين الأتراك استغلوا جمع الضرائب لمصلحتهم الشخصية ، واستبدوا فى تحصيلها بشتى الطرق وأعنف الوسائل ، مما أثار حقد اليمنيين وأشعل نيران ثوراتهم ضد الحكم العثمانى .
ويستعرض نزيه مؤيد العظم ــ الذى قام بزيارة اليمن فى الأربعينات من القرن الحالى ــ الطريقة التى اتبعها الأتراك فى جمع الضرائب من اليمنيين والمؤامرات التى كان يدبرها بعض الولاة لتحريض الباب العالى عليهم مما كان يعمق الهوة بين اليمنيين والأتراك ويولد الحقد والكراهية بينهم ، فيقول :

« كان يخرج المتصرف أو الوالى أو الحاكم العثمانى من محل وظيفته الى الأرياف والجبـال ليجمع الأعشـار ويجبى الضرائب ، فيأخذ لنفسـه جميع ما يمكنه تحصيله من الأهالى الفقراء ويعود الى محل وظيفته دون أن يعطيهم سندا أو وصلا ، ويقول لحكومته بأن الأهلين عاصون عليه لا يرغبون فى دفع الضرائب له فتسـير الحكومة (أى حـكومة الولاية) الجيوش عليهم فتنهبهم وتخرب بيوتهم .. وتكتب الى الباب العالى (فى الاستانة) بأن أهل اليمن عصوا الحكومة ، وأنهم أشقياء يدينون بدين (الزيدية) ولا يطيعون الأوامر الشاهانية ولا يعترفون بالخلافة العثمانية ، ولما كان أولو الأمر والنهى فى القسطنطينية جهالا لا يفهمون ما هو المذهب الزيدى وما هى حقيقة أخبار اليمن، كانوا يأخذون بهـذه الدعايات الكاذبة ويؤيدون سياسة موظفيهم فى اليمن ويمدونهم بالجند والسلاح والعتاد ويأمرونهم باخضاع اليمنيين بالسيف والمدفع ولذلك كانت اليمن فى حرب دائم مع الترك » (٢) .

على أنه بعد عقـد الصلح بين الأتراك العثمانيين والامام يحيى فى سنة ١٩١١ ، كان موظفو الترك يجمعون الزكاة باسـم الامام الزيدى من أتبـاعه

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ .
(٢) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ١٥٤ .

اليمنيين الزيديين الذين يدفعونها لامامهم ، وكان الأتراك يقدمون ما يجبونه من زكاة للامام بعد استقطاع اثنين ونصف فى المائة لصالحهم كبدل للجباية ٠

السياسة المركزية المتطرفة فى عهد السـلطان عبـد الحميـد الثـانى :

أشرنا فيما سبق الى أن قانون الولايات الذى أصدرته الدولة العثمانية فى سـنة ١٨٦٤ والذى كان جزءا من « التنظيمات » الجـديدة بدت آثاره واضحة نسبيا فى بلاد اليمن التى عاد اليها العثمانيون وأخضعوها لحكمهم فى سـنة ١٨٧٢ ، وان لم يطبق هذا القانون تطبيقا تاما فى تلك الولاية ٠ وكان هـذا القانون نتيجة للمحاولات التى قامت بها فئة من رجال الدولة العثمانية انتشرت بينهم روح الاصلاح لانقاذ دولتهم من الانهيار الداخلى ومن التدخل الأجنبى ٠ ففى الداخل كانت الزراعة فى الدولة فى حالة يرثى لها رغم أنها مهنة الأغلبية من السكان ، وتعرضت البلاد لخطر الفيضانات نتيجة لعدم الاهتمام بتنظيم الرى والصرف ، وأهملت الطرق البرية والنهرية ، كما أهملت الموارد الطبيعية للبلاد ٠ وقد وصلت الدولة العثمانية الى حالة سيئة من التخلف الصناعى لأنها لم تستفد من الانقلاب الصناعى الذى يعد الأساس الحديث للحضارة بل انها على العكس كانت ضحية له لأن منتجاتها التى أنتجتها بوسائلها القديمة لم تستطع أن تنافس ، حتى فى أسواقها الداخلية ، المنتجات الأوربية الجيـدة الرخيصة (١) ٠

أما بالنسبة للتدخل الأجنبى فقد تمتع الأجانب بنفوذ خطير فى الدولة العثمانية ، واحتلوا مناصب هامة فى ادارتهـا ، ومنحـوا الامتيازات المعروفة ، ووضعت الميزانية العثمانية برغم ما كانت تعانيه من نقص فى الايرادات ، وسوء تدبير فى المصروفات ــ تحت سيطرة « ادارة الدين العام العثمانى » التى تألف مجلسها من ممثل عن كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وايطاليا والامبراطورية النمسوية المجرية وتركيا ٠ بل ان الحكومات الأجنبية لم تقنع بتدخلها هذا ، اذ كانت تسعى الى تحطيم الامبراطورية العثمانية نفسها وتقسيمها فيما بينها ٠ ولم يحل دون ذلك سـوى تنافس هذه الحكومات الأجنبية حول وراثة أملاك « الرجل المريض » ، فعملت هذه الحكومات سواء بارادتها أو برغم أنفها من أجل المحافظة على بقاء الدولة العثمانية أطول مدة ممكنة ٠

وكان من الطبيعى أن يؤثر ذلك الوضع العام غير المستقر للامبراطورية العثمانية على الواقع الداخلى فى ولاية اليمن التابعة لها ٠ وعلى الرغم من الترابط

---

(١) Earle : Turkey, The Great PoWer and Baghdad RailWay, pp. 9-12.

الدينى بين اليمنيين والعثمانيين فى عصر فاق الدين فيه الاتجاهات القومية ، وبخاصة فى بلاد اليمن البعيدة عن التأثيرات الغربية ، فقد حدث تنافر سياسى بين الجانبين اليمنى والعثمانى نتيجة لفساد الموظفين العثمانيين العاملين فى اليمن وسوء ادارتهم كانعكاس طبيعى للحالة العامة السيئة فى دولة أصابتها الشيخوخة، وكاد يلحقها الانهيـار (١) ٠ وقد أدى هـذا التنافر السياسى الى قيام الثورات اليمنية المتتالية ضد الحـكم العثمانى مما كلف العثمانيين الكثير من الأرواح والأموال ٠

على أن رجال الاصلاح فى الدولة العثمانية رأوا أن يضعوا حدا لنزوات السلاطين واستبدادهم ، وأن يقضوا على فساد رجال الحاشية التى تكونت حولهم ووجدوا أن ذلك لن يكون الا باصدار « قانون أساسى » يفهم السلطان أن سلطته ليست مطلقة بل « مشروطة » بقيود وحدود بعينها ويقررها الدستور ٠ وقد سعى أحدهم وهو مدحت باشا مع جماعة من زملائه المصلحين الى تحقيق هذه الفكرة ، واستطاع فى آخر الأمر أن يحمل السلطان عبد الحميد الثانى على اصدار « القانون الأساسى » (٢) عقب توليه العرش بعد خلع السلطان عبد العزيز لفساد حكمه والسلطان مراد الخامس لمرضه فى سنة ١٨٧٦ ، أى بعد اقامة الحكم العثمانى فى اليمن بأربع سنوات ٠ وقد وضع « القانون الأساسى » موضع التنفيذ ، وجرت انتخابات عامة ، واجتمع مجلس النـواب الذى كان يسمى « مجلس المبعوثان » باعتبار النائب مبعوثا من أهالى دائرته الانتخابية ـ كما اجتمع مجلس الأعيان « الشيوخ » وقد اشترك فى الانتخابات أهالى الولايات العربيـة ، وقام البعض من نواب العـرب فى المجلس بدور هام خـلال المناقشات (٣) ٠

غير أن الأمر بالحياة الدستورية لم يطل لأن السلطان عبد الحميد لم يعلن الدسـتور بدافع من الاخلاص العميق له ، فسرعان ما ضاق ذرعا بالحيـاة النيابية والنواب ٠ وكانت المعارضة فى مجلس المبعوثان ـ وقد تزعمها فريق من النواب معظمهم من العرب ، الى جانب فريق من النواب الأتراك ، وفريق آخر من النواب الأرمن ـ شديدة الوطأة على عبد الحميد ٠ على أن معارضة العرب لم تكن دفاعا عن قضاياهم التى لم تكن بعد قد ظهرت للوجود ، بل كانت دفاعا عن مصلحة الدولة العثمانية خاصة حينما تأزمت الأحوال فيها نتيجة الحرب التى دارت فى تلك الآونة بينها وبين الدولة الروسية ، وتتالت انهزامات الجيش العثمانى أمام الجيش الروسى ـ وان ما أحرج عبد الحميد من المعارضة أنها لم تقتصر على انتقاد الحكومة والوزارة بل تعدتها الى مهاجمة السلطان نفسه ٠

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ٠

(٢) للاطلاع على نص « القانون الاساسى » العثمانى انظر الملحق رقم ١٢ ٠

(٣) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ ٠

وقد عادت الدولة العثمانية الى نظام « الحكم المطلق » بعد أن عطل عبد الحميد أحكام الدستور وفرض على شعبه بالتدريج حكما فرديا مستبدا ، وكانت جميع العناصر والطوائف سواسية كأسنان المشط فى التعرض لاستبداده وطغيانه (١) ٠ على انه اتخذ مع العرب أساليب كثيرة فى تنوعها للسيطرة عليهم وتشديد قبضته على بلادهم بطريقة تجمع البراعة والشدة الى المكر والدهاء ، مع محاولة الارضاء ، ولم تخل من الريب والشبهات وعدم الثقة فى كثير من الأحيان ٠ كما أخذ عبد الحميد يضرب القوميات والطوائف بعضها ببعض ويستخدم هذا العنصر ضد ذاك ، فيقمع ثور الألبان بالجنود العرب ، وبهم يرغم الأتراك على الخضوع ، وبالأكراد يذبح الأرمن ، وبهؤلاء يقضى على ثورات العرب ٠ بل ان عبد الحميد اتبع السياسة نفسها فى ضرب العرب بعضهم ببعض فكان يؤيد فئة ضد أخرى وذلك تأمينا لفرض سيطرته التامة عليهم وتدعيما لمركزية حكمه على أطراف امبراطوريته ٠ وقد حدث هذا على سبيل المثال فى أثناء الصراع الذى نشب بين عبد العزيز بن الرشيد أمير حائل وعبد العزيز بن سعود أمير نجد ، فكان عبد الحميد يقوى الأول على الثانى ويمده بالجيوش والقادة العسكريين ، غير أن ابن سعود تمكن فى النهاية من الانتصار على ابن الرشيد واحتلال بلاده عدا منطقة حائل (٢) ٠

وكان عبد الحميد يقدر أهمية البلاد العربية التى تعتبر من أغنى المناطق العثمانية فهى تمد خزانة الدولة بالقسط الأوفر من الموارد أو ما يقدر بثلثى واردات الميزانية (٣) كما تمد الدولة بالعدد الأكبر من الرجال لجيشها ، وتكثر فيها أملاك الأوقاف ، كما توجد بها معظم أملاك السلطان الخاصة (٤) ٠ وكان عبد الحميد يدرك أن اليوم الذى ينفصل فيه العرب عن سلطته سيكون نذيرا بانهيار امبراطوريته ، لهذا حرص على تشديد المراقبة عليهم ، ومنعهم من الاتصال بالعرب المقيمين فى الخارج ، ونفى من خشى نشاطه وخطره من زعمائهم ، أو استدعاه الى الأستانة لكى يبقى تحت مراقبته ٠ غير أن عبد الحميد فى نفس الوقت لم يتوان عن تعيين بعض العرب فى الوظائف الشرفية كما منح المكافآت والمساعدات لمدارسهم ومؤسساتهم الخيرية وبذل المال لاصلاح وزخرفة مساجدهم فى مكة والمدينة وبيت المقدس (٥) ٠ وكان عبد الحميد بذلك يسلك سبيل

---

(١) حسين لبيب : تاريخ المسألة الشرقية ، ص ٨٥ ٠

(٢) سليمان فيضى : فى غمرة النضال ، ص ٣٥ ــ ٤١ ٠

(٣) Bérard, V. : Le Sultan, l'Islam et les Puissances, p. 57.

(٤) Jung, E. : La Révolte Arabe t. I, pp. 15-16.

(٥) جورج انطونيوس : يقظة العرب (ترجمة حيدر الركابى) ص ٦٩ ٠

المداراة تجـاه العرب ، ولا يلجـأ الى القوة والعنف الا حينما لا يجدى اللين والمداراة حتى لا تنفجر فى وجهه الثورات القومية (١)

وكانت فكرة الجامعة الاسلامية من أهم الأساليب التى حاول السلطان عبد الحميد الثانى أن يقترب بها الى نفوس العرب خاصة والمسلمين عامة · وكان يهدف من هذه السياسة الى دعم موقفه الداخلى ضد الأحرار المعارضين لحكمه ، كما أنها تعزز مركزه الخارجى وتكسبه ولاء المسلمين فى جميع أنحاء العالم ، بصفته خليفة لهم (٢) ، وبها يستطيع أيضـا أن يهدد نفوذ الدول الأجنبية فى مستعمراتها التى يسـكنها عشرات الملايين من المسلمين (٣) · وكانت موجة الشعور الدينى تجتاح أرجاء العالم الاسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر كرد فعل للحركة الاستعمارية الأوربية الطاغية · وكان على رأس دعاة هذه الحركة الدينية جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا ، وقد أخذ السلطان عبد الحميد يستميل الشخصيات الدينية وزعماء العالم الاسلامى اليه كممثل وراع لفكرة الجامعة الاسلامية ·

كما سار السلطان عبد الحميد فى سياسة ربط البلاد العربية بشبكة من الأسلاك البرقية واسعة النطاق · ثم حاول تعزيزها بالخطوط الحديدية لكى يتمكن من دفع الجند من أهون السبل وأقصر الوقت الى الولايات العربية لقمع ما قد يحدث من ثورات وانتفاضات (٤) · ورأى عبد الحميد أن ينفذ مشروع سكة حديد الحجاز ويصلها بسكة حديد بغداد التى كانت قيد التأسيس لتيسير السفر الى الحج وخدمة المسلمين (٥) · وكان يرمى من هذا المشروع الى أغراض مختلفة كلها تخدم نفوذه ومكانته فى العالم الاسلامى عامة وبين العرب خاصة ، وتعزز سياسته المركزية المتطرفة وحكمه الفردى المستبد · فالمشروع سيسهل الحج بتقصير مدة الرحلة ويجعله فى متناول الجميع فيزيد الاختلاط والتآلف بين المسلمين ، الى جانب أنه ييسر نقل الجند بسرعة لقمع الثورات (٦) ، وللدفاع عن أطراف السلطنة ويساعد على التبادل التجارى وعلى نقل الأفكار وانتشارها وعلى تنمية الحياة الزراعية على طول خط سيره ، وعلى توطيد سلطة الخليفة ، والقضـاء على دسـائس الانجليز ومؤامراتهم فى البحـر الأحمـر والجزيرة العربيـة (٧) ·

---

(١) Mandelstone, A. : La Turquie, p 8.

(٢) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى ، ص ٢٣٩ – ٢٤٢ ·

(٣) Edib, H. : Conflict of East and West in Turkey, p. 79.

(٤) Zeine, Z. : Op. cit., p. 54.

(٥) محمد كرد على : خطط الشام ، ج ٥ ، ص ١٨٩ ·

(٦) جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ٧٢ – ٧٣ ·

(٧) محمد عبد الله ماضى (دكتور) : النهضات الحديثة فى جزيرة العرب ، ج ١ ص ١١١ ·
Bérard, V. : Op. cit., p. 72.

وجدير بالذكر أن اتجاه السلطان عبد الحميد الى بناء السكك الحديدية فى طرفى بلاد العرب الذى جاء فى مستهل القرن العشرين ، أيقظ فى نفس الدول الأوربية شعور الاستياء التام وعلى راسها الحكومة الانجليزية ۰ اذ رأت وراء هذه السياسة شبح الأخطبوط الألمانى الذى لم تتورع الدول الأوربية عن القول بأن الجامعة الاسلامية كانت مطية له (١) ، والذى بدأ يطل برأسه ويظهر كأخطر منافس للنفوذ البريطانى فى البلاد العربية ۰

على أن سياسة عبد الحميد المركزية التى سار عليها فى حكم الولايات العربية وغيرها كلفته الكثير من المتاعب الداخلية والخارجية ، وأثارت عليه نقمة قسم كبير من العرب وتجلت هذه النقمة فى الثورات العديدة التى ظهرت بين القبائل العربية ، وهى وان كانت ذات طابع محلى محدود ، الا أنها جاءت كرد فعل لتشديد قبضته على بلادهم مما فجر سخطهم على حكمه المستبد ، وعلى مظالم الحكام والموظفين الترك ، الذين عاثوا فسادا فى البلاد واستنزفوا أموال الأهالى وأساءوا معاملتهم (٢) ۰ وتاريخ اليمن يعكس لنا صورة حية لثورات العرب ضد الأتراك العثمانيين وسياستهم المركزية المتطرفة فى عهد عبد الحميد ۰

وتجدر الاشارة الى أن مركزية عبد الحميد لم تكن فى صالح عنصر أو فئة معينة ، بل كانت ترمى الى بسط حكمه الفردى وسيطرة الدولة بصفتها العثمانية الاسلامية ۰ ولهذا فقد بقيت اللغة التركية هى لغة الدولة الرسمية دون غيرها من اللغات ، كما بقى العنصر التركى هو العنصر المتغلب على شئون ووظائف الدولة۰وقد تم ذلك دون مناداة بالعنصرية والتعصب العنصرى وبسياسة التتريك جنسا ولغة كما كان الأمر فيما بعد فى عهد الاتحاديين ۰ بل ان اللغة التركية كانت مفروضة دون ضجيج أو جلبة ، اذ كانت معرفة اللغة التركية شرطا لتولى وظائف الدولة والترشيح الى مقاعد مجلس النواب (٣) ، كما نصت على ذلك فى المواد ١٨ ، ٦٧ من الدستور ، ولم يتغير الأمر فى عهد الحكم المطلق الذى فرضه السلطان عبد الحميد ۰

ويهمنا كثيرا أن نعرف أن عبد الحميد فصل القيادة العسكرية فى الولايات العربية عن السلطة الادارية (٤) خوفا من أن يلجأ الولاة الى الاستقلال ، ولكى تبقى السلطتان رقيبتين بعضهما على بعض (٥) ۰ وكان عبد الحميد يتدخل

---

(١) Pinon, R. : L'Europe et l'Empire Ottoman, p. 388.

(٢) توفيق على برو : المصدر السابق ص ٤٥ ــ ٤٦ ۰

(٣) Fesh, P. : Constantinople aux derniers jours d'Abdul Hamid, p. 268.

(٤) على ظريف الاعظمى : مختصر تاريخ بغداد ، ص ٢٤٥ ۰

(٥) Midhat, A.H. : Midhat Pasha, p. 51.

بنفسه فى كل أمور الدولة لعدم ثقته بأعوانه · واذا كان العرب قد عانوا من سلطان عبد الحميد المطلق وحكمه الفردى المستبد فان الأتراك أنفسهم نقموا على سياسته وحاول الكثيرون من مصلحيهم اقناعه بالأخذ بسياسة الادارة اللامركزية واعادة الحياة الدستورية ، غير أن محاولاتهم لم تكن تلقى عناية منه· وكان رفض السلطان الاستجابة الى توصيات مدحت ، عندما كان واليا على سوريا ، بوجوب الأخذ بالنظام اللامركزى لتكييف الادارة فى الولايات وفقا لأحوال السكان وعاداتهم وتقاليدهم وحالتهم الاجتماعية ، سببا فى استقالته من ولاية سوريا (١) ·

وجدير بالذكر أن العرب فى ذلك الوقت تنبهوا وشعروا بروابط صلة الرحم بينهم وبين اخوانهم فى الجزيرة العربية ، ومما يقيم الدليل على ذلك أن بعض قطاعات الجيش فى دمشق وأفرادها من العرب رفضوا أن يحاربوا أشقاءهم عرب الجزيرة · بل ان عددا كبيرا من هذه القوات انضموا الى بنى جنسهم الثائرين بكامل معداتهم وأسلحتهم لمحاربة الأتراك (٢) ، وسنلحظ هذه الظاهرة أثناء ثورات الشعب اليمنى ضد الأتراك العثمانيين فى فترة حكمهم لليمن ·

ونظرا لأن معظم المراكز الرئيسية فى الاستانة أثناء الاستبداد الحميدى انتقلت الى أيدى المرتشين والجشعين ، فقد تحولت بعض الدوائر والوزارات الى أسواق سوداء تباع وتشترى فيها الوظائف ، والرتب والأوسمة والامتيازات ومن الطبيعى أن هذا الفساد لم يبق مقتصرا على العاصمة وحدها بل سرى الى الولايات أيضا · كما أن تضخم نفقات القصر والعاصمة كان يؤدى الى الاضرار بالولايات ، لأن الولاة كانوا يضطرون الى تقديم مرتبات العاصمة على كل شىء آخر ، ولذلك كانت الخزائن المحلية تعجز عن دفع رواتب الموظفين فى أوقاتها المعينة · وكثيرا ما كانت الرواتب تتأخر وتتراكم مدة شهور عديدة · وكان ذلك يدفع معظم الموظفين فى الولايات الى الارتشاء دفعا فيزيد فى عوامل الفساد زيادة هائلة ويؤدى الى قيام الثورات ضد الحكم العثمانى (٣) ·

وهكذا فان من يتتبع تطور سياسة العثمانيين فى حكم الولايات التابعة لهم منذ عهد السلطان محمود الثانى فى سنة ١٨٠٨ الى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى سنة ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ لا يسعه الا أن يلاحظ خلال قرن من الزمان أن اتجاه هذه السياسة سار دائما فى خط واحد متصل فى جوهره ، لا ينحرف ولا يتغير الا فى بعض الجزئيات الصغيرة · وكان الهدف دائما هو مركزية الحكم وصهر العناصر فى بوتقة واحدة ، أرادها عبد الحميد ومن أتى

---

(١) صديق الدملوجى : مدحت باشا ، ص ١٥٠ ·

(٢) Pinon, R. : Op. cit., p. 378.

(٣) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ١٠٢ – ١٠٣ ·

قبله عثمانية ذات مظهر اسلامى ، وركزوها على الناحية الادارية ، ثم أرادها الاتحاديون الذين أطاحوا بحكم عبد الحميد قومية تركية وركزوها على الناحيتين الادارية والسياسية ، بمعنى أنهم أرادوا أن يمحوا كل ما يمت الى خصائص الأجناس الأخرى وامتيازاتهم الدينية والطائفية وتنظيماتهم بصلة (١) • وقد سلك هؤلاء جميعا من أجل تحقيق المركزية طريقا واحدا هى سياسة الريبة والتوجس ، والدس والاغراء ، والمكر والدهاء ، حتى اذا فشلت هذه التدابير لجأوا الى القمع والعنف وتسيير الحملات وسفك الدماء (٢) • وتاريخ اليمن فى أثناء خضوعه للحكم العثمانى يتمثل فيه التطبيق الفعلى لسياسة العثمانيين المركزية بكل السبل التى اتبعوها لتحقيق هذه السياسة ، مما أدى الى قيام عـدة ثورات يمنية عارمة على النحو الذى سنتناوله بالدراسة فى الصفحات التالية •

ثانيا ـ فساد الادارة العثمانية فى اليمن وموقف اليمنيـين ازاءها :

ذكرنا فى الفصل السابق أن الأتراك العثمانيين بعد دخولهم صنعاء فى سنة ١٨٧٢ قاموا بعدة عمليات حربية توسعية لبسط نفوذهم على بقية أجزاء اليمن • وقد حارب الأتراك أمير كوكبان أحمد بن محمد شرف الدين وسيطروا على بلاده الواقعة فى شمال غربى صنعاء وعلى المنطقة الخاضعة لادارته التى كانت تمتد فى غرب كوكبان حتى بلاد تهامة • كما أخمد العثمانيون ثورة قبيلة الحدا اليمنية وقتلوا رئيسها • وقد حدث ذلك فى عهد الوالى العثمانى أحمد مختار باشا فى سنة ١٨٧٢ • ونجح الأتراك كذلك فى اخماد ثورة قبيلة خولان فى عهد الوالى أحمد أيوب فى سنة ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) • وفى ذلك الوقت ظهر فى تهامة رجل يدعى السحر والمعرفة بعلم الكيمياء استطاع أن يجمع حوله العامة من أهالى تهامة ، وبخاصة من قبيلة خولان الثائرة ، ودعاهم الى مقاومة الحكم العثمانى فى اليمن • وقد وجه الأتراك قوة من عساكرهم استطاعت أن تجبر هذا الرجل على الهروب وتفرق أتباعه ، وتخضع منطقة تهامة للادارة العثمانية •

ولم تقف ثورات القبائل عند هذا الحد ، اذ ثارت قبيلتا أرحب وحاشد وتمردتا على الادارة العثمانية فى نهاية عهد الوالى أحمد أيوب ، ثم واصلتا حركة التمرد فى عهد خلفه الوالى مصطفى عاصم فى سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣ هـ) • وقد استطاع الأتراك أن يخضعوا القبيلتين بعد حروب عنيفة ، وبعد أن منى الجانبان

---

(١) Nicolaides, N. : Une Année de Constitution, p. 51.

(٢) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٤٧ ـ ٤٨ •

بخسائر فادحة . وبلغ من قسوة الأتراك فى اخضاعهم للقبيلتين أن أحضروا رءوس القتلى الى صنعاء يحملها الأسرى من رجال القبيلتين ، لبث الرعب فى قلوب اليمنيين . واضطر رؤساء القبيلتين أن يقدموا للوالى العثمانى فروض الطاعة والولاء ، فحاول الوالى من جهته أن يستميلهم الى جانبه ، وأخذ ينعم عليهم بالمنح والعطايا (١) . وقد أراد بذلك أن يخفف من وقع أسلوب العنف والشدة فى نفوسهم بعد أن أعلنوا له طاعتهم ، واعترافهم بالحكم الجديد .

على أن أسلوب العنف والشدة والقسوة الذى اتبعه الأتراك فى اخماد ثورات القبائل اليمنية ضد الحكم العثمانى الجديد لم يحجم اليمنيين عن مواصلة الثورة . فقد أعلن أهالى جبل البخارى ــ الواقع فى بلاد المخادر جنوبى صنعاء ــ ثورتهم على حكم الترك وتمردهم على الادارة العثمانية . لهذا توجه اليهم قائمقام مدينتى « جبلة » و « اب » على رأس قوة تركية يساندها عدد من رجال قبيلة ذى محمد اليمنية ممن انحازوا للأتراك فسيطروا على جبل البخارى بعد أن قتلوا الكثيرين من أهله ونهبوا أموالهم .

ولم يكتف الأتراك باتباع سياسة العنف والقسوة مع رجال القبائل اليمنية التى تمردت عليهم ، بل انهم فعلوا ذلك مع عدد كبير من علماء اليمن ، اعتقادا منهم بأن العلماء يثيرون القبائل اليمنية ضدهم ، ويحرضونهم على التمرد والعصيان . وكان يزكى هذا الاعتقاد أن العثمانيين قربوا اليهم بعض الوصوليين وعينوهم فى بعض وظائف الادارة ، فأخذ هؤلاء يوقعون بينهم وبين علماء اليمن ممن تمسكوا بالثورة ضد الترك وعدم الاذعان لهم . وكان للوالى العثمانى مصطفى عاصم نائبا فى المحكمة الشرعية بصنعاء يدعى عبد الله الصباغ الطرابلسى ، وكان هذا النائب يتعرض كثيرا للمذاهب ويسبب الوقيعة والخلاف العقائدى بين الوالى وأهل اليمن ، ويغرى الوالى على حبس العلماء ونفيهم ، لبتر مقاومتهم وتمردهم ، ولتحطيم معنويات الشعب اليمنى فيذعن للحكم الجديد . وقد أعد هذا النائب قائمة بأسماء العلماء ، وأمر باحضارهم الى دائرة الحكومة بصنعاء ، ثم أعد ثلاثة طوابير من الجنود الأتراك بميدان الحكومة أحاطوا بالعلماء عند خروجهم من عند الوالى وساقوهم الى السجن ، ثم أمر بارسالهم الى الحديدة بعد شهرين حيث مكثوا مسجونين فيها مدة عامين كاملين. وقد بلغ عدد هؤلاء العلماء قرابة الأربعين وكان من بينهم محمد حميد الدين والد الامام يحيى ، ورئيس العلماء أحمد بن محمد الكبسى ، وزيد بن أحمد الكبسى وحسين بن على غمضان . وقد استشهد بعض هؤلاء العلماء بعيدا عن أهلهم وذويهم أمثال محمد بن محمد المطاع ، وعلى بن محمد الجديرى ، ومحمد ابن اسماعيل عشيش ، وكان الأخير ضريرا معروفا بغزارة علمه وسعة أفقه ،

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ .

وقد تدخل بعض أهالى صنعاء دون جدوى للافراج عنه ، ومن بينهم محمد عيقان الذى طلب من الشيخ محسن معيض رئيس مدينة صنعاء أن يلتمس من الوالى الافراج عنه ، نظرا لأنه لا يقحم نفسه فى اثارة الفتن وليس له علاقة بأمور الدولة ٠ غير أن هذا المسعى لم يشفع لعشيش لدى الوالى ، وانتهى الأمر باستشهاده بعد نفيه فى سجن الحديدة (١) ٠

وعندما تولى حكم اليمن الوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا فى سنة ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ) فقد أمر باطلاق سراح العلماء اليمنيين مستجيبا لوساطة محمد عارف الماردينى الذى كان يعمل قاضيا فى الحديدة ، وكان هذا القاضى عالما محبا للعلم وأهله ٠ وقد رأى اسماعيل باشا أن يستجلب اليه قلوب اليمنيين بالافراج عن علمائهم المسجونين آملا أن يؤدى ذلك الى تهدئة الأمور واقرار السلام فى الولاية ٠ وقد استبشر اليمنيون خيرا بوصول هذا الوالى وبافراجه عن العلماء اليمنيين وبالمحاولات التى بذلها لنشر لواء العدل ومحاربة الرشوة والفساد وسوء استغلال السلطة لدى الموظفين الأتراك ، مما أدى الى تهدئة الأمور نسبيا فى البلاد ٠ وقد أنشأ هذا الوالى « مكاتب رشدية » فى اليمن لتعليم أبنائه وتهذيبهم ، كما كان أول من شكل طوابير (الحميدية أو الجندرمة أو الضبطية) من العرب اليمنيين أنفسهم للاعتماد عليهم فى اقرار الأمن الداخلى والقيام بالخدمات الحكومية فى أرجاء الولاية (٢) ٠ غير أن ذلك كان سببا فى عزله على النحو الذى أوضحناه فى الصفحات السابقة نتيجة لخشية الباب العالى أن يستغنى الوالى بهؤلاء عن الجنود الأتراك ويستقل بالولاية عن سيادة الدولة ٠

وجدير بالذكر أن العثمانيين بعد أن دخلوا صنعاء فى سنة ١٨٧٢ واضطروا الامام على بن المهدى الى تسليمهم سجلات الادارة ، وقيدوا حريته ورتبوا له راتبا شهريا يقيم به أوده ، فانهم أخفقوا فى بسط نفوذهم على الجهة الشمالية من اليمن التى بقيت تحت حكم الامام المتوكل محسن بن أحمد الى أن توفى فى سنة ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ) ٠ وبعد وفاة هذا الامام بستة أشهر قام بالدعوة لنفسه فى جبل الأهنوم الامام الهادى شرف الدين محمد ، وانتقل الى هجرة صعدة وبدأ كفاحه ضد الترك فى هذه الجهات ٠ وقد عاصر الامام الهادى الوالى العثمانى محمد عزت باشا الذى تولى حكم اليمن عقب عزل اسماعيل حقى باشا فى سنة ١٨٨٢ (١٢٩٩ هـ) ٠ وقد بذل عزت باشا جهوده من أجل تآلف العرب اليمنيين مع الأتراك مما يساعد على اقرار الأمور فى الولاية ، غير أن انتشار الرشوة والفساد والمكر والخداع بين الموظفين الأتراك ، أوجد كل

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ ٠

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٥٩ – ٢٦٠ ٠

تلك الفرقة وذلك الشقاق بينهم وبين اليمنيين · بل ان نزاعا جديدا بين الطرفين نشب على أشده فى خولان وقضاء حجة ، مما اضطر الوالى العثمانى الى التدخل لتهدئة الموقف بعد أن وقعت معارك عنيفة بين العرب والأتراك ·

وفى عهد الوالى عثمان باشا الذى تولى حكم اليمن فى سنة ١٨٨٨ (١٣٠٥ هـ) أراد محمد ابن الامام الراحل المتوكل محسن أن يحصل على حماية الدولة العثمانية ويقيم فى مدينة صنعاء ، وأن تصرف له الدولة راتبا شهريا وقد توسط له فى ذلك لدى الدولة أحمد بن محمد الكبسى رئيس العلماء وحسن ابن حسن الأكوع مفتى الولاية ، حتى قبلت الدولة مطالبه وخصصت له ولاخوته راتبا شهريا قدره ألف ريال بأمر من الباب العالى (١) · وعندما عزل الوالى عثمان باشا من منصبه وتولى من بعده الوالى عثمان باشا نورى ، فان الوالى المعزول أرسل لابن المتوكل يخطره بعدم التزامه بما تعهد له وبأنه مشفق عليه من الوالى الجديد ، كما نصحه أن يسافر الى حاشد حيث يرسل اليه معاشه بعد أن يقسم اليمين بألا يخون الدولة · وقد تصرف محمد بن المتوكل تبعا لنصيحة عثمان باشا ·

وتجدر الاشارة الى أن تاريخ اليمن بصفة عامة ملىء بذكر الزلازل وانقطاع الأمطار واغارات الجراد ، مما كان يؤدى الى اصابة البلاد بالجدب وحدوث كثير من المجاعات · ولا شك أن الحروب الكثيرة والثورات العديدة التى قام بها رجال القبائل اليمنية ضد الأتراك ومحاولة الأتراك اخمادها وقمعها بشتى وسائل القوة والقسوة والقهر ، أدت الى اهمال الزراعة وهلاك المزروعات ، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية فى كثرة المجاعات وغلاء الأسعار ·

وقد عانت اليمن من جراء القحط والجدب الذى أصيبت به نتيجة للعوامل المذكورة ، وخاصة فى عهد الوالى العثمانى أحمد فيضى الذى كان متصرفا فى عسير وتولى أمر الولاية فى سنة ١٨٨٥ (١٣٠٢ هـ) · وبلغ من سوء تدبير هذا الوالى أن أرسل جنوده الأتراك الى همدان وبلاد سنحان والبستان وأمرهم بمهاجمة بيوت الأهالى ومصادرة ما فيها من حبوب · كما بالغ فى الاساءة الى رؤساء العشائر أمثال محمد الشويع رئيس « ضلاع » ، وجذبه بيده فى ميدان الحكومة على مرأى جمهرة من الناس ، مما أثار حقد الأهالى اليمنيين على هذا الوالى وعلى الادارة العثمانية كلها ·

وقد حدثت اضطرابات عنيفة فى منطقة « أرحب » بسبب القحط وسوء تدبير الادارة العثمانية فى معالجة الأمور · وقد رفع عدد من أمراء العساكر العثمانيين شكاياتهم للباب العالى موضحين ما أصابهم من الأهالى اليمنيين نتيجة

(١) الواسعى : نفس المصدر ، ط ٢ ، ص ٢٦٤ ·

لفساد الأمور فى البلاد بعد أن عمها القحط والجدب • وقد أرجعوا كل ذلك الى سوء تدبير الوالى العثمانى وفساد سياسته وشدة جرأته وتبجحه فى اقتحام بيوت الأهالى، ومصادرة ما فيها من حبوب أو ثروات دون مراعاة لأية حرمات • وقد استدعى السلطان العثمانى الى العاصمة الوالى أحمد فيضى ووبخه غاية التوبيخ حتى قيل انه غشى على الوالى من شدة ما تعرض له ، وقد أمر السلطان بتعيينه قومندانا فى مكة بعد أن ظل مدة عام يحكم اليمن •

واذا كانت شكاوى الموظفين الأتراك الذين يعملون فى اليمن تصل فى معظم الأحيان الى الباب العالى ، فان الشكاوى العديدة التى كان يرفعها أبناء اليمن كان وزراء الاستانة يحولون دون وصولها الى الباب العالى حتى يخفوا عنه استبداد الوالى والموظفين الأتراك تجنبا لتعرضهم لغضبه •

على أن بعض الولاة المخلصين أمثال عزيز باشا الذى قدم الى اليمن فى سنة ١٨٨٦ (١٣٠٣ هـ) بذلوا جهدهم لرفع الظلم ، ومنع تحصيل العساكر للمواد الغذائية من الأهالى ، والقضاء على الرشوة ، ووضع حد لسوء استغلال السلطة ، وان شق ذلك على الموظفين الأتراك الذين اعتادوا أساليب الادارة التعسفية (١) •

وقد أشرنا فيما سبق عند عرض سياسة الدولة العثمانية فى حكم الولايات التابعة لها فى عهد السلطان عبد الحميد الى أنه كان يتدخل فى كل أمور دولته لعدم ثقته بصنائعه وأعوانه ، حتى أنه فصل القيادة العسكرية فى الولايات عن السلطة الادارية (٢) لكى تبقى كل من السلطتين رقيبة على الأخرى (٣) خوفا من استقلال الولاة اذا تجمع فى يد كل منهم زمام السلطتين معا ، غير أن الشقاق كثيرا ما كان ينشب بين السلطتين ويؤدى الى اضطراب الأمور فى الولايات العثمانية وكان يحدث هذا الشقاق عندما تحاول كل من السلطتين اظهار الأخرى بمظهر الضعف أو الخيانة مما يهز مركزها أمام السلطان ويظهرها بضعف الولاء والاخلاص له فيحقد عليها ويضطهد ممثليها • وقد نشب مثل هذا الشقاق فى اليمن بين « المأمورين العسكرية والملوكية » وعندما كتب العسكريون للباب العالى يطالبون أن يأمر الوالى بالهجوم على المناطق الخاضعة لحكم الامام الزيدى حتى يظهروا عجز الوالى أمام السلطان اذا تخاذل عن تنفيذ الأوامر • وقد أشار هؤلاء على السلطان بأن الدولة اذا تأخرت فى مهاجمة الامام فان الأخير سيهاجم المناطق الخاضعة للدولة ويستولى على ولاية اليمن بأسرها وتزول عنها السيادة العثمانية (٤) •

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٦٢ •
(٢) على ظريف الأعظمى : مختصر تاريخ بغداد ، ص ٢٤٥ •
(٣) Midhat, Ali Haydar : Midhat Pasha, p. 51.
(٤) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ •

وازاء هـذا الموقف اضطر الوالى عزيز باشا ـ اثباتا لحسن نيته واخلاصه وسلامة موقفه تجاه السلطان ـ أن يوجه قوة عثمانية كبيرة يقودها القـائد العثمانى حسين خيرى لمحاربة الامام الزيدى فى شمال اليمن ، حيث نشبت معركة عنيفة فى جبال « عيال يزيد » هزم فيها الأتراك وانسحبوا الى عمران بعد أن منيت قواتهم بخسائر فادحة • وقد زعم بعض المأمورين العسكريين أن هزيمة الترك ترجع الى أن الشيخ عبد الله بن أحمد الضلعى الذى كان يعمل « ناصحا مع الدولة » ـ وكان من أعضاء مجلس ادارة الولاية ومنحته الدولة مرتبـة باشا ـ لم يقم بتوجيه النصح للأتراك بما يساعدهم على احراز النصر على قوات الامام الزيدى • وكان هدفهم من ذلك أن يوغروا صدر الوالى عزيز باشا ضد هذا الشيخ اليمنى بل ضد اليمنيين جميعهم ليضعفوا من مركز الوالى نفسه بعد أن كان يحظى بشعبية قربته من اليمنيين وقربتهم اليه • كما أنهم تمكنوا أن يحرضـوا خلفه الوالى عثمان باشـا الذى تولى أمر اليمن فى سـنة ١٨٨٨ (١٣٠٥ هـ) على تنحية عبد الله باشا الضلعى عن المهام التى كان يقوم بها فى خدمة الولاية • بل ان الأمر بلغ بهم الى اجبار الوالى على أن يطلب من الباب العالى اقصاء الضلعى عن اليمن ، وقد أرسل الوالى برقية الى السلطان بضرورة اقصاء الضلعى مع تحديد محل المنفى • وجاء أمر السلطان بنفى الضلعى الى عكا دون اجراء تحقيق يظهر براءة ساحته • وقد قام الوالى باستدعاء الشيخ عبد الله الضلعى ووبخه غاية التوبيخ وبالغ فى اهانته ، ثم أمر (بلكا) (١) من العساكر التركية بالقبض عليه وحبسه فى أحد معسكرات الجند ، كما أمرهم بمهاجمة بيته ومصادرة أمواله • فتوجهوا تحت امرة أحمد رشدى الى بلده القريب من عمران من جهة الشرق ونهبوا أملاك الضلعى وخربوا دياره ثم رحلوه منفيا الى مدينة عكا (٢) • ولا شك أن هذه الحادثة تعبر عن فساد الأسلوب الذى كان يتبعه بعض المأمورين الأتراك فى معاملة أبناء اليمن مما أوغر صدور اليمنيين ضد الادارة العثمانية • ومن المعروف ان الدولة العثمانية ابان نهاية عهدها أصيبت بداء الرشوة الذى تفشى بين رجالها فى عاصمة الدولة وفى سـائر الولايات التابعة لها • وقد عانت اليمن من هذا الداء فى أثناء خضوعها للحكم العثمانى مما كان سببا فى اذكاء روح الكراهية والبغض للأتراك لدى اليمنيين• واذا كان بعض الولاة العثمانيين أمثال عزيز باشا لم يقبلوا الرشوة ومنعـوا الموظفين الأتراك من الارتشاء فان كثيرين من الولاة الأتراك قبلوا الرشوة وأذعنوا لرغبة الموظفين الترك فى الاستحصال عليهـا ، لأن هـذا الداء كان كامنا فى صدورهم قبل مجيئهم الى اليمن ، حيث تضعف الرقابة عليهم ، ويزداد تسلطهم على رعايا الدولة • وقد سلك هؤلاء الموظفون طرقا ملتوية وأساليب معوجة

---

(١) (بلكا) بضم الباء وضم اللام • كلمة تركية معناها طائفة من الجند تبلغ نحو المائة •

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٤٦٤ •

يكمن فيها المكر والدهاء لتحقيق أغراضهم في الارتشاء والاستحواذ على أكبر قدر من الثروة من هذا السبيل .

وقد حدث عقب تولية عثمان باشا ولاية اليمن في سنة ١٨٨٨ (١٣٠٥هـ) أن حرضه المأمورون الترك على الكتابة الى جميع مشايخ البلاد من تعز وعسير والحديدة وسائر الأقضية التابعة للولاية مستدعيا اياهم للحضور اليه في صنعاء . وفي الوقت نفسه أشاع المأمورون أن الوالي أراد استدعاء المشايخ اليمنيين الى صنعاء لترحيلهم الى الباب العالي ضمانا لاقرار الأمن في أرجاء الولاية (١) . وما كاد هذا الخبر يصل الى مسامع المشايخ والرؤساء اليمنيين حتى هلعت قلوبهم خوفا ، ولجأوا الى وساطة القائمقامين والمتصرفين وغيرهم من المأمورين الترك لكي يعطوا الوالي قدرا من الدراهم على أن يكف عنهم طلب الاستدعاء ، ويعتذر لهم لدى السلطان العثماني . وبهذا الدهاء جمع المأمورون للوالي التركي ألوفا من الريالات ، وكانت تلك احدى أساليبهم لاستنزاف أموال الشعب اليمني .

ولا شك أن من بين اليمنيين من لم تنطل عليه أساليب الترك ودهاؤهم وأصر في شجاعة على عدم الانصياع للأوامر التركية التعسفية . ومن بين هؤلاء القاضي يحيى المجاهد مفتي مدينة تعز الذي تعاون مع المعتدلين من الولاة العثمانيين حتى قال عن نفسه : « لو خدمت الله تعالى بخدمتي للترك لبلغت بها درجة عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولكن الدولة لم ترع معروفا » وقد رفض هذا الشيخ أن يلبي مطلب الوالي بالحضور لمقابلته في صنعاء ، كما أبى أن يقدم رشوة للوالي أو للموظفين الأتراك على غرار ما فعل غيره من مشايخ اليمن على الرغم مما كان يمتلكه من ثروة طائلة . بل انه لم يعبأ بتهديد المتصرف الذي وصل الى تعز وأشار عليه « أن يدفع اليه مالا جسيما والا لا يلومن الا نفسه » (٢) .

وقد بلغ تعسف الأتراك في تصرفهم ازاء هذا اليمني الحر ، الذي أبى أن يدفع الرشوة ولم يعبأ بتهديد الادارة التركية ، أن أحاط العساكر الترك بمنزله ذات ليلة ، وقبضوا عليه ، وصادروا أمواله ، ثم ألقوا به في غياهب السجن دون مراعاة لخدماته السابقة للدولة ، ولا احتراما لمكانته بين قومه أصحاب البلاد .

وظل القاضي يحيى المجاهد في السجن حتى صدر الأمر من عاصمة الولاية باطلاق سراحه بعد أن تحقق للأتراك الغرض المقصود بسلب أمواله . ولم يكد

---

(١) الواسعي : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٦٢ .
(٢) الواسعي : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٦٣ .

يخرج القاضى يحيى من سجنه حتى أرسل برقية الى السلطان العثمانى بوساطة صديق له فى عدن ــ مستغيثا بعدالته • فصدرت « الارادة السنية » بارساله الى السلطان ، وعزل متصرف تعز ، واجراء محاكمة لدى الباب العالى لمجازاة المسئول عن اضطهاد القاضى يحيى • وقد أسقط فى يد الوالى عندما علم بما حدث وخشى أن يثير القاضى يحيى السلطان العثمانى ضده ، فحاول التوسط من جهته بين متصرف تعز والقاضى يحيى بما يرضى الأخير ، لأن الوالى كان فى حقيقة الأمر هو الذى أصدر أوامره للمتصرف فكان مسئولا عن تصرفه • كما أن بعض اليمنيين حاولوا التوسط لتهدئة الموقف ، ومن بينهم رئيس العلماء أحمد بن محمد الكبسى ، وعبد الرحمن بن أحمد المجاهد ، وأخوه على بن أحمد المجاهد ، وطلبوا جميعا من القاضى يحيى أن يصفح عن المتصرف وسوف يرد اليه جميع ما أخذ من بيته • غير أن القاضى يحيى امتنع عن قبول وساطتهم وتمسك بالمحاكمة لدى السلطان العثمانى (١) •

وازاء تمسك القاضى يحيى المجاهد بحقه فى المحاكمة لدى الباب العالى ، فقد رأى الوالى العثمانى عثمان باشـا بمكره ودهائه أن يجمع أمراء العسكر الأتراك وأوحى اليهم بكتابة مضبطة ــ صادق عليها مجلس ادارة الولاية ــ وبعثوا بها الى السلطان ، وقد أوضحوا فيها ضرورة ابعاد القاضى يحيى المجاهد عن اليمن ، وأكدوا أن دعواه ضد متصرف تعز ليس لها أساس من الصحة • وقد فعلت هذه المضبطة فعلها لدى الباب العالى ، حتى أن القاضى يحيى المجاهد ما ان وصل الى استانبول حتى خصص له السلطان ما يكفى معاشه وأبقاه ينتظر اجراء أى تحقيق أو محاكمة مدة ثلاث سنوات كاملة دون جدوى حتى أيأسته المماطلة عن أمل الحصول على حقه • بل ان القاضى يحيى عندما طلب من السلطان السماح له بالعودة الى اليمن رفض طلبه ، فبقى مهموما محسورا حتى توفى فى عاصمة الدولة (٢) •

وهكذا كان أسلوب بعض الولاة والموظفين العثمانيين فى معاملة أحرار اليمن وغيرهم من رعايا الولايات العثمانية فى ذلك الوقت• ولا شك أن الدولة العثمانية لو أصغت السمع للأحرار أمثال القاضى يحيى المجاهد اليمنى ، الذى أخلص فى خدمتها والذى أبى أن تكون الرشوة أسلوبا يتعامل به حكامها، والذى كان يأمل فى عدالة سلطانها ، فانتكس أمله ، ومات منفيا عن أهله ووطنه ــ أقول لو استمعت الدولة العثمانية لمثل هذا (المجاهد) وحاولت أن تتفادى أخطاء رجالها وسياستهم الفاسـدة فى حـكم الولايات ، لكان قد قدر لحكمها هناك البقـاء

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٦٣ •
(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ص ٢٦٤ •

والاستقرار • غير أن عوامل الانهيار كانت قد تمكنت من الدولة العثمانية نفسها لتقودها الى نهايتها المحتومة •

واذا كنا نجد في تاريخ اليمن في أثنــاء خضوعها للحــكم العثمانى بعض الولاة الأتراك الذين حاولوا اصلاح أمور الولاية ومنعوا الموظفين الأتراك من الظلم والارتشاء ، فان هؤلاء الولاة المصلحين كانوا قلة ، كما أن الموظفين الأتراك فى الولاية حقــدوا عليهم وحاولوا التخلص منهم لينطلقوا فى استغلال اليمنيين واستنزاف أموالهم والتحكم فى مقدرتهم ، مما كان لا يتيح للولاة المصلحين فرصة مواصلة الاصلاح •

وكان من بين هؤلاء المصلحين من العثمانيين الوالى عثمان نورى باشا الذى تولى حكم اليمن فى سنة ١٨٩٠ (١٣٠٧ هـ) فكثرت فى عهده الخيرات ، وهدأت الفتن والثــورات • وضغط على المأمورين بعـــدم الارتشاء ، مما كان سببا فى عدائهم له وحقدهم عليه ، فأخذوا يتآمرون للتخلص منه • وقد انتهوا الى رفع مضبطة الى الباب العالى بعدم صلاحية عثمان نورى باشا لمنصب الولاية ، وأن أحوال البلاد قد تدهورت نتيجة لسوء ادارته • وقد استجاب الباب العالى لمطلب المأمورين وأرسل برقية تحمل أوامره بعزل الوالى عثمان نورى باشا عن ولاية اليمن • ورغم المحاولات التى بذلها هذا الوالى للدفاع عن نفسه ، كما أنه أرسل قومندان الحديدة الى الباب العالى لتبرئة ساحته ودحض مزاعم المأمورين الأتراك واظهار حقيقة أغراضهم ، فان السلطان أبى أن يعيد عثمان نورى باشا الى ولاية اليمن حتى لا تتجدد المشاحنات بينه وبين المأمورين هناك ، وأعاضه عن ذلك بتعيينه واليا فى مكة •

وقد استاء اليمنيون من تنحية عثمان نورى باشا الذى قال عنه مؤرخهم الواسعى « لم يأت وال فى اليمن مثله » (١) ، وذلك لسيرته الطيبة وحسن ادارته لشئون البلاد • ورغم ما اعتاده الولاة الأتراك فى اليمن من الظهور بمظهر الأبهة والعظمة أمام أهالى البلاد حتى يشعروهم بتميزهم عنهم وعلو مكانتهم ، فكان موكب الوالى من بيته الى مقر الحكومة يتقدمه عدد من الخيالة بينما يركب الوالى عربة يحيط بها حرسه الخاص ، مما كان يتعذر على أحد من الأهالى الوصول اليه بشكوى أو مظلمة ، فان بعض الولاة الأتراك أمثال عثمان نورى باشا خرجوا على هذا التقليد ، وتمسكوا بروح التواضع والتقرب من الأهالى • وقد ذكر الواسعى

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢٦٥ •

أن عثمان نورى باشا « كان يتصدق بجميع معاشه ٠٠٠٠ وكان يطلع من بئر العزب الى الحكومة ماشيا ومعه جاويش والياور ، ونادرا يركب فوق بغلة »(١)٠

وقد خلف عثمان نورى باشا على ولاية اليمن الوالى اسماعيل حقى باشا فى سنة ١٨٩٠ (١٣٠٧هـ) وكان قد تولى هذا المنصب قبل ذلك فى سنة ١٨٧٨ فكان على دراية بشئون الولاية ٠ وقد توفى فى هذه السنة الامام الزيدى الهادى شرف الدين فى مدينة صعدة وتولى من بعده الامام المنصور محمـد بن يحيى حميد الدين والد الامام يحيى الذى تم فى عهده خروج الأتراك نهائيا من اليمن٠ وقد ظل اسماعيل حقى باشا واليا لليمن العثمانية حتى أصابه المرض وتوفى بمدينة صنعاء ودفن فيها بازاء جامع البكيرية (٢) ٠

ثورة اليمنيين ضد الحكم العثمانى فى سنة ١٨٩١ :

حاولت الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر أن تحتفظ بممتلكاتها فى شبه الجزيرة العربية وخاصة فى الحجاز حيث كان الحجاج يجتمعون سنويا من أرجاء العالم ويسمعون اسم السلطان عبد الحميد يدعى له يوميا فى مكة ويرون الأتراك أمامهم قوة حاكمة ، فكان ذلك يرفع من مكانة الخليفة العثمانى فى العالم الاسلامى كله ، ويضخم من نفوذه أيضـــا أمام الدول الأوربية ٠ على أن نفوذ العثمانيين فى الحجاز لم يكن مستقرا تمام الاستقرار ، كما كان الحال أيضا فى بقية ممتلكاتهم فى شبه الجزيرة ٠ فعلى الرغم من المعونات التى كانت تقدمها الحكومة العثمانية للحجاز فانها كانت تخشى من أشراف مكة الذين ينحدرون من نسل النبى أن يحاولوا تنصيب أحدهم خليفة للمسلمين ٠ وقد يساعدهم فى ذلك بدو الحجاز لاتحادهم معهم فى العقيدة ، بل قد يساندهم فى ذلك العسيريون وأهالى بقية أجزاء اليمن ٠ وقد كان النفوذ العثمانى فى عسير نفوذا اسميا ، وان كان خروج العسيريين على الحكم العثمانى هناك ليس من الخطورة بحيث يأبه له الأتراك مادام ذلك محصورا داخل حدود عسير ولم يصل الى الحجاز (٣) ٠

أما قيام ثورة ناجحة فى اليمن ضد الحكم العثمانى فانه كان لا يعنى بالنسبة للأتراك فقد الجزء الجنوبى من ممتلكاتهم فى شبه الجزيرة العربية فحسب ، بل قد يعنى كذلك احتمال فقدهم للحجاز ، وبالتالى سقوط المركز الممتاز الذى يتمتع

(١) الواسعى : المصدر نفسه والصفحة ٠

(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٦٦ ٠

(٣) Harris, W.B. : A Journey through the Yemen ; and some general remarks upon that country, pp. 92-93.

به السلطان العثمانى بين مسلمى العالم (١) • ولهذا حرص الأتراك العثمانيون على بقائهم فى اليمن وعلى اتباعهم سياسة الحكم المركزى فى ادارة شئون هـذه الولاية حرصا على احكام قبضتهم على مقدراتها • غير أن هذه السياسة المركزية اصطدمت بطبيعة الشعب اليمنى الذى يقوم فى أساسه على النظام القبلى ، والذى لم تستطع الامامة الزيدية بتاريخها الطويل أن توجد وحدة سياسية متكاملة بين صفوفه الا فى فترات قصيرة متقطعة •

وقد ثار اليمنيون ضد الأتراك عنـدما فرضـوا عليهم سياستهم المركزية وكادوا يفقدونهم استقلالهم القبلى الذى اعتادوه منذ آلاف السنين ، حتى صارت كلمـة الاستقلال هى التى تحـرك مشاعرهم • وعلى الرغم من أن اليمنيين لم يكرهوا تبعيتهم للدولة العثمانية ، فانهم كانوا يشترطون أن تتركهم الدولة يتمتعون باستقلالهم الذاتى (٢) وخاصة فى شئونهم الداخلية •

ولا شك أن سياسة الأتراك المركزية هذه كانت فى حاجة الى دولة قوية فتية قادرة على وضع سياستها موضع التنفيذ ، خاصة فى أرض اليمن التى كان بعدها عن عاصمة الدولة الى جانب طبيعتها الوعرة ، وما انطبع عليه رجال قبائلها من شدة المراس وقوة التحمل ، لمن أكبر العقبات التى واجهت الحـكم العثمانى فى اليمن بأسلوبه المركزى الذى لم يعتده اليمنيون فاستنكروه ولفظوه• هذا فى الوقت الذى أخذت فيه عوامل الانهيار من فسـاد واستبداد وتدخـل أجنبى ، تفت فى عضد الدولة وتجعلها أضعف من أن تدعم قواتها فى الولايات التابعة لها ، وخاصـة فى ولاية اليمن النائية التى تقـع فى أقصى حـدودها الجنوبية • فكان يصعب على الأتراك هناك أن يواجهوا سكان الجبال من اليمنيين الذين اعتادوا العيش فوق قممها الشاهقة ، وانفردوا بمعرفة ممراتها ، وبالمقدرة على اختراقها تحت الظروف المناخيـة المختلفة ، الأمر الذى كان يفوق مقـدرة الجيوش النظامية التركية • وحتى فى تهامة حيث تقل نسبيا صعوبة التحرك فى سهولها القاحلة الى جانب وجود مركز ادارى وعسكر منظم للأتراك فيها، فان ثورات القبائل اليمنية هناك كانت أشد قسوة وضراوة • هذا فضلا عما تعرض له الأتراك فى تهامة من صعوبات أهمها ندرة موارد المياه ، والمناخ الحار القاسى الذى لم يعتده أبناء الأناضول (٣) •

وقد حاول الأئمة الزيديون أن يكتسبوا لأنفسهم تأييدا شعبيا ومكـانة سياسية على حساب تمرد القبائل اليمنية ضـد الأتراك العثمانيين • فالامام

---

(١) Harris, W.B. : Ibid., p. 94.

(٢) Jacob, H.F. : Op. Cit., p. 73.

(٣) Bury, G.W. : Op. Cit., p. 35.

المنصور بالله محمد بن يحيى محمد بن اسماعيل حميد الدين الذى بويع بالامامة – بعد وفاة سلفه الامام شرف الدين – « بالاجمـاع لأن العلماء لم يجدوا من يصلح للامامة غيره ۰۰۰۰ وكان فى صنعاء فخرج منها لأنهم (أى العلماء) ذكروا له أن أمر بيعته قد اشتهر ويخشى عليه من الأتراك » (١) ۰ ويبدو أن رجال القبائل اليمنية الذين بايعوه بالامامة فى سنة ١٨٩٠ (ذى القعدة ١٣٠٧ هـ قد « تفرسوا فى دعوته الفرج عما قد حل بهم من ولاة العجم (الأتراك) من العوج » (٢) ۰ فاليمنيون التفوا حول هذا الامام الذى سبق أن تعرض لاضطهاد الأتراك عندما اعتقلوه فى عهد الوالى مصطفى عاصم باشا مع زمرة من العلماء اليمنيين لانتمائهم حينذاك للامام المتوكل محسن بن أحمد – ذلك لأنهم رأوا أنه كان يشاركهم كراهيتهم للأتراك ويحثهم على الثورة ضد الادارة العثمانية ۰

انتقل الامام المنصور من صنعاء الى صعدة مركز الامامة الزيدية فى اليمن حيث اجتمع حوله العلماء والأعيان وبايعوه ۰ وقد استحوذ المنصور على ما كان قد جمعه سلفه الامام شرف الدين « لبيت المال » استعدادا لبدء الحرب ضـد الأتراك ۰ وقد انتقل الامام الى جبل الأهنوم فى سـنة ١٨٩٠ (المحرم سنة ١٣٠٨ هـ) ومن هناك أخذ يوجه دعاته الى أرجاء اليمن لاجتذاب القبائل اليمنية الى محاربة الترك ، وقد أيدته جموع القبائل واستجابت لنداء الحرب ۰ وكان من الطبيعى كمـا ذكر الجرافى أن يقع خروج الامام المنصور من صنعاء وتحريض القبائل اليمنية على محاربة الأتراك « وقع الصاعقة على رجال الدولة ، وذلك لما له (للامام المنصور) من المحبة والنفوذ بين رجال القبائل الذين يخشون بأسهم، وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغط الأتراك لذلك سرعان ما التفت حول الامام، مما أدى الى اتجاه القبائل الى محاصرة صنعاء فى سنة ١٨٩١ (١٣٠٩ هـ) » (٣) بعد أن سيطروا على حصن « ظفير حجة ، ومسور والشرف ، ويريم ، وذمار وحفاش، وملحان والروضة ، وغيرها من جهات صنعاء » ۰

وقد ذكر الواسعى فى تاريخه أن الامام المنصـــور كان بينه وبين الولاة الأتراك فى اليمن أيام امامته « من المعارك والملاحم ما ملأ الدفاتر وأنضب المحابر ، وما من قبيلة ولا بلاد من الزيدية فى اليمن الا وله فيها معركة ، وحاصر صنعاء مرتين وأسر من الأتراك مرارا ، وقصدوه الى محطته المعروفة « بقفلة عذر » من

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٠٧ – ٢٠٨ ۰

(٢) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٧٩ – ٨٠ ۰

(٣) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ۰

بلاد حاشـد مرتين في جموع تملأ الفيـافي والقفار وآلات ترتاع لرؤيتهـا الأبصـار » (١) ٠

وقبل أن يحاصر الامام المنصور مدينة صنعاء ، قام بمحاربة الأتراك فى بلاد الشرف فى سنة ١٨٩٠ (١٣٠٧ هـ) حيث تمكن من هزيمتهم ، وقتل قائد الحامية التركية هناك وكان يدعى محمد عارف ٠ وكان لهذه المعركة أسوأ الأثر لدى الأتراك العثمانيين فى اليمن فى ذلك الوقت (٢) ٠

كما أن قبائل همدان ثارت فى سنة ١٨٩١ (١٣٠٨ هـ) بزعامة الشيخ يحيى بن يحيى دورة ضد الأتراك العثمانيين ، فصدرت الأوامر من صنعاء لاخماد ثورتهم ٠ فتوجه القائد العثماني على باشا يرافقه السيد محمد بن على الشويح شيخ قبائل ضلاع الى قاع المنقبة حيث التحموا مع قبائل همدان التى كان يقودها السيد أحمد بن محمد الشرعى الحسنى ومعه جموع كثيرة من القبائل اليمنية ٠ وقد نشب بين الفريقين قتـال عنيف ، وكان ذلك فى عهـد الوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا ٠

وعقب وفاة الوالى اسماعيل حقى باشا فى سنة ١٨٩١ (١٣٠٨ هـ) ثارت القبائل اليمنية ضد الأتراك فى معظم أرجاء اليمن ، وبخاصة فى بلاد البستان وهى مخلاف كبير يقع غربى مدينة صنعاء ويجاور آنس والحيمـة وهمدان وسنحان ، وقام اليمنيون هناك بانتزاع أسلاك البرق وأعمدته ، كما نهبوا البريد الوارد من الآستانة الى صنعاء عاصمة الولاية (٣) ٠ وقد سبقت هذه المناوشات عملية محاصرة صنعاء التى تمت بعد أن انهزم الأتراك وتراجعوا أمام هجمات القبائل اليمنية فى المواقع المشار اليها ٠

وقد اتجهت القبائل اليمنية الى محاصرة صنعاء فى أوائل سنة ١٨٩٢ (١٣٠٩ هـ) ونشب قتال عنيف بين جموع القبائل والأتراك فى منطقة عصر الواقعة فى غرب صنعاء ٠ وقد تراجع الأتراك مهزومين حتى دخلوا الى باب « قاع اليهود » فى غرب صنعاء ، وأغلقت جميع أبواب المدينة وسيطر الخوف على أهلها وعلى الأتراك المحصورين فيها ٠ وبعد أيام من محاصرة صنعاء دار قتال عنيف بين القبائل اليمنية والأتراك بالقرب من جبل نقم ٠ كما حدث قتال آخر فى جنوب صنعاء فوق أماكن القبور ٠ وكانت القبائل اليمنية مسلحة بالبنادق القديمة قريبة المدى ، وان كان رصاصها قد أصاب منازل المدينة ٠ وكان الأتراك قد تحصنوا بالقصر حيث مقر الحكومة العثمانية وحول سـور صنعاء ، ومن هناك أخذوا يطلقون نيران بنادقهم على القبائل اليمنية المحاصرة للمدينة ٠ وذكر الواسعى فى تاريخه : « فما تسمع أصوات الرصاص من كثرتها الا كالرعود

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ٠

(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٧٠ ٠

(٣) الواسعى : المصدر نفسه والصفحة ٠

القاصفة ، ولوامع البارود فى جوف الليل كالبوارق الخاطفة ، وبهذه المحاصرة لصنعاء عظمت الشدة ، وغلت الأسعار ، وفر الضعفاء من أهل صنعاء » (١) وقد ازداد تجمع القبائل حول صنعاء يوما بعد الآخر ، كما حاصرت القبائل اليمنية جميع مراكز الترك فى اليمن كذمار ويريم وعمران وحجة والطويلة وتعز واب وغيرها وسيطر الامام على معظم المعاقل التركية ، وهكذا اجتاحت ثورة القبائل أرجاء اليمن ٠

وقد اشتدت وطأة الحصار حول صنعاء وتعز واستمر محكما لمدة شهرين ونصف فشلت خلالها القوات التركية المحصورة فى التخلص من القبائل المحاصرة ٠ وبعد حروب قاسية بين الطرفين خفت وطأة الحصار ، على الرغم من أن بعض الحاميات التركية الضعيفة استسلمت لرجال القبائل (٢) ٠ ولا شك أن حصار القبائل اليمنية لمدينة صنعاء عاصمة الولاية العثمانية واحتلال رجال القبائل لكثير من دور الحكومة ، والقائهم القبض على كثير من المديرين وكبار الموظفين الأتراك وارسالهم أسرى الى الامام الزيدى ، ليشكل لنا كل هذا صورة واضحة المعالم لحالة الاضطراب والفوضى التى تعرض لها الحكم العثمانى فى اليمن نتيجة للسياسة التى اتبعها العثمانيون هناك ، مما أسقط هيبتهم لدى اليمنيين ، وزلزل دعائم الحكم العثمانى فى تلك البلاد ٠

ويستعرض الواسعى أسباب ثورة شعب اليمن ضد الأتراك العثمانيين ، وهو يعبر بذلك عن رأى عامة اليمنيين والزيديين منهم على وجه الخصوص فيقول انها كانت ترجع الى « شدة الظلم ، واستحلال المحرمات ، وترك ما أمر الله به من الواجبات وارتكاب المعاصى والفجور ، وظهور البغى وشرب الخمور » (٣) وكانت تصرفات الأتراك هذه مخالفة للقيم الدينية التى اعتادها اليمنيون والتى كان الأئمة الزيديون يستغلوها لاثارة اليمنيين ضد الأتراك ليستعيد الأئمة نفوذهم السليب ، ولا شك أن بعض الأتراك كانوا يمارسون هذه الأفعال الشائعة فى المجتمعات الأوربية والتى اكتسبوها نتيجة لجوارهم لتلك المجتمعات، دون مراعاة لمشاعر اليمنيين ودون اهتمام لما قد يستغله الأئمة لاثار استنكار اليمنيين لأفعالهم ٠

على أن هناك أسبابا أخرى ذكرها الواسعى وأهمها سوء الادارة التركية فى اليمن فيقول : « وكان القائمقام أو غيره من المأمورين اذا خرج لأى قضاء أو ناحية لأخذ الأعشار أخذ ما قدر على تحصيله لنفسه ولم يساعد على كتب سند ما أخذ منهم ثم يرجع للحكومة ويقول لم يدفعوا شيئا ، ثم تأمر الحكومة بنهبهم وخراب بيوتهم واحراقها ، واذا وصلت العسكر الأتراك الى قرية تعدت

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧١ ٠
(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٧٥ ٠
(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧١ ٠

على عرض الحريم » (١) • فالواسعى يوضح أسلوب الأتراك فى جمع الضرائب بالقوة والضغط الى جانب جشع الموظفين الأتراك ومحاولتهم الاستئثار بأموال الضرائب لأنفسهم وتحريض الحكومة التركية ضد الأهالى • ويؤيد هذا الرأى الكاتب الأوربى هاريس «Harris» الذى قام بزيارة اليمن فى أثنـاء الثورة فى سـنة ١٨٩٢ بقوله : « ان تفكير الموظف التركى ينصب على كيفية الاثراء خلال شهر أو اثنين ، وعلى أسلوب العمل فى ادارته الذى يحقق له هذه الغاية قبل اعتزاله ، كما كان منطقه « ماذا ستكون نتيجة سياستى •• أنا لا يهمنى •• هذا لا يهمنى على الاطلاق » (٢) • فالموظفون الترك لم يكن معظمهم يؤمنون بأنهم يقومون بعمل وطنى لصالح دولتهم ، بل كانوا يشعرون أن اليمن منفى لهم وابعاد ، وكان يغذى شعورهم هذا الصعوبات الجمـة التى كانوا يواجهونها من الطبيعة اليمنية أو من اليمنيين أنفسهم على السواء •

على أن ثورة اليمن ضد الأتراك لم تكن عملا مفاجئا ، بل ان احداثا كثيرة سبقتها عبـرت للأتراك عن اسـتياء اليمنيين من حـكمهم ومن سـوء ادارتهم واستبدادهم • وكان من الممكن لدولة أخـرى أن تتدارك أخطاءها وتعدل عن سياستها لتفادى نشوب الثورة ، غير أن الأتراك لم يتنبهوا لذلك أو لعلهم لم يهتموا بذلك ، رغم التجاء اليمنيين مرارا للادارة التركية من صنعاء والآستانة على السواء لعتديل أسلوب الحكم العثمانى فى اليمن • وعندما أهمل الرجاء لم يجد اليمنيون بدا من مواجهة العنف بالعنف ، والظلم بالانتقام ، فكانت الأمور دائما تنحدر الى ما هو أسوأ • وقد حدث أن نشب نزاع بين حاكم ذمار التركى محمد رشدى باشا وبين أحد رؤساء القبائل اليمنية التى تعيش على مقربة من هـذه المدينة ، بشـأن الضرائب التى فرضها الحاكم على القبيلة والتى أصر على تحصيلها • وقد هدد الحاكم شيخ القبيلة مما اضطر الأخير الى الفرار بعد أن أقسـم على الانتقام • وبينما كان رشدى باشا فى مهمة خارج المدينة هاجمت القبيلة المذكورة منزله وقتلت بنيران بنادقها جميع أفراد أسرته وخدمه البالغ عددهم أحد عشر شخصا (٣) •

وما أن علم رشدى باشا بذلك حتى عاد بأقصى سرعة الى ذمار وتمكن بمساعدة القوات التركية فى المدينة من ابادة كل أفراد القبيلة التى انتقمت منه • وقد أقام رشدى مسجدا وضريحا للذين قتلوا من عائلته وزينه بالستائر الحريرية المعلقة فى داخله • وعندما استولى اليمنيون على ذمار فى نوفمبر سنة ١٨٩٢ نهبوا ذلك الضريح والمسجد وسرقوا ما فيهما من كنوز ، وقد رآهما « هاريس » على هذه الحال عندما قام بزيارة المدينة عقب استيلاء الترك عليها فى

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٢ •

(٢) Harris, W.B. : Op. cit., p. 95.

(٣) Harris, W.B. : Op. cit., p. 96.

نهاية شهر يناير سنة ١٨٩٣ فهذه القصة توضح مثالا لما ترتب على سياسة الارهاب والضغط التى اتبعها الأتراك فى اليمن لاستنزاف ثرواته وملء خزائن الآستانة ، ثم لدفع نفقات الجند والموظفين ، جانب الاسراف والتبذير والانفاق على ملذات الرسميين من الأتراك الغافلين عن مجريات الأمور فى امبراطوريتهم الشاسعة ٠

بل ان رشدى باشا بعد ذلك اشترك فى احدى الحملات المكونة من ٤٠٠ جندى ، للمساعدة فى تحصيل الضرائب بالقوة من « بنى مروان » القاطنين فى شرق مدينة اللحية ، وذلك بناء على طلب حاكم المدينة التركى ٠ غير أن هـذه الحملة انتهت بالفشل اذ فاجأتها قوة من رجال القبائل اليمنية قبل أن تصل الى قلعة الأمان وكان رشدى باشا نفسه من بين القتلى ٠ وقد أشيع فى ذلك الوقت أن قبائل عسير فى شمال اليمن قامت بالثورة ضد الأتراك العثمانيين هناك وكان من الطبيعى أن تتسرب أخبـار الثورة إلى بقية أرجاء اليمن مما شجع القبائل اليمنية الأخرى على التمرد ، والالتفاف حول الامام الزيدى لمواجهـة الأتراك ومحاولة طردهم من اليمن (١) ٠ وقد وجـد رجال القبائل أنفسهم فى عهد الاحتـلال التركى تحت ضغط الموظفين ومحصلى الضرائب الأتراك ، مما جعلهم يتوقون للعودة لحياة الاستقلال ٠

ولا شك أن الاختلافات العقائدية كان لها دورها فى تعميق الهوة بين الأتراك العثمانيين السنيين وبين اليمنيين من أتبـاع المذهب الزيدى بصفة خاصة٠ ويستعرض الواسعى عداء الأتراك المذهبى لأهل اليمن من الزيديين فيقول : « ويتظاهر المأمورون بأن أهل اليمن أشقياء ومذهبهم زيدية ، ولما كان الأتراك عجما لا يفهمون ما هو الزيدى ، وأنه مذهب من جملة المذاهب ، بل امام هذا المذهب الامام زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن الامام على بن أبى طالب، ونحن المأمورون باتباع هديه وعترته ، ظن الأتراك لجهلهم أنهم خارجون عن الاسلام ، مع أن أكثر الأتراك لا يصلون ، وبعض عقلائهم وقد يرى ما عليه أهل اليمن من الدين والصلاح والمحافظة على الصلوات ، واقامة الجمع والجماعات ، وتدريس العلم ، وهجرهم المعاصى والمنكرات ، يستغرب ما تعاملهم الحكومة من الشدة والقسوة ، وهجرت الحكومة التركية العمل بالشريعة واقامة الحدود ، وركنت على قوانين باطلة وأهـواء عاطلة ، واعتمـدت على قوة شـدتها وبأسها » (٢) ٠ ويبدو واضحا أن الواسعى يمثل وجهة النظر الزيدية التى كان يتزعمها الامام الزيدى بحكم مركزه الروحى ليستعيد نفوذه السليب فكان يحرص على اظهار الأتراك بمظهر الخارجين عن الدين غير المطبقين للشريعة الاسـلامية

(١) Harris, W.B. : Ibid., pp. 99-100.
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٢٧٢ ٠

مما كان يثير مشاعر القبائل ضدهم رغم اعتناق الجانبين للاسلام · على أن عداء الأتراك للزيديين لم يكن نابعا من الوجهة العقائدية بل كان أساسه سياسيا صرفا ، لأن الامامة الزيدية وأتباعها فى اليمن شكلوا جبهة سياسية معادية للأتراك · فالامامة كانت التنظيم السياسى الوحيد الذى واجهه الأتراك فى اليمن والذى شكل خطرا على وجودهم فيها ، فحرصوا على معاداته وتفتيت قوته ، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ·

وبعد مضى أسبوعين من محاصرة صنعاء فى خريف سنة ١٨٩٢ (محرم سنة ١٣٠٩ هـ) نشب قتال عنيف بين اليمنيين والأتراك فى قرية (الجرداء) الواقعة فى جنوب صنعاء ، بعد أن خدع اليمنيون الأتراك بأن أوقفوا اطلاق نيران بنادقهم وجعلوا القرية تبدو ساكنة هادئة ، فأوحوا للأتراك أن سكانها قد هربوا انقاذا لأرواحهم بعد أن أكثر الترك من رمى القرية بنيران بنادقهم ومدافعهم · وقد وقع الأتراك فى هذا الكمين ، وكان يقودهم فى هذا الموقع على باشا التركى يعاونه عدد من مشايخ اليمن الذين انحازوا للأتراك أمثال عبد الوهاب بن راجح رئيس « أرحب » ، ومقبل بن يحيى أبو فارع رئيس « حاشد » ، ومقبل دغيش رئيس « بنى الحارث » ، والسيد محمد الشويع رئيس « ضلاع » ، والشيخ على بن محمد البليلى رئيس صنعاء · وقد رأوا جميعا أن يهجم الترك على القرية ليغنموا كل ما فيها بينما كان اليمنيون الثائرون كامنين هنالك بقيادة السيد محمد ابن الامام المتوكل محسن فى انتظار وصول الأتراك · وما كاد الترك يصلون إلى القرية حتى انقض اليمنيون عليهم ، وأعملوا فيهم السلاح من السيوف والمدى والخناجر التى يطلق عليها اليمنيون (الجنابى) · وكانت مذبحة شنيعة قتل فيها عدد كبير من الأتراك ، ولم يتمكن سوى قليل منهم من الفرار الى صنعاء وقد امتلأت قلوبهم بالخوف والفزع · ثم اتجه اليمنيون بعد ذلك الى احكام حصارهم حول صنعاء ، وكانت تعج بالجنود العثمانيين الذين قاسوا الأمرين من الحصار المضروب حول المدينة(١) ·

وقد حاول الأتراك المحصورون فى صنعاء فك هذا الحصار فوجهوا جزءا من قواتهم الى المنطقة الواقعة فى شمال المدينة ، غير أن القبائل اليمنية تغلبت عليهم فولوا الأدبار الى صنعاء · بل ان القبائل تبعتهم حتى منطقة شعوب ، واستمر القتال حول المدينة ليلا ونهارا · وقد بلغ عدد رجال القبائل المحاصرين لصنعاء سبعين ألف مقاتل من مختلف القبائل اليمنية ، وخاصة قبائل حاشد وبكيل وذى محمد وذى حسين وبرط ، وقد عرفت جميعها بشدة البأس وكراهيتها وبغضها للأتراك العثمانيين · وقد قام رجال القبائل المحاصرة بصنع سلالم طويلة من شجر الجوز لتمكنهم من تسلق سور صنعاء ، وقد استعملوا

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٣ ·

هذه السلالم فى محاولات الهجوم على المدينة واقتحامها (١) • هذا فى الوقت الذى كانت فيه القوات العثمانية فى صنعاء فى حالة يرثى لها ، فقد كانت ملابسهم رثة ، وتغذيتهم سيئة ، وقد هزلت أجسـامهم من المرض ، وكانت مساكنهم غير صحية ، كما كانوا نادرا ما يتقاضون مرتباتهم (٢) ، فلم يكن عجبا والحالة هـذه والحصار مضروب حـول المدينة أن تحطمت معنوياتهم ، وضعفت مقاومتهم للقبائل اليمنية الفتية الطامعة فى سلب صنعاء ونهب ما فيها من ثروات عندما تستبيحها الإمامة للقبائل المناصرة لها ضد الترك •

وقد ذاق أهالى صنعاء اليمنيون الذل والهوان فى أثناء محاصرة القبائل اليمنية للمدينة • واذا كان قد قدر لرجال القبائل أن يدخلوا صنعاء منتصرين ، لكانوا قد انتقموا من سكانها اليمنيين اخوانهم وليس من الأتراك العثمانيين فحسب ، لأن رجال القبائل ظنـوا أن سـكان المدينة قد تواطأوا مع القوات التركية ضدهم • هذا بينما كان الأتراك يعتقدون أن أهالى صنعاء هم المحرضون لاخوانهم رجال القبائل اليمنية المتمردة ، وهكذا وقع أهالى صنعاء بين شقى الرحى • ويذكر الواسعى فى تاريخه أن أهالى صنعاء كانوا : « يبتهلون الى الله تعالى بالدعاء فى المساجد وتلاوة القرآن ، وقراءة يس بصوت واحد بين العشاءين فى كل ليلة وفى كل مسجد وعقب صلاة الجمعة • وحصل للناس ضيق شديد بالحصار لعدم الطعام ، فمن كان له طاقة وقدر على السير ومعه ما يقوم بمؤنته هو وأهله قعد فى صنعاء مع الخـوف • وقد باع الناس أموالهم ومتعتهم بثمن رخيص فى قيمة قوت لهم ، ومن لم يقدر على الجلوس فى صنعاء خرج هو وأهله وظن أنه يخرج من الظلمات الى النور ، فاذا خرجوا التقاهم القبائل الذين عاثوا فى الأرض فسادا وبغوا على امام الحق (يقصد الامام المنصور محمـد بن يحيى حميـد الدين) بغيا وعنادا فيما أمرهم به من تأمين الطرقات واعانة الضعفاء والمساكين واغاثة الملهوف والمكروب من المسافرين ، ارتكبوا أنواع الفضائح ، وأغضبوا الرب تعالى بفعلهم القبائح ، هتكوا الأنفس والأعراض وتركوا الواجبات وارتكبوا المحرمات ••• كلما خرج انسان من صنعاء نهبته القبائل وأخذوا ما معه ، وان وجدوا امرأة هتكوا عرضها » (٣) •

وهكذا كانت حالة أهالى صنعاء اليمنيين فى أثناء حصار القبائل اليمنية للمدينة ، بينما الأتراك فى داخل صنعاء كانوا على شك وريب منهم مع ندرة الأقوات وارتفاع الأسعار وانتشار المجاعات • فاذا ما حاول بعض أهالى صنعاء

---

(١) الواسعى : المصدر نفسه والصفحة •

(٢) Harris, : W.B. : Op. cit., pp. 102-103.

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ •

الفرار من تلك الحالة السيئة وقعوا فريسة فى أيدى رجال القبائل البدو الذين كانوا أقسى عليهم من الأتراك ، لعدائهم المتأصل لسكان المدينة ، واعتقادهم بتعاون أهلها مع العثمانيين ضدهم ٠

وفى الوقت الذى حاصرت فيه القبائل اليمنية مدينة صنعاء ، تعرضت كذلك مدينة « عمران » للحصار وهى مدينة كبيرة مسورة ، بينما سقطت جميع المدن غير المحصنة فى أيدى رجال القبائل اليمنية دون مقاومة تذكر ٠ على أن مدينة مناخة الواقعة على الطريق من الحديدة الى صنعاء حاولت مقاومة القبائل دون جدوى ٠ وقد قام رجال القبائل اليمنية بسجن العساكر الأتراك الذين نجوا من القتل فى أثناء عمليات المقاومة فى مناخة ، وذمار ، ويريم ٠ أما مدن اب ، وجبلة ، وتعز ، الواقعة فى جنوب اليمن فقد أعلنت ولاءها وتأييدها للامام الزيدى المنصور بالله محمد بن يحيى حميـد الدين ٠ على أن بعض العسـاكر الأتراك قد انضـموا الى صفوف القبـائل وبعضهم آثر التقاعد بعـد أن سلم سـلاحه ٠ أما الأسرى الأتراك من الشخصيات الهـامة فقد أرسلوا الى الامام المنصـور الذى أحسن استقبالهم وقربهم اليه ، وكان يهـدف من وراء ذلك استمالتهم للوقوف الى جانبه ليحصل على معاونتهم له فى الحرب بما لديهم من معلومات حربية هامة ٠ ويذكر « هاريس » أنه لم يسمع اطـلاقا أن العـرب عاملوا الأتراك بقسوة بعد أن انتصروا عليهم الا فى حالات استثنائية ، بل انه رأى العرب يقدمون الكساء والطعام للهاربين من الأتراك ، كما أمدوهم بالأموال التى تمكنهم من الوصـول الى عدن ، أو الفرار بطرق أخرى من حياة الجندية الصعبة (١) ٠

وعندما اشتدت وطأة المقاومة على الأتراك فى اليمن تدفقت البرقيات على الآستانة من الحـديدة لطلب المسـاعدة والامدادات العسكرية اللازمة لاخماد الثورة ٠ وكانت الحديدة وغيرها من مدن الساحل اليمنى فى مأمن من هجمات القبائل التى سيطرت على معظم مدن اليمن الداخلية فيما عدا صنعاء ، وعمران ، وظفار التى تصدت للحصار بعزم وثبات ٠ ويبدو أن ظهور القوات التركية المنظمة كان يؤدى الى كبت الشعور العـدائى والتمرد فى مـدن الساحل التى كانت بلا شـك موالية للثورة وان كانت تسكنها طبقة من التجار والمواطنين استطاعوا عن طريق صـلاتهم الحسنة بالعثمانيين أن يكونوا فى مأمن من عدوانهم ٠ وقد حصلت طبقة التجار فى الحديدة ومدن الساحل على مركز ممتاز لدى رجال الحكومة التركية فى الولاية ، وتمكنوا من شراء حق جباية الضرائب فى مناطق معينـة من الحـكومة ، كمـا تمتعوا بامتياز اعفـاء بضائعهم من

---

(١) Haréis, W.B. : Op. cit., pp. 104-105.

الضرائب (١) ٠ لهذا فان أفراد هذه الطبقة شكلوا فئة سلبية بعيدة عن الصراع والمقاومة الشعبية ضد العثمانيين ، حفاظا منهم على مصالحهم الخاصة ٠

ويهمنا أن نعرض وصفا موجزا لمدينة صنعاء قبيل الحصار الذى قامت به القبائل اليمنية فى خريف سنة ١٨٩٢ (١٣٠٩ هـ) ٠ فالمدينة تقع فى واد فسيح ، وكانت تشكل مثلثا على قمته الشرقية قلعة ضخمة تسيطر على المدينة ، وكانت صنعاء مقسمة الى ثلاثة أقســام مميزة يفصل كل قسم عن الآخر سور مرتفع وكانت الأقسام الثلاثة محاطة بسور واحد أكثر ارتفاعا ٠ وفى صنعاء كان يوجد المقر الرئيسى لحكومة الولاية العثمانية ، وكان يعيش فى المدينة اليمنيون والعثمانيون جنبــا الى جنب ، بينما كان هنــاك حى خاص يقيم فيه اليهــود ٠ على أن وجهاء العثمانيين كانوا يعيشون فى حى « بير العزب » الذى شيده الأتراك على طراز حديث فكانت تحيط بمعظم منازله حدائق خاصة ، كما وجــدت بعض المحــلات والمقاهى على جوانب الشوارع التى أقامها الترك فى صنعاء ٠ وكانت احدى الفرق الموسيقية العثمانية تعزف موسيقاها يوما فى كل أسبوع أمام مساكن كبار موظفى العثمانيين فى الحى المذكور (٢) ٠

ووصف الرحالة الانجليزى « هاريس » مدينة صنعاء أثناء حصار القبائل اليمنية فى سنة ١٨٩١ بقوله ان رجال القبائل كانوا يطلقون نيران بنادقهم على شــوارع المدينة من مراكزهم فوق جبل نقم الذى يسيطر على صــنعاء سيطرة تامة ٠ غير أنه لم يكن لدى رجال القبائل المحاصرة لصنعاء مدفعية ضاربة ، كما لم تمكنهم جهودهم من الاستيلاء على منفذ يؤدى بهم الى اقتحام المدينة ٠ وقد أطلقت القوات العثمانية المتحصنة فى قلعة صنعاء نيران مدافعها بصفة منتظمة على مواقع رجال القبائل المحاصرين للمدينة ، مما ساعد العثمانيين على الخروج من البــوابة الجنوبية والاتجاه شمال صنعاء ، حيث نشبت معركة عنيفة بينهم وبين رجال القبائل اليمنية ٠ وأخيرا رجحت كفة الترك وتمكنوا من طرد رجال القبائل الذين اضطروا الى التقهقر تجاه قرية صغيرة قريبة من أسوار صنعاء ٠ وقد تمكنت القوات التركية بمساعدة بعض المدافع الصغيرة من تدمير منــازل تلك القرية تدميرا تاما ، وتمكنت كذلك من رد هجوم مضاد قام به الثوار ٠ وأخيرا اضطر رجال القبائل الى التقهقر بعد أن تركوا آلافا عديدة من القتلى فى ميدان المعركة ٠ ورغم انتصار القوات التركية على الثوار فى تلك المعركة ، فلم يكن هذا الانتصــار كله فى صالحهم ، اذ أدى ترك جثث القتلى دون دفنهــا الى انتشــار الأمراض بين سكان صنعاء ، وصارت رائحة الأجســام المتحللة تزكم

---

(١) Harris, W.B. : Ibid. p. 101.

(٢) Harris, W.B. : Op. cit., pp. 106-107.

الأنوف ٠ ولم تكد القوات التركية تعود الى صنعاء حتى عـاد الثوار الى احتلال مواقعهم الأولى فوق الجبل ، غير أن قيامهم بهجوم ناجح على صنعاء أصبح أمرا ضعيف الاحتمال بعد الخسائر التى أوهنت من قواهم ومعنوياتهم (١) ٠

وقد سبق أن ذكرنا أن الوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا الذى تولى حكم اليمن فى سنة ١٨٩٠ (١٣٠٧ هـ) توفى ودفن بمدينة صنعاء فى العام التالى مباشرة ٠ فى الوقت نفسه الذى تحركت فيه القبائل اليمنية للثورة ضد الأتراك ، وبخاصـة بعد الالتفاف حول الامام المنصور الذى بويع بالامامة فى السنة المذكورة ٠ وقد عين الباب العالى الوالى حسن أديب ليتولى حكم اليمن ، غير أن هذا الوالى لم يحضر الى اليمن فى الوقت الذى كانت الثـورة فيه ضد الأتراك متأججة الأوار (٢) ٠ وقد وصلت أنباء الثورة الى الباب العالى وأبرق الأتراك من الحديدة يطلبون النجدة والامدادات ٠ لهذا صدرت أوامر السلطان العثمانى لأحمد فيضى باشا ، الحاكم السابق لمكة وقائد الكتيبة العثمانية السابعة عشر ، بالتوجه فورا الى اليمن بعد أن نصبه واليا عليها لاخماد الثـورة واقرار الأمور هناك ٠

وقد وصل أحمد فيضى باشا الى الحديدة وعلم بتأزم الأمور فى الولاية فاتخذ فورا خطوات فعالة للاستيلاء على مناخة ، دون انتظار لاتمام الترتيبات اللازمة لنقل التموين الحربى ٠ فوجه فيضى قواته الى حجيلة عن طريق باجل ، وهى قرية تقع على سفح الجبال التى تعلوها مناخة والتى يمر بها طريق الحديدة ــ صنعاء ٠ وقد لحقت بقوات فيضى باشا الامدادات والتموين بوساطة الجمال بعد مسيرة ثلاثة أيام ٠ وبعد أن أراح فيضى باشا قواته بدأ فى تسلق الطريق الوعر حيث قابلته أولى محاولات المقاومة التى تمكن من القضاء عليها نتيجة لتفوق الأسلحة التركية الحديثة ، وتدرب الجنود الأتراك على أحدث وسائل الحرب ٠ وقد تمكنت القوات التركية ــ بعـد أن تأخرت بعض الوقت ــ من السيطرة على هذا الطريق والوصول الى مناخة ٠

وقد منحت الطبيعة مناخة موقعا منيعا فوق جبـل يبلغ ارتفاعه سبعة آلاف وستمائة قدم فوق مستوى سطح البحر ، وتجثم المدينة على ربوة ضيقة تمتد بين مسيفين جبليين شامخين (٣) ٠ كما يوجد بجوار مناخة وهاد يبلغ عمقها أكثر من ألفى قدم ويمكن الوصول للمدينة من الجهة الغربية عبر طريق واحد يبدأ عند سفح الجبل بينما لا يمكن الاقتراب منها من وجهة الشرق الا عن طريق ممر ضيق يبلغ ارتفاعه ألفين وخمسمائة قدم عن مستوى سطح البحر ٠

---

(١) Harris : W. B. : Ibid., p. 108.

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٥ ٠

(٣) هانز هولفرتز : اليمن من الباب الخلفى (ترجمة خيرى حماد) ، ص ١٨٩ ٠

ويقول أمين الريحاني الذي زار اليمن في سنة ١٩٢٠ « لا أظن أن عسكرا من عساكر العالم يستطيع الاستيلاء عليها (أي على مناخة) من الغرب ، قادما من الحديدة ٠ أو من الشرق قادما من صنعاء ، الا اذا نفدت الذخيرة فيها ٠ وعندئذ يتخذ المحاصرون سلاحا آخر من الحجارة يقذفون بها على العدو ، فتفعل ما لا تفعل البنادق » (١) ومناخة بهذا الوصف منيعة للغاية اذ كانت تدافع عنها قوات مدربة ، غير أن المدافعين من اليمنيين عندما سمعوا باستيلاء فيضي باشا في سهولة ويسر على الطريق الممتد من حجيلة فانهم لم يجدوا الشجاعة لكي يقاوموا الترك مقاومة جريئة ٠ ولم يكن في استطاعة اليمنيين بأسلحتهم القديمة من رماح وبنادق بالفتيل أن يقفوا صامدين أمام مدافع الميدان التركية ، التي تمكن أحمد فيضي باشا من احضارها الى مناخة خلال يوم واحد ، ورفعها جنوده على ارتفاع ستة آلاف قدم في ممر ملتو وعر للغاية ٠ ولم تكد القوات التركية تطلق نيران مدافعها وبنادقها حتى انسحب رجال القبائل اليمنية من مناخة ، وتمكن الأتراك من السيطرة عليها ٠

وقد ترك أحمد فيضي باشا حامية كافية في مناخة لحمايتها وللمحافظة على ابقاء طريق المواصلات مفتوحا الى الساحل ، ثم أمر قواته بالتوجه الى صنعاء ٠ وعلى بعد حوالى ٣٠ ميلا من مناخة على الطريق الى صنعاء عند منطقة يطلق عليها « حجرات المهدي » حيث كانت الطريق ضيقة وعرة اتخذت القبائل اليمنية مواقعها هناك وحدث بينها وبين القوات التركية قتال استمر اثني عشر يوما استطاع الأتراك بعدها أن يتقدموا في طريقهم تجاه صنعاء بعد أن تشتت شمل الثوار ٠ وقد اتجهت القوات التركية نحو صنعاء بعد أن قصفت في طريقها بعض القرى بمدافعها وعندما وصل الأتراك الى سوق الخميس الواقعة في غرب صنعاء بمسيرة يوم واحد دار قتال عنيف رجحت في نهايته كفة الأتراك وتوالت انتصاراتهم من موقع الى آخر بينما كانت القبائل اليمنية تتراجع أمامهم ٠ وأثر ظهور القوات التركية أمام أعين رجال القبائل اليمنية المحاصرين لصنعاء المعسكرين في جبل نقم ، فقد ولت قوات الامام الأدبار ، وتراجعت الى الجبال الواقعة شرق صنعاء ، حيث استحال على القوات التركية ملاحقتهم وادراكهم (٢) ٠ وقد تمكن أحمد فيضي باشا من فك الحصار المضروب حول صنعاء ودخل المدينة منتصرا « وعم الناس السرور والفرح ، وزال عنهم البؤس والترح » على حد تعبير الواسعي (٣) ٠

وقد بدأ الوالى أحمد باشا فيضي عقب وصوله الى صنعاء في اعادة تنظيم

---

(١) أمين الريحاني : ملوك العرب ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ٠

(٢) Harris, W.R. : Op. cit., p. 110.

(٣) أمين الريحاني : ملوك العرب ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ٠

أمور الولاية بما يحقق لها الأمن والاستقرار ، فأصدر أوامره بالعفو العام عن كل الخارجين حتى يعود الأهالى الى مواقعهم وهم آمنون ، ولينصرفوا جميعا الى مباشرة أعمالهم ٠ وقد أعلنت القبائل المحيطة بصنعاء طاعتها للوالى الجديد وللحكم العثمانى بوجه عام فيما عدا قريتى « جدر » فى الشمال الغربى من صنعاء بمسيرة ساعتين ٠ وقد توجهت اليها طائفة من الضباط والجنود الأتراك يرافقهم الشيخ على البلبلى اليمنى الذى منحته الدولة العثمانية رتبة باشا ، فنهبوا القريتين وأحرقوهما ٠ ويذكر الواسعى أن :

« أهل جدر قد عاثوا فى الأرض فسادا وقطعوا الطرقات وأخافوا السبل، وهم أول من عصى الأئمة الذين باليمن قبل الأتراك » (١) ٠

كما وجه فيضى باشا قوة تركية بقيادة اسماعيل باشا للاستيلاء على ذمار ويريم وذلك بعد أن أعلن الأحكام العرفية التى كانت تعنى تعطيل جميع القوانين فى الولاية ٠ كما أعلن الوالى العثمانى منح جائزة لكل من يحمل اليه رأس أحد من الثوار اليمنيين ، وأباح لقواته الاغارة على القرى اليمنية ونهبها اذا ما تمردت وأعلنت الثورة من جديد ٠ وقد توجه اسماعيل باشا الى جنوبى اليمن فاستولى على ذمار بدون مقاومة ، وترك بها حامية تركية كما تمكن من اخضاع اب ، وجبلة ، وتعز للحكم العثمانى دون أن يلقى مقاومة تذكر (٢) ٠

وقد ذكر الرحالة الانجليزى هاريس «Harris» أن الأتراك كانوا يتمتعون بمقدرة عجيبة على اخماد الثورات وكانوا يحرصون على عدم معرفة أى شخص أجنبى للطريقة التى يتبعونها فى ذلك ٠ وقد رحل « هاريس » فجأة الى صنعاء فى أثناء قيام أحمد فيضى باشا بالقضاء على الثوار المحاصرين لها ، غير أن الأتراك قبضوا عليه وعلى خدمه وألقوا بهم فى السجن واعتبروهم جواسيس رغم جوازات السفر التى كانوا يحملونها ٠ ولم يطلق سراحهم الا بعد أن مرض هاريس بالحمى ٠ وقد رأى الأتراك من الأفضل لهم التخلص من « هاريس » وهو على قيد الحياة وذلك خشية الأسئلة العديدة المحتملة التى قد توجه اليهم ٠ لهذا أعدوا فصيلة من الحرس تحركت بسرعة الى الحديدة وبصحبتها الرحالة الانجليزى مع تعليمات بترحيله فورا ٠ ورغم أن علاقة الرحالة بالوالى العثمانى أحمد فيضى باشا لم تكن على خير ما يرام ، الا أنه شهد للوالى العثمانى بنشاطه وحيويته ، وبأنه كان جنديا قديرا على مواجهة الصعاب ، غير أنه وصفه بالقسوة التى كان يتطلبها فيه بعض رؤسائه الأتراك ٠ ولهذا تغير تيار الحوادث فى اليمن منذ تولى أحمد فيضى باشا زمام أمور الولاية وتحولت انتصارات القبائل اليمنية الى هزائم متتالية ٠ ولا شك أن النتائج كانت ستختلف كثيرا اذا كان

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٦ ٠

(٢) Harris, W.B. : Op. cit., p. III.

اليمنيون قد نجحوا فى السيطرة على صنعاء ، ولكن محاولاتهم للاستيلاء عليها باءت بالفشل . ويرجع سبب ذلك الى أن الموقف السلبى الذى التزم به الامام الزيدى بعد أن أثار القبائل اليمنية ضد العثمانيين فكان بقاء الامام منعزلا عن الاشتراك فى أى عمل جدى فى أثناء محاربة الترك من الأسباب التى لم تشجع اليمنيين على مواصلة النضال . ولا شك أن القبائل اذا قدر لها النجاح فى السيطرة على صنعاء واقامة حكم مستقر للامام الزيدى ، فقد كان من المحتمل أن يفقد الأتراك نهائيا نفوذهم فى اليمن منذ ذلك الحين وهذا ما أوضحه للرحالة « هاريس » كل من الوالى العثمانى نفسه وعدد من شيوخ القبائل اليمنية على السـواء (١) .

واذا كان الأتراك العثمانيون قد تمكنوا من اخماد ثورة القبائل اليمنية فى سنة ١٨٩٢ فان ذلك استدعى وجود أربعة آلاف جندى عثمانى فى الولاية . وبالقاء نظرة سريعة على طبيعة اليمن الصعبة فاننا سوف ندرك صعوبة المهمة التى ألقيت على عاتق هؤلاء الجنود فى هذا الميدان الوعر . فوسط اليمن يتكون من هضبة كبيرة تقع عليها المدن الرئيسية الثلاث : صنعاء وذمار ويريم . وهذه الهضبة محاطة بالأودية والأخاديد والقمم الجبلية والصخرية الشاهقة الارتفاع . وفى هذه البيئة الصعبة استحال على القوات التركية أن تعمل خلالها الا ببذل كل الجهود المضنية ، بل ان عددا كبيرا من تلك الجبال يتراوح ارتفاعها بين ١٢٫٠٠٠ ــ ١٣٫٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وتتصل القمم الشاهقة بالأودية التى تقع أسفلها بواسطة وهاد يبلغ عمقها آلاف الأقدام ، كما أن الطرق الموصلة بينها محفورة فى واجهة تلك الوهاد ، ولا يزيد عرضها دائما على ياردة واحدة . وعلى الرغم من سيطرة الأتراك على معظم المدن اليمنية ، فان الطرق الرئيسية التى تربط صنعاء بهذه المدن لم تكن آمنة لمرور الأتراك ، الا اذا عبروها فى أعداد كبيرة مسلحة وكثيرا ما كانت تلك القرى الجبلية تعتمد على حصانتها ومنعتها فى صد محصلى الضرائب العثمانيين واعادتهم الى العاصمة بخفى حنين (٢) .

وعلى الرغم من أن القوات التركية قد تغلبت على ثورة اليمنيين فى سنة ١٨٩٢ فان هيبة الأتراك قد أصيبت بضربة شديدة كما انخفض دخل الدولة من الولاية الى عشر قيمته السابقة بعد أن استقلت عن الحكومة التركية فى الولاية قبائل كثيرة فى الوقت الذى تضاعفت فيه أعداد الحاميات التركية بما تتطلبه من تكاليف باهظة وقد نتج عن هـذه الثورة وطريقة الأتراك فى اخمادها أن اليمن لم تعـد مصدرا لملء الخزائن التركية ، واذ أن الباب العالى أنفق أموالا

(١) Harris, W. B. Op. cit., pp. 111-112.
(٢) Harris, W.B. : Ibid., pp. 113-114.

طائلة للقضـــاء على الثـورة وفى نفس الوقت فان أية محاولة تركية لتحصيل نفقـات الحرب من اليمنيين كانت ستؤدى الى اشعال نيران ثورة جديدة كان يحتمل أن تصبح أشد خطورة على الحكم العثمانى فى اليمن من الثورة السابقة ٠

وتجدر الاشارة الى موقف الأتراك العثمانيين من الانجليز القـابعين فى جنوب اليمن فى ذلك الوقت وصلة ذلك بالثورة اليمنية فى سنة ١٨٩٢ ٠ لقد كان الاعتقاد السائد لدى العثمانيين فى ذلك الحين أن الدسائس البريطانية هى التى حركت الثورة ضدهم فى اليمن على الرغم من أنهم لم يدركوا الفوائد التى قد تجنيها بريطانيا من ذلك ٠ غير أن الأتراك اهتموا بتوثيق علاقتهم بحكام النـواحى اليمنية الواقعة بين عـدن والحدود العثمانية عند قعطبة ، والبح ، والضالع ، وأراضى الحوشبى ، فكانت حكومة اليمن العثمانية تقوم من جانبها باعطاء السلاطين والأمراء والمشايخ فى تلك الجهات اعانات مالية لتضمن وجود علاقات طيبـــة بينها وبين هؤلاء على نحو ما يفعله البريطانيون وان كان هدف انجلترا من ذلك لم يكن معروفا لدى الرسميين من الأتراك فى صنعاء والآستانة ٠ وكانت بريطـانيا تهـدف الى تأمين قوافل التجـارة الصادرة من عدن الى بقية أجزاء اليمن من عدوان القبائل اليمنية ، ولهذا كانت تدفع مبلغا كبيرا من المال شهريا للحكام الوطنيين كما أن بريطانيا كانت تحرص على ايجاد منطقة موالية لها أو على الأقل مهادنة لتتوسط المنطقة الواقعة بين حدودها فى عدن وحدود ولاية اليمن العثمانية (١) ٠

ولقـد كان الاحتلال العثمانى لليمن مقيدا للمصالح البريطانية ، اذ أن الادارة اليمنية قبل مجىء الترك لم تكن لها المقدرة على كبح جماح القبـائل مما كان لا يسمح بمرور القوافل التجـارية بين عدن وداخل اليمن وعودتها سالمة ٠ وكان ذلك يرجع الى ضعف الأئمة وتنافسهم فيما بينهم وعدم وجود ادارة موحدة قوية فى اليمن ٠ ولكن الأمور تغيرت منذ وصول الأتراك ، فحيثما امتد نفوذهم وسلطانهم كان يترتب على ذلك سلامة طرق القوافل وتأمينها ٠ على أن طمع الأتراك ورغبتهم فى فرض ضرائب مرتفعة على التصدير والاستيراد فى الحديدة وفى موانى اليمن الأخرى الخاضعة لنفوذهم فقد أدى ذلك الى اتجاه الجزء الأكبر من التجارة اليمنية الى عدن التى كانت ميناء حرا فى ذلك الوقت ومن هنا تتضح لنا الفائدة التى عادت على بريطانيا من سيطرة الترك على اليمن ، فاذا ما خرج العثمانيون من اليمن فسيترتب على ذلك تعرضه للفوضى والاضطراب مما يؤثر فى مدى رواج تجارة عدن فى البن ومختلف الصادرات بصفة عامة وكذلك فى البضائع الأوربية المستوردة وبخاصة التبغ الوارد من بلدان الخليج العـربى ٠ ولكن عـددا من الأتراك أكدوا للرحالة « هاريس » أن الحكومة

---

(١) Harris W.B. : Op. Cit., p. 115.

البريطانية فى عدن كانت تمد الثوار اليمنيين بالأسلحة والمساعدات لمحاربتهم ولكن « هاريس » أوضح أن الأسلحة كانت تهرب الى اليمن من (أبوك) الميناء الفرنسى المواجه لسواحل اليمن بواسطة التجار والمغامرين (١) ٠

وقد أشار « هاريس » فى كتابه الصادر فى سنة ١٨٩٣ فى أعقاب الثورة اليمنية ضـد الحـكم العثمانى حينـذاك الى صعوبة التكهن بمستقبل السياسة العثمانية فى اليمن بقوله :

« فبدون أدنى شك سوف يستنير السلطان عبد الحميد كثيرا من التقرير الذى كتبه رئيس أركان حربه يعقوب بك الذى أرسله الى صنعاء لدراسة الموقف فى اليمن ٠ ويساورنى الشك فى أن الأتراك سوف يتبعون سياسة معتدلة فى اليمن ، التى لا يمكن حكمها من القسطنطينية التى تبعد عنها كثيرا ، اذ حالما تهدأ الحالة هناك فان الموظفين الترك سوف ينتهزون الفرصة من جديد ليضغطوا على الشعب اليمنى حتى تمتلىء جيوبهم ، فهل يمكن اقناعهم بأن الاغتصاب ليس هو الطريق الموصل لنظـام حـكم عادل يحقق لدولتهم اثراء طبيعيا ، ويؤمن علاقاتهم باليمنيين عما هى عليه ٠ غير أن النمر لا يمكنه أن يغير لون جلده . ولهذا فكل ما أتوقعه هو أن النفوذ العثمانى ما دام سائدا فى اليمن فان الموظفين الأتراك سوف يعملون دوما على اثراء أنفسهم وافقار الشعب اليمنى » (٢) ٠

وان ما توقعه « هاريس » قد حـدث بالفعل فى اليمن على أيدى بعض الموظفين الأتراك مما أدى الى قيام الثورات اليمنية المتتالية فى عامى ١٩٠٤ ــ ١٩١٠ ضد الادارة العثمانية وقد ترتب على ذلك ضياع كثير من الجهود التى قام بها بعض المصلحين من الولاة العثمانيين لمحاولة توجيه سياسة الحكم العثمانى فى الولاية لما فيه مصلحة اليمنيين والارتقاء ببلادهم ٠ وسوف نستعرض فى الصفحات التالية موقف السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى من ثورة اليمن فى سـنة ١٨٩٢ والسـياسة التى اتبعها فى تلك الولاية العثمانية لتهـدئة الموقف ٠

المرحلة الأولى من المفاوضات بين العثمانيين واليمنيـين لتهـدئة المـوقف فى اليمن :

عندما علم السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى بثورة القبائل اليمنية ضد الأتراك بزعامة الامام الزيدى المنصور بالله محمد بن يحيى ، رأى أن يتبع معهم الأسـلوب الدبلوماسى عله يصـل الى حل مرض للقضية اليمنية ٠ فكتب

(١) Harris, W. B. : Op. cit., p. 16.

(٢) Harris, W.B. : Ibid., p. 16-17.

السلطان الى الامام يدعوه الى الكف عن اراقة الدماء ، ويرهبه من قوة الجنود الأتراك الذين لا قبـل لليمنيين بقتالهم لشـدة بأسهم وحداثة أسلحتهم ، ثم يغريه بأنه سيقرر له راتبا شهريا وسيمنحه مرتبة عظيمة بين رجال الدولة (١) ٠

ويذكر الواسعى أن الامـام المنصـور أجاب على السلطان عبد الحميـد بما معناه : « ما خرجنا من صنعاء لطلب الملك والرياسة الا لنصرة شريعة جدنا والأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنع ظلم الرعية من المأمورين وارتكاب المحرمات وشرب الخمور وظهور الزنا والفجور وترك الحدود التى أمر الله بها من القصاص وقطع يد السارق وجلد الزانى والشارب ، وغير ذلك مما أبطلها القانون المخالف للشريعة المطهرة » ٠ ويضيف الواسـعى الى ذلك قوله بأن المنصـور ذكر فى نهاية الرسالة : « أنه قد تحتم الوجوب على الامـام بالقيام لظهور تلك المنكرات ، والتنفيذ للشريعة المطهرة ، واقامة الحدود ، وانصاف المظلوم من الظالم » ٠ ثم أخذ الامام المنصور يمتدح السلطان العثمانى لمحافظته على الاسلام والدفاع عن البلاد الاسلامية ، كما أوضح أساليب الحكم الظالمة التى يتبعها الموظفون الأتراك فى اليمن وسوء ادارتهم لشئون البلاد ، ثم ذكر أفضال الأئمة وما يجب أن يعاملوا به من تكريم ٠ كما أرفق الامام المنصور برسالته الى السلطان مضبطة وقع عليها مشايخ صنعاء وأعيانها أوضحوا فيها مظالم الترك وجرائم الفسق والفجور التى كانوا يرتكبونها فى اليمن (٢) ٠

ويبدو واضحا فى رسالة الامام المنصور الى السلطان العثمانى تمسكه بالمذهب الزيدى ، وبالأفكار الدينية التى كانت محور تفكير اليمنيين فى ذلك الوقت والوتر الحسـاس الذى يحـلو للامام أن يحركه ليكتسب قلوب عامة اليمنيين والزيديين منهم على وجه الخصوص ، ويكون لنفسه شعبية بينهم على حساب ثورتهم ضد الأتراك ٠ ولم يؤت خطاب السلطان الى الامام المنصـور بالنتيجة المرجوة ، غير أنه كان يمثل بداية مرحلة جديدة من مراحل العلاقات العثمانية اليمنية حاول فيها الأتراك أن يتصلوا بالامام الزيدى ويتفهموا مطالبه توطئة لعقـد صلح معه يؤدى الى تهـدئة الموقف واقرار الأمور فى الولاية الثـائرة ٠

على أن عمليات المقاومة اليمنية استمرت ضد الأتراك العثمانيين ، واتخذت أسلوب حرب العصابات ، كالتخريب ، وقطع المؤن ، وارهاب الجنود الأتراك بشتى الوسائل ٠ فقد حدث أن خرجت من الحـديدة قاصدة صنعاء قافلة عثمانية قوامها مائتا جمل تحمل كميات من الأرز والدقيق والأسلحة والملابس

---

(١) الواسعى : نفس المصدر ، ط ٢ ، ص ٢٧٧

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٧ ٠

العسكرية وغير ذلك من المؤن والامدادات اللازمة للأتراك في عاصمة الولاية ٠ فما أن وصلت هذه القافلة الى « حجرة ابن المهدى » شرقى مناخة بمسيرة أربع ساعات حتى هاجمها أهالى الحيمة اليمنيون ، فاستولوا عليها ونهبوا البريد وقطعوا أسلاك البرق ٠ وقد علم الأتراك فى صنعاء بما أحدثه أهل الحيمة بقافلة المؤن العثمانية ، فاتجهت قوة من الجنود العثمانيين لمعاقبتهم فقتلوا الكثيرين منهم ، وهدموا وأحرقوا احدى عشرة قرية يمنية (١) ٠

ولاحظ الوالى العثمانى المشير أحمد فيضى باشا أن معظم حركات المقاومة توجه ضد الأتراك من بلاد حاشد فى شمال صنعاء ، فقرر اخضاع هذه البلاد ، وأخذ يعد العدة لذلك ٠ وقد توجه الوالى الى مشارف بلاد حاشد حيث حاول استمالة القبائل اليمنية للحكم العثمانى ، فأرسل الى شيوخهم ورؤسائهم أموالا وهدايا لكل بقدر ما يليق بمكانته فى قومه ٠ غير أن قبائل بنى عبد تصدت للوالى العثمانى ونشب بين الطرفين قتال عنيف ، انتهى بهزيمة بنى عبد ، بينما نهب الأتراك أموالهم وخربوا ديارهم واستمر أحمد فيضى يشق طريقه عنوة محاربا القبائل حتى وصل الى « قفلة عذر » مقر الامام المنصور بالله محمد ابن يحيى حميد الدين فى بلاد حاشد ٠ ولكن الامام حرص على أن يفوت الفرصة على الوالى ، فقام بتهريب الأموال والأسلحة والذخائر التى كانت لديه ، وصعد مع عدد من أتباعه فوق أحد الجبال المرتفعة هناك ، فلم يتمكن الوالى من الوصول الى مراكز الثوار ، فاضطر أن يعود الى صنعاء بخفى حنين بعد أن تكبد الأتراك خسائر جسيمة فى الأموال والذخائر ، وسقط الكثيرون منهم قتلى بين ممرات الجبال اليمنية الشاهقة ٠

على أن حركات المقاومة لم توجه ضد الأتراك من بلاد حاشد فحسب ، بل ان قضاء « آنس » فى الجنوب الغربى من صنعاء بمسيرة يوم ونصف قد اجتاحته حركة تمرد ضد الأتراك بقيادة الشيخ على المقداد ٠ وعلى الرغم من أن هذا الشيخ كان فيما سبق عونا وناصرا للحكم العثمانى ٠ فان بعض القادة الأتراك كانوا يسعون لافساد العلاقات بين اليمنيين والعثمانيين حرصا على مصالحهم الشخصية ٠ وحدث أن استدعى أحد هؤلاء القادة الشيخ على المقداد ، ثم أمر الجنود الأتراك بربطه بعجلة مدفع تركى استهزاء به وتنكيلا ، حتى كسرت يده وأغمى عليه ٠ وعندما أفاق هذا الشيخ آل على نفسه أن يعمل بقية حياته على تخليص بلاده من الأتراك ومن حكمهم الجائر ، وعندما علمت حكومة الولاية بذلك أصدرت أوامرها باحراق بيته انتقاما منه وتنكيلا ٠

وقد ظل الشيخ على المقداد يحارب العثمانيين ويغزو مراكزهم ويطارد

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٧ ٠

ماموريهم وجنودهم فى قضاء آنس ومخاليفة ، وكان يعاونه فى ذلك طائفة من الرجال اليمنيين المعروفين بالشجاعة والبسالة والتضحية · لهذا لم ينعم الأتراك بالراحة فى قضاء آنس اذ كان الشيخ المقداد ورجاله يفاجئونهم حيثما كانوا ، فى مخلاف جبل الشرق ، وفى بنى خالد ، وفى بنى قشيب ، وفى ضوران ، وفى جبل عانز · وقد مضت أعوام عديدة بينما الحكومة التركية عاجزة عن القضاء عليه ، حتى أخذت تبطش مسعورة فأحرقت كل القرى اليمنية التى دخلها الشيخ على المقداد بعد نهب ما فيها حتى خربت فى البلاد ثلاثمائة قرية بعضها قرى اشتهرت بدراسة العلوم الدينية (١) ·

وفى الوقت الذى اتجه فيه الوالى العثمانى أحمد فيضى الى بلاد حاشد ، فقد وجه الى قضاء آنس الشيخ على البليلى أحد اليمنيين الموالين للأتراك على راس قوة عثمانية لاخماد حركة المقاومة هناك · وقد نشب قتال عنيف فى مخلاف « بنى قشيب » شرقى « سوق الجمعة » وأصيب الشيخ على البليلى هذا برصاصة فى رأسه فقتل فى الحال ، وحز الثوار رأسه وأرسلوها الى الامام المنصور بالله فى حاشد ، باعتباره خائنا للامامة ومعاونا للأتراك · واذا كان الشيخ البليلى قد عاون الدولة العثمانية فعلا حتى منحته لقب (باشا) فانه كان من جهة أخرى عضدا لأهل صنعاء ومساعدا لهم لدى الأتراك كما كان محبا للعلم وأهله ، ولهذا حزن على مقتله كثير من اليمنيين والأتراك على السواء وقد حل محله أخوه الشيخ محمد البليلى فعمل رئيسا للبلدية فى صنعاء والتزم بالجمرك « وبأرزاق الدولة » فجمع ثروة طائلة من وراء ذلك ، وقد عـرف بأفضاله الكثيرة وخيراته على أهالى بلده ·

وعندما عاد الوالى أحمد فيضى من بلاد حاشد دون أن يتمكن من السيطرة عليهـا فقد غضب أشد الغضب لمقتل الشيخ على البليلى فى آنس · وقد أمر فيضى باشا بتشييد عدد من الحصـون والقلاع فوق الجبـال المحيطة بصنعاء للدفاع عن المدينة أمام حركات المقاومة اليمنية التى لم يخمد أوارها ضد الادارة العثمانية فى ولاية اليمن ·

وجدير بالذكر أن الوالى أحمد فيضى باشا فى سنة ١٨٩٢ (١٣١٠ هـ) أمر باعتقال جماعة من العلماء والمشايخ بتهمة الاتصال بالامام المنصور أمثال يحيى الكبسى ، ومحمد بن حسن دلال ، وسعد الدين الزبيرى ، وغيرهم من آل الايريانى وآل الحرازى ، وبلغ عددهم خمسة وخمسين رجلا · وقد أرسل الوالى هؤلاء المعتقلين الى الحديدة ، ثم أمر بنفيهم الى جزيرة رودس · وكان أكبر جرم لدى الادارة العثمانية هو الاتصال بالامام الزيدى ، وقد اعتقل كثير

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ·

من اليمنيين لاتهامهم بتلك الجريمة التى كانت عقوبتها الحبس حتى الموت .

وتجدر الاشارة الى أن السلطان العثمانى عبد الحميد رأى أن يستطلع حقيقة الأوضاع فى اليمن ، فأرسل الى صنعاء فى سنة ١٨٩٢ (١٣١٠ هـ) أحد رجال الدولة العثمانية ويدعى « نامق بك » ليحاول التعرف على أسباب ثورة اليمنيين ضد الحكم العثمانى . وقد مكث نامق بك مدة فى صنعاء ، وعرض عليه كثير من اليمنيين شكواهم من ظلم الوالى والمأمورين الأتراك واستبدادهم مما كان سببا فى تدهور الأمور فى البلاد . غير أن شكواهم لم تزد الا الى زيادة ضغط الوالى أحمد فيضى على اليمنيين عامة بعد عودة نامق بك الى الاستانة(١).

وقد أعادت الدولة العثمانية محاولة استطلاع حقيقة الامور فى اليمن . وأرسلت فى نفس السنة ١٨٩٢ (١٣١٠ هـ) أربعة عشر رجلا للتفتيش على الوالى والمأمورين الأتراك . وقد مكث هؤلاء فترة فى اليمن كان الجدب والقحط أثناءها فى مدينة صنعاء وما حولها قد بلغ أشده ، ثم عادوا يحملون هذه الصورة الى عاصمة الدولة ، غير أنه لم يترتب على ذلك أى اجراء يذكر من قبل الدولة العثمانية (٢) .

وبالاضافة الى استبداد الأتراك فى معاملة اليمنيين فقد عانت البلاد من الجدب والقحط الذى كان نتيجة للحروب المستمرة والثورات الدائمة . هـذا فضلا عن وجود نظام الالتزام الذى كان سيفا فى يد الملتزمين مسلطا على رقاب أهالى اليمن . ومن بين الملتزمين الذين ذكرهم الواسعى فى تاريخه « الملتزم لرسوم التنباك ، ولا يكون بيعه الا على يده ، فشق على الناس ذلك . وحصل لهم الضيق لحشره واحتكاره فى يد المذكور ، ولا يبيع أحد التجار حتى يشترى منه ، واذا اشترى من غيره صادره وأخذ أموالا كثيرة . فكتب الناس شكية وأرسلوا بها الى السلطان عبد الحميد ، فرجع الجواب بتخليته ، فازداد هذا الملتزم عتوا ونفورا وشـدة وفجورا ، واستطال على المسلمين وفتح البيـوت للتفتيش ، وجعل له أعوانا على أبواب المدينة وكذا فى جميع اليمن » (٣) .

كذلك كانت أمور الأوقاف مهملة نتيجة لعدم وفاء القبائل بحاصلات أراضى الوقف . وقد استمرت حالة الأوقاف على ما هى عليه حتى تولى نظارة الوقف الداخلى السيد الجمالى على بن محمد المطاع ، وكان صديقا لمحمد هاشم ياور الوالى العثمانى أحمد فيضى باشا . وقد استطاع ابن محمد المطاع هـذا أن

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٨٠ .
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٨١ .
(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٢ .

يستفيد من صداقته للياور في ضبط شئون الأوقاف وحبس المتمردين والتنبيه على العمال بانجاز حسابات الأوقاف ، وقد مكنه كل ذلك من اعادة عمارة كثير من المساجد اليمنية وتجصيصها وتأثيثها ومن بينها الجامع الكبير في صنعاء ٠

ومن العوامل التي أثارت اليمنيين ضد الأتراك حرص الادارة العثمانية على صبغ اليمن بالصبغة التركية حتى أن الوالي أحمد فيضي باشا أصدر أوامره في سنة ١٨٩٥ (١٣١٣ هـ) بالزام جميع الموظفين العثمانيين في اليمن بلبس الزي التركي واستبدال العمائم بالطربوش (١) ٠ هذا بالاضافة الى أن الوالي أحمد فيضي باشا نفسه استحصل اعانة من أهالي صنعاء في نفس السنة مقدارها أربعة وعشرون ألف ريال كما تحصل منهم في العام التالي مباشرة اعانة مالية أخرى مقدارها سبعون ألف ريال على الرغم مما كانوا يعانونه من الشدة والضيق ٠ بل ان الأتراك بحثا وراء الثروة قاموا بتخريب « باب شعوب » و « باب السباخ » ، وأخرجوا من الجدار المحيط بالأبواب ألواحا من الرصاص والنحاس ، ذكر الواسعي أنها : « مكتوب فيها طلاسم وضعها الأولون » (٢) ٠ ولم أعثر على ما يشير الى أن الأتراك راعوا الأهمية التاريخية لهذه الألواح مما يبرئهم من تهمة تبديد معالم التراث الحضاري اليمني القديم ٠

وكان من بين المأمورين الأتراك من عملوا على ارهاب اليمنيين والاساءة اليهم ليملأوا قلوبهم بالرهبة والخوف من الادارة العثمانية ٠ وكان من أعنف هؤلاء مأمور يدعى «مرزاح» أخذ يحبس الكثيرين من اليمنيين وزعمائهم ٠ ويقوم باهانتهم وتعذيبهم دون تحقيق أو مراعاة لمكانتهم بين ذويهم ٠ وعندما كثرت مظالم المأمورين الأتراك وزاد استبدادهم فقد تصدت لرفع هذا الظلم والاستبداد جماعة خفية من اليمنيين قامت بدور المقاومة السرية ٠ وقد أخذت هذه الجماعة اليمنية السرية تقوم بوضع ألغام من البارود والمتفجرات حول بيوت المأمورين الأتراك الذين عرفوا بشدة الظلم والاستبداد ، وذلك لتدمير بيوتهم وازهاق أرواحهم ٠ وقد تهدم بيت في معبر على كل من فيه من الأتراك، وبيت آخر في الروضة في شارع السباعي ، بينما تهدمت جوانب من بيوت أخرى في مناطق متفرقة من العاصمة اليمنية (٣) ٠

ولا شك أن حركة المقاومة السرية التي قام بها اليمنيون أوقعت الرعب في قلوب الأتراك فأخذوا يبطشون باليمنيين ، ويحبسون أهالي المنطقة التي يحدث فيها التخريب ، ويسومونهم ألوان الاهانة والاساءة ٠ وقد وقع انفجار شديد في المحكمة الشرعية بصنعاء بينما كان فيها القاضي وأعضاء المحكمة

---

(١) الواسعي : المصدر نفسه . ط ٢ . ص ٢٨٤ ٠
(٢) الواسعي : المصدر السابق . ط ٢ ، ص ٢٨٤ ٠
(٣) الواسعي : المصدر السابق . ط ٢ . ص ٢٨٢ ٠

والكتاب وجماعة من المتخاصمين • وقد تصـدع مبنى المحكمة وفر جميع من فيه ناجين بأنفسهم • وقد أفزع هـذا الانفجار الوالى العثمانى وأعوانه من الموظفين الترك ، لأن مسكن الوالى ومساكن من فى دائرته كانت جزءا من دار الحكومة المتصلة بالمحكمة الشرعية • لهذا فقد أمر الوالى باعتقال جميع من كانوا فى المحكمة وقت حدوث الانفجار ، ومن بينهم أعضاء المحكمة ، وشهداء الحـكم ، والكتاب ، والمتخاصمون ، فيما عدا القاضى لأنه كان تركيا • وقد مكث هؤلاء جميعهم فى السجن مدة ثمانية أشهر قاسوا فيها الأمرين • غير أن ذلك لم يوقف حركة المقاومة فى البلاد ، اذ أتبع اليمنيون ذلك باحداث انفجار شديد آخر فى دائرة البرق والبريد العثمانى فى صنعاء (١) •

وتجدر الاشارة الى أنه قد تبودلت عدة مراسلات بين الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين وبين الوالى العثمانى أحمد فيضى باشا ، دافع فيها الامام عن مقدرة اليمن على حكم نفسه ، وأظهر استياء اليمنيين من ظلم موظفى الدولة وسوء ادارتهم لشئون البـلاد ، ومعاملتهم للشعب اليمنى بالشـدة والعنف • أما الوالى العثمانى فقد دافع عن حسن نية السلطان نحو اليمن ، وأكد أن الدولة العثمانية لا تضمر سوءا للبلاد اليمنية ولكنها تريد المحافظة على استقلالها وعدم وقوعها فريسة فى أيدى الدول الأوربية المستعمرة الواقفة للبلاد العربية بالمرصاد (٢) •

وقد أرسل الوالى أحمد فيضى باشا فى سنة ١٨٩٢ (١٣١٠ هـ) أحد علماء اليمن وهو عبد الله بن على الحضورى الى الامام المنصور ومعه رسالة يطالب فيها عقد الصلح بين الامام والدولة العثمانية • غير أن الامام تمسك بأن تترك الدولة العثمانية الحكم بالقـانون الوضعى وأن تقوم بالحكم وفقـا للشريعة الاسلامية ، ولهذا فان الطرفين لم يصلا الى اتفاق على الصلح لتمسك كل جانب منهما بمطالبه •

وفى سنة ١٨٩٦ (١٣١٤ هـ) وصل الى اليمن من الآستانة السيد محمد الرفاعى الحسنى ومعه رسالة من السلطان العثمانى الى الامام المنصور يحثه فيها على عقد الصلح • ويذكر الواسعى أنه لم يعثر على هذه الرسالة غير أن الامام المنصور يستعرض مضمونها وذلك فى الرسالة التى أجاب فيها على مبعوث السلطان التى نشرها الواسعى فى مؤلفه عن تاريخ اليمن (٣) •

وقد أوضح الامام فى رسالته ظلم الموظفين الأتراك للشعب اليمنى بقوله :

(١) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ •
(٢) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢١٠ ـ ٢١٧ •
(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٩ •

« رأينا المأمورين لم يؤدوا حقوق الله ، ولا راعوا ما حرمه الله ولا غضبوا يوما على معاصي الله ، ولم يعملوا بشيء من كتاب الله ولا سنة رسول الله · وشرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، وارتكبوا المعاصي ورموا اليها الناس بأطراف النواصي · وجاهروا الله بشرب الخمور ، وارتكاب الفجور ، وظلموا كل ضعيف، وأهانوا كل شريف » ·

ثم ذكر الامام المنصور أن الشكوى للسلطان العثماني لم تمنع عن اليمنيين ظلم الأتراك وتعسفهم قائلا : « ولم نزل نتوخى أن السلطنة القاهرة ، أعز الله بها الاسلام اذا ارتفعت اليها تلك القبايح التي لا يختلف في وقوعها اثنان ، أن تأخذها حمية الدين والايمان على تلافي ما فرط من الاضاعة فيما وجب من الشريعة ، وتستدرك ما فات من حق عترة رسول الله الذين لا نستحق بدون اتباعهم الشفاعة ، فلم يزدادوا مع طول المدة الا انسلاخا من الدين ، وتوسعا من تآمر الفجرة المعتدين » ·

ويعبر الامام المنصور في رسالته عن أمله في أن يعالج السلطان العثماني أزمة اليمن ، ويقترح أن يكون الحل جلاء الترك عن البلاد بقوله : « ولو يعلم السلطان الأعظم حقيقة الحال لسارع الى اعانتنا في الحال والمآل ورفع جميع المأمورين من الخطة اليمانية ، وأمرهم بحرب الفرقة الكفرية ، ولمنعهم من محاربة العترة النبوية التي هي بضعة من الذات الشريفة المحمدية » ·

ثم اختتم الامام المنصور رسالته موضحا أن الدولة العثمانية رفعت يدها عن كثير من الممالك الأوربية ، وكان أولى بها أن تترك اليمن لحكم الأئمة الزيديين أبناء النبي خاصة وأنها دولة الخلافة وحامية حمى الاسلام فقال : « وكان اللائق بحال أركان السلطان الأعظم أن يجعل القطعة اليمانية من جملة الممالك التي بأيدي الكفار ، وقد أضربوا عنها صفحا وطووا عنها كشحا ، وما سارعوا لغير الممالك الا باليمن التي بأيدي أولاد رسول الله صلى — الله عليه وسلم — يحكمون فيها بما أنزل الله ويمنعون محارم الله ، فهلا جعلوا آل الرسول كالكفار الذين تركوا لهم ممالكهم » (١) ·

غير أن هذه الرسائل المتبادلة لم تنته الى اتفاق ما حتى عزل الوالي أحمد فيضي باشا في سنة ١٨٩٧ (١٣١٥ هـ) وحل محله الوالي حسين حلمي باشا ، فاستبشر أهالي اليمن خيرا كثيرا بمقدمه · وقد وعدهم الوالي الجديد باقامة العدل والمحافظة على الأمن ، وأمر بعزل من أساء التصرف من الموظفين الأتراك ، وقام فعلا باصلاحات كثيرة · ونظرا لما كان يعانيه معظم أهالي اليمن من فقر نتيجة لتدهور الأحوال في الولاية ، فقد قدم حسين باشا لفقراء صنعاء معونات

---

(١) الواسعي : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٨٩ ·

مالية بلغت أربعة وعشرين ألفا من الريالات المجيدية ، كما فعل ذلك مع الفقراء اليمنيين فى عدد من مدن الولاية • وقد سارع أهالى صنعاء بتقديم شكاوى عديده للوالى حسين باشا ، بلغت ما يقرب من خمسمائة شكوى ضد محمد هاشم ياور الوالى السابق فيضى باشا لتعسفه فى معاملتهم وظلمه لهم • وقد أمر حسين باشا بحبس محمد هاشم هذا فى معسكر الأوردى غير أنه أحسن معاملته بأن جعل اقامته فى غرفة مريحة ، ولم يمنعه من مقابلة كل من شاء زيارته من الرجال والنساء ، وبعد مدة أمر بابعاده خارج اليمن مع غيره ممن أساءوا معاملة اليمنيين أمثال المأمور موزاح الذى أشرنا اليه فيما سبق (١) •

وقد عرف عن الوالى حسين حلمى باشا أنه كان محبا للعلم والعلماء ، ولهذا أسس فى اليمن ادارة للمعارف ، وبعض المكاتب ، ودارا للمعلمين ، ومكتبا للصنايع والاعدادية كما أصدر أوامره بأن يكون التعليم اجباريا لجميع اليمنيين . وكان يقرب اليه دائما علماء اليمن وفقهائه • ولا شك أن تشجيع العلم والعلماء فى عهد بعض ولاة الترك كان من مناقب الحكم العثمانى فى اليمن كما كان نواة طيبة لحركة تعليمية فى البلاد كان يجدر بالأئمة أن يعملوا على تنشيطها بعد زوال الحكم العثمانى •

أما من الناحية الادارية فان الوالى حسين حلمى باشا لم يكن مستبدا فى حكمه لليمن بل انه أوجد الى جواره هيئة من أهل العلم والسياسة يشاورهم فيما يمكن عمله لاصلاح أمور اليمن وأهله • وكان على رأس هذه الهيئة أكثرهم علما وأحسنهم رأيا وكان يدعى حسنى بك • ويذكر الواسعى أن حسنى بك هذا جمع من اليمن مكتبة نفيسة من الكتب المخطوطة ، كما استنسخ كثيرا من الكتب التى تعذر شراؤها رغم أنه كان يشترى الكتاب بأضعاف ثمنه (٢) • وعلى الرغم من أن رأى الهيئة التى أوجـدها حسين حلمى باشا الى جواره كان استشاريا محضا ولم يكن لرأيها صفة الالزام على الوالى ، فانها كانت بداية طيبة لاتباع أسلوب ديموقراطى فى حكم الولاية لم يطبقه الأئمة أنفسهم بعد جلاء الترك عن اليمن فى سنة ١٩١٨ •

وجدير بالذكر أن الوالى حسين حلمى باشا استصدر من الباب العالى أمرا بأن يلبس الموظفون المدنيون عربا كانوا أم أتراكا العمائم بدلا من الطربوش ، وقد فعل ذلك الوالى نفســه وهيئته الاستشارية المشار اليها تقربا من اليمنيين ومحاولة لكسب ودهم (٣) • وقد سبق الاشارة الى أن الوالى أحمد فيضى باشا

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٩٠ •
(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٩١ •
(٣) الواسعى : المصدر نفسه والصفحة •

كان قد ألزم موظفى الادارة فى اليمن بلبس الزى التركى واستبدال الطربوش بالعمـــائم ٠

ومن مناقب الوالى العثمـانى حســين حلمى باشا أنه لم يخش فى الحق لومة لائم غير أن ذلك عرضـه لغضب المأمورين والموظفين الأتراك فى اليمن ٠ فأضمروا له الشر وتمنوا الخلاص من حكمه ٠ وكان حسين باشا قد أصـدر أوامره فى سنة ١٨٩٨ م (١٣١٦ هـ) بمنع الرشوة ومعاقبة كل من تسول له نفسه قبولها ٠ بل انه اضطر الى فصل بعض المأمورين الأتراك من وظائفهم عندما لم يجد معهم التوجيه والنصح ٠ وكان من بين هؤلاء قائمقام طرده الوالى من وظيفته لقبوله الرشوة وعدم انصياعه للأوامر ، وقد أضمر هذا القائمقام للوالى شرا وصمم على الانتقام منه ٠ وبعد أن أطلق هذا القائمقام نيران مسدسه على الوالى أثناء ارتقائه سلالم باب مبنى الحكومة عقب وقت الظهيرة ٠ غير أن رميته لم تكن قاتلة ، بينما أحاط الجنود الأتراك بالقائمقام وأردوه قتيلا فى الحال ٠ وقد شفى الوالى حســين باشا بعد مدة من الجرح الذى أصابه أثنـاء محاولة اغتياله (١) ٠

وفى أثناء ولاية حسين حلمى باشا لليمن كان يتولى قيادة الجنود الأتراك فى الولاية المشير عبد الله باشا ٠ ولم يكن هذا المشير على وفاق دائم مع الوالى بل كان يحقد عليه ويعمل على أن يحل محله فى منصب الولاية فتكون له القيادتان المدنية والعسكرية على السواء ٠ وكانت الدولة العثمانية تتبع سياسة الفصل فى ولاياتها بين السلطتين المدنية والعسكرية حتى يظل ممثلو الدولة فى كل منها فى صراع مستمر مع الجانب الآخر ، مما لا يتيح لأحدهما فرصة تدعيم مركزه وبالتالى الاستقلال بالولاية عن سيادة الدولة ٠ ومن أمثلة هذا الصراع فى اليمن أن المشير عبد الله باشا جمع أربعمائة رجل وقرر ارسالهم الى طرابلس الغرب لتدعيم الحامية العثمانية فيها ، كما أراد أن ينفى المسجونين خارج اليمن ، غير أن الوالى حسين حلمى باشا لم يوافقه على ذلك ٠ فكتب المشير عبد الله باشا الى الباب العالى يطلب موافقته على رأيه ، فوردت اليه موافقة السلطان على مطلبه ٠ ولم ترض هذه الموافقة الوالى حسين باشا بطبيعة الحال ، فكتب هو الآخر الى السلطان ليحاول اقناعه بأن ارسال هذه القوة الى طرابلس الغرب من شأنه أن يضعف الحامية العثمانية فى اليمن فى الوقت الذى تحتاج فيه الى تدعيم وتقوية لمواجهة ما قد يفاجئها من ثورات القبائل ٠ كما أن الأمر بنفى المسجونين اليمنيين سيثير التذمر لدى أهالى البلاد مما يؤدى الى عدم اقرار الأمور فى الولاية ٠ غير أن السلطان لم يلق بالا لمطلب الوالى حسين باشا ووجهة نظرة واكتفى بتأييد مطلب المشير عبد الله باشا (٢) ٠

---

(١) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٩١ ٠
(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٩٢ ٠

وقد أوحى الهدوء النسبي الذى صاحب حكم الوالى حسين حلمى باشا الى الدولة العثمانية أن ترسل بعض رجالها لمحاولة الاتفاق على الصلح مع الامام المنصور ، وقد جرت مفاوضات بين الطرفين نتج عنها وضع شروط عامة للصلح أرسلت الى عاصمة السلطنة لعرضها على الوزارة العثمانية · غير أن الوزارة لم توافق على هذه الشروط وقررت عزل حسين حلمى باشا وعينت بدلا منه المشير عبد الله باشا واليا لليمن وقائدا للقوات العثمانية فيها · وقد أسف اليمنيون أشد الأسف لعزل الوالى حسين حلمى باشا وخاصة أهل العلم منهم ، وكان هذا الوالى من بين الولاة الأتراك القليلين الذين عملوا ما فى وسعهم لاصلاح أمور اليمن والعمل على تحسين أحواله ·

أما الوالى الجديد عبد الله باشـــا فقد كان مولعا بالعظمة والأبهة والتكبر والتجبر ، وكان يتقدم موكبه ثلة من الخيالة ، ويأمر الجنود الأتراك بمنع المارة من الطريق حين يخرج من بيته فى بئر العزب الى أن يصـــل الى مقر الحكومة · وقد أمـــر بتخصيص دوائر الحكومة العسكرية والمدنية مـــرة كل ثلاثة أشهر كما أمر بتنظيف الشوارع ورشها وكنسها كل يوم · وكان عبد الله باشا مولعا بالملاهى والموسيقى والطرب ، كما أنه كان نشيطا محبا للرفاهية على الرغم من بلوغه سن الشيخوخة (١) ·

ومن النواحى المظهرية التى اهتم بها الوالى عبد الله باشـــا اقامته نصبا تذكاريا للحكم العثمانى فى اليمن ، على هيئة عمود طويل فى رأسه هلال من نحاس مطلى بالذهب ، كمـــا أحاط بعض أحجار هـــذا العمود بنحاس مطلى بالذهب أيضا ، وكا نموقعه خارج صنعاء أمام باب اليمن · غير أن هذا النصب التذكارى هدم بعد عشر سنوات من تاريخ بنائه (٢) ·

كما اهتم عبد الله باشا غاية الاهتمام بمد أسلاك البرق بين عدد من المدن اليمنية الهامة ، كان أهمها الخط البرقى الممتد من العاصمة صنعاء جنوبا الى مدينة تعز · وعبد الله باشا كجندى كان يدرك عن كثب أهمية البرق فى ربط العاصمة اليمنية بأطراف الولاية وفائدة ذلك فى احكام السيطرة العثمـــانية على البـــلاد ·

غير أن اليمن لم ينعم بالاستقرار فى عهد الوالى عبـــد الله باشا اذ استشرى الظلم والفساد واشتد الجدب وارتفعت الأسعار ونشطت القبائل من جديد فى محاربة الأتراك ومحاولة التخلص من حكمهم ، وكان أهمها قبيلة الزرانيق فى

---

(١) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٩٢ ·
العرشى : المصدر السابق ، ص ٣٨ ·
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٩٣ ·

تهامة التي قطعت أسلاك البرق ونهبت قوافل التجارة ونشبت معارك عنيفة بين رجالها وبين الأتراك ، وقد عجزت الحكومة التركية في الولاية عن اخضاع تلك القبيلة ، التي لم تكن تسكن بيوتا مبنية حتى يقصدها الجنود ويخضعونها، بل كانت تعيش في القفار في عشش مبنية من القش • وقد عرف رجال هذه القبيلة بشدة البأس وقوة التحمل فكانوا يصطادون الغزلان عدوا في صحراء تهامة الشديدة الحرارة (١) •

ونظـرا لأن عبد الله باشـا لم يتمكن من حماية حدود عدن من عدوان الانجليز الذين كان مخططهم التوسع في جنـوب اليمن حيث سيطروا على ناحية « الضالع » في سنة ١٩٠٢ م (١٣٢٠ هـ) • كما أن هذا الوالي لم يستنكر عدوانهم على المنطقة مما أغضب الباب العالي عليه فأمر بعزله وعين خلفـا له توفيق باشا واليا على اليمن (٢) • وقد استمرت أحوال اليمن على ما هي عليه من فوضى واضطراب حتى توفى الامام المنصور « بقفلة عذر » في سنة ٩١٠٤ م (١٣٢٢ هـ) (٣) •

وهكذا أوضحنا بهذا العرض صورة عامة لحالة اليمن في أثناء خضوعها للحـكم العثماني في الوقت الذي كانت تتبع فيه الدولة العثمـانية السياسة المركزية في حـكم الولايات التابعة لها قبيل العهد الدستوري العثماني • وقد نتج عن هذه السياسة في اليمن قيام الثورات والاضطرابات التي تمركزت حول العاصمة اليمنية ، والتي كان الأتراك يحاولون اخمادها بأساليب القمع المختلفة • وقد رأينا أن مفاوضات الصلح حتى نهاية عهد الامام المنصور ممثل أكبر قوة سياسية في اليمن حتى مطلع سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ) والتي دارت بينه وبين ممثلي الدولة العثمانية عن طريق الرسائل أو الاتصال المباشر ، لم تصل الى اتفاق يرضى الطرفين مما ترتب عليه تجدد الثورات وزيادة حـدة الاضطرابات ، وقد سقط في أثنائها صرعى كثيرون من العثمانيين واليمنيين على السواء (٤) •

ثورة اليمنيين ضد الحكم العثماني في سنة ١٩٠٤ :

عقب وفاة الامام المنصـور بالله محمـد بن يحيى حميد الدين في سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ) ظفر ابنه يحيى بالامامة الزيدية في اليمن (٥) • وكان

---

(١) الواسعي : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٢٩٣ •
(٢) العرشي : المصدر السابق ، ص ٨٢ – ٨٤ •
(٣) الجرافي : المصدر السابق ، ص ٢١٤ •
(٤) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 75.
(٥) أمين الريحاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤٧ •

يحيى يبلغ من العمر حينذاك خمسة وثلاثين عاما ، اذ ولد فى شهر يونية سنة ١٨٦٩ (ربيع الأول سنة ١٢٨٦ هـ) (١) وان ذهب آخرون الى أنه ولد فى سنة ١٨٧٦ (٢) . وقد قضى يحيى هذه المدة من حياته مشاركا لوالده الراحل فى أثناء كفاحه ، **أولا :** للمحافظة على امامته للزيديين ، **وثانيا :** فى مراحل صراعه ضد الأتراك العثمانيين . وقد اكتسب يحيى خلال هذه الفترة من حياته خبرة بحقيقة الأوضاع السائدة فى اليمن ، كما نال شعبية بين الزيديين مكنته من الحصول على مبايعة من كان منهم فى قفلة عذر حيث كان مقر والده المنصور. وفى غيرها من البلدان المجاورة كذمار ، وصعدة ، وحوث (٣) .

وقد لاقى الامام يحيى ، كغيره من الأئمة ، الكثير من الصعاب والمضايقات التى أثارها أمامه المنافسون الطامعون فى الامامة الزيدية مما اضطره الى مواجهتهم تارة بالسياسة والحكمة وتارة أخرى بالقوة ، ويفسر هذا أسباب الحروب الكثيرة التى سجلها التاريخ اليمنى للامام يحيى والتى خاضها فى هضاب اليمن وسهولها ، بل أن ضعف قوة الامام يحيى من جهة وضعف سيطرة العثمانيين على أجزاء من اليمن المختلفة من جهة أخرى ، كان يتيح الفرصة لشيوخ القبائل ورؤساء القرى أن يعتبروا أنفسهم أحق بالزعامة ، وأولى بطاعة أهالى البلاد ، وأجدر استحقاقا لجباية الضرائب وجمع الزكاة من الأئمة الزيديين أو المأمورين الأتراك على السواء . وقد كانت هناك أسرة أخرى فى اليمن تنافس أسرة الامام يحيى على الامامة هى أسرة شرف الدين التى كانت تعتمد على اثارتها لبعض القبائل الشافعية (٤) .

وقد كانت مبايعة الامام يحيى فى قفلة عذر فى سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ) بداية مرحلة جديدة للعلاقات العثمانية اليمنية بدأت بصراع دام عندما كانت الدولة متمسكة بسياستها المركزية فى حكم الولايات التابعة لها ، ثم أعقبه صلح ومهادنة مع الامام فى أثناء العهد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩١١ م وانتهت هذه المرحلة بتصفية الحكم العثمانى فى اليمن وجلاء العثمانيين النهائى عنها فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ .

فطبيعة العلاقات بين العثمانيين واليمنيين لم تتغير بتولى الامام يحيى الامامة الزيدية فى اليمن فى سنة ١٩٠٤ م (١٣٢٢ هـ) ، بل ظلت هذه العلاقات على ما هى عليه نتيجة لأن الامام يحيى انتهج السياسة نفسها التى اتبعها والده الامام المنصور بالله محمد بن يحيى ومن سبقه من الأئمة . وقد كانت

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ٩٦ .

(٢) Brémond, E. : Yémen et Saoudia, p. 71.

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ١٩٥ ــ ١٩٦ .

(٤) Brémond, E. : Yémen et Saoudia, p. 71.

هذه السياسة تقوم على معاداة العثمانيين والجهاد ضدهم لاجبارهم على الاعتراف بالوضع الخاص للائمة فى البلاد ، وحقهم فى الاستقلال بادارة شئونها فى اطار من التبعية لسيادة الدولة العثمانية ، وهو الأمر الذى حاول الأئمة دائما أن يتمسكوا به ويحصلوا عليه أثناء مراسلاتهم أو مفاوضاتهم مع ممثلى الدولة العثمانية · لهذا فان الامام يحيى عقب اعلان مبايعته «أسرع باشهار الجهاد ضد الأتراك ودعا قومه الى مواصلة الحرب للتنكيل بالترك ، الذين سعوا فى الأرض بالفساد وتركوا الشرائع وظلموا العباد» كما جاء فى منشور اذاعة الامام يحيى فى ذلك الوقت (١) · كما ذكر الكاتب الايطالى سلفانور أبونتى أن «أول عمل قام به (الامام يحيى) هو أنه أعلن الحرب على الأتراك وهاجمهم بعساكره» (٢) ·

فتاريخ اليمن فى الفترة التى أعقبت عودة الأتراك العثمانيين اليها فى سنة ١٨٧٢ والتى شهدت عهد الامام المنصور بالله محمد بن يحيى ، وعهد ابنه الامام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ، التى اختتمت بعقد الصلح بين الأخير والدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ ، كان مليئا بالحروب المستمرة بين اليمنيين والأتراك · وهذا ما جعل ويفل «Wavell» فى مقدمة مؤلفها الذى استعرضت فيه أحداث ثورة اليمنيين ضد الأتراك فى سنة ١٩١١ تقول عن هذه الفترة : « وحتى العشرين سنة الأخير (السابقة لسنة ١٩١١) بينما كان العرب والترك يتنازعون حول تقرير المصير ، كان تاريخ اليمن تاريخ الحديد والنار ، فهو تسجيل للمعارك والحصار ، مدافع تؤخذ عنوة ، وحاميات تخضع نتيجة لانتشار المجاعات ، ومذابح وحشية وانتقاما قاسيا » (٣) ·

وقد بدأ الامام يحيى بعد توليه الامامة فى تنفيذ سياسة مقاومة الأتراك وصمم على محاصرتهم فى صنعاء عاصمة الولاية ، فتوجه اليها على رأس عشرين ألف يمنى من بينهم الزيدى والشافعى على السواء » (٤) ، ونجح فى فرض الحصار عليها · ثم بدأت المدن اليمنية تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى يد الامام وأتباعه كمدينة « عمران » و « حجة » و « ثلا » وغيرها · كما انتقل الامام من « قفلة عذر » الى « حـــوث) و « خمر » و « عمران » حتى وصـــل الى « كوكبان » الواقعة فى شمال غرب صنعاء ·

وعلى الرغم من الامدادات الكثيرة التى وردت للأتراك من مختلف مراكزهم فى اليمن ، فانهم لم يستطيعوا أن يرفعوا عن أنفسهم فى صنعاء قيد الحصار · بل ان القوة العثمانية التى وصلت الى الحديدة بقيادة رضا باشا ، والتى انضم

---

(١) أمين سعيد : اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى ، ص ٢٧
(٢) سلفاتور أبونتى : المصدر السابق ، ص ٥٥ ·
(٣) Wavell, A.J.B. : A Modern Pilgrim in Mecca, p. V.
(٤) Brémond, E. : Op. cit., p. 72.

اليها عدد كبير من رجال قبائل يام اليمنية الطامعين فى السلب والنهب . فانها فى أثناء توجهها الى صنعاء تعرضت لهجوم أتباع الامام فى « الحمية » و « بلاد البستان » ، الذين نهبوا كل ما كان مع الأتراك من مؤونة وسلاح . أما رجال قبائل يام المصاحبون للأتراك فقد استسلموا لأتباع الامام وسيقوا الى « كوكبان » حيث أمر الامام بنزع سلاحهم ابقاء على أرواحهم . وقد وصلت فلول القوات التركية الى صنعاء فى حالة يرثى لها مما زاد الأحوال سوءا فى المدينة أكثر مما كانت عليه قبل مجيئهم (١) .

وقد عرض الواسعى فى تاريخه صورة واضحة المعالم لمدينة صنعاء عاصمة الولاية العثمانية فى أثناء الحصار الذى فرضه الامام يحيى وأتباعه عليها فى سنة ١٩٠٤ م فقال :

« تجمعت القبائل على صنعاء وتكاثرت ، وضاقت على أهلها بما رحبت ، واشتد الحصار ، وخرج الناس الصغار والكبار والنساء المخدرات ، وقاسوا عظيم الأهوال ، وباعوا جميع الأموال والأمتعة والفراش ، وكان الثمن فى غاية الرخص لعدم المشترى ، حتى أن بعضهم يؤجر الحامل الى السوق ويعجز عن أجرته ثم لا يجد مشتريا ثم يأخذ الحامل نصف ما حمل ، والجوع عم اليمن بسبب الفتن ، وبالمحاصرات ترك الزراع الزراعة ، وخلت من اليمن قرى كثيرة مات أهلها من الجوع ، وفى (خولان) كانوا يأكلون التبن بعد طحنه . ومات فى قرية (القابل) خارج صنعاء ١٦ مائة (يقصد ١٦٠٠ نسمة) غير الذين ماتوا فى سائر القرى حول صنعاء . ووجد فى وادى (سهام) على قارعة الطريق موتى ٥١ نفسا . وفى داخل صنعاء أمر المفتى (٢) البوليس وطائفة من الجند أن يهجموا بيوت التجار ، والأعيـان من أهل صنعاء ومن كان منظورا اليه باليسار ، ويأخذوا ما لديهم من الحبوب لأجل عساكر الدولة وأخذ كل شيء يؤكل » (٣) ، كما ذكر أمين الريحانى أن حصار صنعاء فى سنة ٩١٠٤ م : « استمر ستة أشهر فأكل أهل المدينة أثناء الحصار لحم البغال والحمير وكذلك الفيران ، وكان عدد الأتراك الذين سلموا وفيهم الأهالى لا يقل كما قيل لنا عن ستين ألفا . ولكنهم أعادوا بعد ذلك الكرة على صنعاء فتقهقر الامام وجنوده الى « شهارة » فتبعهم العدو الى تلك المضايق الهائلة وخسر هناك كل شيء . تلك هى وقعة شهارة المشهورة ولم يكن مع الامام غير ثلاثة آلاف مقاتل غلبوا ألفا من الأتراك وقد حاربوهم بالصخور أيضا يدحرجونها عليهم . وأهـل اليمن يحسبون النصر فى تلك الرقعة أعجوبة ، بل كرامة من كرامات الامام » (٤) .

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٩ .

(٢) كان هذا المفتى معروفا بميوله نحو الترك ومعاداته للامام .

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٤) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١٣ .

وازاء وطأة الحصار الشديدة حول مدينة صنعاء ، وعدم وصول امدادات ذات أثر فعال ، فان عددا غير قليل من الأتراك ومثلهم من كبار أهالى صنعاء اقتنعوا بضرورة التسليم حفاظا على أرواح سكان المدينة وعلى الحامية العثمانية فيها من الفناء • وقد توجه بعض هؤلاء لمقابلة الامام يحيى فى كوكبان للاتفاق على عقد الهدنة وعلى شروط تسليم المدينة • فارسل الامام اليهم سيف الاسلام أحمد بن قاسم الدين للاتفاق معهم بينما انتقل هو الى قرية « القابل » الواقعة فى الشمال الغربى من صنعاء • وقد تم الاتفاق على خروج الأتراك من صنعاء الى « حراز » على أن يتركوا للامام يحيى أموال الحكومة وأسلحتها ، وعلى أن يقوم الامام فى مقابل ذلك بنقل أمتعتهم وتأمين طريقهم (١) •

وهكذا استطاع الامام يحيى أن يدخل صنعاء فى ٢١ أبريل سنة ١٩٠٥ م (٢) • كما أعلنت كثير من البلدان اليمنية اعترافها وطاعتها لامامته • بينما لم يبق بأيدى الأتراك سوى مدينتى تعز و اب وبلاد حراز والتهائم وقفلة شمر وذلك وفقا لشروط الهدنة المؤقتة التى تم الاتفاق عليها بين العثمانيين والامام يحيى • وعندما علمت الدولة العثمانية باضطراب الأحوال فى ولاية اليمن نتيجة لحركة التمرد التى صاحبت قيام الامام الجديد يحيى عقب وفاة والده الامام المنصور فى سنة ١٩٠٤ فقد رأت أن تقمع ثورة القبائل اليمنية ، وتمرد الامام الزيدى بأسرع ما يمكن حتى لا تتفاقم الأمور وتزداد الى اخراج الأتراك العثمانيين من اليمن ، فيؤثر ذلك بطبيعة الحال أسوأ التأثير على مركزها فى الولايات العربية الأخرى • وقد رأى رجال الدولة أن خير من يقوم بهذا الدور هو أحمد فهمى باشا الذى سبق له أن تولى أمور الولاية مرتين، فكان خبيرا بشئونها وعلى دراية عميقة بحقيقة الأوضاع فيها ، الى جانب ماعرف عنه من شدة وحزم ومقدرة وخبرة بالشئون العسكرية •

وقد أصدر الباب العالى أوامره لفيضى باشا الذى كان حينذاك مقيما فى شمال نجد ، بسرعة التوجه الى اليمن لاقرار الأمور فى الولاية الثائرة وتولى ادارتها بما يحفظ بقاءها فى يد الدولة العثمانية • ورغم بلوغ فيضى باشا العقد الثامن من عمره ، فقد توجه ممتطيا جواده ومتحملا مشقات السفر واختراق الصحراء القاحلة على رأس قواته العثمانية حتى وصل الى جدة ، وتوجه منها الى الحديدة التى دخلها فى ٧ يونية سنة ١٩٠٥م • هذا فى الوقت الذى كان الوضع فيه قد جمد مؤقتا داخل اليمن بين الامام يحيى وبين العثمانيين فى المراكز التى سيطر كل منهم عليها والتى عرضناها فيما سبق • وبعد وصول امدادات كبيرة لفيضى باشا فى الحديدة ، فقد توجه منها الى

---

(١) العرشى : المصدر السابق ، ص ٨٦ •

(٢) Brémond, E. : Op. cit., p. 72.

«مناخة» حيث انضمت اليه باقى القوات العثمانية فى الولاية وخاصة ماكان منها فى «حراز» ٠ وقد واصل فيضى باشا زحفه تجاه صنعاء ، مخضعا القبـائل اليمنية التى تصدت له ،حتى وصل الى جبل «عصر» المقابل لمدينة صنعاء ٠

وقد أسقط فى يد الامام يحيى عندما علم بوصول قوات عثمانية هائلة مزودة بأسلحة حديثة ويقودها فيضى باشا الذى عرف عنه قوة الشكيمة والخبرة الواسعة بشئون الحرب ٠ فرأى الامام يحيى من الحكمة ألا يترك نفسه فى مواجهة هذا العدو الجبار الذى قد يضع حدا لكل آماله وطموحه ، خاصة وأن القبائل اليمنية التى يعتمد عليها الامام لم تكن تملك من الأسلحة والتنظيم ما يؤكد له النصر على قوات الدولة ٠ ولهذا قرر الامام يحيى الانسحاب بقواته من صنعاء والالتجاء الى بلاد حاشد فى الجبال الشمالية ، مدعيا أن خوفه على أهالى صنعاء هو الذى حتم عليه اتخاذ هذا الموقف ٠ ولا شك أن الامام يحيى كان يحاول تبرير انسحابه أمام اليمنيين متخذا من ادعاء الخوف على أهالى صنعاء ذريعة لموقفه ، بينما لو كان يثق فى مقدرة أتباعه على مقاومة الأتراك لصمد أمامهم وما ترك عاصمة بلده تقع فى أيديهم بينما يلوذ هو وأتباعه بالفرار فى جبال اليمن العالية ٠ وهكذا دخل فيضى باشا مدينة صنعاء على رأس قواته العثمانية دون أن تواجهه مقاومة تستحق الذكر فى أوائل سبتمبر ١٩٠٥ م (١)٠

غير أن الأمور لم تستقر فى ولاية اليمن العثمانية بدخول فيضى باشا مدينة صنعاء ، اذ كان أمامه مهمة صعبة لاقرار الأمور فى الولاية الثائرة ٠ فبينما كان الامام يحيى يحرض الزيديين فى الهضبة الشمالية على محاربة الأتراك ويتطلع فى شوق الى اعادة فرض سيطرته على صنعاء ، فان القبائل اليمنية فى شتى أرجاء الولاية كانت تناوىء العثمانيين وتسعى بشتى وسائل العنف والتخريب وحرب العصابات الى التخلص من الحكم التركى فى بلادهم ٠ لهذا رأى فيضى باشـا ضرورة القيام بعدة عمليات حربية بهدف القضاء على التمرد ، وايجاد حالة من الأمن والاستقرار لتدعيم الحكم العثمانى فى اليمن ٠

وقد خرج فيضى باشا من صنعاء متجها الى الهضبة الشمالية على رأس قوة حربية عثمانية مزودة بأحدث الأسلحة يحاول اخضاع القبائل اليمنية المتمردة للحكم العثمانى ، غير أن القبائل اليمنية كانت تنسحب باستمرار من مواقعها أمام تقدم القوات العثمانية ، فيواصل فيضى باشا تتبعهم بغيـة النيل منهم مما جعله يخوض برجاله بين جبال اليمن الشاهقة الوعرة ذات المسالك المجهولة٠ وكانت القبائل اليمنية تهدف من انسحابها المتواصل الى ابعاد العثمانيين عن مراكز تموينهم فى صنعاء وفى مدن الساحل وتضليلهم فى مرتفعات اليمن التى ينفرد اليمنيون بمعرفة ممراتها ، الى جانب انهاك قوى الأتراك فى قطع المسافات

---

(١) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٢٠ ٠

الشاسعة وتسلق المنحدرات الجبلية الوعرة . وقد أنهكت بالفعل قوة الجنود الأتراك ، ونال منهم الاعياء والمرض كل منال ، ونفدت منهم المؤن وانقطعت الامدادات ، حتى انهارت معنويات الجنود واضطر فيضى باشا أن يقرر العودة الى صنعاء دون أن يحقق أهدافه ، وكان قد وصل الى « عمران » بعد أن منى جيشه بخسائر فادحة أفقدته نصف القوات التى خرج على رأسها فى بداية الحملة . وقد بذل فيضى باشا وجنوده جهودا مضنية فى أثناء عودتهم الى صنعاء ، وكانت القبائل اليمنية قد حاصرت الحامية التركية فيها من جديد ، فتمكن فيضى باشا من دخول المدينة بعد تفريق القبائل المحاصرة لها (١) .

واذا كان فيضى باشا لم ينجح فى القضاء على تمرد الامام يحيى والقبائل اليمنية فى الهضبة الشمالية ، فانه قد تمكن من الاستيلاء فيما بعد على عدد من المدن التى كانت خاضعة لسيطرة الامام وأهمها « شبام » ، « كوكبان » و « عمران » و « حجة » ، ولكنه فشل فى السيطرة على بلاد « شهارة » (٢) .

وجدير بالذكر أن فيضى باشا لم يواجه تمردا من القبائل اليمنية فحسب بل انه واجه أيضا تمردا آخر من بعض ضباط جيشه ، مما أحدث انقساما داخليا فى صفوفه أدى الى اضعافه عن مواجهة الثورات اليمنية بكامل قوته . فقد تمرد بعض الضباط العثمانيين فى دائرة البرق والبريد بمدينة صنعاء فى سنة ١٩٠٦ م وطلبوا من الوالى تسليمهم معاشاتهم وترحيلهم الى بلادهم بعد أن هددوه باحداث فتنة اذا لم يلب مطالبهم . غير أن الوالى أصدر أوامره لقوة عثمانية بمحاصرة دائرة البرق والبريد من جميع الجهات ومنع المارة من عبور الطرق المؤدية اليها .

وفى نفس الوقت وصل الى صنعاء جنود آخرون من العثمانيين عادوا اليها من « عمران » وطلبوا الترخيص لهم بالعودة الى بلادهم . وكان معظمهم من عرب الشام الذين جندوا رديفا لفترة محدودة انقضى أجلها . وقد عسكر هؤلاء الجند عند مسجد « فروة بن مسيك » فى الشمال الشرقى من صنعاء ونهبوا بيوت الأهالى اليمنيين فى المنطقة عندما امتنع الوالى عن اجابة مطالبهم .

كما طالبت ثلاثة طوابير أخرى من الجنود العثمانيين بالمطالب نفسها التى تلخصت فى صرف معاشهم وترحيلهم الى بلادهم . واقتحم هؤلاء الجند الجامع الكبير بصنعاء ، وأخرجوا من فيه عن آخرهم حتى طلاب العلم والمشايخ ، وأغلقوا تسعة من أبوابه بينما أقاموا حراسة مشددة عليها جميعا وعلى الباب العاشر الذى

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. III.

(٢) الجرافى :المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

أبقوه مفتوحا وكذلك على قارعة الطرق المحيطة بالجامع • وقد مكث هؤلاء الجند في الجامع الكبير مدة نصف شهر ، حتى اضطر الوالى الى اجابة مطالبهم وترحيلهم الى بلادهم • كما حدث ذلك أيضا مع زملائهم من الجنود « الرديفة » في الحديدة الذين انقضت مدة خدمتهم وأرادوا العودة الى بلادهم (١) •

ولا شك أن تمرد بعض الضباط في صفوف الجيش العثماني في اليمن بسبب تأخر صرف مرتباتهم ورغبة الجند الرديف العرب والأتراك على السواء في العودة الى بلادهم بمجرد انقضاء مدة تجنيدهم ، قد أوجد دون شك تخلخلا في صفوف الجيش العثماني في اليمن أضعفه عن مواجهة الثورات المستمرة التي قام بها الشعب اليمني ضد الحكم العثماني • ولا شك أن هذا الموقف قد جعل الأتراك يفكرون من جديد في مفاوضة الامام الزيدي ومحاولة الوصول الى حل مرض يحفظ للدولة العثمانية ماء وجهها ، ولا يؤثر على مركزها في الولايات العربية الأخرى ، كما يضع حدا للثورات اليمنية المتتالية ، ويهيىء لولاية اليمن العثمانية الأمن والاستقرار •

المرحلة الثانية من مفاوضات الصلح بين العثمانيين واليمنيين ومعالم السـياسة العثمـانية التي اتبعت لحل أزمة اليمن :

لا شك أن قضية اليمن قد شغلت الدولة العثمانية في مطلع القرن العشرين عن كثير من القضايا الكبيرة التي كانت تهتم بها ، كما أن العمليات الحربية التي قامت بهـا القوات العثمانية بصفة مستمرة في سهول اليمن وفوق جبالها الشاهقة قد كلفت الدولة العثمانية الكثير من الرجال والمال • وكانت الدولة تهدف الى ايجاد حل لهذه المشكلة المعضلة خاصة بعد أن أثبت أسلوب القوة الحربي فشله الذريع في اقرار الأمور في ولاية اليمن الثائرة • وكانت الدولة العثمانية تخشى أن تعترف للامام الزيدي بشيء من النفوذ في بلاده لأنها كانت تتوقع أنه سوف يستغل هذا النفوذ تدريجيا ليتمكن في نهاية الأمر من تثبيت أقدامه وتدعيم سلطانه فينقلب على الدولة ويستقل ببلاده عن سيادتها • هذا في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية تتبع فيه أسلوب السياسة المركزية في حكم الولايات التابعة لها وتتمسك بتنفيذه بكل صرامة حرصا على بقاء امبراطوريتها• وقد بلغ حرص الدولة الى درجة الشك في أتباعها وموظفيها مما جعلها تضع النظم الخاصة بفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية في ولاياتها حتى لا يؤدي وجود السلطتين في يد واحدة الى التفكير في الاستقلال والانفصال عن سيادتها على النحو الذي أوضحناه فيما سبق •

(١) الواسعي : المصدر السابق ، ط ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ •

وقد رأت الدولة العثمانية أن تقوم بتجـربة المفاوضات مع الامام يحيى بدرجة أكثر فعالية عما سبق أن دار بينها وبين والده الامام المنصور الراحل من مراسلات ومفاوضات . وكانت الدولة تهدف بذلك الى ايجاد حل لنقضية اليمنية يضمن لها تحقيق مصالحها وتوفير ما تبذله بصفة مستمرة من جهـــد ورجال ومال فى قمع الثورات واخماد الاضطرابات منذ عودة قواتها الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ . لهذا أرسلت الحكومة العثمانية وفدا الى الامام يحيى لمفاوضته فى شروط الصلح .

وقد رحب الامام يحيى بطبيعة الحال بمبدأ المفاوضة من أجل الاتفاق على شروط الصلح ، لأنه اذا كان قد انتفع بالحـرب التى شنها ضد الأتراك فى اجتـذاب القبائل اليمنية اليه واكتســاب شعبية وتأييد لشخصــه على حساب زعامته لتمرد هذه القبائل وثورتها ضد الأتراك ، فانه كان لا يرغب فى استمرار هذه الحرب حتى لا يتعرض لنقمـة الدولة العثمانية وانتقامها اذا تخلت عنه القبائل اليمنيــة يوما لسبب من الأسباب . كما كان يسعد الامـام كثيرا أن يكتسب عن طريق هـذه المفاوضات مع الدولة العثمانية اعترافا منهـا بكيانه كزعيم دينى فى شعبه الى جانب منحه قدرا معينا من السلطة الزمنية بين أتباعه، ولا مانع لديه بعد ذلك من أن تخضع البلاد للسيادة العثمانية فهذا سوف يحمل الدولة مسئولية الدفاع عن اليمن ضد أى عدوان أجنبى قد لا تستطيع قوته الامامية المحـدودة أن تتصدى له **لهـذا كله قدم الامام الشروط التالية للوفد العثمانى الذى جاء الى اليمن للاتفاق على الصلح وبداها بما يلى :**

« وافقت مستمدا بعون الله على شرط الصلح ما بينى وبين مأمور سلطان الاسلام الذى أدعوا الله أن يؤيد ملكه لاطفاء نار الحرب الموقدة ، وأن تستبدل الفوضى والعداوة بالصداقة ، لتسلم البلاد من القلاقل وتحقن الدماء ، وتزول المحن من هذه البقعـة ، ويستتب الأمن ويربط المؤمنـون برباط الاخاء التى لا انفصام لها ، **ويرتفع الظلم من بينهم :**

١ – أن تطبق الأحكام وفقا للشريعة الاسلامية الغراء .

٢ – أن يعود الى الامام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم .

٣ – أن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالامام .

٤ – أن تخصص رواتب كافية للحكام والموظفين كى لا تدفعهم قلة ذات اليد الى الارتشاء .

٥ – أن تحال الأوقاف الى عهدة الامام لاحياء المعارف فى البلاد .

٦ – اقامة الحدود الشرعية على مرتكبى الجرائم من المسلمين والاسرائيليين

كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله وهي التي أبطلها المأمورون الترك كأنما لم تكن شيئا مذكورا ·

٧ _ يؤخذ العشر من المزروعات التي تسقى بماء السماء ، وأما التي تسقى بمياه الآبار فيؤخذ منها نصف العشر بعد أن يقدر ذلك أرباب الخبرة · واذا حصل خلاف يرجع الى الأصول التي وضعها عبد الله بن رواحة في « الخرص » ويؤخذ عن البقر والغنم والابل النصاب الشرعي · وأما الأراضي التي تغل مرتين أو ثلاثا فيؤخذ عنها نصف العشر أو ربعه ورفع ما سوى ذلك من التكاليف ·

٨ _ جباية الأموال المار ذكرها تكون بوساطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأموري الدولة ، واذا تجاسر أحد على أخذ زيادة عن التكاليف المار ذكرها فعزله أو تحديد الجزاء له راجع الى الامام _ ولا يكون للامام علاقة بقبض الأموال الأميرية ·

٩ _ تعفى عشائر حاشد وخولان والحدا وأرحب من التكاليف ·

١٠ _ يسلم كل من الفريقين المتعاقدين الخائنين الذين يلتجئون اليه ·

١١ _ اعلان العفو العام في البلاد كي لا يسأل أحد عن ماضيه ·

١٢ _ ألا يولى أحد من أهل الكتاب على المسلمين ·

١٣ _ أن تشمل أحكام هذه المواد المار ذكرها صنعاء وتعز وملحقاتها ·

١٤ _ ألا تتدخل الحكومة في شئون « آنس » ولا تعارض الامام في تعيين المأمورين لهذا القضاء لفقر سكانه وقلة حاصلاتهم ، ولما يخشى من وقوع محظور في مخالفة مأموري الحكومة لهم ·

١٥ _ أن تكون المحافظة على هذه البلاد من تعديات الدولة الأجنبية راجعة للدولة العلية » ·

ثم يختتم الامام يحيى شروطه هذه لعقد الصلح بين الدولة باظهار مميزات الصلح في اقرار الأمور في اليمن قائلا : « ان تنفيذ هذه الشروط في البلاد اليمنية يكون سببا لسلامة الأفراد البشرية وترقي البلاد واحياتها ، فيظهر الأمر بأبهى مظاهره ويحصل منه خير كثير · ولا يخفى أن البعض يستفيدون من كثرة سوق العساكر الى البلاد اليمنية ، اذ لا يخلو ذلك من الفائدة المادية لهم ، ولعلهم لا يرضون بهذه الشروط لأن باتباعها يستتب الأمن وينقطع ورود العساكر الى هذا القطر ، فيخسرون بذلك ما كانوا يؤملون · لذلك أطلب صدور فرمان سلطاني يتضمن قبول الشروط المار ذكرها ، كي يطمئن اليمانيون وترتاح

قلوبهم ، ولا يعترضني المأمورون في اجراء الأحكام التي تخولنيها الشروط واحالة ادارة البلاد الشرقية التي تشابه بلاد « آنس » الى عهدتي » ٠

مؤرخ في ١٣ من صفر ١٣٢٤ هـ (أبريل سنة ١٩٠٦) (١) ٠

هذه الشروط التي قدمها الامام يحيى لعقد الصلح مع الدولة العثمانية في شهر أبريل سنة ١٩٠٦ (١٣ من صفر سنة ١٣٢٤ هـ) تبين لنا بايجاز ما يلي :

١ ـ ان الامام يحيى يعترف بكل صراحة ووضوح بالسيادة العثمانية على اليمن ، وهو يحذو بذلك حذو الأئمة السابقين الذين ثاروا ضد أسلوب الحكم العثماني وضد الجهاز التنفيذي لهذا الحكم عندما كان يسيء الادارة ، ولكنهم لم يعترضوا على تبعيتهم للدولة أو خضوعهم لسيادتها ٠

٢ ـ يوضح الامام مطالبه التي تتلخص في الاعتراف بزعامته الدينية في شعبه مع منحه قدرا من السلطة الزمنية بين أتباعه وهي الأهداف التي حارب الامام من أجل الحصول عليها ٠

٣ ـ غلف الامام مطالبه الشخصية بالصبغة الدينية التي تمثل الأساس الذي تقوم عليه زعامته في شعبه وبغيرها يفقد كيانه وبالتالي يفقد حقه في مطالبه ٠

٤ ـ طلب الامام في البند الخامس أن تحال الأوقاف الى عهدته بحجة احياء المعارف في البلاد ، ولا شك أن الأوقاف كانت ستشكل سندا ماديا للامام يعتمد عليه في تحقيق أغراضه ٠

٥ ـ تقرب الامام الى عشائر حاشد وخولان والحدا وأرحب بطلب اعفائهم من التكاليف في البند التاسع ، كما تقرب الى أهالي قضاء « آنس » بأن طلب عدم تدخل الدولة في شئونهم والا تعارض في تعيين مأموري هذا القضاء بحجة فقر سكانه وقلة حاصلاتهم وما يخشى من سوء ادارة مأموري الحكومة لشئونهم ، وفي هذا محاولة من الامام لاكتساب شعبية أعمق لدى هذه العشائر ونفوذ زمني أكبر في قضاء « آنس » مما يحقق له الكثير من الأهداف التي يرجوها ٠

٦ ـ أظهر الامام يحيى حسن نيته تجاه الدولة لكسب ودها حتى تستجيب الى مطالبه الأخرى فأبدى اقتراحاته لتحسين أسلوب الادارة العثمانية في اليمن في البند الثامن بأن تكون جباية الأموال المشار اليها في البند السابع بواسطة مشايخ البلاد وتحت اشراف مأموري الدولة ٠ واذا

---

(١) الواسعي : المصدر السابق ، ط ١ ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ ٠

تجاسر أحد على أخذ زيادة عن الأموال المقررة فعليه أن يعزله أو يحدد له جزاء رادعا على أن لا يكون للامام أى علاقة بتحصيل الأموال الحكومية. كما عرض الامـام اقتراحه بمنع الحكام والموظفين رواتب كافية حتى لا تدفعهم قلة ذات اليـد الى الاختلاس أو الارتشاء . وقد أوضحت اقتراحات الامام هذه أن أسباب الثورة ضد الأتراك ترجع الى سوء الادارة واستغلال الموظفين للأهالى ، وأنها لا تهدف الى التخلص من السـيادة
تجاسر أحد على أخذ زيادة عن الأموال المقررة فعليه أن يعزله أو يحدد
العثمانية على اليمن .

٧ – سلم الامـام يحيى بحق الدولة العثمانية فى رعاية الشئون الخارجية للولايات وبحقها فى الدفاع عنها ضد أى عدوان أجنبى ، وكان ذلك اعترافا منه بسيادة الدولة العثمانية على بلاده .

غير أن الدولة العثمانية لم توافق على هذه الشروط التى قدمها الامام يحيى لأنهـا لم تكن حتى ذلك الوقت لتقبـل الاعتراف بكيان الامـام الزيدى ومشاركته لها فى جزء من السلطة الزمنية فى ولاية اليمن العثمانية . كما أن السلطان عبد الحميد ماكان ليقبل أن تقسم احدى ولاياته بينه وبين شخص آخر لم يعترف به الا متمردا على سلطة الدولة ومحاربا ضد نفوذها وخارجا عن طاعتها . هذا بالاضافة الى أن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كانت تتبع سياسة الحكم المركزى الذى لا يمنح فرصة كافية لسـكان الولايات لتقرير مصيرهم وادارة دفة الحكم فى بلادهم مما جعل الدولة ترفض بشدة مقترحات الامـام يحيى وشروطه لعقد الصلح . ويبدو أن الموظفين الأتراك الذين أنيط بهم مفاوضة الامام لم يخلصوا فى القيام بمهمتهم ولم يوضحوا للباب العالى حقيقة الأوضـاع القائمة فى اليمن تقربا منهم للوالى وللمأمورين العثمـانيين باظهار الجهود التى يقومون بها فى حـكم البلاد بصـورة ترضى عنهم الباب العالى . كمـا أنهم تجنبوا توضيح مدى الضعف الذى آلت اليه حالة القوات التركية وعدم مقدرتهـا على مقاومة الثورة اليمنية مما لا يتنـاسب مع عظمة السلطان العثمانى حتى لايستثيروا غضبه .

وقد ترتب على فشل مفاوضات الصلح بين الدولة العثمـانية والامـام يحيى أن اشتعلت من جديد نيران الثورة ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن ، فنشبت معارك عنيفة بين الجانبين فى «خولان» و «البيضاء» و «سنحان» و «رجام» و «ذمار» و «حجة» و «آنس» وغيرها من البلاد اليمنية (١) .

وازاء تجدد الثورة فى اليمن وتفاقم الأمور فيها رأت الحكومة العثمانية أن تعيد الكرة من جـديد محاولة الاتصال الشخصى بالامام يحيى ، ومفاوضته

---

(١) نزيه مؤيد العظم : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

لايجاد حل مرض للقضية اليمنية . وكان يدفع الدولة العثمانية الى ذلك رغبتها فى استتباب الأمور فى اليمن حتى تتجنب الخسائر الكبيرة المستمرة التى تنوء بحملها ميزانيتها المجهدة . وكان السلطان العثمانى عبد الحميد يبغى معرفة الأسباب الحقيقية للثورة اليمنية محاولا ايجاد حل لهذه القضية المزمنة . وكانت وسيلة السلطان فى ذلك الوفود التى كان يرسلها لاستطلاع الموقف فى اليمن ومحاولة ايجاد نقطة التقاء بين مصالح دولته ومطالب الثوار اليمنيين .

لهذا رأى السلطان العثمانى أن يرسل وفدا من كبار علماء مكة مكون من عبد الله بن عباس وتسعة من رفقائه العلماء فى منتصف عام ١٩٠٧م(١٣٢٥هـ) تكون مهمته حث الامام يحيى على وقف القتال ضد الأتراك العثمانيين وتشجيعه على عقد الصلح مع الدولة العثمانية . وقد وصل أعضاء الوفد الى مدينة صنعاء وأرسلوا الى الامام يحيى كتابا «معناه النصيحة وترك القتال والحث على الصلح» (١) . فأجابهم الامام يحيى بخطاب طويل عرض فيه وجهة نظره فى القضية اليمنية وشرح مطالبه وأهدافه ، وقدم بعض الاقتراحات للوصول الى حل مرض للقضية (٢) .

وسوف نتتبع بايجاز معالم العلاقات العثمانية اليمنية فى مفهوم الامام يحيى كما وردت فى خطابه لعلماء مكة الذين أوفدهم اليه السلطان العثمانى للتفاوض معه فى شروط الصلح . لقد ذكر الامام فى خطابه أن الاسلام كان سببا فى رفع شأن العرب واعلاء كلمتهم ، غير أنهم بانصرافهم عن الدين تخاذلوا وضعفت شوكتهم وتفرقت كلمتهم حتى قامت الدولة العثمانية للدفاع عن الاسلام واعلاء كلمته « ومكن الله الدولة العثمانية من الحماية للدين وحفظ حوزته من الكفرة المعتدين» فالامام يحيى كغيره من اليمنيين بل معظم العرب المسلمين فى عصره كانوا يقدرون أهمية الدور الذى تقوم به الدولة العثمانية فى الذود عن الاسلام والدفاع عن بلاده باعتبارها دولة الاسلام الكبرى ، فكان الامام يحيى يعترف بوضوح بمكانة السلطان العثمانى على بلاده .

ثم استعرض الامام يحيى فى خطابه دور أسلافه من الأئمة الزيديين الذين حكموا اليمن منذ القرن الثالث الهجرى مؤكدا أنهم كانوا مدعمين برغبة أهل اليمن فى أن « يحكمهم ساداتهم وأولاد نبيهم رضى الله عنهم » . والامام يحيى يظهر لوفد السلطان تمسك اليمنيين بحكم الأئمة الزيديين سلالة النبى وأن

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٠٤ .
(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ٢ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٩ .
السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٤ .
(للاطلاع على نص خطاب الامام يحيى لوفد علماء مكة انظر الملحق رقم ١٣)

هذا الحكم ليس أمرا مستحدثا بل له جذور تاريخية عميقة ترجع الى ما يقرب من عشرة قرون مضت ·

ويتحدث الامام يحيى عن موقف الائمة من الاتراك العثمانيين الذين عادوا الى اليمن فى ســنة ١٨٧٢ فيقول : « لما توجه أحمــد مختار باشا من الحضرة السلطانية الى اليمن ، وكان قائما فى ذلك الوقت الامام محسن بن أحمد وكان بينه وبين المأمورين ملاحم · ثم بعده الامام شرف الدين ولا زال ظلم المأمورين يتضاعف من عام الى عام ، وتنوعهم فى المعاصى وارتكاب الشهوات ظاهرا بلا حياء ولا احتشــام · وكلما ظهر شيء أو زاد كثرت البغضاء فى قلوب أهل اليمن للمأمورين ، فالايمان يمان والحكمة يمانية ، حتى قام والدنا (الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين) رضى الله عنه ، وقد ضرب ضلال المأمورين بجرانه ، وتطاردت أفراس شهواتهم فى حلبة الفجور وميدانه ، فكان بينه وبين المأمورين ما كان حتى مضى لسبيله ، ولحق بحزب جده الأمين وجيله ، فانتصبنا (الامام يحيى)لذلك المقــام ، حين نفر أهل اليمن من مأمورى الســلطنة على الدوام ، ولم نقم والله لدرهم ولا لدينار علو ولا فخار » ·

فالامام يحيى أشار الى موقف أسلافه الأئمة من الأتراك العثمانيين الذى تبلور فى ثوراتهم الدائمة ضــد مفاسد الولاة وظلمهم وسوء ادارتهم لشئون البلاد · ثم ذكر أن موقفه هذا هو استمرار لمواقف أسلافه من درء ظلم الأتراك عن الشعب اليمنى ·

وقد أوضح الامام يحيى فى خطابه لمبعوثى السلطان من علماء مكة محاولاته للوصول الى اتفاق مع الوالى العثمانى أحمد فيضى باشا ، الذى كان ينقض عهوده ويبدد الاستقرار بمحاربة الامام وأتباعه ، مما كان يؤدى الى اراقة الدماء وانفاق الأموال دون جدوى · بل ان الوالى حرض القائد التركى يوسف باشا على مهاجمة بلاد حاشد ، ومحاولة اختراق المنطقة التى يقيم فيها الامام وتهديد أتباعه هناك ، مما اضطر الامام أن يصد عن نفسه عدوان الأتراك ، فاشتعلت من جديد نيران الحرب بين الجانبين ·

وقد أشار الامام يحيى الى تآمر المأمورين الأتراك لاثارة غضب السلطان على أهل اليمن وعلى الامام الزيدى خاصة فذكر انهم : « ما زالوا يثيرون غضب السلطان على أهل اليمن ويستنجدون منه الأجناد المترادفة والأموال المتكاثرة ويشيرون باستئصال أهل البيت النبوى والدين المصطفوى · وينسبونا عندهم الى الخوارج والرافضة ، وربما يخرجوننا عن دائرة الملة المحمدية ، ولا والله ما لنا مذهب غير ما كان عليه خير القرون والسلف الصالحون ، وانا لنبرأ الى الله من الخوارج والروافض وأهل البدع المستحدثة والمأمورون يعرفون ذلك منا ، لكنه حداهم على ذلك ما جبلوا عليه من حب جمع الأموال والتسلق لأخذها من

غير الوجه الحلال ، ولم يتم لهم ذلك الا باستمرار القتال والتنقل من حال الى حال ، فتراهم يحسبون على الأموال الميرية ما يأخذونه على الأهالى بيد العدوان ، ويضاعفون أجر الحيوانات ، على أنهم كثيرا ما يغتصبونها ولا يعطون أهلها شيئا » (١) .

ثم يصف الامام يحيى للوفد فى خطابه التصرفات الشخصية للولاة والتى تجعلهم بطبيعة الحال فى منأى عن الاهتمام بشئون الحكم فيقول ان هؤلاء الولاة كانوا : « على اللذات والشهوات عاكفون ، وعلى الفتن فى الفجور يتنافس منهم المتنافسون ، فتنكرهم المساجد والجوامع ، ويجهدهم شهر الصوم الذى هو لكل خير جامع ، وتعرفهم الكئوس والأقداح ، وتصافيهم ربات القدوح الملاح وكل هـذا بين واضح سترونه عيانا ان لم يضرب عنكم الحجاب ، وتوصد الأبواب (٢) . ويقصد الامام يحيى فى العبارة الأخيرة من هذه الفقرة فى خطابه لوفد السلطان أن بعض الولاة الأتراك كانوا يتعمدون اخفاء الحقائق فى داخل البلاد عن الوفود والرسل التى كان يرسلها الباب العالى لاستطلاع حقيقة الأوضاع هناك ، وكانوا يحولون دون وصول هذه الحقائق الى السلطان العثمانى مما يحملهم مسئولية تصرفاتهم الظالمة واستهتارهم وسوء ادارتهم وانشغالهم بملذاتهم الشخصية عن شئون الولاية ، فكانوا « كلما خرج أحد منهم (من مبعوثى السلطان) تلقاه المأمورون بالاحسان وأدخلوا عليه من يتكلم بمرادهم وحالوا بينه وبين ما هو مأمور بامضائه » (٣) . ثم ينبه الامام يحيى مبعوثى السلطان الى تجنب أساليب المأمورين الأتراك فى تمويه الحقائق ، حتى ينقلوا للباب العالى صورة صحيحة عن الأوضاع القائمة فى اليمن ، خاصة وأن المأمورين نجحوا فى منع وصول رسائل الامام وأتباعه الى السلطان العثمانى فيقول : « وسيكون ذلك أو نوع منه معكم أو قد كان حتى لقد أرسلنا كتبا عديدة الى الباب العالى من طرق شتى لم يعد لنا جواب رأسا لاحتفال المأمورين بردها عن ذلك الباب » (٤) .

وقبل أن يختتم الامام يحيى اجابته على علماء مكة مبعوثى السلطان يؤكد لهم تمنياته بنجاحهم فى مهمتهم مبتهلا الى الله : « أن يجعل على أيديكم (أعضاء وفد مكة) جبر كسر اليمن الميمون وأن يقذف فى قلوب سلطان الاسلام الرأفة والرحمـة » .

ويعود الامام يحيى فيحذر مبعوثى السلطان من دسائس المأمورين بقوله :

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٠٧ .
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٣٠٨ .
(٣) (٤) المصدر نفسه والصفحة .

« وانا نحذركم من دسائس المأمورين فان لهم طرقا الى جلب أمثالكم الى اتباع مقاصدهم » (١) مظهرا أن ذلك ليس قاصرا عليهم وهم ليسوا بطبيعة الحال من أهـل اليمن ، بل ان المأمورين خدعوا بعض أهالى اليمن وضللوهم بأن « انتخبوا لخدمة أفكارهم أناسا من أهل اليمن وجعلوهم آلة لهم فى كل مكان ، حتى بلغ بهم الحال أن أرسلوهم للوفادة للباب العالى للتعبير عنهم بما علموهم ، كما يفعلونه اذا وصل مثل حضراتكم أو مفتش ، فهم يمرون عليه فى كل يوم بأماكن الأمراء ويدلسـون بأقوال لا يعبئون ولا يبـالون بظهور الكذب فيهـا والافتراء » ثم يوصيهم بأن : « ابحثوا عن العلة الباعثة فان من عرف الداء عرف الدواء » (٢) ٠

كانت هذه اجابة الامام يحيى على مبعوثى السلطان من علماء مكة ، وبرغم النقاط الهامة التى تعرض لها الخطاب فانه لم يترتب عليه أى تغيير يذكر فى صالح القضية اليمنية ٠ ولا شك أن سبب ذلك يرجع الى أن الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت لم تكن لتقبل أن تعترف للامام يحيى بوضع خاص فى اليمن، يضمن له ممارسة قدر من السلطة الزمنية على أتباعه الزيديين الى جانب زعامته الروحية لهم ، هذا على الرغم من اعتراف الامام الزيدى واليمنيين عامة بالسيادة العثمانية على بلادهم ٠

وقد ظلت الأوضاع فى اليمن على ما هى عليه ، فالامام والأتراك يحتفظ كل منهما بما تحت يديه من الأراضى مع استمرار المناوشات بين الطرفين ، ولم يتمكن الأتراك من السـيطرة على الموقف تمـاما فى اليمن ٠ ولم تقم الدولة العثمانية بعمل ايجابى لاقرار الأمور فى اليمن بعد محاولاتها لاستطلاع حقيقة الموقف سوى عزلها للوالى أحمد فيضى باشا لموقفه العدائى من اليمنيين ، وأرسلت بدلا منه حسين تحسين باشا ليتولى أمور الولاية ٠ وقد أرادت الدولة أن تلطف من حدة موقفها العدائى من الزيديين وامامهم ، فاختارت تحسين باشا لما عرف عنه من الحكمة والاتزان ليعمل على تهدئة الموقف فى الولاية الثائرة ٠ وقد « صلحت فى أيامه (تحسين باشا) أحوال اليمن ، وسكنت الفتن ، ولم يتعرض الامام وشيعته وأعوانه بأذيتهم ، وحبس من ظفر به مثل من كان قبله (فيضى باشا) وحصل بينه (تحسين باشا) وبين الامام صلح ، وألا يتعدى أحد على الآخر كل أحد فى جهته ، والامام يقيم الشرع فى جبهته كما يحب » (٣) ٠

ولا شـك أن سياسة تحسـين باشا فى حكم اليمن جاءت فى التوقيت المناسب لأن أحوال الولاية كانت فى أشد الحاجة الى التهدئة والتسكين بعد أن

---

(١) المصدر السابق ــ نفس الصفحة ٠

(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج١ ، ق ٢ ص ٥٣٧ ٠

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ص ٣٠٩ ٠

تفاقمت الأمور فى عهد الوالى أحمد فيضى باشا ٠ وقد رأى الوالى حسين تحسين باشا أن يعترف للامام يحيى بوضعه الخاص داخل الولاية ، وأن يسمح له باقامة أحكام الشريعة الاسلامية بين أتباعه فى المنطقة التى تدين له بالولاء ، واتفق مع الامام ألا يتعدى أحد الجانبين على الآخر ، وكانت هذه السياسة اعترافا بالأمر الواقع ، خاصة وأن الدولة العثمانية لم تستطع أن تخضع لنفوذها سكان المرتفعات الشمالية المتركزين حول مدينة صعدة مركز الامامة الزيدية ٠ ولم يكن هذا الاتفاق صلحا بمعنى الكلمة بل كان بمثابة مهادنة اقتضتها حاجة الدولة لاقرار الأمور فى اليمن حتى لا تتعرض لمزيد من الخسائر والتضحيات فى سبيل ابقائها ولاية تابعة لسيادتها ٠

وعندما رأت الدولة العثمانية النجاح النسبى لسياسة التهدئة والتسكين التى اتبعها الوالى حسين تحسين باشا ، فقد آملت أن تحقق الاستقرار الكامل فى الولاية عن طريق التفاهم مع اليمنيين أنفسهم فى شئون بلدهم ٠ لهذا طلب السلطان العثمانى فى سنة ١٩٠٨ وفدا من كبار رجال صنعاء على أن يكونوا من سادتها وعلمائها وأعيانها « ليتكلموا فيما يصلح اليمن ٠ ففرح الناس بذلك » (١) ٠ وقد وصل الوفد الى الآستانة عاصمة الدولة وأقاموا فى « محل الضيافة » مدة طويلة حتى استطاعوا مقابلة السلطان عبد الحميد ٠ غير أن المقابلة لم تدم الا حوالى عشر دقائق وأذن لهم بالانصراف ٠ ويرجع ذلك الى فشل الوفد اليمنى فى عرض قضية بلاده على السلطان العثمانى ، اذ كان أعضاء الوفد مختلفين فيما بينهم حول نقاط عديدة ٠ وعلى سبيل المثال فان أعضاء الوفد لم يكونوا متفقين على كيفية ايجاد حل للقضية اليمنية ، حتى ان بعضهم اعتقد فى حتمية استعمال القوة لطرد الأتراك من اليمن ، بينما البعض الآخر كان يؤمن بالطرق السلمية والرجوع الى الشريعة الاسلامية وسيلة لتهدئة الأحوال فى الولاية ٠ كما اختلف الأعضاء أيضا حول الغرض من مجيئهم الى عاصمة الدولة العثمانية ٠ وكان بينهم قليل من الأعضاء يقدرون أهمية الدور الذى يقومون به ، وما سيترتب على ذلك من نتائج خطيرة تؤثر على مستقبل بلدهم ٠ بينما كان العدد الأكبر من أعضاء الوفد قد وجدوا أن المثول بين يدى السلطان العثمانى فرصة لا تعوض لتحقيق مآربهم الشخصية ، كطلب تقليدهم وظائف معينة فى الولاية أو عرض شكاياتهم الشخصية على الباب العالى ٠ وقد أدت كل هذه الأسباب الى اخفاق وفد رجال صنعاء فى عرض قضية بلاده على الباب العالى ، حتى ان السلطان أمر على الفور باعادتهم الى اليمن ، فأضاعوا بذلك فرصة ذهبية لاطلاع أعلى سلطة فى الدولة على حقيقة الأوضاع القائمة فى بلادهم ، والتى كان بعض الولاة يموهون معالمها حفاظا على مصالحهم الشخصية ٠

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٠٩ ٠

على أن السلطان العثمانى كانت لديه رغبة فى ايجاد حل للقضية اليمنية بما يحفظ للدولة العثمانية مصالحها فى الولاية ويبقيها تابعة للسيادة العثمانية. لهذا طلب السلطان من والى اليمن استقدام وفد آخر من رجال الامام يحيى على وجه الخصوص ، وليس من أهالى صنعاء كما كان الحال فى المرة الأولى ، وذلك عله يصل معهم الى حل حاسم للقضية . فأرسل الامام يحيى الى الآستانة جماعة من خاصته من بينهم العلامة عبد الله بن ابراهيم . وقد أحسن السلطان استقبالهم ودارت بعض المناقشات حول القضية اليمنية « بما يزيل الشقاق والشنآن ويصلح البلاد ، ويرضى به الفريقان » . غير أن وفد رجال الامام يحيى عاد الى اليمن أيضا بخفى حنين بعد أن مكث مدة طويلة فى عاصمة الدولة . وقد فشلت محادثاتهم فى نهاية الأمر لعدة أسباب كان من بينها ما أبداه بعض رجال الدولة العثمانية من أن « اقامة الحدود فى اليمن خاصة يخل بالقانون الأساسى فى جميع الولايات العثمانية » (١) .

وتجدر الاشارة الى الدور الذى لعبته الصحافة العربية والعثمانية فى قضية اليمن فى أوائل القرن العشرين فقد ذكر الواسعى أن جريدة المؤيد المصرية قد وصلت الى اليمن فى سنة ١٩٠٩ (شهر ربيع الآخر ١٣٢٧ هـ) وأنها كانت أول جريدة مصرية يطلق عليها هناك . وقد كتب على بن يوسف صاحب جريدة المؤيد مقالا ينصح فيه الامام يحيى الى عقد الصلح مع الدولة العثمانية ، كوسيلة لحل القضية اليمنية بما يرضى الجانبين اليمنى والعثمانى ، ويؤدى الى حقن الدماء ، وتوفير الأموال الطائلة والجهود المضنية التى تبذلها الدولة العثمانية دون جدوى فى محاولة اخماد الثورات المستمرة . وقد أرسل الامام يحيى خطابا الى صاحب جريدة المؤيد يجيب فيه على نداء الصلح الذى وجهته جريدته ويوضح موقفه بأنه لم يدخر وسعا للوصول الى عقد صلح مع الدولة بقوله : « لأجل ذلك بعثنا وفدا الى الأبواب السلطانية يرفع عنا ما أودعناه من الأخبار ويقص على ذلك الجمع ما باليمن الميمون من الدواهى الكبار وما اعتورها من مواقع الفتن التى تخللت الديار ومشت الى كل دار » . غير أن هذا الوفد الذى تحدث عنه الامام يحيى لم يتمكن من الاتفاق على عقد الصلح على الرغم من المفاوضات التى دارت بين أعضائه وبين رجال الدولة فى العاصمة العثمانية على النحو الذى سبق أن أوضحناه .

ثم أبدى الامام يحيى فى خطابه تعجبه من موقف الدولة فى حرصها على السيطرة الكاملة على اليمن وأوضح أن الدولة اذا كانت تعلل ذلك بأنها تقوم بحماية اليمن من العدوان الأجنبى فان اليمنيين أولى بالدفاع عن بلادهم خاصة وأنهم لم يرتضوا الخضوع يوما لمسلم غشوم فكيف يرضيهم أن يخضعوا ساعة

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣١٠ .

واحـدة للأجانب · واذا كانت الدولة تعلل موقفها هـذا من اليمن بحـاجة الخزينة العثمانية الى الأموال التى تجمع من هناك فالامام يحيى يجيب على ذلك بأن ما يجمع من الأموال لايكاد يكفى بنفقات العسكريين والمدنيين من العثمانيين العاملين فى الولاية ، الا فى حالة ابتزاز الأموال من أهالى اليمن بشتى الطرق والأساليب التعسفية · ثم يشير الامام يحيى الى أن توجيه الجيوش العثمانية المسلحة بأحدث الأسلحة فى عصرها الى اليمن ليجهد الميزانية العثمانية ويحملها الكثير من الأعباء · ويضيف الامام يحيى الى كل ذلك تعجبه أيضا من حرص الدولة على البقـاء فى اليمن الولاية النائية الصـغيرة بالنسبة لأملاك الدولة الواسعة ، بينما يوجد فيها الأئمة الذين يمكنهم القيام بحكم البلاد على أفضل وجه مع اعترافهم بالسيادة العثمانية · ثم يذكر الامام يحيى فى نهاية خطابه لصاحب جريدة المؤيد المصرية أنه اذا تراءى له نشر هذه الاجابة فى جريدته « فذلك من الخير الموافق للقصد » (١) · وكان الامام يحيى يقصد من ذلك بطبيعة الحال استمالة الرأى العام فى الدولة العثمانية الى جانبه للوصول الى حل للقضية اليمنية يحقق له اعتراف الدولة بوضعه الخاص فى اليمن ·

وقد ذكر الواسعى أن جريدة « طنين » العثمانية نشرت فى نهاية سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ) فى أحد أعدادها مقالا نقل من التركية الى العربية جاء فيه : « أن اليمنيين معروفون بالذكاء والصبر على الشدائد ، وان من كانت فيه مثل هذه الصفات لخليق بأن يكون سريعا تمدينه قريبا تفهيمه وسـائل الاصلاح ، ولكن لابد قبل كل شيء من انتداب المأمورين الأكفاء النشطين الذين يوقفون كل ما أوتوا من المعرفة والاختبار على تنظيم تلك الديار · فلنرسل اذن الى تلك الولاية واليا معاونا من أصحاب الكفاية ومديرين مجربين عارفين الزراعة والتجارة والمعارف ، ثم نصحبهم بمهندسين بارعين ومفتشين صالحين ، وحينئذ نأمن الفتن وسفك الدماء ، ولا بأس من التكرار وهو أن كل هذه الأمور لا سبيل اليها الا بأمر واحد الا وهو أن يكون لليمن ادارة خصوصية تلائم أخلاق اليمنيين وعاداتهم » (٢) ·

ولا شـك أن الرأى الذى نادت به جريدة « طنين » العثمانية فى مقالها المشار اليه منصف غاية الانصاف لقضية اليمن واليمنيين · ويوضح لنا مثل هذا المقال وغيره الدور الهام الذى بدأت تلعبه الصحافة العربية والعثمانية فى عرض قضية اليمن على الرأى العام فى الدولة العثمانية وفى الولايات العربية التابعة لها · وقد أبرزت الصحافة أخطاء الحكم العثمانى فى اليمن حتى يمكن

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣١٠ – ٣١٢ ·
(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٣١٣ ·

تجنبها ، كما اقترحت الحلول التى يمكن أن تؤدى الى اقرار الأمور وحفظ الأمن والسلام فى اليمن ٠

استمرت أحوال اليمن هادئة نسبيا فى عهد الوالى العثمانى حسين تحسين باشا نتيجة للسياسة التى اتبعها للتفاهم مع الامام وحرصه على رفع ظلم المأمورين الأتراك عن أهالى اليمن حتى وردت الأوامر من الآستانة بعزله عن الولاية ٠ وقد حزن أهالى اليمن كثيرا على عزل هذا الوالى ، وتوجه وفد منهم الى الآستانة برئاسة السيد محمد على الأهدلى للمطالبة بارجاع تحسين باشا الى منصبه فى اليمن (١) ، غير أن الحكومة العثمانية لم تستجب لطلب الوفد اليمنى وأصدرت الأوامر بتعيين كامل بك متصرف تعز فى ذلك الحين واليا على اليمن ، فوصل الى صنعاء فى شهر مارس سنة ١٩١٠ م (١٣٢٨ هـ) غير أن كامل بك لم يستمر فى منصب الولاية أكثر من ثلاثة أشهر وعزل فى يونية سنة ١٩١٠ م (جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ هـ) ٠ وقد تولى من بعده ولاية اليمن محمد على باشا (٢) وهو أحد رجالات الاتحاديين الذين عرفوا بتمسكهم بالسياسة المركزية وبمبدأ تتريك شعوب الامبراطورية ٠

وتجدر الاشارة الى أن حالة الهدوء النسبى التى وجدت فى عهد الوالى حسين تحسين باشا لم تكن ترجع الى سياسته القائمة على التفاهم مع الامام والعدل مع الأهالى فحسب ، بل كانت ترجع أيضا الى حالة عامة من الهدوء النسبى شملت معظم أرجاء الامبراطورية العثمانية ولم تكن مقصورة على اليمن وحدها ٠ وكان السبب فى ذلك يرجع الى قيام ثورة سنة ١٩٠٨ التى أعلنت الدستور ، ورغبت فى تطبيق مبادىء جديدة تتبلور فى محاولة الالتقاء بعناصر الامبراطورية لحل كافة المشكلات المعلقة ٠ وقد علم أهالى اليمن بنبأ خلع السلطان عبد الحميد الثانى فى أواخر سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ) وتنصيب أخيه محمد رشاد فى مكانه وتسلط أعضاء جمعية الاتحاد والترقى على سياسة الدولة وعلى رأسهم طلعت ، وأنور ، وجمال ٠ وقد توقع اليمنيون اصلاحا عاما فى ديارهم نتيجة لهذا الانقلاب كما عجبوا من سرعة خلع الولاة وتنصيب غيرهم فى مكانهم (٣) ٠ غير أن هذه الفترة سرعان ما انتهت عندما اتضح ميل الاتحاديين الى تطبيق « المركزية » والى « تتريك » عناصر دولتهم ٠ فنشبت من جديد المنازعات بين العرب والأتراك ولكنها كانت أعنف وأقسى عما كانت عليه من قبل ، خاصة وأن النزاع بين العرب والسلطان عبد الحميد قبل الانقلاب الدستورى فى سنة ١٩٠٨ م كان يدور حول مفاسد الحكومة العثمانية وتعسف

---

(١) الاهرام : العدد ١٧٢٣ الصادر فى ١٩١٠/٣/٩ (٢٦ صفر سنة ١٣٢٨ هـ) ص ٢ ٠

(٢) العرشى : المصدر السابق ، ص ٨٧ ٠

(٣) العرشى : المصدر السابق ، ص ٨٧ ٠

ولاتها وسوء ادارتهم ، فتحول هذا النزاع بين الجانبين العربى والتركى بعد الانقلاب الى مبدأ أهم وأخطر فى حياة العرب وهو مبدأ « تقرير المصير » (١) ٠

وقد تمسك العرب بحقهم فى الحكم الذاتى والقومية الخاصة . بينما حارب الأتراك هذه الاتجاهات التحررية بكل عنف وشدة ، وعملوا على اذابة العناصر العثمانية المختلفة فى بوتقة الجنسية التركية المتزمتة ٠ وقد عين الاتحاديون محمد على باشا فى يونية سنة ١٩١٠ م (جمادى الاولى سنة ١٣٢٨ هـ) واليا على اليمن لتنفيذ سياستهم هذه فى تلك البلاد ٠ لهذا اتجه هذا الوالى منذ وصوله الى اليمن الى مقاومة كل تمرد ، واخماد أية حركة ثورية يقوم بها الامام يحيى فى المرتفعات الشمالية . أو محمد الادريسى الذى ظهر نفوذه وشكل خطرا كبيرا على الدولة فى عسير ٠ وقد عرف عن الوالى العثمانى محمد على باشا أنه « كان خشن الطباع ، عامل الناس بغلظة وشدة ، كما كان يفعل فيضى باشا بل كان يحبس كل من يكون له أدنى علاقة بالامام ، فأثارت أعماله هذه الضغائن والسخائم ، فاستقرت نار الحرب فى « شعوب » ، فحوصرت جميع المدن ٠ وفى جملتها « يريم » ٠ فهجم العرب على من فيها ، وخربوها ، وفعلوا الأفاعيل الغريبة » (٢) ٠ على أن السياسة التى اتبعها الوالى محمد على باشا والتى اتسمت بالعنف والشدة والقمع العسكرى ، قد أدت الى تجدد الثورات واشعال الحروب فى اليمن (٣) ٠ وقد استمرت أحوال اليمن على ما هى عليه من فوضى واضطراب حتى عزل هذا الوالى ، وتم عقد صلح « دعان » فى سنة ١٩١١ بين الدولة العثمانية والامام يحيى على يد الوالى الجديد أحمد عزت باشا فبدأت بذلك صفحة جديدة من تاريخ العلاقات العثمانية اليمنية اختلفت الى حد كبير عن الصفحات السابقة ٠

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٧٨ ، ٧٦ ٠
(٢) العرشى : المصدر السابق ، ص ٨٧ ٠
(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣١٤ ٠

الفصل الرابع

السياسة العثمانية فى اليمن
فى مطلع العهد الدستورى (١٩٠٨ - ١٩١١)

أولا - سياسة العثمانيين فى حكم الولايات التابعة لهم فى مطلع العهد الدستورى ٠

ثانيا : موقف الأدارسة من الحكم العثمانى فى اليمن (١٩٠٨ - ١٩١١) ٠

ثالثا - موقف العثمانيين من بقية اليمن فى مطلع العهد الدستورى (١٩٠٨ - ١٩١١) ٠

رابعا - نضال الشعب اليمنى ضـد الحكم العثمانى فى مطلع العهد الدستورى ٠

السياسة العثمانية فى اليمن فى مطلع العهد الدستورى (١٩٠٨ ــ ١٩١١)

اولا ــ سياسة العثمانيين فى حكم الولايات التابعة لهم فى مطلع العهد الدستورى

عرضنا فى بداية الفصــل الســابق معالم السياسة المركزية التى اتبعها العثمانيون فى حكم الولايات التابعة لهم ، وما آلت اليه هــذه السياسة من تطرف فى عهد الاستبداد الحميدى مما كان له أسوأ الأثر لدى رعايا الامبراطورية العثمانية ٠ وقد رأينا نتائج اتباع هذه السياسة المركزية فى ولاية اليمن منذ عودة العثمانيين اليها فى سنة ١٨٧٢ ، وتمثلت فى قيام حركات التمرد والثورات المستمرة ضد الحكم العثمانى ، كان آخرها الثورة التى أشعلها الامام يحيى اثر توليه الامامة فى ســنة ١٩٠٤ م ، وتحملت الدولة العثمانية فى سبيل اخمادها الكثير من الأرواح والأموال ٠ وسوف نستعرض فيما يلى الاتجاهات العامة لسياسة العثمانيين فى حكم الولايات التــابعة لهم فى مطلع العهــد الدستورى بعد الاطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثانى لنعرف الى أى مدى أثرت تلك السياسة على مجريات الأحداث فى ولاية اليمن العثمانية ٠

الثــورة ضــد الاستبداد الحميدى وقيــام العهد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩٠٨

بدأ فى سنة ١٨٨٩ م تأليف الجمعيات المنظمة سواء كانت سرية فى داخل البلاد العثمانية ، أو علنية فى خارجها . لمحاربة الاستبداد الحميدى وحمل الناس على استنكار الحكم المطلق ، وطلب الحكم الدستورى عن طريق اعادة العمل « بالقانون الأساسى » الذى صدر فى عهد « المشروطية الأولى » فى سنة ١٨٧٦

وعطله السلطان عبد الحميد الثانى فى فجر صدوره (١) ٠ فتألف طائفة من طلاب « الطبية العسكرية » جمعية سرية فى استامبول فى سنة ١٨٨٩ م غايتها محاربة الاستبداد والعمل على اعادة الحياة الدستورية الى البلاد ٠ كما حصل أحمد رضا ــ الذى كان يعمل مديرا للمعارف فى بروسة ــ على رخصة للسفر الى باريس لزيارة معرضها الدولى العام ، ثم قرر البقاء فى باريس للعمل فى سبيل حرية بلاده ، وأصدر جريدة سماها « مشورت » بمعنى « المشورة » ، وقد التف حوله جماعة من الشبان الموجودين فى باريس واتصلوا بشباب الجمعية الأولى فى استامبول لتوحيد العمل تحت اسم « جمهورية الاتحاد والترقى العثمانية » (٢) ٠ وقد نمت هذه الجمعية وتفرعت داخل البلاد وخارجها ، وحققت غايتها الأصلية باعلان « المشروطية » فى سنة ١٩٠٨ ، وبخلع السلطان عبد الحميد الثانى فى سنة ١٩٠٩ ، كما انتخب أحمد رضا هذا رئيسا لأول مجلس نيابى اجتمع فى عهد « المشروطية الثانية » ٠

على أن هذا النجاح لم يكن نتيجة لجهود جمعية الاتحاد والترقى فحسب ، بل ساهم فيه عدد غير قليل من الجمعيات ، وعدد كبير من الأشخاص ٠ فقد عقدت الجمعيات التى تألفت خارج البلاد العثمانية مؤتمرين فى مدينة باريس فى عامى ١٩٠٢ ، ١٩٠٧ ، واشترك فيهما الى جانب الأتراك والعرب ممثلون عن بعض الشعوب المسيحية التابعة للامبراطورية العثمانية أيضا ٠ وتتلخص قرارات المؤتمر الاخير فى اجبار السلطان عبد الحميد على ترك العرش وتبديل الادارة من أساسها ، وتأسيس أصول المشروطية والمشورة ٠ وقد تهيأ لجمعية الاتحاد والترقى بعد سنة ١٩٠٥ م مجال واسع للعمل فى الولايات الثلاث : مناستر ، وقوصوة ، وسلانيك التى كانت ادارتها قد تأسست فى أوائل هذا القرن تحت مراقبة خمس من الدول الأوربية العظمى هى : انجلترا ، وفرنسا ، وروسيا ، والنمسا ، وايطاليا ، وذلك فى النواحى المالية وشئون الأمن ٠ واجتمع فى هذه الولايات عدد كبير من الموظفين المدنيين والعسكريين ممن يمتازون بالثقافة والاقدام ، نمت بينهم فكرة اصلاح أحوال الدولة العامة بانهاء الاستبداد واعادة الدستور (٣) ٠

وبعد انقضاء بعض الأحداث ، انهالت على عاصمة الدولة العثمانية صباح يوم ١٠ من يوليو سنة ١٩٠٨ أعداد هائلة من البرقيات الصادرة من جميع الوحدات الادارية الموجودة فى الولايات المذكورة تطلب اعلان المشروطية ، وتلتها على الفور برقيات أخرى تعلم بأن البلاد أخذت تحتفل باعلان المشروطية ٠ مع

---

(١) محمد أنيس (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ــ ١٩١٤) ، ص٢٤٥ ٠
(٢) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ ٠
(٣) ساطع الحصرى : المصدر نفسه ، ص ١٠٧ ٠

اطلاق المدافع ابتهاجا ببدء العهد الجديد • وقد فوجيء السلطان عبد الحميد بهذا الانفجار العام ، واضطر الى الرضوخ للأمر الواقع ، وأصدر أمره بأعادة الدستور وباجراء الانتخابات ، وبذلك انتهى عهد الاستبداد الحميدى وبدأ عهد « المشروطية الثانية » وأطلق سراح جميع المعتقلين السياسيين ورفعت القيود التى كانت مفروضة على المنفيين والمبعدين (١) •

وقد قوبل اعلان المشروطية بتأييد تام فى جميع أنحاء الممالك العثمانية ، وصار سببا لاقامة المهرجانات الشعبية التى اشترك فيها جميع المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأوضاعهم الاجتماعية • وقد جرت فى هذا الجو الانتخابات النيابية واجتمع المجلس النيـــابى ــ الذى كان يسمى « مجلس مبعوثان » ــ بين مظاهر الأعياد والأفراح • وكان عدد النواب فى هذا المجلس ٢٧٦ ، عدد الأتراك بينهم ١٤٢ ، وعدد العرب ٦٠ ، الألبان ٢٥ ، الأروام ٢٤ ، الأرمن ١٢ ، اليهود ٥ ، البلغار ٤ ، الصرب ٣ ، الفلاخ ١ • غير أن الجو المفعم بالحبور والابتهاج لم يلبث أن تلبد بغيوم كثيفة ، وتعرض العهد الجديد الى عدة صدمات عنيفة ، وجابه كثيرا من المشاكل الداخلية والخارجية •

على أن أخطر الصـــدمات التى هزت كيان العهد الجديد ، كانت ثورة الرجعية التى قامت فى نهاية شهر مارس سنة ١٩٠٩ فى عاصمة السلطنة قبل أن تتم المشروطية شهرها التاسع ، وكان قوامها الجنود والدراويش الذين ثاروا بتحريض من الموتورين من العهـــد الجديد ، ومن بينهم عـــدد كبير من رجال عبد الحميد السابقين • على أن هؤلاء الجنود الثائرين كانوا من الجيش المحتشد فى العاصمة وحدها ، أما جيوش الولايات ، وخاصة جيوش الولايات الثلاث التى كانت مهد المشروطية الثانية فقد ظلت على ولائها للعهد الجديد • لذلك وجهت جمعية الاتحاد والترقى جيشا نحو العاصمة لتأديب العصاة ، والقضاء على الرجعية • وقد وصل هذا الجيش « جيش الحركة » الى أبواب العاصمة ، وتمكن من احتلالها بعد بضعة حروب ومصادمات مع شراذم العصاة • وقد اجتمع « المبعوثون » مع أعضاء مجلس الأعيان فى « آيا ستفانوس » ــ الذى كان قد أصبح مقرا « لجيش الحركة » ــ وعقدوا جلسة رسمية ، قرروا خلالها خلع السلطان عبد الحميد واجلاس ولى العهد محمد رشاد على العرش باســم « السلطان محمـــد الخامس » (٢) • وبذلك طويت صحائف تاريخ السلطان عبد الحميد ، وتوطدت أركان العهد الدستورى العثمانى الجديد •

وقد أوقع الانقلاب الأخير رجال السياسة الأوربية فى حيرة وارتباك ، ذلك

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ١٠٨ •
(٢) ساطع الحصرى : المصدر نفسه ، ص ١١٠ ــ ١١٢ •

لأن الحركة الانقلابية كانت بمثابة « حركة انتفاض ترمي الى تخليص الرجل المريض من حالة الاحتضار مع تجديد قواه واصلاح أحواله · فكان من شأنها أن تسلب الدول الكبرى ما كان لها من وسائل التأثير في الدولة العثمانية ، وحجج التدخل في شئونها » (١) · وقد سارعت بعض الدول الأوربية للتعجيل في حل مسائلها المعلقة مع الدولة قبل فوات الأوان · وكان من ذلك نزوع النمسا الى تحويل الحالة الراهنة في البوسنة والهرسك الى وضع قانوني يلحقها بالامبراطورية رسميا ، مما سيسبب هياجا شديدا في العالم السلافي وخاصة في صربيا ، ويؤزم الأحوال بين النمسا والصرب ، ويشعل نار الحرب العالمية الأولى · كما أن أطماع الدول الأوربية التقت بالرغبات الجادة في الاستقلال في وقت واحد . فأعلنت بلغاريا استقلالها وانفصالها عن الدولة العثمانية ، كما أنزلت ايطاليا جيوشها في طرابلس الغرب سنة ١٩١١ م ، معتمدة على الاتفاقيات السرية المعقودة بينها وبين فرنسا وانجلترا من جهة ، وبين النمسا وألمانيا من جهـة أخرى · بل ان دول البلقان رأت في انشـغال الدولة العثمانية بالحرب الايطالية فرصة لاشهار الحرب عليها وتحقيق استقلالها · وخلال هذه الزوبعة تحركت فرنسا وطالبت الدولة العثمانية بضمان مصالحها في سوريا ، ودارت مباحثات بين الجانبين لهذا الغرض ، في حين أعلنت حكومة فرنسا عن وجوب احترام الدول لمصالحها التقليدية في سوريا ولبنان (٢) · وعلى الرغم من أن المباحثات مع الدولة العثمانية لم تتقدم بالسرعة المطلوبة فانها انتهت بما يرضي فرنسا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ·

وهكذا ورث رجال جمعية الاتحاد والترقي تركة مثقلة وواجهوا بداية صعبة فقدت في أثنائها الدولة العثمـانية جميع ممتلكاتها الأوربيـة – ما عدا تراقيا الشرقية – الى جانب طرابلس وكريت وجزر الدوديكان · وقد تحملت الدولة في أثناء السلسلة من الحروب الكثيرة والنفقات الباهظة ما ناءت بها خزانتها المجهدة (٣) ·

صدى اعلان الدستور العثماني ونتائجه في الولايات العربية :

سبب اعـلان الدسـتور العثماني وانهاء الاستبداد الحميدي وقيام عهد المشروطية موجة طاغية من السرور والابتهاج في جميع الولايات العربية ، وقويت آراء الذين يقولون بوجوب « اصلاح الأحوال وضمان التقدم » عن طريق التآزر

---

(١) ساطع الحصري : يوم ميسلون ، ص ٢٨ ·

(٢) Poincaré, R. : Au service de la France, Vol. V, p. 404.

(٣) جورج انطونيوس : يقظة العرب (ترجمة على حيدر الركابي) ، ص ١١٣ ·

مع أحرار الترك · وكان يحدو الجميع أمل قوى فى تحقيق « الحرية ، والعدالة ، والمساواة » وفق الشعار الذى صارت تردده ألسنة الجميع فى كل الجهات ، ما دام سيكون هناك مجلس تمثيلى يراقب أعمال الحكومة ويوجهها ، وما دام سيكون فى المجلس المذكور ممثلون عن البلاد العربية ، فسيكون من السهل القضاء على عوامل الفساد واستكمال وسائل النهوض والرخاء · غير أن السياسة التى أخذت تسير عليها جمعيـة الاتحـاد والترقى وحكوماتها ، بعـد اعلان المشروطية ، خيبت هذه الآمال ، واضطرت مفكرى العرب وساستهم الى تغيير آرائهم واتجاهاتهم على ضوء التجارب والأحداث (١) · اذ تمسكت الجمعيـة والحكومة بنظام المركزية وأصرت على أن تكون اللغة التركية هى اللغة الرسمية دون اكتراث بما يلحق بالعرب من أضرار فادحة من جراء ذلك · وقد توالت سلسلة طويلة من الاختلافات والمنـازعات بين العرب والترك داخـل المجلس النيابى وخارجه واستمرت حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ·

لقد أراد الاتحاديون فى بداية حكمهم على حد ما ذكر بجريدة الأهرام « أن يقلبوا البلاد التى كانت تتمتع سابقا ببعض الامتيازات فى مدى ثلاث سنين قلبا سحريا فيحولونها من حال ربيت عليه منذ مئات السنين الى حال لم تألفها ولم تتعلمها ، فكانت النتيجة أن الذين لم يألفوا دفع الأموال الأميرية تذمروا من دفعها ، والذين لم يعتادوا الخدمة العسكرية ، صعبت عليهم هذه الخدمة ، والذين لم يخضعوا لنظام المحاكم وأحكام القوانين عدوها بدعة (٢) ، والذين كانوا فى بلادهم سادة مستبدين عدوا مساواتهم بفلاحيهم أمرا ادا (٣) · ومن جهة أخرى رأينـا الذين تعلموا فى أوربا وعرفوا نظامها ومدنيتها وعمرانها يتعجلون (٤) رجال الحكومة فى الاصلاح ويريدون من حكومة بنت سنتين أن تكون حكومة بنت مئات السنين فقالوا أين ما أتاه الدستوريون من اصلاح ؟ والحكومة نفسها أرادت أن تسرع وليس فى يدها مال ودخل فلم تر الا البنوك تطرق أبوابها · وأراد الأتراك نشر لغتهم التى لم تتعلمها الطوائف والأمم التى حكموها سبعمائة سنة فتسرعوا باكراه الناس على تعلمها فأيقظوا الذين لا لغة لهم مدونة بالكتب الى خلق لغة وآداب (٥) ، والذين لهم لغة على الصياح فى

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ ·

(٢) كمثال أهل اليمن من الزيديين الذين كانوا يلجأون الى المحـاكم الشرعية التى كان يقيمها الامام يحيى ·

(٣) كمثال البكوات فى البانيا ·

(٤) كمثال المثقفين فى تركيا نفسها وفى سوريا ·

(٥) كمثال الألبان والأرمن ·· الخ ·

وجه الحكومة خوفا عليها ، فالتسرع جاء من كل جانب فأفضى الى الشكوى من كل جانب » (١) .

لقد كان مدحت باشا واضع دستور سنة ١٨٧٦ من أنصار « توسيع المأذونية » الادارية الواسعة ، القريبة من «اللامركزية» (٢) . غير أن الاتحاديين لم يحاولوا حتى أن يفهموا هذا الدستور بنفس الروح التى ألهمت مدحت باشا عند وضعه ، بالرغم من تطور الفكرة القومية لدى أغلب الشعوب العثمانية ، خاصة منها الساكنة فى القطاع الأوربى ، خلال المدة التى مضت بين وضعه وتاريخ الانقلاب الدستورى ، فأرادوا أن يحكموا الدولة فى العقد الثانى من القرن العشرين وكأنهم لا يزالون يعيشون فى منتصف القرن التاسع عشر . وفضلا عن ذلك أردوا أن يحكموا البدوى والحضرى على السواء بأنظمة تشبه الأنظمة الموحدة التى تطبق فى الدولة الأوربية . وكانوا يرون فى النظام اللامركزى تفكيكا ودمارا للمملكة العثمانية ، فى حين أن العرب وبقية العناصر يرون فيه أساس قوة الدولة ، من حيث أنه يعطى سكان المناطق مجال التشبث الشخصى ويهيىء لهم امكانية تطوير مناطقهم التى هم أعرف الناس باحتياجاتها المحلية ، وتقوية الدفاع عن حدودها وترقية اقتصادها ومعارفها وأمورها الناقصة ، فضلا على كونه يشعرهم بأن لهم شخصية وكيانا فى دولة تحترم ارادتهم فيزيد اخلاصهم (٣) .

وقد أوضح أحمد أمين حقيقة الاتحاديين فى كتابه عن « تركيا فى الحرب العالمية » عندما ذكر أنهم فئة « ... لم تكن خالية من كل وطنية ، ولا من نصيب المثالية الغامضة ، ومع ذلك كانت المعارف والتجربة قليلة ومحدودة جدا عند أعضائها اذ لم يتمكنوا من النظر خلال المسائل الناشئة عن الأوضاع الطارئة ، ولم يتمكنوا أن يروا أن التبديلات الجوهرية لأسلوب الحكم يجب أن تتلاءم مع استعداد البلاد الأدبى وأوضاعها الاجتماعية ، فانهم تجاه المشكلات التى كانت تعترضهم باستمرار ، وأمام المعارضة الشديدة التى كانت تواجههم كان همهم الاحتفاظ بسلطتهم السياسية ودعمها كحزب سياسى ، واجبار مختلف عناصر الدولة للخضوع التام المباشر لسلطة الحكومة المركزية ، وبما أنهم كانوا متمسكين بالتعصب القومى فى سياستهم الخارجية فقد أظهروا التصلب والتزمت وتعاموا عن كل متطلبات الموقف العملية . هذا وأن السياسة الطائشة التى قضت باكراه مختلف العناصر على ضرورة الخضوع لسياسة مزج العناصر قد لاقت معارضة قوية ، وسببت مشكلات داخلية وخارجية كثيرة ، أوجبت على حكومتهم أن تتخذ

---

(١) جريدة الأهرام ، العدد ١٠١٥٠ ، فى ١٩١١/٨/١ .
(٢) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .
(٣) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

خطة الاستبداد بحيث أن حكم عبد الحميد المستبد المطلق لم يلبث أن عاد بثوب آخر . ولم يستمر الغلواء سوى فترة جد ضئيلة ولم يكن الفرق بين العهدين سوى أن العهد الأخير كانت عليه مسحة المدنية الغربية » (١) ٠

وهكذا كانت سياسة الاتحاديين عقب الانقلاب الدستورى تتلخص فى تمييز العنصر التركى على باقى العناصر المختلفة فى الامبراطورية العثمانية ، مع محاولة « تتريك » جميع العثمانيين مستعملين فى ذلك مختلف الطرق من ضغط وارعاب، الى صبغ جميع الادارات والمصالح والمدارس بالصبغة التركية ، واحلال اللغة التركية محل اللغـات الأخرى ، مما أشـعل نار الصراع بين القوميـة التركية الصاعدة وبين القوميات الأخرى فى الامبراطورية ، وخاصة العربية التى كانت تتلمس طريقها الى الوجـود ، والتى ساعدها ودفعها الى تطوير نفسها ذلك الاحتكاك والصراع بينها وبين القومية التركية واستبداد الأتراك ضد العرب . وسيؤدى هذا الصراع فى النهاية الى انهيار الامبراطورية العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى لتصبح تركيا دولة محدودة المسـاحة يسودها العنصر التركى وحده ٠ كما تمسك الاتحاديون بفكرة المركزية متأثرين بأفكار الثورة الفرنســية رغم الفرق الشاسع بين فرنسـا أيام ثورتها فى سـنة ١٧٨٩ م والسلطنة العثمانية فى سنة ١٩٠٨ م ٠ اذ أن تمركز الادارة فى باريس ، كان استمرارا لتطور تاريخى طويل ، جعل باريس مركزا ثقافيا واقتصاديا ، وأدى الى توحيد فرنسا سياسيا واداريا ٠ لكن الوضع كان على نقيض ذلك تماما فى الدولة العثمانية ، لأن القوى التى ولدتها اليقظة القومية ٠ كانت تعمل باتجاه معاكس ، متنافر مع المركز المتمثل فى القسطنطينية ، ولأن المنابع التى تغذى القوى المذكورة ما زالت قائمة على فوارق اللغة والعادات والأفكار (٢) ، وسيبدو ذلك جليا فى البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية ٠

ولما كان الاتحاديون يعتقدون أن المركزية وسيادة قومية واحدة يطبعون بها جميع رعايا الدولة هى سبيلهم لانقاذ امبراطوريتهم واعادة أمجادها ٠ فقد كان من أول أعمالهم عقب عودتهم الى الحكم بعد انقلاب الرجعية فى أبريل سـنة ١٩٠٩ م ، الغاء الجمعيات التى أسستها العناصر غير التركية ، ومن بينها جمعية الاخاء العربى العثمانى ، وذلك قبل أن تنقضى ثمانية أشهر على افتتاحها ٠ وقد نتج عن ذلك ارتياب العرب فى نيات الاتحاديين نحوهم ، وبدأوا جديا فى العمل السرى الى جانب الجمعيات العربية العلنية التى سمح لها بممارسة نشاطها علنا فى المناطق غير الخاضعة للنفوذ العثمانى كما كان الحال فى مصر فى أثناء

---

(١) Amin, A. : Turkey in the World War, pp. 44-45.

(٢) جورج أنطونيوس : المصدر السابق ، ص ١١٥ ٠

الاحتلال البريطاني • وكان العرب يهدفون من ذلك الى حماية قوميتهم النامية التى أراد الاتحاديون الأتراك القضاء عليها •

الأوضاع الداخلية فى الجزيرة العربية فى مطلع العهـد الدستورى العثمانى :

اذا ألقينا نظرة عامة على الأوضاع الداخلية فى الجزيرة العربية فى مطلع العهد الدستورى العثمانى فاننا نجد أن عرب الجزيرة قد شاركوا باقى اخوانهم العثمانيين عامة والعرب خاصة فرحتهم وابتهاجهم بنجاح ثورتى ٢٠ من يولية سنة ١٩٠٨ م و١٣ ــ ٢٦ من أبريل سنة ١٩٠٩ م ، وتمنوا الخير الكثير على يد رجال جمعية الاتحاد والترقى • غير أن شعورهم هذا وما ترتب عليه من مواقف عملية اختلف اختلافا بينا فى الجزيرة العربية عامة واليمن خاصة عنه فى باقى العالم العـربى • ويرجع سبب ذلك الى أن الجزيرة العربية كانت متخلفة حضاريا وثقافيا عن باقى الجماعات العربية التى فى خارجها . وذلك تبعا للظروف الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فيها • فالجزيرة العربية تتميز بأنها وحـدة سكانية وحضـارية واجتماعية واحـدة ، بالرغم من وجود بعض الاختلافات بين مناطقها • وقد أدى هذا الوضع الجغرافى الاقتصادى الى تحديد أوضاع اجتماعية خاصة بالجزيرة بوجه عام وأوضاع اجتماعية معينة مقصورة على بعض مناطقها • على أن الوحدة الاجتماعية السائدة فى الجزيرة كلها هى القبيلة بكل ما لها من صفات فكرية ونفسية وأوضاع اقتصادية واجتماعية ، تؤدى كلها الى سلوك ومواقف تختلف تماما عما فى العراق والشام ومصر(١) • وأدى هذا الوضع الاجتماعى بالتالى الى تشكيلات سياسية خاصة أيضا ،فكانت الوحدة السياسية فى الجزيرة تتمثل فى الامارة أو المشيخة المحددة المساحة التى تعتمد على النفوذ الأسرى الاقطاعى المظهر ، أو الامامة التى تقوم على الفكر الدينى المذهبى وتفرض سلطانها على منطقة يسكنها الأتباع والمريدون الى جانب غيرهم كما كان الحال بالنسبة للامامة الزيدية فى اليمن (٢) •

والى جانب الأوضاع الخاصـة بالجزيرة والتى أدت الى التفتيت السياسى لسكانها فان الاستعمار الأوربى وخاصة الانجليزى كان من العوامل المؤكدة لهذا التفتيت • ذلك لأن بريطانيا أدركت الأهمية الكامنة فى استراتيجية الجزيرة العربية لتأمين طريقها الى الهند فاحتلت عدن فى سنة ١٨٣٩ وبدأت تتوسع لبسط نفوذها فى السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية ، كما زادت رغبتها فى ذلك بعد افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ فأصبحت « الشريان

(١) Brémond, E. : Yémen et Saoudia, p. 75.

(٢) السيد مصطفى سالم : اليمن والامام يحيى (١٩٠٤ ــ ١٩٤٨) ، ص ٤١ •

الامبراطورى » لمستعمراتها الآسيوية (١) • وقد أدى التدخل البريطانى فى الجزيرة العربية الى تفتيت وحدتها السياسية الى جانب ما أصيبت به من عوامل تفتيت داخلية • وكان كل ذلك مؤديا بالتالى الى تغيير أفكار ومواقف أهل الجزيرة العربية عن باقى أجزاء العالم العربى العثمانى •

ظهر الاختلاف أساسا فى نوع الأفكار « القومية » وأساليب العمل الايجابى لتحقيق المطالب القومية ، وذلك بين عرب الجزيرة عن بقية العالم العربى العثمانى • ومن التجاوز حقيقة أن توصف أفكار أهل الجزيرة بأنها أفكار « قومية » فى العشرينات من القرن العشرين ، اذ أنهم لم ينادوا بصورة جديدة للحكم فى بلادهم ، أو بمطالب معينة مثل « اللامركزية » بالصورة التى عرضها حزب اللامركزية العثمانى ، الذى اتخذ القاهرة مقرا له ، أو تحويل الامبراطورية العثمانية الى امبراطورية ثنائية ، كما نادت بها الجمعية القحطانية • لكن الأوضاع الخاصة لأهل الجزيرة جعلت أفكارهم تتبلور حول مطلب واحد تمسكوا به ازاء الاتحاديين ، وهو أن يتركوهم وشأنهم يديرون أمرهم بأنفسهم دون تدخل حكومى — مهما كان نوع هذه الحكومة وجنسيتها — هذا مع رضائهم واعترافهم بالسيادة العثمانية • وكان ذلك استجابة لعقائدهم الدينية المتحكمة ، ونظرتهم المقدسة للخلافة الاسلامية التى كان عبد الحميد قد أحيا شأنها معتمدا على أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده اللذين كانا من دعاتها • هذا الى جانب تميز وسائل أهل الجزيرة فى تحقيق مطالبهم عن غيرهم من سكان البلاد العربية الشمالية كالعراق والشام ومصر ، فبينما كان أسلوب القوميين العرب يتمثل أساسا فى تكوين الجمعيات ، والأحزاب السياسية ، وعقد المؤتمرات ، والالتجاء الى التشكيلات السرية ، والاعتماد على المنشورات فى نشر دعوتهم ، اذا لم يتمكنوا من الاعتماد على الصحف والمجلات ، فان عرب الجزيرة عبروا عن عدم رضائهم عن حكم الاتحاديين وموقفهم من العرب بالثورات المستمرة ضد الحاميات العثمانية الموجودة فى أراضيهم ، أى أن الأساليب السلمية فى التعبير عن المطالب القومية كانت مجهولة لديهم ، لهذا كانوا يلجأون الى طريقتهم الخاصة ، التى ألفوها حتى فى منازعاتهم الشخصية ، وهى القتال والكر والفر ، والالتجاء الى الجبال والفلوات أو الهجوم المباغت الى غير ذلك من أساليب القتال الشائعة بين رجال القبائل العربية (٢) • وقد كانت حياة عرب الجزيرة ببساطتها الأولية توحى اليهم بنوع التفكير وأسلوب العمل الذى سنرى أمثلة كثيرة لتطبيقاته عند عرضنا للأحداث التى شهدتها جبال اليمن وسهولها فى أثناء خضوعها للحكم العثمانى فى مطلع العهد الدستورى •

---

(١) د• جمال حمدان (دكتور) : دراسات فى العالم العربى ، ص ٢٧ •
(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٣ •

وقد بدأت علاقة الاتحاديين بالجزيرة العربية بعملين لهما أهميتهما بالنسبة لتطور الأحداث فى اليمن فى تلك الفترة ، **أولهما :** افتتاح سكة حديد الحجاز رسميا فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٨ م وكان الخط قد بلغ المدينة • **وثانيهما :** تعيين الشريف حسين بن على أميرا على مكة • وترجع أهمية هذين العملين الى النتائج العملية التى ترتبت عليهما • فوصول خط سكة حديد الحجاز الى المدينة ، معناه تأكيد سيادة ونفوذ الدولة العثمانية فى الحجاز ، لأنه ضمن لها وسيلة فعالة لنقل الجنود والمعدات فى أسرع وقت وأسلم طريق • وهذا ما حدث فعلا ، اذ أصبح الحجاز مركزا تنطلق منه الوسائل التنفيذية لاخضاع المتمردين فى جهات الجزيرة المختلفة وخاصة فى بلاد اليمن • كما أن تعيين الشريف حسين كان له أهميته وخطورته كذلك • اذ أن الاتحاديين عينوه ، بالرغم من ارادة السلطان عبد الحميد ، وكانوا يطمعون كثيرا فى أن يكون أداة طيعة فى أيديهم • واذا كان الشريف حسين سيساعدهم حربيا ضد الادريسى ، وسيساعدهم بنصائحه واتصالاته بالامام يحيى سعيا وراء الصلح بينه وبين السلطان ، فان الخلاف سرعان ما دب بين الاتحاديين وبين الحسين نتيجة لشخصيته التى كانت تتصف بالطموح والعناد • اذ عمل الحسين منذ وصوله مكة على جذب القبائل حوله وحول الأشراف ، بعد أن كانوا قد أهملوا فى أثناء حكم الأشراف الذين سبقوه • لهذا خشى الاتحاديون من شخصية الحسين الذى يريد أن يثبت وجوده فى بقعة هامة داخل امبراطوريتهم ، فرفضوا وساطته بعد ذلك بينهم وبين الادريسى والامام يحيى (١) على النحو الذى سنعرضه فى حينه •

وقد أدى وجود زعامات محلية بالجزيرة العربية الى تحديد الخطوط العامة لخريطتها ، وقد استطاع هؤلاء الزعماء أن يستمدوا كيانهم وسلطتهم من ظروف اجتماعية وتاريخية خاصة بمناطقهم • فكان هناك الشريف حسين فى مكة ، وعبد العزيز آل سعود فى الرياض ، والادريسى فى صبيا فى عسير ، والامام يحيى فوق الجبال الشمالية فى اليمن ، وآل الرشيد فى حائل فى شمال الجزيرة ، والصباح فى الكويت • والى جانب هؤلاء كانت هناك مشيخات وامارات على الساحل الشرقى والجنوبى للجزيرة العربية •

وقد كان العثمانيون والانجليز يمثلون القوتين الفعالتين فى أحداث الجزيرة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • وكان نفوذ العثمانيين يختلف قوة وضعفا من مكان الى آخر فى هذه البقاع ، تبعا لصلتهم بالزعماء المحليين وتبعا لقوة الحامية العثمانية التى تمثلهم فى المنطقة • فبينما كان الشريف حسين فى الحجاز ، والدولة ترقب تصرفاته بحذر ، وكانت لها حامية

(١) Hogarth, D.G. : Arabia, pp. 114-119.

عثمانية دائمة فى المدينة ، فقد كان أمراء آل الرشيد فى حائل يعترفون بسيادة العثمانيين عليهم ، وكثيرا ماكانوا يستنجدون بالأتراك ضد عدوهم عبد العزيز آل سعود ٠

أما عبد العزيز آل سعود فقد كان فى خصام مع الترك لأنهم كانوا يساعدون آل الرشيد ضده فى القصيم ، لذلك قويت علاقته مع الكويت التى كانت تخضع خضوعا غير مباشر للحماية البريطانية ، اذ كان الشيخ مبارك الصباح يعتمد على مساندة بريطانيا له وخاصة منذ سنة ١٩٠٣ م ٠ وقد تعاون الصباح مع ابن سعود على مهاجمة عشائر المنتفق فى العراق ، وكان الأتراك كثيرا ما يعتمدون عليهم ضد ابن سعود ٠ كما هاجم كلا الأميرين ـ الصباح وابن السعود ـ جبل شمر أيضا ، خاصة أن الأمير سعود بن الرشيد الذى تولى الامارة سنة ١٩٠٨ م كان طفلا صغيراوتولى الوصاية عليه أبناء عمومته ٠ وكان للعثمانيين السيادة العسكرية فى الأحساء الا أن هذه السيادة لم تدم طويلا ٠ ففى ربيع سنة ١٩١٣ م ، انقض عبد العزيز آل سعود على « الأحساء » وأخذ « الهفوف » ثم بعد فترة قصيرة استولى على « القاطف » ، وأخرج الترك ـ سواء العسكريين أو المدنيين ـ من هذه المنطقة ، بعد أن مكثوا بها أكثر من أربعين عاما ٠ وهنا بدأ ابن سعود محاولاته للاتصال بالانجليز والاستعانة بهم ، وكان لأمير الكويت دور فى التقريب بين الطرفين ٠

أما فى جنوب غرب الجزيرة فقد كان الامام يحيى والادريسى يتمتع كل منهما بوضع خاص فى اليمن وعسير ويناوئان الحكم العثمانى هناك وسيستمر الصراع دائرا بينهما وبين الدولة العثمانية حتى عقد صلح دعان فى سنة ١٩١١م مع الامام يحيى ، بينما واصل الادريسى ثورته ضد الأتراك حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى ٠ أما نفوذ العثمانيين فى الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية فقد كاد يكون معدوما ، اذ كان الانجليز هم أصحاب النفوذ الفعلى المباشر فى هذه الجهات عن طريق الاحتلال والسيطرة الفعلية ، أو عن طريق المعاهدات والاتفاقيات مع الزعماء العرب المحليين (١) ٠

الاتجـاهات السياسية العربية فى
مطلع العهـد الدستورى العثمانى :

وســوف نستعرض فيما يلى الاتجاهات السياسية العربية قبل الانقلاب الدستورى العثمانى الذى حدث فى سنة ١٩٠٨ م وتطورها فى أثنـاء العهد

---

(١) Hogarth, D.G. : Op. cit., pp. 123-124.

الدستوري وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى حتى يمكننا معرفة موقف العرب عامة واليمنيين خاصة من الأتراك العثمانيين في تلك الفترة • وتتلخص هذه الاتجاهات في خمسة تيارات رئيسية بيانها كالآتي :

١ – السعي لاحياء الخلافة العربية لتحل محل الخلافة العثمانية •

٢ – الاشتراك مع أحرار الترك للمطالبة باجراء اصلاحات عامة تشمل الولايات العثمانية كلها •

٣ – المطالبة بحق البلاد العربية في اصلاحات خاصة بها •

٤ – السعي لانفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لانشاء دولة عربية موحدة •

٥ – طلب الحماية من دولة أوربية •

وقد كان التيار الأول خاصا ببعض جماعات المسلمين ، والتيار الأخير كان يضم بعض جماعات المسيحيين ، والتيارات الثلاثة الباقية كان ينتظم فيها المسلمون والمسيحيون على السواء • وكان هذا بالنسبة لأقطار الهلال الخصيب التي ركز الترك فيها حكمهم ونفوذهم وأحكموا ربطها بامبراطوريتهم المتداعية اداريا واقتصاديا وثقافيا (١) • أما أقطار الجزيرة العربية الأخرى فقد اقتسمت النفوذ فيها خمس أسر حاكمة ، كانت كل منها تعمل لتوسيع رقعة سلطانها على أراضي جيرانها ، كما أنها كانت غير خاضعة للآستانة مباشرة لأن قبضة الترك لم تكن قوية عليها • فكان الامام يحيى في اليمن يجمع الزيديين من حوله ويقيم نفوذه على عصبيتهم ، وقد رأينا أن مساعي رجالات تركيا لم تفلح في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في السيطرة الكاملة على جميع أجزاء اليمن واقرار الحكم العثماني هناك • وفي عسير ظهر السيد محمد الادريسي في سنة ١٩٠٧ م وأعلن ثورته ضد الأتراك واتصل بالايطاليين قبل الحرب العالمية الأولى فدعموه حتى استطاع أن ينفصل فعليا عن سلطان الدولة العثمانية • وفي نجد استرجع سلطانها عبد العزيز آل سعود عاصمته من أعدائه آل الرشيد وما زال يتوسع فيما حوله حتى احتل الأحساء في سنة ١٩١٣ م وكانت تابعة لنفوذ والي بغداد العثماني • وبينما كان آل الرشيد يحكمون شمال نجد من عاصمتهم حائل ويسيطرون على جبل شمر ، وكان الحجاز ولاية عثمانية يديرها الى جانب الوالي العثماني في المدينة المنورة شريف مكة المكرمة • وكان الشريف الجديد الذي اختاره الاتحاديون في سنة ١٩٠٨ م هو حسين بن علي بن عون ، وكان طموحا

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٧٦ •

جذرا يعمل من أجل تثبيت دعائم حكمه فى الحجاز ومد نفوذه على سائر الجزيرة العربية (١) ٠

وفى الوقت الذى أخذت تنمو فيه اليقظة العربية فى بداية العهد الدستورى العثمانى بدأت تنشط عند الأتراك عصبية تركية ترمى الى صبغ الامبراطورية العثمانية بصبغة تركية ٠ واعتقد معظم أعضاء جمعية الاتحاد والترقى بعد اسقاط عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩ م أن سياسة التتريك ستصهر بقية عناصر الامبراطورية العثمانية فى بوتقة تركية واحدة ٠ وعندما قام العرب بتأسيس جمعيات علنية ونواد مركزها فى الآستانة ، ودمشق ، وبيروت ، مع فروع لها فى الولايات العربية الأخرى ، سارعت السلطة التركية لاخماد نشاطها واغلاق أبوابها مع أن بعضها كان يدعو الى الاخاء العربى العثمانى ٠ كما تمسك الترك بأسلوب الادارة المركزية الشديدة بدلا من العمل على تخفيف وطأتها ٠ وعندئذ قام نوع من التفاهم السرى بين نفر من رجال الاصلاح العرب المتذمرين ، ومن ضباط الجيش ، كما حدثت أيضا محاولات من جانب بعض الزعماء العرب للاتصال ببعض الدول الأوربية (٢) ٠

على أن التشدد فى المركزية فى العهد الدستورى العثمانى ، فى دولة تتألف من قوميات عديدة ، مثل الدولة العثمانية ، كان لابد أن يثير مشكلات كثيرة وخطيرة ، وتوالى هذه المشكلات كان لابد أيضـــا أن يحمل الكثيرين من النواب على المطالبة بـ « اللامركزية » ٠ وقد اقتحمت فكرة اللامركزية المجلس النيابى العثمانى اقتحاما ، ودخلت فى منهاج حزب المعارضة الذى سمى باسم « حزب الحرية والائتلاف » ٠ وأخذ نواب الأقاليم « غير التركية » ينفصلون شيئا فشيئا عن حزب الاتحاد والترقى ، وينضمون الى حزب الحرية والائتلاف٠ وقد بقى حزب الاتحاد والترقى قابضا على زمام الحكم حتى أدت الأحداث التى أعقبت ثورة الألبان فى سنة ١٩١٢ الى سقوط الحكومة الاتحادية ، والى انتقال مقاليد الحكم الى حزب الحرية والائتلاف ٠ وقد اتجهت الوزارة التى ألفها الحزب الأخير الى تطبيق مبدأ اللامركزية ، ودعت « المجالس العمـــومية فى الولايات » الى الاجتماع « لبحث حاجات الولاية ، وتقديم تقارير عما تراه من اصلاحات » ٠ ولكن عمر هذه الوزارة لم يطل كثيرا اذ أن زعماء الاتحاد والترقى باغتوها خلال اجتماعها فى الباب العالى ، وقتلوا وزير الحربية مع مرافقه ، فاضطروا رئيس الوزراء الى الاستقالة ٠ وقد أصدرت الوزارة التى ألفوها بعد هذه الحادثة أمرا بابطـال الخطوات التى كانت خطتها « وزارة الحرية والائتلاف » فى سبيل

(١) أحمد طربين : الوحدة العربية (١٩١٦ — ١٩٤٥) ص ١٧ ٠

(٢) أحمد طربين : المصدر السابق ، ص ١٨ ٠

اللامركزية ، وهكذا عادت فكرة المركزية الى الحكم والسلطان ٠ وقد أحدث هذا رد فعل شديد فى البلاد العربية مما أدى الى نتائج خطيرة (١) ٠ اذ أخذ ساسة العرب وشبابهم يتوسعون فى تكوين الجمعيات السرية فى كل الجهات٠ كما أقدم جماعة منهم على عقد مؤتمر علنى خارج البلاد العثمانية ليعلنوا مطالب العرب على رءوس الأشهاد ٠ فانعقد المؤتمر العربى فى باريس فى ١٧ ـ ٢٣ من يونية سنة ١٩١٣ م واشترك فيه ممثلون عن مختلف الجمعيات العربية القائمة فى العالم العربى ، وعن مهاجرى العرب فى المكسيك وفى الولايات المتحدة الأمريكية (٢) ٠ وتلقى المؤتمر برقيات تهنئة وتأييد كثيرة من المدن التى لم تستطع أن ترسل ممثلين ٠ وألقيت فى المؤتمر عدة خطب ، جرت حولها مناقشات انتهت جميعها الى اتخاذ عدة قرارات توضح مطالب العرب ٠ وكان هذا أول صدام علنى وصريح بين العرب والترك (٣) ٠

وتجدر الاشارة الى أن الحكومة العثمانية لم تكترث فى بادىء الأمر بما حدث فى المؤتمر العربى فى باريس ، وحاولت أن تحمل بعض الجماعات فى الولايات العربية على استنكار سلوك الاصلاحيين بوجه عام وأعضاء المؤتمر بوجه خاص ، واستطاعت أن تحرض على تحرير المقالات وارسال البرقيات لهذا الغرض ٠ غير أنها رأت فى آخر الأمر ، أنه من الأصلح لها أن تتصل بزعماء المؤتمر ، وأن تتفاوض معهم فى شئون الاصلاحات وأوفدت لباريس ـ لهذا الغرض ـ أحد أعضاء المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى ، الذى اتصل هناك بزعماء الحركة الاصلاحية ، وناقشهم فى مختلف المسائل والمطالب ٠ وعندما رأى هذا العضو تقارب وجهات النظر فى معظم المسائل الأساسية ، عاد الى استامبول ، وبرفقته عبد الكريم خليل الذى كان « رئيس المنتدى الأدبى ومعتمد الشبيبة العربية » فى عاصمة الدولة ، وذلك لاتمام المفاوضات مع طلعت بك نفسه ـ الذى كان اذ ذاك وزيرا للداخلية ـ وهذه المفاوضات انتهت باتفاقية وقع عليها طلعت بك باسم المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى وعبد الكريم خليل باسم الشبيبة العربية ٠ وقد رأينا أن نورد فيما يلى نص هذه الاتفاقية ، كما نشره ساطع الحصرى (٤) ـ نظرا لأهميتها فى تفسير تطور العلاقات العثمانية العربية فى مطلع العهد الدستورى العثمانى :

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ٠

(٢) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٧١ ٠

(٣) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ٠

(٤) ساطع الحصرى : المصدر نفسه ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

« صــورة الاتفاقية المعقودة بين المركز العــام للاتحاد والترقى وبين هيئة الشبيبة العربية :

المادة ١ ــ يكون التعليم الابتدائى والاعدادى (أى الثانوى) باللغة العربية فى جميع البلاد العربية ، كما يكون التعليم العالى أيضــا بلغة الأكثرية · وانما يكون تعليم اللغة العثمانية اجباريا فى المدارس الاعدادية ·

المادة ٢ ــ يشترط فى رؤساء المأمورين بوجه عام أن يكونوا واقفين على اللغة العربية · وأما سائر المأمورين فسيعينون من قبل الولاية ، الا أن الحكام ومأمورى العدلية الذين يتولون أعمالهم بارادة سنية (أى بارادة ملكية) سيعينون من المركز · وأما الولاة فمستثنون من القيد السالف الذكر ·

المادة ٣ ــ أن العقارات والمؤسسات الوقفية المشروط صرفها الى الجهات الخيرية المحلية ، ستترك الى مجالس الجماعات المحلية ، على أن تدار من قبلها وفق شروطها الخاصة ·

المادة ٤ ــ الأمور النافعة ستترك الى الادارة المحلية ·

المادة ٥ ــ أن الأفراد العسكريين سيؤدون خدماتهم العسكرية ــ فى وقت السلم ــ داخل البلاد العربية ، فى دوائر مناطق الجيش التى ينتسبون اليها · الا أن الجنود الذين لابد من ارسالهم فى الحالة الحاضرة (سنة ١٩١٣) الى الحجاز والعسير واليمن ، سيرسلون من جميع الولايات العثمانية ضمن نسبة معينة ·

المادة ٦ ــ أن المقررات التى تتخــذها مجالس المديريات العــامة ضمن صلاحيتها القانونية ستكون نافذة على كل حال ·

المادة ٧ ــ سيقبل كمبدأ أساسى ، أن يكون فى الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل، كما أنه سيكون فى الدوائر المركزية عدد مماثل لذلك من العرب بصفة مستشارين أو معاونين ، وسيعتبر من الأسس المقررة : أن يكون فى كل لجان المأمورين ، وشورى الدولة ، ومجلس المشيخة الاسلامية ، ومجالس سائر الدوائر المركزية اثنان أو ثلاثة من العرب ، كما يكون فى كل وزارة أربعة أو خمسة موظفين من درجات مختلفة أيضا من العرب ·

المادة ٨ ــ سيكون فى الحالة الحاضرة (سنة ١٩١٣) خمسة ولاة وعشرة متصرفين من العرب ، كما أنه ستزال المغدوريات التى قد تكون لحقت بالموظفين فى الدوائر الملكيــة والعدلية والعلمية الذين لم يرفعوا بالنســبة الى سائر زملائهم · أما فيما بعد فسيكون تعيين الموظفين وترفيعهم وتأديبهم وفق قانون خاص ·

المادة ٩ – سيعين فى مجلس الأعيان من العرب بنسبة اثنين عن كل ولاية عربية ٠

المادة ١٠ – سيعين فى كل ولاية ، مفتشون مختصون من الأجانب فى الدوائر والمصالح التى تحتاج الى ذلك ٠ وستقرر صلاحيات هؤلاء المفتشين وواجباتهم بنظام خاص ، يكفل الحصول على الفوائد الانضباطية والاصلاحية المطلوبة والمنتظرة منهم ٠

المادة ١١ – النقص الموجود حاليا فى ميزانيات الدوائر التى تركت ادارتها الى الولايات ، سيسد عن طريق اضافة الموارد الكافية لميزانية الولاية ٠ وسيخصص نصف حصيلة ضريبة المسقفات الى الادارات المحلية على أن تصرف لأمور المعارف » ٠

وقد رأت الدولة العثمانية أن تبقى هذه الاتفاقية سرية ، لكى تتخذ جمعية الاتحاد والترقى التدابير اللازمة لوضع واصدار القوانين والأنظمة والقرارات والتعليمات التى تقتضيها المبادىء المقررة شيئا فشيئا ، بالأساليب التى تراها الحكومة ، مع ملاحظة أحوال العناصر العثمانية الأخرى ٠ وبعد هذا الاتفاق ، أقام « معتمد الشبيبة العربية » عبد الكريم الخليل مأدبة عشاء – باسم هيئة الشبيبة العربية – تكريما لوزير الداخلية طلعت بك ، ولسائر أعضاء المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى ٠ وألقيت خلال هذه المأدبة خطب عديدة ٠ وكان مما قاله طلعت بك فى هذه المناسبة : « أود أن أصرح للملأ بأن موقفنا من نظام اللامركزية كان مبنيا على أوضاع الشعوب البلقانية ٠ اننا كنا نعلم نزعات تلك الشعوب ونواياها ٠ وكنا نخشى أن يؤدى نظام اللامركزية الى تسهيل وتسريع انفصالها عنا ٠٠٠ ولكن الآن ٠٠٠ وقد انفصلت تلك الشعوب عن الدولة فعلا ، لم نعد نرى ما يستوجب الاستمرار فى سياسة المركزية التى كنا نتبعها قبلا – لأننا نعرف نزعاتكم الحقيقية ، فلا نتردد فى المضى معكم الى آخر حدود التساهل فى سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم ٠ لأننا نعتمد على اخوتكم ، فنستطيع أن نتفاهم معكم فى جو من المودة الصحيحة ، على سياسة جديدة » (١) ٠

وقد ظهر واضحا من هذه التصريحات الرسمية أن الدولة العثمانية أصبحت فى سنة ١٩١٣ على أبواب حياة جديدة ، تقوم على التفاهم والتعاضد بين العرب والأتراك ٠ غير أن الحوادث التى توالت بعد ذلك ولا سيما الحرب العالمية الأولى التى نشبت قبل أن تقطع الحكومة شوطا كبيرا فى تنفيذ أحكام الاتفاقية ٠٠٠ غيرت مجرى الأمور تغييرا كليا ٠ والسبب فى ذلك يعود فى الدرجة الأولى الى اختلاف الأتراك أنفسهم فى هذه القضايا ، وعدم اطمئنان الكثيرين منهم على نظام اللامركزية ٠ فقد آمنت جماعة منهم بضرورة تغيير الأوضاع على أساس الادارة

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ١٣٦ ٠

اللامركزية · غير أن كثيرين منهم كانوا ـ على العكس من ذلك ـ متمسكين بمذهبهم الأصلى ، مستسلمين الى نزعتهم القديمة ، معتقدين بضرورة الاستمرار فى حكم البلاد العربية ، بالقوة والقسر · ولهذه الأسباب لم تظهر الحكومة العثمانية فى تنفيذ المبادىء المتفق عليهـا النشاط الضرورى لكل حركة اصلاحية جـدية · فصارت تماطل وتسوف ، ولا تغير الأوضاع الا شيئا فشيئا وببطء كبير جدا · بل ان أعمال التنفيذ التى كانت تسير بطيئة قبل نشوب الحرب العالمية الأولى ، توقفت تماما بعـد اعلان التعبئة العـامة ، ولا سيما بعد اعلان الحرب بصورة رسمية ·

غير أن تصرفات الحكومة فى الشئون العربية لم تتوقف عند حد « تأجيل الاصلاحات التى كان قد تم الاتفاق عليها سابقا » بل تعدت ذلك الى « الانتقام من زعماء الحركة التى آلت الى هذا الاتفاق » · حتى أن جمال باشا الذى كان قد عين قائدا عاما على جبهة القتال ، مع سلطات فوق العادة ، لحكم سوريا بأجمعها ، كان من المتشبعين بالنزعة الطورانية · فالتزم سياسة الارهاب وأخذ يعتقل ، ويحاكم وينفى ، ويشنق الكثيرين من زعماء العرب · وتعرض لذلك زعماء « التفاهم » أمثال عبد الحميد الزهراوى الذى رأس المؤتمر العربى الأول المنعقد فى باريس ، والذى كان قد عين بعد ذلك فى عضوية مجلس الأعيان ، فكان من جملة الذين أعدموا شنقا بقرار من الديوان العرفى الذى ألفه جمال باشا · وكذلك عبد الكريم الخليل الذى وقع على اتفاقية « التفاهم » والذى أقام المأدبة المشهورة تكريما لأعضاء المركز العام لجمعية الاتحاد والترقى بمناسبة عقد تلك الاتفاقية ، كان هو أيضا ممن لفظوا أنفاسهم الأخيرة على أعواد المشانق التى نصبها جمال باشا فى بيروت وفى دمشق (١) · وقد كانت هذه الأعمال الارهابية والانتقامية التى أقدم عليها جمال باشا من أهم العوامل التى أدت الى انقطاع العلاقات بين البلاد العربية وبين الدولة العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى ومهدت لقيام الثـورة العربية فى سنة ١٩١٦ ، وسأتعرض لذلك ـ بشىء من التفصيل ـ فى الفصل القادم عند عرض موضوع الحكم العثمانى فى اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى·

ثانيا ـ موقف الأدارسة من الحكم العثمانى فى اليمن (١٩٠٨ ـ ١٩١١)

بعد أن استعرضنا الاتجاهات العامة لسياسة العثمانيين فى حكم الولايات التابعة لهم فى مطلع العهد الدستورى فى الفترة من ١٩٠٨ ـ ١٩١١ ، يجدر بنا قبل دراسة أحداث اليمن فى تلك الفترة أن نبين الظروف التى استجدت على

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ·

مسرح الواقع اليمنى ، وخاصة ظهور الأدارسة فى عسير والمخلاف السليمانى بشمال اليمن ، تمهيدا لعرض الدور الذى قاموا به فى مقاومة الحكم العثمانى هنـــاك ٠

بداية ظهور الأدارسة فى عسير :

يرجع تاريخ الأدارســـة فى عسير الى وصول كبير بيتهم ومؤسس ملكهم السيد أحمد الادريسى الى مدينة (صبيا) فى مطلع القرن التاسع عشر ٠ وقد ولد أحمد هذا فى بلدة العرائش التى كانت من أعمال فاس ببلاد المغرب فى سنة ١٧٥٨ م (١١٧٢ هـ) ٠ وبلاد المغرب تعد هى وايران القطبين الرئيسيين الموردين للصوفية فى العالم (١) الاسلامى ٠ وقد أخذ السيد أحمد العلوم الدينية عن شيوخ عهده وأهمهم عبد الوهاب النازى ، ثم توجه من وطنه بطريق البحر الى مكة فى ســـنة ١٧٩٩ م (١٢١٤ هـ) وكرس نفســـه للعبادة والاشتغال بعلوم الدين (٢) ٠ وفى أثناء اقامته فى مكة كانت « تجرى بينه وبين علمائها المناظرة ، وكان ملحوظا بعين الاحترام من أمرائها ، ويحيا حياة طيبة من سعة العيش » تبعا لما أوضحه تلميذه حسن بن أحمد عاكش فى ترجمة لحياته ضمنها كتابه « حدائق الزهر فى ذكر أشياخ أعيان الدهر » ٠ وقد ذكر مؤلف الكتاب أن السيد الادريسى كان يقول « نحن ضيوف الله فى أرضه والضيوف بوجه مضيفهم، ومن حمل الزاد الى منزل الكريم أو سأل شيئا منه وهو فى منزله عد لؤما » ٠ غير أن هذه النزعة الصوفية لا تنطبق بطبيعة الحال وجوهر الدين الاســـلامى الذى يحث على الكسب المشروع والعمل المثمر (٣) ٠

وعلى أية حال فقد التقى السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل مفتى زبيد فى ذلك الوقت بالسيد أحمد الادريسى فى مكة ووجد أنه « كالعافية للسقيم وكالشفاء للجرح الأليم » ، كما أورد ذلك فى ترجمته للسيد الادريسى ضمنها كتابه « النفس اليمانى والروح الريحانى » ٠ ولما عاد الأهدل الى زبيد تحدث عن الادريسى وأثنى عليه كثيرا (٤) ٠ وكان ممهدا لاستقباله فى اليمن ٠

وقد توجه أحمد الادريسى من مكة الى اليمن فمر بمدينة (جيزان) فى طريقه الى (الحديدة) وكان منتهى سيره الى (زبيد) فاستقبله السيد الأهدل

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٥٣ ٠

(٢) شرف عبد المحسن البركاتى : الرحلة اليمانية للشريف حسين « باشـــا » أمير مكة المكرمة ، ص ٣ ـ ٤ ٠

(٣) محمد بن أحمد عيسى العقيلى : المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥٦٥ ٠

(٤) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ٠

عبد الرحمن (١) ٠ وقد أخذ الادريسى يبشر بعقيدته ويدعو الى طريقته ٠ وكان حيثما نزل محترما مبجلا حتى نظم فى مدحه القصائد شعراء زبيد وبيت الفقيه وتعز ووصاب ، والتف حوله العلماء والمشايخ وتهافت عليه عامة الناس وخاصتهم ٠ وكان زبيد مركز نشاطه يطوف فى تهامة ثم يعود اليها حتى أخذ الناس يتسابقون الى اعتناق دعوته ونشر طريقته ٠ وقد أجاز الادريسى طريقته للسيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل هو وأولاده اجازة عامة ، فتسلسلت زعامتها بعد ذلك فى بيت الأهدل (٢) ٠ وقد سمى السيد أحمد طريقته « أحمدية » نسبة الى اسمه ، وهى تدعى كذلك فى تهامة وعسير ، أما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لأن أتباعها يسلكون بالتهليل والأدعية مسلك الشاذليين ٠

ويذكر أمين الريحانى أنه ما كان يوجد فى تهامة كلها فى ذلك الوقت شاعرا واحدا ينظم باللغة العربية الفصحى على الرغم من كثرة الشعراء والعلماء فى مدن تهامة وقراها قبل ذلك بمائة عام (٣) ٠ وكان هذا نتيجة لخضوع البلاد للحكم التركى ، أو لانتشار التصوف الذى تحول فيما بعد عند أهالى المنطقة فصار طرقا وحلقات ٠ على أن السيد الادريسى اتجه بعد ذلك شمالا فقام بزيارة الحديدة ومرواغة وباجل ثم توجه الى صبيا التى كانت تابعة لحكم أشراف أبى قريش فاستقر فيها واستوطنها (٤) ٠ وكانت اقامته هناك خاتمة لرسالته الصوفية ، وفاتحة لطريقته الأحمدية ، واعتبر وليا من الأولياء المحليين عند وفاته فى سنة ١٨٣٧ م (١٢٥٣ هـ) ٠ وقد خلف السيد أحمد الادريسى لأوده ثروة مادية ومعنوية هائلة ، اذ عاشت أسرته من بعده تتمتع بنفوذ كبير وسلطان عريض يمتد أساسا على قبره اعتبر مزارا من بعده ، فظلت أسرته يحفها هذا الاجلال الدينى العميق مما أكسبها مكانة خاصة (٥) اعتمد عليها حفيده محمد بن على ابن الأحمد الادريسى الذى أسس فيما بعد حكومة الأدارسة فى عسير وشكل خطرا كبيرا على النفوذ العثمانى فى اليمن ٠

واذا كان يذكر عن السيد أحمد الادريسى أنه قال : « واجعلنى يا الهى لك عبدا محضا عبودية خالصة لا رائحة ربوبية فيها على أحد من خلقك » أى ان الرجل كان صالحا لا يرغب فى غير العبودية لله الخالصة المجردة من الربوبية على أحد من خلق الله فيرفع الى مقام الأولياء ، فان ضريحه أخذ منه حجر الزاوية لملك عربى جديد ، وكانت تهامة وعسير تنعم بالاستقرار النسبى فى ظل الادارة المصرية على

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧ ٠
(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦١ ٠
(٣) أمين الريحانى : المصدر نفسه ، ج ١ ، هامش ص ٢٥٧ – ٢٥٨ ٠
(٤) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 120.
(٥) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٤٢ ٠

الرغم من قيام بعض سكان المنطقة بالتمرد والثورة بين حين وآخر (١) ضد الحكم العثمانى الذى حمل المصريون لواءه فى اليمن بتكليف من الباب العالى · وترجع أسباب ثورة هؤلاء الى أن كثيرين منهم ـ اقتداء بزعيمهم أبى نقطة ـ اعتنقوا المذهب الوهابى وكانوا من أنصار الأمير سعود الكبير الذى استولى على معظم أجزاء الجزيرة العربية · وقد كان انتشار الوهابية فى تهامة أحد الأسباب فى نجاح الطريقة الأحمدية ، فبالمقاومة ـ على حد قول أمين الريحانى ـ تظهر القوى الكامنة فى المذاهب وفى الجماعات · ولكن السيادة الروحية المغربية فازت نهائيا على السيادة الوهابية · لأن « توهيب الناس » يومئذ فى تهامة لم يكن غالبا عن اعتقاد ، بل كرها للحكم الشريفى المحلى الذى اعتبروه حكما ظالما جائرا ·

وعندما قررت الدولة العثمانية أن تسحب جنودها من تهامة وعسير فى سنة ١٨٤٠ ، كان يطمع بالسيادة فيها ثلاثة من أمراء العرب ، هم الشريف محمد ابن عون فى مكة ، والشريف حسين بن على بن حيدر من أشراف أبى عريش فى شمال اليمن ، والامام الزيدى فى صنعاء · وكان أقرب الثلاثة وأدهاهم وهو الشريف حسين قد تسلم زمام الحكم فى تهامة ، بعد جلاء المصريين عنها ، على أن يدفع سنويا للدولة قيمة من المال · غير أن طموح الحسين ورغبته فى الاستيلاء على اليمن بأكمله أدت الى نشوب الحرب بينه وبين امام صنعاء واستمرت بضع سنين تناوبته فيها الهزيمة والنصر ، فوقع مرة فى يد الزيديين أسيرا وبسط بعدئذ سيادته على منطقة تهامة كلها حتى المخا (٢) ثم ناء الحسين بعبء الحكم بعد أن واجهتــه مشــكلات كثيرة مما جعله يستنجد بالدولة العثمانية التى عادت فاستولت قواتها على تهامة وعسير بقيادة توفيق باشا فى سنة ١٨٤٩ · وقد استقر توفيق باشا فى الحديدة بينما قنع الشريف حسين بالعودة الى مقره الأول فى أبى عريش ·

وقد عرضنا فى الفصــل الأول الظــروف التى أحاطت بمحاولة التــرك السيطرة على صنعاء فى سنة ١٨٤٩ بقيادة توفيق باشا وما آلت اليه حملتهم من فشل · ففى ذلك الوقت عادت تهامة الى ما كانت عليه من اضطراب ، ولم يكن يحكمها فعلا الأتراك ، ولا أشراف أبى عريش · فجاء ابن ادريس يشيد بين ظلال السيادتين المتداعيتين حكما روحيا وماديا ، كما أخذ يبث دعاته فى شمال البلاد وجنوبها لتوسيع نطاق ملكه الجديد ·

واذا كان أحمد بن ادريس قد وجد السبيل ممهدا لنشر طريقته وتثبيت مركزه الروحى ، فقد تفرق بعد موته معظم أصحابه ومريديه ، ولم يكن ابنه فى

(١) (٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ·

قوة شخصية والده فعاش على حساب ذلك التراث الصوفى الموروث · ولم تكن المدة التى عاشها السيد أحمد بن ادريس بكافية لرسوخ جذور طريقته فى نفسية الشعب اليمنى فى عسير ، اذ كان تأثيرها القوى فى مدينة صبيا وضواحيها ، ولم يكن تأثيرها بقوة ايمان فى نفوس مريديه ، وانما عن اعتقاده فى صـلاح وتقوى شخصيته ، وفرقا واضحا بين العقيدة والاعتقاد · وقد توجه ابنه محمد ابن أحمد بن ادريس ــ خليفته فى طريقته ــ الى الحديدة واستقر بها ، ولم يعد الى صبيا الا قبل وفاته بثمانية أيام ، وخلفه ابنه على بن محمد بن أحمـد ابن ادريس الذى كان قليل الاختلاط بالناس وقد توفى فى سنة ١٩٠٦ م (١٣٢٤ هـ) · وكان على هذا قد أنجب أربعة أبناء هم : محمد والحسن وأحمد والحسين ، وقد توفى الأخيران فى أول الحركة التى قام بها أخوهما الأول محمد ابن على بن أحمد بن ادريس ، والتى سنستعرض تفاصيلها فيما يلى بعد توضيح معالم شخصيته (١) ·

الدور الذى قام به محمد بن ادريس فى تأسيس ملك الأدارسـة فى عسـير منـذ سنة ١٩٠٧ :

ولد السيد محمد بن على بن أحمد بن ادريس فى صبيا فى سنة ١٨٧٦ م (١٢٩٣ هـ) ، وتلقى تعليمه على يد أساتذة الأزهر فى مصر ، وفى مدينة الكفرة مقر السنوسيين فى برقة بالمغرب ، وجاء منها الى السودان فأقام فى « أرجو » بدنقلة حيث تزوج بابنة الشيخ هارون الطويل شيخ الطريقة الأحمدية · ثم عاد السيد محمد الى عسير مسقط رأسه فى أوائل القرن العشرين حيث كانت البلاد تعانى من الفوضى والاضطراب · وكان الترك فى عسير يحكمون المناطق التى يستطيعون فيها حماية أنفسهم ، كما كانوا يستميلون رؤساء العشائر بمشاهرات لا يدفعون منها غير اليسير مما أدى الى انقلاب أصحاب الديون عليهم · وقد نجح الادريسى فى أن يستميل الى جانبه رؤساء العشائر فى عسير (٢) ، كما استغل فرصـة النزاع القائم بين مشايخ البـلاد فأعان بعضهم على بعض حتى كانت له السيادة عليهم ، فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة على نحو ما كان يفعل معهم امام صنعاء · ثم مد الادريسى سيادته شمالا وشرقا فى الجبال المحيطة بعسير فجمع عدة أفخاذ وبطون من العشائر تحت لوائه الذى رفع فترة من الوقت عند حصن أبها وعلى حدود حاشد وبكيل (٣) · وعلى أية حال فقد أصبح

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ·
(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٢ ·
(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٢ ·

الادريسى فى سنة ١٩٠٧ شخصية قوية لها خطورتها فى عسير وشمالى اليمن (١).

وهكذا استطاع الادريسى عقب عودته الى صبيا أن يستغل ثقافته الواسعة ومقدرته الادارية والسياسية حتى استطاع أن يجتذب من حوله قبائل المنطقة مما زاد من قوته وخطورته . أما باقى القوى الأخرى فى اليمن وأهمها العثمانيون فانهم لم يهتموا بأمره عند بداية ظهوره اذ اعتبروه أحد رجال الدين العديدين أو المتصوفين الذين سرعان ما تنطفىء نجومهم . بينما تجاهله الشريف حسين أمير مكة واعتبره « حديث نعمة » سينتهى أمره سريعا ، اذ كان الشريف يتمتع ببعض النفوذ الاسمى على قبائل المنطقة . أما الامام يحيى فكان أكثر ادراكا لحقيقة محمد الادريسى وخطورة حركته ، وكان الامام يحيى يعتبر عسير جزءا لا يتجزأ من اليمن (٢) . فعندما رأى الامام يحيى أن الادريسى نجح فعلا فى نشر دعوته خارج المخلاف السليمانى ، وبسط نفوذه شمالا وجنوبا حتى أن بعض القبائل المنتشرة حول صعدة - مركز الزيدية فى اليمن - اعتنقت تعاليمه وأبدت ولاءها لسيادته ، فقد رأى الامام يحيى مضطرا أن يرحب بالتحالف مع الادريسى ، حتى يحمى مؤخرته عندما يخوض معركته ضد الأتراك فى صنعاء وتجبره خطة الحرب أن يزحف جنوبا من معاقله فى شمال الهضبة اليمنية . وسيؤدى هذا لفترة محدودة الى تحالف الامام يحيى مع الادريسى فى أثناء صراعهما المشترك ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن (٣) .

ويوضح أمين الريحانى صفات الادريسى وسياسته بقوله : « كان السيد محمد (الادريسى) حصيفا ذكيا ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشقاقات ، بالزرانيق مثلا على الأتراك ، وبالشوافع على الزيديين ، وبالعشائر على الأشراف ، وبالانكليز على الجميع . وكان له عون كبير فى ارثه الروحى ضاعف نفوذه الشخصى وزاد ذكاؤه الفطرى لمعانا » (٤) .

ثم يذكر الريحانى « أن نجم السيد محمد لم يعل ويتلألأ فى سماء آل ادريس الا خلال حربين بين الدولة العثمانية ودول الافرنج ، أى حربها سنة ١٩١٢ مع ايطاليا ثم اشتراكها فى الحرب العظمى على الأحلاف . فقد كان فى الحربين خصم الترك اللدود ، والحلف الذى لا ينقض العهود . وأخذ من الايطاليين سلاحا فاستخدمها نارا وسياسة على عدوها وعدوه . وأخذ من الانكليز مالا وسلاحا فخدم الأحلاف فى الجزيرة خدمة ، وان صغرت ، لا تشوبها الأطماع ، ولا يفسدها الخداع . وقد كان لا يزال له غير الأتراك

---

(١) Jacob, H. F. : Kings of Arbia, p. 70.

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨١ .

(٣) Hogarth, D.G. : Op. cit., p. 121.

(٤) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٣ .

عدوا . فحارب هذا العدو كذلك بما جاء من الحليفتين . ولكن انتصاره على الزيديين فى ذلك الحين كان يعد انتصارا على الأتراك (١) .

ويواصل الريحانى حديثه عن الادريسى فيقول : « ومما يجهله الافرنج والعرب أن السيد محمد كان أول من انضم الى الأحلاف من أمراء العرب ، وأول من حمل فى البلاد العربية على دولة الترك حليفة الألمان » (٢) . على النحو الذى سوف نوضحه فيما بعد .

وقبل أن يعود محمد الادريسى الى وطنه ومسقط رأسه فى صبيا كان على اتصال بمحمد على علوى مترجم السفارة الايطالية بالقاهرة فى سنة ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) (٣) وهو الوقت الذى كانت ايطاليا فى أثنائه تعد العدة لغزو طرابلس الغرب التى كانت تابعة للدولة العثمانية حينذاك . وقد أرادت ايطاليا أن تشغل الدولة العثمانية باشعال نار حرب فى جهة من الجهات التابعة لها لاحداث خلخلة فى الجبهة العثمانية فى طرابلس الغرب مما يتيح لايطاليا فرصة السيطرة عليها دون جهد كبير . وكانت ايطاليا فى ذلك الوقت تستعمر أريتريا فى شرق أفريقيا ، كما كان لها قاعدة حربية فى مدينة مصوع الواقعة على الضفة الغربية للبحر الأحمر المقابلة لتهامة . فكان طبيعيا أن يكون لديها معلومات تامة ودراية كاملة بأحوال عسير والمخلاف السليمانى وما للأدارسة هناك من نفوذ روحى . وقد رأت ايطاليا أن تعتمد على الادريسى وتقدم له العون المادى والحربى فى سبيل مناوأته للدولة العثمانية ، وفتح جبهة حربية تستنفد الدولة فيها مجهودات كبيرة ، مما يسهل على ايطاليا مهمة تحقيق مخططها الاستعمارى بالسيطرة على طرابلس الغرب .

وقد التقت رغبة ايطاليا فى تحريض الادريسى على محاربة الأتراك فى اليمن مع رغبته الشخصية فى بناء ملك عريض فى عسير والمخلاف السليمانى ، مستفيدا من مكانة أسرته ، وبروز شخصيته ، وما تحلى به من العلم والتقوى والخبرة بأحوال مسقط رأسه ، وبطبائع القبائل اليمنية هناك ، فضلا عن اطلاعه على مجريات السياسة العالمية . وقد ألهمته مشاهداته فى السودان وما خلفته ثورة المهدى من شهرة مدوية ، ومشاهداته فى مصر ، وما أبقاه محمد على لأسرته من ملك موروث بعد أن كادت جيوشه تسيطر على الآستانة لولا وقوف الدول الكبرى فى وجهه حفاظا على مصالحها الاستعمارية فى أراضى الدولة العثمانية ، ألهمته هذه المشاهدات على أن يحاول بدوره أن يحقق أهدافه بالاستعداد لمحاربة العثمانيين فى اليمن . وقد رأى الادريسى أن يستعين باتفاقه مع ايطاليا التى شاركته فى عدائه للترك فى أثناء هجومها على طرابلس الغرب ،

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٣ .
(٢) أمين الريحانى : المصدر نفسه ، ج ١ ص ٢٧٣ .
(٣) البركانى : المصدر السابق ص ٤ .

وأن ينتهز فرصة اهمال الحكومة التركية للشئون الداخلية فى عسير والمخلاف السليماني حتى شاعت الفتن بين القبائل اليمنية هناك وانعدم الأمن وسادت الفوضى (١) ٠

وكانت اليمن بما فيها عسير والمخلاف السليماني تعاني من فوضى شاملة واضطراب مستمر فى الوقت نفسه الذى ظهر فيه الادريسى على مسرح الأحداث اليمنية فى سنة ١٩٠٧ ٠ وكانت أسباب الاضطراب ترجع الى عوامل خاصة باليمن مثل جغرافيته وأحواله الاجتماعية ، وعوامل أخرى خاصة بطبيعة الحكم العثماني مثل ضعف القوات العثمانية وقصورها عن القيام بالمهام الملقاة على عاتقها ، وعدم تمكن الأتراك بالتالى من احكام قبضتهم على زمام الأمور فى أرجاء البلاد وفساد بعض موظفى الادارة العثمانية ٠ وكان كل ذلك يهيىء الفرصة للامام يحيى وللادريسى للاتصال بالقبائل اليمنية واثارتها وتحريضها ضد الترك ٠ وقد استمرت أحوال اليمن بصفة عامة فى فوضى واضطراب حتى بعد بداية العهد الدستورى العثماني فى سنة ١٩٠٨ ، وخاصة بعد أن أفصح الاتحاديون عن حقيقة مقاصدهم وأوضحوا معالم سياستهم ازاء الولايات التابعة للدولة والتى شكلت صورة متطرفة لسياسة عبد الحميد فى ثوب جديد ٠ وقد نشرت جريدة الأهرام فى ١٣ من مايو سنة ١٩٠٩ خطابا عبر فيه أحد أشراف اليمن عن حالة الفوضى والاضطراب هناك جاء فيه :

« اليمن الآن ليس دار توطن ، بل هو دار حرب وقتال بين هيئتين تديران أمورها ، وأهاليها ضياع بين الهيئتين لا يعرفون الى أية حكومة يرتكنون ، حكومة الامام أو الدولة العلية ٠ كلا الحكومتين تقبض العوائد الشرعية والعرفية فتراهم فقراء خائفين ٠٠ وفى كل قضاء وناحية مدير أو حاكم ، من لدن الامام أيضا عامل وحاكم ، وللدولة محصلون للمال يطوفون القرى للتحصيل ، وللامام قباضون فى كل قرية ٠٠ » ٠

وقد أخذ هذا الشريف اليمنى يعدد فى خطابه سوء حالة الولاة والموظفين الأتراك وأنه يجب على الدولة تغييرهم حتى تستقيم الأمور فى البلاد ٠ كما عبر عن أسفه لأن نور الدستور العثماني لم يصل حتى ذلك الوقت الى اليمن ٠ على أن هذا الشريف لم يكن على الرغم من ذلك يحقد على الترك حقدا يمنعه من انصافهم بل انه لم ينس أن يختتم خطابه بوصفهم بالطيبة وحب الخير لليمنيين (٢) ٠ ولعله كان يقصد بذلك ألا يغفل ذكر بعض الولاة المصلحين منهم

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٦ ــ ٥٧ ٠

(٢) الأهرام : العدد ٩٤٧٠ ، الخميس ١٣ من مايو ١٩٠٩ (٢٣ من ربيع الثانى ١٣٢٧هـ) ، ص ١ ٠

الذين كانوا لا يجدون تعارضا في الحفاظ على مصالح دولتهم ورعاية شئون اليمنيين في وقت واحد ٠

بل ان الادريسى نفسه عبر عن حالة الفوضى التى كانت تسود اليمن فى خطاب أرسله فى يوليو سنة ١٩٠٩ (٩ من رجب سنة ١٣٢٧ هـ) الى أحد أصدقائه فى مصر ، مبرئا نفسه من تهمة ادعائه المهدية ، ومؤكدا حرصه على « ائتلاف العرب والدولة » ، ومحاولته اقرار الأمور ووضع حد للفوضى التى بلغت على حد تعبيره « الى درجة أن الانسان لا يولع سراج بيته بالليل مخافة من عدو يراقبه فيبصره على النور فيضربه بالرصاص » ٠ كما أشار الادريسى فى خطابه الى أن « القبائل تطاولت على الحكومة نفسها وعلى القوات العثمانية » ، وأنه رأى من واجبه بذل كل الجهود الممكنة لاصلاح أحوال القبائل وتحكيم الشريعة الاسلامية فى معاملاتها ٠ وعبر الادريسى عن احساسه أحيانا باليأس والقنوط لصعوبة مهمته ، مما كان يدفعه الى التفكير فى الخروج للحج والهروب الى مصر وعدم العودة الى عسير ٠ غير أن احساسه بتعلق الناس به والتفافهم حوله شجعه على البقاء بينهم فكانوا على حد قوله : « يسعون الى بابى أفواجا ، لتلقين الذكر ، والتزام الطاعة الواجبة ، والتوبة بما هم عليه ، والامتثال لما يقربهم من الله » ٠

وأرجع الادريسى أسباب الفوضى فى اليمن الى وجود أناس وصفهم فى خطابه المذكور بأنهم « لا يرتاحون الا اذا كانت فيه فتنة بين الدولة والعرب لأجل ـ مع تجهيزات الدولة ـ يتكسبون مالا بخدمة العساكر ، والأمر الثانى أن بعضا ممن يريدون مخاذلة رعية الدولة حتى يستولوا على البلاد بسياستهم التى تخفى عليكم (أى على صديقه) ومع حالتنا هـذه انتظمت البلاد وفات الغرض ٠ ثم ان هؤلاء الوشاة لم يقف بهم الحال حتى يتهمونى (أى الادريسى) بدعوة المهدية للاستخفاف بنا واغتصاب الدولة ٠ على أن الادريسى اختتم خطابه هذا مبديا تمنياته أن تدرك الدولة العثمانية المفسد من المصلح وتتحقق صديقها من عدوها (١) ٠

ويعلق العقيلى عن حالة الفوضى التى كانت تعم المخلاف السليمانى فى ذلك الوقت الذى ظهر فيه الادريسى هناك بقوله أن « الأتراك فى مركز جازان » لا يتعدى حكمهم أول السبخة ، بل القبائل تغزو جازان ذاتها وتستاق جمال الماء بين فينة وأخرى ، وكان قبل ذلك لهم حاكم صورى فى صبيا قابعا فى قلعتها لا يتعدى نفوذ حكمه أسوارها ، ثم رفع واكتفى بمركز جازان التى اذا غربت الشمس مسك الأتراك النوب (مبنى مستدير على هيئة حصن صغير)

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٥٦ ، السبت ٢١ من أغسطس ١٩٠٩ (٥ من شعبان ١٣٢٧ هـ) ٠ ص ١ ٠

والقلاع ومن خرج لاقى حتفه » . كما استعرض العقيلي قصصا مختلفة في كتابه توضح حالة الفوضى والاضطراب التي عانت منها البلاد في أثناء خضوعها للحكم العثماني ، وكلها تبرز ضعف الحكومة العثمانية عن تركيز سلطتها واحكام قبضتها على زمام الأمور في اليمن (١) .

ومن الصعوبات التي تواجهنا لمعرفة حقيقة الأوضاع القائمة في اليمن في تلك الفترة أن الحكومة العثمانية كانت لا تسمح بتسرب أخبار الولاية الثائرة الى الخارج ، كما أنها لم تسمح بوجود مراسلين يوافون صحفهم بأنباء الثورات اليمنية مما جعل الصحف لا تبرز الا القليل عن حقيقة الأحداث الدامية هناك . وكانت الأنباء التي تتسرب من اليمن ترد الى الصحف متناقضة للغاية بحيث أن من يلقى نظـرة على البرقيـات الواردة اليها يجـد نفسه أمام سلسلة من الانتصارات تتلوها سلسلة أخرى من الاندحارات . فما ان تقرأ يوما أن قوات الحكومة العثمانية انتصرت ، وطلب الثوار الصلح حتى تجد في اليوم التالي نبأ آخر يعلن تكذيب النبأ السابق ، وأن الثوار يزدادون قوة من يوم الى آخر . بل ان الحـكومة العثمانية كانت تعمد الى التصريحات الرسمية لتطمس بهـا الحقائق والى بث الاشاعات الكاذبة لتزور بها الوقائع . ولم يصاحب الجيوش العثمانية باليمن مراسلون حربيون ، وكان الأتراك يفعلون ذلك عمدا ، وبناء على سياسة مرسومة ليبقى الرأى العام في الدولة العثمانية وخارجها لا يدرى شيئا عن أخبار الثورات اليمنية ضد الأتراك لتكون لهم حـرية التصرف في اليمن كما يريدون (٢) . ولا أدل على ذلك مما ذكرته جريدة الأهرام بأنه لا يمكن الاعتماد على الأنبـاء الواردة من اليمن لاضطرابها وتناقضها (٣) . على أن بعض الدول الأجنبية وخاصة ايطاليا كانت تحرص على معرفة حقيقة الأمور في اليمن لاتصال ذلك بمصالحها وبأطماعها الاستعمارية . ومما يؤكد ذلك من جهة ويؤكد حالة الفوضى والاضطراب في اليمن من جهة أخرى ، تلك المذكرة التي أرسلتها حكومة ايطاليا الى الباب العالي تطلب منه اتخاذ جميع الوسائل اللازمة لحماية رعاياها في الحديدة وسائر أرجاء اليمن (٤) .

وعلى أية حال فقد أدت هذه الفوضى الى تهيئة أرض خصبة ينمى فيهـا الادريسى ملكه الجديد ، فبدأ بالدعوة آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر حتى خلب

---

(١) العقيلي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٢) Wavell, A. J. B. : A Modern Pilgrim in Mecca and a siege in Sanaa, p. V, (The Preface).

(٣) الأهرام : العدد ٧٩١٠ ، الثلاثاء ٢٢ من فبراير ١٩١٠ (١١ من صفر ١٣٢٨ هـ) ، ص ١ .

(٤) الأهرام : العدد ٩٥٦٦ ، الخميس ٢ من سبتمبر ١٩٠٩ (١٧ من شعبان ١٣٢٧ هـ) ص ١ .

ألباب الجماهير ببلاغة لفظه وسحر بيانه وقوة منطقه ونبرات صوته الجهورى والجماهير أشد تأثرا وأسرع انقيادا • وقد انثالت عليه الوفود من البلاد المجاورة وأخذوا يروجون له فى ظهور الكرامات ووقوع المعجزات فى عهد سادت فيه الجهالة وراجت البدع • وكان الناس ينظرون الى الدين من خلال شخصيات لها من الصلاح بزعم ما روج لها بين العامة واستحكم فى عقول بعض الخاصة فى كثير من البلاد ، من قدرة على التصرف واحداث المعجزات ، ما شاءت لهم أوهامهم أن تخلق فى دنياهم ، التى بعـدت حينـذاك عن حقيقة الدين وحقائق العـلوم • وقد استغل الادريسى بذكائه الوقاد وعقله النير سذاجة الميـول واستخدمها فى انجاز مهمته التاريخية (١) •

وبعد هذا التمهيد الأولى الذى قام على أساس نشر الدعوة لجأ الادريسى الى دور آخر هو دور التطبيق والتجربة العملية • فبدأ بأن حض الناس على ختان السنة فاتبعوه ، كما أمرهم بقتل الكلاب المنمرة فأفنى ذلك النوع فى وقت قصير • وقد لمس الادريسى من خلال طاعة الناس لأوامره أن سلطانه قد تغلغل فى النفوس وأن جذوره أخذت فى التشبث بتجربة الحياة ، فاتجه بعد ذلك الى المرحلة الثالثة بالتهيىء العملى للثورة ، ووجد أنه لابد من الاستعداد قبل اعلانها باستقدام مؤن وعتاد عن طريق مفتوحة له السلطان المباشر عليها • لهـذا عمل الادريسى على عقـد الصلح بين أهل صبيا وبين قبائل الجعـافرة التى تسيطر على (قوز الجعافرة) المرسى الطبيعى لصبيا ، حتى يأمن على وصول السلاح الذى ينزل فى ساحلهم الى مدينة صبيا • وقد ترتب على نجاحه فى عقد هذا الصلح ان امتدت سيادته على أهالى صبيا والمخلاف السليمانى والجعافرة وحلفائهم ، فأصبح نفوذه يمتد من « بيش » شمالا الى « سبخة بندر جيزان » ، كما افتتحت طريق مواصلاته بحرا مع « مصوع » حيث أمكنه الحصول على مساعدات حليفته ايطاليا فى أثناء صراعه ضد الترك فى اليمن (٢) •

وقد توالى بعد ذلك اعلان قبائل المخلاف السليمانى طاعتها للادريسى قبيلة بعد أخرى ، كما قام باخضاع المعارضة التى اعترضت طريقه • وقد تمكن الادريسى من تشكيل حكومة جعل له فيها أربعة وزراء وذلك فى سنة ١٩٠٨ م (ذى الحجة سنة ١٣٢٦ هـ) ، كما أقام محكمة شرعية عليا شكلها من خمسة قضاة شرعيين للنظر فى القضايا ، والبت فى الخصومات ، ولتقرير الأحكام بالوجه الشرعى • وعلى أثر ذلك تدفقت عليه وفود القبائل من رجال « ألمع » و « حلى بن يعقوب » و « قنا والبحر » و « القحمة » و « الشقيق » وغيرها ، وعاهدته جميعها على الطاعة والولاء (٣) •

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٩ •
(٢) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ •
(٣) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ •

وقد قال أمين الريحاني أن الادريسي كان « يستنفر في الحرب القبائل بوساطة المشايخ والمقدمين ، فيلبيه ثلاثون ألف مقاتل ويزيد · وهم يحاربون على الطريقة الأولى حرب البـــدو ، فتجيء كل قبيلة أو بطن أو فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسي ما يحتاجون اليه زيادة ، ويمدهم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية · ولكن الغنائم هي الجاذب الأكبر في حروب العرب كلها ، لولاها لما كان جند في تلك البلاد يذكر · أما الأمير الكريم الذى يغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على زملائه في السياسة ، والمنتصر على أعدائه في الحروب · ولم يكن في سلاح السيد محمد الادريسي وقواته في حروبه كلها أمضى من هذا السلاح أى الكرم · فقد كان يحسن كذلك الى السباهلة والمشايخ الذين يؤمون صبيا من بلاد المغرب ومن مصر » (١) ·

ومن بين أصوات المعارضة التي واجهت محمد الادريسي كان صوت أحمد شريف سليل أسرة الأمـراء الخواجيين الذين أسسوا مدينة صبيا ، والذين انتهى على أيديهم حكم أمراء « آل خيرات » ، وان أصبح الخواجيون وقت ظهور الادريسي مجرد عشيرة من عشائر صبيا المعروفة · وقد برزت شخصية أحمد شريف هذا ، واتصل بالأتراك العثمانيين في اليمن حتى اختير ليمثل « صبيا » في مجلس المبعوثان العثماني : فكان أحد ثلاثة أشخاص اختيروا ليمثلوا المخلاف السليماني في الآستانة وهم :

١ – أحمد شريف الخواجي عن صبيا ·

٢ – ومنصور الصعدى عن أبي عريش ·

٣ – وعلى سويدى الانصارى عن جيزان ·

وقد مكث أحمد شريف مع زميليه في الآستانة حتى انفض المجلس وألغى، فعاد الى صبيا وقد انطبعت في نفسه عظمة تركيا وخلافتها (٢) · وقد اشتغل أحمد شريف بالأعمال التجارية ، وعقد صفقات تجارية مع أشهر بيوت التجارة في مصوع وعدن والحديدة ، ومهد له الحصول على تلك الصفقات مركزه كعضو سابق في مجلس المبعوثان ·

لم يكن أحمد شريف صاحب فكرة اجتماعية أو مبدأ سياسى أو دعـوة دينية أو حتى سيادة قبلية قوية لها من الخطورة والقوة بحيث تفرض وجودها أو تملى ارادتها على مدينة « صبيا » بأسرها فضلا عن المخلاف · ولكن تصرفاته الجريئة ومعارضته للادريسي كانت مستمدة من شجاعته قبل كل شيء ، واستعانته

---

(١) الريحاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ·
(٢) العقيلي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٤ ·

بحاشية تسيرهم ارادته القوية في الايعاز الخفي بما يريده ، ثم مكانته عند الأتراك ، ثم عشيرته المعروفة المكانة في صبيا وان لم تكن تشاركه في معارضته للادريسي ٠ ولقد أحس أحمد شريف أنه أضعف من أن يقاوم الادريسي وليس لديه القوة لكي يعلن معارضته المسلحة العلنية فاضطر أن يلزم بيته حانقا متفوها بعبـــارات الاهانة للادريسي كقوله الذي أورده العقيلي في تاريخه : « يا أهل صبيا أنتم خبلان مثل هذا العبد (يقصد محمد الادريسي) يقـاوم الدولة العثمـانية ، كأني بالدولة قد قادته مكتوفا وحـرقوا بيوتـكم وشردوا عيالكم » ٠ غير أن الادريسي كان قد أصبح ذا سلطان شرعي يحوطه ولاء الجماهير في المخلاف السليماني ، لهذا صرح الادريسي بأن أحمد شريف « ممن يسعون في الأرض فسادا وأنه جاسوس للأتراك المشركين ومثل ذلك ، فتحاماه الكثير ، وأصبحت حركاته وسكناته تلاحظ بكل دقة ، وتفسر على أشر تفسير (١) ٠

وقد انتهز الادريسي حادثة شراء أحمد شريف الذي كان يتاجر في الرقيق لأمة باعها لأحد التجـار في صـبيا ٠٠ وحضر شقيقها مسـتنجدا بالادريسي ومحكمته لتخليص أخته الحرة التي سرقت واستولى عليها أحمد شريف وباعها ٠ وقد رفض التاجر تسليم الامة لشقيقها الا بعد استرداد قيمتها من أحمـد شريف ، وأحمد شريف لا يرى بدوره الا أن جارية دخلت في حوزته وباعها فعلى المشترى اذا لم يرغب الجارية أن يعيدها اليه وهو يدبر له أمر القيمة ، ولا يعترف بالمحكمة وحكمها ولا بالادريسي نفسه ٠ وقد استدعى أحمد شريف للمحكمة فامتنع فأخذت الدعاية تروج عدم اذعانه للادريسي برفضه للشرع ، وأن هذا تعطيل لحكم الشريعة اذا لم تنفذ عليه مثل غيره ٠ وكان امتناع أحمد شريف في داره نقطة تحول ضده ، فروقبت حركاته واصبح شبه محصور حتى تعذر عليه الخروج بينما الادريسي كان يلهب المشـاعر ويهيىء الرأى العـام ضده (٢) ٠ وأخيرا رأى الادريسي أن يتصيد أحمـد شريف بأقرب الناس اليه من عشيرته حتى لا يثير غضبهم اذا هاجمه غريب واقتاده اليه ، كما يصبحون شهودا على شريف اذا امتنع عن مصاحبتهم لمقابلته ٠ وقد ألحوا على أحمد شريف حتى رافقهم ووصلوا به الى الادريسي الذى أمر بحبسه تمهيدا لمحاكمته وانتهت المحاكمة بقطع يديه وكان لهذا الحادث وقع شديد من الرعب حسم كل معارضة أو خلاف ٠ على أن اقبال أحمد شريف على التضحية المحتمة بهدوء الصابر ورزانة التحمل جعلته يصبح مثلا من أمثلة البطولة فصار « أنبه ذكرا وأبعد صيتا » (٣) ٠

---

(١) العقيلي : المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٩ ـ ٨٠ ٠

(٢) العقيلي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨١ ٠

(٣) العقيلي : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٢ ٠

وهكذا أقام الادريسى ملكه الجديد فى عسير والمخلاف السليمانى ، وأخذ يبذل جهوده لتدعيم نفوذه على قبائل المنطقة ، مما سيؤدى الى تصادمه مع الأتراك العثمانيين أولا ، يسانده فى ذلك حليفه الامام يحيى ، كما سيصطدم بعد ذلك للمرة الثانية معهم ومع الامام يحيى أيضا عقب الصلح الذى سيعقد بين الامام والدولة فى سنة ١٩١١ ، ثم يواصل الادريسى نضاله ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن حتى يتم جلاؤهم عنها فى نهاية الحرب العالمية الأولى ٠

علاقة الأدارسة بالترك فى اليمن فى مطلع العهد الدستورى العثمانى :

سوف نستعرض فيما يلى علاقة الادريسى بالترك فى عسير والمخلاف السليمانى فى الفترة التى أعقبت ظهوره ٠ وسوف نوضح بايجاز محاولات الادريسى لتدعيم حكمه فى عسير والمخلاف ونجاحه فى ذلك مما ساعده فى مفاوضاته مع الدولة العثمانية التى انتهت بعقد اتفاقية الحفائر بينهما واعترفت فيها الدولة ضمنيا بوضعه الخاص فى عسير ٠ غير أن تطور نفوذ الادريسى وتزايد خطورته سيؤدى الى انقلاب الدولة عليه ، كما سيجعل حليفه الامام يحيى الذى شاركه الجهاد ضد الترك يخشى امتداد نفوذه فى بقية اليمن فيتحول منافسا له وعدوا ٠ ولهذا سينقلب الامام عليه بالتالى ويتصافى مع الأتراك مما يضع الادريسى أخيرا فى مواجهة عدوين فى وقت واحد تمثلا فى الدولة العثمانية والامام يحيى ، ولهذا سوف يضطر الادريسى الى الاستعانة بايطاليا أولا ثم بانجلترا ثانيا حفاظا على كيانه حتى تم جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ ٠

بعد أن قضى الادريسى على منافسيه وأقر حكمه فى المخلاف السليمانى رأى أن سهول تهامة سهلة الاكتساح متى اتجهت اليها قوة الأتراك العثمانيين٠ فتطلع الى جبال « هروب » فى الناحية الشمالية الشرقية من « صبيا » وأخذ فى شراء بعض الأراضى الزراعية ، كما أسس حصنا لحماية هذه الأراضى هناك٠ غير أنه شعر أن جبال المنطقة الشمالية للمخلاف ليست من المناعة والخصوبة بحيث تصلح للاعتصام فى حرب قد يطول أمدها ٠ لهذا اتجه الى جبال الناحية الجنوبية الشرقية من المخلاف والتى كانت من المناعة والخصوبة ، وكثرة السكان والسذاجة الفطرية ، وتخلى الأتراك عنها ، وبعدها عن النفوذ الروحى للامام يحيى آنذاك ، بحيث كان يتسنى لنفوذه أن يتغلغل فيها ثم يحكم سيطرته عليها ٠ فبعث الادريسى دعاته هناك فاستجابت قبائل المنطقة وطلبت دخولها فى طاعته ٠ وقد أرسل البعض رهائنهم كما هى العادة فى القسم الجبلى ، وأبدوا استعدادهم لأداء الزكاة ، فوجه الادريسى اليهم من يتسلمها مع مراعاة

التساهل فى عدم الزيادة ، كما أمر بأن يوزع نصفها على المؤلفة قلوبهم بالنسبة لأتباعه وخاصة ذوى النفوذ والحاجة فيهم (١) ٠

وفى ذلك الوقت علم الادريسى بأن الأتراك جادون فى الاستعداد للقضاء عليه خاصة بعد أن تمكنت قواتهم بمساعدة أمير مكة من الزحف الى قمم السراه لفك الحصار المضروب حول مدينة أبها ، فأخذ الادريسى يتطلع الى ميدان جديد ومنطقة غير منطقة عسير يعمق فيها خط دفاعه شرقا ليتمكن من الصمود فى وجه الترك فيما لو حاولوا غزو المخلاف السليمانى ٠ وقد قام الادريسى باستدعاء كبار رؤساء قبائله وزعماء الأسر ذات المكانة فى المنطقة الجنوبية الشرقية من عسير ، فوفد اليه معظم شيوخ « رازح » وقدموا اليه الرهائن ٠ عند ذلك أمر بتعيين عمال له فى تلك الجهات ، فكان عبد الله بن حسين نجم الدين عاملا لرازح ومركزه جبل « النضير » ومطهر بن عبد الله عاملا لجبل « شذا » ٠ كما قام الادريسى بجولة تفقد فيها المنطقة واستقبل هناك بمظاهرات رائعة وحماسة ملتهبة وخاصة فى جبل شذا وقرية الضيعة (٢) وفى جبل النضير أوقدت النيران ليـلا فى كل مرتفع وثنيـة فى الجبل فأمسى يتوهج فى حلة من النـيران ابتهاجا بمقدم الادريسى ٠

وكان لجولة الادريسى هذه رد فعل شديد لدى الامام يحيى — من جهة — الذى اعتبر المنطقة الجبلية فى الجنوب الشرقى لعسير مجال نفوذه الروحى ، ولدى الأتراك العثمانيين — من جهة أخرى — الذين قابلوا أنباء نجاح الادريسى بالغيظ والتحفز ٠ وقد اتفقت جهود الطرفين على مقاومة الادريسى وتصفية نفوذه الذى وصـــل فى المنطقة الجبلية الى حدود « فلة عذر » شرقا ، وامتـد من « الظاهر » جنوبا الى بلاد « سحار » شمالا ٠ وقد بعث الامام يحيى بقوة من رجال قبائل حاشد وهمدان بقيادة محمد الهادى أبو نيب لتنكيل بقبائل خولان التى والت الادريسى ورضخت لطاعته (٣) ٠ وقد استطاعت هذه القوة الامامية الى جانب الامدادات التى والى الامام يحيى ارسالها الى صعدة ونواحيها أن توقف الزحف الادريسى الصاعد الذى كاد أن يستولى على صعدة مركز الامامة الزيدية فى اليمن ٠

أما الأتراك العثمانيون فلم يكن يدور فى خلد ولاتهم أن الادريسى سوف يحصل على ما حصل عليه من نجاح ، على الرغم من أن مخابراتهم علمت باتصاله بحكومة ايطاليا فراقبته فى أثناء وجوده فى الحديدة غير أن الادريسى استطاع بمسلكه الدينى وعزلته الصوفية أن يبدد شكوكهم بانفراده بمسجدهم للعبادة

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٤ — ٨٥ ٠

(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٦ — ٨٧ ٠

(٣) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٨ ٠

والعزله وبعده عن كل ما يمت الى السياسة بسبب ، حتى توجه الى صبيا حيث قام بدوره كاملا ٠ وكان رجال الدولة العثمانية فى ذلك الوقت قد شغلوا بالصراع الحزبى بين حزب (الاتحاد والترقى) وحزب (الائتلاف) وبالتنافس على كراسى الحكم ، ولم تكن عسير والمخلاف السليمانى من الأهمية بالقدر الذى يشغل بالهم ٠ حتى برز خطر الادريسى ورفعت المذكرات للدولة عن نشاطه المتزايد ، فاستفاقت الحكومة العثمانية حينـذاك وتمخضت كل اجراءاتها عن ارسال وفد الى جيزان ترافقه قوة تكون على استعداد لمباشرة أعمالها اذا رأى الوفد ذلك (١) ٠

على أن مهمة هذا الوفد العثمانى كانت تتلخص فى دراسة الحالة فى المخلاف السليمانى بصفة عامة من جهة ، واستطلاع حركات الادريسى ومعرفة حقيقة مقاصده والوقوف على نواياه من جهة أخرى ٠ وقد تكون هذا الوفد برئاسة سعيد باشا وعضوية توفيق الأرناءوطى شيخ الطريقة الأحمدية فى الآستانة ٠ وقد وصل الوفد الى جيزان فى أوائل سنة ١٩١٠ م (١٣٢٨ هـ) ومنها بعث الى الادريسى وفدا فرعيا برئاسة توفيق الأرناءوطى لاستطلاع حقيقة أمره ودراسة الحالة فى مستقرها ٠

وصل الوفد العثمانى الفرعى الى مدينة صبيا فاستقبله الادريسى بحنكته السياسية ودهائه المعروف ٠ وذكر لهم أنه رجل من رعايا الدولة ليس له مطمع فى امارة أو ملك ولم يدفعه الى ما قام به سوى غيرته الدينية (٢) ، فرائده دائما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الأمر الذى اشتهرت بمباشرته أسرته منذ وصول جده الأول (أحمد بن ادريس) ٠ وأوضح الادريسى للوفد أن الدولة العثمانية أهملت المخلاف السليمانى اهمالا نتج عنه قيام الفتن والحروب بين القبائل ، وأنه رأى من واجبه أن يصلح بينهم ويرشدهم لحقيقة الدين ، وأنه بذلك قدم خدمة كبيرة لدولته العثمانية باقرار الأمن وتصفية الضغائن والأحقاد واحياء معالم الشريعة الاسلامية ٠ وكان طبيعيا أن يكون تأثير الادريسى على رئيس الوفد بالغا اذ كان الأرناءوطى شيخ الطريقة الأحمدية الادريسية فى الآستانة فقام بزيارة ضريح شيخه وتمسح بالأعتاب وتبرك بحفيده ، وعاد بعد ذلك مقتنعا راضيا يمهـد السبيل للاجتمـاع المقبـل بين محمـد الادريسى وسعيد باشا ٠

وقد تقرر موعد الاجتماع بين الادريسى ورئيس الوفد العثمانى وتحـدد مكانه قرية « الحفائر » ٠ فبعث الادريسى الى جميع رؤساء المخلاف للحضـور على مقربة من مكان الاجتماع زيادة فى الحيطة ، وحضر سعيد باشا من جيزان

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩١ ٠

(٢) البركاتى : المصدر السابق ، ص ٥ ، ٦ ٠

واجتمع الجانبان فى قرية الحفائر . وقد أكد الادريسى ما سبق أن أوضحه لتوفيق الأرناءوطى من قبل وتمكن بلباقته من اقناع سعيد باشا بحسن نواياه تجاه الدولة . وانتهت المفاوضات بالاتفاق على ما يأتى (١) :

١ – أن يعترف الادريسى بالتبعية العثمانية وشرعيتها على المخلاف السليمانى.

٢ – أن يمنح الادريسى رتبة قائمقام ويقوم كموظف عثمانى بشئون صبيا وما يتبعها أى من سامطة جنوبا الى حلى شمالا .

٣ – يتعهد الادريسى بمد السلك (أسلاك البرق) عبر المخلاف السليمانى بين اليمن والحجاز .

٤ – أن يسمح الادريسى للدولة بمراكز جمركية فى موانى المخلاف يديرها مأمورون من قبل الدولة .

٥ – تتعهد الحكومة بالغاء الضرائب – بناء على اقتراح الادريسى – وتكتفى بحاصلات الزكاة الشرعية للحبوب والمواشى ، وينوب الادريسى عنها فى الاستحصال مقابل أن يكون له الثلث ، لنفقاته ولنفقات جيش وطنى لاقرار الأمن الذى تعهد باستقراره فى المخلاف .

وهكذا كانت الاتفاقية المرنة فى صالح الادريسى ، اذ حصل بموجبها على اعتراف الدولة العثمانية ضمنيا بكيانه ، كما اعترفت بسلطته الشرعية على المنطقة التى يحكمها من « سامطة » جنوبا الى « حلى بن يعقوب » شمالا . ما عدا مدينة جيزان الأمر الذى لم تكن قد اعترفت به الدولة من قبل ، بل ان الدولة فوضت الادريسى فى تأليف جيش وطنى للمحافظة على الأمن فى المخلاف السليمانى ، كما سمحت له بأن ينوب عنها فى تحصيل الزكاة الشرعية للحبوب والمواشى مقابل أن يكون له الثلث الذى كان يمثل مصدرا ماليا هاما لتدعيم مركزه وتغطية مصروفاته . وفى مقابل كل ذلك اعترف الادريسى بالتبعية العثمانية وشرعيتها على المخلاف السليمانى واعتبر كموظف عثمانى برتبة قائمقام، وتعهد بمد أسلاك البرق (٢) عبر المخلاف السليمانى بين اليمن والحجاز ، والسماح للدولة بمراكز جمركية فى موانى المخلاف يديرها مأمورون من قبل الدولة . ولم يكن هذا كله ليضير الادريسى فى شىء وهو السياسى الذى يعرف كيف يصرف أموره ، ولهذا اعتبرت الاتفاقية كسبا له ومغنما .

وقد سلم سعيد باشا لمتصرف عسير العثمانى نسخة من هذه الاتفاقية

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
(٢) البركاتى : المصدر السابق ، ص ٧ .

وألزمه التصرف على ضوئها ، مع مراعاة تبعية قبائل ألمع لمنطقة حكم الادريسى . وقد عمل الادريسى لساعته على تنفيذ بنود الاتفاقية وبدأ أولى خطواته بتوزيع نوابه (١) فى أرجاء المنطقة التى يحكمها .

وقد رأى متصرف عسير العثمانى أن الادريسى بناء على اتفاقية الحفائر بينه وبين الدولة العثمانية قد أصبح أشد خطرا وأكثر قوة وأثبت مركزا ، خاصة بعد أن اعترفت الدولة بمكانته . وقد أخذ هذا المتصرف يرفع للمسئولين فى الدولة من آن لآخر ما يلفت نظرهم لخطورة الادريسى وقوته المتزايدة . غير أن الادريسى لم يعر تصرفات متصرف عسير أدنى اهتمام لثقته بنفسه وبقوة مركزه . أما الموظفون الذين أرسلتهم الدولة للمراكز الجمركية بغية حجز الادريسى فى داخلية البلاد وقطع وصول المؤن والامدادات اليه من ايطاليا ، فقد أعادهم الادريسى بكل سهولة من حيث أتوا بعد أن أثار عليهم ثائرة رجال القبائل وجعلهم فى شبه عزلة مما اضطر بعضهم الى الاحتماء بنواب الادريسى ، بينما لاذ بعضهم بالفرار ناجيا بنفسه . وقد كتب الادريسى للدولة العثمانية عن هؤلاء المأمورين ، بأنهم لم يتمسكوا بأهداب الدين وأنهم ارتكبوا كثيرا من المعاصى أمام أعين أهالى البلاد الذين نفروا منهم وثاروا عليهم (٢) .

ولما رأى متصرف عسير أن مذكراته للدولة لتحذيرها من خطورة الادريسى لم تأت بالنتيجة المرجوة ، بل وجد أن اتفاقية الحفائر بدأت تتبخر على حرارة الدهاء الادريسى . فان هذا المتصرف توجه من السراة باليمن مارا بصبيا لدراسة الموقف والوقوف على مجريات الأمور ، فراعه قواعد الدولة التى أشادها الادريسى، والامكانيات الضخمة التى تنهال عليه وتزيد من قوته ، فتوجه الى جيزان ومنها الى كمران حيث اتصل بالآستانة عن طريق البرق البحرى ، ثم ذهب الى الحديدة . ولم تفلح محاولات متصرف عسير لاثارة الدولة العثمانية ضد الادريسى ، أو لتدبيره الأمر مع ولاة الأتراك فى اليمن للتخلص منه . فرأى أخيرا أن يفاوض الادريسى حول التصريح للدولة باقامة معسكر فى أبى عريش ، غير أن هذه المحاولة المكشوفة لم تطل على دهاء الادريسى الذى أجابه بقوله : « ان هذا يخالف نصوص الاتفاقية ، ولم يكن داع هناك لما يوجب ذلك ، فقد أمنا المقاطعة ، وتعهدنا باستحصال الزكاة وتوريدها للدولة ، ومد السلك ، وكفينا الدولة أمر سوق المعسكر والخسارة فى الأموال والأرواح ، ولا نسمح باحداث أى شىء ، والتبعة على من أخل بتعهده » (٣) .

فأسقط فى يد المتصرف وعاد الى عسير ، ورأى أن يجرب اللعب بآخر ورقة

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٩٣

(٢) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٤ — ٩٥ .

في يده بأسلوب يستر غرضه ليأمن عاقبته اذا لم يحالفه التوفيق · فوجه كتيبة من الجنود العثمانيين من السراة على هيئة بدل غيار للحامية المعسكرة فى جيزان ، وكان هدفه الحقيقى أن تقوم هذه الكتيبة بالدخول الى صبيا ومفاجأة أهلها والقبض على الادريسى · وكان يغذى اقتناعه بنجاح هذه الخطة تأكده فى أثناء مروره بصبيا من عدم وجود معسكرات نظامية أو مراكز حراسة ثابتة بالقرب من مقر الادريسى · وتنفيذا للخطة فقد توجهت الكتيبة العثمانية وقوامها خمسمائة جندى تقريبا مسلحة بالحراب والمسدسات دون أن يحس الادريسى ونوابه بتحركها حتى أشرفت على قرية الملحا على مسافة ساعتين من صبيا · وقد أحس بوصول الكتيبة العثمانية أهالى القرى القريبة من الطريق ، فأخطروا شيخ المخلاف الشامى الذى استصرخ أهل الملحا وقراها ، فاستنجدوا بأهالى المحلة وغيرها · وقد ضربت كل هذه القبائل نطاق الحصار حول الكتيبة العثمانية وأوقفوا تقدمها ، وأخطروا الادريسى بشأنها · وقد أدرك الادريسى بطبيعة الحال الخطة المقصودة فأرسل قوة من قبله ترافق الكتيبة العثمانية ، بعد أن أمر قبائل المخلاف بفك الحصار عنها · وقد وصلت الكتيبة العثمانية الى جيزان لتكون فقط بدل غيار لحاميتها ودون أن تحقق الغرض المقصود منها وذلك تحت حراسة ومراقبة رجال الادريسى (١) ·

والى جانب محاولات متصرف عسير لمحاربة نفوذ الادريسى ، فهناك دور آخر فى هذا السبيل قام به خصمه السابق أحمد شريف الذى تمرد عليه فى صبيا · وقد سبق الاشارة الى أن الادريسى استطاع أن يقضى على تمرد أحمد شريف وقدمه للمحاكمة التى قضت بقطع يديه ، فمكث فى داره بصبيا حتى شفى من جروحه · غير أن هذا الحادث لم يمنع أحمد شريف من مكاتبة الأتراك حتى واتته فرصة الرحيل سرا من صبيا الى عائلته فى أبى عريش ، وتوجه منها الى حرض ثم الى اللحية ، فأقله طراد عثمانى الى الحديدة حيث استقبل استقبالا حافلا ، وبعد أن مكث فترة أبحر الى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية· وقد أوضح أحمد شريف لرجال الدولة فى العاصمة ما أصابه نتيجة اخلاصه لدولته ، وأظهر ما بلغه أمر الادريسى وتفاصيل علاقته بايطاليا · فصدرت أوامر الدولة بطلب حضور الادريسى الى العاصمة العثمانية بصفته أحد موظفيها للتحقيق معه فى قضية أحمد شريف ومحاكمته (٢) · ولما كان الادريسى يعلم

---

(١) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ، ٢ ، ص ٩٥ ·

(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، هامش ص ٩٥ -٩٦ ·

وبعد امتناع الادريسى عن التوجه الى الآستانة جردت الدولة عليه حملتها والتحمت معه فى موقعة الحفائر فأعاد جيشها على الاعقاب · وقد اضطر أحمد شريف الى العودة الى الآستانة ، وظل بها حتى عين محيى الدين باشا لولاية عسير ، فبعثت الدولة أحمد شريف الى أبها ، غير أن خصومة ظلوا يلاحقونه بوشاياتهم حتى اشتد الخلاف واحتدمت الخصومة بينه وبين هذا الوالى ·

ما وراء طلب استدعائه من خطورة فقد امتنع عن تلبية الأمر ، خاصة وأنه قد أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يقاوم الحكومة العثمانية ولو الى حين ثم ينسحب الى الجبال حيث يمكنه المقاومة حتى يحصل على صلح يحقق له بعض ما يريد حتى يبلغ كل ما يريد · على أن الدولة العثمانية لم تكن بطبيعة الحال من الغفلة بحيث تظن أن الادريسى سوف يسارع الى تلبية أوامرها ، وانما أرادت فى حالة رفضه أن تقيم عليه الحجة وتعلن عصيانه الذى يبرر تجريد حملة لارغامه على الانصياع لأوامرها ، وان اعتقد الكثيرون أن الدولة مع جزمها بعدم اجابته الا أنها ما كانت تعتقد أنه أصبح من القوة بالقدر الذى بلغه ·

وقد جردت الدولة العثمانية حملة قوية بقيادة محمــد راغب وخولته أن يبدأ بمراسلة ومفاوضة الادريسى عسى أن تلين قناته تحت تأثير تجريد هذه الحملة ، فاذا لم يفد ذلك شيئا فليزحف على صبيا · وقد وصلت الحملة الى جيزان وأخذ قائدها فى مراسلة الادريسى طبقا للتعليمات ، غير أنه وجد أمامه شخصية داهية فى السياسة وغاية فى الشجاعة · وقد قال البعض ممن أدركوا ذلك العهد أن الادريسى استطاع أن يشترى ضمير هذا القائد العثمانى الذى فر بعد هزيمته ولجأ الى الادريسى · وقد كان الادريسى على علم تام بهذه الحملة ، فما كادت تصل الى جيزان حتى أصدر أوامره لاستدعاء رجال القبائل من « حلى » الى « بنى شبيل » ، كما استدعى قائده فى المنطقة الشمالية وهو حمود سرداب الذى عاد على رأس قواته فانضم اليه رجال القبائل فمروا بقرية الحفائر وحاصروا جيزان على شــكل نصف دائرة تبــدأ من تل المنجارة الى رأس الســويس فى الجنوب · بينما خرج الادريسى بنفسه من صبيا ورابط بجيش احتياطى فى قرية « الغراء » وأناط قيادة الميدان بمحد طاهر رضوان أحد رجاله المخلصين من أهالى صبيا (١) ·

وعندما أخفق أسلوب المراسلة صدرت الأوامر للقــائد التركى بالزحف فبدأ يستعد لذلك ، بينما أخذ الجيش الادريسى يشدد نطاق الحصار ويمنع الماء عن جيزان وكل ما يرد اليها برا · وقد ضاق الأتراك ذرعا بهذا الحصار وان عملت البواخر التركية على تزويد المحصورين بالماء من جزيرة فرسان ورحل السكان الى هذه الجزيرة وغيرها بحرا · وقد هاجم الجيش التركى مدينة جيزان بينما كانت تحميه نيران المدافع من القلاع والبواخر التركية · وقد تم الهجوم وقت عتمة الفجر فى ثلاثة اتجاهات ، الجناح الأيمن اتجه عبر طرق المضايا فى

= وعندما أعلن الشريف حسين ثورته على الأتراك وقطعت المواصلات بين أجزاء الامبراطورية العثمانية يقال ان أحمد شريف اتصل بالشريف حسين ، وان الوالى التركى قبض على مكاتبــة بينــه وبين الشريف تدينه ، فألقى الوالى القبض على أحمد شريف وحاكمه محاكمة عسكرية انتهت بقتله ·

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ ·

الجنوب ، وقلب الجيش اتجه الى قرية الحفائر حيث آبار الماء ، بينما الجناح الأيسر كان اتجاهه نحو منطقة المنجارة الواقعة بطريق صبيا • وعندما انحسر الظلام كانت مقدمات الأتراك قد بلغت نهاية منطقة السباخ التى كانت أرضا مكشوفة ، فتقدمت قواتهم فى بسالة وهم يطلقون نيران رشاشاتهم وبنادقهم على جنود الادريسى المختبئين خلف الروابى المحيطة بمنطقة السباخ المكشوفة • وكان قائد الأدارسة قد أمر جنوده بعدم اطلاق نيرانهم حتى يقترب الأتراك من مواقعهم • وقد زاد ذلك فى جرأة الأتراك فواصلوا السير يتقدمهم ضابط عثمانى يدعى « مشرم » حتى بلغت المسافة بينهم وبين الأدارسة ستين مترا تقريبا فأطلق الأدارسة نيرانهم بشدة وعنف فقتلوا « مشرم » هذا وتمكنوا من هزيمة الأتراك ، وقد أصدر القائد العثمانى أوامره بالتراجع ، فانطلق النفير يبلغ الجنود أمر التراجع السريع ، مما جعل رجال القبائل يحملون على الأتراك بالسلاح الأبيض ويتعقبون فلولهم المتراجعة فى أرض مكشوفة ، فنالوا من الأتراك كل منال حتى غطيت المنطقة بجثث قتلاهم التى قيل أن عددها بلغ ألف قتيل • وقد تمكنت فلول الأتراك من دخول جيزان تحت حماية نيران مدفعية القلاع والبواخر ، وتحصنوا فى جبالها واستحكاماتها وعززت بمدد عن طريق البحر • غير أن الجيش الادريسى بقى فى مراكزه يوالى الغارات الليلية على مواقع الأتراك (١) •

على أن حصار الأدارسة للأتراك فى جيزان لم يستمر مدة طويلة اذ وصلت أوامر الدولة العثمانية بجلاء الأتراك عن جيزان الى القنفدة نظرا لأن الأسطول الايطالى قام فى ذلك الوقت بحصار وضرب المراكز الساحلية ، فخشى على حامية جيزان التركية من الابادة • وقد رحلت الحامية التركية بحرا بعد أن حملت معها من الذخيرة والعتاد والمؤن ما خف حمله ، وأضرمت النار فى بعض ما تبقى منها عند رحيل آخر دفعة من الجنود الأتراك • وقد رأى الجيش الادريسى الدخان يتصاعد من جيزان وعلم بجلاء الترك عنها ، فدخل المدينة واستولى على كل ما وجده فيها ، وقد وصل الى جيزان الادريسى نفسه بعد ذلك •

وعقب انسحاب الأتراك من جيزان وصلت اليها القطع الحربية الايطالية ،

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٨ •
اعتمد العقيلى فى تقدير قتلى الأتراك فى المعركة المذكورة على القصيدة الشعبية لعبد الله السلامى ، وان كان فى الشعر شيء من المبالغة فقد رآه مصدرا يمكن الرجوع اليه ، على أن الكثيرين من الرواة يبالغون فى كثرة خسائر الأتراك فالبعض يقدرها بألف وخمسمائة والبعض بألفين ، وان كان الادريسى نفسه يقدرهم فى أحد رسائله الموجهة الى قائده فى الشمال ـ ونشرها العقيلى فى كتابه ـ بألفى قتيل ، الا أن العقيلى يذكر ان هذه الرسالة تعتبر كمنشور للدعاية آنذاك •

وعلمت برحيـــل الترك الى قنفدة ، فتوجهت بسرعة اليها ، وضربتها بقذائفها وحطمت ثلاثة طرادات تركية راسية فى ميناء القنفدة ، كما حطمت غيرها من القطع البحرية العثمانية ٠ وكانت القوات الادريسية فى منطقة « حلى بن يعقوب على أهبة الاستعداد لمهاجمة القنفدة برا فى نفس الوقت الذى كانت فيه قطع الأسطول الايطالى ترميها بقذائفها من البحر ، وكان ذلك التنسيق فى الحركات الحربية قد اتفق عليه بين الادريسى وبين القيادة الايطالية فى البحر الأحمر (١) ٠

وقد سبق أن أشرنا الى أن الادريسى بعد توقيع اتفاقية الحفائر بينه وبين سعيد باشا قد بعث نوابه الى الجهات الشمالية والجبال الشرقية فى المخلاف السليمانى وعسير فى بداية ســنة ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) ٠ وقد ظل نواب الادريسى فى مراكزهم حتى أعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية فى سنة ١٩١٢ فانضمت القوات الادريسية الى جانب ايطـــاليا لتنفيذ خطة الحـرب المشتركة ضد الأتراك (٢) ٠

وقد أصدر الادريسى أوامره بمهاجمة الأتراك فتحركت قواته وتمكنت من تطويق أبهـا وجبل عســير تطويقا كاملا وذلك فى سنة ١٩١٠ (ذى القعدة ١٣٢٨ هـ) ٠ واستمر الحصـــار مدة اشتدت فيهـا وطأته على الأتراك حتى اضطرتهم المجاعة الى أكل القطط ، وقد استسلمت الحامية العثمانية فى عقبة شـعار ، واستحوذ قادة الادريسى على المدافع والمـؤن الموجودة فى ذلك المركز الممتاز ٠

على أن الدولة العثمانية أرســلت بعض قواتهـا بحرا الى القنفدة لنجدة حاميتها المحصـــورة فى عســير ٠ وقد توالت الامدادات على الأتراك فى الوقت الذى ظلت فيه قواتهم مرابطة فى عسير تنتظر بقية الامدادات التى كانت فى طريقها اليهم بحرا ٠ كما كان الأتراك يترقبون تحرك قوات شريف مكة الحسين ابن على الذى عرض على الدولة خدماته للاشتراك فى فك حصار أبها ومحاربة القوات الادريسية (٣) ٠ وكان الحسين يهدف من تصرفاته هذا تبديد الاشاعات التى بدأت تنتشر حول اتصالاته السرية بالانجليز حتى يتجنب اثارة الدولة العثمانية ضده قبل أن يستعد للتصدى لها (٤) ٠

وقد سار الحسين على رأس جيش من العربان والجنود الأتراك النظاميين ويرافقه أبناؤه فيصل وعبد الله ٠ وبدنوه من حدود القنفدة فقد تحرك الجيش

---

(١) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٩ ٠
(٢) العقيلى : المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٩ ٠
(٣) البركاتى : المصدر السابق ، ص ١١ ٠
(٤) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ٠

العثمانى المرابط بها بقيادة نشأت باشا ، والتقيا معا فى « وادى حلى » وتقدما الى منطقة « قوز أبى العير » • وقد التحم الجيشان مع طليعة الجيش الادريسى فى منطقة « القنع » فدحروه ووالوا تقدمهم • كما التحم الجيش العثمانى مع الجيش الادريسى فى وادى « عجلان » فانهزم الأدارســة بعد أن أبلوا بلاء حسنا ، وتراجعوا الى قاعدتهم فى منطقة « القوز » بعد أن قتل منهم خمسمائة مقاتل تقريبا • وقد تقدم جيش أمير مكة والاتراك تجاه « قوز أبى العير » يساندهم طرادان تركيان قصفا بمدافعهما الموانى الادريسية وهى « البرك » و « القحمة » و « الشقيق » (١) •

وقد استولى الأتراك على منطقة « القوز » وتقدموا الى وادى مشرف وكان يرابط فيه جيش ادريس بقيادة يحيى بن عرار النعمى فأرغمه الأتراك على التراجع الى « بارق » وتعقبوه حتى استولوا عليها • كما نجح الأتراك فى استمالة قبائل بنى شهر اليهم ، وتمكنوا أخيرا من دخول أبها بعد أن فكوا عنها حصار الأدارسة • وقدم الى أبها فى ذلك الوقت الشريف حسين شريف مكة لمساندة القوات العثمانية التى كانت قد سيطرت على المدينة (٢) •

وقد تراجعت الجيوش الادريسية الى مواقعها الأولى حتى أعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ وذلك بعد أن أخفقت فى التوغل داخــل طرابلس الغرب • وقد قامت ايطـاليا بضرب الموانى التابعة للدولة العثمانية مما ساعد القوات الادريسية على استعادة منطقـة وادى « حلى » وبدأت فى مهاجمة القنفدة فى الوقت الذى كان الأسطول الايطـالى فى البحر يرميهــا بقذائفه (٣) • وســوف يؤدى اتفـاق الصلح الذى سيعقد بين الدولة العثمانية والامام يحيى فى سنة ١٩١١ م والذى ستعترف الدولة للامام فيه بوضعه الخاص فى اليمن دون أن يكون لديها قابلية لعقــد اتفـاق مماثل مع الادريسى ، سوف يؤدى هذا الاتفاق الى انفراد الادريسى بالنضال ضد الترك ، بل وضـــد الامام يحيى صديقه بالأمس الذى حالفهم • وســـوف نوضح ذلك مفصلا عنـــد تعرضنا لموقف العثمانيين فى اليمن عقب الصلح مع الامام يحيى فى ثنايا الفصل التالى •

ثالثا : موقف العثمانيين من قضية اليمن فى مطلع العهد الدستورى (١٩٠٨ - ١٩١١)

علمنا فى بداية الفصــل السابق أن الأتراك العثمانيين منــذ عودتهم الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ حتى مطلع العهــد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩٠٨

(١) البركاتى : المصدر السابق ، ص ٣٣ - ٣٦ •
(٢) البركاتى : المصدر السابق ، ص ٥٣ - ٥٩ •
(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٢ •

كانوا يتبعون السياسة المركزية فى حكم الولايات التابعة لهم ، وقد تمكنوا من اخماد الثورة اليمنية المتتالية واستعمل بعض الولاة الأتراك مع الثوار اليمنيين مختلف أساليب العنف والشدة والقمع · وقد استبشر اليمنيون باعلان الدستور فى سنة ١٩٠٨ وقيام العهد الجديد ، فأطلق الامام يحيى الأسرى من الضباط والجنود العثمانيين للتعبير عن حسن نيته تجاه الدولة العثمانية ، كما شرع فى مخابرة الباب العالى للوصول الى اتفاق حول الصلح والاصلاح ·

غير أن العهد الجديد على النحو الذى أوضحناه فى بداية هذا الفصل لم يختلف فى سياسته المركزية عن العهـد السابق ، بل بالغ الاتحاديون فى تنفيذ المركزية والتتريك مما كان له أسـوأ الأثر فى الولايات العثمانية · فالاصلاح الذى كان ينشده اليمنيون من العهد الجديد لم يتم بالسرعة التى كانوا يتوقعـونها ، واليمنيـون كانوا قد صبروا السـنين الطـوال يكابدون مساوىء الحكم العثمانى واستبداد عبد الحميـد ، واعتقدوا أن أثر اعـلان الدستور سيكون له فعل السحر فى ازالة المظالم ، ولكنهم أدركوا أخيرا أن الحال فى بلادهم لم يتبدل فزالت من نفوسهم هيبة الحكم الجديد ، وعادوا الى الشغب واعلان الثورة · وقد بدأت فى ذلك الوقت بعض الدول الأجنبية تتدخل فى بعض المنـاطق كما فعلت ايطاليا عنـد تحريضها للادريسى فى عسـير ومساعدتها له لمحاربة النفوذ العثمانى فى اليمن · وسوف نستعرض فيما يلى موقف الرأى العام العثمانى من قضية اليمن فى مطلع العهد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩٠٨ وذلك قبل أن نتتبع أحداث اليمن فى أثناء خضوعها للحكم العثمانى فى ذلك العهد ·

موقف الرأى العام العثمانى من قضية اليمن فى مطلع العهـد الدسـتورى :

كان موقف الأتراك من قضية العرب بصفة عامة ، وقضية اليمن بصفة خاصـة موقفا عدائيا صريحا · اذ توهم الاتحـاديون أن سياسـة المركزية والتتريك هى أفضل الوسائل وأكثرها فعالية لحل قضاياهم · ورأى الاتحاديون أن الشدة وحدها ، أو بالأحرى الاخضاع قبل الاصلاح ، لا العكس ، هو الذى يتوجب عليهم القيام به · بل وصل تفكير الأتراك الى درجة متطرفة فاعتبروا الولايات العربيـة بما فيهـا اليمن مستعمرات يمـكن مقارنتها بالمسـتعمرات الانجليزية والفرنسية · وقد قال أحد غلاتهم فى مقال نشرته جريدة « سنجان » التركية وترجمته الأهرام الى العربية ان « الانجليز والفرنسيين والهولنديين يحتلون بلادا اسلامية واسعة ، وأن عساكرهم فى هذه الولايات من أهالى البلاد

أنفسهم وأنهم يحكمون هذه المناطق بكل راحة ويربحون منها ويدخلون اليها أسباب المدنية » ثم يتساءل هـذا المتطرف عما فعله العثمانيون فى ولاياتهم ويجيب على نفسه قائلا : « ان باليمن أربعة ملايين مسلم ، ومع ذلك قد خسرت الدولة عليهم مئات الألوف من الرجـال والملايين من النقود دون أن تستفيد منهم شيئا » · وبعد أن يذكر الثورات العديدة والخسائر الفادحة التى تواجهها وتتحملها الدولة فى الولايات يتساءل قائلا لماذا أعمالنا تخيب وأعمال الأوروبيين تنجح ، ولماذا يقوم الأهالى وهم مسلمون ويشهرون فى وجه عساكرنا السلاح · ولماذا لا يفعل ذلك المسلمون فى الأراضى والبقاع التى يتولاها الأجانب » · ثم يتدارك هذا التركى ما أغفلت حكومته عن استعماله من وسائل يستخدمها الأجانب لتحقيق أهدافهم فيقول : « فيعتبر اليمانيون وغيرهم أن الرحمة بهم ضعف ، أما الأجانب فيتخذون فى أحكامهم طرقا عملية حكيمة ، فيدرسون حالة البلاد وطبيعتها ، وعادات أهلها وأخلاقهم وتعطى عساكرهم المرسلة اليها كل التعاليم اللازمة حتى لا يكون وجودهم فى البلاد وصمة عليها وعلى أهلها » · غير أن نزعته المركزية المتطرفة تعود فتتغلب عليه فيطالب دولته بأن ترسل فرقا عسكرية الى العواصم العربية مثل بغداد والبصرة واليمن لاخماد العناصر المتمردة وذلك بأن : « يحتلوا نقطا حربية ويعلنوا الادارة العرفية ، ويهتموا فى ضبط أحوال القبائل والعشائر حتى تخضع خضوعا تاما » (١) ·

وهكذا كانت النزعة المركزية والعنصرية المتطرفة المسيطرة على كاتب هذا المقال هى السائدة عند معظم الأتراك وخاصة الاتحاديين فى أثناء العهد الدستورى العثمانى · كما كان الاتجاه القومى قد غمر الأتراك وكاد يفقدهم فكرة الوحدة الاسلامية (٢) · بل ان المثقفين من الأتراك عارضوا فكرة الجامعة الاسلامية لأنهم شعروا أن هذه النزعة تباعد بينهم وبين العناصر غير الاسلامية وخاصـة فى البلقان (٣) ·

وكان هذا الاتجاه الحديث فى الدولة العثمانية نتيجة للاحتكاك السياسى والفكرى بأوربا · غير أنه كان يخالف الأصول التاريخية التى قامت عليهـا الامبراطورية العثمانية ، ويناقض الأسباب الحقيقية لاستمرار بقائها بأطرافها المترامية على مر القرون ، ويحطم الأسس الواقعية للعلاقات العربية التركية طوال هذه الفترة · اذ أن الفتح العثمانى للبلاد العربية لم يكن فتحا بالمعنى السياسى المعروف ، الذى يتبعه انتصار وسيادة لغـة ، وثقـافة ، وتقاليد ، ونظم ، وادارة الدولة المنتصرة على الشعب المغلوب ، بل كان الفتح العثمانى

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥١١ ، الأربعاء ٣٠ من يونيه ١٩٠٩ ، (١١ من جمـادى الثانيـة ١٣٢٧ هـ) ، ص ١ ·

(٢) محمد أنيس (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ·

(٣) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٦ ·

انتصارا حربيا لقوة عسكرية اسلامية على قوة عسكرية اسلامية أخرى ، أو بالأحرى انتصار السلطان العثمانى على سلطان مصر والشام المملوكى وصاحب السيادة والنفوذ فى الجزيرة العربية ٠

على أن الشعب العربى صاحب التقاليد والثقافة والتراث القديم لم يتأثر بهذا الانتصار أو بتلك الهزيمة ، بل أكد العثمانيون بقاء هذه الأوضاع المتوارثة فلم يغيروا شيئا من مظاهر المجتمع العربى ، وتركوه كما هو ، ولم يشعر العرب الا بتغير الادارة والأجهزة المملوكية بأخرى عثمانية ٠ ثم صارت الحياة العربية كما هى وعاد العرب الى حياتهم السالفة تحت اللواء العثمانى ، بعد أن اختفى اللواء المملوكى ٠ ولكن عند الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ كان التطور السياسى والفكرى داخل الامبراطورية ، الذى سار هادئا مترددا ، قد وضحت معالمه وبرزت آثاره (١) ٠ وقد أكد ساطع الحصرى ذلك بقوله : « ان استيلاء السلطنة العثمانية على هذه البلاد العربية لم يكلفها حروبا كثيرة ، لأنه لم يستلزم محاربة سكان البلاد وانما استلزم محاربة الدول المسيطرة عليها فقط » (٢) ٠

وقد تغلبت على تفكير الترك بشكل واضح نعرة الاخضاع بالقوة فى أثناء العهد الدستورى العثمانى وانعكست هذه النعرة فى مقال كتبه أحد الضباط الأتراك الذين خدموا فى اليمن مدة طويلة ــ وقد نشرته جريدة « زمان » التركية ونقلته بعد ترجمته جريدة « الأهرام » ــ وقد عرض فيه أحوال اليمن والطريقة التى يراها لمعالجة أزمته فقال : « ان الزعيم السيد يحيى قد عرف أن يستفيد من الأغلاط العديدة التى ارتكبتها الحكومة السابقة ، وهكذا توصل (الامام يحيى) الى جرأة كبيرة حتى انه ليس من الحكمة أن تتفق الحكومة الحاضرة معه على الشروط التى كانت قد وضعت منذ مدة ٠ على أنه يكفى ارسال فرقتين من الجنود النظامية تحت قيادة ضابط نشيط لاخماد هذه الثورة ٠ ولكن يجب العمل بحكمة وسرعة ، لأن الحامية موزعة فى تلك البلاد من باب المندب حتى تخوم الحجاز ، وعليه فليس بالامكان الاستفادة منها فى أول الأمر ٠ ولذلك ينبغى أن تكون الفرقتان المشار اليهما ، بمثابة قوة نقالة (متنقلة) لاعادة الأمن ، وبعد ذلك تحشد الجنود فى نقطة مركزية يمكنها تأييد الشروط التى توافق الدولة ٠ وأهمها أن يسلم الامام يحيى كل السلاح والذخيرة ، وأن يحل اللجنة التى يرأسها ، وهى أشبه بالعصابات المقدونية ، ثم تجرى عاجلا ما تحتاج اليه البلاد من الاصلاحات الادارية ، والا فما دام الامام يحيى زعيم

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٧ ٠

(٢) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٥٨ ٠

عصابات تامة العدد فان تلك البلاد تبقى مهددة للأمن والنظام العام (١) ٠

وتبدو واضحة من هذا المقال الروح العسكرية ونعرة الاخضاع بالقوة التى تعبر عن موقف الرأى العام التركى ازاء قضية اليمن ٠ كما أن هذا المقال تضمن بعض المتناقضات فمثلا يرجع كاتبه أسباب الثورات المستمرة فى اليمن الى أخطاء الحكومة السابقة ، على الرغم من أن حكومة الاتحاديين التركية فى ذلك الوقت كانت ترتكب نفس الأخطاء السابقة الناتجة عن عدم فهمها لحقيقة الأوضاع فى اليمن (٢) ٠ كما أن كاتب المقال يشبه الامام يحيى وأتباعه الزيديين « بالعصابات المقدونية » ولعله كان يقصد التشابه بينهما فى النزعة الثورية اذ من الواضح الفارق الشاسع بين الفريقين ٠ ويؤكد كاتب المقال أيضا نعرة الاخضاع بالقوة التى تسلطت على أفكار الرأى العام التركى فى ذلك الوقت فينصح دولته باستخدام القوة فى اخماد ثورات اليمنيين وبعد ذلك يمكنها اجراء بعض الاصلاحات الادارية ٠ وكان أولى به أن ينصح دولته بمحاولة الاتصال بالشعب اليمنى (٣) والتقرب اليه عن كثب لمعرفة الأسباب الحقيقية للثورة ومحاولة ايجاد الحلول المناسبة المجدية لمعالجة قضية اليمن ٠

موقف الحكومة العثمانية والأوساط الرسمية من قضية اليمن :

كان هذا هو موقف الرأى العام التركى من قضية اليمن ، وكان هذا الموقف مطابقا للاتجاهات السائدة فى الأوساط الحكومية الرسمية ٠ والحكومة العثمانية ــ أمام ضغط الثورات اليمنية المستمرة ــ كان عليها أن تجد حلا للقضية اليمنية ٠ فوضعت لجنة « مجلس المبعوثان » لائحة تخول الامام يحيى ادارة شئون بعض الأقضية الداخلية فى جبال اليمن مدة عشر سنوات تحت رقابة حاكم يعينه الباب العالى ، وقوات عسكرية عثمانية تعسكر فى تلك الأقضية ، فيكون شأن الامام يحيى فى اليمن كشأن أمير مكة فى الحجاز من بعض الوجوه ، غير أن « مجلس المبعوثان » لم ينته من دراسة هذا المشروع الى النتائج المرجوة (٤) ٠ وترجع أسباب ذلك الى عدم استقرار الحكومة العثمانية على رأى معين ازاء قضية اليمن بوجه عام ، وعدم رضائها واطمئنانها الى هذا المشروع ، الذى سيترتب عليه الاعتراف بوضع خاص للامام الزيدى ، وبمركز

(١) الأهرام : العدد ٩٥٧٥ ، الصادر فى ١٣ من سبتمبر ١٩٠٩ (٢٨ من شعبان ١٣٢٧ هـ) ، ص ١ ٠

(٢) Revue du Monde Musulman, Vol. XV, 1909, p. 279.

(٣) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٦ ٠

(٤) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٩ ٠

معين له فى احدى بقاع الامبراطورية . مما يشجع غيره من الزعماء المحليين بالمطالبة بأوضاع خاصة فى بلادهم ، الأمر الذى لا يتفق مع النزعة المركزية المسيطرة على تفكير الأتراك فى ذلك الوقت . كما يرجع هـذا أيضا الى قيام ثورة العناصر الرجعية ضد حكم الاتحاديين فى أبريل سنة ١٩٠٩ (١) فتعطلت أعمـال المجلس ، حتى تمكن « جيش الحركة » من اخماد ثورة الرجعية ، فعاد الاتحاديون الى كراسى الحكم وأنهوا عهد عبد الحميد وبدءوا يعملون على توطيد دعائم العهد الدستورى العثمانى الجديد .

وقد استلم طلعت بك وزارة الداخلية فى حكومة الاتحاديين عقب اخماد الثورة الرجعية المضادة ، وصرح بأن أول واجب عليه هو توطيد الأمن ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيه بوادر الثـورة فى اليمن وعسـير وألبانيا والعراق ونجد وحوران ، اما لأسباب محلية ، أو لعدم تحسن أحوال بلادهم كما توقعوها فى العهد الجديد ، أو لسقوط هيبة الحكومة التركية عند قيام ثورة الرجعية ، أو لتشجيع بعض الدول الأجنبية للثوار فى بعض مناطق الامبراطورية أو لكل هـذه الأسباب مجتمعة . ولما كان الأتراك يؤمنون فى ذلك الوقت بسياسة الشدة والاخضاع قبل الاصلاح ، لا العكس ، فقد وجه طلعت بك منشورا الى الولاة بالقاء مسئولية الأمن فى الولايات على عاتقهم ، وأنذرهم فيه بأنه سوف لا يكتفى بعزل المقصر منهم بل سيحيله الى المحاكم المختصـة ، وأنه سيعرض قريبا على مجلس النظـار مشروعا يقضى بتوسيع نطـاق السلطة أو الصلاحية أو « المأذونية » للولايات (٢) . وقد عرف عن طلعت بك هـذا أنه من أشد الاتحاديين نفوذا واخلاصا لجمعيتهم ، وأكثرهم شدة وصلابة وتطرفا ، كما كانت تصرفاته سببا فى كثير من المتـاعب لرعايا الدولة العثمـانية العـرب بصـفة خاصـــة .

وقبل اسـتلام طلعت بك لوزارة الداخلية فى حكومة الاتحاديين كانت وزارة حلمى باشا قد أعدت مشروعا حكيما وافيا للاصلاح فى اليمن ، غير أن طلعت بك بعد توليه وزارة الداخلية قضى على هذا المشروع .

وقد سبق أن أشرنا الى أن العرب ومن بينهم اليمنيون استبشروا باعلان الدستور وقيام العهد الجديد ، وتجدد الأمل لدى الامام يحيى فى الاتفاق على الصلح مع الدولة العثمانية واتجاه الأتراك الى اصلاح أمور اليمن ، فأطلق

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٥٤ ، ١٩ من سبتمبر ١٩١٠ .

(٢) الاهرام : العـدد ٩٥٠٨ ، السبت ٢٦ من يونيـه ١٩٠٩ (٨ جمـادى الثانيـة ١٣٢٨ هـ) ، ص ١ .

الأسرى من الضباط والجنود العثمانيين لاثبات حسن نيته تجاه الدولة . وشرع في مخابرة الباب العالي لحل قضية اليمن . وقد طلبت الحكومة العثمانية الجديدة من الامام يحيى ارسال وفد من قبله الى الآستانة للمفاوضة والاتفاق على عقد الصلح (١) . وقد استجاب الامام يحيى لمطلب الحكومة العثمانية . ووصل وفد الامام يحيى الى الآستانة برئاسة عبد الله بن ابراهيم السياسي المحنك حيث بدأت المفاوضات . وعمل البكباشي عزيز علي المصري وعزت باشا الأرناءوطي وكان رئيسا عاما لأركان الجيش العثماني ، على انجاح المفاوضات وكاد الجانبان يتفقان على الصلح لولا قيام ثورة أبريل المضادة . وبعد أن قمعت هذه الثورة انتخب مجلس مبعوثان لجنة من النواب لاصلاح اليمن تحت رئاسة مصطفى عاصم أفندي مبعوث الآستانة ، وسكرتيره المبعوث حسين جاهد (المعروف) ، وعضوية المبعوثين : أحمد ماهر أفندي (قسطموني) عبد القادر أفندي الهاشمي (المدينة المنورة) ، محمد عبد الرحمن أفندي (اليمن) ، رضا بك الصلح (بيروت) ، مصطفى أفندي العنتابلي (حلب) ، طاهر أفندي رجب (اليمن) ، علي بن حسن (العسير) ، الشيخ علي المطاوع (صنعاء) ، الشيخ علي الحلال (صنعاء) ، أحمد ضياء (أرضروم) . الشيخ محمد المعجقي (اليمن) ، علي بن حسين (اليمن) ، سليمان أفندي البستاني (بيروت) .

وقد اجتمعت هذه اللجنة مرارا ، وفي ٧ من أغسطس سنة ١٩٠٩ م (٢) أقرت مشروعا من ست مواد :

المادة الأولى : تقسم اليمن الى ولايتين ساحلية وجبلية ، على أن تضم الولاية الساحلية تهامة والسهل الساحلي ، وتضم الولاية الجبلية أقضية عمران والحجة وطويلة وحجور وذمار ويريم وآنس .

المادة الثانية : تفوض الولاية الجبلية الى الامام يحيى حميد الدين ، والولاية الساحلية الى أحد ذوي الكفاية والاقتدار .

المادة الثالثة : يفوض متولو زمام الادارية في الولاية تفويضا تاما بانتخاب القضاة والعمال والمأمورين وفقا للأحكام الشرعية ، وانتخاب رجال الدرك (الجندرمة) من الأهلين ، على أن تعرض أسماء القضاة والمأمورين على مركز السلطنة .

المادة الرابعة : تفوض الولايتان بالانفاق من الأموال التي تجبيانها ، فان بقي رصيد يرسل الى مركز السلطنة ، ويبذل قسم منه في سبيل الترقيات المحلية .

---

(١) المؤيد : العدد ٦٠٣٧ في ١٣ من ابريل ١٩١٠ ، والعدد ٦٥٩٥ في ١٦ من يناير ١٩١٢ .
(٢) المؤيد : العدد ٥٨٤٣ في ١٥ من أغسطس ١٩٠٩ .

المادة الخامسة : يكون قضاء (مناخة) مركزا للجيش مع ابقاء قوة كافية فى صنعاء تحت امرة أحد القواد المقتدرين للمناظرة على الأمن العام ، ولكن لا يترك جند فى القصبة التى يتخذها الامام مركزا له — بل توضع قوة من الجند فى تهامة (لتوطيد) الأمن العام ٠

المادة السادسة : يتطلب من الذوات (الأشخاص) الذين يعينون فى الولايتين أن يقدموا لمركز السلطنة فى نهاية كل سنة ميزانية تبين فيها الايرادات والنفقات فصلا فصلا (١) ٠

ومن الملاحظ أن واضعى هـذا المشروع أثبتوا درايتهم التـامة بحقيقة الأوضاع القائمة فى اليمن فى ذلك الحين ، حيث كان الامام يحيى يتمتع بنفوذ كبير لدى اليمنيين الزيديين الذين كانوا يعتقدون أن الامامة هى حق لا منازع فيه للامام يحيى باعتبار أنها يجب ألا تكون لأحد من غير قريش (٢) ٠ وكان بامكان هذا المشروع أن يخلص اليمن من الفوضى والاضطراب اذا كان قد قدر له التنفيـذ ٠ وكانت الأحوال فى اليمن قد ساءت للغاية كمـا اتضح ذلك من مقال كتبه السيد مقبول مصلح الحسينى (اليمنى) فى « المؤيد » ذكر فيه أن اليمن كان يعـانى ضروبا من الاستبداد والجـور والتعسف فى عهـد الحرية والدستور والمساواة ، « التى لم يجن أهل اليمن من ثمارها غير ازهاق الأرواح وسـلب الأموال ، وفقدان الأمن فى أرضـهم ورميهم بعـد ذلك بكل تهمـة شنيعة ٠٠ » ٠ ثم يذكر هذا اليمنى فى مقاله عدم جدوى ما رفعه أهالى اليمن من تظلمات الى الآستانة لانقاذهم من ظلم الموظفين الأتراك فيقول : « ان أهالى اليمن ملوا من التشكى من رجال حكومتهم المستبدين الذين رقتهم الحكومة السابقة الى أعلى المراتب واتخذتهم لسلب أموال الأمة واذلالها » (٣) ٠

القضية اليمنية فى « مجلس المبعوثان » :

أقـر مجلس الوزراء العثمانى المشروع المقـدم من اللجنـة التى انتخبها « مجلس المبعوثان » من بين نوابه لحل قضية اليمن واصلاح شئونه ، ثم حول الى « مجلس المبعوثان » الذى عرضه بدوره على لجنة خاصة قامت بدراسته وأدخلت عليه بعض التعديلات ٠ وبعـد المصادقة على هـذا المشروع تم طبعه ٠ ووزعت نسخه على أعضـاء « مجلس المبعوثان » ، وأعلنت فى الجرائد نصوصه

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٦٠ فى ٢٦ من أغسطس ١٩٠٩ ٠
(٢) توفيق برو : المصدر السابق ، ص ١٥١ ٠
(٣) المؤيد : العدد ٥٨٧٥ فى ٢٢ من سبتمبر ١٩٠٩ ، ص ١ ٠

التى أوضحناها • غير أن طلعت بك ما كاد يستلم منصبه كوزير للداخلية فى حكومة الاتحاديين حتى طلب فى « مجلس المبعوثان » استرداد المشروع • واقترح على النواب ان يعهدوا اليه بايجاد حل لقضية اليمن فى أقرب وقت ، فأجابوه الى طلبه (١) • ولكن طلعت بك أهمل المشروع لمدة ستة أشهر ووقف بعدها فى « مجلس المبعوثان » يشرح للنواب قضية اليمن فى احدى جلسات المجلس فى فبراير سنة ١٩١٠ • وقد قال طلعت بك بعد أن أوضح أنه كان أحد أعضاء اللجنة التى كلفت باصلاح اليمن : « ثم استدعيت الى الوزارة ، فلم أترك أحدا من الواقفين على القضية من اليمنيين حتى استدعيته لبيتى ، واستوضحت ، ودققت ، وتحريت ، غير أنه ، من بعد مكوثى فى نظارة الداخلية ، تغيرت الحال بغتة فى اليمن اذ وردت لى رسالتان برقيتان ، الأولى تنبئنى بهجوم أشياع الادريسى على قافلة ، واستشهاد ١٢ عسكريا ، والثانية تتضمن استشهاد أحد القائمقامين ، وتهديد الحديدة من قبل العصاة ، الأمر الذى اضطرنى الى ترك تنظيم القوانين واستعمال القوة » (٢) •

وهكذا أثيرت قضية اليمن فى « مجلس المبعوثان » ، وفرضت القضية نفسها عليه ، فكانت مثار مناقشات عديدة جادة بين النواب العرب وبين الوزارة الاتحادية وخاصة مع طلعت بك وزير الداخلية حينذاك • فقد حدث أن قام السيد محمد عبد الله مبعوث اليمن فى « مجلس المبعوثان » وأعلن أن مطالب منتخبيه حقة عادلة ، فهم لا يطلبون شيئا لا يسع الحكومة أن تمنحهم اياه ، اذ يريدون أن تفتح لهم مدارس وأن تكون الأحكام بموجب الشريعة الغراء ، وأن تنشأ مجالس صلح تراعى عادات البلاد وتقاليدها • كما يريدون أن تجبى الضرائب عندهم حسب الطريقة الجارية فى سائر ولايات السلطنة ، وأن تضمن الحكومة للمشايخ والأعيان المكلفين بذلك رواتب كافية ، وأن تعهد بمناصب الوالى والقائمقام والمدير الى أعيان اليمن فى النواحى التى ليس لهم فيها أملاك ، وأن تنشأ جندرمة محلية وتفتح الطرق وسبل المواصلات • ثم أعرب عن وجوب تعيين راتب مقرر من الحكومة للسادة من سلالة النبى ، لأن فقرهم الحالى يضطرهم الى طلب المساعدة من القبائل • وقد قوبل حديثه بالتصفيق الحاد عندما قال ان اليمنيين لا يريدون الانفصال عن الدولة بل هم يفخرون أن يعيشوا فى سلام مع اخوانهم العثمانيين تحت راية واحدة •

وقد كان طلعت بك حينئذ مجبرا على الاجابة على مبعوث اليمن فى « مجلس المبعوثان » فقام بشرح خطة الحكومة فى بلاد العرب عامة وفى اليمن

---

(١) المؤيد : العدد ٦٠٣٧ فى ١٩١٠/٤/١٣ ، ص ١ •

(٢) المؤيد : العدد ٥٩٩٤ فى ١٩١٠/٢/٢١ ، ص ١ •

خاصة ، وذكر أن المجلس كان مهتما بدراسة مشروع اصلاحى خاص باليمن عندما انفجر بركان الثورة هناك ، فهوجمت القوات العثمانية واجتاحت القوافل البلاد نهبا وسلبا مستجيبة لتحريض « الشيخ يحيى والمهدى الادريسى » – على حد تعبيره – مما اضطره الى سحب المشروع من المجلس حتى يتمكن من الدفاع عن أجزاء السلطنة ، ووجه حملة عسكرية الى اليمن . كما أعلن طلعت بك أن المجلس وافق على هذه « التحوطات » وأن الجنود العثمانيين استطاعوا اخضاع القبائل الثائرة « وان الحالة هادئة فى اليمن الآن » . وقد اختتم طلعت بك حديثه قائلا بأن مقترحات السيد محمد عبد الله محل اعتبار الحكومة ، غير أن الحكومة فى حاجة الى فترة من الزمن لا يمكن تحديد مداها لتنفيذ برنامج اصلاحى فى اليمن . وكادت المناقشة تنتهى عند هذا الحد خاصة بعد أن صفق أغلب من فى المجلس حتى المعارضين منهم لطلعت بك ، الا أن السيد عبد الحميد الزهراوى – وهو نائب عربى من رجالات حزب اللامركزية – قد تابع الحملة ضد طلعت بك وأعرب عن أسفه لارسال حملة عسكرية الى اليمن ، واتهم طلعت بك ناظر الداخلية بجهله بالأمور ومحاولة اخفاء الحقيقة . وهنا ثار طلعت بك ونهض صارخا ، وقال أنه لو سلم بجهله بحقيقة الأمور ودقائقها فى اليمن ، الا أنه لا يسمح باتهامه بالكذب مطلقا – ويعنى بذلك اتهامه بأنه يتعمد اخفاء الحقائق وتشويهها – ثم قال مدافعا عن نفسه : « أما الكذب فأنا لا أعرفه البتة ، بل أعيده الى من حاول الصاقه بى .. » فصفق الجميع لطلعت بك وأجبروا الزهراوى على أن يكف عن حملته (١) .

وجدير بالملاحظة أن الاتحاديين عموما يلجأون الى التهريج الخطابى فى « مجلس المبعوثان » وتعمد احراج المعارضين لهم فى كثير من الأحيان . وكانت تشكيلات البرلمان العثمانى تساعدهم على كسب هذه المواقف ، والفوز بتأييد مشروعاتهم وقوانينهم فى هذه المجالس النيابية ، التى حرصوا على ضمان أغلبيتها الى جانبهم . فبرغم أن الأتراك لم يكونوا أكبر عنصر فى الامبراطورية العثمانية عددا ، وكان العرب متفوقين عليهم فى هذه الناحية اذ كانوا يشكلون أكبر عنصر داخل الامبراطورية ، الا أن الترك بما كان لهم من سيادة وتسلط حرصوا على أن تكون أغلبية « مجلس المبعوثان » من الأتراك . فعندما التأم المجلس فى ديسمبر سنة ١٩٠٨ وهو أول مجلس نيابى بعد الانقلاب ، كان يضم ٢٤٥ عضوا منتخبا كان منهم ١٥٠ من الأتراك ، ٦٠ من العرب ، أى رجحت كفة الترك بنسبة ٥ الى ٢ . أما باقى الأعضاء فكانوا من الأقليات التى يمكن التأثير عليها وضم أصواتها الى جانب الأتراك . بينما لوحظ فى مجلس

---

(١) الأهرام : العدد ٩٧١٠ فى ٢٢ من فبراير ١٩١٠ (١١ من صفر ١٣٢٨ هـ) ، ص١ .

الأعيان (الشيخ) الذى كان يضم أربعين عضوا يعينهم السلطان أن عدد العرب من بينهم بلغ ثلاثة أعضاء فقط (١) .

وقد كرر طلعت بك تصريحاته السابقة فى جلسة تالية مجيبا على سؤال يتعلق بمطالب اليمنيين فقال : « انى توليت نظارة الداخلية والحكومة مشغولة فى ذلك العهد بمشروع ينظم شئون اليمن وادارتها ، ولكن علمت بعد أيام أن قبيلتين يمانيتين هاجمتا قافلة وسلبتاها ستة آلاف ليرة ، وقتلتا ١٦ عسكريا ، وأن الثوار احتلوا عشرة مواقع هناك وأضرموا نار الثورة فى تهامة وعسير وأن ادريس يتهدد الحديدة . فرجوتكم على اثر ذلك كله أن نؤجل كل اصلاح فى تلك البـلاد الى ما بعـد توطيد الأمن فى ربوعها ، وبلاد مثلها تعاقبت فيهـا الثورات لا يمكن اخمادها فى أشهر » . ثم أشار الى أنه أرسل احدى عشرة أورطة الى هناك وأنهـا استطاعت تهدئة الحالة نسبيا ، وأنه لا يمكن الاصلاح الا بعد نشر الأمن « ولكن لا يمكن تحديد الزمن الذى يكفى للبدء فى الاصلاحات » وقد حدث أن حاز طلعت بك ثقة المجلس بخصوص هذه القضية وأقرت أغلبية المجلس الحكومة فى خطتها (٢) .

وتجدر الاشارة الى أن النواب العرب فى « مجلس المبعوثان » احتجوا على موقف الحكومة العثمانية من قضية اليمن ، وأعلن بعضهم فى المجلس ذلك الاحتجاج ، وناقشوا طلعت بك ناظر الداخلية الذى سحب مشروع اصـلاح اليمن ، واحتدت المناقشة بينه وبين بعضهم دون جدوى . **وقد لجأ طاهر رجب — أحد نواب اليمن فى « مجلس المبعوثان » والوحيد الذى يعرف التركية — الى تقديم استقالته من المجلس للأسباب التالية :**

١ — أن الحكومة لا تعمل شيئا لليمن .

٢ — أنه يئس من زملائه النـواب اليمانيين لأنهم يجهلون التركيـة ، فهم لا يستطيعون الاعراب عن أمانيهم وآرائهم (لأن اللغات التركية كانت اللغة المسموح بها فى المجلس) .

٣ — أن أعماله فى اليمن معطلة فهو لا يستطيع البقاء فى الآستانة واهمال تلك الأعمـــال .

وقد قبل « مجلس المبعوثان » استقالة النائب اليمنى بعد بحثها ووافق عليها بناء على السبب الثالث فقط (٣) ، وتنصل من الاعتراف بالسببين الأولين

---

(١) جورج أنطونيوس : المصدر السابق ، ص ١١١ .
(٢) الأهرام : العدد ٩٧٢٥ فى ٢٨ من فبراير ١٩١٠ (١٧ من صفر ١٣٢٨ هـ) ، ص١ .
(٣) الأهرام : العدد ٩٦٧٣ فى ١٠ من يناير ١٩١٠ (٨ من ذى الحجة ١٣٢٧) ، ص١ .

لما فيهما من مساس بموقف الحكومة العثمانية ازاء قضية اليمن ، وبتعصب الأتراك العنصرى الذى جعل مناقشات « مجلس المبعوثان » حكرا للغة التركية دون غيرها ٠

ولا شك أن استعمال القوة لم يكن هو الحل الصحيح لقضية اليمن ٠

وهكذا دفن الاتحاديون مشروع اليمن الاصلاحى لأنهم اعتبروه شبه تقسيم للدولة (١) ، وكانت سياستهم تقضى بألا يمنحوا امتيازا لولاية ما دون أخرى ، بدعوى أنهم كانوا جادين فى سن قانون عام للولايات يطبق فى جميع مناطق الدولة على السواء بناء على قاعدة توسيع المأذونية ٠ كما تذرع الاتحاديون فى الغائهم لهذا المشروع الى ما نسبوه لمحمد الادريسى من الأعمال العدائية للدولة فى عسير وتهامة ، على الرغم من أن هذه الأعمال كانت ناتجة عن الدسائس التى كان يحركها عملاء الحكومة من أمثال محمـد نجيب متصرف لواء الحديدة ، والسيد أحمد شراعى باشا رئيس البلدية فيها وعضو « مجلس المبعوثان » ، والشيخ عبد الله البونى باشا ، أحد شيوخ القبائل ، الذى طغى ظلمه على القبائل الأخرى ، وأهلك منهم الحرث والنسل ٠ وقد رفع رجال القبائل شكواهم الى والى اليمن العثمانى ومتصرف الحديدة فلم ينصفاهم حتى يئسوا من عدالة رجال الدولة فلجأوا الى منطق القوة ووقفوا الى جانب الادريسى ٠ ورغم تدخل الشراعى باشا الذى كان يشترك مع القبائل فى معاداته للشيخ عبد الله البونى ، فان محاولاته فشلت فى تهدئة الموقف بل زاد تأزم الأمور بين رجال القبائل وموظفى الدولة فى اليمن (٢) ٠

ويبدو أن الادريسى الذى كان من زمن على وفاق مع الامام يحيى ووقف الى جانبه فى ثورته ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن ، قد شعر بأن الدولة ستنيل الامام يحيى من الحقوق ما لا ترتضيه له هو مما جعل الادريسى يعمل لحسابه الخاص ، فأظهر الجفاء للدولة بعد ما كان بينه وبينها من علاقة نظمتها اتفاقية الحفائر التى سبق الاشارة اليها ، وبدأ يتحرش بجندها وقتل رجاله منهم الكثيرين (٣) ٠ وقد كان ذلك ذريعة لتصرف طلعت بك بسحب المشروع الاصلاحى فى اليمن لأنه رأى أن أحداث عسير من شأنها أن تؤخر الترتيبات الخاصة باليمن ٠ وقد أيده فى ذلك أكثر الاتحاديين تعقلا كخليل بك ، نائب مفتشه ، ورئيس الحزب البرلمانى لجمعية الاتحاد والترقى ، والذى سيخلف

---

(١) الأهرام : العدد ٩٩٩٧ فى أول فبراير ١٩١١ ٠
(٢) المؤيد : العدد ٥٨٧٥ فى ٢٢ سبتمبر ١٩٠٩ (مقال بقلم مقبول محمد صالح الحسينى)
(٣) المؤيد : العدد ٥٨٨٢ فى ٣٠ من سبتمبر ١٩٠٩ (مقال بقلم طاهر الهتارى) ٠
Revue du Monde Musulman, Vol. X, Janvier 1910, No. I, p. 110.

طلعت بك فى وزارة الداخلية ، اذ قال : « كان قد وضع لليمن نظام خاص ٠٠ ولكن طلعت بك أوقفه بشجاعة كبيرة ، ووطنية صادقة ، ولو أنه نفذه لما عرفنا حد الصعاب التى كانت تنجم عنه » (١) ٠ وكان يعنى خليل بك بالصعاب التى ذكرها هو خوف الاتحاديين من أن يقوم السيد محمـد الادريسى ، بعد منح اليمن الامتيازات التى وردت فى المشروع الاصلاحى ، وقد علق توفيق برو على موقف طلعت بك من القضـية اليمنية بقوله : « لقد فات طلعت أن قضـية الاضطرابات فى اليمن داء مزمن ٠ كما أجمع رجال السياسة العقلاء على هذا الوصف لها ، وأن التدابير القامعة لا تجدى نفعا فى القضاء عليها ، وطالما أن الدولة لم ترسل الى هذه المنطقة الا كل مرتزق ليس له من هم الا ابتزاز الأموال، ولا تعين اليها الموظفين الشرفاء ، فسيظل هذا الداء ينخر فى العظام ، وطالما كانت تتمسك بروح السيطرة ، وعدم اعتبار مطالب السكان العادلة ، وارضائها، فستظل الثورات قائمة (٢) ٠

ويدهشنا أن « جريدة الأهرام » نشرت تعليقا أرجعت فيه أسباب عدم تنفيذ المشروع الاصلاحى فى اليمن الى الاضطرابات الناتجة عن « الطبيعة القبلية لأهل هذه الجهات ، وما طبع عليه العرب والقبائل من حب للقتال ، وأخـذ الثأر والحروب المستمرة » ، وذلك دون أن تشير الى فساد الادارة العثمانية فى اليمن أو الى موقف الاتحـاديين بنزعتهم المركزية ، ونعـرتهم الى اخمـاد الثورات بالقوة ، والى الاخضاع قبل الاصلاح ، لا العكس ، على النحو الذى سبق أن أوضحناه ٠ وفى هذا اغفال من « الأهرام » للحقيقة ، وان أسرعت فتداركت فى مقال تال ــ ذكرت فيه أن الضرائب المتعددة وسوء الادارة التركية ولدت ثورات اليمنيين ، غير أنها دافعت عن حكومة الاتحاديين وحثت العرب على الهدوء٠ بل ان المقال كاد يهدد العرب فى صورة اسداء النصيحة اليهم عندما ذكر فيه أن « حكومة اليوم » (العثمانية) عامدة الى استئصال جرثومة الثورات » ، كما عددت الاستعدادات « التحوطات » التى صرح طلعت بك وزير الداخلية الاتحادى باتخاذها ، ثم نوهت عن القوات والفرق التى كانت الحكومة العثمانية بصدد ارسالها لاخماد الثورة اليمنية ، وحاولت « الأهرام » فى مقالها هذا أن تنصح الثوار العرب بأنه من الأفضل لهم الخلود الى السكينة ومسالمة الحكم العثمانى فى بلادهم فتقول : « ولو فكر العرب فى هذه الأمور حق التفكير لترددوا كثيرا قبل مجاهرتهم بشق عصا الطاعة ، والهجوم على جنود عازمة على مقاتلتهم لا على الانضمام اليهم كما كان يحدث سابقا » (٣) ٠ ولعلنا نلتمس العذر للأهرام عندما نذكر عدم وجود مراسلين للصحف المختلفة فى اليمن ينقلون الى الرأى

---

(١) الأهرام : العدد ١٠٠٩٢ فى ٢٥ من مايو ١٩١١ ٠

(٢) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ١٥٣ ٠

(٣) الأهرام : العدد ٩٥٦٩ فى ٦ من سبتمبر ١٩٠٩ (٢١ من شعبان سنة ١٣٢٧) ، ص١

العام فى الدولة العثمانية وخارجها حقيقة الموقف ، الذى صممت حكومة الاتحاديين على طمس معالمه ، وأصدرت البلاغات الرسمية لاخفائه (١) ، حتى لا تشجع الولايات الأخرى التابعة لها على التمرد والثورة وحتى تحفظ ماء وجهها وكيانها أمام الدول الأجنبية التى كانت تترصدها ·

فيطالب هو الآخر بمثل ما ناله الامام يحيى · والحقيقة أن الاتحاديين توجسوا من أن تحذو سائر الولايات العربية حذو اليمن (٢) فتثور مثلها مطالبة بنفس الامتيازات أو أكثر منها ·

وقد اشتعلت نيران الثورة من جديد فى اليمن نتيجة لرفض الاتحاديين للمشروع الاصلاحى هناك ، واشترك فيها الامام يحيى فى جبال اليمن ومحمد الادريسى فى عسير والمخلاف السليمانى · وكان الادريسى قد بلغ من النفوذ فى تلك المنطقة ، بفضل دعاته المخلصين والحزم والعدل الذى برهن عنهما فى معاملة السكان ، مبلغا جمع حوله كافة أهالى تلك البلاد وقبائلها · وعلى النحو الذى سبق أن أوضحناه كانت الأمور فى عسير فوضى ، والأمن مضطربا ، نتيجة لتعدى رجال القبائل بعضهم على بعض(٣) ، فعمد الادريسى الى مقاتلة المعتدين ، حتى فاءوا الى الهدوء والسكينة وأصبح السيد المطاع فى تلك المنطقة · غير أن الاتحاديين توجسوا من خطورة الادريسى وأنصتوا لوشايات الحاقدين عليه ممن شوهوا حركته وصوروها للمسئولين بأنها دعوة الى ما يشبه النبوة وبأنه ادعى « المهدوية » ، الأمر الذى أنكره الادريسى تمام الانكار فى رسائله الى أصدقائه والى المسئولين فى الدولة العثمانية ، مظهرا ولاءه لها وتعلقه بها · وقد فاوضت الدولة الادريسى أحيانا وقاطعته أحيانا أخرى ، حتى عقدت اتفاقية الحفائر التى كانت بمثابة اتفاق مبدئى بينهما · وما لبثت الدولة أن نقضت هذا الاتفاق بعد رفض الاتحاديين للمشروع الاصلاحى فى اليمن ، واتجاههم الى المركزية المتطرفة والاخضاع قبل الاصلاح ، حتى لا تتيح الفرصة للولايات الأخرى بالمطالبة بأية امتيازات مماثلة · هذا على الرغم من أن مطلب الادريسى الذى أوضحه فى كتابه الى الامام يحيى فى سنة ١٩١١ م (١٦ من ربيع الأول ١٣٣٠ هـ) جاء فيه « هو أن نكون فى جهاتنا آمرين بالمعروف ، ناهين عن المنكر ، ضابطين للبلاد من الفساد ، مع بقاء مراكزهم (أى مراكز العثمانيين) ، واليهم تساق الحاصلات ، وعليهم القيام بما يلزم من معاش القضاة··وألا يحدثوا زيادة من الفرقة فى البلاد ·· وهذه ·· لبساطتها ، لا تكاد أن تكون مطالب ،

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٩٢ ·

(٢) توفيق برو : المصدر السابق ، ص ١٥٤ ·

(٣) الأهرام : العدد ٩٤٧٩ فى ٢٤ من مايو ١٩٠٩ ·
العدد ٩٥٥٦ فى ٢١ من أغسطس ١٩٠٩ (من كتاب للادريسى الى أحد أصدقائه فى القاهرة) ·

ولكن أدانا الى ذلك حب الراحة للبلاد والعباد » • ثم يشير الادريسى الى تناقض سياسة الأتراك وسرعة تغيرها فيقول : « كلما أرادوا عقد ذلك نقضوه ، وكفى بما كان فى هـذه المـدة الأخيرة ، فان المذاكرة حصلت بيننا وبينهم فى هـذا الموضوع ثلاث مرات ، بل أربعا بعد وصول رسلهم الينا ، فاذا أجبنا بما فيه الوفاق ، أعرضوا تيها وكبرا واحتقارا لنا » (١) •

وهكذا أحدث رفض الاتحاديين للمشروع الاصلاحى فى اليمن رد فعل شـديد لدى اليمنيين ، وكانت الشكوى فى اليمن عامة عن استهتار الموظفين الترك وقضاتهم بأمور الشرع الاسلامى ، وعدم حكمهم بموجبه ، وهو الأمـر الذى يقوم على أساسه حكم الامام يحيى الدينى فى اليمن وزعامته لأتبـاعه الزيديين وقد أزكى نيران الثورة وأغضب اليمنيين كثيرا تعسف الحكام الأتراك فى جباية الضرائب حتى فى سنى القحط ونضوب موارد الأرض (٢) • كما أدى جنوح الاتحاديين الى مركزية الحكم ، وصهر العناصر ومزجها فى البوتقة العثمانية ذات الطابع التركى الصرف ، والتلويح من وقت لآخر لليمنيين باستعمال القوة والتهديد بالضغط الحربى ، والاستعدادات العسكرية الهائلة ، وارسال الجيوش وحشدها فى اليمن ، أدى كل ذلك الى حماسة اليمنيين وتفانيهم فى الحروب ضد القوات العثمانية التى أرسلتها الدولة لاخضاعهم • وقد صرحت الحكومة العثمانية على سبيل المثال بأنها أدرجت فى ميزانية عام ١٩١٠ م مبلغا كبيرا من المال لشراء ٢٤ زورقا عسكريا « لخفر سواحل اليمن » (٣) • كما وعدت بارسـال ٤٨ زورقا حربيـا أخرى ، الى تلك الجهـات ، لمنع تهريب السلاح (٤) • وكانت الحكومة العثمانية تخشى تماما من تهريب السلاح الى القبائل اليمنية وتبذل كل جهدها لمنعه ، وكانت تشك دائما فى أن انجلترا وايطاليا تعملان على تهريب الأسلحة الى تلك الجهـات ، والى رجال القبـائل الأشداء المتمردين • كما لجأت الحـكومة العثمانية الى وسيلة أخرى ضمنتها مخططها لتدعيم قواتها فى اليمن لتقوى على مواجهة الثورات اليمنية العنيفة هى رفع الروح المعنوية لدى أفراد قواتها المتوجهة الى اليمن بشتى الأساليب الممكنة « فكانت ترفع رتب الضباط اغراء لهم على السفر الى اليمن ، وتعمد الى ترقيتهم، قبل ترحيلهم الى هناك » (٥) حتى تضمن حسن قيامهم بواجبهم ، وحتى لا تعدم رجالا ينفذون أوامرها ويخلصون الولاء لها فى هذه الولاية الثائرة النائية •

---

(١) المنار : مجلد ١٦ ، ج ٤ ، فى ٧ من ابريل ١٩١٣ ، ص ٣٠٠ (من كتاب للادريسى الى الامام يحيى) •

(٢) Revue du Monde Musulman, Vol. IV, No. I, Janvier 1908, p. 96.

(٣) الأهرام : العدد ٩٦٥٠ فى ١٠ من ديسمبر ١٩٠٩ (٢٧ من ذى القعدة ١٣٢٧) ، ص ١ •

(٤) الأهرام : العدد ٩٦٥٢ فى ١٣ من ديسمبر ١٩٠٩ (٣٠ من ذى القعدة ١٣٢٧) ، ص١

(٥) الأهرام : العدد ٩٧٢٢ فى ٨ من مارس ١٩١٠ (٢٥ من صفر ١٣٢٨) ، ص ١ •

حملات الصحافة التركية ضد قضية اليمن وتصدى الصحافة العربية للدفاع عنهـا :

لم تقتصر سياسة الاتحاديين على ارسال الحملات العسكرية الى اليمن لاخماد ثورتها بل عبأوا صحفهم وغيرها من الصحف التركية المتطرفة لجنسيتها لشن حملة دعائية مركزة على العرب بصفة عامة وعلى اليمن على وجه الخصوص ٠ فنفثت جريدة (طنين) الاتحادية حقـدها على اليمن ، واقترحت له مشروعا استعماريا أرادت أن يطبق فيه ٠ وكأن صاحب هذه الجريدة ومدير تحريرها قد نسى أنه كان سكرتيرا للجنة البرلمانية التى وضعت المشروع الاصلاحى الخاص باليمن والذى سحبه طلعت بك من « مجلس المبعوثان » ٠ فأعلنت الجريدة أنه : « لا وسيلة لاصلاح اليمن غير اتباع الأسلوب الاستعمارى الانجليزى ، انه لعار على العثمانيين أن يكونوا أقصر باعا وأقل نجاحا ٠ ان ثلث فيلق ، تام الأهبة ، مدربا تدريبا حسنا ، اذا اقترن بانتداب المأمورين الاداريين الكفاة ، كان كافيا لتنفيذ الاصلاحات الموافقة لحالة البلاد ٠٠ » ٠ « على أنه يجب انتقاء المأمورين الملكيين من قوم نزهاء مثقفين أقوياء عارفين العربية واقفين على أساليب الاستعمار الادارى الانجليزى ، وبغير ذلك لا يرجى اصلاح » (١) ٠

والأدهى من ذلك أن الصحافة التركية لم تكتف بالدعوة الى اتباع الأسلوب الاستعمارى الانجليزى فى اليمن بل هاجمت جريدة « اقدام » فى أحد أيام شهر فبراير سنة ١٩١٠ أهالى اليمن فى مقال بتوقيع خليل حامد ، وهو اسم مستعار لأحد الضباط ، نشرته تحت عنوان « رسائل من اليمن » جاء فيه : « أن أهل اليمن يعبدون المال ، وأنهم فى سبيل المال يضحون بكل شئ حتى بأعراض نسائهم » (٢) ٠ غير أن هذا الهجوم البذىء فجر غيرة العرب الموجودين فى الآستانة من ضباط ونواب وطلاب وشباب وألهب حميتهم ، وقام الطلاب العرب بمظاهرة صاخبة ، واندفعوا الى ادارة جريدة « اقدام » وحطموا مكتبها ، وحقروا صاحبها وأهانوه ، كما ثارت ثائرة المبعوثين العرب ، وذهب وفد منهم الى الصدر الأعظم حقى باشا ، وكان قد استلم الصدارة العظمى عقب استقالة حلمى باشا ، وطلبـوا ايقـاف تلك الجريدة ومحاكمة صاحبها أمـام المجلس العرفى العسكرى ، فأخـــذ حقى باشا يلطف من حدتهم وأحال أحمـد جودت مدير جريدة « اقدام » الى ديوان الحرب العرفى ٠ وقد حكم الديوان بتعطيل

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٣٨ فى ٣١ من يولية ١٩٠٩ (من مقـال منقـول عن جريدة طنين بعنوان : المسألة اليمنية) ٠

(٢) ساطع الحصرى : نشوء الفكرة القومية ، ص ١٩٨ ٠ المنار : ج ٣ ، مجلد ١٣ ، ص ٢١٩ الأهرام : العدد ٩٧٣٠ فى ١٧ من مارس ١٩١٠ ٠

الجريدة الى أجل غير مسمى ، مع فرض مائة ليرة جزاء نقديا (١) ٠

وما لبث خبر هذا التهجم أن امتد الى الولايات العربية فعقد الشباب العربى فى بيروت ودمشق وحلب وغيرها الاجتماعات وأرسلوا برقيات الاحتجاج على جريدة « اقدام » ٠ كما اندفعت الصحافة العربية ترد الهجوم فكتبت احدى الصحف السورية تقول « فى عاصمة السلطنة العثمانية جريدة تركية تدعى « اقدام » ما زالت تنفث سم الشقاق بين الترك والعرب ، وتعزى الى العرب أنواع الرذائل ٠ وقد بلغت القحة ببعض ممن يكتب بها ٠٠ أن نسب الى العرب تلك النسبة الشنعاء ٠٠ خسئت لا أبالك ما أصدق المثل العربى القائل : رمتنى بدائها وانسلت ٠٠ » ٠

كما كتبت جريدة « الرقيب » البغدادية تصف كاتب المقال بالجهل المطبق فتقول : « ان الكاتب لابد وانه يجهل العرب وأحوالهم كل الجهل ، ويرى أن ناموسه هو لديه أقل شيء يمكن بيعه بأبخس ثمن » (٢) ٠

وتصدت الأهرام ترد على جريدة « اقدام » فى مقال كتبه وصفى بعنوان «العرب والترك وأقدام والأهرام» جاء فيه : « بماذا عسى أن نخاطب « اقدام » وكتاب جريدته ، أصحاب الأقلام المسمومة ، وقد أظهروا انهم لم تنضج الأيام تربيتهم الاجتماعية بل شاءوا أن يساهموا أحط الطبقات الدنيا فى تعبيراتهم وتوجيه الانتقادات الى من ليسوا عنه براضين ، الا « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » (٣) ٠

كما أسهم الشعر العربى بدوره فى رد اهانة جريدة « اقدام » وغيرها للشعب اليمنى ، وراح شعراء العرب يهجون سفاهة الاتحاديين ، فمثلا جاء فى قصيدة للشاعر يوسف أفندى حيدر البعلبكى هذه الأبيات ضد الترك ، بعد أن صال وجال فى تكريم الأخلاق العربية :

فقل لجهول راح يلثم عرضهم … ولم يدر أن الويل من جهلهم طرا
فهل أمة الأتراك أضحت غيورا … عليهم وكل الأرض من فعلهم غبرا
ولم يبعث الرحمن فيكم محمدا … وفى لغة الأتراك لم تنزل الذكرى
خلافتكم كانت بقايا فخارهم … ونلتم هدى الايمان من فضلهم طرا

---

(١) المنار : ج ٣ ، مجلد ١٣ ، ص ٢٢٠ ٠
Correspondance d'Orient : 2ème Année, 15-12-1910, p. 498.

(٢) أحمد عزت الاعظمى : القضية العربية ، ج ١ ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ٠

(٣) الأهرام : العدد ٩٧٣٥ فى ٢٣ من مارس ١٩١٠ ٠

كما عرض بدوره بأعراض الترك قائلا :

هم القوم (١) ما كانوا مماليك غيرهم   ولا اتخذوا أعراضهم للملا تجرا (٢)

وهكذا كان لهــذه الحادثة أسوأ الأثر فى العلاقة بين الترك والعرب ، وأخذت الحرب الصحفية تتزايد بين الأمنين باستمرار ، بالرغم من أن صاحب جريدة « اقدام » أراد أن يبرر سلوك جريدته بمقال كتبه فى جريدة « طنين » محاولا أن يوهم العرب أن المقال المشئوم كتب فى غفلة منه (٣) . غير أنه لم يكن حكيما فى محاولته اقناع قرائه من الأتراك بأن العرب يتهمونه بالاندفاع والتحيز ضدهم بدافع من جنسيته التركية ، وبأن العرب يعتبرون الترك أعداء لهم (٤) ، وأن اتهام جريدة اقدام بالتعصب الجنسى التركى ، مما دفعها الى كتابة هذا المقال ، لهو اتهام للترك بأجمعهم . ثم أقحم صاحب جريدة « اقدام » نفســه بالخوض فى قضية اليمن قائلا بأن « الترك ضحوا فى اليمن وغيرها بمئات الألوف من أولادهم من أجل ألا يفترقوا عن العرب ، وأنهم خلصوا جزيرة العرب من الاحتلال الأجنبى أيام الصليبيين ، فكيف يكونون خصما للعرب سالكين سبيل الحاكمية العنصرية ؟ ، فهل هذه التهم هى مكافأة على الدماء التى أراقها الترك فى سبيل العرب » (٥) . فكان قوله هذا يظهر تمننه على العرب متبجحا بفضل الأتراك عليهم ، مما أثار مشاعر العرب ونفرهم من تصرفات الأتراك .

كما أن مقال أحمد جودت هذا فى جريدة طنين أثار نفوس الشباب التركى عندما صور اهانة الطلاب العرب له فى جريدته اهانة للأمة التركية بأجمعها قائلا انها « اهانة لم يسمع بأن ملة من الملل أهينت بمثلها ، ولم يقع من عنصر من العناصر العثمانية اهانة لعنصر آخر بمثل ذلك .. » . وقد أوضحت ذلك مجلة المنار عندما ذكرت أن أحمد جودت صاحب اقدام كبر الدعوى وهول فيها : « وأشار بالنقاط الى ما طواه ، فوق ما قاله تصريحا وتلميحا » (٦) .

كان لهذه القضية دوى عظيم لدى الشباب العربى وهى وغيرها من الحوادث التى ستتوالى فيما بعد ، ستكون أسباب نمو العاطفة القومية عند الجيل العربى الجديد ، الذى اتخذت أفكاره السياسية طريقا تمليه ظروف العلاقات العربية ــ

---

(١) يقصد بذلك ان العرب لم يكونوا مماليك لغيرهم تباع وتشترى أعراضهم ، أى نساؤهم معهم ، كما كان شأن المماليك الترك .

(٢) أحمد عزت الأعظمى : المصدر السابق ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٣) الأهرام : العدد ٩٧٣٠ فى ١٧ من مارس ١٩١٠ .

(٤) المنار : مجلد ١٣ ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

(٥) أحمد عزت الأعظمى : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٦) المنار : مجلد ١٣ ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

التركية ، بعد اعلان الدستور يوماً بيوم ، كما ذكر ذلك توفيق على برو (١) ٠ اذ أن صاحب جريدة اقدام لجأ الى القضاء للانتقام بواسطته من الاهانة التى لحقته على أيدى الطلاب العرب فى الآستانة ، حتى لاحقهم ديوان الحرب العرفى. وصار يستدعى شبابهم ورجالاتهم للتحقيق فى هذه المسألة التى ألبسها ثوب التعصب الجنسى ٠ كما أن بعض الصحف العربية لم تحجم بدورها عن اثارة شكوك العرب وتحذيرهم من تصرفات الترك المنطوية على التعصب العنصرى ٠ وتأييدا لذلك أشارت مجلة المنـــار الى طلب ديوان الحرب العرفى للطـلاب العرب بقولها : « اذا كانت نتيجتها عقاب كثير من الطـلاب بالحبس أو غير الحبس ، أو يتوسل بها الى اقفال « المنتدى الأدبى » الذى يجتمع فيه جمهور أولئك الطلاب للمدارسة والمذاكرة وتعلم اللغات القومية والأجنبية ، ليمنعوا من أسباب الترقى ٠٠٠ ويكتفى من معاقبة جريدة اقدام بأضافة لفظة «ينى» (٢) (أى جديد) الى اسم جريدته ، فلا يعلم الا الله ماذا يكون لذلك من ســوء التأثير عند الأمة العربية » (٣) ٠

على أن صاحب جريدة « اقدام » ادعى بأن مقالة الذى انطوى على اهانة للعرب قد نشر فى جريدته سهواً منه بغير قصد ، وأن جريدته ليست داعية للفكرة العنصرية ، وأنه يحترم العرب ويكرمهم ٠ وأعترف بأن التوفيق جانبه فى نشر مقال أعتذاره فى جريدة « طنين » العنصرية المعادية للعـرب ، والتى كانت تدعو الى استعمار أراضيهم ومن بينها اليمن بصفة خاصة ، مما أتاح لصاحب « طنين » حسين جاهد ، عدو العرب اللدود ، أن يعلق على الاعتذار ، ويجرح به عواطف العرب ويتحدى شعورهم ٠ وقد حدث ذلك قبل أن يمضى وقت طويل على الحملات الصحفية التى شـنتها جريدة « طنين » على شخصية دينية من العرب هو السيد محمد المهدى السنوسى ، فقد جعلت الجريدة من هذا الرجل الصالح « مجرماً من كبار المجرمين ، هو وعبد الحميد سواء بسواء » ، عندما اتهمته بالتآمر مع السنوسية ، وقالت عن محمد المهدى بأنه أتى بالكثير من الأعمال التى تحط من شأن الاســـلام وجعلته عدوا للدين ، وأن هذين

---

(١) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ١٦٠ ٠

(٢) كان الديوان االحربى العرفى قد حكم بتعطيل جريدة أقدام الى أجل غير مسمى عقب الأزمة التى أحدثتها ، مع مائة ليرة جزاء نقديا ، فلم يلبث صاحبها أن أصدرها بعدئذ من جديد مضيفا الى اسمها كلمة « يكى » (وتلفظ ينى) فأصبحت « يكى أقدام » أى (أقدام الجديدة) ، وكان يحمل لها رخصة اضافية ، كما كان يفعل كثير من أصحاب الصحف ، حتى أن البعض كان لديهم رخص لعشرين جريدة ، فاذا ما عطلت واحدة أصدر أخرى بدلا منها باسم جديد أو بالاسم الأصلى مضيفا كلمة « ينى » حسبما تتضمن الرخصة ٠
Correspondance d'Orient : 2ème Année, 15-12-1910, p. 498.

(٣) المنار : مجلد ١٣ ، ج ٣، ص ٢٢٥ ٠

« المجرمين الكبيرين » كان لهما أهداف مختلفة ، لكنهما كانا يسيران في نفس الاتجـــاه (١) ٠

وقد صاحبت الحرب الصحفية بين العـرب والأتراك أمور أخرى ولدت سخط الشعب العربى ضـد الحكم العثمانى فى العهـد الدستورى ، كهضـم حقوق العرب فى الوظائف . وتجاهل الاتحـاديين اياهم فى سياسـة الدولة وادارتها ، ومحاربتهم لمبعوثى العرب المتحررين تحت قبة البرلمان العثمانى ، وارسالهم الحملات العسكرية المتتالية لاحكام قبضتهم على الولايات العربية عامة واليمن خاصة ٠ فكان طبيعيا أن يزداد انطلاق أقلام كتاب العرب وينشـط صحافتهم فى مهاجمة الاستبداد التركى العنصرى ، وسوف تستمر هذه الحرب الصحفية بين العرب والأتراك حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ٠

وحتى عام ١٩١٠ ــ ١٩١١ . لم تكن بعـد الفكرة اللامركزية قد أخذت مجراها القوى بين الاصلاحيين العرب ، وان يكن قد ظهر أثر لها فى بداية العهد الدستورى ، غير أنها حوربت كما لم تحارب أية فكرة أخرى ضارة فى نظر من حاربوها من الأتراك ٠ أما الفكرة القومية العربية فقد كان سريانها محدودا بين فئات الشباب العربى الناشىء ، وخاصة من طلاب المدارس العالية ، الذين ألفوا « المنتدى الأدبى » فى الآستانة بعـد أن ألغى التـرك جمعيـة الاخاء العربى العثمانى ، بدعوى أن أعضاءها كان لهم ضلع فى الثورة المضادة ٠ غير أن الأفكار القومية واللامركزية كانت تسير قدما الى الأمام جنبا الى جنب ، وتتغلغل فى نفوس السواد الأعظم من الاصلاحيين العرب شيئا فشيئا ، تبعا لتطورات الحوادث التى دارت بين العرب والترك ٠ على أن الاصلاحيين العرب لم يخرجوا مرة واحدة عن دائرة الرابطة العثمانية طيلة الفترة التى نتحدث عنها فى هذا الفصل وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩٠٨ ــ ١٩١٤م) ٠ وكانت الاحتكاكات والمطالبات بحقوق العرب محدودة النطاق يكتنفها التردد حتى فى « مجلس المبعوثان » ، الذى لم يتخذ النواب العرب فيه خطة منظمة لانجاح المطالب العربية ٠ فكانت بعض القضايا تثار أحيـــانا من قبل قلائل من النواب العرب ، فيلقون بعض التأييد من قبل قسم من بنى جنسهم فيه ، غير أن القائمين على شئون المجلس من الاتحـــاديين ونوابهم سرعان ما كانوا يتخـــذون التدابير اللازمة لاسكاتهم وحرمانهم من حق الكلام وحرية القول ٠ وكانت الصحف العربية تثير بعض القضايا المتعلقة بحياة السكان عامة والعرب خاصة من خلال انتقاد الحكومة فى سياستها الخارجية والداخلية ٠ وكانت بعض صحف القاهرة خاصة ، وبعض صحف بيروت ودمشق تشتد أحيانا فى انتقاد حكم الاتحاديين ، فتثور ثائرة

---

(١) Revue du Monde Musulman, V. IX, Sept. 1909, p. 173.

الجـرائد التركية فتشـتد بدورها فى طعنها متحدية شعور العـرب وكرامتهم القومية (١) ٠

والى ما قبل حملات جريدتى « طنين » و « اقدام » المسعورة ضد العرب كانت الحرب الصحفية هادئة نوعا ما ، حتى اثارتها مقال « اقدام » التى طعنت أعراض العرب كما سبق أن أوضحت ، وعند ذلك ردت الصحف العربية هجوما بهجوم ، وتحركت أقلام الصحفيين العرب فى باريس ومن بينهم شكرى غانم وهو مسيحى من لبنان ٠ وقد أحدثت مقالاته ضجة كبرى فى الأوساط الصحفية العثمانية ، وخاصة ما نشر منها فى جريدة (الطان) الفرنسية ، ففى ٥ أبريل سنة ١٩١٠ م كتب يقول : « لم يهتم الترك منذ أن استولوا على البلاد العربية وعلى الخلافة بالتفاهم مع العناصر التى يحكمونها ولا سيما العنصر العربى ، وقد جعل هذا العنصر بعد ثورة ١٩٠٨ يشكو من سوء ما يعامل به ، وكيف أن المراكز التى جعلت للعـرب فى الوزارات المتعـاقبة كانت ثانوية لا تتكافأ مع أهميتهم ، مع أن ما نالهم من الاجحاف فى مجلس النواب والأعيان جعلهم يظنون بأن ثمة حركة ترمى الى القضاء عليهم » ٠ ثم بين شكرى غانم بالأرقام حق العرب المهضوم فى مجلس الأعيان والنواب والمناصب الادارية الكبرى والصغرى وختم مقاله بقوله : « كان الترك يخافون منـا ، ومن عـددنا ، ومن فـكرتنا الاستقلالية » (٢) ٠ كما لم ينس شكرى غانم الدفاع عن اللغة العربية فقال : « ان لغتنا لغة عبقرية ، انها لغة نصف القارة الآسيوية ، وكل القارة الافريقية تقريبا ، فضلا عن كونها لغة القرآن ، ومع ذلك فليس لها من الاعتبار أكثر ما لأية لهجة اقليمية ، فى حين أن اللغة الرسمية هى اللغة التركية ، هذه اللغة الضعيفة التى تدين للغة العربية بكونها تقدم لها النجدة كلما اقتضى الأمر أن ترتفع فوق مستوى الحياة اليومية ٠ أفليس فى ذلك انكار مزدوج لحقوق العرب » (٣) ٠

ولم تكد صحافة الاتحاديين تقرأ ما كتبه شكرى غانم فى جريدة « الطان » الفرنسية حتى اندفعت تهاجم الكاتب والجريدة الغربية معا ٠ فكتب أحمـد أغاييف الداعية الطورانى ، القوقازى الأصل ، مهاجما الغربيين بقوله :

« انكم تأخذون علينا أسلوب معاملتنا للعرب ، فلتسمحوا لى أن أقول لكم ٠٠ أنكم لا ترون الخشبة فى أعينكم ، وتنظرون الى القشة فى أعيننا ، وطالما أن أمامكم قضايا مثل قضايا ايرلندا ، وفنلندا ، والجزائر ، فالأفضـل

---

(١) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ١٦٣ — ١٦٤ ٠

(٢) خير الله خير الله : معضلة الشرق ، الأقطار العربية المحررة ، (ترجمة عارف النكدى) ، ص ٤٠ ٠

Correspondance d'Orient, 15-4-1910, pp. 315-316.

(٣) Correspondance d'Orient, Ibid., p. 316.

ألا تقيموا من أنفسكم أساتذة للفضائل ٠٠ » ثم أضاف الى ذلك قوله أن اللغة العربية تلقى ما تستحق من الاجلال باعتبارها لغة مقدسة ، « لكنها بالاضافة الى ذلك لغة ميتة » (١) ٠ وأما التهم التى كيلت لشكرى غانم فأقل ما فيها وصفه بأنه « دساس ، انتهازى ، طامع فى وظيفة » ٠٠ الى غير ذلك مما يظهر حقد الأتراك عليه ٠

وقد تلقت الصحافة العربية مقال شكرى غانم الذى دافع فيه عن حقوق العرب بعضها بالترحيب مع الاعتدال وبعضها بالتهليل والحماس ٠ على أن شكرى غانم نفسه انبرى يرد على حملات الصحف التركية التى هاجمته وافترت عليه شتى الافتراءات وذلك فى خطاب أرسله اليها ورفضت أن تنشره فأرسل نسخا منه الى أشهر الجرائد الفرنسية والمصرية (٢) والسورية ٠ وكان هذا الجواب أكثر اعتدالا وتعقلا ، اذ أوضح فيه كيف سرح الموظفون العرب من وزارة الخارجية ، وكيف خلت مقاعدة مجلس الأعيان منهم الا من أربعة أو خمسة قائلا : « ولا أرغب فى الحديث عن مجلس المبعوثان هذا المجلس المنتخب انتخابا من قبل الشعب ، مع أنه فى الامكان مناقشة هذه الكلمة (الانتخاب) والطريقة التى تمت بها هذه العملية ، غير أنه لم يكن بالمستطاع أن يتم ، وهى تجرى لأول مرة ، غير ما تم وقد أفهم العرب ذلك ، وبروح من الولاء الهادىء آثروا السكوت والانتظار لفرصة أخرى ٠٠ وأخيرا جاء دور اعادة تنظيم الدوائر ، وكان الملاحظ أن بين مائة اسم تركى لم تكن تستطيع ايجاد اسم واحد عربى ٠ عندئذ قامت الصحافة العربية داخل الدولة وخارجها فى الأمريكتين ، ترفع صوتها بالاحتجاج » ٠

« هل تسمحون لى (مخاطبا مدير طنين) بأن أذكركم بهذا الجواب الذى قيل لنوابنا فى مجلس المبعوثان ؟ : « اذا لم يكن فى الوزارة أعضاء من العرب فان ذلك يعود الى أنه لا يوجد بين نوابهم رجال أكفاء يجمعون كل الشروط المطلوبة لملء هذه المناصب » ٠ انى أتقدم اذا بكل خشوع الى أعتابكم طالبا العفو والمغفرة ، فلم آكن فى الواقع أظن أن الجنس العربى قد وصل الى هذا الحد من الفقر فى الرجال والانحطاط عن باقى أجناس السلطنة ، فمن البديهى اذا ، من باب الأدب ، فى هذه الحالة ، ألا يجلس ، فى مجلس الوزراء ، الصيصان مع النسور وأفراخ النسور ٠٠ » ٠

« لقد قالت (طنين) أيضا : أيستطاع أن يؤتى بمجرد انسان «Premioveru

---

(١) نشر هذا الخطاب فى الأهرام ، والمؤيد ، ومجلة Corresp. d'Orient.

(٢) المؤيد : العدد ٦٠٧٧ فى ٢٦ من مايو ١٩٦٠ بعنوان « الترك والعرب » ٠

فيولى ولاية ؟ ٠٠ مجرد انسان ؟ ــ نعم بلا شك وهذا بالطبع فى نظر جريدة طنين التى استمرت فى التفنن بمداراة اخوانها العرب . ولكن ألم تقل هى ذاتها فى معرض آخر انه يوجد فى صفوف الجيش كثير من الضباط العرب اللامعين ؟ اذا لماذا لم يستحق أحد من هؤلاء شرف تعيينه واليا على غرار الجنرال حسنى باشا والى دمشق مثلا ، أو الأميرالاى جمال بك والى أطنه ، أو الأميرالاى محمود مختار بك والى أزمير ٠٠ ؟ » ٠

ثم يتطرق شكرى غانم فى رده على الصحافة التركية الى موضوع اللغة العربية فيقول : « فى الواقع أن حكومة برلمانية ليست جديرة بهذه التسمية الا اذا سارت بقدر المستطاع ، وفقا للقوانين التى أعلنتها هى نفسها ، والتى تعمل منها حكومة نيابية حقة ٠ اننـا لا ننكر أن أصدقاءنا الأتراك يريدون جاهدين أن يكونوا دستوريين ، ولكن فقط ضمن الحدود التى يسمح لهم بها طبع التسلط المتغلب عليهم من كونهم فاتحى البلاد ، وليس باستطاعتهم نسيان ذلك ٠٠ انهم لا يريدون أن يفهموا أنهم ، منذ اللحظة الأولى التى أعلنوا فيها الحكم الدستورى ذا النظام البرلمانى ، قد أعطوا الحق لكل جنس من الأجناس أن يتمتع بالحقوق الناتجة عنه وأن يطالب بالمساواة الحقة التى تكلمت عنها فى جريدة « الطان » غير أنهم قرروا أن تكون اللغة التركية وحدها هى اللغة الرسمية ، وهانحن نرى هذه الأشياء الغريبة : موظفون وحكام فى ولايات يجهلون تمام الجهل لغة أهلها وحاجاتهم ومتطلباتهم ، وتشاهد أكثر من هذا مسرحيات فى منتهى الهزلية ، ذلك أن ثمة قضاة من الترك تجرى المرافعات أمامهم بلغة يجهلونها ، ومع ذلك يصدرون فى النهاية أحكامهم وفق ما فهموه ٠ فهل لنا أن نتجاسر على أن نوصى بالتلفت حولنا لنرى ما عملته فى هذا الشأن الدول المشابهة فى هذا الوضع ٠٠ ؟ اننا اذا فعلنا ذلك نوصم بعبارات دساسين وانتهازيين » (١) ٠٠

وقد أخـذ شكرى غانم يعدد اللغـات المستعملة فى مجالس نواب بعض الدول على أنها رسمية فقال ان فى النمسا ست لغات مقبولة بكونها رسمية وفى سويسرا ثلاثا وفى بلجيكا لغتين ٠ ثم تعرض لصعوبة تعلم التركية ، كى يستطيع العربى اجادتها حتى يصبح موظفا ، وأشار الى أنه لابد من مضى ربع قرن حتى يمكن ايصال جيل من العرب يتقن التركية ، وانتهى الى أن معنى ذلك حرمان العرب طوال هذه المدة من المشاركة فى حياة الدولة العامة (٢) ٠

---

(١) Correspondance d'Orient, 3ème Année, 15-6-1910, pp. 287-291.
(من مقال شكرى غانم ردا على حملة جريدة طنين عليه) ٠

(٢) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ١٧١ ٠

وتأكيدا لما ذكره شكرى غانم عن خلل الأحكام التى تصـدر عن القضاة الأتراك الذين تجرى المرافعات أمامهم بلغة يجهلونها أسوق مثالين لذلك ، فقد جاء فى جريدة « العصر الجديد » بدمشق أنه فى أثناء احدى المرافعات باللغة التركية استحال على المدعى والمدعى عليه والشهود الفهم والتفهيم بها ، فاستدعى الترجمان لكى يكون وسيطا ، وأخذت الأسئلة والأجوبة تجتمع لدى الترجمان ، وبهذه الطريقة كان كثير من دقائق الدعوى تخفى على القضاة (١) ٠

كما جـاء فى جريدة « اقدام » من حـديث بين مندوبها وبين مستشرق نمسوى ، ان هذا المستشرق شاهد بعينه وسمع بأذنه مرة شكاية لأحد اليمانيين ذكرها للوالى التركى بوساطة المترجم فعكسها المترجم عكسا حتى « جعل الحنظل عسلا » (٢) ٠ وقد كان ذلك نتيجة طبيعية لتمسك الأتراك باللغة التركية كلغة رسمية فى الولايات التابعة للامبراطورية العثمانية مما أثار ثائرة الرعايا العرب ضد الأتراك واللغة التركية وجعلهم يتمسـكون بلغتهم ويعملون على النهـوض بآدابهم العريقة ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن الاتحاديين قد ضاقوا ذرعا بالصحافة العربية فى مصر وبجريدة « المؤيد » بصفة خاصة ، لأنها كانت تنتقد حكمهم وتفسح المجال واسعا لكتاب العرب الذين يهاجمون حكمهم ، وكذلك بمجلة « المنار » التى كان يصدرها الشـيخ رشـيد رضا والتى منعـوا دخولها أراضى المملكة العثمانية أيضا ، اذ انقلب صاحبها عليهم بعد أن كان يثق بهم ويؤيدهم فى مطلع العهد الدستورى ، وبعد أن لمس استبدادهم وعدم اخلاصهم فى تطبيق الدستور ومعاملة العناصر بالديمقراطية ٠

وحاول الأتراك أن يجابهوا هذه الصحف العربية بصحف أخرى عربية الاسم والمظهر تركية التوجيه ، فاستعانوا ببعض رجالات العرب المعروفين مثل الشيخ عبد العزيز جاويش ، التونسى الأصل المصرى الاقامة ، الذى أعانوه بالمال ليصدر جريدة عربية باسم « الهلال العثمانى » ثم « الحق يعلو » واشتروا له مطبعة بمبلغ (١٥٠٠) ليرة عثمانية ٠ وقد حملت عليه مجلة « المنار » وجريدة « المؤيد » حملات شعواء ، كما حملتا على الزعيم محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى لتعاونهما مع الاتحاديين (٣) ٠ على أن محمد فريد بك وعبد العزيز

---

(١) الأهرام : العدد ٩٦٠١ فى ١٣ من أكتوبر ١٩٠٩ ٠

(٢) رفيق (بك) العظم : الجامعة العثمانية والعصبية التركية ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ٠

(٣) المنار : مجلد ١٦ ، ج ١ ، فى ٨ من يناير ١٩١٣ ٠

المؤيد : العدد ٦٩٥٠ ، فى ٢من ابريل ١٩١٣ ٠

جاويش كان يحركهما فى هذا الاتجاه على عكس غيرهما ايمانهما بفكرة الجامعة الاسلامية ووجوب مساندة الدولة العثمانية لتقف قوية منيعة الجانب ، لا تزعزعها الأعصار الداخلية ، أما الخطر الأجنبى ودسائس الانجليز الذين كان الشعب العربى فى مصر حربا عليهم · وعلى الرغم من ذلك لم يتورع بعض الأعضـــاء الرسميين فى جمعية الاتحاد والترقى من القاء تصريحات ضد الحزب الوطنى المصرى كما فعل سليمان نظيف بك الاتحادى والى البصرة الذى عينه طلعت بك لهذه الولاية فور استلامه وزارة الداخلية ، مع من عينهم من الولاة الجدد ، اذ طعن فى هذا الحزب لاحدى الجرائد فى أثناء مروره فى مصر وهو فى طريقه الى مقر عمله الجديد · كما صرح هذا الاتحادى بتهديد للعرب عامة كقوله فى معرض الحديث عن الثورات المشتعلة فى الجزيرة العربية بأن الدولة مستعدة لسحق أولئك العرب بالقوة القاهرة ، فان لديها سبعة فيالق من الأبطال (١) · غير أن هذا التهديد وغيره كان من شأنه أن يزيد ثورة العرب اشتعالا ضـــد الأتراك على النحو الذى بدا واضحا فى بلاد اليمن فى ذلك الحين ·

رابعا : نضال الشعب اليمنى ضد الحكم العثمانى فى مطلع العهد الدستورى

انفجار ثورة اليمن ضد الحكم العثمـانى فى ســنة ١٩١٠ :

نتج عن سياسة الحزم والعنف التى اتبعها طلعت بك الاتحادى المتطرف فى أثنـاء توليه وزارة الداخلية العثمانية ، وسحبه لمشروع اصلاحات اليمن أن أصبحت البـلاد اليمنية مسرحة لحروب وثورات عنيفة · وقد تزعم الامام يحيى الجهـاد ضـد الأتراك فى جبـال اليمن وأصـدر نداءه للقبائل اليمنية بالانضمام اليه ، كما شاركه السيد محمد الادريسى فى محاربة الأتراك فى عسير واعـلان الثورة عليهم وقد بدأ الثوار اليمنيون يفتكون بعساكر الأتراك فتكا ذريعا بين الحديدة وصنعاء ، واستولوا على الأسلحة والمدافع والذخيرة التى كانت فى أيديهم وذلك ليتخلصـوا من دفع الضرائب لحكومة الولاية ، ومن الادارة التركية على شكلها الراهن حينـذاك ، وطالبوا بحكام وطنيين (٢) ، وبالحكم بموجب الشرع الاسلامى · وكان اليمنيون يهتمون بتطبيق الشريعة ويركزون عليها أهمية خاصـة الى درجة أن المحاكم الحكومية الرسمية لم يكن

---

(١) المنار : مجلد ١٢ ، ج ١٢ ، عدد يناير ١٩١٠ ، ص ٩١٧ ·
توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ·
(٢) الأهرام : العدد ٩٥٦٦ فى ٢ من سبتمبر ١٩٠٩ ·

يتقدم اليها أحد انما كان السكان يلجئون الى القضاء الذى كان الامام يقيمه هو بوساطة قضاة يعتمدهم لذلك • وجدير بالذكر أن اليمنيين وحدهم بين العرب هم الذين لم يعترفوا لسلاطين آل عثمان بخلافة المسلمين بدعوى أنها يجب ألا تكون الا لقرشى ، وأن أجدر من يتولاها هو الامام يحيى الذى ينتسب الى بيت النبوة ، وقد كان الخاتم الذى يستعمله الامام يحيى يحمل العبارات التالية : « السيد يحيى حميد الدين أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين ، نصره الله (١) » ، دليلا على تمسكه بالخلافة ، وكان يختم به مراسلاته الى أصدقائه والى بعض الصحف المصرية •

ولقد كانت صدور اليمنيين ممتلئة بالنزعة الى الاستقلال والفخر بالجنسية ، وبالنفور من نير الترك الذين كانوا يطلقون عليهم اسم « الروم » (٢) وان أبدى اليمنيون استعدادهم مرارا للاعتراف بالسلطان العثمانى فى حالة حصولهم على الامتيازات الخاصة لولايتهم • وكان الموقع الجغرافى لليمن مهيئا للثوار اليمنيين الحصول على السلاح بأيسر سبيل عن طريق التهريب بحرا • وقد عبر عن ذلك كاتب انجليزى فى جريدة « التايمز » البريطانية بقوله ان الثوار اليمنيين « كانوا مسلحين ببنادق ماوزر من عيار ٧٤ شديدة الفتك ، وأن السلاح فى الجزيرة العربية أرخص منه فى أوروبا ، وأن السلاح والذخيرة متوفرة لديهم » (٣) •

وقد دارت المعارك الدامية بين الثوار اليمنيين والعساكر العثمانية وتفاقمت الأمور بحيث اضطرت الدولة أن تسحب جيوشا من ألبانيا كانت قد استقدمت معظمها أو ما يبلغ سبعة آلاف جندى منها من طرابلس الغرب لقمع ثورة الألبانيين (٤) • ونظرا لأن هذه النجدة لم تكف فان الدولة اضطرت الى استقدام البقية الباقية من جندها فى طرابلس الغرب ، ثم ضمت اليهم ثلاثة أفواج من الآستانة علاوة على الاحتياطى ، الذى دعته للخدمة من ولاية اسكوب فى ألبانيا ، أى ما مجموعه (٣٥) طابورا أزمعت ارسالها الى اليمن (٥) • كما أن الاتحاديين لجأوا بالاضافة الى استخدام القوة ــ الى أسلوب الدسائس وايقاع زعماء العرب بعضهم ببعض ، فكلفوا الشريف حسين أمير مكة الذى عينه الأتراك

---

(١) المؤيد : العدد ٥٧٢٧ فى ٢٩ من مارس ١٩٠٩ ، المنار : مجلد ١٥ ، ج ٢ ، فى ١٨ من فبراير ١٩١٢ ، ص ١٥٤ (من حديث صحفى عن صلح اليمن للاميرالاى احسان بك رئيس أركان حرب فيلق اليمن) •

(٢) الأهرام : العدد ٩٦٥٩ فى ٦ من سبتمبر ١٩١٢ •
Correspondance d'Orient, 4ème Année, 15-1-1911, p. 155.

(٣) المنار : مجلد ١٥ ، ج ٢ ، فى ١٨ من فبراير ١٩١٢ ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ •

(٤) Revue du Monde Musulman, V. XXI, Décembre 1912, p. 187.

(٥) Correspondance d'Orient, 4ème Année, 1-2-1911, p. 135.

فى سـنة ١٩٠٨ م بالسير مع عشائره فى جهتين : الاولى نحو نجد لقتال ابن السعود وارغامه على طاعة السلطان العثمانى ، والثانية فى اتجاه العسير لقتال السيد محمد الادريسى حليف الامام يحيى · وكان ابن السعود فى ذلك الوقت قد قام بعدة حركات مريبة فى المنطقة منذ شهر مارس ١٩٠٩ م ، اذ بلغ الدولة أنه قام على رأس أربعين ألفا من البدو المسلحين يحرض العرب على الثورة وعدم دفع الضرائب (١) ، وأثيرت القضية فى مجلس المبعوثان فبادر عبد العزيز بن سعود الى أعلام وكيله فى المدينة المنورة يبين له أن ما قام به من حركات ليست الا مسائل قبلية بينه وبين بعض القبـائل ، ثم أبلغ الدولة ما يطمئنها ، معلنا اخلاصه لها هو وجيشه وأنه رهن أوامرها (٢) ·

وهكذا وجدت حكومة الاتحاديين نفسها فى النصف الثانى من عام ١٩٠٩ م ، والنصف الأول من عام ١٩١٠ م ، أمام ثورات ضارية نشبت فى كل مكان من الولايات (الآسيوية ــ العربية ــ والأوروبية ــ الألبانية) ، بحيث أرسلت الى ألبانيا القائد جاويد باشا على رأس حملة كبيرة ، والفريق ناظم باشا الى العراق ، واللواء سامى باشا الفاروقى الى حوران ، أما بالنسبة لليمن فقد قررت الدولة ارسال عزت باشا الأرناءوطى اليها ثم أوقفت ارساله ، وأخيرا عادت وقررت ارسال الفريق محمد على باشا واليا جديدا لليمن وقومندانا للفيلق السابع لاخضاع الامام يحيى وزميله محمد الادريسى ، والقيام بالاصلاحات الواجب ادخالها فى تلك البلاد وفى الفيلق ، وقد خول صلاحيات واسعة فى العزل والتعيين ، فاختار عددا من الضباط البارعين ليرافقوه (٣) ·

وقد وصل الوالى الجديد محمد على باشا الى اليمن فى مايو ١٩١٠ م (١٢ من جمادى الأولى ١٣٢٨ هـ) (٤) فى الوقت الذى تجددت فيه الاضطرابات والفوضى بعنف وقسوة · ومحمد على هذا باعتباره أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تمثل أفكار الاتحادين العنصرية وسياستهم المركزية المتطرفة كان يؤمن بسياسة خاصة فى الحكم تقوم على العنف والشدة فى قمع كل اضطراب يحدث فى اليمن ، والقضاء معنويا وماديا على نفوذ الامام يحيى ومحمد الادريسى واستقرار الأمور فى البلاد مهما كلفهم ذلك ، وعليه أخيرا أن يقوم ببعض الاصلاحات الضرورية اذا سمحت له الظروف بذلك · وقد وضحت سياسة محمد على باشا هذه تدريجيا عقب وصوله الى اليمن ، فقد مال الى استخدام العنف والشدة ، وبالغ فى الشك والارتياب وايداع كل من اشتبه

---

(١) الأهرام : العدد ٩٤٢٥ فى ١٨ من مارس ١٩٠٩ ، ٩٤٣٠ فى ٢٤ من مارس ١٩٠٩ ·
(٢) الأهرام : العدد ٩٤٩٨ فى ١٥ من يونية ١٩٠٩ ، ٩٦٧٨ فى ١٥ من يناير ١٩١٠ ·
(٣) الاهرام : العدد ٩٧٧٠ فى ٦ من مايو ١٩١٠ ·
(٤) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣١٤ ·

فى تصرفاته المعادية فى السجن . وكان يهدف من ذلك بطبيعة الحال الى اشاعة الخوف والرهبة لدى اليمنيين ليضمن استسلامهم للادارة العثمانية ، وقد أوضح الواسعى معالم السياسة التى اتبعها الوالى العثمانى محمد على باشا فى اليمن فقال : « وكان فكره ألا يصلح اليمن الا الشدة والقسوة فما زال يحبس هذا ويضرب هذا من دون سبب مع تسليمهم (اليمنيين) لحقوق الدولة ، وخضوعهم للأوامر والنواهى ، ورجع الى ما كان عليه الوالى فيضى باشا فى حبس من كان بينه وبين الامام علاقة ولو ادعاء بلا صحة ، وفرح بعض المأمورين (الأتراك) بهذا للسعى لمن بينهم وبينه أدنى خصومة ، ألقوا الى الوالى هذه الفكرة أن هذا الشخص يحب الامام يحيى فعند ذلك يؤتى بذلك الشخص ويضرب ثم يحبس ، وكانت هـذه الدعوى مصـدقة من دون بينة بل قولا كذبا . فلما كثر الظلم والفساد ، وحصل لأهل اليمن الجور والاضطهاد قام الامام المتوكل على الله رب العالمين الامام يحيى أيده الله وبث القبائل فى جميع مراكز اليمن ، فقام (فقامت) القبائل محاصرين لجميع مراكز اليمن صنعاء وغيرها حصارا شديدا ، وما زال الوالى فى صنعاء يخيف الناس ويمنعهم من الخروج وشدد عليهم وأغلق أبواب المدينة وأمر البوليس يدورون فى الأزقة . واذا وجدوا شخصين يتكلمان أو يمشيان معا ضربا وحبسا ، واذا وجد البوليس فى الليل مكانا مرتفعا مضيئا بالمصباح فى أحد البيوت هجموا على صاحب البيت وضربوه وحبسوه ، يزعم الوالى أنهم فى الليل يشيرون للمحاصرين بالهجوم على المدينة . وما زال الناس فى الخوف والوجل من الوالى هذا كله سوى ما الناس فيه من المحاصرة والضيق وانقطاع الطعام عنهم وسائر المحتاجات وامتلأ السجن محابيس ظلما ، وأراد الوالى من جرأته أن يعدم خمسين رجلا من أهل صنعاء من سادات وعلماء وتجار ، وختم تصديقا له بعض المأمورين الا نائب المحكمة الشرعية العالم الفاضل خليل أسعد أفندى فلم يساعده على هذه « الرزية » وقال : « لم ترض ذمتى باهراق دم مسلم واحد دون حكم شرعى » (١) .

واذا تساءلنا عن الأسباب التى أدت الى تجدد اضطراب الأمور فى اليمن وعودة الفوضى اليها بعد الهدوء النسبى الذى نعمت به فى عهد الوالى حسين تحسين باشا ، بل نعمت به أيضا معظم بلدان الامبراطورية العثمانية وخاصة البـلاد العربية فى مطلع العهد الدستورى نتيجة لاعلان الدسـتور ومحاولة الالتقاء بعناصر الامبراطورية لحل المشـكلات المعلقة ، فان الاجابة تتمثل فى تسلط أفكار المركزية ، والتتريك ، والقهر والاخضاع قبل الاصلاح على عقلية الاتحاديين تسلطا كاملا طبع سلوكهم السياسى وأعمالهم العسكرية والادارية . كما أن العامل الدولى لعب دورا هاما فى تشجيعهم على اعتناق هذه الأفكار

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

ووضعها موضع التنفيذ ، اذ كانت الهزائم السياسية والحربية التى أصابت الامبراطورية فى هـذه الفترة فى ولاياتها الأوربية ، ثم قيام العلاقات الألمانية العثمانية السلمية ، وتغلغل ألمانيا فى السياسة والادارة العثمانية من العوامل التى أوحت الى رجال الآستانة وأقنعتهم بأن قوتهم وسر بقـاء امبراطوريتهم احكام سيطرتهم على الولايات العربية ومن بينها اليمن فعملوا على اخماد كل ثورة ، والقضـاء على كل منـاوأة أو تمرد (١) • ويؤكد هذا الرأى ما نقلته الأهرام عن جريدة « الديلى ميل » من مقال كتبه « وليم مكسويل » عن بلاد العرب جاء فيه « والسبب فى هذه الثورة الأخيرة (فى اليمن) بسيط • فان الجنرال فون درجولتز (٢) ولم يكن أول الذين أوضحوا السبب وأشاروا على الترك بأن قوتهم الحقيقية هى فى آسيا الصغرى وبلاد العرب أكثر مما هى فى أوربا » (٣) •

على أن الصراع بين العناصر المحلية فى اليمن وعسير التى تزعمها الامام يحيى والادريسى وبين الوالى العثمانى محمد على باشـا قد تدرج من التراشق بالتهم ثم تحول تدريجيا الى نشوب المعارك العنيفة التى خسر فيها الجانبان كثيرا من الأموال والأرواح • وقد بدأ الوالى يتهم الامام الادريسى بالخروج على الدولة وبالتمرد على الدين الاسلامى نفسه • بينما كان الامام والادريسى يتهمان الدولة بعدم وفائها بالعهود الكثيرة التى أخذتها على نفسها ، ويشكوان دائما ظلم الوالى العثمانى وفساد الموظفين الترك • ودليلنا على ذلك ما جاء بالخطاب الوارد من صنعاء الى أحد التجار اليمنيين فى مصر ونشرته « المؤيد » : « ان الوالى أشاع أنه أرسل الكتب الى الامام يأمره فيها بجمع السـلاح من قومه وارساله الى صنعاء والا اعتبره خارجا على الدولة العلية وجرد عليه حملة تسحقه سحقا » (٤) • كما جاء فى مقال طويل كتبته « الطان » الفرنسية فى عددها الصادر فى ٢٤ من يناير ١٩١١ م ونقلته عنها « المؤيد » : « ان السلطان أبلغ الصحف تأكيده فى بدء الاصلاحات وذكر أن الامام يحيى والسـيد الادريسى قد مالا الى العصـيان على الرغـم من دلائل الرغبـة للاصـلاح من جـانب الحـكومة » (٥) •

على أن الامام يحيى والادريسى لم يكونا متصلبين فى آرائهما أو راغبين

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٩٨ •

(٢) (الجنرال فون درجولتز كان يدرب الجيش العثمانى الحديث حينذاك) •

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ فى ٦ من ديسمبر ١٩١١ (الاثنين ٧ من صفر ١٣٢٩هـ) ، ص٤ •

(٤) المؤيد : العدد ٦٢٦٩ ، السبت ٢١ من يناير ١٩١١ (٢٠ من محرم ١٣٢٩هـ) ، ص٤ •

(٥) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ ، الاثنين ٦ من ديسمبر ١٩١١ (٧ من صفر ١٣٢٩هـ) ، ص ٤ •

فى مقاطعة الدولة على خط مستقيم ، بل كانا مستعدين للمصافاة والصلح اذا توافر حسن النية لدى المسئولين العثمانيين ، واعترفت الدولة لكل منهما بوضعه الخاص فى منطقته · غير أن أهل الدس والوقيعة كانوا يلعبون دورهم فى تعكير الجو بين الأتراك واليمنيين (١) ، مما أدى الى تجدد الصراع الدموى العنيف بين الجانبين بعد فترة الهدوء النسبى التى صاحبت بداية العهد الدستورى · ويؤيد هذا الرأى ما ورد برسالة أرسلها الامام يحيى الى أحد علماء الآستانة ممن انبروا يكيلون للامام التهم وينسبون مذهب الزيدية ـ فتصدى الامام للاجابة عليه قائلا : « ·· أما مسلكنا فهو السعى لاعلان كلمة الله ، والعمل بما فى كتاب الله وسنة رسوله ، ونصرة الضعيف ، واغاثة اللهيف ، والأخذ على يد الظالم ·· وقد علم هذا اخوان الدين وجماعة الموحدين، كما علموا بالتتبع كذب ما ينسب الينا من الرفض والخروج والبغى والعدوان ، وأنه اعتدى علينا وبغى علينا فخربت بغير حق ديارنا ، وقتلت ظلما وعدوانا رجالنا ، وانتهبت بأيدى الجور أموالنا ، واغتصبت حقوقنا ، وقد وقف كثير من علماء الأمصار على كتب مذهبنا فى الأصول والفروع ، فتيقنوا افتراء الطاعنين فى مذهبنا ، وأمرهم الى الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله » · ثم يشير الامام يحيى الى موقف الدولة العثمانية : وتمسكها باستعمال أساليب العنف ضد اليمنيين فيقول انها : « لا ترسل لهم الا آلات الحرب والجنود التى تحمل راية الموت والدمار » · ويستطرد الامام يحيى مبرئا نفسه من التهم التى توجه اليه ومدافعا عن منهجه فيقول : « ·· على أنه لا ذنب لنا الا ما نبينه من وجوب اتباع الشريعة ، وندعوا اليه من السلوك فى مناهجها الوسيعة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ·· » · ويختتم الامام يحيى رسالته بتوضيح محاولاته السلمية لعقد الصلح مع الدولة العثمانية وعرض قضية بلاده أمام الباب العالى ، ولكن دون جدوى غير أنه يؤكد فى نهاية خطابه أن المسلمين اخوة، ويجب عليهم أن يتحدوا ويتآزروا (٢) ·

كما أن الادريسى أوضح ـ فى احدى الرسائل التى بعث بها الى أحد أصدقائه فى مصر ـ تفاصيل قضيته مع الدولة وتطور أحداثها · وذكر أن الدولة العثمانية نقضت عهودها نتيجة لعدم ثبات موقفها من القضية العربية بوجه عام ولهذا أعلن ثورته من جديد عليها وبرأ نفسه من اتهامها له بالتمرد وبتعريض بلاده لسيطرة النفوذ الأجنبى · وقد أشار الادريسى الى فترة الصلح والتوافق بينه وبين الدولة عندما كان سعيد باشا متصرفا على عسير وأن الدولة تمكنت فى ظل الهدوء والسلام النسبى فى أثنائها من جباية الضرائب ومد أسلاك البرق بين المراكز المختلفة وانشاء المحطات التلغرافية · وذكر الادريسى أنه عمل على

---

(١) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ·

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٨٩ ، الاثنين ١٣ من فبراير ١٩١١ (١٤ من صفر ١٣٢٩) ، ص ١ ·

تهدئة القبائل وساعد الدولة فى تنفيذ أوامرها بما له من نفوذ وتأثير وسلطان وأوضح الادريسى أن سعيد باشا كان يمنيه دائما على لسان الباب العالى بالاصلاح والاعتراف بوضعه الخـاص فى عسير حتى عزل سعيد باشـا وعين بدلا منه سليمان باشا ، « .. الذى غير طريقة المصالحة واتبع طريقة العنف ، وعدم ملاحظة عادات البـــلاد ولغتها » ، وأنكر على الأهالى ما ســـبق أن وعدهم به سعيد باشا عندما سعى مأجورو السوء للافساد والوقيعة بين الجانبين ، فتغيرت سياسة الدولة وحولت مكاتب التلغراف الى « قشلاقات عساكر » بدلا من كونها مكاتب للموظفين . وقد أبرز الادريسى خطورة ذلك لوقوع المكاتب بين الأهالى وداخل جماعاتهم ، فكانت فرق الجنود تخرج الى القرى وتحرقها وتؤذى الأهالى بالضرب والسجن ، لهذا تمرد الأهالى اليمنيون الذين ألفوا الحرب بطبيعتهم القبلية ضد الأتراك العثمانيين حفاظا على حريتهم ودرءا لهذا العدوان الغاشم . وهكذا تتفاقم الأمور « وتحشد القوات من ناحية الدولة ، ورجال القبائل من ناحية أخرى لتصبح حركة » ، وذكر الادريسى أن من العوامل التى أدت الى ثورة اليمنيين ضد الأتراك فداحة ما تفرضه الادارة العثمانية من ضرائب وعدم ملاءمتها لحالة البلاد . واختتم رسالته بتأكيد مقدرة اليمنيين على حماية أنفسهم وعدم تأثرهم بأى نفوذ أجنبى بقوله : « ان البدو الذين لم يألفوا الترك لما يرونه من ضعف الدين فى بعضهم ، كيف يمكن أن يألفوا الفرنج وهم على غير دينهم » (١) .

كما سبق أن أشار الادريسى الى ذلك أيضـا فى كتاب آخر أرسله الى صديق له فى القاهرة ونشرته جريدة الأهرام فى ٢٤ من مايو ١٩١٠ . ففى هذا الكتاب لا يبدو تحذير الادريسى للدولة من خطر استنفادها لجميع قواها فى الجزيرة العربية ، بينما تراقب الموقف قوى أخرى غير الترك والعرب للوثوب على ممالكها . كما أظهر الادريسى عدم ارتياحه لمبعوثى اليمن والحجاز والوالى حسين تحسين باشا الذى صار سببا فى هذه الفتنة حتى انها لم تسكن نوعا ما الا بعد عزله . واستشهد الادريسى على اخلاصه للدولة مستندا الى كتاب صدر من رئيس أركان حرب جيش اليمن ونشر فى « الأهرام » وفى جرائد الآستانة ، اتهم فيه رئيس الأركان أهل الأغراض والمصالح الخاصة ونوه بجهود الادريسى ومسعاه الجاد لوضع حد للفساد غيرة منه على الدين (٢) . كما أبدى الادريسى استعداده للاتفاق على شروط الصلح مع ممثلى الدولة العثمانية .

ولقد شارك الامام يحيى زميله الادريسى فى الاعراب عن رغبته فى الاتفاق

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٢٤ ، الاثنين فى ٢٧ من مارس ١٩١١ (٢٦ من ربيع الاول ١٣٢٩) ، ص ٢ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٨٥ فى ٢٤ من مايو ١٩١٠ (من نصوص الكتابين المنوه عنهما) .

على شروط الصلح مع الدولة وضرورة التصافى معها وتدعيم قواعد السلم والوفاق وازالة سوء التفاهم ، كما يبدو ذلك من خطاب بعث به الامام يحيى الى الادريسى ونشرته جريدة « الأهرام » فى ٢٧ من مايو ١٩١٠ · وقد اختتم الامام يحيى خطابه هذا بحمد الله أن الحكومة العثمانية قد وفقت فى ذلك الوقت الى « حسن المسالك ·· واستعمال أسباب المواصلة » (١) ·

واذا كان يتضح من كل هذا أن جميع الأطراف المعنية راغبة فى الصلح لأسباب مختلفة تخص كلا منهم ، فان الشك والريبة والتوجس كانت تسيطر على أفكار كل طرف ازاء الآخر ، ويبدو ذلك من كتاب مرسل من قبل الادريسى الى الامام يحيى فى سنة ١٩١٢ م ذكر فيه أن طلب الترك للمصافاة والصلح معه لم يكن الا خديعة لكى يعطيهم طريقا يمرون بها من الساحل الى اليمن ، وأن الاتحاديين يريدون أن يجعلوا منه تابعا لامارة مكة (٢) ·

على أن التفكير فى الصلح بالنسبة للأتراك كان مقرونا بمحافظتهم على مصالحهم الخاصة فى اليمن بما لا يمس مركزهم العام فى الامبراطورية العثمانية وخارجها ، وكانت رغبتهم الملحة فى الاخضاع التام للحركات الثورية تطغى على تفكيرهم فى عقد الصلح كوسيلة لاقرار الأمور فى اليمن ، لهذا كانت الحكومة العثمانية تتبع وسائل ملتوية من حرب ومهاجمة الى سلام ومراوغة ، دون أن تستجيب فى النهاية لمطالب اليمنيين · وقد نقلت « المؤيد » نصيحة صادرة عن جريدة « جون ترك » الى حكومتها العثمانية لمحاولة الوصول الى نقطة التقاء مع المطالب اليمنية حفاظا على النفوذ العثمانى فى اليمن · والجريدة التركية تعبر بذلك عن موقف الرأى العام العثمانى أو جانب منه على الأقل ازاء القضية اليمنية ، فقالت الجريدة العثمانية : « ·· ان الحكومة اذا دامت على اصرارها ، وعدم اجابتها لمطلب الامام فانها لا شك تكون قد أضاعت كل نفوذها ·· وعلى كل فعواقب الأحوال وخيمة لأن أكثر موظفى الحكومة هناك غير أكفاء فهم لا يزالون يسيئون استعمال وظائفهم ·· » (٣)·كما صرح أيضا أحد المبعوثين فى الآستانة لمحرر جريدة أجنبية بأن أهم أسباب ثورة اليمنيين ضد الأتراك هو صدور وعود كثيرة من الحكومة العثمانية لليمنيين دون أن تحقق الدولة أيا من هذه الوعود (٤) ·

---

(١) الأهرام : العدد ٩٧٨٨ فى ٢٧ من مايو ١٩١٠ (من نصوص كتاب الامام يحيى) ·

(٢) أسعد داغر : ثورة العرب ، ص ١١٧ (من كتاب الادريسى الى الامام يحيى) ·

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٥٩ فى ٨ من يناير ١٩١١ (٧ محرم ١٣٢٩هـ) ، ص ١ ·

(٤) المؤيد : العدد ٦٢٩٠ فى ١٤ من فبراير ١٩١١ (١٥ من صفر ١٣٢٩هـ) ، ص ١ ·

موقف الرأى العام اليمنى والعربى والأجنبى من قضية اليمن فى مطلع العهد الدستورى العثمانى :

أما الرأى العام اليمنى فقد عبر عن موقفه ازاء قضية بلاده التى جاهد من أجلها بمختلف الطرق والوسائل المكنة . فقد تناول القضية بالبحث والمناقشة والاعلام كثير من الكتاب والمتحدثين اليمنيين ، بعضهم من رجال الامام يحيى أو الادريسى ، أو من الطبقة التى كانت تطمع فى الحكم فى ظل الهدوء والسلام وفى نطاق الاستقلال الداخلى تحت السيادة العثمانية ، أو من رجال القبائل التى تمسكت بالاستقلالية حفاظا على مذاهبها المختلفة ومصالحها الخاصة . ففى مقال لعبد المحسن الحسينى الرصاصى اليمنى المقيم بمصر فى ذلك الوقت نشرته جريدة « المؤيد » ردا على مقال آخر نشرته جريدة « العلم » التى رفضت نشر مقاله لديها ــ دافع فيه عن الامام يحيى ضد ما اتهمته به « العلم » من الخروج والعصبية الجاهلية ــ فقال فى نهايته : « نحن كتبنا غير مرة فى مسألة اليمن واقترحنا على دولتنا العليــة حفظها الله من كيد الأعداء بعنايته الربانية أنها لو جعلت ولاية اليمن تحت أحكام الامام كما سبق ــ والقوة العثمانية تكون منفذة لأحكام الامام الشرعية ، ويكون مركزها الحديدة ، وبهذه الطريقة تضارع ولاية اليمن ولاية الحجاز فى السلطة والقوة ، وبهــذا تنحسم الاشكالات وتحافظ على هذين العضوين المهابين فى الاسلام ، الترك والعرب ، وتشتغل باسترجاع ملحقاتها بقوة الرجال من الترك والعرب فتعز وترقى ، وذلك لا يكون الا بجمع كلمة الأمة ولم شعثها ، أو ألا تشغل مركزها وكتابها الحريصين عليها بمسألة اليمانيين المساكين المسترحمين خليفتهم ورجال الدستور العادلين .. (١) » .

كما وردت لجريدة « المؤيد » المصرية خطابات كثيرة من أهالى عمان يشكون فيها من اهمال الدولة العثمانية لشئون بلادهم ، وتقاعسها عن حمايتهم ضد العدوان البريطانى على سواحل عمان . فكتبت الجريدة مقالا قارنت فيه بين سياسة الدولة العثمانية وسياسة بريطانيا فى الجزيرة العربية ، وأوضحت موقف الحكومة العثمانية المضطرب المتناقض فى هــذه الجهات ، وذكرت بأن المسئولين فى الدولة لا يرسلون المعرب الا السيف والنار لاخضاعهم بدلا من أن يقــدموا لهم يد المعونة والمساعدة المادية والمعنوية . وقالت المؤيد : « أما القائمون بادارة الدولة العلية فى هذه الأيام فانهم ــ سامحهم الله ــ لا يسمعون عن العرب الا كلمة السوء فتراهم اذا أرسل لهم امام اليمن مثلا وفدا ليتفاهم ومعهم ويناقشهم فى الحل المعقول الذى يمكن أن ينفع المسألة اليمانية يضعون أصابعهم فى آذانهم ويتملقونه بالكلام الفارغ الى أن يعييه الانتظار فيقفل راجعا

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٧٤ فى ٢٦ من يناير ١٩١١ (٢٥ من محرم ١٣٢٩ هـ) ، ص ١ .

من حيث أتى . واذا كثر الضغط وساءت الادارة فى أرض الجزيرة وتهدد والى اليمن أمامها لجمع السلاح من قبائله التى لم تطأ الدولة أرضهم فى زمن من الأزمان ، عندئذ تصل كلمة السوء عن العرب الى آذان الدولة على أجنحة البرق فتجيش الجيوش من العثمانيين لابادة اخوانهم فى الوطن والدين كما فعلت فى هذه الأيام ، اذ جهزت عشرين طابورا ، وستتبعها بثلاثين أخرى متفق عليها - من المال الذى رهنت مستقبل الدولة عند استقراضه .. فانظر سامحهم الله .. وكيف لا يحسنون استعمال رابطة الوطن ورابطة الدين التى بين جزيرة العرب، وبين الآستانة ، وكيف يعملون على اماتة ذلك الحب الذى تأصل فى قلوب الأمة العربية نحوهم ويقطعون أوصاله من حيث لا يشعرون . هذا فى الوقت الذى تستميلهم البوارج الانجليزية (المقصود هنا أهل عمان) باللين والحيلة والهدايا لقبول راية ترفع أو بريد يؤسس فلا يقبلون فتسلط نارها الحامية على ثغورهم من غير حق » (١) .

كما وردت لعبد المحسن الحسينى الرصاصى اليمنى بمصر السابق ذكره رسالة وجهها عبد الله يحيى البدرى من بلاد حاشد باليمن الى علماء المسلمين مؤرخة فى (٢٨ من ذى الحجة ١٣٢٨ هـ) يناير سنة ١٩١٠ م . وقد شرح لهم فيها قضية اليمن واستحث الهمم للدفاع عنهـا ودعا علماء المسلمين الى « الوساطة بين السلطان وبين هذين الرجلين » ويقصد بهما الامام يحيى والادريسى بطبيعة الحال (٢) .

ولم يقتصر بحث القضية اليمنية والادلاء بالرأى عنها على اليمنيين والعرب من جهـة والأتراك العثمانيين من جهـة أخرى فحسب ، بل ان الأجانب هم الآخرون اهتموا اهتماما كبيرا بمصير الامبراطورية العثمانية وبدقائق أحداث الولايات التابعة لها ومن بينها اليمن بطبيعة الحال . وكان هذا الاهتمام من الأجانب تحفزا لالتهام أجزاء من الامبراطورية العجوز أو (الرجل المريض) على حد تعبيرهم من ناحية ، وتحفزا من كل منهم أمام الآخر للمحافظة على التوازن الدولى من ناحية أخرى . وكانت انجلترا فى أثناء القرن التاسع عشر ومطلع القرن الحالى من أكبر الدول اهتماما بالجزيرة العربية ، وفضـلا عما كانت تسيطر عليه من أجزاء الجزيرة بواسطة الاحتلال الفعلى أو المعاهدات والاتفاقيات فى تلك الفترة ، فانها كانت تحرص على بسط نفوذها وسيادتها على أجزاء أخرى . وسوف أعرض فيما يلى مثالين لآراء الأجانب حول قضية اليمن يوضحان الى حد ما وجهة نظر الرأى العام الأجنبى ازاء هذه القضية .

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٧٣ فى الاربعاء ٢٥ من يناير ١٩١١ (٢٤ من محرم ١٣٢٩هـ) ص١٠

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

فقد نقلت « المؤيد » عن جريدة « الطان » الفرنسية فى عددها الصادر فى ٢٤ من يناير سنة ١٩١١ م رأى أحد الأساتذة بجامعة فينا وهو من المهتمين بالمسائل العربية » ان الامام يحيى صاحب النفوذ العظيم فى البلاد الجنوبية تحت أمره على الأقل ٥٠٠٠٠ رجل وأن السيد الادريسى جمع فى أول يناير (١٩١١ م) ٤٠٠٠٠ من الفرسان ، وأن جميع هؤلاء الرجال مسلحون بالبنادق الحديثة بالرغم من المجهودات التى تتخذها الحكومة فى السهر على منع تهريب الأسلحة . وقد وهنت عزيمة الدولة نظرا لشدة بأس العرب وصعوبة بلادهم ، وان الجنود التركية تفر من الحرب فرقا فرقا ، وأن تلك الفرق الفارة يتراوح عدد أفرادها بين العشرين والخمسين تاركين سلاحهم وذخائرهم الحربية للثائرين » (١) . كما نقلت « المؤيد » أيضا ما كتبه « السير وليم مكسويل » عن بلاد العرب فى « الديلى ميل » حيث قال عن اليمن : « .. وبسبب خصوبة أرضها تختلف أخلاق أهلها عن أهالى باقى بلاد العرب فانهم سكنوا الدور .. وهم يحقدون على ساداتهم الأتراك الذين لم يأتوا الى اليمن للعمل لما فيه فائدتهم ونفعهم ، ولكن لاستنزاف ما فى أيديهم . واليمنى ككل عربى يخفى فى نفسه احتقاره للتركى ، وينظر اليه كالهمجى حيث جرد بلاده من مدنيتها ، واذا جلست الى جانب اليمانى يذكر لك عن بلاد العرب أنها كانت مركزا للعلوم ، والمعارف كما هى اليوم للدين .. وقد جرى أكثر من جيلين وهما فى تنازع وما سمعت أوربا بأعمالهما الا همسا ، ولم تحول نظرها التفاتا حتى فى هذا الوقت الذى أرسلت فيه الحكومة العثمانية ثلاثين طابورا وتتساوم فيه مع ألمانيا على أجرة نقله » (٢) .

وعلى الرغم من المبالغة فى حقيقة العدد الذى ورد فى المقال الأول من جنود كل من الامام يحيى والادريسى ، ثم المبالغة والتعميم فى وصف مشاعر العرب نحو الأتراك العثمانيين فى المقال الثانى ، فان هذين المقالين يعبران عن الرأى العام الأجنبى فى قضية اليمن ويوضحان جوانب عديدة من أحداث اليمن فى أثناء هذه الفترة (٣) .

وجدير بالملاحظة أن الصحافة المصرية كانت مرآة انعكست فيها أحداث اليمن ، وقامت بدور هام وخطير فى الاعلام بقضيته ، كما فتحت صفحاتها لنشر مقالات ورسائل العرب بصفة عامة واليمنيين بصفة خاصة ، بل ترجمت ونشرت

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ ، الاثنين ٦ من فبراير ١٩١١ (٧ من صفر ١٣٢٩ هـ) ، ص ٤ .
(٢) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ ، الاثنين ٦ من فبراير ١٩١١ (٧ من صفر ١٣٢٩ هـ) ، ص ٤ .
(٣) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

ما ذكر عن القضية اليمنية فى الأوساط والصحافة التركية والأجنبية ، فكانت سجلا تاريخيا حافلا يساعدنا فى دراسة التاريخ اليمنى الحديث .

وقد ذكر أحمد عزت الأعظمى مؤلف كتاب القضية العربية الذى كان من أعضاء المنتدى الأدبى وبعض الجمعيات العربية الأخرى أن الشباب العربى العامل فى القضية العربية حينذاك كان لا يفكر فى الخلاص من براثن الاستبداد والعبودية الا على يد الزعيمين العربيين الامام يحيى والأمير ابن سعود لما كان لهما من المكانة السامية والنفوذ فى المجتمع العربى ، وأن فريقا من هؤلاء الشباب رأى أن يتصل بالامام يحيى ووقع الاختيار على أحد شبان اليمن من ضباط الجيش المسرحين وهو أحمد المجاهد ، لكى يكون رسولهم الى الامام ، **فسلمه عبد الكريم خليل رئيس المنتدى الأدبى كتابا اليه وأرسله على باخرة ذاهبة الى اليمن ، وما مضت فترة من الزمان حتى عاد أحمد المجاهد يحمل ردا من الامام يحيى بالعمل لاحياء مجد العرب والاسلام (١) ضمنه هذين البيتين من الشعر :**

وانى لأنوى الخير سرا وجهرة وأفعل معروفا وأنكر منكرا
ويعجبنى المرء الكريم نجاده اذا أنا أدعوه الى الخير شمرا

وأضاف الأعظمى قائلا ان عبد الكريم الخليل حذف من الكتاب ما كان منه متعلقا بمخاطبتهم كجمعية عربية فصار الكتاب يصلح لأن يكون كمنشور يستحث الأمة العربية على التمسك بأهداب التضامن ، وأرسله الى جريدة « المؤيد » المصرية فنشرته الجريدة ، وكان بذلك أول منشور للدعوة فى الصحف يصدر عن رجل عربى صاحب سلطة فعلية (٢) .

وقد قدمت جريدة « المؤيد » الكتاب المشار اليه بقولها ان أحد أفاضل العلماء فى الآستانة قد أرسله اليها على أنه رسالة أجاب بها الامام يحيى على خطاب بعث به هذا العالم اليه . وقد جاء فى هذا الكتاب بعد المقدمات والسلام على من سماهم الامام « اخواننا فى الدين الساعين الى لم الشعث » قوله : « ويا حبذا ما عليه عولوا من الاتحاد على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتعاضد وجمع الكلمة على مصداق التشبيه بالبنيان الواحد والعضد الساعد ». ثم أوضح الامام خطته فى اعلاء كلمة الله ونصرة الضعيف والأخذ على يد الظالم ، وكذب ما ينسب اليه من الرفض والخروج والبغى والعدوان ، وأظهر أنه قد اعتدى عليه بقوله : « وبغى علينا فخربت بغير حق ديارنا وقتلت ظلما وعدوانا رجالنا ، وانتهبت بأيدى الجور أموالنا واغتصبت حقوقنا » . كما بين الامام

---

(١) أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، ج ٢ ، ص ٧٠٥ .
(٢) أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، ج ١ ، ص ٧ – ٨ .

ما يصيب الديار الاسلامية من الخراب وما يفقدها من الشبان الأبرياء من جراء أعمال المفترين الظالمين على حد تعبيره ، ثم أضاف قائلا : « وكم قلنا ذلك على سبيل الشكوى لمن له مسكة دينية على لسان الأوراق فلم نجد لصراخنا مجيبا غير جنود تطبق الفضاء زاحفة علينا من الآفاق ، وآلات حرب تقذف نيرانها المحرقة على الأنفس المؤمنة والديار ٠٠ على أنه لا ذنب لنا الا ما نبينه من وجوب اتباع الشريعة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ٠ وختم الامام رسالته بالحديث الشريف « اذا ذل العرب ذل الاسلام » وبالدعوة الى جمع الكلمة ونبذ الفرقة بين المسلمين (١) ٠

على أن نواب العرب فى « مجلس المبعوثان » بعد أن سحب طلعت بك مشروع اصلاحات اليمن الذى سبق الاشارة اليه قد انتظروا منه أن يقوم بما وعد من دراسة للقضية اليمنية ووضع مشروع جديد ٠ ولما طال الانتظار ووقف طلعت بك فى « مجلس المبعوثان » فى شهر فبراير ١٩١٠ م يشرح سبب سحبه المشروع فقد أدرك نواب اليمن سوء نيته ، فاجتمعوا ونظموا مشروعا جديدا وقدموه الى « مجلس المبعوثان والأعيان ومجلس النظار » (٢) ، **وذلك فى ١١ من مارس سنة ١٩١٠ متضمنا المطالب الآتية :**

١ – أن تعقد الدولة مع الامام اتفاقا يحفظ له حقوقه باعتباره زعيما حائزا على طاعة الجميع واعتمادهم المطلق عليه ٠

٢ – اقامة القضاء الشرعى وفقا للشرع الاسلامى ، وأن يكون قاضى الولاية من العلماء الوطنيين ٠

٣ – أن ينتخب الأهالى المفتين لمركز الولاية وللألوية والأقضية من العلماء الوطنيين ٠

٤ – الغاء تحصيل الأموال بطريقة الالتزام وتجبى الأعشار بواسطة محصلين تنتخبهم الحكومة والأهالى معا ٠

٥ – يعين القائمقامون ومديرو النواحى فى جميع أنحاء ولاية اليمن من الاشراف والوجوه الوطنيين الذين يثق الشعب بهم ٠

٦ – ينتخب رئيس البلدية من الأشراف الوطنيين الذين تثق بهم الأمة وتعتمد على أمانتهم ٠

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٩ فى ١٣ من فبراير ١٩١١ ، ص ١ ، (رسالة من الامام يحيى) ٠

(٢) حملت اللائحة توقيع المبعوثين : أحمد محمد الجنانى ، أحمد الكبشى ، حسن بن على عبد القادر ، وهؤلاء الثلاثة عن صنعاء ، أما محمود نديم فكان مبعوثا عن الحديدة ٠

٧ ــ يؤسس فى مركز الولاية مجلس يدعى « مجلس مصالح القبائل » ويؤلف من رؤساء العشائر وأشراف الوطنيين لحل المشاكل وفصل المنازعات التى تحدث بين القبائل بحسب عرف البلاد ، ويكون قائد الجندرمة عضوا فى هذا المجلس ليكون عونا فى تنفيذ أحكامه ٠

٨ ــ تؤلف طوابير عسكرية من الأهالى والقبائل ، يقوم على قيادتها ضباط من رؤساء القبائل ممن يثق الشعب والحكومة بهم ٠

٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، الخ ٠٠٠ ــ والى جانب هذه المواد نصوص أخرى بشأن تعزيز المدارس ورفع مستوى التعليم والزراعة ، وتخصيص رواتب لأبناء الأئمة السابقين ، وايصال الخط الحديدى حتى اليمن (١) ٠

غير أن الاتحاديين قد أصموا آذانهم عن سماع أى اقتراح أو لائحة تقول بوجوب وضع الاصلاحات الملائمة لليمن ، فكانت نصيب هذه اللائحة وغيرها من الاقتراحات مجرد احالتها الى لجنة الاصلاح اليمانية ، ولكن دون أن تعطى لها أية نتيجة (٢) ٠ بل وانه حدث فى احدى جلسات « مجلس المبعوثان » ، خلال شهر فبراير ١٩١١ م أن قدم كل من الأمير أمين أرسلان « اللاذقية » ، ولطفى فكرى بك « درسيم » ، وأحمد المقحفى « صنعاء » تقريرا الى المجلس طلبوا فيه استجواب الحكومة عن مسألة اليمن ، ولكن حزب الاتحاد والترقى عقد جلسة خاصة قرر فيها عدم سؤال الوزارة عن شىء ، والاكتفاء بما يقوله وزير الداخلية فى ذلك (٣) ٠

على أن المعارضة فى ذلك الوقت من مبعوثى العرب بصفة خاصة ، كانت قد اشتدت على الاتحاديين ، وعلى طلعت بك بالذات ، وتعددت المواقف المثيرة ، واحتدت المناقشات ، بحيث أصبح موقف طلعت بك حرجا فاضطر الى تقديم استقالته من وزارة الداخلية فى أثناء اجتماع عقده مجلس النظار فى منزل حقى باشا للتداول فى بعض الشئون وأهمها المسألة اليمنية فقبلها الصـــــدر الأعظم ، وقرر تعيين خليل بك ، مبعوث منتشه ، ورئيس حزب الاتحاد والترقى البرلمانى ، مكانه ناظرا للداخلية (٤) ، وذلك فى ١١ من فبراير سنة ١٩١١ ٠ وقد أوضح طلعت بك فى كتاب استقالته أنه أصبح « عرضة لهاجمات وانتقادات متواصلة من كل طرف ، وكانت كل أعمالى تفسر أسوأ تفسير ليكون من ذلك

---

(١) المؤيد : العدد ٦٠٣٧ فى ١٣ من ابريل ١٩١٠ ، (من نصوص اللائحة المقــــدمة من مبعوثى اليمن الى المسئولين) ٠

(٢) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ ٠

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٩٠ فى ١٤ من فبراير ١٩١١ ٠

(٤) المؤيد : العدد ٦٢٩٨ فى ٢٣ من فبراير ١٩١١ ٠

باعثا على كسر شوكة حزب الاتحاد والترقى وجمعيته ، حتى أننى اضطررت لطلب الثقة فى أقل المسائل أهمية » (١) •

وهكذا كانت مسألة اليمن بالذات ، التى بنى طلعت بك مجده الوزارى عليها ، هى التى جرفته وسببت استقالته (٢) ، وكان للمعارضة العربية خاصة وهجوم المبعوثين العرب عليه وعلى جمعيته أكبر الأثر فى هذه الاستقالة • وسوف تحل القضية اليمنية بعد ذهاب طلعت بك ، غير أن هذا لا يعنى أن خلفه قد أبدى من حسن النية ما سهل حل هذه المسألة ، بل كان التشدد رائد الحكومة العثمانية على الدوام ، ولم يضع حدا لأعمال العنف والقمع الا ما أظهره اليمنيون من البسالة فى المقاومة مما عرض الجيش العثمانى المقاتل فى اليمن لكثير من الهزائم الرهيبة (٣) •

على أن موقف طلعت بك من قضية اليمن لم يتغير حتى بعد استقالته من وزارة الداخلية اذ أصبح رئيسا لحزب الاتحاد والترقى • وقد حدث أن أجاب طلعت بك فى احدى الجلسات على ثلاثة من نواب اليمن ـ طلبوا وضع مشروع معين موضع التطبيق وتعيين حلمى باشا واليا على اليمن مع أوسع الصلاحية ، واذا رفض فتعيين لجنة برئاسة فريد باشا رئيس ديوان المشاة فى نظـارة الحربية ـ أجابهم طلعت بك بعد استقالته وبعد أن أصبح رئيسا للحزب ، بقوله

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٠٢ فى ٢٨ من فبراير ١٩١١ •

تجدر الاشارة الى أن المعارضة اشتدت على طلعت بك اشتدادا لم يشهد له مثيـل ، لخطل سياسته تجاه العناصر غير التركية ولبذاءة لسانه فان أخف كلمة يواجه بها النائب الذى ينتقده هو كذاب أو « جورنالجى » • ففى احدى الجلسات تناقش مع نائب وقال له ـ كلامك كذب • فأجابه النائب : انت الذى تنطق بالكذب ، ولما قال له : انت رجل معلوم الحال ، أجابه النائب : « نعم لا شك فى ذلك وليس بين العثمانيين من لا يعرفنى ، أنا الذى تعلم أن ناصيتى بيضاء وصحيفتى بيضاء ، أما أنت فرذيل نصاب ، قليل الأدب ، يوما تحتقر هذا ويوما تشتم ذلك ، الى متى هذه الحال ؟ وما معنى هذه الأعمال ؟ نحن ليس لدينا دستور ، بل ما زلنا راسفين فى قيود الأسر وسلاسل التحكم مادام فى مناصبنا أمثالك من السفهاء » • فعلت الضوضاء واضطر الرئيس الى فض الجلسة • وفى جلسة أخرى اتهم طلعت بك مبعوثا بكونه « جورنالجى » فأجابه : « عليك أن تبحث بين تقارير الجواسيس عما يخصنى منها فان وجدت واحدا منها أنا مستعد أن أستقيل من المبعوثية وأهجر السياسة ، أما اذا لم تجد شيئا فأنت أرذل من وجد على وجه الارض وأحط مخلوقاته اطلاقا » •

المؤيد : العدد ٦٢٥٧ فى ٥ من يناير ١٩١١ •

الأهرام : العدد ١٠٢٩٢ فى ١٥ من يناير ١٩١١ •

(٢) الأهرام : العدد ١٠٠١٥ فى ٢٢ من فبراير ١٩١١ •

(٣) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ •

انه لا يجوز تعيين الأشخاص على الحكومة ، وبعد جدال أحيل المشروع الى لجنة الاصلاح اليمنية التى سبق الاشارة اليها (١) ٠

وقد حاول خليل بك أن يحذو حذو سلفه طلعت بك فى مواصلة استعمال القوة ، فأرسل عزت باشا الأرناءوطى قائدا للجيوش المقاتلة فى اليمن بصلاحيات واسعة يولى ويعزل ويجرى الاصــلاح اللازم ٠ وكان عزت باشــا قبل اعلان الدستور فريقا على الفرقة الرابعة عشرة فى الحديدة ، وله صلة وثيقة باليمنيين، واكتسب محبتهم فى أثناء اقامته بين ظهرانيهم (٢) مدة خمسة عشر عاما تقريبا، وقد عينته الدولة على قيادة فيلقها بعد وفاة قائده السابق عبد الله باشا ٠

وفى ذلك الوقت قدم الى عسير من الحجاز الشريف حســين شريف مكة الذى عينه العثمانيون هناك يرافقه فى رحلته أولاده وسبعة آلاف مسلم بعد أن ألقى خطابا فى أعيان وأشراف مكة ، قائلا انه يسافر مع أولاده وقبائله بأمر جلالة السلطان ، للتضحية بنفسه فى سبيل بلاده ووطنه وسلطانه الذى نذر نفســه لخدمتهم (٣) ٠ على أن الشريف حسين كان يهدف من تصرفه هذا الى تبديد الاشاعات التى بدأت تنتشر حول اتصالاته السرية بالانجليز حتى يتجنب اثارة الدولة العثمانية ضده قبل أن يستعد للتصدى لها على النحو الذى سبق أن أوضحته (٤) ٠ وقد اصطحب شريف مكة فى حملته أحمالا من كساء الجوخ الأحمر ليقدمه هدية للأمراء وذوى الشأن ، وكميات كبيرة من الريالات « ماركة أبو طاقة » المفضلة على غيرها ليوزعها على الناس لاجتذابهم اليه ، وأطلق مناديه بين القبائل ينادى بأن من يطع السلطان يتبرأ من الادريسى ، وكان فى طريقه اليه يقبض على بعض المراكب الشراعية التى تحمل الأسلحة للثوار اليمنيين(٥)٠

وقد استعد الادريسى لمواجهة هذه الجيوش فى عسير وحاول الوقوف حائلا دون مرورها الى اليمن ، وازدادت حدة مقاومته وشدة اجراءاته ضد الترك ، اذ ألقى القبض على عدد من الضباط العثمانيين وقطع أسلاك التلغراف وقبض على مديرى الجمــارك ، واعتقل سويدى أفندى مبعوث العسير ونفاه الى جبــل النضــر (٦) ٠ وصمد الادريسى أمــام قوات الشريف حسين الذى أتى بقواته وقبائله وقوات الدولة يحاربه عسكريا ومعنويا ، مما اضطر الادريسى بعد مقاومة عنيفة أن يفك الحصار عن بلدة (أبها) عاصمة عسير ، والتجأ الادريسى الى

---

(١) الأهرام : العدد ١٠٠٧٧ فى ٨ من مايو ١٩١١ ٠
(٢) المؤيد : العدد ٦٣٩٨ فى ٢٤ من يونيو ١٩١١ ٠
(٣) الأهرام : العدد ١٠٠٧٧ فى ٨ من مايو ١٩١١ ٠
(٤) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠١ ٠
(٥) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٣١ ٠
(٦) الأهرام : العدد ١٠٠٦٢ فى ٢١ من ابريل ١٩١١ ٠

الجبال المجاورة واعتصم فيها (١) • على أن شريف مكة لم يكن دوما حليف التوفيق فى حربه مع الادريسى ، بل كانت أكثر وقائعه فاشلة هزم فيها وجرح أحد أولاده فى واحدة منها وأراد أن يأخذ بثأره فلم يستطع (٢) •

وهكذا أوقع الترك بين الادريسى وأمير مكة ، كما استخدموا شتى الوسائل لايقاع الفرقة بين العرب ، واستثمروا الأحقاد الشخصية بينهم • اذ حرض الأتراك أحمد شريف ضد خصمه الادريسى ، وقد سبق أن أشرت الى معارضة أحمد شريف هذا للادريسى حتى أمر الأخير بقطع يديه وأخمد معارضته ، فهرب الى الحديدة ومنها الى الآستانة (٣) • وهناك طلب أحمد شريف ثمانية طوابير من الدولة لينتقم من خصمه (٤) فرحبت حكومة الاتحاديين بمعاونته له ، ومساعدته فى اجتذاب القبائل الموالية للادريسى ودعوتهم للالتفاف حوله (٥)، كما اتفقت مع المدعو صالح الضحيانى وهو من عائلة منافسة للامام يحيى ، ونظمت بالاتفاق معه خطة محكمة للقضاء على خصمه والحلول مكانه فى الامامة (٦) •

حصار الامام يحيى والقبائل اليمنية لمدينة صنعاء فى سنة ١٩١١

تجددت ثورة اليمنيين ضد الحكم العثمانى بصورة عنيفة قاسية اثر تولية الوالى العثمانى محمد على باشا حكم ولاية اليمن فى شهر مايو سنة ١٩١٠ (١٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٢٨) وذلك بعد فترة الهدوء النسبى الذى نعمت به البلاد فى عهد سلفه الوالى حسين تحسين باشا • وقد سبق أن أشرنا الى أن سياسة محمد على باشا كانت نموذجا لحكم الاتحاديين الاستبدادى بنزعاته المركزية والعنصرية المتطرفة ، مما أثار مشاعر الشعب اليمنى ضد الحكم العثمانى فانضوى تحت قيادة الامام يحيى فوق جبال اليمن وفى سهول تهامة من جهة ، ومحمد الادريسى فى عسير والمخلاف السليمانى من جهة أخرى لمحاربة الأتراك العثمانيين • وقد نقلت جريدة المؤيد عن وكالة رويتر أن : « الامام يحيى أشهر الحرب على الأتراك ، وقطع أسلاك التلغراف بين صنعاء والحديدة ، وينتظر

---

(١) المنار : مجلد ١٤ ، ج ٩ ، ص ٧١٩ •

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٨٥ فى ٢٤ مايو ١٩١٠ (من كتاب الادريسى الى صديقه) •

(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٦ •

(٤) الأهرام : العدد ١٠٠٧٨ فى ٩ من مايو ١٩١١ •

(٥) أحمد عزت الاعظمى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨ •

(٦) الأهرام : العدد ١٠٠٩٣ فى ٢٦ من مايو ١٩١١ •

أن تثور اليمن ثورة عمومية » ، وأصبح المتصرف والجنود فيها كمسجونين من أول ديسمبر الماضى (سنة ١٩١٠) ، والعصابات (هكذا) الثائرة تتحرك فى كل جهة من جهات اليمن ، وأن متصرف عسير الجديد لا يزال مقيما فى الحديدة ، لأنه عاجز عن متابعة سفره الى مقر متصرفية عسير » . كما ذكرت جريدة المؤيد أن جريدة « طنين » التركية المتطرفة فى تحيزها للعنصر التركى كتبت تعليقا على هذه الأخبار الواردة من اليمن جاء فيه « أن السلطنة سترسل لهم (دشا) باردا كالذى أرسلته الى الألبان فى مقدونيا » (١) . هذا فضلا على أن تقارير قناصل الدول الأجنبية فى الحديدة أيدت نداء الأنباء القائلة بأن « الامام يحيى قد زحف برجاله نحو صنعاء ، وهو الآن (فى يناير سنة ١٩١١ م) أوشك أن يصل الى صنعاء ، وقد وقعت بينه وبين العساكر عدة مصادمات ، ولم يعرف حتى الآن مقدار القتلى والمجروحين منها » (٢) .

على أن الدولة العثمانية لم تقف مكتوفة الأيدى ازاء هذه الحركات الثورية التى هزت دعائم حكمها فى اليمن ، فاستجابت فورا لمطلب واليها العثمانى هناك بسرعة امداده بالجنود والمعدات ، وتتابعت امدادات الدولة لنجدة واليها ليقوى على مجابهة الثورات الضارية والعمل على اخمادها . وقد نقلت « المؤيد » عن جريدة (الطان) الفرنسية فى عددها الصادر فى ١٤ من يناير سنة ١٩١١ وهو الشهر الذى اشتدت فيه وطأة الثوار على الادارة العثمانية فى اليمن ما يوضح « أن حكومة الباب العالى قررت أخيرا أن ترسل الى اليمن ٣١ أورطة ، ٨ بطاريات مدفعية ، مصممة على استعمال الشدة فى قمع الثورة التى تأججت نيرانها فى هذه الأيام » . كما علقت الجريدة على خطورة هذا المشروع الحربى الذى تنوى الحكومة العثمانية اتخاذه فقالت : « وهذا مشروع خطير يحتاج الى المال الوفير ، بل هو مشروع من الصعوبة بمكان ، ولا تقوم به تركيا الحديثة الا بمشقات جسيمة وضحايا وافرة » (٣) .

والى جانب هذه العمليات الحربية التى قامت بها الحكومة العثمانية لاخماد ثورة اليمنيين ، كان هناك جانب سلمى تمثل فى الاجتماعات التى عقدت لدى الباب العالى لمناقشة الموقف فى الولاية الثائرة ، كما شكلت لجنة خاصة مؤلفة من قدماء المأمورين الملكيين والأمراء العسكريين لهذا الغرض . وقد أشار الى ذلك مراسل جريدة « المؤيد » فى الآستانة فى ٢ من فبراير سنة ١٩١١ بقوله : « انه ما زالت تتوالى الجلسات فى الباب العالى للمذاكرة بشأن المسألة اليمنية كل يوم ، كما أنه عينت لجنة مخصوصة مؤلفة من قدماء المأمورين الملكيين ، والأمراء العسكريين للبحث فى شأن المسألة ، وقد بلغنى من مصدر يوثق به

(١) المؤيد : العدد ٦٢٦٩ فى ٢١ من يناير ١٩١١ (٢٠ من محرم ١٣٢٩) ، ص ٤ .
(٢) المؤيد : العدد ٦٢٧٣ فى ٢٤ من يناير ١٩١١ (٢٤ من محرم ١٣٢٩) ، ص ٢ .
(٣) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ فى ٦ من فبراير ١٩١١ (٧ من صفر ١٣٢٩) ، ص ٤ .

أن الحكومة قررت نهائيا قبول مطالب الامام جميعها ، وأن ما يرسل من الجيش الى اليمن انما هو للمحافظة على القسم الساحلى ، واظهار هيبة الحكومة فى اليمن تجاه الأجانب ليس الا ، وهذا ما كنت نوهت به فى الرسائل الماضية بقولى ان المقصود من ســوق الجيش هو عمل استعراض لا حرب ، والمستقبل كشاف الحقــائق » (١) ٠

أما بالنسبة لأحداث الثورة فان القبائل اليمنية زحفت الى المدن تحاصرها وتخربها ، وتنهب كل ما تصل اليه أيديهم ٠ وقد نشر مقال فى التيمز نقلته عنها جريدة « المقطم » وكتبه شاهد عيان انجليزى أتيحت له فرصة مشاهدة حصار القبائل اليمنية لمدينة صنعاء فى يناير سنة ١٩١١ م جاء فيه : « قد أتيح لى أن أكون فى صنعاء لما كان الامام محاصرا لها ، وظل الحصار من يناير الى آخر أبريل من العام الماضى سنة ١٩١١ ٠ وكان عدد المحاصرين يتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف مقاتل (هذا العدد تقريبى بطبيعة الحال) ، ولو هجم الثوار على المدينة بغتة لتيسر لهم فتحها عنوة لأن حاميتها ـ كانت مؤلفة من خمسة آلاف من المشاة وبعض الفرسان ونحو ٣٠ مدفعا ـ لم يكن فى استطاعتها الدفاع عن السور الذى يبلغ محيطه اثنى عشر كيلو مترا » ، بل ان عددا من الجنود العثمانيين ـ ويرجح أن معظمهم من رعايا البلاد العربية المجندين بالجيش العثمانى ـ هربوا من طوابيرهم وانضموا الى الثوار اليمنيين كما يوضح ذلك كاتب المقال المذكور بقوله : « وحدث أنه لما عصفت ريح الثورة خرج بعض الجنود المحليين من العرب من المدينة ، وانضموا الى الثوار ، فشدد ولاة الأمور على من تخلف من هؤلاء الجنود فى المدينة واعتقلوهم هم وسائر الذين اشتبهوا فيهم من الأهالى ، الى أن انتهى الحصار ، ولم يشــددوا الا فى هــذا الأمر ، وتجاوزوا عن سعى الذين سعوا فى نسف الثكنات ٠ ويؤول تسامحهم هذا بخوفهم من قيام الحرب عليهم اذا سقطت صنعاء وانتقامهم منهم ، وحرصهم على حياة الجنود الكثيرين الذين أسرهم العرب » (٢) ٠

ويعرض الواسعى فى تاريخه صــورة واضحة المعــالم لثورة اليمنيين ضد الأتراك فى سنة ١٩١١ بقيادة الامام يحيى الذى اكتسب شعبية كبيرة على حساب التمرد الشعبى ضــد الحكم فى اليمن كما يتصور حالة صنعاء فى أثناء الحصار فيقول : « فلما كثر الظلم والفساد وحصل لأهل اليمن الجور والاضطهاد قام الامام المتوكل على الله رب العالمين الامام يحيى أيده الله وبث القبائل فى جميع مراكز اليمن فقام (أى قامت) القبائل محاصرين لجميع مراكز اليمن صنعاء

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٤ فى ٧ من فبراير ١٩١١ (٨ من صفر ١٣٢٩) ، ص ٤ ٠

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء ٢ ، الصادر فى ١٨ من فبراير ١٩١٢ (أول صفر ١٣٣٠ هـ)، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ٠

وغيرها حصارا شديدا ، وما زال الوالى فى صنعاء يخيف الناس ويمنعهم من الخروج ، وشدد عليهم ، وأغلق أبواب المدينة ، وأمر البوليس يدورون فى الأزقة، واذا وجدوا شخصين يتكلمان أو يمشيان معا ضربا وحبسا ، واذا وجد البوليس فى الليل مكانا مرتفعا مضيئا بالمصباح فى أحد البيوت هجموا على صاحب البيت وضربوه وحبسوه ، ويزعم الوالى أنهم فى الليل يشيرون للمحاصرين بالهجوم على المدينة وما زال الناس فى الخوف من الوالى ، هذا كله سوى ما الناس فيه من المحاصرة والضيق ، وانقطاع الطعام عنهم وسائر المحتاجات وامتلأ السجن محابيس ظلما ٠٠ » (١) » ٠ ثم يشير الواسعى الى محاولة الوالى العثمانى اعدام خمسين رجلا من سادات وتجار وعلماء صنعاء من ذوى المكانة فى قومهم ليشيع الذعر والارهاب بين أهالى المدينة لمنع أى تمرد قد يدبرونه ضد الادارة العثمانية، غير أن نائب المحكمة الشرعية عارض الوالى فى هذا الأمر ورفض التصديق عليه على الرغم من أن بعض المأمورين أيدوا الوالى فى ذلك ، اذ يقول الواسعى : « وأراد الوالى من جرأته أن يعدم خمسين رجلا من أهل صنعاء من سادات وعلماء وتجار ، وختم تصديقا له بعض المأمورين الا أن نائب المحكمة الشرعية العالم الفاضل خليل أسعد أفندى ، لم يساعده على هذه الرزية وقال : لم ترض ذمتى باهراق دم مسلم واحد من دون حكم شرعى » (٢) ٠

وازاء شدة وطأة الحصار على مدينة صنعاء فقد تعطلت أعمال النـاس اليومية على أشكالها العادية ولجأوا الى المساجد يقضون فيها يومهم كما يقول الواسعى « من الصبح الى ما بعد صلاة العشاء يلازمون درس القرآن والذكر لأنه لم يبق لهم شغل الا ذلك ٠ وصارت أبواب المدينة مغلقة والأسواق مقفلة الا نادرا والبوليس يمسكون من أرادوا ، فلم يجدوا راحة وأمانا الا المساجد » ، ولهـذا كانت محاصرة صنعاء فى سنة ١٩١١ على حد قول الواسعى « أشـد محاصرة مضت باعتبار مضايقة الوالى وسوء معاملته لأهل صنعاء ومنعهم من الخروج » (٣) ٠

بل ان الوالى العثمانى فرض على أهالى صنعاء على الرغم مما يعانون من الشدة والفقر معونة مالية قدرها سبعون ألف ريال ، استحصلها منهم لينفق على جنوده المحصورين فى المدينة ، وليغطى نفقات استعداداته لمقاومة الحصار ٠ وكان من بين هذه الاستعدادات قيام الوالى بتخريب البيوت المحيطة بمدينة صنعاء فى « شـعوب » و « الصـافية » كمـا خـرب المساجد وقلع الأشـجار وبث حول صنعاء حقلا من الألغام لابادة القبائل المهاجمة وقد تحدث الواسعى عن هذه الألغام بقوله : « ووضع (الوالى) حول صنعاء دفائن من البـارود تسمى

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣١٤ ٠

(٢) الواسعى : المصدر نفسه ، ص ٣١٤ ـ ٣١٥ ٠

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣١٥ ٠

«ديناميت» ، وأهلكت من أهل صنعاء نفوسا كثيرة لم يكونوا يعلمون بها ، اذا وضع أحد رجله عليها صعقت به ، وصيرته قطعا ، انما فعل هذا الوالى خشية من العرب اذا هجموا على صنعاء . وفى آخر مدة من الحصار قرب العرب الى حول صنعاء ، وعرفوا الدفائن وكانوا يحفرون التراب حفرا لطيفا ويستخرجون تلك الدفائن ويأخذونها فندم الوالى وحزن على ذلك » (١) .

وقد استمرت المناوشات بين القبائل اليمنية المحاصرة وبين الأتراك المحصورين فى صنعاء من أواخر سنة ١٩١٠ م حتى أوائل سنة ١٩١١ م (من أواخر شهر ذى الحجة حتى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٩ هـ) ، وكان يخرج فى أثنائها الوالى من صنعاء من وقت لآخر لملاقاة رجال القبائل المحاصرين للمدينة . وكثيرا ما كان يحدث التشابك بين الجانبين وجها لوجه بعد أن يتبادلوا اطلاق نيران بنادقهم ، وقد بلغت هذه المعارك درجة من العنف والوحشية حتى كان « بعض الجنود يحضرون معهم عند عودتهم رءوس بعض القتلى العرب الى المدينة » (٢) ليبثوا الارهاب والفزع فى قلوب أهالى صنعاء .

على أن مدينة صنعاء لم تكن وحدها فريسة لهذه الحياة الرهيبة التى تسبب فى خلقها الحكم العثمانى فى اليمن والصراع الدامى بينه وبين القبائل اليمنية ، اذ تعرضت كثير من المدن اليمنية لمحاصرة القبائل للحاميات التركية فيها ، كما حدث فى مدينة « يريم » حيث طوقت الحامية التركية فيها جموع من رجال قبائل ذى محمد وذى حسين (٣) . وهى من أقوى القبائل اليمنية وأكثرها عداوة للأتراك . وعلى الرغم من أن « المقدمى » زعيم هذه القبائل أمرهم بالاكتفاء بمحاصرة « يريم » ، وحذرهم من النهب والقتل والهجوم على المدينة ، وأمن كل من يخرج من المحصورين فيها من العرب أو الترك على السواء ، فان رجال هذه القبائل العنيفة « لم يسمعوا بل هجموا على هذه المدينة ، وحصل منهم الأفعال الشنيعة من النهب والقتل ثم الخراب » (٤) .

حملة الترك بقيادة عزت باشا لاخماد ثورة اليمن فى سنة ١٩١١ :

أشرنا فيما سبق الى أن نيران الثورة اشتعلت ضد الحكم العثمانى فى اليمن فى سنة ١٩١١ ، واجتاح تيارها العنيف معظم أرجاء البلاد ، فكان الادريسى

---

(١) الواسعى : المصدر نفسه ، ص ٣١٥ .

(٢) Wavell, A.J.B. : Op. cit., p. 277.

(٣) وهما فرعان من قبيلة بكيل ، وكانا من أتباع الامام يحيى .

(٤) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

يقود أتباعه فى عسير ضد الأتراك ، بينما كان الامام يحيى يحرض جموع رجال القبائل ضدهم فى جبال اليمن ، فحاصروا الحاميات التركية فى صنعاء ويريم ومعظم المدن اليمنية · وازاء تفاقم الأمور فى الولاية الثائرة فان الدولة العثمانية قامت باستعدادات حربية هائلة لاخماد الثورة اليمنية · وكان يدفع الدولة الى ذلك نزعة القمع والاخضاع التى سيطرت على عقلية الاتحاديين دعاة العنصرية التركيـة والمركزية الادارية ، هذا فضـلا على حرص الدولة على المحافظة على مركزها فى اليمن حتى لا تنتقل عداوة الثورة الى الولايات المجاورة ، فى وقت شعرت فيه الدولة بأن مستقبلها فى الولايات العربية بعد النكسات المتتالية التى منيت بها فى ولاياتها الأوربية · على أن سياسة القمع والاخضاع هـذه ما كانت تناسب الدولة العثمانية فى ذلك الوقت الذى أصيبت فيه بضعف عام اعتراها فى أواخر أيامها · كما كان طاقتها الحربية المتمثلة فى قواتها الموزعة فى ولاياتها النائية محدودة للغاية ، فكان سحب أى قوات عثمانية من احدى الولايات الى ولاية أخرى يعنى بالضرورة خلق فجوة جديدة فى الولاية الأولى مما يترتب عليهـا ضعف النفوذ العثمانى هناك · وكان من الأفضـل للدولة العثمانية بدلا من سوق آلاف الجنود العثمانيين بمعداتهم الحربية لاخماد الثورة اليمنية أن تحاول الالتقاء مع رغبات اليمنيين فى عقد الصلح مكتفية باعترافهم بسيادتها على أراضيهم · فأتباع الامام الزيدى من اليمنيين الذين حاربوا الأتراك كانوا على استعداد للتصـافى مع الدولة اذا اعترفت لامامهم بوضعه الخـاص وتركت لهم حرية تطبيق الشريعة الاسـلامية فى مناطقهم ، كما أن القبائل الشافعية التى ثارت ضد الأتراك كانت تثور ضد أوضاعهم الفاسدة واداراتهم المسـتبدة ، وهى أمور يمكن تلافيها اذا حرص الأتراك على تعـديل وتنسيق علاقاتهم مع الشعب اليمنى ·

وقد حاول خليل بك وزير الداخلية العثمانية فى ذلك الوقت أن يحذو حذو سلفه طلعت بك فى مواصلة استعمال القوة (١) فصمم على ارسال حملة عسكرية ضخمة الى اليمن لاخماد ثورتها دون مبالاة لما ستتكلفه خزينة الدولة العثمانية المجهدة من أعباء كبيرة · وقد توجهت هذه الحملة العثمانية الى اليمن بقيادة المشير عبد الله باشا الذى توفى وهو فى طريقه من الحجاز الى اليمن نتيجة لما « كان يعتريه من النزلات الصدرية » (٢) ، فعين الباب العالى عزت باشا الذى كان رئيسا عاما لأركان حرب الجيش العثمانى لقيادة هذه الحملة بدلا من زميله الراحل · كما منح صلاحية واسعة يولىويعزل ويحاكم ويجرى الاصلاحات اللازمة · وقد تميز عزت باشا القائد الجديد عن غيره من القادة العثمانيين بحنكته السياسية وبفصاحته وحذقه وكريم أخـلاقه وكان لجهوده

---

(١) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ ·

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١١١ ·

المثمرة أكبر الأثر فى عقـد الصلح بين الأتراك العثمانيين والامام يحيى • وشخصية عثمانية لها هذا الدور الخطير فى العلاقات العثمانية اليمنية لجديرة بالتعريف والتقدير ، لهذا قالت جريدة « المؤيد » المصرية أن عزت باشا كان من أعلى بيوت المجد والشرف فى ألبانيا ، وقد تربى تربية عسكرية عالية فى ألمانيا حتى أن الامبراطور غليوم كان يفتخر بأن المدارس الألمانية أنجبت مثله من العثمانيين • وكان السلطان عبد الحميد قد نفاه فى سوريا فى أثناء حكمه لمدة طويلة ، اذ كان يخشى الشخصيات القوية المستقلة ، ولما زار غليوم سوريا قال فى حديث له الى والى بيروت اذ ذاك : اذا كان الجيش العثمانى يستغنى عن عزت باشا فان الجيش الألمانى فى حاجة اليه » فاضطر السلطان عبد الحميد أن يرقى رتبته بعد ذلك ، وأن يرسله الى اليمن فريقا على الفرقة الرابعة عشر المقيمة بالحـديدة • وقد سـار سيرة حسـنة فى بلاد اليمن ، وأحبه أهلها حبا شديدا ، ولكنه لم يلبث أن أعيد الى منفاه فى سوريا قبل اعلان الدستور بزمن قليل • ولما أعلن الدستور عين على الفور رئيسا عاما لأركان حرب الجيش العثمانى باجماع رجال الدولة ، على أنه ليس هنـاك أكفأ منه لهذه الوظيفة العالية » (١) •

كما ذكر أمين الريحانى فى حديثه عن الصلح الذى عقد بين الأتراك والامام يحيى فى سنة ١٩١١ م أن عزت باشا سعى « بما كان له من حنكة وفصاحة وكرم أخلاق الى مصالحة الامام •• وقد كان عزت كريما وجوادا •• واستمال الامام بصفاحته » (٢) •

بل ان الواسعى وهو من اليمنيين الزيديين أظهر تقديره لعزت باشا عند حديثه عن دور هذا الرجل فى عقد الصلح بين الأتراك العثمانيين والامام يحيى بقوله : « وتوفق هذا الدواء (يقصـد الصلح) الرجل الشهم الغيور عزت باشا (٣) •• » ، فكان الواسعى بذلك منصفا فى حكمه على أحد قادة العثمانيين الذين أسهموا بقدر ما سمحت به طاقتهم لايجاد حل للقضية اليمنية •

وقد أبدى عزت بك على المصرى وكان حينئذ برتبة بكباشى ، رغبته فى مرافقة هذه الحملة المتوجهة الى اليمن بقيادة عزت باشا فأجيب الى طلبه (٤) • وقد تكونت هـذه الحملة من عشرات الطوابير تنقلها البواخر ومعها نسافة وطرادة • وقد سبق أن أشرت الى أن محمد الادريسى تصدى للأتراك فى عسير

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٩٨ ، الخميس ٢٣ من فبراير ١٩١١ (٢٤ من صفر ١٣٢٩هـ) • ص ٢ •

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣١ •

(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ •

(٤) مذكرات جمال باشا : ص ٩٨ ، الاهرام العدد ١٠٠١٣ من فبراير ١٩١١ •

وحاول منع مرور حملتهم الى اليمن بل ان مقاومته ازدادت حدتها ضد الترك ، اذ ألقى القبض على عدد من الضباط وقطع أسلاك التلغراف وقبض على مديرى الجمارك واعتقل سويدى أفندى مبعوث العسير ونفاه الى جبل النضير • كما صمد الادريسى أمام قوات الشريف حسين المشتركة مع قوات الدولة فى الهجوم على اليمن لاخماد ثورتها ضد الحكم العثمانى والتى جعلت مدينة « الليث » نقطة التقائها وانطلاقها • فواجه الادريسى حربا عسكريا ومعنوية اضطرته الى فك الحصار عن مدينة أبها عاصمة عسير والتجأ الى الجبال المجاورة واعتصم فيها • وقد اشتبك عزت باشا فى معارك عنيفة مع قوات الادريسى التى عرقلت طريقه الى اليمن وعمدت فى كثير من الأحيان الى قطع مياه الشرب عن المدن والقرى التى نزلت فيها القوات العثمانية ، فسببت لها متاعب ومشاكل كثيرة عرقلت سرعة تقدمها (١) • على أن أروع الوقائع وأشهرها ، تلك الموقعة التى جرت عند مضيق « جيزان » بمنطقة العسير ، التى تكبدت فيها جيوش الدولة من الخسائر ما ضعضع كيانها ، ومما أدى الى استجواب خليل بك ، ناظر الداخلية ، من قبل النواب فى مجلس المبعوثان ، عن سبب الانكسار الذى حل بالجنود العثمانيين فيها ، فأجاب بكلام مختصر يفيد أنهم وقعوا فى كمين نصبه لهم ثوار اليمن (٢) • والواقع أنه كان لهذه الموقعة أثرها المباشر فى مفاوضات الصلح بين الطرفين اذ بلغت خسائر الجيش العثمانى فيها ما يقارب ٢٨ ألف جندى بين قتيل وجريح وأسير (٣) •

على أن الادريسى صمم على استخلاص عسير من الأتراك واجبارهم على الاعتراف بوضعه الخاص أو باستقلاله الذاتى هناك حتى « يمكنه من اسعاد أهلها ، ورفع الظلم عنهم » (٤) • وقد شجع الادريسى على مواصلة الحرب ضد الأتراك ذلك التقارب الذى حدث بينه وبين الامام يحيى خاصة بعد أن أعلن الأخير ثورته ضد الحكم العثمانى وبدأ زحفه لمحاصرة الحامية التركية فى صنعاء (٥) • على أن العلاقة التى توثقت بين الادريسى والامام يحيى فى أثناء كفاحهما المشترك ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن سوف تنفصم عراها عندما يتصافى الامام يحيى مع الأتراك بعقد الصلح بينهما فى سنة ١٩١١ م • وعند ذلك سينفرد الادريسى بمحاربة الترك فى اليمن مستعينا بالايطاليين أحيانا وبالبريطانيين أحيانا أخرى ، بل وببعض القوى العربية التى ستتمرد على الترك

---

(١) الأهرام : العدد ١٠١٥٠ فى ١ من أغسطس ١٩١١ •
(٢) الاهرام : العدد ١٠١٢٧ فى ٥ من يولية ١٩١١ •
(٣) محمد المهدى البصير : تاريخ القضية العراقية ، ص ٢٦ •
(٤) حافظ وهبه : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٤٢ •
(٥) Hogarth, D.G. : Op. cit,, p. 121.

أمثال ابن سعود من جهة ، والشريف حسين بعد اعلان الثورة العربية فى سنة ١٩١٦ م من جهة أخرى ٠

بعد أن تجمعت القوات العثمانية بقيادة عزت باشا فى الحديدة فقد زحفت الى داخل اليمن قاصدة صنعــاء لفك حصــارها ولطرد القبائل اليمنية التى تجمعت حولها ٠ ولم يكن الطريق بين الحديدة وصنعاء سهلا مفتوحا أمام القوات العثمانية ، بل واجه الأتراك عبره مقاومة مستمرة من القبائل اليمنية التى تقع مراكزها على طول الطريق ٠ وقد أشار الواسعى الى بعض المعــارك التى واجهها عزت باشــا قبل وصوله الى صنعاء بقوله : « وخرج عزت باشــا من الحديدة والحرب فى طريقه لم يزل منها فى حرب الى « مفحق » ثم حرب عظيم فى « بيت السلامى » و « قملان » وذهبت نفوس كثيرة وكان العرب المقاتلون هنالك عشرة آلاف ، ثم فى قرية شعبان مقابل محطة متنه التى يسميها الأتراك « سنان باشا » ــ حرب عظيم حتى اختلط العرب والترك ووقع الضرب بالسيوف والمدى ــ وفى ذلك يقول عزت باشا : لو كان للدولة ألف رجل من هذه الرجال لأخذنا أوربا بأسرها ، ثم لم يزل الحرب فى الطريق الى « رأس عصر » مقابل مدينة صنعاء وجلست (يقصد ظلت) الطرقات أياما منتنة ، من القتلى بعد دفن ما دفن منهــا » (١) ٠ ويتضح من قول الواسعى ان الأتراك واجهوا فى طريقهم بين الحديدة وصنعاء مقاومة عنيفــة من رجال القبائل اليمنية حتى أن عزت باشا امتدح شجاعتهم ومقدرتهم على القتــال ٠ كما أن الجانبين اليمنى والعثمانى منيا بخسائر فادحة فى أثناء هذه المعارك ، ولا يخفى ملاحظة ما كانت تسببه هذه المعارك ، ولا يخفى ملاحظة ما كانت تسببه هذه الحروب وما تخلق عنها من القتلى ــ التى كان يتعذر دفنها لكثرتها ولانشغال المقاتلين بالدفاع عن أنفسهم وسرعة التقدم تجــاه أهدافهــم ــ من أمراض وأوبئة أنهكت قوى الجانبين ، وأضعفت معنوياتهم لمواصلة النضال وزادت من رغبتهم فى الهدوء والسلام ٠

على أن كثيرا من القبائل اليمنية عند ما كانت تحس بضعفها أمام القوات العثمانية المتقدمة الى صنعاء كانت تفضــل الانسحاب الى معاقلها فى الهضبة اليمنية ، وخاصة فى الشمال ٠ وقد أدى هذا الى أن البعض اعتقدوا أن عزت باشــا فى زحفه تجــاه صنعاء « لم يلق المقاومة التى كان يتوقعها ، فرغم أنه حارب كثيرا فى طريقه الا أن الثوار لم يدافعوا عن معقل من معاقلهم العديدة بين الحديدة وصنعاء مدافعة تستحق الذكر » ٠ ثم يتدارك أصحاب هذا الرأى فيعلقون عليه بأنه لم يكن سلبية من الامام وأتباعه بل كان خطة حربية حكيمة

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣١٦ ــ ٣١٧ ٠

اتبعوها ليستنفذوا قوى الأتراك الذين لم يتمكنوا من التقدم خطوة فيما وراء العاصمة اليمنية ، ولهذا قالوا : « وقد دلت النتائج على أن تقاعدهم (أى اليمنيين) عن مقاومة الجيش (العثمانى) كانت حكمة من الامام وليس جبنا منه ومن رجاله ، اذ لما بلغ الجيش صنعاء رأى أنه لا يستطيع أن يخطو الى ما وراءها (١) » ٠

غير أن هذا الاعتقاد وتداركه لا يثير الشك فى أن الأتراك لاقوا مقاومة عنيفة فى أثناء تقدمهم من الحديدة تجاه صنعاء ، ويؤكد ذلك أن جزءا كبيرا من القبائل اليمنية الثائرة التى كانت تحاصر صنعاء حينذاك توجهت فى حوالى منتصف شهر فبراير سنة ١٩١١ م لملاقاة قوات عزت باشا المتقدمة من الحديدة ولتعضيد حركات المقاومة اليمنية التى اعترضت طريق الأتراك ، هذا فى الوقت الذى ظل الجزء الأكبر من القبائل اليمنية محاصرا صنعاء للابقاء على الحامية التركية المحصورة فى المدينة تحت رحمتهم (٢) ٠ بل ان رجال الامام يحيى المحاصرين لصنعاء هاجموا فى النصف الثانى من شهر فبراير سنة ١٩١١ م قافلة عثمانية « مؤلفة من ثمانين جملا تحمل أرزاقا ومؤونة الى الجند (العثمانيين المحصورين فى صنعاء) من حامية مدينة حجة ٠ وقد قتل اليمنيون خمسين نفرا من الجنود الذين حاولوا الدفاع عن القافلة وانهزم الباقون » ٠ هذا فضلا عن أنه جاء فى تلغراف رسمى من متصرف الحديدة الى الباب العالى بتاريخ ٢١ من فبراير سنة ١٩١١ م أن الأميرالاى رضا بك قاد الستة طوابير الموجودة فى « عبال » الى مناخة (٣) ٠ لهذا كله فان زحف الأتراك من الحديدة الى صنعاء كان يحفه من كل جانب وعلى طول الطريق معارك وحروب ومناوشات عديدة استمرت حتى قرب نهاية شهر مارس سنة ١٩١١ م ٠

وقد نجحت القوات العثمانية فى طرد القبائل اليمنية الثائرة من «مناخة» بعد أن تكبد الجانبان خسائر فادحة ، كما وصلت مقدمة الجيش العثمانى الى « سوق الخميس » ، وقد كان هذا يعنى اقتراب موعد دخول الأتراك الى مدينة صنعاء بعد طرد القبائل المحاصرة لها ٠ وقد حاول الوالى محمد على باشا المحصور داخل صنعاء أن يقوم بدوره فى معاونة جيش النجدة العثمانى الذى يقوه عزت باشا ، فأظهر نشاطا مفاجئا داخل المدينة وعند الأسوار تسهيلا لتقدم العثمانيين فى الوقت الذى اشتدت فيه وطأة القتال بين جيش النجدة وجموع القبائل اليمنية المحاصرة للمدينة ٠ وفى صباح ٥ من أبريل سنة

(١) المنار : المجلد ١٥ ، ج ٢ ، ص ١٠٧ (الصادر فى أول صفر ١٣٣٠هـ) ، ١٨ من فبراير ١٩١٢ ٠

(٢) Wavell, A.J.B. : Op. cit., p. 269.

(٣) المؤيد : العدد ٦٣٠٤ الخميس ٢ من مارس ١٩١١ ، (أول ربيع الأول ١٣٢٩هـ) ٠

١٩١١ م تركت القبائل اليمنية الثائرة مراكزها حول صنعاء (١) وانسحبت نحو الشمال بعد أن اقتنعت بعدم جدوى المقاومة ازاء قوة الجيش العثمانى المزود بأحدث الأسلحة ، والمدرب على أحدث أساليب الحرب ، والذى كان يقوده عزت باشا الذى تميز بمهارته الفائقة فى وضع الخطط الحربية الناجحة ، وقيادة جنده الذين توفرت لديهم كافة الامكانيات العسكرية للفوز بالنصر . وهكذا تمكن عزت باشا من دخول صنعاء على رأس جيشه العثمانى فى مساء نفس اليوم . وفى صباح اليوم التالى أقيم استعراض كبير للحامية ولجيش النجدة العثمانى فى الميدان الفسيح الواقع أمام مبنى مقر حكومة الولاية ، وذلك احتفالا بالنصر وابتهاجا بانتهاء الحصـــار . وقد شهد هذا الاستعراض جمـــوع أهالى المدينة الذين استمعوا الى خطاب ألقاه عزت باشا فى هذه المناسبة . وقد استقبلت مدينة صنعاء القائد المنتصر بالفرح والابتهاج ، وأقيمت الزينات وأقواس النصر تعبيرا عن ذلك ، كما خرج أهالى المدينة وقد لبسوا أحسن ملابســـهم لتحية القائد العثمانى الذى خلصهم مما عانوه فى أثناء الحصار ، ولم يمنعهم هطول الأمطار فى ذلك اليوم من التعبير عن فرحتهم بزوال الحصار (٢) . ومن الطبيعى أن يفعل ذلك أهالى مدينة صنعاء ولم يكن هذا ضعفا فى وطنيتهم واخلاصهم لقضية بلادهم لأنهم كانوا يخشون مغبة نجاح القبائل اليمنية فى دخول المدينة اذ كان ذلك سيعرضهم لانتقام القبائل الذين اعتقدوا فى تعاونهم مع الأتراك ، كما أنه سيعرضهم أيضا للسلب والنهب والتخريب الذى اعتادته القبائل اثر كل هجوم ، بل ان الأئمة أنفسهم كانوا يسمحون للقبائل التى عاونتهم على استرجاع صنعاء باستباحة كل شىء فى المدينة فترة من الوقت كانت تتعرض فى أثناءها للخراب والدمار .

على أن وصول عزت باشا الى صنعاء وانهائه لحصار القبائل الذى كان مضروبا حولها لم يكن سوى خطوة أولى فى سبيل ايجاد حل للقضية اليمنية ، حتى تستقر أحوال الولاية الثائرة وترتاح الدولة من ضرورة ارســـال حملات عسكرية مستمرة لاخماد الحركات الثورية ضمانا لبقاء الولاية تابعة لسيادتها الفعلية . واذا كان عزت باشا قد استطاع أن يؤكد نفوذ الدولة فى ساحل اليمن المطل على البحر الأحمر ، وخاصة فى مدينة الحديدة من جهة ، كما تمكن من السيطرة على المدن والمراكز اليمنية الواقعة فى الطريق من الحديدة الى صنعاء من جهة أخرى ، فان هذا لم يكن يعنى خضوع اليمن بأكمله للحكم العثمانى . اذ ظل الامـــام يحيى يتمتع بنفوذ كبير فى معظم مدن الهضـــبة ويتزعم قبائلها وخاصة فى المنطقة الشمالية حول مدينة صعدة مركز الامامة الزيدية فى اليمن . كما كان الادريسى معتصما فى جبال عسير المجاورة لعاصمتها « أبها » التى

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣١٧ .

(٢) Wavell, A.J.B. : Op. cit., pp. 275-278

اضطره الأتراك الى رفع حصاره عنها ۰ وكان بطبيعة الحال يتحين الفرص ويعد العدة للانتقام من الأتراك فى عسير ويضع حدا للحكم العثمانى هناك ۰ لهذا لم يكن الأمر هينا أمام عزت باشا بعد وصوله الى صنعاء ، ومن حوله أكثر من عدو يتربصون به شرا وانتقاما ، وقد جمعهم جميعا هدف واحد هو كراهيتهم للحكم العثمانى فى اليمن وحرصهم على التخلص منه ؛ ويبدو أن هؤلاء جميعا قد نسوا أو تناسوا خلافاتهم المذهبية والقبلية فى غمرة كراهيتهم للأتراك العثمانيين ، فتعاون الامام الزيدى مع الادريسى السنى ، وانضمت اليهما القبائل الشافعية فى الهضبة وفى عسير وفى المنطقة الساحلية كقبيلتى « الزرانيق » و « القحرا » (١) المعروفتين بشدة البأس وقوة الشكيمة وحرصهما على الاستقلال حتى عن نفوذ الامام الزيدى ۰

وقد كان السيد الادريسى يتمتع بفهم عميق لطبيعة الروح القبلية مما جعله يدرك أن قبائل عسير والمخلاف السليمانى التى يتزعمها لن تستمر بصفة دائمة على ولائها وتحمسها لفكرة دينية جامدة ، كما أنه لم يقنع باستجابتهم الطبيعية لخوض غمار الحروب فى أى وقت من أجل هدف عارض يتعلقون به ، بل انه أراد أن يحدد هدفا ثابتا له صفة الواقعية وطابعها لحركته الدينية ، فصبغها بصبغة وطنية شعارها « عسير للعسيريين » ، وأخذ يدعمها بما طبعت عليه حياة البدو من تعلق بالثأر ، والحرية الذاتية ، والاستحواذ على الغنائم ، والرغبة فى القتال (٢) ۰ ومن هنا أحس الأتراك بخطورة الادريسى وكانوا يترقبونه ويخشونه ويبذلون جهدهم لكسر شوكته بعد أن طغت فى النماء فى غفلة منهم ۰

أما قبائل الهضبة اليمنية فمنهم الزيديون أتباع الامام يحيى الذين جمعهم حول الامام اخلاصهم المذهبى وفقرهم فكانوا لذلك رهن اشارة الامام فى خوض الحروب من أجل العطايا والغنائم ۰ أما قبائل الهضبة من غير الزيديين فكان يدفعهم الى محاربة الأتراك والثورة عليهم سوء الادارة العثمانية ، ومظالم الموظفين الأتراك ، والضرائب المرتفعة التى لم يعتادوها ، ثم رغبتهم فى الحرية والاستقلال ۰ على أن الامام الزيدى استطاع أن يجتذب قبائل الهضبة عامة لمحاربة الأتراك عن طريق اغرائهم بما سوف يستحوذون عليه من غنائم وأسلاب ، مما جعل برى Bury يؤكد هذا المعنى بقوله : ان الامام الزيدى « استطاع أن يكسب الى جانبه سكان شرق اليمن السنيين بواسطة اغرائهم بالغنائم ضد الأتراك السنيين » (٣) اخوانهم فى المذهب والعقيدة ، ولكن الحركات الثورية التى كانت تقوم فى صنعاء ما كانت تنتشر فى ريف الهضبة

(١) القحرا ۰ او القحراء ، او القحرى ۰

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 36.

(٣) Bury, G.W. : Op. cit., p. 33.

بسهولة ، لأن رجال التلال شغلوا في حرث الأرض وتتبع تغير فصـول السنة وسقوط الأمطار والأعمال المرتبطة بالزراعة التي كان عليهم انجازها يوميا ، وكانت بطبيعة الحال لا تحتمل الاهمال أو الامهال بل تتطلب دائمة رعاية ويقظة بصفة دائمة ، وهكذا ارتبطت حياتهم بالأرض الزراعية فكانوا لا يعيرون الحركات الثورية أدنى اهتمام إلا اذا مستهم بصفة شخصية (١) ، فعداء هؤلاء الأتراك كان ينجم عن سوء الادارة العثمانية في الولاية وارتفاع الضرائب وتدخل الأتراك المستمر في شئونهم ، فاذا تلافى الأتراك ما يغضبهم ويثيرهم فقد ضمنوا بذلك ولاءهم للحكم العثماني ٠

وهكذا كانت مهمة عزت باشا تستلزم معاملة الأطراف اليمنية ، الامام يحيى والادريسي والقبائل ، كل بقدر وبأسلوب يحفظ للحكم العثماني في اليمن بقاءه واستقراره ٠ واذا كان ثمة طريقان أمام الأتراك لاختيار أحدهما وسيلة لحل القضية اليمنية ، أولهما مواصلة الحرب لاخضاع اليمنيين بالقوة ، رغم ما كان يستلزمه ذلك من نفقات باهظة تنوء بحملها الدولة في وقت قصرت فيه امكانياتها عن تغطية الالتزامات الضرورية ، ورغم فشل هذا الأسلوب الذي تمسكت به الدولة منذ عودتها لليمن في سنة ١٨٧٢ حتى وصول عزت باشا الى صنعاء في سنة ١٩١١ م ٠ أما الطريق الأخرى فهي أكثر واقعية وأدعى للسلم والاستقرار فهي توفر على الدولة ما تنفقه من أموال وما تضحي به من أرواح وما تبذله من جهد ضائع ، ألا وهي المفاوضة والاتفاق على الصلح مع الامام يحيى باعتباره رأس المقاومة (٢) ومحاولة تحقيق مطالب الشعب اليمني بصفة عامة ٠

وهكذا ستفضل الدولة العثمانية ، بل انها ستضطر الى أن تسلك طريق الصلح والاتفاق مع الامام يحيى ، الذي التجأ الى جبال « شهارة » المنيعة عقب دخول عزت باشا مدينة صنعاء في أوائل شهر أبريل سنة ١٩١١ م ، ولم يخلد بطبيعة الحال الى الهدوء حتى أن الكمائن التي كان ينصبها رجاله للفصائل العثمانية عند اجتيازها مضائق الجبال اليمنية كانت تقض مضاجع العثمانيين، وتفنى طلائعهم في بعض الأحيان عن آخرها ٠ وقد أدرك الأتراك أنهم سيذوقون الأمرين دائمـا استمر العداء بينهم وبين اليمنيين مما سيجعلهم يلجأون الى الصلح لتفادى هذه المقاومة الضارية ٠ ولقد قال توفيق على برو : « وقد حدثني عزيز باشا المصري ، خلال مقابلتي له في القـاهرة ، عن ضراوة اليمنيين في القتال واستبسالهم وفتكهم بالجند العثماني ، حديثا طويلا ، وألح بصورة خاصة

---

(١) Bury, G. W. : Ibid., p. 34.

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١١٧ ٠

على قضية قطع المياه عنهم اذ كان لها أثرها الحاسم على موقف الجيش » (١) ، بل زاد من اقتناع الأتراك العثمانيين بحاجتهم الى الصلح والمهادنة مع الثوار اليمنيين ذلك الفشـــل الذريع الذى منيت به حملتهم التى قادها والى اليمن العثمانى محمد على باشا ــ بعد دخول عزت باشا مدينة صنعاء ــ لمحاربة الامام يحيى فى المنطقة الشمالية ، واضطر الأتراك بعد هزيمتهم أن يعودوا الى صنعاء دون أن يحققوا أية نتائج تستحق الذكر (٢) • وقد تجمعت كل هذه الأسباب الى جانب عوامل أخرى سنخوضها فيما بعد لتدفع الدولة الى التفكير جديا فى عقد الصلح مع الامام يحيى كوسيلة لحل القضية اليمنية ولاقرار الأمور فى الولاية الثائرة •

---

(١) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ •

(٢) Wavell, A.J.B. : Op. cit., p 285.

الفصل الخامس

موقف العثمانيين فى اليمن
فى أعقاب الصلح مع الامام يحيى
(١٩١١ - ١٩١٤)

اولا - الصلح بين الدولة العثمانية والامام يحيى فى سنة ١٩١١ ٠

ثانيا - موقف القوى المحلية فى اليمن من العثمانيين فى أعقاب الصلح مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١ ٠

ثالثا - اتفاقات الحدود بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى جنوب اليمن ٠

موقف العثمانيين فى اليمن فى أعقاب الصلح مع الامام يحيى (١٩١١ ـ ١٩١٤)

أولا ـ الصلح بين الدولة العثمانية والامام يحيى فى سنة ١٩١١

تبينا فى نهاية الفصل السابق أن الدولة العثمانية اضطرت فى سنة ١٩١١ الى اختيار طريق الصلح والمهادنة مع الثوار اليمنيين بعد أن تأكدت من خطل سياسة القهر والقمع والاخضاع الحربى كوسيلة لاقرار الأمور فى اليمن ، خاصة بعد أن ذاق جنودها الأمرين فى أثناء الحروب والمعارك العنيفة التى التحموا فيها مع رجال القبائل اليمنية العاتية . وقد ساعد الدولة على أن تنحو هذا الاتجاه السلمى عدد من خيرة الرجال العثمانيين الذين أخلصوا فى أداء واجبهم نحو « دولتهم العلية » من جهة ، ونحو رعاياهم واخوانهم أبناء العروبة من جهة أخرى . وكان على رأس هؤلاء وأكثرهم فاعلية القائد العثمانى أحمد عزت باشا الذى ساعدته مقدرته العسكرية والادارية وذكاؤه الفطرى وفصاحته وبلاغته واخلاصه فى أداء واجبه على أن يختار طريق الصلح وسيلة لاقرار الأمن والسلام فى ربوع ولاية اليمن العثمانية . وقد بذل عزت باشا جهوده المثمرة لاقناع المسئولين فى الآستانة من جهة (١) ، والامام يحيى وأتباعه من جهة أخرى ، بضرورة عقد الصلح بين العثمانيين واليمنيين ، ضمانا لمصلحة الجانبين (٢) ، وابقاء على العلاقات التاريخية والاسلامية ذات الجذور العميقة بينهما . وسوف نعرض فيما يلى المراحل التمهيدية لعقد الصلح بين الدولة العثمانية والامام يحيى فى سنة ١٩١١ قبل أن تقوم بدراسة وثيقة الصلح ذاتها والنتائج التى ترتبت عليها .

---

(١) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 16.

(٢) Jacob, H.F. : Kings of Arabia, p. 121.

العوامل المهدة لعقد الصلح بين العثمانيين والامام يحيى :

كانت الدولة العثمانية قد منحت قائدها في اليمن احمد عزت باشا صلاحيات وسلطات واسعة لاتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لاقرار الأمور في الولاية . فرأى عزت باشا بما تحلت به أخلاقه من شجاعة أدبية ضرورة الاجتماع مع الامام الزيدى للتفاوض فى الأمور المتعلقة بعقد الصلح ، وقد توجه عزت باشا وبرفقته حاشية صغيرة قاصدا الامام يحيى فى قرية « دعان » التى أحاط بها آلاف من الجنود الزيديين الذين كانوا يهتفون بحياة امامهم فى مظاهرة عسكرية متعمدة لاظهار قوتهم أمام ممثلى الدولة العثمانية . وقد اختيرت قرية دعان هذه ، وهى قرية صغيرة تقع على قمة جبل فى الشمال الغربى من عمران ، لتكون مقرا للاجتماع بين الامام يحيى وعزت باشا لتوسطها بين منطقتى نفوذ الامام فى الشمال فيما حول صعدة ونفوذ الأتراك فى الجنوب فيما حول صنعاء . وقد أعد الامام يحيى منزلا بالقرية المذكورة لاقامته ، كما جهز منزلا آخر لاقامة عزت باشا فى أثناء المفاوضات . ويعرض الواسعى صورة واضحة المعالم لهذا اللقاء الدبلوماسى بين ممثلى الجانبين اليمنى والعثمانى فى قرية « دعان » اليمنية فيقول : « وقد جمع الامام بعض قواده ورجاله الى هذا المحل (دعان) مع عشرات الألوف من العساكر ، وخرج عزت باشا ومعه جملة من أركان الدولة من العرب والترك منهم القاضى العلامة عبد الله بن حسين العمرى . ولما وصل عزت باشا ومن معه الى عمران ، أطلقت المدافع من القلعة فرحا لاستقباله لهذا السعى العظيم الذى فيه حياة أمتين ، عربية وتركية . وكان الامام قد وصل الى دعان قبل وصول عزت باشا ، وقد أرسل الامام لاستقبال عزت باشا جملة من رؤساء القبائل والمشايخ ، ولما كان بينهم وبين دعان ساعة ونصف ، استقبلهم ألوف من العساكر وهم يطلقون بنادقهم فى الفضاء ، وهى علامة التحية ، وهم ينشدون الأناشيد الحربية الحماسية وفيها المدح للامام وللدولة وللوطن ، وتسمى بعرف اليمن « الزامل » ، والشجاعة تلوح على وجوههم ، وقد عم الناس الفرح والسرور لما رأوا فى الصلح من حقن للدماء وحفظ الأموال وتأمين السبل ودفع الأهوال » (١) .

ويستطرد الواسعى قائلا انه عقب وصول عزت باشا الى دعان وكان يوم وصوله يوافق يوم الجمعة فقد « خطب الخطيب خطبة بليغة تليق بهذا المعنى ، فيها الثناء على الله ورسوله والشكر على الاتفاق وجمع الكلمة ، وحث الناس على الاتفاق وعدم الافتراق ، وذكر الآيات والأحاديث فى ذلك » . ثم يضيف

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط ٢ ص ٢١٩ .

الواسعى موضحا أحداث ذلك اليوم التاريخى الذى عقد فيه الصلح قائلا : « وبعد ساعتين قصــد عزت باشا المنزل الذى نزل فيه الامام ، وحول الباب ثلة من العساكر وقوفا حاملين السلاح ، ثم بعد السلام وتبادل التحية وطيب الكلام وقع الامضاء من الطرفين على شروط (الصلح) » (١) ٠

وكان للقــائد العثمانى عزت باشا ممثل الدولة فى مفاوضات الصلح مع الامام يحيى هيئة أركان حرب مؤلفة من عدد من الرجال المخلصين الممتازين ٠ وعلى الرغم من أن هؤلاء جميعا كانوا من رجال السلك العسكرى العثمانى ، فقد كانوا يتمتعون بخبرة واسعة فى المجالين الادارى والسياسى مما ساعدهم على النجاح فى أداء مهمتهم على خير وجه ٠ وكان على رأس هذه الهيئة عصمت باشا الذى سيسطع نجمه عندما يصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية ٠ كما كانت الهيئة تضم عضوين من خيرة ضباط العرب فى الجيش العثمانى هما عزيز على المصرى وسليم الجزائرى اللذين لعبا دورا خطيرا فى انجاح المفاوضات التى انتهت بعقد الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية (٢) ٠ ويلقى لنا ضوءا على الدور الذى قام به عزيز المصرى خاصة ذلك الحديث الذى دار بين أحد الضباط الأتراك وبين مندوب جريدة « المفيد » البيروتية والذى نقلته « المنار » ، فقد قال الضابط التركى : « التحق عزيز بك المصرى بحملة اليمن وفى النية أن يوفق بين عزت باشا والامام يحيى حقنا للدماء ٠ وهذه العاطفة التى وجدها عزيز بك فى قلب عزت باشا سهلت عليه سبيل الاتفاق مع الامام ٠ وعزيز بك هو بطل هــذا الاتفاق ، وأؤكد لكم أن هذا البطل هو من أصدق الرجال الذين خــدموا الدولة والأمة معــا ، فان خوفه على دولته من الانقراض لاشتغالها عن الأمور الخارجية بتجريد الحملات على أبنائها ، وحبه بقاء العرب ذخرا للدولة تستصرخهم عند الحاجة ، حملاه على عقد الاتفاق ٠ وقد تمكن بطلاقة لسانه من اقناع الامام بأن القتال اذا استمر بينه وبين الدولة فان الأجانب الذين يتربصون بنا الدوائر سوف يستولون على هذه البلاد ، وعلى هذه الفكرة بنى أساس الاتفاق بين عزت باشا والامام يحيى » (٣) ٠

على أن ما ذكره هذا الضابط التركى لمندوب جريدة « المفيد » البيروتيه كان يعبر عن الروح التى سادت هيئة أركان حرب عزت باشا ، وليس تعبيرا عن دور العضــوين المذكورين فحسب ، مما سيؤدى فى نهاية المفاوضات الى عقد الصلح بين الجانبين العثمانى واليمنى ٠ كمــا كان من بين مرافقى عزت باشا

---

(١) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ ٠

(٢) أمين سعيد : اليمن تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى ، ص ٣١ ٠

(٣) المنار : المجلد ١٥ ، ج ٢ ، ١٨ من فبراير ١٩١٢ (أول صفر ١٣٣٠ هـ) ، ص ١٥٣ — ١٥٤ ٠

شخصية هامة ذات أثر فعال في تاريخ اليمن الحديث لم يقتصر على الفترة التي خضعت فيها اليمن للحكم العثماني ، بل استمر بعد استقلال اليمن في عهد الامام يحيى ، تلك هي شخصية محمود نديم بك السوري الأصل والذي كان يجيد اللغة العربية بطبيعة الحال • وقد اعتمد عليه عزت باشا كل الاعتماد في أثناء مفاوضاته مع الامام يحيى ، كما كلفه بادارة اليمن نيابة عنه (١) في أثناء ذهابه الى استانبول لعرض شروط الصلح على الباب العالي والحصول على موافقته ، فقام نديم بمهمته في الولاية في أثناء غياب عزت باشا على خير وجه •

والى جانب الدور الذي قام به عزت باشا ورجاله للاتفاق مع الامام يحيى على شروط الصلح كانت هناك مجهودات تبذل خارج ولاية اليمن وفي عاصمة الدولة العثمانية ذاتها من أجل حل القضية اليمنية • واذا كان فريق من العثمانيين قد آمنوا بمنطق القوة وسيلة لاقرار الأمور في اليمن ، فقد كان فريق آخر ينادي باتباع الوسائل السلمية وبذل الجهود للاتفاق مع الامام ، والالتقاء مع مطالب الشعب اليمني • وقد تمثل هذان الاتجاهان في الصراع الحزبي الدائر في « مجلس المبعوثان » العثماني ، فأثيرت المناقشات وقدمت المشروعات تبعا لاقتناع كل فريق بفكرته وسياسته لحل المسألة اليمنية • وتتلخص اتجاهات أحزاب المجلس الثلاثة فيما يلي :

١ – حزب الاتحاد والترقي ، الذي كان يمثل أغلبية المجلس وبالتالي كان يتمتع بأكبر قدر من النفوذ نتيجة لتحكمه في انتخاب أعضاء الوزارة ورجالات الدولة • وسبق أن عرضنا موقف هذا الحزب من قضية اليمن وتمسكه بسياسة الاخضاع قبل الاصلاح ، فوجهت في عهده الحملات المتتالية لاخماد ثورة اليمن ، مما كلف الدولة – دون جدوى – كثيرا من الأرواح والأموال •

٢ – الحزب الحر الائتلافي ، وكان معظمه من العرب والألبان ، فكان ينادي بالحرية والمساواة للعناصر المختلفة في الامبراطورية العثمانية ، كما كان يؤمن باللامركزية الادارية • وكان يفتقر هذا الحزب للنظام المحكم مما حال دون تزايد أعضائه وبلوغه المكانة التي يقتضيها برنامجه الثوري وتستحقه خطته التقدمية • وعلى الرغم من أن هذا الحزب لم يصرح برأيه مفصلا عن المسألة اليمنية ، فقد كان يفهم اتجاهه الاصلاحي من مجمل برنامجه السياسي العام الذي نشر عند تأسيس الحزب • على أن موقفه كان يتضح جليا في معارضته للحكومة في المجلس ومساءلتها عن أحوال اليمن ومناقشتها في المشروعات الخاصة بحل القضية اليمنية •

---

(١) السيد مصطفى سالم : تكوين اليمن الحديث ، اليمن والامام يحيى (١٩٠٤ – ١٩٤٨) ، ص ١٢٣ – ١٢٤ •

٣ – حزب الأهالى ، الذى كانت أغلبيته من الأتراك الاتحاديين الذين انفصلوا عن حزب الأكثرية فى عام ١٩١٠ ، وكان يعضدهم بعض الأتراك الذين تمسكوا بحيادهم • وكان هذا الحزب منظما فعالا يضم أعضاء تمرسوا عمليا على الأساليب البرلمانية والجدل السياسى مما جعله أكثر فاعلية من الحزب الثانى ، وان اتجه الحزبان بصفة عامة الى المعارضة • فقد كان لحزب الأهالى مواقف عملية بالنسبة لقضية اليمن ، وكثيرا ما تقـــدم بمشروعات ايجابية مدروسة لحل القضية • وقد نشر لطفى بك فكرى أحد رجال هذا الحزب البارزين فى جريدة « اقدام » التركية ، بيـــانا عن المسألة اليمنية ، نقلته عنها جريدة « المؤيد » المصرية ، تضمن لائحة بقانون أراد عرضها على « مجلس المبعوثان » لتكون أساسا يبنى عليه شكل الادارة فى اليمن • وكان رأيه أن الدولة تتبع وسائل التخدير والحلول الوقتية فى حل هذه المسألة • ولكنه نصح بأن « يترك تنظيم النظامات القانونية لولاية اليمن نفسها » ، ويقول : « ان هذا أجدى لأنه يلازم الواقع ويتجاوب معه باستمرار عن كثب » •

ثم أخـــذ لطفى بك فكرى يشرح النظـــام الادارى الذى رآه مناسبا لليمن فقال : « والطريقة الادارية التى استحسنها فى هذا القانون تدور حول تعيين وال على اليمن من الآستانة تكون له سلطة واسعة ، وهو يناظر على مجلس عمومى يعقد فى مركز الولاية مؤلفا من سادات القبائل ومشايخها وفقائها ، ومن مندوبى البلاد اليمانية ، ويعهد الى هذا المجلس العمومى بسن تلك القوانين الخاصة بالولاية ، وأوجه جباية الأموال اللازمة للحكومة ، وعلى مركز السلطنة أن يسد عجز ميزانيتها اذا كان ثمة عجز ، أو يأخذ زيادة وارداتها اذا توافرت الزيادة • واشترط لأجل الاطمئنان على عثمانية الولاية أن تصدر ارادة سنية سلطانية مصدقة على قانون يختص باليمن • وأرى أن هذا القانون اذا أحسن تطبيقه والعمل به لا يلبث بضع سنين حتى يأتى بالثمرات المطلوبة » • ثم سرد لطفى بك فكرى عضو حزب الأهالى المعارض التنظيمات المختلفة التى اقترحها بشـــأن ادارة الولاية والمجلس العمومى والشئون الماليـــة والمعـــارف والأمن والعدل (١) ، وكلها تتجه الى تطبيق سياسة اللامركزية الادارية وتمثل جميعها مشروعا تقدميا لحل قضية اليمن بالطرق السلمية •

تلك كانت اتجاهات الأحزاب العثمانية الثلاثة فى « مجلس المبعوثان » ومواقفها المتباينة ازاء القضية اليمنية • أما عن موقف الحكومة العثمانية نفسها فقد تبلور أخيرا فى تشكيل « لجنة اصلاح اليمن » بعد اخفاق أسلوب استخدام القوة وحـــدها لحل القضية اليمنية • اذ قرر مجلس النظار العثمانى تأليف لجنة

---

(١) المؤيد : العـــدد ٦٣٠٨ ، الثـــلاثاء ٧ من مارس ١٩١١ (ربيـــع الأول ١٣٢٩ هـ) ، ص ١ ، ٢ •

لدراسة مسألة اليمن ، وتقديم الاقتراحات أو التوصيات والمشروعات لحل هذه القضية • وقد عهد برياسة هذه اللجنة الى توفيق بك رئيس دائرة المالية فى شورى الدولة ، وكان قبل ذلك واليا على اليمن عندما سقطت صنعاء فى يد الامام يحيى (١٩٠٤ ــ ١٩٠٥) ، أما أعضاء اللجنة « فهم سماحة الشيخ محمود أسعد أفندى ناظر الدفتر الخاقانى ، وفريد باشا رئيس دائرة المشاة ، واسماعيل حقى رئيس دائرة اللوازم العسكرية ، وغالب بك مدير الأمن العام ، وعبد المجيد بك محاسب صندوق التقاعد العسكرى » • وكان لهذه اللجنة حق استدعاء مبعوثى اليمن عند الحاجة لأخذ معلوماتهم عن اليمن والحالة فيها ، وعقد أول اجتماع لهذه اللجنة يوم الأحد ١٩ من مارس سنة ١٩١١ ، وكان عليها أن تقدم ما تصل اليه الى وزارة الداخلية (١) •

وقد انضم الى هذه اللجنة بعد ذلك بعض الأعضاء الجدد مثل الفريق يوسف باشا • وكان يعمل من قبل قائدا فى اليمن فكانت لديه خبرة عن أحوال الولاية • وقد عبر الشيخ محمود أسعد « أفندى » أحد أعضاء اللجنة النقابية عن هدفها والمنهج الذى تتبعه لدراسة القضية اليمنية وذلك فى التصريح الذى أدلى به الى محرر جريدة استامبول الفرنسية ــ ونقلته عنها جريدة المؤيد ــ بقوله : « ان الادارة التى تضع الآن خطة للجرى عليها فى اليمن ليست من قبيل الاستقلال الادارى ، وان كانت ذات سلطة واستقلال أوسع من سائر الولايات واستقلالها » • ثم أضــاف قائلا : « ان اللجنــة ستطلع على جميع المستندات والتقارير المقدمة سابقا ، مثل تقرير حسين حلمى باشا الصدر الأعظم السابق ، وبعض الآراء المفيدة مثل رأى فيضى باشا الذى مكث طويلا فى اليمن • وأن اللجنة ستبدأ المداولة فى هذا الشأن فى ٢٧ من مارس ١٩١١ » (٢) •

وجدير بالملاحظة أن هذه اللجنة شكلت وبدأت أولى جلساتها وشرعت فى العمل لحل القضية اليمنية بالطرق السلمية فى الوقت الذى اتجهت فيه حملة عزت باشا الى اليمن لاخماد ثورتها بالقوة والقمع الحربى • فقد وصل عزت باشا الى الحــديدة فى شهر فبراير سنة ١٩١١ ، ثم زحف الى صنعاء وفك حصارها فى أوائل شهر أبريل سنة ١٩١١ ، بينما عقدت « لجنة اصلاح اليمن » أولى اجتماعاتها فى الآستانة فى ١٩ من مارس ١٩١١ • وهذا يعنى أن الدولة العثمانية أرادت أن تستعمل فى وقت واحد أسلوبين متناقضين لحل أزمة اليمن ، الأسلوب الحربى والآخر السلمى ، وقد سار كلا الأسلوبين جنبا الى جنب ، بل كان كل

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٢٤ ، الاثنين ٢٧ من مارس ١٩١١ (٢٦ من ربيع الاول ١٣٢٩ هـ) ، ص ٤ •

(٢) المؤيد : العدد ٦٣٢٠ ، الاثنين ٣ من أبريل ١٩١١ (٤ من ربيع الثانى ١٣٢٩ هـ) ، ص ٢ •

متهما مكملا للآخر • فما كان عزت باشا بامكانه أن يحصل على موافقة الباب العالى على الصلح الا اذا كان فى العاصمة تفكير واستعداد لعقد هذا الصلح (١) فالصلح كان التقاء بين أهداف الحملة العسكرية الموجهة الى اليمن وبين المجهودات السلمية التى تبذل لحل القضية اليمنية فى العاصمة العثمانية • ويؤيد هذا الرأى القائل بأن ارسال الجيوش العثمانية الى اليمن كان بغرض الارهاب والتخويف واظهار هيبة الدولة فحسب ، حتى يمكنها عقد صلح مشرف مع الثوار اليمنيين ، لا يترتب عليه اهتزاز مركزها فى ولاياتها العربية الأخرى •

واذا نظرنا الى موقف الجانب اليمنى من الصلح فى سنة ١٩١١ ، نجد أن أكبر ممثل للمقاومة اليمنية ضد الحكم العثمانى وهو الامام يحيى كان يبذل كل الجهود الحربية والسلمية على السواء للوصول الى عقد الصلح مع الدولة والتصافى معها • وقد عرضنا فيما سبق الحروب التى خاضها الامام يحيى ضد الأتراك فى اليمن مستعينا بالقبائل الزيدية والشافعية على السواء التى استطاع أن يجتذبها الى جانبه ويكتسب بينها زعامة وشعبية على حساب ثورتها ضد الادارة العثمانية ، بعد أن أساء بعض موظفيها الى تقاليد اليمن وعاداته ونظمه الموروثة وتدخلوا فى شئون القبائل اليمنية بطريقة أثارت استنكارهم وثورتهم• على أن مطالب الامام يحيى تبلورت أساسا حول « مطالبته برفع ظلم الموظفين الأتراك فى اليمن ، وتخفيض الضرائب التى يبالغون فى فرضها ويشتدون فى تحصيلها حتى فى سنى القحط ونضوب موارد الأرض ، واقامة الشريعة ، وتغيير الموظفين الفاسدين » (٢) • غير أن الامام يحيى كانت له مطالب شخصية أخفاها وراء مطالبته بحقوق الشعب اليمنى وبرفع الظلم والضرائب الواقعة على كاهله وتحكيم الشريعة الاسلامية فى معاملاته ، وكانت هذه المطالب الشخصية تتمثل فى اجبار العثمانيين على الاعتراف بوضعه الخاص كامام لليمن له سلطات زمنية الى جانب ما يتمتع به من زعامة دينية على أتباعه الزيديين • ولا يضير الامام يحيى بعد ذلك أن يعلن ولاءه للسلطان العثمانى وتبعيته للدولة العثمانية وتعلقه وشعبه اليمنى بالخلافة واعترافهم بها ما دامت الدولة تضمن لهم امتيازاتهم الخاصة فى بلادهم (٣) • ذلك ما أفصح عنه الامام يحيى فى الشروط التى عرضها على والى اليمن العثمانى فيضى باشا لعقد الصلح فى سنة ١٩٠٦ دون جدوى ، وهى نفس المطالب التى حواها كتابه المستفيض الى وفد مكة ولم يترتب عليه أى تقدم فى علاقاته مع الدولة •

أما فى سنة ١٩١١ فالامام كان يحاول عن طريق الحرب أن يكسب انتصارات متتالية أمام الأتراك ليجبرهم على النظر الى الصلح نظرة جدية

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٢٨

(٢) Revue du Monde Musulman, Vol. IV, No. 1, Janvier 1908, p. 96.

(٣) Correspondance d'Orient, 4ème Année, 15-2-1911, p. 155.

يعترفون فيها بمركزه الخاص فى اليمن وبحقوق شعبه ومطالبه . فالحرب لم تكن هدفا فى حد ذاتها من وجهة نظر الامام ، بل كانت وسيلة لتحقيق مطالبه . وكان يفضل أن يوفر جهوده فى محاربة الدولة اذا حققت له مطالبه ، وتوجيهها ضد منافسيه من مدعى الامامة الزيدية الذين اعترضوا على امامته وثاروا عليه في فترات مختلفة ، بدأت منذ توليه الامامة واستمرت حتى بعـد توصله الى عقد الصلح مع الدولة في سنة ١٩١١ م . وكان من مصلحة الامام ألا يحارب عدوين ويجابه جبهتين فى وقت واحد ، فكانت رغبته فى مصالحة الأتراك أكيدة حتى يتفرغ للقضاء على منافسيه فى الامامة . هذا فضلا عن أن احساس الامام بقوة الترك الذين كانوا يفوقون قواته عددا وعدة وتدريبا وخبرة ويمثلون احدى الدول الكبرى حينذاك ، هـذا الاحساس الذى لم يقلل من عمقه انتصـاراته المتواضعة على الأتراك بين حين وآخر ، أو تمكنه من دخول صنعاء فى سـنة ١٩٠٥ م ، ثم نجاحه فى حصارها لعدة أشهر فى سنة ١٩١١ م ، فقد كان ذلك انتصاراً على حاميات مجهدة لا تمثل القوة الحقيقية لجنود دولة الخلافة التى كان سرعان ما ينسحب أمامهم الى معاقله الجبلية فى الشمال عندما كانت تتوالى على ولاية اليمن النجدات القوية (١) . واذا كان هذا الانسحاب يعتبر خطة حربية تناسب الموقف ، فان خوف الامام واحساسه بقوة الترك ، هما أمران لا يمكن اغفالهما عند توضيح موقف الامام يحيى فى ذلك الوقت . لهذا كان الامام يحيى يعمل من جانبه من أجل مصالحة الدولة العثمانية القوية ، متبعا فى ذلك الطرق الحربية والسلمية على السواء ، مع حرصه على أن تعترف له الدولة بوضعه الخاص فى اليمن .

ويمكننا أن نضيف الى ما تقدم بالنسبة لموقف الامام يحيى من الصلح مع الدولة العثمانية أن الوضع القبلى للمجتمع اليمنى كان يدفع الامام الى عقد هذا الصلح فى أقرب فرصة ممكنة . ذلك لأن الامام كان يجهد نفسه فى استرضاء القبائل الزيدية المختلفة حتى لا تتخلى عنه وتلتف حول غيره من مدعى الامامة ، كما كان يبذل كل طاقته لاجتـذاب القبائل السنية الى جانبه واغرائهم بالغنائم والأسلاب ليقوى بمساندتهم له على محاربة الأتراك ، وما كان فعل الغنائم بطبيعة الحال دائم التأثير ، بل كان أثرها مؤقتا تكاد تذروه الرياح . ومن هنا ، كان الامام يفضـل أن يصل الى عقد صلح مع الدولة يجنبه استعطاف هؤلاء وأولئك ، خاصة وأن الترك ـ بناء على شروط الصلح ـ كان عليهم أن يدفعوا لهذه القبائل وشيوخها رواتب شهرية متفق عليها ، كان الامام مضطرا من قبل الى توفيرها لهم مهما كلفه ذلك (٢) ، ضمانا لولائهم الذى لم يستمر على حال واحد فترة من الوقت غير قصيرة .

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 70.

وإذا كنا قد أشرنا فيما سبق الى موقف الدولة العثمانية من جهة ، وموقف الامام يحيى من جهة أخرى ، بالنسبة لرغبة الجانبين فى عقد الصلح واقرار السلام فى ربوع اليمن ، فقد كان ثمة عوامل أخرى ذات تأثير فعال لدى الجانبين لعبت دورها فى حملهما على الاسراع بعقد الصلح فى سنة ١٩١١ ٠

أول هذه العوامل هو تدخل بعض المعنيين بالأمر كوسطاء لتقريب وجهات نظر الجانبين اليمنى والعثمانى ، مثل الشريف حسين أمير مكة ، وأحمد العبدلى سلطان لحج ، فقد قام الاثنان بمجهود يذكر فى هذا السبيل ٠ فقد كتب الشريف حسين الى السلطان أحمد فى مارس سنة ١٩١١ يخبره أن عزت باشا وصل على رأس قوات ضخمة لاعادة النظام فى اليمن ، كما أخبره أن الحكومة العثمانية طلبت منه أن يلعب دورا معينا ضد تمرد الادريسى فى عسير ٠ ثم طلب الشريف حسين من السلطان أحمد أن يكتب للامام يحيى بألا يتمادى فى عدائه للترك ، لأن هذا سيعود بالضرر عليه مما قد يحطمه نهائيا فى وقت قريب ، كما أخبره أن الحكومة العثمانية ستهتم بشئون الاصلاح فى اليمن ٠ وكتب الشريف حسين أيضا وبصفة مباشرة الى الامام يحيى يحدثه عن ضخامة القوات العثمانية التى يقودها عزت باشا ، غير أنه ذكره برسالته الثانية كامام دينى وحاول أن يقنعه بأهمية اتحاد المسلمين وخطورة انقسامهم على أنفسهم فى ذلك الوقت الحرج ، وأنه من واجب كل مسلم أن يعضد خليفة الاسلام « ولو بعقال بعيره » وأنه من الجرم أن تبعثر قوى الخليفة فى ميادين جانبية ، وأن هذا ضد العاملين من أجل الدين ، كما أشار الى أن اراقة الدماء تغضب الجد الأعظم وهو النبى عليه السلام ٠ ثم أضاف الشريف حسين فى نهاية خطابه ، أنه هو نفسه على وشك التوجه الى عسير لاخماد ثورة الادريسى ٠ وكان الادريسى فى ذلك الوقت يتلقى العون الحربى من ايطاليا عدوة الدولة العثمانية فى أثناء حروبه ضد الأتراك فى عسير والمخلاف السليمانى بشمالى اليمن ٠

وقد أجاب السلطان أحمد على رسالة الشريف حسين ، ووعده بأنه سيكتب الى الامام يحيى ، وعبر عن فرحه واستبشاره بدخول جيش الباب العالى صنعاء منتصرا وأبدى رأيه فى بقاء القائد التركى العام فى صنعاء حتى لايتجدد القتال بين اليمنيين والأتراك ٠ كما أظهر السلطان أحمد خطورة تقدم الترك الى الشمال تجاه أقاليم الامام يحيى ، لأن ذلك سيثير ضدهم بطبيعة الحال القبائل الزيدية ويحدث تصادما عنيفا بينها فتشتعل من جديد نيران الحرب ويسود الاضطراب فى اليمن ٠ وقد حرص السلطان أحمد فى خطابه الى الشريف حسين على أن يشير الى خصائص الزيديين ، وأن المتاعب التى يثيرونها لن تنتهى الا اذا زالت هذه الأسرة ٠ كما عبر عن اعتقاده بأن الشريف حسين هو خير وسيط بين الأتراك العثمانيين والامام يحيى (١) ٠

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 118-119.

ويتضح من هذا العرض لمساعي الشريف حسين الدور الذي قام به للتقريب بين الجانبين العثماني واليمني لعقد الصلح بينهما . فقد استعمل الشريف حسين مع الامام يحيى أسلوب الترهيب عندما ذكره بضخامة القوات التركية ومناعتها ، كما استعمل معه أسلوب الترغيب عندما ذكره برسالته الدينية السامية وبأهمية الوحدة الاسلامية وضرورتها (١) .

أما العامل الثاني الذي كان ذا أثر فعال في الاسراع بعقد الصلح بين الأتراك العثمانيين والامام يحيى في سنة ١٩١١ الى جانب تدخل المعنيين بالأمر للوساطة بين الجانبين ، هو هجوم ايطاليا على طرابلس الغرب بعد أن ضربتها بالقنابل من البحر وأنزلت جنودها الى الشاطيء في صباح اليوم الأول من أكتوبر سنة ١٩١١ م ، ثم احتلت معظم مدنها في خلال عشرين يوما . وكانت طرابلس الغرب ولاية عثمانية نائية محصورة بين مصر المحتلة من الانجليز وبين تونس المحتلة من الفرنسيين في ذلك الوقت ، بينما كانت المواصلة بينها وبين سائر أقسام الممالك العثمانية لا تتم الا بالطرق البحرية الطويلة والملتوية ، ولم تكن الدولة قد استطاعت أن تؤسس خطا ملاحيا واحدا يضمن هذه المواصلة ولو في الشهر مرة واحدة . وكانت ايطاليا تطمع في امتلاك واستعمار طرابلس الغرب منذ العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، غير أنها كانت تخشى تدخل الدول الأوربية لمنعها عن تحقيق غايتها . وأخيرا استطاعت ايطاليا بواسطة عقد بعض الاتفاقيات مع هذه الدول أن تحصل على الاعتراف بحقها في طرابلس من بريطانيا مقابل مصر ، ومن فرنسا مقابل مراكش ، ومن روسيا مقابل المضايق ، كما حصلت على الاعتراف من ألمانيا والنمسا دون تعويض معين ، ولكنه في نطاق اتفاق عام ، يشمل جميع العلاقات الخارجية الأساسية . بل ان طائفة من هذه الاتفاقيات ضمنت لها التأييد والمساعدة عند الاقتضاء(٢) . كما سعت ايطاليا من جهة أخرى الى بسط نفوذها على تلك البلاد عن طريق توسيع العلاقات التجارية معها ، وانشاء المؤسسات الاقتصادية والثقافية فيها . وكانت القوة العثمانية المرابطة في طرابلس الغرب عبارة عن بضعة آلاف من الجنود العثمانيين ، بل ان بعض الكتاب يقولون انها كانت أقل من ثلاثة آلاف . ذلك لأن الحكومة كانت قد سحبت قسما من القوات العسكرية المخصصة لتلك الولاية ، وأرسلتها الى اليمن ، بغية محاربة الامام يحيى وارغامه على الاستسلام . وهكذا كان الجيش المرابط في الولاية قليل العدد وقليل العتاد ، وما كان في

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

(٢) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، ص ١٧٧ .

امكان الدولة أن ترسل اليها قوة عسكرية جديدة ، لحرمانها من أسطول يستحق الذكر ، فوقعت طرابلس الغرب فريسة فى يد ايطاليا (١) ٠

ومن الملاحظ أن الدول الأوربية تطبيقا لخطتها الاستعمارية فى مؤتمر برلين الذى عقد فى سنة ١٨٧٨ والتى كانت تهدف منها الى تقسيم أملاك « الرجل المريض » فيما بينها ، لم تثر الاحتجاجات التقليدية ضد ايطاليا عند هجومها على طرابلس الغرب فى سنة ١٩١١ ، كالمحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية أو المحافظة على توازن القوى الدولية وغيرها ، بل ان ايطاليا ضمنت الى جانبها موقف هذه الدول الأوربية بناء على الاتفاقات التى سبق الاشارة اليها ٠ وقد أوضحت جريدة « اللواء » المصرية هذا السكوت غير الحيادى من جانب الانجليز على أعمال ايطاليا الحربية بطرابلس الغرب بقولها انه « فى أثناء الحرب الطرابلسية ، وكانت انجلترا تحتل مصر ، أعلنت انجلترا أن مصر تبقى على الحياد » ٠ وكانت انجلترا تقصد من ذلك أن تحول دون اختراق الترك للأراضى المصرية للوصول الى طرابلس حتى تؤمن جانب الطليان من ناحية مصر ٠ وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كان الانجليز فى أثنائه « يسمحون للطليان بشراء الجمال من عدن على يد وكيل لهم فيها ، وهذا الوكيل يبتاع الجمال من العرب ، دون أن يعلم العرب الى أين ترسل تلك الجمال ، وكانت الحكومة المحلية فى عدن تغض النظر عن شراء الطليان الجمال ، وتأذن لهم بشحنها ٠ فهل يعد هذا خرقا للحياد أم لا ؟ وهل يصح أن يضيق الخناق على العثمانيين فى مصر لحفظ الحياد ؟ ثم تسكت الحكومة الانجليزية عن اختراق الطليان للحياد فى عدن » (٢)٠ وعلى أية حال فقد كان اتفاق الدول الأوربية على تقسيم أملاك الدولة العثمانية فيما بينها من العوامل التى لم تساعد الأتراك على انقاذ مركزهم فى طرابلس الغرب ٠

وقد أدى انهزام الجيوش العثمانية فى طرابلس الغرب ووقوعها فى أيدى الايطاليين الى زيادة نقمة العرب على الحكومة العثمانية ٠ وتقدم نواب طرابلس الى « مجلس المبعوثان » بتقرير مفصل ذكروا فيه براهين عديدة على تهاون الحكومة العثمانية فى اعداد وسائل الدفاع عن بلادهم فى الوقت الذى كانت فيه الأطماع الايطالية معلومة للجميع ٠ كما أوضح النواب العرب فى المجلس أن الخطة التى اتبعتها الحكومة فى معالجة شئون اليمن بالقوة أدت الى اضعاف الحامية العسكرية القائمة فى طرابلس الغرب وسهلت بذلك للطليان سبل الاستيلاء على القطر المذكور ٠ كما أكد النواب العرب خطل سياسة

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر نفسه ، ص ١٨١ ٠

(٢) اللواء : العدد ٣٨٢٢ فى ٥ من مارس ١٩١٢ (١٦ من ربيع الأول ١٣٣٠ هـ) ، ص ٤ ٠

المركزية التي اتبعتها الحكومة العثمانية في حكم ولاياتها مما جعلها ترفض من قبل اقتراحا بتكوين حرس وطني في طرابلس الغرب بعد أن زعمت بأن تكوين جيش محلي هناك قد يؤدي الى انفصال الولاية واستقلالها عن الدولة (١) • حـدث هذا كله في الوقت الذي بدأت فيه الحركات العسكرية من جديد في اليمن لا تؤدي إلى النتائج التي كانت تتوقعها الحكومة ، مما جعلها تدرك في آخر الأمر ضرورة الاتفاق مع الامام لتسوية قضايا اليمن • لهذا أسرع الباب العالي فوافق على الاتفاق الذي عرضه الامام يحيى بعد ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليه ، وقد أشـارت « المؤيد » الى ذلك بقولها : « أعـاد الباب العالي لعزت باشا قائد الحملة اليمانية متن مطالب الاتفاق التي عرضها الامام يحيى . بعد أن عدل الباب العالي فيها بعض التعديل » (٢) •

وهكذا كانت حرب طرابلس الغرب في أواخر سنة ١٩١١ (١٣٢٩ هـ) من العوامل التي ساعدت على اسراع الباب العالي بالموافقة النهائية على اتفاق الصلح الذي عقد بين الامام يحيى وعزت باشا ممثل الدولة العثمانية في اليمن •

وبالاضافة الى العوامل التي أوضحناها والتي ساعدت على تقريب وجهات نظر الجانبين اليمني والعثماني الى عقد الصلح في سنة ١٩١١ ، فاننا لا يمكن أن نغفل الدور الهام الذي قام به القائد العثماني عزت باشا في هذا المجال • ولقد نجح هذا القائد عقب وصوله الى اليمن في احراز الانتصارات العسكرية المتتالية على الثوار اليمنيين حتى اضطر الامام يحيى والقبائل الملتفة حوله من انها حصـارهم لمدينة صنعاء ورحيلهم الى المنطقـة الجبلية الشمالية المحيطة بمدينة صعدة معقل الامامة الزيدية في اليمن على النحو الذي سبقت الاشارة اليه • وكان يهـدف عزت باشـا من ذلك أن يؤكد للامام يحيى قوة الأتراك العثمانيين في اليمن ، ومقدرتهم على مواصلة الحرب ضد الثوار ، واستعداداتهم الهائلة لتدعيم الحكم العثماني في الولاية والقضاء على كل تمرد • كما كان يريد أن يشعر الامام أنه على الرغم من سيطرة العثمانيين على زمام الموقف فانهم على استعداد للتفاهم من أجل الاتفاق على شروط الصلح بما يحقق للولاية الأمن والسلام • وعزت باشا بتصرفه هذا كان يحفظ للدولة العثمانية كرامتها وعلو مكانتها في احدى ولاياتها الثائرة ، مظهرا أن الدولة لم تلجأ الى الصلح مع الإمام ضعفا منها واستسلاما ، بل فعلت ذلك وهي مسيطرة على زمام الأمور في الولاية ، راغبة في المحافظة على الأمن والسلام • وكان يقصد عزت باشا ألا يؤدي هذا الصلح الى اهتزاز مركز دولته في اليمن أو في ولاياتها الأخرى على السواء التي كانت تطالب في الوقت نفسه بالأخذ بمبدأ اللامركزية •

---

(١) ساطع الحصري : المصدر السابق ، ص ١٣٢ •

(٢) المؤيد : العدد ٦٤٦٨ ، الخميس ١٤ من سبتمبر ١٩١١ (٢١ من رمضان ١٣٢٩) ، ص٢

واذا كان عزت باشا قد أكد بانتصاراته العسكرية قوة العثمانيين ليحصل على اتفاق مشرف مع الامام يحيى يحفظ للدولة مكانتها فى اليمن ويهيىء الأمن والسلام للولاية ، فانه لجأ بعد ذلك الى طريق سلمى قوامه المفاوضات والاتصالات الشخصية التى قام بها بنفسه ، وساعده فيها هيئة أركان حربه التى كانت تضم نخبة من الرجال الممتازين المتخصصين الذين أزالوا كل العقبات ومحوا الخلافات ، فكان للجهود التى بذلها عزيز بك المصرى فى التقريب بين وجهات نظر الامام والدولة ، ولحسن تفهم عزت باشا للوضع القائم ، ولوثوق اليمنيين بهذا القائد العثمانى أثره الكبير فى الوصول الى عقد الصلح (١) . ويذكر توفيق على برو فى هذا المجال « ولقد استنتجت من حديثى مع الفريق عزيز باشا المصرى أن سيادته تمكن من اقناع الامام ، بعد مقابلات كثيرة معه ، بوجوب عقد الصلح ، من خلال التأثير عليه بالعاطفة الدينية التى استثارها فى نفسه » (٢) .

وفضلا عن اظهار القوة العسكرية العثمانية واستعراضها فى اليمن من جهة ، واستعمال أسلوب المفاوضات والاتصالات الشخصية من جهة أخرى فقد استخدم عزت باشا وسيلة ثالثة كانت تناسب الموقف الى حد كبير ، وكان قوامها الهدايا التى قدمها الى الامام الزيدى وأتباعه من أجل الوصول الى عقد صلح مشرف للدولة يحفظ لها مصالحها فى الولاية وسمعتها ومركزها العام فى الخارج . ولقد ذكر « جاكوب Jacob » الذى كان من أهم الشخصيات الانجليزية فى حكومة عدن الذين عاصروا هذه الفترة ودرسوا أحداث المنطقة وكتبوا عنها — أن كثرة ما أنفقه عزت باشا على الهدايا من أجل الوصول الى عقد الصلح دعا رؤساءه فى الآستانة الى اتهامه بالاسراف والتبذير . ثم برر جاكوب تصرف عزت باشا بأنه كان مناسبا فى مجتمع كان من مثله العليا « تهادوا تحابوا » ، وان عزت باشا استطاع عن طريق الهدايا التى قدمها الى الامام وأتباعه أن يقرب كثيرا من وجهات النظر المتباينة (٣) . كما أكد ذلك أيضا الصحفى والأديب العربى الرحالة أمين الريحانى بقوله « وقد كان عزت باشا كريما جوادا فاستغوى العرب بالمال » (٤) . وكانت الحروب المستمرة وما ترتب عليها من خراب ودمار وقحط وفاقة وغلاء للأسعار الى جانب ما يتحمله الأهالى من ضرائب مرتفعة ، ازدوجت أحيانا عندما كان يحصلها الترك من جهة والامام من جهة أخرى ، من الأسباب التى أدت الى تأثر اليمنيين بمن يلوح لهم ببريق المال ، بينما كانوا فى أشد الحاجة اليه كحاجتهم الى الأمن

(١) المنار : مجلد ١٥ ، ج ٢ ، فى ١٨ من فبراير ١٩١٢ ، ص ١٥٣ .
(٢) توفيق على برو : العرب والترك فى العهد الدستورى (١٩٠٨ — ١٩١٤) ، ص ١٥٣ .
(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 121.
(٤) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ١٣١ .

والسـلام • وقد أحسن عزت باشا استغلال عامل الهدايا للتأثير على الامام يحيى وأتباعه للوصول الى تحقيق غايته بعقد الصلح فى نطاق الشروط التى قبلتها الدولة ، وذلك للحفاظ على مكانتها فى اليمن وعلى مركزها أمام الرأى العام فى أرجاء الامبراطورية العثمانية وخارجها •

اتفاقية الصلح بين العثمانيين والامام يحيى فى سنة ١٩١١ :

بعد انقضاء تلك المراحل التمهيدية التى أشرت اليها فيما سبق فقد تم عقد الصلح فى قرية « دعان » اليمنية بين القائد العثمانى عزت باشا وبين الامام يحيى فى ٩ من أكتوبر سنة ١٩١١ وذلك لاقرار الأمن والسلام وانتظام الأمور فى بلاد صنعاء ، عمران ، حجة ، كوكبـان ، حجور ، آنس ، ذمار ، يريم ، رداع ، حراز ، تعز ، التى يقطنها الزيديون الذين هم تحت ادارة الدولة « على حد تعبير الواسعى » (١) **وقد تضمنت هذه الاتفاقية البنود التالية :**

١ ـ ينتخب الامـام حكاما لمذهب الزيدية وتبـلغ الولاية ذلك وهذه تخبـر الآستانة لتصدق المشيخة على ذلك الانتخاب •

٢ ـ تتشكل محكمة استئنافية للنظر فى الشكاوى التى يعرضها الامام •

٣ ـ يكون مركز هذه المحكمة صنعاء وينتخب الامام رئيسها وأعضاءها وتصدق على تعيينهم الحكومة •

٤ ـ يرسل الحكم بالقصاص الى الآستانة للتصديق عليه من المشيخة وصدور الارادة السنية به وذلك بعد أن يسعى الحاكم فى التراضى ولا يفلح ولا ينفذ الحكم الا بعد التصديق عليه وصدور الارادة بشرط ألا يتجاوز أربعة أشهر •

٥ ـ اذا أساء أحد المامورين (الحكام والعمال) الاستعمال فى الوظيفة يحق للامام أن يبين ذلك للولاية •

٦ ـ يحق للحكومة أن تعين حاكما للشرع من غير اليمانيين فى البـلاد التى يسكنها الذين يتمذهبون بالمذهب الشافعى والحنفى •

٧ ـ تتشكل محاكم مختلطة من حـكام الشافعية والزيدية للنظر فى دعاوى المذاهب المختلفة •

٨ ـ تعين الحكومة « محافظين » تحت اسم « مباشرين » للمحاكم السيارة التى

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ • ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ •

تتجول في القرى لفصل الدعاوى الشرعية ، وذلك دفعا للمشقات التي يتكبدها أرباب المصالح في الذهاب والاياب الى مراكز الحكومة ·

٩ — تكون مسائل الأوقاف والوصايا منوطة بالامام ·

١٠ — الحكومة تنصب الحكام للشافعية والحنفية فيما عدا الجبال ·

١١ — صدور أمر عفو عام عن الجرائم السياسية والتكاليف والضرائب الأميرية التي سلفت ·

١٢ — عدم جباية التكاليف الأميرية لمدة عشر سنوات من أهالي « أرحب » و « خولان » ، لفقرهم وخراب بلادهم وارتباطهم التام بالحكومة ·

١٣ — تؤخذ التكاليف الأميرية بحسب الشرع ·

١٤ — اذا حصلت الشكوى من جباة الأموال الأميرية لحكام الشرع أو للحكومة فعلى هذه أن تشترك مع الحكام في التحقيق وتنفذ الحكم الذي يحكم به عليهم ·

١٥ — يحق للزيدية تقديم الهدايا للامام اما توا واما بوساطة مشايخ الدولة أو الحكام ·

١٦ — على الامام أن يسلم عشر حاصلاته للحكومة ·

١٧ — عدم جباية الأموال الأميرية من (جبل الشرق) (١) لمدة عشر سنوات ·

١٨ — يخلى الامام سبيل الرهائن الموجودين عنده من أهالي صنعاء وما جاورها وحراز وعمران ·

١٩ — يمكن لمأموري الحكومة وأتباع الامام أن يتجولوا في أنحاء اليمن بشرط ألا يخلوا بالسكينة والأمن ·

٢٠ — يجب على الفريقين ألا يتعديا الحدود المعينة لهما بعد صدور الفرمان السلطاني بالتصديق على هذه الشروط ·

وبناء على هذه الاتفاقية عين الامام يحيى حكاما وكتابا للمراكز والنواحي ونظارا للوقف الداخلي والخارجي وللوصايا (٢) ·

وعقب عودة عزت باشا والوفد العثماني المرافق له الى صنعاء أمر بأن يجتمع سكان المدينة في الميدان الفسيح الواقع أمام مقر حكومة الولاية وأذيع

---

(١) (جبل الشرق) هو مخلاف من مخاليف (آنس) وقد عانى أهله من الفقر بعد أن خربت منازلهم نتيجة للحروب الكثيرة ·

(٢) الواسعي : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٠ ·

عليهم نبأ عقد الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية وتوقيع الاتفاق الخاص بذلك ٠ وقد ألقى مفتى الولاية الشيخ على بن حسين المغربى خطابا هاما فى جموع الأهلين من سكان المدينة الذين احتشدوا فى الميدان ، أشاد فيه باتفاق الامام يحيى مع عزت باشا على الصلح بنـاء على رغبـة السلطان العثمـانى وبالجهود المشكورة التى بذلها كل منهما حتى تم توقيع الاتفاق ورحب بالاتحاد بين اليمنيين واخوانهم العثمانيين ودعا الى نبذ الشقاق والأحقاد وقال : « هذا ، وأنه بحمد الله تعالى قد قام بنصيحة الاسلام والمسلمين وبذل سعيه فى رضاء رب العالمين ، حضرة صاحب الدولة الأفخم وملاذ العز الشامخ الأتم (أحمد عزت باشا) أناله الله من الخير ما يشاء ٠ وقابل سعيه الحميد بالقبول مولانا الامام (يحيى) المتوكل على الله رب العالمين نجم آل الرسول لابرح بدرا لا يعتريه أفول فوفقهما الله لما فيه صلاح العباد وهو ان شاء الله تعالى نهج بين السداد ٠ فعند ذلك زالت عن قطر اليمن المحن وقرت عيون طالما نفر عنها الوسن ، فيا لها من نعمة بها الاسلام كل يوم فى ازدياد ، ومنه انتظم بها شمل الاتحاد ٠ وتم ذلك بالارادة السنية من مولانا سلطان العرب والعجم سلطان الملة الأحمدية وحامى حرم الله والشريعة المحمدية أعزه الله بعزة الاسلام وأهلك به الكفرة الطغام ٠ فلله الحمد على هذه النعم وله الشكر على دفع النقم (١) ٠

وجدير بالذكر أن أهالى صنعاء استقبلوا خبـر الصلح بالفرح والابتهاج وعبروا عن فرحهم هذا عندما أذيع الفرمان السلطانى عقب صدوره فى سبتمبر سنة ١٩١٣ معلنا تحالف الامام يحيى مع الدولة العثمانية ، « فسار الأهالى فى الشوارع مهللين يطلقون نيران بنادقهم ابتهاجا بهذا الفرمان (٢) ٠

وقبل أن نقيم اتفاق « دعان » لنعرف مدى فائدته وأهميته للامام يحيى من جهة وللعثمانيين من جهة أخرى ، فاننا سنقارن بينه وبين مشروع الصلح الذى سحبه طلعت بك من « مجلس المبعوثان » ، فلعل ذلك يلقى مزيدا من الضوء على قيمته لكل من الجانبين اليمنى والعثمانى ، **وقد اوضحت لنا المقارنة الأمور التالية :**

١ – تضمن المشروع السابق تفويض الولاية الى الامام (المادة الثـانية) ، وأغفل الاتفاق الحالى الاشارة الى ذلك ، بل يستدل من ثنايا سطوره أن الوالى يظل تركيا ٠

٢ – أشار المشروع السابق (*) الى تفويض متولى زمام الادارة فى الولاية (أى الامام) تفويضا تاما بتعيين القضاة ، بالاضافة الى العمال والمأمورين

---

(١) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٢٢٠ – ٢٢٢ ٠

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 38.

(*) ص ٢٢٥ ٠

وتعيين رجال الدرك ٠٠ بينما المشروع الجديد لا يفوضه الا بتعيين الحكام لتطبيق أحكام الشرع أى القضاة فقط ٠

٣ – ظهرت أفضلية المشروع السابق بوضوح عندما فوض الولاية بالانفاق من الأموال التى تجبيها ، برغم اشتراطه ارسال الرصيد الذى قد يبقى الى مركز السلطنة ، بعد أن يبذل قسم منه فى سبيل الترقيات المحلية (المادة الرابعة) ٠ ولكن الاتفاق الجديد ليس فيه شيء من ذلك الا أن الامام يدفع عشر حاصلاته للحكومة ٠

وهكذا يتضح أن الاتفاق الجديد منصب على ناحية القضاء الشرعى فقط دون أن يشير الى شيء يتعلق بالادارة المدنية ، بل انه ترك التصرف فى هـذه الناحية لمشيئة الامام فيما يخص الزيديين دون غيرهم ، كما أنه قيد تصرفه فى الوقت نفسه بسلطة الآستانة وتصديقها دون أن يحدد مدى هذه السلطة ٠ بل ان نصوص الاتفاق حوت غموضا عميقا يمكن معه استغلالها الى مدى بعيد ، هذا علاوة على ما فى الاتفاق من ازدواج سلطة الوالى والامام مما لا يمكن معه تجنب نشوب الخلاف ٠ وفى بعض مواد الاتفاق لم يعط الامام أكثر من دور الشـاكى ، بينما أعطى الحق فى الكلمة الأخـيرة لكل من الولاية فيما يخص المأمورين والحكام المسيئين (المادة السادسة) ، وللمحكمة العليا التى يعين الامام رئيسها وأعضاءها ، وللحكومة فيما يختص بالشكاوى المرفوعة من قبل الامام ٠ وليس فى الاتفاق أى نص يحدد موقف الامام ولا حقوقه وصلاحياته فيما اذا رفضت الولاية أو الحكومة تأييد وجهة نظره التى قد تكون محقة كل الحق فلا تأخذ بها لمآرب ما أو غاية فى نفسها (١) أو لأمر تقتضيه مصالحها الخاصة يتعارض مع مصالح الامام وأتباعه ٠

ويهمنا أن نستعرض بعض التعليقات التى نشرت عقب توقيع هذا الاتفاق لما تلقيه من الضوء على مواده المختلفة ٠ فقد نقلت جريدة « المقطم » عن جريدة « التيمس » مقالا نشرته عنها جريدة (المنار) جاء فيه : « عقد الحكومة العثمانية صلحا غير مجيـــد مع الامــام يحيى بعـــدما رشـــت زعماء الثـــورة بالأموال الطائلة ، ووعدتهم بالاصلاح ، فنال الامام بذلك أكثر مما كان يطمع فيه ٠ وثبت فى مركزه حاكما على القبائل الزيدية ، ولم يتغير الحال فيما سوى ذلك عما كانت عليه قبل بدء القتال ٠ فالأتراك يملكون صنعاء ، وقد استرجعوا معظم المراكز التى كانوا يحتلونها فى الماضى ٠ والامام يملك « شهارة » وسائر المعاقل التى كانت له ٠ وقد أطلق الامام أخيرا سراح خمسمائة أسير من الجنود ، ولكنه

(١) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٣٤٢ ٠

لم يعد المدافع التى غنمها فى هذه الثورة ، أو فى ثوراته السابقة • واضطرت الحكومة أن ترسـل خمسـين ألف عسكرى بقيادة عزت باشا ، وهو من أكبر قوادها ، للحصول على هذه النتائج » (١) •

كما علقت جريدة اللواء المصرية على هذا الاتفاق بقولها : « ••• فيستدل من هـذا الاتفاق ، أن الحكومة اعتبرت الامام حاكما مستقلا لا تتعرض للبلاد الواقعة تحت سلطته ، وأنهـا تكفلت له باصـلاح حال الزيديين المقيمين فى بلادها • وقد كتب جـلال نورى بك مقاله فى « الجون ترك » انتقد فيها هذا الاتفاق ، وقال انه لا قوة بعد الآن تمنع الامام من عقد اتفاق مع أية حكومة شاءها بعد هذا الاتفاق الذى عقدته الحكومة العثمانية معه » (٢) •

وفى هذين التعليقين مبالغة واضحة تبعد عن الحقيقة • فقد ذكرت «التيمس» فى المقال الأول أن الصلح الذى عقد بين الامام والدولة كان « غير مجيد » بينما نراه محاولة للالتقاء مع الواقع اليمنى تتصف بالاعتدال ولا تقلل من مكانة الأتراك أو ترفع من شأن الامام الا بالقـدر الذى يخفف من حدة التوتر بين الجانبين • كما نظرت الجريدة الى الأموال التى أعطيت للامام على أنها رشوة ، بينما كانت وسيلة لاظهار الود وتلطيف النفوس ، بعد أن لوح الأتراك للامام بمظاهر القوة التى قادها عزت باشا والتى بلغت خمسين ألف عسكرى على حد قول الجريدة ، بل ان بعض الانجليز ممن خبروا عادات أهالى المنطقة أشاروا الى أن تبادل الأموال والهدايا كان وسيلة متبعة لربط أواصر المحبة بين الأهالى الذين ذاقوا الفاقة والفقر نتيجة للحروب الكثيرة وما كان يصحبها من خراب ودمار ، وقد سبق أن أشرت الى أن « جاكوب » الانجليزى ذكر فى كتابه أن العرب كانوا يعتزون بمبدأ « تهادوا تحابوا » حتى تصلح أمورهم •

كما وضحت المبالغة فى تعليق جريدة « اللواء » فى المثال الثانى عندما ذكرت أن الحكومة اعتبرت الامام حاكما مستقلا لا تتعرض للبلاد التى تحت سلطته ، بينما يؤكد الاتفاق بوضوح خضوع الامام وبلاده للسيادة العثمانية ، وبضرورة الرجوع الى الآستانة حتى فى الموافقة على تعيين حكام المناطق الزيدية بعد أن يختارهم الامام • ولهذا كان تعليق جريدة « جون ترك » مجافيا تماما للواقع عندما ذكر جلال نورى بك كاتب المقال أن الامام لا تمنعه أية قوة من عقد اتفاق مع أية حكومة شاءها بعد هذا الاتفاق •

واذا كان هذان التعليقان قد بعدا عن الواقع نسبيا فقد اقترب من الحقيقة

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، ج ٢ ، العدد الصادر فى أول صفر ١٣٣٠ هـ ، ١٩١٢/٢/١٨ ، ص ١٠٦ •

(٢) اللواء : العدد ٣٧٧٩ الصادر من ٧ من يناير ١٩١٢ (١٧ من المحرم ١٣٣٠هـ) ص ٠١

تعليق ثالث صدر من داخل اليمن على لسان ضابط عثمانى شهد بنفسه هول الحرب وتلمس بوادر السلم بعد عقد اتفاق « دعان » بين الامام والدولة ، فأورد خواطره فى رسالة بعث بها الى جريدة « الحقيقة » اللبنانية — ونقلتها جريدة « المنار » — جاء فيها : « أن قرية دعان الواقعة على مسافة خمس ساعات من الشمال الغربى من قضاء عمران سيكون لها شأن فى التاريخ حيث عقد فيها الاتفاق ، وتم توقيع شروط الصلح بين الامام يحيى حميد الدين وقائد الحملة عزت باشا فانحسم بذلك الخلاف ... وقد نظر عزت باشا الى المصلحة العامة قبل كل شيء ، ولولا ذلك لما تسنى له الحصول على وفاق ووئام بين طائفتين من المسلمين تقتتلان ، فهيأ للجيش العثمانى عضدا قويا يبلغ عدده ثلاثة ملايين لأن الامام يحكم على هذا العدد ، ويمكنه أن يكون محاربا مع الجيش العثمانى جنبا لجنب اذا مست الحاجة . ولا يستبعد القارىء هذا ، فالمثال حسى ظاهر ، وهو أنه لما بلغ الامام اعلان ايطاليا الحرب على الدولة ، أرسل نبأ برقيا الى مقام الخلافة العظمى يقول انه مستعد لتقديم مائة ألف مقاتل كاملى العدة والعدد .. » (١) .

ويبدو جليا أن الفرحة والبشر تتصدران هذه الرسالة ، كما أنها توحى بأن الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية كان من الأعمال العظيمة التى سيذكرها التاريخ . وقد أشار كاتب الرسالة الى أن الصلح قد وضع حدا لحروب ضارية بين فئتين من المسلمين تقتتلان ، كما أنه سيمهد للقيام بكثير من الاصلاحات فى اليمن . هذا فضلا عن أنه سيضم للدولة قوة الامام الزيدى وأتباعه التى كانت من قبل تنخر فى عظامها وتحول اليمن الى مقبرة لجنودها ، حتى عقد هـذا الصلح الذى ضمن انحياز الامام نسبيا الى جانب الدولة ضد أعدائها — كما سنتحدث عن ذلك فى حينه . ولا شك أن انحياز الامام الى جانب الدولة كان يعنى اكتسابها لقوة مادية كبيرة . غير أننا يجب أن ندرك أن ذلك لا يعنى مطلقا انحياز الشعب اليمنى بأجمعه الى جانب الترك . فسلطان الامام كان على بعض الزيديين الذين كان يمكنه أن يجند منهم للاشتراك فى حروبه ، بينما لم يكن يتمتع الامام بمثل نفوذه على ثلاثة ملايين من الشعب اليمنى ، فان هذا التصور قد يرجع الى أن الثورة ضد الأتراك شملت معظم أرجاء اليمن ، ولما كان الامام يتزعمها فقد اعتقد هذا الضابط أن عناصر هذه الثورة جميعها تدين بالولاء للامام وأنها رهن اشارته (٢) . ولا شك أن ذلك يجانب الصواب لأن الظروف والأحداث التى كانت تعيشها هذه العناصر فى تلك الفترة هى التى دفعتها الى الثورة تحت قيادة الامام الذى حاول بدوره أن يكتسب زعامة شعبية على حساب الثورة اليمنية ضد الحكم العثمانى .

---

(١) المنار : مجلد ١٥ ، ج ٢ ، العدد الصادر فى ١٨ من فبراير ١٩١٧ (أول صـفر ١٣٣٠ هـ) . ص ١٣٨ — ١٤٢ .

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤١٩ .

والى جانب ما نشرته الصحف من تعليقات عن اتفاق الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ م فقد أشار اليه أيضا عدد من الكتاب والرحالة ممن قاموا بزيارة اليمن وذلك فى مؤلفاتهم التى يمكننا أن نستخلص منها بعض المعلومات الهامة ٠ فقد كتب أمين الريحانى فى سنة ١٩٢٤ م يقول : « ٠٠٠ فعقدت معاهدة سنة ١٩١١ م لمدة عشر سنوات ، وكان من شروطها أن يعترف الامام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة ألا يكون فى البلاد غير المحاكم الشرعية التى يعين الامام قضاتها ٠ وقد تعهدت الدولة أن تدفع للامام ولرجاله السادة ومشايخ (حاشد) و (بكيل) مشاهرات مالية مقدارها ألفان وخمسمائة ليرة ذهبا ٠ وبما أن الزيديين بموجب مذهبهم لا يتوجب عليهم دفع الزكاة لغير الامام امامهم ، كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد خصم اثنين ونصف فى المائة بدل الجباية » (١) ٠

وهكذا أشار الريحاني الى جوهر الصلح الذى تبلور فى اعتراف الامام بسيادة الدولة واعتراف الدولة بوضع الامام الخاص بين أتباعه الزيديين ، كما أوضح الريحانى الناحية المالية فى الاتفاق والمشاهرات التى تعهدت الدولة بدفعها للامام وأتباعه وبلغ مقدارها ٢٥٠٠ ليرة ذهبية ٠ هذا فضلا عما أوضحه الريحانى من أن الموظفين الأتراك كانوا يجمعون الضرائب باسم الامام نظرا لأن مذهب الزيديين كان يشترط عليهم دفع الزكاة لامامهم دون غيره ، وأن الموظفين كانوا يقدمونها للامام بعد خصم ٢ر٥٪ نظير أتعاب التحصيل ٠

أما الرحالة الألمانى « هانز هلفرتز » فقد ذكر أن هذا الصلح كان لمدة عشر سنوات بصفة مبدئية وأنه كان نتيجة طبيعية للأحداث التى سبقته ، كما أشار بصفة خاصة الى أن اليمنيين والأتراك كان لابد لهم أن يتضامنوا بعد أن هدد الاسلام نفسه بهجوم ايطاليا على طرابلس الغرب ، فقال : « ٠٠٠ اذ تم عقده (اتفاق الصلح) عندما هدد الاسلام نفسه ، عند هجوم ايطاليا على طرابلس » (٢) ٠

وكتب الرحالة الايطالى « سلفاتور أبونتى » الذى عاش فى اليمن فترة من الوقت اطلع فيها على شئونه ، تعليقا على هذا الاتفاق ركزه على الجانب الادارى فى شروط الصلح جاء فيه : « ٠٠٠ وأخيرا اضطر الباب العالى الى الصلح مع الامام ، وأمضى معه اتفاقا فى سنة ١٩١٢ م ، تركت للادارة التركية بمقتضاه مدينة صنعاء ومعظم الأراضى الساحلية ، أما المناطق الأخرى أو الأقاليم الزيدية ، فانها تركت تحت ادارة الامام وسلطته الدينية والادارية ، وعندئذ استبدل

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣١ — ١٣٢ ٠

(٢) Helfritz, H. : The Yemen, A Secret Journey, p. 124.

بالقانون التركى الذى كان معمولا به فى البلاد الشريعة الاسلامية ، ووكل بادارة القضاء موظفون كان يعينهم الامام ... » (١) .

ومن الملاحظ أن « سلفاتور أبونتى » قد جانبه الصواب عندما حدد تاريخ الاتفــاق فى سنة ١٩١٢ اذ أجمعت المصادر على أن الاتفاق تم عقده فى سنة ١٩١١ م . كما أن تحديده لمناطق نفوذ العثمانيين والامام لم يكن تحديدا دقيقا لأن العثمانيين احتفظوا لأنفســهم بالسلطات الادارية فى ســائر أرجاء الولاية بما فيها المناطق التى يسكنها الزيديون بدليل أنهم كانوا يجمعون الضرائب فى أرجاء الولاية بما فيها المناطق الزيدية ، وان فعلوا ذلك هناك باسم الامام الزيدى على أن يقدموها اليه بعد خصم نسبة « بدل الجباية » التى سبق أن أشرت اليها . أما نفوذ الامام فقد كان دينيا بحتا فى المناطق الزيدية دون غيرها ، واذا كان له قدر ضئيل من السلطات الادارية فقد كان ذلك ضمنيا فقط ، بدليل أن اختياره حتى لموظفى القضاء فى المناطق المذكورة كان مقرونا دائما بموافقة الدولة وتصديقها طبقا لنصوص الاتفاق .

ولعل كل ما تقدم من تعليقات وتفسيرات يجعلنا نميل بشىء من التحفظ الى رأى توفيق على برو عند تقييمه لاتفاق الصلح بين الامام يحيى وعزت باشا فى سنة ١٩١١ فيقول ان هذا الاتفاق ليس فيه كسب يذكر للامام ، وأنه يعد الى حد ما انتصارا لفكرة الدولة ، ولا ينطبق على فكرة اللامركزية فى الحكم ، حتى ولا على أصول توسيع المأذونية الكاملة الا من ناحية حكم الشريعة بالنسبة للزيديين ، وهى نقطة يعلق هؤلاء عليها أهمية كبيرة . ثم يشير توفيق على برو الى أن المادتين التاسعة والعاشرة فى انشاء المحاكم السيارة وقيام الامام بأعمال الأوقاف والوصايا هما المادتان اللتان يعتد بهما فى هذا الاتفاق وتعطيانه بعض القيمة من حيث توسيع الادارة المحلية فى ناحية واحدة فقط ، أما الادارة المالية والمشروعات الحيوية العمرانية النافعة والصحية والتعليمية فلا شىء عنها ألبتة . ومن هنـــا ينتهى برو الى أن هــذا الاتفــاق لم يكن ليحل مشــكلات اليمن حلا حاسما (٢) ، وأن حكومة الاتحاديين وافقت على ما جاء به مرغمة بعد أن علمت بأن عزت باشا قائد القوات المحاربة لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعل أمـام استبسال اليمنيين ، ولأنها تعرضت لحملات شديدة من المعارضة ، كما فوجئت بهجوم ايطاليا على طرابلس الغرب . فكانت الدولة بهذا الاتفاق تهدف الى تســكين الثورة اليمنية دون أن تقصــد القيــام بمحاولة أكيدة وحاسمة لحل قضية اليمن .

أما رأى السيد مصطفى سالم فى اتفاق الصلح بين الامام يحيى والدولة

---

(١) سلفاتور أبونتى ، مملكة الامام يحيى ، (ترجمة طه فوزى) ، ص ٥٦ .
(٢) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

العثمانية فى سنة ١٩١١ فانه يمثل تحفظنا على رأى توفيق على برو • فقد ذهب الأول الى أن هذا الصلح يعتبر استجابة منطقية للواقع العثمانى واليمنى فى آن واحد ، فالى جانب الظروف الصعبة التى تعرضت لها الدولة واضطرتها الى عقد الصلح فقد رأت أنه لا يضيرها كثيرا أن تعترف بوضع الامام الخاص ، لما للامامة الزيدية من جذور تاريخية عميقة فى أرض اليمن قبل مجىء العثمانيين اليها بتاريخ طويل • كما يوضح السيد سالم أن بعض مواد الاتفاق عبرت عن الرغبة فى اصلاح الأمور فى اليمن فأخضعت قيمة الضرائب المفروضة للأسس الشرعية ، كما تحددت المحاكمة والعقوبة على من أساء جمعها من موظفى الحكومة• وقد أعفيت بعض مناطق معينة من الضرائب لفقرها ولاضطراب أحوالها وذلك لمدة عشر سنوات ، كما صدر عفو عام عن الضرائب المتأخرة وعن مرتكبى الجرائم السياسية فيما قبل الاتفاق ، واشترط على الامام اخلاء سبيل من لديه من الرهائن ، وسمح لمأمورى الحكومة وأتباع الامام بالتجول فى أنحاء اليمن بشرط ألا يخلوا بالسكينة والأمن فى الولاية • ولا شك أن هذه كلها نتائج محمودة ترتبت على عقـد هذا الاتفاق وأدت الى وجود فترة من الهدوء النسبى والسلام المؤقت ، بما يترتب على ذلك من القيـام ببعض الاصلاحات فى المنطقة التى يسكنها أتباع الامام الزيدى ، فضلا عن المناطق التى انفردت بحكمها الدولة • ولا يعنى هذا أن اليمن قسمت الى قسمين ، قسم يخضع للعثمانيين وآخر يتبع الامام ، فهذا التقسيم لم يحدث سواء من الناحية الادارية أو غيرها • بل ان الزيديين الذين ينظمون حياتهم طبقا لمذهبهم وفى الوقت نفسه يعترفون بالسيادة العثمانية أرادوا أن تعترف الدولة بوضعهم الخاص وتترك لهم حرية ممارسـة حيـاتهم بطريقتهم فى نطاق تبعيتهم للدولة • وهذا يشبه الى حـد كبير وضع الاشراف فى مكة ، فهم يتمتعون بقدر من الاستقلال الذاتى أو بوضع خاص فى بلدهم بينما يخضعون للسيادة العثمانية ، فكانت توجد قوة عثمانية فى المدينة فى الوقت الذى يقوم فيه شريف مكة بخدمات جليلة لتأكيد السيادة العثمانية فى هذه الجبهات •

ويستطرد السيد سالم قائلا ان هذا الاتفاق قد أكسب الامام بعض الحقوق، مثل منحه حق انتخاب حكام المذهب الزيدى ، وانتخاب رئيس وأعضاء المحكمة الاستئنافية بصنعاء • كما أصبح للامام حق الاشراف والمراقبة على الأسـلوب الادارى للمأمورين وموظفيهم فكان عليه أن يعرض على الوالى مظاهر اساءات الموظفين وكيفية استغلالهم لنفوذهم اذا فعلوا ذلك • وقد جعل الاتفاق المسائل المتصلة بالنـواحى الشرعية كالأوقاف والوصايا منوطة بالامـام • كمـا سمح للزيديين بتقديم هداياهم لامامهم ــ مباشرة أو عن طريق مشايخ الدولة وحكامها فى الولاية ــ وذلك تعبيرا عن ولائهم المذهبى • وهذه الهدايا تشبه الى حد ما « الاشتراكات » التى يدفعها أعضاء الأحزاب السياسية والجمعيـات المختلفة

لتمويل عمليات تنفيذ برامجها ومخططاتها ، وقد رأت الدولة أن تقر هذا الوضع حتى لايتم سريا مما يخفى عليها حقيقة المركز المالى للامام وامكاناته المادية(١) • ويمكن أن ينظر الى بنود هذا الاتفاق على أنها تنظيمات تؤدى الى اقرار الأمور فى الولاية ، لأن الدولة التى منحت هذه الحقوق للامام وأتباعه لتضع حدا لثوراتهم المتتالية ، احتفظت لنفسها بالتصـديق على ترشيح الامـام للحكام والقضـاة الزيديين ، والتصديق على أحكام القصاص ، وتعيين حكام الشافعية والحنفية ، الى غـــير ذلك من الأمور التى تضمن استمرار تبعيـة اليمن وخضوعه للسيادة العثمانية •

النتائج المترتبة على الصلح بين العثمانين والامـــام يحيى فى ســـنة ١٩١١ م :

تمتع اليمن بفترة قصيرة من الهدوء النسبى عقب عقد اتفاق الصلح بين الدولة العثمانية والامـام يحيى فى ســنة ١٩١١ م • وقد حرص كلا الجانبين العثمانى واليمنى على الافادة من اتفاق الصلح الى أبعد مدى ممكن ، وكان يمثل الجانب اليمنى فى هذا الاتجاه الامام يحيى على وجه الخصوص • وقد أراد الترك أن يمحوا ذكرى الحـروب والمعـارك السابقة التى دارت بينهم وبين الثـوار اليمنيين ، وأن يبدأوا صفحة جديدة فى تاريخ حكمهم لليمن تتسم بطابع الأمن والاستقرار والسلام • وتصميما منهم على ذلك فقد عزلوا الوالى العثمانى المستبد محمد على باشا وعينوا بدلا منه محمود نديم بك والذى قام بدور هام فى التقريب بين وجهتى النظـر العثمانية واليمنيـة فى أثنـاء المفاوضات التى انتهت بعقد الصـلح •

واذا كان الواسعى قد اعتاد أن يذكر فى حولياته أخبار الحروب والمعارك التى دارت بين اليمنيين والأتراك قبل عقد الصلح فى سنة ١٩١١ ، فان ما نقرأه فى حولياته بعد عقد الصلح يبين لنا أن أحوال اليمن قد صلحت وأن الفتن قد زالت وأن الامام كان يقيم حدود الشرع على مرتكبى الجرائم المختلفة • كما أشار الواسعى الى أن الجنود العثمانيين كانوا يبذلون جهدهم لحفظ الأمن فى اليمن والقبض على المشـاغبين ، الى جانب توضيحه لما أعقب الحروب السـابقة من ارتفاع فى أسعار السلع وانتشار الأمراض وتفشى الفقر • وسأعرض فيما يلى بعض الفقرات التى اخترتها من حوليات الواسعى توضح أحوال اليمن عقب عقد الصلح تبعا لما أشرت اليه •

فقد ذكر الواسعى أنه : « فى سلخ جمادى الأولى ســنة ١٣٣٠ هـ (مايو

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٥ •

سنة ١٩١٢ م) عزل الوالى محمد على باشا وعين وكيلا له رجب أفندى الذى كان مكتوبجى ، وفى شهر ذى القعدة تعين محمود نديم بك واليا فى اليمن » (١) .

« ثم بعد حصول الصلح بين الامام يحيى — أيده الله — والترك صلحت اليمن وزالت الفتن ، وكان بعض الزارعين من القبائل لا يصلحهم الا الجور ولم يراعوا هذه النعمة ، صار القتال بين القبائل بعضهم بعضا لأجل الحدود فى الكلأ والمرعى للمواشى ، أول فتنة حدثت بين « الحداء » و « خولان » ، وكل قبيلة تجارب من بازائها » (٢) .

« ثم حصلت فتنة فى صنعاء من بنى الحارث وحصل جرحى من الطرفين ، وسبب ذلك أن رجلا من بنى الحارث ، وهى قبيلة شمال صنعاء شعوب وما وراءها الى بلاد أرحب مسافة يوم ، تخاصم ذلك الرجل مع رجل حداد من أهل صنعاء وحصل من كل واحد جناية على الآخر ، وحصل بينهما الصلح وصفح كل منهما عن الآخر ، فخرج القبيلى من صنعاء وهو مضمر للشر ، فاستغاث بقبيلته فوعدوه الى يوم معلوم . فلما كان ذلك اليوم دخل بنى الحارث نحو ألف رجل متفرقين وعزموا على الفتك فى صنعاء بقتل من وجدوه ، والناس على حين غفلة بعد صلاة الظهر . فشرع (رجال) القبائل فى سوق الحدادين والنجارين وسوق الحطب فحصلت جنايات من أشخاص معلومين ، فقام الناس قومة رجل واحد ، وخرج الحدادون والنجارون بآلات الحديد من قدوم وغيره ، وضربوا من وجدوا من القبائل ، فتفرقت القبائل هربا شذرا مذرا فى الأزقة والخرابات ، وحصل فى صنعاء صولة عظيمة ، وخرجت العسكر والضباط والبوليس فى الأزقة والشوارع وأمسكوا من وجدوا ، فأمسكوا خمسين رجلا وأودعوهم فى السجن ، وهرب البقية وفيهم جراح كثيرة ، وبعد ثلاثة أشهر أخذت الدولة منهم أدبا ألف ريال لتعديهم بالقتل فى وسط صنعاء غدرا والناس غافلون ، ثم أدخل القبائل ثلاث بقرات وعقروها فى صنعاء ، ارضاء لأهل صنعاء ، واعترافا باساءتهم ، فذبحوا رأس بقرة فى سوق الحدادين والنجارين ، ورأسين فى دار الجامع » (٣) .

« ثم دخلت سنة ١٣٣١ هـ (ديسمبر سنة ١٩١٢ م) وأحوال اليمن صالحة ما خلا ما بين القبائل من الحدود ، ونزغ الشيطان بينهم . وكانت الأمطار فى هذه الأيام قليلة والأسعار غالية » (٤) .

« ثم دخلت سنة ١٣٣٢ هـ (٣٠ من نوفمبر سنة ١٩١٣ م) والجدب

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٢ .
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٢ .
(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(٤) الواسعى : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٣٢٥ .

والقحط عم اليمن وحصل مرض فى الأطفال والأكثر من الجدرى ، ومات كثير من الأطفال ، وفى هذه السنة قلت الأمطار ، وغلت الأسعار ، وأغاث الله الناس بخروج الدقيق والطعام من الهند والحبش والسوذان ٠ وقبض على سارق وقد هجم على بيت فاقر بما سرق فقطعت يده حدا بعد الحكم عليه ٠ ورفع الى الحاكم رجل شرب خمرا وأقر بما شرب اقرارا شرعيا ، وبعد الثبوت أقيم عليه الحد ٠ وأقيم على زان الحد الشرعي بعد ثبوته عليه بالاقرار واستيفاء الشروط ٠ وأحضر قاتل للقصاص ، وحضر خلق كثير خارج صنعاء فى باب اليمن وأحضرت الدية لأولياء المقتول ليعفوا عن القاتل ، وتشفع الحكام وجمع من الناس لأولياء المقتول بقبض الدية ليسقطوا القصاص ، فبعد جهد جهيد قبلوا ذلك ، وأقيمت هذه الحدود جميعها فى شهر صفر فى السنة المذكورة » (١) ٠

وهكذا تخلو حوليات الواسعي عقب الصلح من ذكر أنباء الحروب والمعارك بين الترك وأتباع الامام ، وتنصب كلها حول توضيح الأحوال العامة فى اليمن التى تميزت بالهدوء النسبى ، سوى ما كانت تثيره مشاغبات القبائل فيما بينها ، وهجومها على الآمنين فى مدينة صنعاء ٠ ولقد أظهر الواسعي الدور الذى كان يقوم به الترك فى حفظ الأمن والقبض على المشاغبين ومعاقبتهم بالغرامات المالية وغيرها ٠ كما أوضح الواسعي أن اليمن كان يعانى فى ذلك الوقت مما يعقب الحروب عادة من تفشى الفقر ، وانتشار الأمراض ، وارتفاع الأسعار ٠ وأضاف الواسعي الى ذلك كله أن أحكام الشريعة كانت تطبق فى اليمن وبخاصة فى معاقبة المذنبين فى الفترة التى أعقبت عقد الصلح بصفة خاصة مظهرا أن نفوذ الامام الدينى أصبح أكثر فاعلية عن ذى قبل بموجب هذا الاتفاق ٠ ومما نلاحظه أن تحكيم الشريعة فى ذلك الوقت فى اليمن تمثل بدرجة كبيرة فى تنفيذ العقوبات دون أن يصاحبها الاهتمام بالاصلاحات الضرورية ، التى تلزم الشريعة العادلة بها الحاكم قبل أن تعاقب المحكومين ٠

ويلقى لنا كثيرا من الضوء على النتائج التى ترتبت على عقد الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ م ذلك التصريح الذى أدلى به أمير الآلاى احسان بك ، الذى كان رئيسا لأركان حرب الفيلق اليمنى ، لصحيفة « المفيد » البيروتية ، أثناء وجوده فى بيروت عائدا من اليمن ــ ونقلته مجلة « المنار » ــ عندما سأله مندوب « المفيد » عن فوائد هذا الاتفاق ، فقال : « ان الامام وزع منشورا على جميع القبائل الموالية له يحذرهم من الخروج على الدولة والتعدى على الجنود النظامية ، والانصراف عن مناوأة الدولة الى الاهتمام بزراعة الأرض فكان من ذلك أن الجندى النظامى أصبح يروح ويغدو بسلاحه الكامل فى أنحاء اليمن دون أن يعارضه معارض » ٠ فمعنى ذلك أن الامام أخذ يحث

---

(١) الواسعي : المصدر نفسه ، ط ٢ ، ص ٣٢٨ ــ ٣٢٩ ٠

أتباعه على طاعة الدولة ويحذرهم من مغبة التعدى على جنودها ويدعوهم الى الاهتمام بزراعة الأرض للنهوض باقتصاديات اليمن ، وأن الجنود العثمانيين بدءوا يتجولون فى أرجاء اليمن مطمئنين الى اخوانهم اليمنيين .

ويستطرد احسان بك فى تصريحه قائلا : « أما الرسوم الأميرية فتجبى بوساطة رجال الامام الذين يصحبون « الجندرمة » (الشرطة) ، ولم نسمع بعد عقد الاتفاق بشىء مما كان يقع بين الجباة وبين العربان ، الأمر الذى كان يفضى الى امتشاق الحسام وسفك الدماء بين الفريقين » . فهذا يوضح لنا مدى التعاون الذى وجد بين رجال الامام ورجال الادارة العثمانية فى اليمن عقب الاتفاق ، بل يفسر أيضا مدى استجابة الأهالى الى دفع الضرائب ، الأمر الذى ما كان يتم من قبل الا بعد صراع دموى عنيف بين رجال الحكومة ورجال القبائل اليمنية .

كما أشار احسان بك فى تصريحه الى أن بلاد اليمن أصبحت بعد اتفاق الصلح من أكثر بلاد الدولة استقرارا ، غير أنها فى حاجة الى مشروعات عمرانية كثيرة تتناسب مع ثرواتها الطبيعية الممتازة ، وقد أوضح أن الدولة تبذل جهودها فى هذا السبيل لاستثمار كنوز اليمن وخيراته فقال : « أكثر بلاد الدولة أمنا اليوم هو القطر اليمانى ، غير أن اليمن هى اليوم فى حالة البداوة ، وأن فى خصب أرضه وتربته ما يساعد الدولة على نقله من حال الى حال . والدولة تمد اليوم خطا حديديا من « الحديدة » الى « جميلة » وما مدته الى الآن يقدر بثلاثة كيلو مترات ، الا أنها ساعية بتسوية الأرض وبسط الطريق ، ولكن مد السكة الحديد لا يجدى الأهالى نفعا ، اذا لم تكن البلاد غنية ، واذا أتيح لهذه البلاد أن تغنى ، فأرضها ستكون كنز هذه الثروة » (1) . ولا شك أن تصريح احسان بك هذا يعبر لنا عن النتائج الهامة لعقد الصلح بين الامام والدولة وعن حالة الأمن والسلام التى أعقبته ، وعن التفكير فى اصلاح الولاية الذى وجد عند الامام والأتراك ، بل بعض الخطوات التى اتخذت فى هذا السبيل كمشروع مد السكك الحديدية لأول مرة فى بلاد اليمن . وقد أشار الى هذا المشروع احسان بك فى ختام تصريحه كما أوضح ما يجب أن تفعله الدولة لاستثمار خيرات اليمن بقوله : « ... ان الخط الحديدى يسهل نقل الجنود ، الا أن الدولة اذا جرت على سياسة عزت باشا ، أصبح هذا الخط اقتصاديا أكثر منه عسكريا ، فان اليمانيين متى قعدوا عن قتال الدولة وتعاهدوا معها ، انصرفوا الى الزراعة والصناعة . وأن ذكاء هؤلاء القوم يساعد كثيرا على انتشار المدنية فى

---

(1) المنار : المجلد ١٥ ، ج ٢ ، ١٨ من فبراير ، ص ١٩١٢ ، (من حديث لاحسان بك الى جريدة المفيد البيروتية) .

تلك الربوع ، وأن من مصلحة الدولة أن يساس هؤلاء سياسة الحلم ، لا سياسة العنف والشدة ، ففي بعض أنحاء اليمن ، تنبت الأرض أربع مرات في السنة ، وبعضها تنبت مرتين ، فاذا عنيت الدولة بزراعة البلاد اليمنية ، كان لها مورد جديد يزيد في ماليتها . وانه ليؤسفني أن أصرح لكم بأن الحكومة أرسلت كثيرا من الأدوات الزراعية ، ولكنها لم ترسل معلمين زراعيين حتى الآن ، وهذا الاهمال كان السبب في تعطيل هذه الأدوات » (١) . وهكذا كان من نتائج عقد الصلح بين الامام والدولة ، وتهيئة جو مستقر نسبيا في ولاية اليمن ولو لفترة قصيرة كانت من أكبر المكاسب التي ترتبت على الاتفاق بالنسبة للجانبين اليمني والعثماني على السواء . وكان هذا الاستقرار والسلام كفيلين بتفجير الطاقات العمرانية في اليمن ، ودافعا الى الاصلاح والتعمير في الولاية دون أن يكون ذلك نتيجة لنصوص مكتوبة أو اتفاقات معقودة (٢) ، خاصة وأن الجانبين اليمني والعثماني كانا في حاجة الى النهوض باقتصاديات اليمن التي أثرت فيها وعطلتها عن التقدم حالة الفوضى والاضطراب والحروب والثورات المستمرة التي سبقت عقد اتفاق الصلح في سنة ١٩١١ م .

ثانيا : موقف القوى المحلية في اليمن من العثمانيين في أعقاب الصلح مع الامام يحيى في سنة ١٩١١

اتخذت القوى المحلية في اليمن من العثمانيين في أعقاب الصلح الذي عقدوه مع الامام يحيى في سنة ١٩١١ م عدة مواقف متباينة تبعا لما كانت تقتضيه المصالح الذاتية لكل منها ، وكان على رأس تلك القوى اليمنية الامام يحيى الذي شكل الطرف الثاني لاتفاق الصلح مع العثمانيين فنال بذلك بعض المكاسب التي كان يسعى للحصول عليها . بينما كان يليه من ناحية المكانة بين القوى اليمنية محمد الادريسي في عسير الذي سيزيد عداؤه للدولة العثمانية كما سينقلب على حليفه بالأمس الامام يحيى بعد مصالحته للعثمانيين واتفاقه معهم . وسوف نرى بين القوى المحلية اليمنية طبقة التجار اليمنيين التي استبشرت خيرا من الصلح آملة في الاستقرار الذي يروج تجارتها ويزيد من أرباحها ؛ بينما كانت هناك القبائل اليمنية التي اعتادت الحرب واتخذتها مهنة وعملا وكادت تفقد معاشها بعد أن خبت الأعمال الحربية للامام يحيى في أعقاب الصلح ، فبدأت تلك القبائل تبحث عن مقاتل آخر يقودها للحرب والمغانم ، فالتفت حول الادريسي الذي بقي على عدائه للعثمانيين وواصل الحرب ضدهم لاجلائهم عن البلاد على النحو الذي سنوضحه فيما يلي .

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ،ج٢ ، ١٨ من فبراير ١٩١٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .
(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٤٨ .

موقف الامام يحيى من العثمانيين فى اعقاب الصلح :

عبر « سلفاتور أبونتى » عن موقف الامام يحيى عقب اتفاق الصلح بينه وبين الدولة العثمانية بقوله : « ... أما الامام يحيى فانه بعد أن ضمن اعانة سنوية لشخصه ولكبار موظفيه من خزانة الدولة العثمانية ، اتخذ لنفسه مقرا فى « خمر » حيث أخذ يباشر سلطته وينشر نفوذه ويبسطه فى الأراضى التى خصصت له بمقتضى الاتفاق وفى العاصمة نفسها (صنعاء) ، بينما كانت عيونه وجواسيسه يتوغلون فى محميات عدن وفى حضرموت . ومن ذلك الوقت أصبح الامام يحيى هو الملك الحقيقى فى البلاد » (١) . واذا كانت المبالغة تبدو واضحة فى قول « سلفاتور أبونتى » عن الامام يحيى بأنه أصبح الملك الحقيقى فى اليمن ، ذلك لأن الامام لم يكن قد بلغ بعد هذا الملك ، ولكنه كان يطمع فى الوصول اليه ، لهذا وضع برنامجا للعمل فى شتى المجالات ومختلف الطرق لتحقيق أهدافه . ولقد بدأ الامام الصلح فى تنفيذ مخططه فانتهز فرصة اتفاقه مع الدولة لتثبيت نفوذه فى اليمن ، والقضاء على منافسيه المحليين . وقد أرسل الامام دعاته ومبعوثيه الى أرجاء البلاد لكسب ود القبائل ، وجمع شملها حول دعامته وان كان الادريسى فى عسير يعوق نشاطه ويبدد جهود أتباعه (٢)، ويعمل هو الآخر بجهد كبير وخطة محكمة لتدعيم كيانه ، حتى يقوى على مجابهة الأتراك بعد أن تحالف معهم صديقه بالأمس يحيى . هذا فى الوقت الذى ادخر فيه الامام أمواله ورجاله بعد أن سالم الأتراك ورضى من الغنيمة باعترافهم بوضعه الخاص ، وكان يتلقى منهم هو وأتباعه « المشاهرات » المالية التى كانت تزيد من امكاناته ، الى جانب الهدايا التى كان يقدمها اليه الزيديون تعبيرا عن ولائهم المذهبى . وحرص الامام على ألا يصطدم بجيرانه الآخرين مثل الانجليز فى الجنوب اليمنى أو بالشريف حسين وعدوه ابن سعود على الحدود الشمالية لليمن ، بل ان الامام يحيى كان يرقب الصراع الدموى بين صديقه بالأمس الادريسى وبين حلفائه الأتراك وقلبه مغمور بالفرح ، لأن الامام كان يبغى القضاء على كل منافسيه المحليين مما جعله يصطدم مع بعضهم وجها لوجه كما حدث مع « الضحيانى » ، أو عن طريق غير مباشر كما كان الحال فعلا مع الادريسى . وكان يهم الامام أن يسبق خروج الترك من اليمن ابادتهم لمنافسه الادريسى حتى يمكنه وحده أن يرث نفوذهم فى اليمن . ويؤيد « جاكوب » هذا الرأى بقوله : كان هدف الامام هو أن يرث نفوذ الترك فى اليمن ، وقد وضع ذلك نصب عينيه دائما ، بل كان يؤمن أنه سيصل الى ذلك فى يوم من الأيام » (٣) . ويعبر « جاكوب » عن منطق الامام بقوله : « اذا كان الترك أقوياء بدرجة تكفى لابادة

---

(١) سلفاتور أبونتى : المصدر السابق ، ص ٥٦ .

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 133.

(٣) Jacob, H.F. : Ibid., p. 137.

الادريسى والقضاء عليه فلا اختصاص لى فى هذه الملحمة ، أما اذا لم يستطيعوا وتعثروا فى ذلك فعلى أن أساندهم » (١) . ثم استطرد « جاكوب » موضحا موقف الامام عقب الصلح مع الدولة بقوله : « لم يكن عند الامام رغبة فى التصادم حينـذاك مع بريطـانيا فى الجنوب ، بل اكتفى بزعامته الدينية تحت السيادة العثمانية ، وكان عدد كبير من الشوافع ، حتى من الذين كانوا يتقاضون المرتبات الشهرية من الانجليز (فى النواحى الجنوبية من اليمن) كثيرا ما كانوا يتقربون الى الامام ، يسألونه أن يفصل فى منازعاتهم الشخصية ، خاصة وقد ألهبت الحرب الايطالية التركية الشعور الدينى لديهم ، فكان رأى هؤلاء الشوافع أن العرب للعرب ، لأن هذه الحروب قد هددت وجود الاسلام ذاته » (٢) . وهكذا كانت سياسة الامام يحيى عقب الصلح تتركز حول تجنب الصدام بالقوى التى تفوقه أو يمكنها أن تضعفه ، ولا مانع لديه من مساندة احداها على الأخرى بقدر معين وبقصـد ابادة منافسيه ، هذا الى جانب محاولاته المستمرة وحرصـه على اكتساب مزيد من النفوذ المادى والروحى داخل اليمن وخارجه ، ليساعده كل ذلك على أن يرث الحكم العثمانى فى اليمن عندما تحين الفرصة المناسبة .

وجدير بالذكر أن ايطاليا بعد أن استولت على طرابلس الغرب فى أكتوبر سنة ١٩١١ م قامت بمحاصرة سواحل اليمن الواقعة على البحر الأحمر ، وقد ترتب على ذلك كساد التجارة فى ميناء الحديدة ، بل ان الايطاليين قصفوا هذا الميناء بمدافعهم حتى يشغلوا الدولة عن توجيه حملة عثمانية لاسترداد طرابلس الغرب ، وقد أخطر عزت باشا الذى كان مقيما فى صنعاء فى ذلك الوقت تلغرافيا بأنباء ضرب الايطاليين لميناء الحديدة اليمنى ، وقد فر سكانه العزل فى أرجاء تهامة حرصا على حياتهم . وقد رأى الامام يحيى بعد أن عقد الصلح مع الدولة وأصبح حليفها الجديد أن يبرهن على ولائه لها وعن استعداده لمساندتها ضد أعدائها الايطاليين ، فبعث برسالة الى العالى يعبر فيها عن استعداده لارسال « مائة الف من العرب كاملة العدة والعدد » (٣) للاشتراك مع اخوانهم العثمانيين فى طرد الايطاليين من طرابلس الغرب . وقد ورد للامام يحيى خطاب من الباب العالى يشكره على ما أبداه من استعداد لمساعدة الدولة ومساندتها ضد أعدائها الايطاليين .

على أن هذا الموقف الايجابى المظهر من الامام كان مشكوكا فيه ، اذ كانت سلطة الامام الفعلية لاتمتد الا على بعض القبائل الزيدية التى يشك فى تحمسها للحرب خارج اليمن ويشك كذلك فى مقدرة الامام على توجيهها هذه الوجهة ،

---

(١) Jacob, H.F. : Ibid., p. 134.
(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 136.
(٣) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٣ .

هذا فضلا عن أن بعض قطع الأسطول الايطالى كانت تحاصر الشواطىء اليمنية وحطمت فعلا بعض قطع الأسطول العثمانى الهزيلة التى كانت تخفر هـذه السواحل ، مما كان يحول دون خروج أية قوات من اليمن لتحرير طرابلس الغرب ، هذا الى جانب عدم توفر الامكانات لدى الدولة لنقل أية قوات يمنية بحرا الى هناك ، بل ان الدولة العثمانية نفسها كانت تعتمد على بعض قطع الأساطيل الأجنبية لنقل جنودها الى اليمن . ويؤكد ذلك الرأى كاتب انجليزى شهد بنفسه حصار صنعاء والأحداث التى تبعت ذلك وأوضحها فى مقال نشر فى جريدة التيمس عقب عودته الى انجلترا ونقلتها عن التيمس جريدة « المنار » جاء فيه : « ولا يستطيع الواقف على حقيقة أحوال اليمن ، أن يقابل الأنباء التى وردت من الآستانة عن استعداد الامام لتقديم مائة ألف مقاتل ليحاربوا الايطاليين فى طرابلس الغرب الا بالابتسام ، وذلك لأن سلطة الامام اسمية أكثر مما هى فعلية ، ولأن الحكومة العثمانية تعجز عن نقـل هؤلاء المتطوعين الى ساحة الحرب » (١) .

وقد ترتب على الموقف الجديد للامام يحيى من الدولة العثمانية وتضامنه معها عقب اتفاق الصلح بينهما فى سنة ١٩١١ م اهتزاز مركزه كزعيم للمقاومة الشعبية فى نظر أتباعه الزيديين ، وبخاصة أهالى اليمن بوجه عام . فقد ذكرنا من قبل أن الامـام يحيى اكتسب زعامة شعبية لدى معظم اليمنيين على اختلاف مذاهبهم على حساب ثورتهم الشعبية ضد الأتراك ومظالم العثمانيين فى اليمن ، ولقد بدأ يفقد زعامته هذه والتفاف القبائل اليمنية من حوله بعد أن اتفق مع الأتراك الذين قاد بالأمس الثورة ضدهم واستشهد فى سبيل ذلك كثير من رجال القبائل اليمنية الثائرة ، وقد ترتب على ذلك أن أصبح مركز الامام يحيى أقل قوة وسلطانا على اليمنيين على اختـلاف مذاهبهم بعـد اتفاقه مع الدولة العثمانية عما كان عليه حاله من قبل فى أثنـاء ثورته عليها وصراعه ضدها . وقد أراد معظم اليمنيين أن يكون امامهم زعيما للثورة وقائدا لها ضد الحكم العثمانى فى اليمن ، بدلا من أن يتحول الى مولى للحكومة العثمانية وتابعا لها ، كما انتهى أمره الى ذلك فعلا من وجهة نظرهم بعد اتفاق الصلح (٢) . فالامام وأتباعه المقربون فضلا عن تحالفهم مع الأتراك العثمانيين ، قد تقاضوا منهم راتبا شهريا بلغ « ألفا ومائة ليرة عثمانية مشاهرة (للامام) وكان لمشايخ العربان (أتباع الامام) رواتب مقننة أيضا » (٣) فاتفاق الصلح بذلك قد أحدث رد فعل مخالف أثر فى مركز الامام برغم أنه كان اعترافا من الدولة بوضعه الخاص فى اليمن . ولا شك أن تاريخ الامامة الزيدية الطويل فى اليمن يؤكد دائما صراعها

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، ج ٢ ، ١٨ من فبراير ١٩١٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) Buyr, G.W. : Op. cit., p. 134.

(٣) المنار : المجلد ١٥ ، ج٢ ، ١٨ من فبراير ١٩١٢ ، ص ١٥٥ .

المستمر ضد القوى الدخيلة على البلاد باعتبار الامامة كانت تمثل أكبر قوة سياسية يتجمع اليمنيون حولها ويتحركون تحت قيادتها . ولقد مر بنا تاريخ الصراع الطويل بين الامامة الزيدية وبين الأتراك العثمانيين منذ بداية وصولهم الى اليمن فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وفى أثناء الحكم العثمانى الأول الذى استمر قرابة قرن من الزمان اضطر الأتراك بعده الى الرحيل عن اليمن . ولم يهادن اليمنيون تحت زعامة الامامة الأتراك العثمانيين الذين عادوا الى اليمن فى منتصف القرن التاسع عشر ، بل ان بعض الأئمة خاب أملهم فى التحالف مع الترك الذين كانوا يبغون السيطرة على البلاد ، مما أكد ضرورة الثورة والتمرد على الحكم العثمانى . ولقد قاد الثورة اليمنية ضد الأتراك الامام المنصور على النحو الذى سبق أن أوضحناه ، وورث الامام يحيى زعامة اليمنيين فى أثناء صراعه المستمر ضد الحكم العثمانى . ولا شك أن هذا الصلح بين الامام يحيى والأتراك أحدث تناقضا فكريا لدى كثير من اليمنيين الذين اعتادوا الصراع المستمر والثورة الدائمة ضد الحكم العثمانى ، فكان لابد أن يؤثر ذلك فى نظرتهم للامام ويؤدى ذلك الى اهتزاز مركزه أمامهم . وكان على اليمنيين أن يبحثوا بعد ذلك عن زعيم جديد يؤمن باستمرار الثورة وبضرورة الصراع ضد الأتراك . فالامام يحيى لم يعد بعد « أميرا منفيا » اغتصب الأتراك حقه الشرعى بل انه أصبح حليفا لمن اعتبرهم اليمنيون دخلاء على البلاد . ولم تكن نظرة أتباع الامام فحسب بل ان العسيريين فى شمال اليمن لم ينسوا تعاون الامام مع الطوابير العثمانية لاخضاعهم كما لم ينس أهالى شرق اليمن موتاهم الذين استشهدوا فى أوحال « مناخة » العبوس القاسية (١) تحت قيادة الامام الذى تنكر لذكراهم فى النهاية بعقده الصلح مع من قتلوهم بالأمس ، بل بدعوته الى مهادنتهم مما سيحول دون حصول قبائل المشرق على الغنائم التى كانوا يخوضون هذه الحروب من أجل الاستحصال عليها . هذا بينما انصرف سكان اليمن الأوسط عن الامام بعد أن حقق لهم الاتفاق بغيتهم الكبرى فى تحكيم الشريعة الاسلام بينهم ، كما تخلت عن الامام كذلك القبائل الشافعية التى ناصرته فى ثوراته السابقة ضد الحكم العثمانى ، بل ان بعض القبائل الزيدية انسلخت من تبعيتها للامام بعد أن ضعف مركزه العام فى اليمن (٢) .

وهكذا أدى الصلح بين الامام والدولة الى أن أصبح الامام فى مركز لا يحسد عليه مما اضطره الى اتخاذ سياسة ذات وجهين (٣) : فهو كزعيم للزيديين عليه أن يظهر دائما غيرته على تطبيق الشريعة ومحاربته للفساد ومعارضته لمظالم

---

(١) Burry, G.W. : Op. Cit., pp. 37-38.

(٢) Brémond, E. : Yémen et Saoudia, p. 76.

(٣) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

الموظفين الأتراك وســوء ادارتهم فى اليمن ، وهو كحليف للترك يحرص على اعترافهم بوضعه الخاص ويتقاضى هو وأتباعه منهم رواتب شهرية كان عليه أن يهادنهم وأن يتعاون مع قواتهم لاخماد كل تمرد حتى لو اقتضاه الأمر أن يحارب أصدقاءه بالأمس ، كالادريسى فى عسير ، وان التقى هذا مع هواه ومخططه حتى يكون هو الوريث الوحيد للترك اذا ما اضطرتهم الظروف الى الجلاء عن اليمن ٠

ويؤكد ما وصلنا اليه ذلك التصريح الذى أدلى به أحد الأتراك الرسميين ـ وكان قد شغل من قبل منصب قائمقام لمدينة (اب) ـ لجاكوب الانجليزى ، عندما تقابلا معا فى يناير سنة ١٩١٣ م موضحا أهداف الامام يحيى من عقد الصلح مع الدولة بقوله : « ان الامام كان يتصرف لمدى كبير تبعا لخطة فى ذهنه، وكان يعمل هذا ما دام خصمه الادريسى موجودا دون أن يقهر ، ولكن بعد أن ينهار الادريسى فان الأمور ينبغى أن تتغير ، ما دام كل من الترك والامام لا يثق كل منهما بالآخر ، فكلاهما ـ على أى حال ـ كانا متفقين تحت ضغط ضرورة القضـاء على البيت الادريسى » (١) ٠ وبين هذين الاتجـاهين المتضادين كان موقف الامام حرجا ومركزه مهتزا ، غير أنه وجد فى اتخاذ الموقف السلبى من القوى المتصارعة فى اليمن وسيلة لادخار جهوده وامكاناته للافادة منها فى وقت مناسب يتضح فيه الموقف فيحقق أهدافه الى أبعد مدى ممكن ٠

أما الثوار اليمنيون قد أخذوا يبحثون عن بديل للامام يكون أكثر ايجابية منه واستمرارا على المبدأ يقود ثورتهم ضد الأتراك ، وبحثت القبائل اليمنية الطامعة فى السلب والنهب والغنائم الى من يتزعمها فى حروب تحقق أغراضها ، وتمسك المتعصبون من رجال القبائل بمحاربة فساد الترك « وفجورهم » وبلغت حساسيتهم الى أن اعتبروا ارتداءهم للزى الأوربى أحد مظاهر هذا «الفجور» (٢)٠ فاندفعوا فى مواصلة التمرد ضد الترك والالتفاف حول كل من يحاربهم ٠ وقد التقى اتجاه هؤلاء وأولئك مع تصميم الادريسى فى عسير على مواصلة النضال ضد الحكم العثمانى فى اليمن ، فالتفوا حوله وشاركوه جهاده ضد الأتراك ، واستفاد الادريسى من جهودهم لتدعيم مركزه ومواصلة نضاله ، بعد أن تخلى عنه حليفه بالأمس الامام يحيى باتفاقه مع الدولة وعقد الصلح معها فى سنة ١٩١١م٠

وهكذا لم يكن اتفاق الصلح بين الامام يحيى والدولة فى سنة ١٩١١ليحل مشكلات اليمن حلا حاسما اذ ما لبثت هذه المشــكلات أن قامت من جديد ، وبخاصة بعد ازدواج السلطة التى حددها الاتفاق (٣) ٠ فقد تذمر أهالى صنعاء وضواحيها وأرسلوا الى حكومة الآستانة فى يونيو سنة ١٩١٤ برقيات احتجاج

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 150.

(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 38.

(٣) توفيق على برو : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ٠

طلبوا فيها أحد أمرين : اما أن تجبى الحكومة الضرائب وتدفع للإمام ما يترتب دفعه اليه ، أو أن تترك للامام أن يقوم بالجباية وبتدبير أمره مع الحكومة ، لأن الأهالى لا يستطيعون دفع الضريبة مرتين (١) • وفى ذلك الوقت كان الأهالى قد فقدوا ثقتهم بالامام ، وبدءوا يتذمرون منه لضعف نشاطه ، بل انهم مالوا الى الادريسى الذى أصر على مواصلة الثورة ، فانضمت اليه بعض القبائل حتى من الزيديين الذين كانوا يشكلون قوة الامام الرئيسية ، مما دعم المركز العام للادريسى وساعده على مواصلة النضال ضد الحكم العثمانى فى اليمن •

موقف الادريسى من العثمانيين فى أعقاب الصلح الذى عقدوه مع الامام يحيى :

أوضحنا فيما سبق أن اتفاق الصلح الذى ترتب عليه مهادنة الامام يحيى للترك وتحالفه معهم قد أدى الى اهتزاز مركز الامام أمام عامة اليمنيين بل أمام بعض أتباعه من الزيديين ، بينما أدى فى الوقت نفسه الى تدعيم مركز الادريسى الذى واصل الثورة على الترك فى عسير وحمل لواء النضال ضدهم ، وبخاصة بعد أن علم باتفاق حليفه السابق معهم • وقد دعم مركز الادريسى انسلاخ كثير من القبائل التابعة للامام وانضوائها تحت لوائه (٢) ، بل أن بعض أتباع الامام بدءوا فى عام ١٩١٣ م يتصلون بالادريسى ويبدون رغبتهم فى مبايعته وذلك بعد أن اصطدم رجاله بقوات الامام يحيى وتغلبوا عليهـا واستولوا على ثلاثة حصون هدمتها مدافعهم ، وبدأ نفوذ الادريسى يزحف من عسير الى داخل اليمن، هذا فضلا عن أن قبيلة حاشد التى كان الامام يحيى يعتمد عليها فى أثناء جهاده ضد الترك تحولت عنه وبايعت الادريسى ، وأرسل شيخها «منصور بخيت» عددا من أبناء زعماء القبيلة الى جيزان عاصمة الادريسى ليكونوا لديه رهينة وتأكيدا لمبايعتهم له (٣) •

ولقد اشتعل حماس الادريسى فى محاربة الترك منذ اللحظات الأولى لعقد الصلح بينهم وبين الامام يحيى • ويبدو أنه أحس بانفراده فى ميدان الجهاد الذى آمن به بعد أن رفض الترك الاستجابة لمطالبه ، بل انه أحس بالطعنة التى وجهت اليه من حليفه السابق الامام يحيى الذى اعترفت له الدولة بوضعه الخاص فى اليمن • واذا كان اتفاق الصلح قد عقد فى أوائل مايو سنة ١٩١١ م فان الادريسى فى اليوم الثالث عشر من هذا الشهر قام بقطع خطوط البرق التى كان يعتمد عليها الترك ، وحاصرت قواته بقيادة السيد مصطفى عاصمة عسير «أبها»

---

(١) Correspondence d'Orient, 1-6-1914, p. 521.

(٢) الأهرام : العدد ١٠٦٦٦ فى ٣ من ابريل ١٩١٣ •

(٣) المؤيد : العدد ٦٩٦٦ فى ١٩١٣/٤/٢١ •

التى اتخذها العثمانيون مركزا لهم ۰ وقد تمكن الادريسى من أسر عدد كبير من الأتراك كما غنم كميات من الأسلحة العثمانية (١) ۰

ولا شك أن أمل الادريسى قد خاب فى صديقه بالامس الامام يحيى ، وأحس أن الامام كان يصادقه فقط ليحمى ظهره فى أثناء هجومه على المراكز التركية فى وسط اليمن ، وفى أثناء حصاره للحامية العثمانية فى صنعاء عاصمة الولاية ۰ على أنه لا ضير لدى الادريسى من ذلك فى الوقت الذى كان فيه هدف الصديقين واحدا وهو محاربة الحكم العثمانى فى اليمن ۰ أما وقد فوجىء الادريسى بالامام وقد تخلى عن مبدئهما المشترك باتفاقه على الصلح مع الأتراك ، فقد جعله ذلك يشــعر بتخلى صديقه الامام عنه ، وبأن الدولة قد أعطت الامــام من الحقوق ما لم ترتضه له هو ، فكان طبيعيا أن يتحرش الادريسى بجنود الدولة (٢) ويظهر فى الوقت نفسه جفاءه لصديقه بالأمس الامام الذى تنكر لجهادهما المشترك ضد التــرك ۰

ولا شك أن الأتراك العثمانيين والامام يحيى كانوا يتوجسون خوفا من تطور نفوذ الادريسى فى عســير ونموه المستمر مما شكل خطرا على كيان كل منهما فى اليمن ۰ فقد نجح الادريسى نجاحا ساحقا فى اجتذاب القبائل اليمنية فى عسير الى جانبه ، وبخاصة وأن البيت الادريسى الذى اشتهر أهله بالتقوى والصــلاح كان موضع اجــلال اليمنيين واحترامهم ۰ وكان الادريسى « يخاطب الناس بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ويحثهم على اتباع قواعد الدين ، والرجوع الى الاسلام فى أصوله وبساطته ، كما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ومنع الغزو ، وأزال الشقاق والخلافات القديمة بين القبائل والعشائر ، وطبق العــدالة والمساواة بين الجميع ، ولم يستملهم ، كما اتهمه البعض باستعمال الفسفور ، والكهرباء وغير ذلك من الاختراعات العصرية الجديدة ، التى لم ترها عربان اليمن بقصــد اقناعهم بولايته أو نبوته ، وكانوا يحبــونه لدرجة العبادة والتقديس وينفذون أوامره بكل طاعة وارتياح ، والسعيد منهم هو الذى يتشرف بمقابلته ويتبرك بتقبيل يده وركبته » (٣) ۰ وهكذا كان تقدير القبائل اليمنية فى عسير للادريسى يرجع الى تمسكه بأهداب الدين والفضيلة ، وتعمقه فى فهم مشكلات مجتمعهم ، وقيامه بمجهودات قوية لوضع حد للفوضى التى كانت تسود المنطقة والتقريب بين قبائلها وتدعيم الأمن والسلام بينهم ، بل انه تمكن من اقامة حكم قــوى على أســاس من الشريعة ، وكان حازما فى تطبيق أحكامها وعقوباتها على المخالفين من رجال القبائل فأعدم حوالى المائتين قصاصا ، وقطع

---

(١) Brémond, E. : Op. cit., p. 77 ; Jacob, H.F. : Op. cit., p. 121.

(٢) Revue du Monde Musulman, V. IX, Sept, 1909, p. 173.

(٣) المنار : المجلد ١٥ ، ج٦ ، ٥ من يونيو سنة ١٩١٣ (٣٠ من جمادى الآخرة ١٣٣١هـ) ، ص ٤٦٥ ــ ٤٦٦ ۰

أياد كثيرة اقامة لحد السرقة ، وأحل الأمن والاستقرار مكان الفوضى والاضراب . كما اتجه الى ما هو أعمق من ذلك وأدعى الى بناء ملك مستقر وذلك بتنظيم حياة البدو اليمنيين من النواحي الادارية والقضائية والاقتصادية، فوضع على كل قبيلة عسيرية قاضيا وأميرا من قبله ، ينظر الأول في الشئون القانونية ، ويتولى الثاني الشئون الادارية والحربية ويجمع الزكاة الشرعية باسمه ، وقد حرص الادريسي على دوام الصلة بينه وبين القبائل المختلفة وثيقة منتظمة مهما بعدت الشقة بين مراكزها وعاصمته . بل انه نظم الموانيء التي كان يحتلها ، وجعل في كل ميناء جمركا يديره « عمال » وموظفون من قبله يحصلون الرسوم الجمركية على الواردات والصادرات ، وكان يحرص على أن تكون الرسوم التي يتقاضاها أقل من الرسوم التي تجبيها الدولة ليظهر عدالته وتميزه عنها ، وقد أدى هذا الاستقرار والتنظيم الى رواج التجارة بين موانيء الأدراسة ، ميدى ، وشفيق ، وحبل ، وبركة ، والغور وبين مينائي عدن ومصوع ، فكانت السفن الشراعية ـ التي كانت تسمى سنابك ـ تحمل البضائع المختلفة بين هذه الثغور المتقاربة . ولكي يستكمل الادريسي لملكه الجديد مظهر الدولة فقد جعل لنفسه وكيلا يسمى «يحيى زكريا» كان بمثابة «رئيس الحجاب» أو « الصدر الأعظم » ، كما عين « محمد يحيى » أمينا لبيت المال وكان بمثابة وزير المالية . هذا فضلا عن تنصيبه لعدد من القواد على قواته الادريسية كانوا يحملون شارات خاصة كل واحد حسب رتبته (١) . وقد أدى هذا التنظيم المحكم الذى وضعه الادريسي لملكه الجديد في عسير الى انزعاج كل من الأتراك العثمانيين والامام يحيى ، وجعلهما يتفقان معا على بذل الجهود لتحطيم دولته الفتية لما لهما في ذلك من مصلحة مشتركة وبخاصة بعد أن عقد اتفاق الصلح بينهما في سنة ١٩١١ م . وعندما رأى الادريسي حليفه بالأمس الامام يحيى يصادق الأتراك وينقلب عليه مشتركا مع قواتهم العثمانية في محاربته ، فقد أخذ يعد نفسه لمواجهة قواتهما المشتركة . وقد استعان الادريسي بأهالي عسير الذين التفوا حوله وحاربوا معه بكل ما لديهم من قوة ، كما أيدته في جهاده ووقفت الى جانبه كثير من القبائل اليمنية ـ كان بعضها من الزيديين الذين تضامنوا مع الامام في أثناء صراعه ضد الترك ثم تخلوا عنه بعد اتفاقه معهم حفاظا على رغبتهم في الغنائم واستنكارا منهم لتحوله عن مبدئه ومصالحته الأتراك وتقديرا منهم للادريسي الذى أصر على مواصلة النضال ضد الحكم العثماني في اليمن .

ولقد جرب الادريسي حظه مع العثمانيين دون جدوى وقاسى الأمرين منهم ، فكلما كان يحاول الاتفاق معهم لتسوية الخلافات فانهم كانوا سرعان ما ينقضون عودهم ويعلنون من جديد الحرب عليه ، لأنهم كانوا يؤمنون في أعماقهم بالحكم المركزي الذى لا يسمح للقوى المحلية بأن ترفع رأسها وتتمتع بكيانها الخاص

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، ج٦ ، ٥ من يونية ١٩١٣ ، ص ٤٦٨ ـ ٤٦٩ .

ولو تحت سيادة الدولة ، واذا كانت الدولة قد قبلت تحت ضغط ظروف قاهرة أن تتفاوض مع الادريسي والامام في شأن الوصول الى حل لقضية اليمن ، فانها سرعان ما كانت تضع على عينيها غشاوة تخفى عنها الواقع والحقيقة وتجعلها تركب رأسها متمسكة بسياسة « المركزية والتتريك » • واذا كانت الدولة تحت ضغط الظروف القاهرة وبتأثير من بعض المخلصين من رجالها عقدت الصلح مع الامام يحيى في سنة ١٩١١ م حتى توفر على نفسها الخسائر الباهظة فى الأرواح والأموال التى كانت تتحملها فى أثناء اخماد الثـورات اليمنية المستمرة ، فقد حاولت الدولة أن تجعل الامام يراسل الادريسى ويحـاول التأثير عليه ليقبل الصلح مع الدولة والتراضى معها من أجل « خدمة الاسلام » ، وليحثه على عدم التعاون مع الايطاليين « أعداء الدين » ، وبخاصة بعد أن احتلت قواتهم طرابلس الغرب وانتزعتها من دولة الخلافة •

وقد أجاب الادريسى فى خطاب طويل على الامام يحيى فى شهر مارس سنة ١٩١٢ م (١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ) أى بعد أن عقد الصلح بين الامام والدولة مؤكدا له قدم رغبته فى عقد الصلح مع الدولة ، غير أن الأتراك لم يصدقوا معه فى وعودهم التى قطعوها على أنفسهم بقوله : « أما مادة الصلح بيننا وبين الحكومة ، فمن أول يوم وما ندعو اليه هو الوفاق ، وكلما أرادوا عقد ذلك نقضوه • وكفى بما كان فى المدة الأخيرة ، فان المذاكرة حصلت بيننا وبينهم فى هذا الموضوع ثلاث مرات ، بل أربع مرات ، بعد وصول رسلهم الينا ، فاذا أجبنا بما فيه الوفاق ، أعرضوا تيها وكيدا واحتقارا لنا • فأولى المرات بوساطة محمد توفيق (١) فى مجيئه الأخير • فأجبناهم ذاكرين مواد بسيطة ، لأن فى ذلك الوقت لم يكن قد وقع بيننا وبينهم سفك دماء • وتلك المواد هى أن نكون فى جهاتنا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، ضابطين للبلاد من الفساد ، مع بناء مراكزهم ، واليهم تساق الحاصلات ، وعليهم القيام بما يلزم من معاش القضاة والمترددين فى مصالح البريات ، وألا يحدثوا زيادة من القوة فى البلاد وأن يفك أمير مكة صالح بن حسن ، وصاحبه من الحجاج • وهذه المواد مما يضحك منها ، لأنها لبساطتها لا تكاد أن تكون مطالب ، ولكن أدانا الى ذلك حب الراحة للبلاد والعباد • فما كان الجواب الا بنقيض ذلك ، فساقوا تلك القوة التى يقـدمها محمد راغب بك ، ومحمد على باشا فى « جيزان » وملئوه بالآلاف ، وازدادوا عدوانا على طلب الحجاج لحبسهم ، كما وقع فى الحبس بعض رجال « ألمع » فى

(١) كان محمد توفيق الارناءوطى الأصل ، من علماء الترك وقد تعرف على السيد محمـد الادريسى فى أثناء دراستهما فى الأزهر الشريف فى مصر • ولهذا اختاره الاتحـاديون للتفـاوض مع الادريسى أكثر من مرة • وكان محمد توفيق يرى أن الادريسى مخلص للدولة يبغى الاتفـاق معها ، غير أن الاتحاديين أهملوا رأيه هذا ولم يأخذوا به ، مما أدى الى استمرار العداء والحروب بين الادريسى والدولة العثمانية •

حج هذا العام ، وأشعروا أن العسيري تابع لامارة حسين بن عوف (أمير مكة) ، وأرسلوا الينا بطريق مصر فى حين وصول القوة العامة برفق عزت (باشا) أني ان أردت السلامة أفتح لهم الطريق الى الأمام التي تمر على طرف البلاد التي بيدينا ففوضنا الأمور الى الله ، واستعنا به في مدافعتهم ، وبحمد الله قد كان ما كان » .

واستطرد الادريسى في خطابه الى الامـام يحيى موضحا تطور عـلاقته بالأتراك في عسير وعدم ابتجابتهم مرارا لرغبته في عقد الصلح حتى تستقر الأمور فى عسـير والمخلاف السليمانى فقال : « ثانى المرات بوساطتكم (يقصد الامام يحيى) عندما وصل اليكم عزيز (يقصد عزيز المصرى) ، ووافقنا لكم ، فكان منهم الجواب بالتعليق على ما هو في حكم المستحيل ، وهو اجابتنا لحضور الآستانة . وقد تحقق لكم من هذا نهاية الاعراض مع أنكم قد بذلتهم الجهد ، كمـا أخبر عزيز عند وصوله مصر لبعض أصدقائنا بذلك ، وبما كررتموه من المراجعة فيما هنالك . ومنع عزت ، وأخذ في تجهيز نحو تسعة وثلاثين طابورا ، الى أن حال بيننا وبينهم الله ، بما تداركنا من رحمته ، فكشف عنا الغمـة ، ونجانا كما هي سنته مع عباده المؤمنين ، وعكس عليهم القضية » .

« ثالثها (أى ثالث هـذه المفاوضـات بين الادريسى وممثلى الدولة) كان بوساطة السيد « الشراعى » مع بعض اخواننا ، فأجبنا ، فكان الجواب منهم بالسكوت » .

« رابعها مع سليمان (باشا) متصرف عسير » (١) .

وهكذا استعرض الادريسى فى خطابه للامـام يحيى استجابته المستمرة لمحاولات العثمانيين التى أشار اليها للاتفاق على الصلح ، غير أنه كان يصطدم دائما بمراوغتهم أحيانا ورفضهم لشروطه العادلة أحيانا أخرى ، وصمتهم السلبى عنـدما يتذكرون ما انطبعوا عليه وتمسكوا به من سياسة المركزية فى الحـكم والادارة ، مما جعلهم لا يعترفون للعناصر المحلية بوضع خاص الا اذا اضطروا الى ذلك اضطرارا وضغطت عليهم الظروف الصعبة من كل جانب كما حدث مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١ م

وتجدر الاشارة الى أن الادريسى لم يكن يعتبر اتفاق الامام يحيى مع الترك كسبا مما جعله يقول فى خطابه للامام : « أما ما أشرتم اليه أن لو اقترن ما بيننا وبينهم بصلح ما بينكم وبينهم ، فاعلم أيها الأخ الامام أنى عندما أتلو ذلك، أجد خاطرى ينكسر مما هنالك ، لأنه حين أرادوا أن يغتنموا الفرصة فى ، وان كنتم جزاكم الله خيرا ، كررتم التوسط فى الصلح ، لكن لا على طريق الشرطية ، بخلاف الآن (مارس سنة ١٩١٢ م ــ ١٦ من ربيع الأول ١٣٣٠ هـ) . لما كان

(١) المنار : المجلد ١٦ ، ج٤ ، ص ٣٠٠ ــ ٣٠٣ (من كتاب الادريسى للامام يحيى) .

الصلح لمصلحتهم أوفق ، آثرتموهم على مع أنى الصاحب القديم ، والخل الذى هو على العهـد الى الممات مقيم » (١) . فالادريسى لم يكن ليقبل الصلح بمثل الشروط التى تمت مع الامام يحيى ، وبخاصة بعد أن اتسعت سلطته وقوى نفوذه .

على أن موقف الترك من الادريسى لم يكن قد بلغ بعد ما يجبرهم على عقد الصلح معه على غرار ما حدث مع الامام يحيى — زعيم الزيدية فى اليمن بما كان لها من ترات تاريخى قديم لا يخفى على الترك معرفته وتقدير كيانه . ويوضح حقيقـة موقف الأتـراك من الادريسى ذلك التصريح الذى أدلى به الامـيرالاى العثمانى احسان بك لمندوب جريدة المفيد البيروتية ، والذى نقلته عنها جريدة المنار المصرية ، موضحا فيه سياسة القائد العثمانى عزت باشا مع الادريسى بعد عقد الصلح مع الامام يحيى بقوله : « ان فى عزم عزت باشا أن يجرد عليه (على الادريسى) قوة من الجيش اليمنى (أى الجيش العثمانى فى اليمن) وستبدأ عما قريب الحركات العسكرية فى عسير . ومن رأى عزت باشا أن الادريسى قد ادعى « المهدية » حديثـا ، أما الامـام يحيى ، فنسبه ثابت والامامة وراثية فى عائلته ، فاذا عقد القائد معه (مع الادريسى) فانه يخشى من ظهور مئات أمثال الادريسى » (٢) . وهكذا كانت الدولة العثمانية ترى أنه طالما كان فى امكانها حربيا أن تخضع الادريسى وتقضى على حركته « المهدوية الحديثة » التى تفتقر الى الجذور العميقة والتراث التاريخى القديم بعكس ما كان عليه الحال مع امام الزيدية . فانه يجب عليها التمسك باخماد حركته حتى لا يحذو حذوه ويتمثل به كثيرون غيره ممن لهم بعض النفوذ على قبائلهم ومناطقهم فى أرجاء الامبراطورية الفسيحة ، فيطالبون الدولة بالاعتراف بأوضاعهم الخاصة مما يقضى على وحدتها وتماسـكها ، على أنه كانت فى امكان الدولة أن تعين الزعمـاء المحليين الذين يعترفون بسيادتها عليهم كولاة لها فى مناطقهم أو كموظفين تابعين لادارتها ، فهم أكثر خبرة بطبيعة أحوال البلاد وأقرب الى قلوب أهلها وأقدر على احكام قبضتهم عليها من الولاة والموظفين الأتراك الذين كانت تصر الدولة على ارسالهم لحكم هذه البلاد الغريبة عنهم فى لغتها وعاداتها وتقاليدها ، الى جانب شعورهم بأنهم منفيون فى الولايات البعيدة عن عاصمة الدولة ، مما جعلهم لا يقبلون على فهم مطالب الأهالى وحاجاتهم ، بل انصرفوا عن كل ذلك الى مصالحهم الخاصة وانشغلوا باللهو عن أمور الولاية حتى يضيعوا الملل من نفوسهم ، وكان ذلك يؤدى بطبيعة الحال الى كراهية الأهالى وحقدهم وثوراتهم المستمرة على الحكم العثمانى . غير أن الدولة ما كانت لتقبل هذا الرأى لتمسكها بسياسة المركزية

---

(١) أسعد داغر : ثورة العرب ، ص ١٢٣ (من كتاب الادريسى الى الامام يحيى) .

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، ج٢ ، ص ١٥٦ (من حديث الاميرالاى احسان بك لجريدة المفيـد البيروتية) .

والتتريك وحرصها على اخضاع عناصر الامبراطورية بالقمع والاستبداد حرصا منها على كيانها ووحدتها ، غير أن هذه السياسة أدت فى النهاية الى انهيار الحكم العثمانى فى اليمن ٠

واذا كان الادريسى قد تعاون مع الامام يحيى فى الفترة من ١٩٠٧ ـ ١٩١١ م ، (١٣٢٤ ـ ١٣٢٩ هـ) عندما وجدت الغاية المشتركة بينهما وهى مقاومة الحكم العثمانى فى اليمن ، فقد افترق الصديقان واختلفا عندما عقد الامام يحيى الصلح مع الدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ م (١٣٢٩ هـ) وهى السنة نفسها التى حدثت فيها معركة الحفائر التى هزم فيها الأتراك هزيمة ساحقة فى جيزان أمام القوات الادريسية ٠ اذ أسف الادريسى لتحول صديقه الامام يحيى عن مشاركته فى محاربة الترك ، بل انه أصبح حليفا لهم بعد أن عقد معهم اتفاق الصلح ، فشكل بذلك خطرا جديدا على الادريسى بعد أن كان عونا له وسندا ، واذا كان الترك قد سعوا لدى الامام يحيى لكى يحث الادريسى على الاتفاق مع الدولة خاصة بعد أن لقيت دعوته فى عسير رواجا وتوفيقا وأصبح يهدد نفوذ الأتراك فى المنطقة بعد أن انتصرت قواته عليهم فى جيزان ، فان الامام يحيى بالتالى كان يأمل أن يكون الادريسى تابعا لنفوذه ، لا سيما بعد أن توصل الامام قبل صاحبه الى الحصول على اعتراف من الدولة بوضعه الخاص فى اليمن ٠ ولكن الادريسى كان من سعة الأفق وبعد المطمح والحنكة السياسية بحيث أصر وأثبت فعلا وجوده مستقلا وغير تابع لأى من الامام يحيى أو الدولة العثمانية على السواء (١) ٠ واذا كان الادريسى قد رحب من قبل بالاتفاق مع سعيد باشا مبعوث الدولة اليه فى سنة ١٩٠٩ م (١٣٢٧ هـ) على أن يبقى حاكما على المخلاف السليمانى باسم « قائمقام » وكموظف عثمانى تابع للدولة ، فان الادريسى قد قبل ذلك بصفة مبدئية أو مؤقتة كاعتراف ضمنى من الدولة بنفوذه حتى يمكنه عندما تتاح له الفرصة فى المستقبل أن يجبر الدولة على قبول مطالبه جميعها دون قيد أو شرط ٠ وقد تطور فعلا نفوذ الادريسى وامتد تدريجا الى منطقة نفوذ الامام يحيى حتى « صعدة » وأرسلت القبائل اليمنية فى المنطقة رهائنا الى الادريسى فى صبيا معبرة عن ولائها لسيادته ٠ وكان فى تلك المنطقة عدد من المراكز التركية وعدد آخر من المراكز التابعة للامام يحيى ، وقد ثار معظم أهلها وانضموا الى الادريسى ، فاصطدم منذ ذلك الوقت النفوذ الادريسى بالنفوذ الامامى ، كما اتفقت مصلحة الترك ومصلحة الامام فى صد تيار النفوذ الادريسى ووضع حد لتوسعه ٠ وقد نشب قتال عنيف بين الجانبين فى «رازح» رجحت فى نهايته كفة الادريسى (٢) ، فأنى للادريسى بعد ذلك أن يقبل تبعيته

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤١ ٠

(٢) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ٠

ويعلن ولاءه لأى من الجانبين الامامى أو التركى بعـد هزيمتهما أمـام قواته المنتصرة ٠

وبعد هذا الانتصار الذى أحرزته القوات الادريسية على القوات الامامية والعثمانية فى رازح فان العداء أخذ يشتد بين المنتصر والمهزومين وبخاصة بعد أن عقد الصلح بين الامام والأتراك فى سنة ١٩١١ م (١٣٢٩ هـ) ، وهى نفس السنة التى هزم فيها الترك فى معركة الحفائر فى جيزان ٠ ولم يخدع الادريسى أو يغتر بانتصاره على أعدائه ، بل كان يعلم حقيقة قوتهم التى كان يمكن أن تصل اليها الامدادات من أرجاء الدولة العثمانية ٠ واذا كان الادريسى قد رأى صديقه بالأمس الامام يحيى يحالف الأتراك ويستعين بهم فى محاربته ، فانه رأى ـ والموقف أصبح أشـد خطورة أمـام تضـامن أعدائه ـ أن يوطد صلته بالايطاليين أعداء الدولة العثمانية ، بل وبالانجليز فيما بعـد محالفا اياهم من أجل تحقيق غايته وهى محاربة الأتراك واجلائهم عن اليمن على ألا يمس ذلك استقلال بلاده فى المستقبل (١) ٠ وهـكذا كان الادريسى أول من انضـم الى الأحلاف من أمراء العرب ، وأول من حمل فى البلاد العربية على دولة الترك حليفة الألمان (٢) فى الحرب العالمية الأولى كمـا سنوضح ذلك عند دراستنا لموقف العثمانيين فى اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى فى الفصل التالى ٠

وهكذا اتجه الادريسى الى محاربة الأتراك العثمانيين فى اليمن بكل ما لديه من قوة ، فقام السـيد مصطفى عم الادريسى بمحاصرة مدينة أبهـا التى كانت مركزا لتجمع القوات التركية فى عسير وذلك بعد أن تم الصلح بين الامام يحيى والدولة فى سنة ١٩١١ م ٠ واستمر الأدارسة فى تشديد الحصار حتى تمكنوا من احتلال أبها التى كانت فيها حامية تركية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى وثلاث بطاريات ، وعدة مدافع كبيرة ٠ كما هزم شريف مكة الذى تعاون مع الأتراك وأسرع لانقاذ حاميتهم فى أبها (٣) ٠ ولقد هاجم العسيريون مقدمة الجيش التركى التى كانت تعسكر على بعد ثلاثة أميال من جيزان ٠ وكانت مقدمة الجيش هذه مؤلفة من أربع بطاريات ، وأربعة مدافع ، فقتلوا منها الكثير بعد أن اشتبك الطرفان وجها لوجه ٠ وقد هربت فلول الجيش التركى فى حالة ذعر واضراب الى جيزان فتتبعهم الأدارسـة وقد اسـتولوا على عـدد من البنادق والمدافع العثمانية ، بالاضافة الى كثير من الذخائر والمهمات ٠ وازدادت الأمور سـوءا عندما ظهرت الكوليرا فى هذه المنطقة ، وأصيب بها حوالى الثمانين وتوفى فعلا اربعة وثلاثون ، كما انتشر الوباء أيضا فى طوابير الجيش العثمانى المرابط فى

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ٠

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ٠

(٣) المؤيد : العدد ٦٣٨٠ السبت ٣ من يونيو ١٩١١ (٦ من جمادى الثانية ١٣٢٩ هـ) ، ص ٦ ٠ Brémond, E. : Op. cit., p. 77.

مدينة قنفدة (١) • ولكن الامدادات بدأت تتوالى على عسير من خارج اليمن • وفى اليوم العشرين من شهر يوليو سنة ١٩١١ م ، استطاع الأتراك بمعاونة بعض القبائل اليمنية الموالية لهم زحزحة ستة آلاف من البدو اليمنيين من أتباع الادريسى كانوا معسكرين حول اللحية ، ولكن الثوار الأدارسة كانوا لا يزالون يحتلون آبار جيزان مما كان يجبر الجنود الأتراك على جلب مياه الشرب اللازمة لهم من عدن (٢) فى أقصى الجنوب فكان ذلك يحملهم عناء كبيرا ونصبا • وأخيرا استطاعت القوات العثمانية أن تسترجع مدينة أبها واضطر الادريسى أن يتراجع الى المرتفعات الجنوبية فى عسير (٣) •

أما الدولة العثمانية فقد حاولت فى سنة ١٩١٢ م أن تطوق الادريسى من الجنوب ومن الشمال وذلك بأن تأتى من الشمال بقوة من الحجاز تحت قيادة فيصل ابن شريف مكة — الحسين ، وتطبق عليه من الجنوب قوتان عثمانيتان تخرج احداهما من صنعاء والثانية من اللحية ، غير أن هذه العمليات الحربية المشتركة ضد الادريسى منيت بالفشل الذريع ، ويرجع هذا الى ضعف اقدام القوة الشريفية وانعدام الحافز لديها • وفى تلك السنة رابطت قوات عثمانية على طول ساحل عسير الممتد من اللحية الى زهران وذلك لتأمين الحديدة من اغارات القوات الادريسية التى كانت ايطاليا تساعدها من البحر • كما كان الترك يهدفون من وجود هذه القوات أن يمنعوا أى اتصال محتمل بين الأدارسة فى عسير وبين قبيلة الزرانيق فى تهامة ، تلك القبيلة التى تميزت بقوتها وشدة بأسها وتمردها على الأتراك (٤) ، وقد أرادوا بذلك ألا يزيدوا من متاعبهم ومشكلاتهم فى المنطقة • أما ما دفع فيصل بن الحسين الى الاشتراك فى الصراع الدائر بين الأدارسة والأتراك فى اليمن ، فقد كان نتيجة لوقوعه تحت اغراء الأتراك ، بعد أن وعدوه بأنهم سيولونه حكم امارة عسير اذا تمكن من القضاء على الادريسى • غير أن فيصل برغم محاولته استنفار القبائل ضد الادريسى ومحاربته ، فان قواته منيت بالفشل وعاد الى الحجاز فى أوائل سنة ١٩١٣ م بخفى حنين (٥) •

وجدير بالذكر أن ايطاليا بعد احتلالها لطرابلس الغرب فى سنة ١٩١١ م خشيت من سريان نار الحرب ضدها الى باقى العالم العربى تلبية لدعوة الخلافة العثمانية • لهذا أسرعت ايطاليا الى فتح جبهة حربية أخرى فى اليمن وعسير

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٩٨ فى ٢٤ من يونيه ١٩١١ ، ص ٦ •
(٢) المؤيد : العدد ٦٤٣٢ فى ٢٧ من يوليه ١٩١١ ، ص ٦ •
(٣) المؤيد : العدد ٥٤٤٠ فى ١٢ من أغسطس ١٩١١ ، ص ٦ •
(٤) Bury, G.W. : Op. cit., pp. 35-36.
(٥) المؤيد : العدد ٦٦٦٦ فى ١٩١٣/٤/٢١ ، ص ٦ •

لاشغال الدولة العثمانية واضعاف مقاومتها بتشتيت مجهوداتها الحربية. واقتضى ذلك أن تحاصر بعض قطع الأسطول الايطالى الموانى اليمنية ماعدا تلك التى فى قبضة الادريسى وضربتها من البحر فخربت الحديدة وفر أهلها فى أرجاء تهامة ، كما ضربت مدينة الشيخ سعيد المقابلة لبريم بقليل من القنابل غير أنها لم تحدث خسائر كبيرة (١) ، كما ذكر الادريسى فى خطابه للامام يحيى الذى سبق أن أشرت اليه أن الايطاليين أغرقوا بعض القطع البحرية العثمانية الخاصة بخفر السواحل ، بل ان ايطاليا فى الوقت نفسه قصفت بمدافع أسطولها ميناء بيروت ، وذلك بحجة وجود سفينتين حربيتين صغيرتين فى الميناء ، وأغرقتهما فعلا ، وان كانت الدول الأوربية كلها قد احتجت على مهاجمة ميناء بيروت خاصة لأهميته التجارية الدولية (٢) .

على أن هدف ايطاليا من محاربة الأتراك فى اليمن ومساندة الادريسى ضدهم لم يكن يقصد منه فقط فتح جبهة حربية جديدة تشغل العثمانيين عن استرداد طرابلس الغرب ، بل ان ايطاليا كانت تهدف أيضا الى بسط نفوذها على البلاد اليمنية . ويرجع ذلك الى أن الادريسى بعد أن نشر الأمن فى عسير ونظم موانيها وشجع تجارتها ، فقد راجت هذه التجارة وانتظمت بين موانىء اليمن وبين عصب ومصوع الميناءين الايطاليين على الشاطىء الافريقى المواجه لعسير . ولهذا لم يكن غريبا حينذاك أن تتطلع ايطاليا فى لهفة الى الوثوب على الشواطىء اليمنية المواجهة لمستعمراتها فى أريتريا على الساحل الافريقى . وقد ذكر جاكوب أن كاتبا ألمانيا قد عبر عن هذه الرغبات الايطالية فى سنة ١٩١٣ م بقوله : « منذ قرن مضى استطاع الانجليز أن يجعلوا أنفسهم أسيادا فى عدن .. والآن ترمى ايطاليا نظراتها المتطلعة الى شاطىء العربية الأخضر » (٣) . ولهذا فان رغبة ايطاليا فى احتلال شواطىء اليمن كانت رغبة قديمة رأت أن الظروف قد سنحت لتحقيقها بظهور الادريسى فى عسير فحاولت التقرب اليه للاستفادة من موانيه ومن منتجات بلاده . وكانت ايطاليا بسياستها هذه تحافظ على تجارتها من الضياع اذا ما وقعت موانى عسير فى أيدى الأتراك . غير أن هدف ايطاليا الحربى كان أهم بكثير من هدفها التجارى اذ كانت تخشى من استيلاء تركيا على هذه الموانى وتستخدمها فى اثارة المتاعب ضدها فى مستعمراتها الافريقية فى أريتريا . وهكذا حرصت ايطاليا على توطيد علاقتها بالادريسى ومساندته ضد الأتراك لهذه الأسباب جميعها .

أما الادريسى فقد رأى أن الموقف يحتم عليه ضرورة الاتصال بايطاليا والاستجابة لرغبتها فى توطيد التعاون بينهما وبخاصة بعد أن تركته الدولة

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 126.

(٢) اللواء : العدد ٢٨٣٢ فى ١٩١٢/٣/٥ (١٦ ربيع الاول ١٣٣٠ هـ) ، ص ٤ .

(٣) Jacob, HF. : Op. cit., p. 127.

العثمانية « خارج الحلقة الاسلامية » (١) وتخلى عنه حليفه بالأمس الامام يحيى ، بل ان الدولة قبلت أن تعقد صلحا مع الامام تعترف بوضعه الخاص فى اليمن فى سنة ١٩١١ م ، بينما رفضت أن تفعل ذلك مع الادريسى برغم ما كان يتمتع به من مكانة ونفوذ بين قبائل عسير والمخلاف السليمانى • هذا فضلا عن أن الدولة تعاونت مع الامام يحيى فى سبيل القضاء على الادريسى نهائيا مما يؤكد أن المفاوضات أو التقارب الذى كان يحدث بين الدولة والادريسى لم تكن الدولة تقصد به الا كسبا للوقت ، أو تمييعا للثورات العنيفة التى كان الادريسى يثيرها ضارية ضد الترك(٢)•ووجد الادريسى نفسه يواجه عدوين متعاونين هما الدولة والامام فى وقت اتحدت فيه أهدافهما للقضاء عليه • ومما زاد الأمر سوءا تعاون الشريف حسين معهما لمحاربة الادريسى فكانت القوات الشريفية تعاود على الادريسى من الشمال المرة تلو الأخرى ، لا سيما بعد أن أغرت الدولة الحسين بتولية ابنه فيصل أميرا على عسير اذا نجح فى القضاء على الادريسى (٣) • لهذا واجه الادريسى موقفا صعبا وأعداء متعاونين فى وقت واحد مما جعله لا يجد حرجا — برغم اتجاهاته الاسلامية — فى الاستعانة بالايطاليين لفض الحصار المضروب حوله من جميع الجهات • وهذا ما دفع جاكوب الى القول بأن الادريسى « كان يتحين الفرصة للحصول على مساعدة ايطاليا » (٤) ، بل ان ايطاليا فى الوقت نفسه كانت تمد يدها للادريسى لتتعاون معه تحقيقا لمصالحها الاستعمارية التى سبق أن أشرت اليها •

وقد أوضح أمين الريحانى معالم السياسة التى اتبعها الادريسى فى الاستعانة بالأجانب لمحاربة الترك وحلفائهم بقوله أن الادريسى « أخذ من الايطاليين سلاحا استخدمه نارا وسياسة على عدوها (عدو ايطاليا) وعدوه (ويقصد به الترك وحلفاءهم) ••• ولكن انتصاره على الزيديين فى ذاك الحين كان يعد انتصارا على الأتراك » • ثم يستطرد الريحانى قائلا : « ان من فضائل السيد محمد (الادريسى) ثباته منذ بداية أمره على مبدأ واحد • فقد كان عربيا صميما ، جسورا فى سبيل ما يبغيه ، يحالف أية دولة كانت على أعدائه الترك ومن كان خلفهم من أمراء العرب عليه • فما تذبذب فى مبدئه ، ولا تحول عن عزمه • حارب الأتراك وحليفهم الشريف ، وصديقهم الامام ، فكان فى الغالب منتصرا ودائما عزيزا • ولا أنكر أن الأحوال كانت حليفته ، ولكنه سلحها من لدنه بالعزم والمضاء » (٥) •

---

(١) Jacob, H.F. : Ibid., p. 125.

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٦٧ •

(٣) المؤيد : العدد ٦٩٦٦ فى ٢١ من ابريل ١٩١٣ ، ص ٦ •

(٤) Jacob, H. F. . Op. Cit., p. 127.

(٥) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ •

ويواصل الريحانى عرضه لسياسة الادريسى بقوله : « كان السيد محمد (الادريسى) حصيفا ذكيا ذا حنكة ودهاء ، يستعين على عدوه بكل ما حوله من زعامات وشقاقات ، بالزرانيق مثلا على الأتراك ، وبالشوافع على الزيديين ، وبالعشائر على الأشراف ، وبالانكليز على الجميع • وكان له عون كبير فى ارثه الروحى ضاعف نفوذه الشخصى وزاد ذكاءه الفطرى لمعانا » •

ويجيب الريحانى على ما يبدو من تناقض فى سياسة الادريسى ، اذ كيف له كزعيم دينى مسلم أن يتعاون مع الايطاليين فى سنة ١٩١١م ، ومع الانجليز فى أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الترك اخوانه فى الدين فيقول : « ولا تستغرب سياسته (أى سياسة الادريسى) الروحية والمدنية واستعانته بالانجليز (وينطبق ذلك على الايطاليين أيضا) وهو (أى الادريسى) ، فى تجهيز العساكر والدفاع عن نفسه فى بلد يعد فيه دخيلا ، يحتاج دائما الى المال والسلاح ، فخراج عسيرا لا يتجاوز المائة ألف ريال أى اثنى عشر ألف جنيه شهريا ، منها ثلاثون ألف ريال من الحديدة (١) (التى استولى عليها فى نهاية الحرب العالمية الأولى) • أما جنده فلا يتجاوزون فى أيام السلم الخمسمائة نفر وهم يقومون اذ ذاك مقام الشرطة فى البلاد » •

وأخيرا يوضح الريحانى مصدر القوة المحلية التى كان يستعين بها الادريسى فى حروبه بقوله : « ولكن الادريسى يستنفر فى الحرب القبائل بوساطة المشايخ والمقدمين فيلبيه ثلاثون ألف مقاتل ويزيد ، وهم يحاربون على الطريقة الأولى حرب البدو • فتجىء كل قبيلة أو بطن أو فخذ بزادهم وركائبهم وما عندهم من السلاح ، فيعطيهم الادريسى ما يحتاجون اليه زيادة ، ويمدهم بالذخيرة ، ويدفع فوق ذلك رواتب مرضية ، ولكن الغنائم هى الجاذب الأكبر فى حروب العرب كلها • لولاها لما كان جند فى تلك البلاد يذكر • أما الأمير الكريم الذى يغدق على المشايخ والزعماء فهو الفائز على زملائه فى السياسة ، والمنتصر على أعدائه فى الحروب • ولم يكن فى سلاح السيد محمد الادريسى وقواته فى حروبه كلها أمضى من هذا السلاح أى الكرم • فقد كان يحسن كذلك الى الكثيرين من السباهلة والمشايخ الذين يؤمون صبيا من بلاد المغرب ومن مصر » (٢) •

على أن الادريسى نفسه يبرر سياسته فى التعاون مع الأجانب لمحاربة الأتراك وذلك فى كتابه الى الامام يحيى ــ الذى سبق أن أشرنا اليه ــ ردا على خطاب الامام الذى كان يدعوه فيه الى الاتفاق مع الدولة وعدم التعاون مع الأجانب • وقد أشرنا الى أن الادريسى أوضح فى كتابه للامام المحاولات الأربع

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، هامش ص ٢٧٤ ، (أى أن خراجه السنوى نحو مائة وخمسين ألف جنيه منها ١٥ فى المائة عشور أى حبوب وغيره و ٨٥ فى المائة، ذهب وفضة) •

(٢) أمين الريحانى : المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٤ •

التى سعى فيها من أجل الاتصال بالدولة والاتفاق معها دون جدوى ، بل ان الدولة كانت تصده دائما وتحاول أن توقع به فى شراكها · **ثم يبرر الادريسى موقفه بعرض تطورات علاقته بالترك مما جعله يضطر فى النهاية الى التعاون مع الايطاليين ضدهم بقوله :**

« ثم فى هذه المادة (فى سنة ١٩١١) مع ما رأينا من فتك الطليان لهم (يقصـد بالترك) ، أخذنا العطف فأمسكنا كل حركة ، وكتبنا لمن فى مفرزة « ميدى » (١) ان دهمكم شىء فلكم منا عون ، فكان منهم أن محمد على (والى اليمن العثمانى) مر بطريق « القنفدة » ·· وأخذ يحرق ما وجد فى طريقه من بيوت السادات العلماء ، لأن هذا الرجل أكبر عداوته لأهل الدين ، لأن ما ناله من شرف فى الآستانة (كان) بسبب شنقه لعالم فى « أطنة » أيام تنازع وقع بين المسلمين والنصارى هناك · ولما قدم « جيزان » بالعساكر لم يختر لهم « خسته خانه » الا جامع تلك البلدة ، ولا يهمه أن تلوث بالنجاسة ، وتعطلت اقامة الجمعة فيه ، وكأنه يظن أن هذه الأسباب فى ارتزاقه النياشين والرتب من باب « من رزق من شىء فليلزمه » ، وهذا هو السبب فى تجهيز ما وجهناه من الجند الى الشام (٢) ، لأجل مدافعة هذا الطغيان ، والمحافظة على مراكز أهل الدين والايمان » ·

ثم يستعرض الادريسى فى خطابه ما دار بينه وبين مبعوثى الامام يحيى الذين حملوا اليه خطاب الدعوة الى مهادنة الترك بقوله : « وقد حصلت المذاكرة بيننا وبين هؤلاء الاخوان (٣) فى هذه الأحوال ، الى أن ساقَ بنا الكلام الى مفرزة « ميدى » ، وأخبرناهم أن الطليان قد ضرب (هكذا)قلاع الدولة ومراكزها من باب المندب الى جدة ، وهد (هكذا أيضا) تلك الحصون بمدافعه ولم يبق الا هذه القلعة ، مع أن شيخ البلد التى فيها قد سبقت له جناية من الطليان بوساطة شهادة سنبوك (سفينة شراعية) طال الخلاف بين الترك والطليان فيه ، وتوقف الأمر على شهادة هذا الشيخ وتهددته الدولة بالشهادة لها فشهد ، فاذا قصد الطليان هذه المفرزة ، لا يقتصر عليها بل يتعداها الى تلك البلد لما جناه شيخها عليهم ، وسابقا قد ضربوا هذه البلدة كما عرفته ، ومن المشاهد أن هذه العسـاكر ، كجملة من فى كل موضع ، اذا ضرب الطليـان المواقع هربوا من مواقعهم تلك الى محلات العامة ، ولم يدافعوا ولا يضرب مدفع واحد · وقد ضربت هذه القلعة من نحو شهر ، وخرجوا منها كما ذكرنا ، وهذا مما أوقع الناس

---

(١) « مفرزة » تعنى حامية صغيرة ، أما « ميدى » فهو ميناء يقع على حدود اليمن الشمالية الآن
(٢) « الشام » تعنى الشمال ، ويقصد بها هنا الحدود الشمالية لعسير ·
(٣) يقصد الادريسى مبعوثى الامام الذين حملوا الرسالة اليـه وتحادث معهم فى موقفـه من الترك ·

فى العجب ، فان الدولة كما عجزت عن اصلاح الداخلية كما يرجى منها ، عجزت عن حفظ الخارجية ، والقيام بالمدافعة على الرعايا ممن قصدهم بسوء ، فعجزت الدولة الآن عن هذا وهذا فما بقى لهم الا أن يسعوا الناس بحسن الخاق لو كانوا يعقلون » ٠

والادريسى يوضح بذلك أن الدولة العثمانية عجزت عن القيام بمسئولياتها ازاء البلاد اليمنية التابعة لها ، فهى فضلا عن أنها لم تقم باصلاح الشئون الداخلية فى هذه البلاد فانها لم تكن من القوة بحيث يمكنها حمايتها من العدوان الخارجى ٠ وهذا التفسير يظهر عدم جدوى تبعية اليمن للسيادة العثمانية طالما بلغت الدولة من العجز ما بلغته فى ذلك الوقت ، وأنه أولى بالترك أن يتركوا اليمن لأهله (يدفعون عنه العدوان) بدلا من أن يعرضوه للمخاطر نتيجة وجودهم فيه ٠ ويؤكد الادريسى هذا المعنى مستشهدا بما حدث فى طرابلس الغرب فيقول : « ثم انه قد اشتد الخطب من الطليان بمحاصرتهم للحديدة الى حالة يخشى معها أن تحتل الحديدة ، فتكلمنا مع العسكر الذين فى القلعة بأن فى بقائهم بها ضررا على الاسلام والمسلمين لأن الحديدة اذا احتلت يتبعها ملحقاتها ، من ذلك هذه القلعة ومن المعلوم حسب أصولهم أنه اذا احتلت الحديدة ، وجاء المحتلون ببوابيرهم لاستلام هذه النقطة تبعا للمركز ، ومعهم الاذن بالتسليم من كبراء الترك ، فان من هذه النقطة لا يلتفت الى الاسلام ولا الى المسلمين ، ولا يهتمون بأمر الوطن بل حالا يعملون الترتيب اللازم فى التسليم الى المحتلين ، ولو بطريق الحرب مع أهل الوطن بأن يضربوا من القلاع ، وتضرب البوابير من الساحل حتى يتصلوا بالمحتلين ، ويدفعوا لهم موقع الحرب ويسلموا أهل الوطن الى الأسر ، كما فعلوا فى بنى غازى احدى متصرفيات طرابلس فان أهلها عشية احتلال الطليان لما رأوا « بوابير » الطليان بالساحل أسرعوا الى مركز الحكومة ليستعدوا للقتال ويودعوا أهاليهم وأموالهم فى مكان أمين فمنعهم الأتراك ، وألزموهم الطمأنينة فرجعوا الى بيوتهم ، فلما جن الليل لم يشعروا الا والمتصرفية بأجمعها صارت عساكر طليانية فقاموا للدفاع ، ولم يكن الخروج من المنازل الا للرجال دون النساء والذرية ، وهم الآن تحت قبضة الطليان ، واشتهر أن هذه المعاملة من العساكر بأسباب ما أخذه كبراؤهم من الطليان خفية ، وبأسباب ذلك استقال الصدر (يقصد رئيس الوزراء العثمانى) فتبين أن بقاءهم حينئذ فى المواقع الحربية ، لا للدفاع وحماية الثغور ، كما هو اللازم لمن يتول امارة المسلمين ، بل للأغراض الفانية ، وبيع البلاد للمصلحة الشخصية فمن ينع الاسلام فلينعه من الترك ٠٠ فلما خاطبناهم فى النزول معنا ليبقوا مع العساكر العربية جنبا الى جنب ، حتى اذا احتلت « الحديدة » ويكون موقع المفرزة « الميدية » بأيدى المسلمين ، يؤدون فيه ما أوجب الله عليهم ، وان امتنعوا فلا الزام ، وان أرادوا اللحاق بكبرائهم فلهم ذلك ، ، فأبوا هذا وهذا « ولا يحيق المكر السىء الا بأهله » ٠

وهنا يدحض الادريسى الاتهام الذى تذرع به الترك بادعائهم أن الأدارسة شكلوا خطرا عليهم من الداخل ، بينما كان الايطاليون يحاربونهم من جهة البحر ، وأن ذلك كان سببا فى انسحابهم من ميناء « ميدى) حتى لا يصلون بنارين فى وقت واحد ، فيقول : « والعجب من هؤلاء الناس يذكرون أننا السبب فى تركهم للمدافعة ، كما روى عنهم السادة الواصلون ، فليت شعرى من أى وجه • وأى قرب بيننا وبينهم فى المسافة أن يقولوا نخشى أن نصلى بنارين ، اذ فى الأقل بيننا وبين « الحديدة » ثمانية أيام ، ولو سلم هذا فما يكون جوابهم فى احتلال الطليان لطرابلس وما المانع من المدافعة هناك ، مع أن أهل تلك الجهة من المخلصين للحكومة ، بل هم قائمون بالقتال للمحتلين من (حتى) الآن • ومن العجاب أن الحكومة قبل أن يحتل المحتلون ، رفعت الأسلحة والوالى والعسكر الا شيئا قليلا ، وبعد ذلك لم تمد المجاهدين ولا بدرهم أو نفر •• » (١) •

وهكذا أوضح كتاب الادريسى بجلاء محاولاته المتصلة للاتفاق مع الأتراك ولكنه كان يصطدم دائما بعدم استجابتهم لكل هذه المحاولات . كما هاجم الادريسى بشدة سياسة الترك الملتوية مع زعماء اليمن ، وعدم قيامهم باصلاح شئون البلاد فى الداخل الى جانب عجزهم عن دفع العدوان الأجنبى عن البلاد التابعة لهم • كما بين الادريسى أن وجود الترك فى اليمن كان يعرض البلاد لهجوم أعدائهم الأجانب فلا يتمكن اليمنيون وحدهم لسلبية الترك فى الدفاع وجبنهم عن مواجهة هذا العدوان الأجنبى بأن يصدوه عن البلاد • وحاول الادريسى فى ثنايا خطابه أن يبرر اتصاله بالايطاليين بعد أن ظهر جليا عداء الترك له وتخاذلهم عن حماية البلاد التى يدعون سيادتهم عليها ، مؤكدا أن بقاءهم فى البلاد لم يكن « للدفاع وحماية الثغور ، كما هو اللازم لمن يتولى امارة المسلمين، بل للأغراض الفانية ، وبيع البلاد للمصلحة الشخصية •• فمن ينع الاسلام فلينعه من الترك » • وقد دعم الادريسى أقواله هذه بالأدلة القاطعة والبراهين الواضحة التى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك لباقته وذكاءه وسعة اطلاعه ونبوغه السياسى •

ويهمنا أن نعرف رأى الامام يحيى فى موقف الادريسى هذا من الأتراك وعلاقته بالايطاليين ، تلك العلاقة التى كانت تحرك الادريسى ـ الى جانب رغبته فى تحقيق أهدافه ـ لمحاربة الأتراك العثمانيين خاصة بعد أن عقدوا الصلح مع الامام يحيى • ولا شك أن المؤرخ الواسعى اليمنى الزيدى المذهب يعبر عن وجهة نظر الامام فى هذا الموضوع فنجده يقول : « عند اقامته (يقصد الادريسى) بمصر كان له صلة بمحمد علوى بك ، مترجم ايطاليا فى دار المفوضية الايطالية بالقاهرة ، وهذه الصلة والصداقة كانت هى السبب فى ظهور نجمه فى عالم

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ (من رسالة الادريسى الى الامام يحيى) •

السياسة • وفى هـذا التاريخ ١٣٢٣ هـ (وصحته سنة ١٣٢٩ هـ أى سـنة ١٩١١ م) كانت الدولة العثمانية مشتبكة بحرب مع ايطـاليا لأجل طرابلس الغرب ، ولما كانت حكومة ايطاليا أرادت اشغال الدولة عنها ، رغبت فى اشعال نار جديدة فى جهة من الجهات التابعة للدولة ، فسعى رئيس وزرائها فى اضرام نار فى تهامة ، وقام محمد على علوى بك بمذاكرة السيد محمد الادريسى فقبل تنفيذ هذا المشروع ، خصوصا وأن تهامة تخضع لهذه العائلة (الادريسية) ، لما لجده السيد أحمد من الاعتقاد المشهور لديهم ، ومع كون أهل تلك البـلاد نافرة غاضبة على المأمورين من الدولة العثمانية من الظلم والجور والفسق وارتكاب المنكرات وترك الواجبات ، فمن هنا عرف السيد محمد سنوح هذه الفرصة ، فوافق على القيام بمنابذة الدولة فى تهامة ، بعد أن كفلت له الحكومة الايطالية كل ما يحتاجه من مال وذخيرة وسلاح ومؤازرة ومناصرة فى البر والبحر • وكانت تمده من « مصوع » بوساطة بعض مسلميها كالشيخ سالم مدير الجمرك، والشيخ طاهر الشنيتى الخبير باليمن ، والصديق الحميم للأدارسة •• ونشب (هكذا) القتال فأخذ « ميدى » و « جيزان » وكانت الحكومة الايطالية تساعده من البحر برمى القنابل والرصاص ، وهو يحاصر العساكر العثمـانية من البر حتى استولى على تهامة ، والأكثر من سواحلها ، وجرت حروب كثيرة » (١) •

ولا شك أن الواسعى فى كتاباته يتميز بدافع من زيديته ضد الادريسى ويحاول أن يظهره بمظهر الخارج المتمرد على الجماعة الاسلامية كما يحاول أن يصوره كأداة فى يد الايطاليين يسخرونها لمحاربة الترك حتى يشغلوهم فى جبهة جديدة لا تمكنهم من استعادةطرابلس الغرب • وهـذا التحيز يستوجب منا التحفظ عند تناولنا لكتابات الواسعى بالدراسة والتحليل • لأن الواسعى يعبر بذلك الى حد كبير عن ادعاءات الامام يحيى حول منافسه الادريسى وبخاصة بعد اتفاق الامام مع الدولة العثمانية • ولكن هـذا التحيز لا يجعلنـا نغفل الدور الايجابى الذى قام به الادريسى فى أثناء تأسيسه لدعائم حكمه فى عسير والمخلاف السليمانى فى أثنـاء صراعه ضـد الأتراك العثمانيين وحليفهم الامام يحيى فيما بعد • كما أنه لا يجعلنا نعتقد أن الادريسى كان متواكلا ومعتمدا كل الاعتماد على ايطاليا كما توحى بذلك كتابات الواسعى ، بل ان الادريسى كان يعرف خطورة المهمة التى حددها لنفسـه ، وازاء تجمع أعـدائه رأى أن يستفيد من التنافس القائم بين ايطاليا والدولة العثمانية وذلك بالحصول على المساعدات الايطالية الممكنة التى تقويه وتسانده لتحقيق أهدافه فى طرد الترك من اليمن وعندما تخاذلت عنه ايطـاليا بدأ يبحث عن حليف جديد وتمثل له ذلك فى انجلترا فى أثناء الحرب العالمية الأولى • فقد كانت ايطاليا وانجلترا سواء عند

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ص ١١٦ •

الادريسى طالما أنه كان يحصل على مساعدتهما لتحقيق أهدافه بتصفية النفوذ التركى فى اليمن • ويؤكد « جاكوب » الانجليزى ما وصلنا اليه بقوله أن الادريسى لم يساعد الايطاليين مساعدة فعالة لأنه كان مشغولا بمحاربة العثمانيين فى أبها عاصمة عسير حيث كان يحاصر حاميتها ، وأن القوات المكية والعثمانية التى أتت لرفع هذا الحصار وجدت عند وصولها الى حالى (الواقعة بالقرب من أبها) كميات كبيرة من الأسلحة كان الادريسى قد حصل عليها من ايطاليا وانجلترا أو من « الحكومات التى يهمها انهيار الحكومة التركية » كما قال المكيون حينذاك (١) • وهكذا كان هدف الادريسى هو هزيمة الترك بأى ثمن وهذا جعله مستعدا للتعاون مع أى حليف بالدرجة التى تساعده فقط على تخليص اليمن من الحكم العثمانى • واذا كان يفهم من قول « جاكوب » ما يقلل الدور الذى قام به الادريسى فى مساعدة الايطاليين ، فان حسب ايطاليا من المساعدة تلك الهزائم التى أوقعها الادريسى بالقوات التركية فى عسير فقد كانت بالقدر الكافى الذى شغل العثمانيين عن توجيه قواتهم هناك لطرد الايطاليين من طرابلس الغرب •

أما الامام يحيى فلم يكن فى صالحه كما لم يكن فى امكانه أن يستعين بايطاليا أو بانجلترا لتحقيق أهدافه فى الاستحواذ على الزعامة والسلطة فى اليمن على النحو الذى كان يفعله الادريسى • والسبب فى ذلك يرجع الى أن الامام كان يعرف أن ايطاليا وانجلترا كانتا أقوى وأكثر تنظيما وحيوية من الدولة العثمانية ، ولهذا كان يخشى أن يؤدى تحالفه مع احداها ومناصرتها على الدولة العثمانية الى سيطرة هذه القوى الأجنبية عليه بالتالى ، مما لا يتيح له الفرصة لتحقيق أهدافه التوسعية الاستقلالية فى اليمن والتى رأى أنه فى امكانه أن يحققها فى ظل الدولة العثمانية الآيلة للسقوط • هذا من جهة تعارض هذا الاتصال مع مصلحة الامام يحيى ، أما من جهة عدم تمكنه من الاتصال بهذه القوى الأجنبية فانه لم تتوفر للامام صلة الصداقة مع العاملين لدى هذه القوى على النحو الذى حدث مع الادريسى نتيجة صداقته مع محمد على علوى المترجم بدار المفوضية الايطالية بالقاهرة مما سهل له الاتصال والاتفاق على تلقى المساعدة ، وفضلا على ذلك فان الامام كان يخشى أن يؤدى اتصاله بهذه القوى الأجنبية وتحالفه معها الى اضعاف مركزه فى اليمن بين أتباعه الزيديين الذين كانوا يعترفون بزعامته الدينية ويأنفون من التعاون مع الأجانب غير المسلمين ضد دولة الخلافة الاسلامية • كما رأى الامام يحيى وخاصة بعد أن عقد الصلح بينه وبين الترك فى سنة ١٩١١ م أن مصالحه الخاصة وكل امكانيات تحقيقها كانت تتمثل فى بقائه الى جانب الدولة العثمانية • فالدولة قبلت أن تدفع له

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 124.

مرتبا شهريا عاليا يساعده على مواجهة أعبائه المتزايدة ، كما اعترفت بوضعه الخاص بين أتباعه الزيديين وكانت تقوم فى نفس الوقت بمحاربة منافسه الادريسى فى عسير • لهذا فان الامام فضل أن يتضامن مع الترك بعد اتفاقه معهم فى سنة ١٩١١ م ، ولم يكن فى حاجة حينذاك الى التعاون مع أية قوى أجنبية ايطالية كانت أو انجليزية ، طالما كانت أهدافه فى طريقها الى التحقيق تدريجا ليرث الحكم العثمانى فى اليمن الذى كان متجها الى نهايته المحتومة •

أما عن موقف الادريسى من الامام يحيى والعثمانيين بعد الصلح فى سنة ١٩١١ م فقد تبلور فى حقد الادريسى على الترك الذين اعترفوا بوضع الامام الخاص فى اليمن دون أن يمنحوه نفس هذه الحقوق برغم ما كان له من مكانة بين سكان عسير والمخلاف السليمانى • كما حقد الادريسى أيضا على حليفه بالأمس الامام يحيى الذى تخلى عنه واتفق مع الترك وأصبح حليفا لهم ، واشترك بقواته معهم فى مهاجمة قوات الأدارسة التى انفردت بمقاومة الحكم العثمانى فى اليمن • وقد أسرع الادريسى باعلان الثورة على الترك فى نفس الشهر الذى عقد فيه الامام يحيى الصلح معهم • ونجح الادريسى فى احتلال (أبها) عاصمة العثمانيين فى عسير ، وان تمكنوا من استعادتها بعد ذلك بمعونة الشريف حسين • وقد تعددت الحروب واشتدت بين الادريسى والترك الذين نجحوا فى اخراجه من (أبها) فاضطر الى أن يلجأ فى أغسطس سنة ١٩١١ م (شعبان ١٣٢٩ هـ) الى جبال عسير الجنوبية واتخذها حصنا لقواته • ولم يطرأ على الموقف أى تغيير يستحق الذكر حتى اشتعلت نيران الحرب الايطالية العثمانية فى طرابلس الغرب فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩١١ م (٦ من شوال ١٣٢٩ هـ) فبدأت ايطاليا أعمالها الحربية على سواحل اليمن وعسير لتفتح على الدولة العثمانية جبهة حربية أخرى تشغلها عن المقاومة والدفاع عن طرابلس الغرب • وفى ذلك الوقت رأت الدولة العثمانية أن تهدىء الأمور فى اليمن حتى لا تفقد مركزها هناك ، لا سيما اذا تعاون الثوار اليمنيون مع ايطاليا التى كانت تقوم بامدادهم بالأسلحة الأوربية الحديثة ليحاربوا بها الترك ويخرجوهم من البلاد • واذا كانت الدولة قد تصافت مع الامام يحيى بعقد الصلح فقد ضمنت بذلك أحد قطبى المعارضة والمقاومة اليمنية ضد الحكم العثمانى ، وقد أرادت فى نفس الوقت أن تضمن الى جانبها ، أو على الأقل تحصل على مهادنة القطب المعارض الآخر وهو الادريسى ، الذى ظهرت خطورته بتقبله للمساعدات الايطالية على أوسع نطاق لمحاربة الترك فى اليمن • ولهذا أرسل سليمان باشا متصرف عسير وممثل الدولة العثمانية فيها • خطابا طويلا الى الادريسى فى ١٤ من أكتوبر سنة ١٩١١ م (٢١ من شوال ١٣٢٩ هـ) يدعوه فيه الى « التصالح مع الدولة العثمانية ضد أعداء الدين (يقصد الايطاليين بطبيعة الحال) » • وقد بدأ سليمان باشا خطابه هذا للادريسى بالبسملة ، وبتوجيه بعض الألقاب وعبارات

التحية لتكريمه ، **وبعض الآيات القرآنية التى تحض على الاتفاق ونبذ الشقاق ، ثم خاطب الادريسى فى الموضوع بقوله :**

« **ولا نزيدكم علما بهذه العجالة ، فأنتم لستم كغيركم بل أنتم بدرجة من العلم ، فهلم أيها الأخ فى الدين ، نسعى بما فيه صلاح المسلمين ، وقد بلغنا ما حل باخواننا المسلمين فى الجهات ، فواجب علينا معشر الاسلام ، الذب عن الوطن ، الذب عن العرض ، عن النفس ، عن الدين** » .

« ويعفو الله عما سلف ، فبادر لندفع هذه البلية ، ونكون يدا واحدة على حفظ حقوق المسلمين . ان الأمة الاسلامية فى أقطار الدنيا ناظرة الينا ، وعندها الظن الجميل بتعاوننا وتناصرنا ، وها أنا أنتظر منك الجواب الشافى الذى يكون فيه حفظ شرف الاسلام ، فان أجبت فأرسل لنا بسرعة هيئة تعتمدون عليها لنتخابر معها بما يصلح ، وان شئت بين لنا معالمكم لدفع أعداء الدين ، فيجتمع الرأى المصيب بما فيه الصلاح ان شاء الله . وانى عازم بحول الله على مدافعة أعداء الدين ، والجهاد أمام المسلمين مع ما لدى من قوة تزيد عن عشرين ألفا . ونحن بهذا العزم ، ولو فنى منا الصغير والكبير ، وعلى الله توكلنا واليه المصير ، فأسرعوا الينا بالجواب وفقنا واياكم للصواب ، والسلام » (١) .

ويلاحظ فى خطاب سليمان باشا الى الادريسى التنويه الدائم عن الناحية الدينيـة وما تدعو اليه من تعاون واتحاد للذود عن الاسلام والمسلمين . وكان سليمان باشا يدرك أنه عندما يذكر الادريسى بالناحية الدينية فانه يلمس بذلك الوتر الحساس لديه ولدى أتباعه الأدارسة ، فيلتفون حول دولة الخلافة ويلفظون ايطاليا ومساعداتها ، فى وقت تعرض فيه الاسلام للخطر بهجوم ايطاليا على بلاده مبتدئة بطرابلس الغرب ثم بضرب الموانى اليمنية الواقعة على البحر الأحمر .

وقد أجاب الادريسى دون توان على خطاب سليمان باشا متصرف عسير فى نفس الشهر (أكتوبر سنة ١٩١١ م ـ شوال سنة ١٣٢٩ هـ) . وبدأ خطاب الادريسى بداية دينية تحمل عبارات الود الأخوى لسليمان باشا ، ثم أعرب الادريسى عن حزنه وأسفه لتنازع المسلمين فيما بينهم وأورد كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدعو الى التآخى والتآزر بين المسلمين ، وطرق موضوع الاتفاق بينهما بقوله : « .. وبينما النفوس فى قلق والأنفاس تتصاعد بنيران الأرق ، مما فعل المسلمون بأنفسهم ، اذ ورد كتابكم الكريم ، مسفرا عما تحدوا اليه الرغائب من الدعوة للاتحاد فانشرح البال وأسرعت الى داعيك .. وما ذكرتم من الهيئـة ، فقد أرسلنا اليكم أخانا محمد بن يحيى ، ومعه جماعة

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ (من كتاب متصرف عسير للادريسى) .

يتوجهون الى « رجال ألمع » ولا تطمئن نفسه بالدخـول الى « أبها » ، فيتفق بجانبكم بأطراف « ألمع الشام » ، وتحصل المذاكرة (أى المفاوضة على الصلح) ٠ وان شرفتم بالقدوم فأهلا وسهلا ، وغيرنا وغيركم لا يكاد بهذه المقاصد أن يقوم ، ولعلنا أن نكون السبب فى كشف هذه المشاكل من جميع الوجوه فى أقرب وقت عاجل ، فترتاح الدولة لا فى هـذه الديار بل فى جميع الأقطـار والأمصـار ، والأمور وان تشعبت فان مرجعها الى الله وبيده الحركة والسكون ٠٠ » (١) ٠

وهكذا وجـد نوع من التقارب بين الادريسى والدولة عبرت عنه هـذه المكاتبات وذلك عقب تعدى ايطاليا على أراضى دولة الخلافة ٠ وهذا التقارب الذى قام من أجل « خدمة الدين والاتحاد ضد أعداء الاسلام » كان يمكن أن ينمو ويطرد فى صالح الدولة العثمانية اذا كانت قد حاولت مخلصة الوصول به الى غايته المنشودة ٠ كما أن هذا التقارب كان يعنى بالتالى أن الحرب الطرابلسية كانت ــ عنـد قيامها على الأقل ــ دافعا لتلاقى الطـرفين الادريسى والعثمـانى للمفاوضة والصلح لمواجهة هذا الخطر الايطالى (٢) ٠

ويدعم هـذه الرغبـــة فى التقارب والاتفاق على الصلح بين الأدارســـة والعثمانيين ويؤكدها فى ذلك الوقت تلك الرسالة التى أرسلها الادريسى الى قائد حامية « ميدى » العثمانية يقدم فيها عروض الصـداقة والتعاون فى نفس الشهر الذى تبودلت فيه الرسائل بين الادريسى ومتصرف عسير سليمان باشا أى فى أكتوبر سنة ١٩١١ م (شوال سنة ١٣٢٩ هـ) ٠ وقد أجاب القائد العثمانى على الادريسى بخطاب أوضح فيه أنه أرسل صورة من كتاب الادريسى المشار اليه الى الآستانة ، وأنه سيخطره برأيها عقب وصوله اليه ٠ واختتم القائد العثمانى كتابه الى الادريسى بقوله : « وربنا يؤلف بين القلوب ويصلح ذات البين ويعيد الاســلام » (٣) ٠

غير أن هـذا التقارب بين الادريسى والعثمانيين والرغبـة التى عبر عنها الجانبان للاتفاق على الصلح عقب عدوان ايطـاليا على الأراضى العثمانية والتى ظهرت واضحة فى المراسلات التى تبودلت بين الادريسى وكل من متصرف عسير سليمان باشا من جهة ، وقائد حامية « ميدى » العثمانى من جهة أخرى خلال شهر أكتوبر سنة ١٩١١ م (شوال سنة ١٣٢٩ هـ) ، لم تحاول الدولة مخلصة أن تصل ــ بهذا التقارب وبتلك الرغبة فى الصلح ــ الى غايتهما المنشودة ٠ ولم تحـاول الدولة العثمانية جادة الاتفاق مع الادريسى لتمسـكها حينـذاك بالسياسة المركزية التى جعلتها تتفادى دائما الاعتراف بالقوى المحلية وبالأوضاع

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ، ص ٣٨٩ ــ ٣٩١ ٠
(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٧٩ ٠
(٣) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ، ص ٣٩١ ٠

الخاصة للزعماء المحليين الا اذا أجبرتها الظروف على ذلك قسرا ، كما حدث مع الامام يحيى زعيم الزيدية التى أذاقت قبائلها الأمرين للترك فى وقت تعرضت فيه طرابلس الغرب للهجوم الايطالى مما اضطر الدولة الى الاتفاق مع الامام والاعتراف بوضعه الخاص فى اليمن بين أتباعه الزيديين ·

وقد أشار الادريسى الى تخاذل الدولة عن الاتفاق معه وذلك فى كتابه الى الامام يحيى فى شهر مارس سنة ١٩١٢ م (١٦ من ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ) الذى سبق أن عرضته (*) عندما ذكرت محاولة الامام يحيى التأثير على الادريسى ودعوته لعقد الصلح مع الدولة ، **اذ قال الادريسى فى كتابه هذا :**

« ورابعها (أى رابع المحاولات للتفاوض من أجل الصلح) مع سليمان متصرف عسير لما أتانا جوابه بعد أن قامت عليهم فتنة الطليان يدعونا فيه الى الوفاق ، وأن نكون اخوانا ونهجر الشقاق ، فأجبنا عليه بالترحيب والتسهيل فأرسلنا بعض خلص أصحابنا ، فكان يساجل الى أن تمكن من ارزاق ومعاش(١)، لان فى ذلك الوقت كان عادما · فلما رأى أنه استغنى تكبر ، وأجاب بالغلظة واعداد الطوابير للمخالفين ، فرجع صاحبنا بذلك » (٢) · ومعنى هذا أن العثمانيين كانوا يقصدون من مفاوضاتهم مع الادريسى كسب الوقت وتمييع الموقف (٣) ، حتى يؤجلوا قيامه بأية حركة عدائية ضدهم وذلك الى أن تصل الامدادات اللازمة الى متصرف عسير العثمانى ·

ويستطرد الادريسى فى خطابه الى الامام يحيى موضحا تطورات علاقته بالترك وعدم استجابتهم للاتفاق على الصلح بقوله : « فلما جاء جواب سليمان (متصرف عسير) لذلك الأخ (يقصد مندوبه) بالتهديد واعداد الطوابير للتربية ، تعجبنا من ذلك ، وما زلنا نتوقف عن عمل أية حركة رجاء أن يهتدوا الى الصواب · فما كان الا مرور محمد على (والى اليمن العثمانى) فى شهر ذى الحجة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) يحرق بيوت السادات والعلماء وأفاضل الناس ، كما قد ذكرنا لكم أول الكتاب ، فليت شعرى ما نصنع بعد هذا · وهل فيه انصاف أعظم من هذا الانصاف · حتى من كان لنا بالأمس عدوا لدودا أصبحنا نتقرب اليه بالمودة ، لا لشىء بل كان حبا للصلاح مزيدا ، وهل من العقل بعد ذلك لنا أن نرمى بأنفسنا اليه ولو على المهالك ؟ وهل هذا من الدين ؟ كلا وأصدق القائلين يقول : «ولاتهنوا والاتحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين» (٤) ·

(★) ص ٣١٠ ·

(١) يقصد وصول الامدادات الى سليمان باشا ·

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٤ ، ص ٣٠٣ ·

(٣) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٨٠ ·

(٤) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ ·

وبهـذا يؤكد الادريسى للامام يحيى نيـات الترك العدائية نحوه وعـدم جدوى محاولاته للاتفاق معهم ، كما يبين للامام أن الدين ـ وهو الذى تقوم عليه زعامتهما فى اليمن ـ لا يرتضى مهادنة المعتدين والثقة فيهم بينما تصرفاتهم ليست من الدين فى شئ ٠

ولا شك أن اصرار الدولة العثمانية على عـدم الاعتراف للادريسى بوضعه الخاص فى اليمن على النحو الذى اعترفت به للامام يحيى فى سنة ١٩١١ م هو الذى دفع الادريسى الى توطيد علاقته بايطاليا ومواصلته السير فى تلقى المساعدات منها لمحاربة العثمانيين ٠ وقد يكون الادريسى قد تردد كثيرا قبل أن يتمادى فى تلقى المساعدات الايطالية ، غير أنه ازاء مماطلة الترك فى الاتفاق معـه ، وازاء غدرهم به واعتـداءاتهم على قواته ، فانه آثر ـ مدفوعا بحرصه على الدفاع عن نفسه ـ أن يتعاون مع ايطاليا ضد أعدائه العثمانيين فى اليمن ، بل وضـد حليفهم الامام يحيى بعـد أن عقد الصلح معهم فى سنة ١٩١١ م ٠ وقد تمثلت المساعدات الايطالية للادريسى فى امداده بالأسلحة الصغيرة (البنادق) ، وبأنواع من الذخيرة الحربية ، وبكميات من الذهب (١) ٠ كما أدت تحركات الأسطول الايطالى أمام سواحل اليمن وقصفه لبعض الموانى اليمنية بمدافعه ، الى حصـول الادريسى على كميات من الأسلحة والذخائر العثمانية التى تركتها قوات الدولة خلفها فى أثناء هروبها من المناطق الساحلية التى تعرضت لقذائف الايطاليين ٠ وقد حـدث هذا مع حامية جيزان العثمانية التى لاذت بالفرار الى الحديدة عقب اعلان ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ م ٠ وقد تركت هذه الحامية وراءها كميات من السلاح والمؤنة والذخائر الحربية والخيام وغيرها فى جيزان ، بعـد أن حال دون نقلهـا « ضيق الوقت وقلة وسـائل النقل » (٢) ٠ وقد استولى الادريسى على هذه الغنائم عقب دخوله مدينة جيزان، وكانت من أهم العوامل التى زادت من قوته وشجعته على مهـاجمة الحاميات العثمانية فى تهامة وعسير ، وفوزه بالنصر عليها فى كثير من المواقع ٠

وكان الادريسى مقتنعا تمـام الاقتناع بعـدالة موقفه العدائى من الدولة العثمانية بعد أن استنفد كافة الأساليب السلمية للوصول الى عقد الصلح معها دون جدوى ٠ ولهذا يوضح الادريسى فى خطابه الى الامام يحيى أن الدولة تهاونت كثيرا فى أيامها الأخيرة فى رعاية شئون البلاد التابعة لها ، فكانت بذلك مسئولة عن ضياع ممتلكاتها وعن طمع الأجانب فى بسط نفوذهم على ولايتها ٠ وأضاف الادريسى يقول فى كتابه للامام يحيى : « قد عرفنـاكم بمنشأ هـذه الأحوال ، لتعرفوا من هم السبب فى محاق البلاد الاسـلامية والاضمحلال ، فهم (أى

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 125.

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ ٠

الأتراك العثمانيون الأحق بالملامة والتقريع والتوبيخ وسلب الكرامة . ويا ليت شعرى ما المراد منا فى الرابطة التى أشرتم اليها ، فان كان لقصد التسكين المجرد الى أن توافق معهم الأمور ثم يتبتروا كأن لم يكن بيننا وبينهم صداقة كما كان بالعام الماضى ، اذ قدمنا لهم عشرة آلاف عود للسلك (يقصد أعمدة التلغراف) وأمنا لهم الطرق وتعهدنا لهم بالاصلاح حتى صاروا دولة حقيقة ، يروحون ويغدون بكل شرف ، فما كان منهم الا تدبير الحيلة فى الهجوم للقبض علينا فنجانا الله ، وآل الأمر الى ما هم فيه من الاهانة والحيرة ، ولا حول ولا قوة الا بالله » (١) . وهنا يؤكد الادريسى للامام يحيى عدم صدق الترك فى وعودهم ، ويستدل بذلك على فترة السلم بينه وبين الدولة ، عندما كان سعيد باشا متصرفا لعسير ، وكيف قدم الادريسى مساعداته للترك فى انشاء خط البرق الذى كانت أهميته بالغة فى تقريب المسافات بين الحاميات العثمانية وفى ربط اليمن بعاصمة الدولة ، هذا فضلا عن تأمين الطرق للموظفين الترك والقيام ببعض الاصلاحات ، وفى سبيل ذلك كان يتلقى الادريسى من سعيد باشا على لسان الباب العالى وعودا لم يكن فى نية الترك تحقيقها ، مما أدى بالادريسى فى نهاية الأمر الى نبذ الدولة العثمانية التى تنكرت له ، واقباله على تلقى المساعدات الايطالية للدفاع عن كيانه ضد مؤامرات الترك وأعوانهم فى اليمن .

ولقد تحولت صداقة الادريسى للامام يحيى تدريجيا الى عداء سافر بعد اتفاق الامام مع الدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ ، ومحاولاته الضغط على الادريسى عن طريق المراسلات أولا ثم الصدام الحربى ثانيا ليدفعه الى مهادنة الترك وقبول صلح غير مشرف معهم . فوجد الادريسى نفسه يواجه عدوين فى وقت واحد : هما الأتراك العثمانيون يعاونهم الشريف حسين بقواته الملكية من جانب ، ثم الامام يحيى الذى كان يساند الترك بعد الاتفاق معهم ويطمع فى السيطرة على ملك الأدارسة فى عسير والخلاف السليمانى من جانب آخر . وكان عداء الامام يحيى للادريسى وتحالفه مع الترك الدخلاء سببا فى احداث ثغرة فى جبهة المقاومة اليمنية ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن مما كان يحز كثيرا فى نفس الادريسى، ويجعله يحس بأن الامام خان قضية اليمن وسدد خنجرا من الخلف للثورة اليمنية التى قادها أجداده ضد الترك منذ مطلع العصور الحديثة . لهذا حرر الادريسى رسالة أمر بنشرها وتوزيعها على القسم الجبلى من اليمن أوضح فيها تطور علاقته بالامام وكيف انتهت بتحول الامام عنه ومساندته للأتراك المعتدين وتخاذله عن الكفاح من أجل تحرير اليمن ، وذلك عقب احتلال جيش الأدارسة لمدينة (ميدى) . ووصول الادريسى نفسه اليها من (حرض) فى سنة ١٩١٢ م

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٤ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(١٣٣٠ هـ) ٠ ويعد هذا المنشور الادريسى (١) سجلا تاريخيا هاما ، تم توزيعه على رؤساء وقادة الرأى فى القسم الجبلى من اليمن ، وقد أوضح فيه الادريسى تطور العلاقات بينـه وبين الامام يحيى ٠ وبرغم ما تضمنه المنشور من دعاية للادرسى وتبرير لاستعانته بالأجانب خاصة بعد تحالف الامـام مع الترك ، فقد عبر عن مدى العداء الذى أصبح يكنه الادريسى لحليفه بالأمس الامام يحيى ٠ وفى هذا المنشور خاطب الادريسى سكان القسم الجبلى من اليمن باللغة التى يفهمونها والتى تستند الى الناحية الدينية وكانت تمثل الوتر الحساس لديهم ، فبدأ المنشور بالبسملة والشهادتين وبعض الآيات القرآنية ثم أوضح مدى الصلة الطيبة والتعاون الذى كان بينه وبين الامام يحيى من قبل بقوله :

« اعلموا هدانا الله واياكم أن ابن حميد الدين (الامام يحيى) لما رأى الدولة التركية بصدده وأخذت تهتم باستئصاله وقصده ، التجأ الينا بارسال (أحمد بن يحيى عامر) و (حسين العرشى) للتفاهم معنا ٠ بأن الدولة التركية لابد أن تقبض على ابن حميد الدين وعلينا ، ويرغب فى أن نكون يدا واحدة ، وأن نشايعه فى مقـاومتهم بالحرب ، فوافقنـاه على ذلك الصنع مع الشروط المضروبة وقواعد مقررة لا يتخطاها أحد منا ولا منه » ٠ ثم أشار الادريسى فى هذا المنشور الى وقوع الامام يحيى تحت تأثير الترك واغرائهم له بالأموال ليحولوه عن مشاركته فى الجهاد ضدهم ، وأن الامام قبل ذلك تنكر لأبناء بلده الذين استشهدوا فى أثناء الكفاح ضد الترك ، ونسى الجهود والأموال اليمنية التى بذلت فى هذا السبيل ، كما تناسى ما كان ينادى به والده وأئمة اليمن السابقون بضرورة قتال الترك وطردهم من اليمن ، فأخذ يراسل الأتراك ويتعاون معهم للقضاء على مقاومة الأدارسة للحكم العثمانى فى اليمن ، فيقول : « فلما وقعت ما بيننا وبين الأتراك واقعة (الحفائر) استماله الأتراك وجعلوا له ثلاثين ألفا من الريالات وغير ذلك العشرين والنصابين المكلف بأدائهما الأهالى فى جهـة (صنعا) وما والاها فوافقهم على ذلك ليكون ضدنا ، ومع أن تلك المواد مضادة للدين وهى (العشرين والنصابين) ، مع أن هذا الدين الحق ما زال يخفف فى مقادير الزكاة حتى أدنى من العشر والى ربع العشر » ٠

« ويا ليت شعرى بماذا يجيب اذا سئل عنى وعن أولئك ، لما حركنا للجهاد حتى ذهب فى ذلك الألوف من الرجال فى كل موطن من مواطن الحـروب ، وما لا يحصى من الأموال ، واشتداد العداوة بين العرب والعجم واستطال الشأن بين الفريقين لولا أن الله قد وعد لينصرن من ينصره ، وقد قال صلى الله عليه وسلم (من غشنا فليس منا) و (من عمل عملا أظهره الله عليه) » ٠

« ويا ليته اقتصر على غشه ، ووقف موقف الغاشين فقط ، بل قام باعانة العدو علينا ، حتى أخرج فى الأيام الماضية أحد نواظره (محمد بن شريف الدين)

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠ ٠
(للاطلاع على النص الكامل لمنشور الادريسى المشار اليه انظر ملحق رقم ١٤) ٠

بجهة (الشام) أما فى الظاهر فيقصد ذلك الرجل المكين (القاسمى) (١) فى (أم ليلى) ، وأما فى الباطن فليفتح الحرب على أصحابنا فى (الشام) فى جهة الجبال مع القواعد المضروبة بيننا وبينه ، آخرها بخط العلامة صفى الاسلام (أحمد بن يحيى عامر) وأنه يجتنب ألا يعقد اتفاق ضدنا مع العدو ، كما بينت تلك الجوابات التى تروح وتجىء بينه وبين الأتراك ، وقد ضبطنا بعضها ولله الحمد ، وحيثما أراد بعضهم الانكار للاعتداء ألزمناهم بحجة قوية أن الاعتداء كان منهم فى بلادنا ووسط أهل طاعتنا ، خصوصا حين أن « انضاف اليه محابيس من أهل طاعتنا كصنو (عمير بن مغيث) الموثوق بالسلاسل ، وقد عرف أنه من أهل طاعتنا » ٠

« ولطالما كان يكاتبنا الناظر لنا هناك بالالتفاف اليه باعداد القوة لأنه كان يرى من جاره الخيانة وان تظاهر لدينا بالأمانة فما كنا نلتفت اليه ، لأن المسلم أخو المسلم ولا يجوز أن يستعد له بسلاح ، حتى وقع منهم الواقع فاجتمع اخوان الحق وكان نصر الله والفتح ٠ وكان (ابن حميد الدين) وأصحابه لم يتذكروا قريبا ، وهم ينادون بتكفير الأتراك ووجوب قتالهم ، كما كانت تنادى بذلك رسائل والده ، الموجودة عندنا ٠ وعند غيرنا ٠ كما كان أئمة الجبال من قبل على ذلك الى أيام الامام (القاسم بن محمد) ، ولعل لديكم شيئا من نصوص تلك الرسائل » ٠

وينتقل الادريسى فى منشوره لسكان القسم الجبلى من اليمن الى تبرئة نفسه من موالاة الأجانب الذين وصفهم (بالنصارى) موضحا أن هدفه انحصر أساسا فى التعاون مع الامام يحيى ليكونا معا يدا واحدة على من سواهم « من أعداء الدين » وليقوما « بجهادهم ان أرادوا الدخول الى هذه الديار الاسلامية سواء كانوا تركا أو طليانا أو انكليزا أو غيرهم » فيقول : « ومن العجائب أننا وقعنا على جملة من رسائله يكفروننا فيها وينسبون الينا موالاة النصارى حتى اننا نستبدل (الجمعة) بـ (الأحد) ومن أين لهم هذا مع أن باب التكفير والتفسيق لابد فيه من البيان والدليل القطعى حتى يتبين الأمر والا عاد على مفتريه ، لأن من كفر مسلما فقد كفر » ٠

« انكم على يقين أننا فى العام الماضى نجاهد نحن وابن حميد الدين ، لا لدسيسة نصرانية ، بل لما ترابطنا عليه من اعلاء كلمة الله ، مع أنه فى ذلك الوقت كان (الأتراك والانكليز والطليان والفرس) وغيرهم اخوانا لم تحدث بينهم الحوادث الا بعد أن مضى لنا فى الجهاد ثلاثة أعوام » ٠

« على أن هذه الأوهام قد حسمنا شبهتها أيام حضر لدينا السادة (محمد

(١) يقصد القاسمى الذى دعا الناس لامامته فى ناحية « أم ليلى » المجاورة لصعدة ٠

الشراعى الحوثى) و (أحمد بن يحيى عامر) ورفقاؤهم الأفاضل ، كل ذلك لو أراد (ابن حميد الدين) أن نكون يدا واحدة على من سوانا من أعداء الدين ونقوم بجهادهم ان أرادوا الدخول الى هذه الديار الاسلامية سواء كانوا تركا أو طليانا أو انكليزا أو غيرهم ، ولو يعلم أعداء الدين بهذا الاجتماع لم يظهر منهم أدنى نزاع ، ولا أجرأهم على العمل الا حين ظهر لهم منـا معاشر أهل الدين النزاع والقتال » .

« فما كان من ابن حميد الدين الا الجواب باعانة (الأتراك) ونشر تلك الرسائل المشحونة بالهمز والغمز كما هو شأن (...) متغاضيا عن الصواب ، كأن يظن أن شمس الحق يضرها طفل الباطل وهيهات هيهات ، وقد وعد الله بأن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » .

وأخيرا أشار الادريسى فى منشوره هـذا الى أن تسليح قواته بمختلف الأسلحة استعدادا لمواجهة أى عدوان أمر يقتضيه الدين الاسلامى ويحث عليه . وأن الدين لا يمنع استقدام الأسلحة من الأجانب للمسلمين خاصة لو انفردوا بصنعها . هذا فضلا عن أن المذهب الزيدى لا يعارض ذلك . فكان الادريسى يعجب من الامام يحيى الذى عاب عليه طريقته هذه فى التسلح كما يبدو ذلك فى قوله : « وربما تسألون جميعا عما بأيدينا من (المدافع) والأسلحة ، فهذه هى القوة التى أمرنا الله بتحصيلها يقول تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) وفى الحديث : (ألا ان القوة الرمى) » .

ويجب تحصيلها شرعا ولو من غير أهل (الملة) ، مع امكان تحصيلها من أهل (الملة) ، فكيف لو انحصرت فى غير أهل الملة ، كما هو الآن فانك لا تجد (معبرا) صحيحا سويا يعمله (مسلم) فضلا عما أكبر منه » .

« على أن مذهب (الزيدية) الذين هو منهم يجوزون أبعـد من ذلك بمراحل . وهو الاستعانة بالكفار فى الجهاد ، كما حكاه كتاب (البحر) عن العترة ، وأبى حنيفة كما صح أن (قزمان) خرج مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقتل ثلاثة من بنى (عبد الدار) حملة لواء المشركين حتى قال صلى الله عليه وسلم : (ان الله ليأزر هذا الدين بالرجل الفاجر) . وقد جمع بين هذه الأحاديث وأحاديث المنع من الاستعانة بالمشركين بأمور منها أن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيهـا ، قال ابن حجر وهذا أقربها وعليه نص الشافعى » .

« ونسيت هذه (كمكينات) ضرب الفلوس و (البقش) التى استجلبها من (الانكليز) ابن حميد الدين من طريق (عدن) مع أن أى ضرورة فى الدين الى هذه (المكينات) والتذلل فى طلبها » .

« وقد عاش أئمته على هذه النقود المقصوصة ولنا أسوة بالسلف الصالح

وهل كان الرسول والخلفاء الراشدون كذلك . اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه والباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ... » (١) .

هكذا كان منشور الادريسى الذى أمر بتوزيعه على سكان القسم الجبلى من اليمن موضحا به تطور علاقاته مع الامام يحيى ، والمنشور منطقى فى معظم ما أورده ، غير أن ملاحظته الاخيرة التى استنكر فيها الادريسى استعانة الامام « بماكينات ضرب النقود » التى استوردها من الانجليز فى عدن تعد ملاحظة غير مقبولة من وجهة نظرنا خاصة وقد حاول الادريسى أن يستدل بالدين الاسلامى مدعيا أنه للتمسك بما كان يتبعه السلف الصالح بشكل جامد لا يساعد على التطور التقدمى ، الأمر الذى لم تقصده الشريعة بطبيعة الحال . غير أن الادريسى كما سبق أن أوضحنا كان يخاطب سكان القسم الجبلى بالقدر الذى كانوا يفهمونه وبالتزمت الذى كان يسيطر على مفاهيمهم الدينية فى ذلك الحين .

ولقد عظم الادريسى وقوى مركزه فى عسير نتيجة لحنكته السياسية وسرعة تحديده لموقفه ازاء أطراف الصراع المحيطة به ، ولاقتناعه بضرورة الاستعداد الحربى للدفاع عن كيانه ، فأعد للأمر عدته من أسلحة وذخائر ومدافع ، كما درب جنده على وسائل الحرب الحديثة التى تمكنهم من مواجهة قوات العثمانيين والتغلب عليها . ولقد عبر أحد اليمنيين عن الزيادة المطردة فى قوات الأدارسة بقوله : « ولقد تمكن السيد الادريسى منذ نشبت الحرب بين الحكومة العثمانية وايطاليا الى الآن (نشر المقال فى ٧ مايو سنة ١٩١٣ م) من جلب أكثر من مائة ألف بندقية وخمسين مدفعا ، لأن الطليان كانوا أغرقوا وأسروا بواخر خفر السواحل العثمانية كلها ، فخلا للسيد الجو ، وانتهز الفرصة الثمينة واستعد استعدادا عظيما . ولديه الآن أكثر من عشرين مدفعا من المدافع الكبيرة (مرماها يتراوح بين ١٢ ـ ١٤ ك٠م) وهى موضوعة فى الحصون التى أنشأها فى السواحل ، والثغور التى بيده . وقد تعلمت الجنود العربية استعمال المدافع واستخدامها فى الحروب . ولا يزال عند السيد عشرات من أسرى العثمانيين ، أو الذين التجئوا اليه ، ومعظمهم من المدفعية » (٢) .
وهكذا كان الادريسى يعمل جاهدا على تدعيم قواته بأحدث الأسلحة الحربية الخفيفة والثقيلة ، كما كان يستفيد من أسراه العثمانيين وخاصة ممن كان لديهم خبرة فى المدفعية لتدريب جنوده ورفع كفايتهم الحربية هذا فضلا عن الحصون والقلاع التى أنشأها فى السواحل والثغور الخاضعة لنفوذه ، وبذلك كان الادريسى يعد نفسه دائما لمواصلة الحرب ضد العثمانية وحلفائهم فى اليمن . والى جانب هذا الاستعداد الحربى حرص الادريسى على الاهتمام بشئون عسير

---

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .
(٢) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٦ ، ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .

وباصلاح الأمور فيها ، فنظمها اداريا ، واهتم بموانيها التابعة لنفوذه ٠ كما بذل جهوده لتنشيط الحركة التجارية هناك ٠

وعندما علمت الدولة باستعدادات الادريسى الحربية وتنظيمه لشئون عسير وخطورة تعاونه مع ايطاليا ونجاحه المستمر فى تدعيم حكمه ، حاولت أن تعاود الاتصال به للاتفاق على عقد الصلح ، وبخاصة بعد أن عين محمود نديم بك واليا لليمن فى مايو سنة ١٩١٢ م (جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ هـ) وكان يعرف هذا الوالى باتزانه وحكمته وحرصه على مصلحة الجانبين العثمانى واليمنى على السواء ٠ وقد بدأت محاولة الدولة لفتح باب المفاوضات بينها وبين الادريسى عندما أرسل قائمقام « لحية » ابراهيم بك خليل كتابا للادريسى بتاريخ ١٠ من مارس سنة ١٩١٣ يطلب فيه أن يأذن له بمقابلته ٠ وعندما تقابلا أوضح القائمقام العثمانى للادريسى بأن والى اليمن محمود نديم بك تلقى من الباب العالى أوامره بالتفاوض معه لعقد الصلح ، « وحسم المشاكل وفض الاختلافات التى بينه وبين الدولة » ٠ وقد رأى الادريسى أن لا مانع لديه من فتح باب المفاوضات من جديد ، فأسرع القائمقام الى « لحية » وأبرق الى محمود نديم بك الذى غادر صنعاء ، وبصحبته سعيد باشا ، ووصلا الى « لحية » فى ٢٧ من مارس سنة ١٩١٣ ٠ وقد أرسلا كتابا الى الادريسى يطلبان فيه حضوره لثغر « ميدى » ليقترب منهما ، فأرسل الادريسى هيئة من رجاله على رأسها أمينه « محمد يحيى » وقد حمله رسالة من قبله الى الوالى محمود نديم بك طالبا فيها ابلاغ أمينه بكل المطالب العثمانية ، وسوف يوصلها اليه ، وعبر الادريسى عن ذلك بقوله : « حتى أعلم ما تريدون » (١) ٠

وقد أشار الواسعى فى تاريخه الى هذا اللقاء بين الجانبين العثمانى والادريسى بقوله : « وفى هذا الشهر (مارس سنة ١٩١٣ — ربيع الأول سنة ١٣٣١ هـ) ، عزم المذكورون الى السيد محمد الادريسى لنصحه واجراء الصلح بينه وبين الامام ، ويكون (الادريسى) رئيسا على تلك الجهات ، بماهية كافية شهرية ، ويكون تحت طاعة الامام يحيى ، وكان الامام قد أرسل مع هذا الوفد رسولا من « السودة » — شمال سنعاء — التى كان يقيم بها حينئذ ، فلما وصلوا الى « جيزان » اعتذر الادريسى عن مقابلتهم ، ثم لما لم يجد بدا من مقابلتهم قابلهم ، ولم يساعد بالصلح » (٢) ٠ ومن الملاحظ أن الواسعى يعبر عن وجهة نظر الامام يحيى ويحاول أن يظهر وضع الامام الخاص ودوره فى هذه المفاوضات وذلك عندما أشار الى أن الامام أرسل من قبله رسولا من « السودة » ليرافق الوفد العثمانى المتجه لمفاوضة الادريسى ، ثم أضاف الى ذلك قوله بأن شروط

---

(١) المنار : المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ ٠
(٢) الواسطى : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ ٠

الصلح التى عرضها الترك كانت تفرض تبعية الادريسى وطاعته للامام يحيى ، وأخيرا أكد أن الادريسى لم يساعد على نجاح مفاوضات الصلح ليوحى بذلك الى أن الادريسى كان متمردا على الدولة ناكرا لفضلها بعد أن قدمت له عروضا مجزيه ٠

ولكن الادريسى لم يكن ليقبل مثل هذه الشروط التى عرضتها الدولة كما لم يرض أن يكون تابعا للامام يحيى وذلك لأنه أصبح فى سنة ١٩١٣ م فى وضع اختلف كثيرا عما كان عليه من قبل بعامين أو ثلاثة على الأكثر ، عندما كانت ترضيه هذه الشروط أو أقل منها فى وقت لم يكن عوده قد اشتد بعد ، ومركزه لم يكن قد دعم من الداخل أو من الخارج ٠ أما فى سنة ١٩١٣ م فقد أصبح الادريسى يحتل مكانة مرموقة ومركزا ممتازا بين قبائل عسير والمخلاف السليمانى فضلا عن انضمام كثير من قبائل اليمن الى جانبه وكان من بينها بعض القبائل الزيدية التى تخلت عن الامام يحيى بعد مهادنته للترك ، ورأت فى الادريسى زعيما للمقاومة وقائدا للنضال ٠ وقد أولى الادريسى حكمه اهتماما وجهدا ورعاية وتنظيما مما جعل « نفوذه خلال هذه المدة انتشر بين القبائل انتشارا هائلا وأحواله انتظمت ، ورجاله تسلحت ، وقبائله استعدت » (١) ٠ فكيف وقد أصبح للادريسى كل هذا النفوذ حينذاك أن يقبل تبعيته للامام يحيى أو يقنع بصلح مع الترك لا يرقى الى طموحه وآماله ؟ ولماذا يضع الادريسى نفسه فى قوقعة تفرضها شروط الصلح عليه بعد أن أصبح فى امكانه أن يملى هو شروطه على الدولة العثمانية ؟ فالى جانب مركز الادريسى المدعم بين القبائل اليمنية ، ومساندة ايطاليا له فى عدائه للترك فان الدولة العثمانية نفسها كانت تعانى من ظروف قاسية حرجة فى أثناء اشتغالها بحرب البلقان بين عامى ١٩١٢ و ١٩١٣ م ٠ ولهذا لم يكن غريبا أن يدلى أحد كبار رجال الادريسى بتصريح أوضح فيه الشروط التى كان يعلم أن الادريسى سيتمسك بها فى مفاوضاته مع الترك فى ذلك الوقت ، والتى عرضها أحد اليمنيين فى مقال كتبه فى «مصوع» ونشرته « المنار » المصرية ، **ونعرض شروط الادريسى هذه فيما يلى :**

١ ــ الاستقلال الادارى التام تحت سيادة الدولة ٠

٢ ــ ألا تتدخل الدولة فى شئون موظفى البلاد التى فى قبضة يده ، والتى سيبين حدودها فى المعاهدة ٠

٣ ــ أن تكون الراية والهلال والنجم مع كلمة التوحيد من جهة ، ومحمد رسول الله من الجهة الأخرى ٠

٤ ــ أن تكون الجنود محلية ، وعددها كاف لحماية البلاد فى زمن السلم والحرب ٠

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٦ ، ص ٤٧٠ ٠

٥ – أن تكون الجمارك فى الثغور راجعة الى الامارة الادريسية ، والمعاهدات التجارية مع الدول من حقها أيضا ٠

٦ – أن تكون الأحكام طبق الشريعة الغراء ، واللغة الرسمية هى اللغة العربية فقط ، بحيث لا تعرف لغة سواها فى التعليم والقضاء والادارة ، وفى المخابرات الرسمية مع الآستانة ٠

٧ – كل ما ينشأ من المنافع العمومية كالسكك الحديدية والتلغراف فى جهات عسير ، يجب أن تكون لمنفعة الامارة ، وخاصة بها وخاضعة لها ٠

٨ – أن يصدر بهذا الاتفاق فرمان سلطانى ، قبل أن يجتمع مجلس المبعوثين العثمانى ، يؤتى به من الآستانة على يد مندوب عال ، وعلى سفينة حربية، ويقرأ باحتفال عام فى المكان الذى يختاره الأمير الادريسى ٠

هذا فضلا عما كان هناك من مسائل أخرى خصوصية وفرعية » (١) ٠

وقد أوردت مجلة المنار تعليقا على هذه الشروط التى تمسك بها الادريسى فى مفاوضاته مع الترك فى سنة ١٩١٣ م جاء فيه : « لم يبق للدولة مع هذه المطالب الا اسم السيادة ، فلا يعقل أن تقبلها ، فان كانت تعجز عنه (أى عن الادريسى) الآن ، فانها تفضل السكوت على اعطائه فرمانا تقيد نفسها به ٠ والمعقول أن يكون للدولة مع الاستقلال الادارى بعض الحقوق العامة ، كاشتراط موافقتها على العهود التجارية مع الدول ، وأخذ شىء مما يزيد على نفقات البلاد من دخلها (٢) ٠ ولا شك أن هذا التعليق منطقى ومعقول ، فالدولة العثمانية لم تكن لتقبل هذه الشروط القاسية التى ستفقدها نفوذها الفعلى بكل مظاهره فى عسير فضلا عن جزء كبير من نفوذها الاسمى هناك ٠ فاشتراط الادريسى الاستقلال الادارى التام عن الدولة ، وعدم تدخلها فى شئون موظفى البلاد ٠ وتميز علمها عن علم الدولة ، والاكتفاء بالجنود المحليين لحماية البلاد فى زمن السلم والحرب ، ورجوع دخل البلاد من الجمارك وغيرها الى الادريسى فضلا عن تبعية كل ما ينشأ من المنافع والمشروعات العامة كالسكك الحديدية والبرق لادارته ، كل هذا يفقد الدولة سلطانها الحقيقى فى البلاد ٠ والأقسى من ذلك بالنسبة للدولة عدم الرجوع اليها فى عقد المعاهدات التجارية مع الدول الأخرى مما كاد ينفى تبعية الادريسى الاسمية للسيادة العثمانية ولا يبقى للدولة أى سلطان عليه ، الأمر الذى لم تكن الدولة لتقبله على الاطلاق ، مما سيؤدى الى فشل مفاوضات الصلح بين الجانبين الادريسى والعثمانى ، واستمرار العداء

(١) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ – ٤٧٠ ٠
Correspondence d'Orient, 1er Octobre 1913, p. 334.

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ – ٤٧٠ ٠
Correspondence d'Orient, Ier Octobre 1913, p. 334.

قائما بينهما مع انقطاع الأمل فى عقد الصلح لتمسك كلا الطرفين بمطالبه(١) ٠ وواضح أن الادريسى كان يبغى استقلالا كاملا لبلاده ، وتصفية للنفوذ العثمانى هناك ، وتطبيقا للشريعة الاسلامية فى الحكم ، وتمسكا واعتزازا باللغة العربية بحيث تصبح اللغة الرسمية للبلاد ، فلا تعرف لغة سواها فى التعليم والقضاء والادارة ، وحتى فى المخابرات الرسمية مع الآستانة ، مما يجعلنـا ننظر الى مطالب الادريسى جميعها بالتقدير والاعجاب ٠

وهكذا كان طبيعيا أن تفشل مفاوضات الصلح بين الأدارسة والعثمانيين فى اليمن لتمسك كل جانب منهما بمطالبه وعدم محاولته الالتقاء مع مطالب الجانب الآخر ٠ وقد انفض الاجتماع الذى تم بين الادريسى من ناحية ، وبين الوالى العثمانى محمود نديم بك ورجاله ومعهم مندوب الامام يحيى من ناحية ثانية ، وذلك دون أن يتم اتفاق ما بين الجانبين ٠ بل كانت هذه آخر محاولة للالتقاء بينهما من أجـل التوصل الى عقـد الصلح ، بينما استمرت بعدها الحروب والمناوشات بين الادريسى من جهة ، والأتراك يساندهم الامام من جهة أخرى ٠ وقد اصطدم الادريسى بأتباع الامام يحيى فى بلاد « حجور » و « خولان الشام » و « رازح » وغيرها (٢) ٠ وقد استمر هذا الصراع بين الادريسى والعثمانيين فى اليمن حتى تم جلاؤهم عنها فى سنة ١٩١٨ م ٠ بينما انحصر بعد ذلك الصراع بين الأدارسة والامام يحيى هناك ، واستمر فى عنفوانه حتى بعد انهيار الدولة العثمانية نفسها ٠

وعلى أية حال فقد كان الادريسى فى وضع ملائم جعله لا يخشى مواجهة ما ترسله الدولة من جيوش لمحاربته لأنه أصبح قادرا على مقاومتها ٠ واستمر الخلاف ناشبا والحروب مستمرة بين الأدارسة والترك فى اليمن حتى أعلن شريف مكة ثورته على الحكم العثمانى فى صيف عام ١٩١٦ م ٠ فعندئذ نشط الادريسى فى محاربة قوات الدولة واحتل القنفدة وأسر حاميتها التى هرب من عسكرها ثمانية ضباط ومائة وخمسون جنديا بطريق البحر بعد أن رجحت كفة الأدارسة، وكان طبيعيا أن ينشأ التقارب بين الثائرين الادريسى والشريف حسين (٣) فى أثنـاء اشتعال الثورة العربيـة فى سنة ١٩١٦ ضد الحكم العثمانى مما دعم مركزهما ٠ على أن أسباب القوة التى كان الادريسى قد حصل عليها بفضل حنكته السياسية الفائقة هى التى عصمته من تسلط الاتحاديين الترك واستبدادهم ٠ خاصة بعد أن تصافى معهم الامام يحيى منذ عام ١٩١١ م وتحول عنهم الى معاداة الادريسى ٠ وقد أحدث هذا العداء بين الامام يحيى والادريسى تصدعا فى جبهة المقاومة اليمنية ضد الحكم العثمانى ، وحمل الادريسى وحده عبء النضال ضد

---

(١) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ٠

(٢) Correspondance d'Orient, 25-7-1916, p. 179.

(٣) توفيق برو : المصدر السابق ، هامش ص ٢٥٠ ٠

الأتراك العثمانيين فى اليمن (١) حتى تم جلاؤهم عنها فى سنة ١٩١٨ م عقب هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى ، على النحو الذى سوف نستعرضه فى الفصل التالى ٠

ثالثا ــ اتفاقات الحدود بين الدولة العثمانية وبريطانيا فى جنوب اليمن

معالم السياسة البريطانية فى جنوب اليمن :

سبق أن أوضحنا أنه من بين الأسباب التى أدت الى عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى منتصف القرن التاسع عشر هو محاولتهم ملء الفراغ الذى خلفه جلاء القوات المصرية عن الجزيرة العربية ليحولوا دون توسع نفوذ البريطانيين الذين سيطروا على عدن فى سنة ١٨٣٩ م واعتبروها مكافأة لهم على مساعدتهم للباب العالى ضد أطماع محمد على (٢) ٠ غير أن الانجليز لم يقنعوا بسيطرتهم على عدن بل أتبعوا ذلك بعقد سلسلة من المعاهدات والاتفاقيات مع حكام الامارات والمشيخات المجاورة خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ليربطوهم بعلاقات ودية مع بريطانيا فيكونوا لها منطقة نفوذ حول عدن لا يسمح لغيرها بالتدخل فيها أو السيطرة عليها ٠ ولهذا عقد الكابتن هينس Capt. Haines أول وكيل سياسى لبريطانيا فى عدن معاهدة مع سلطان لحج، أعقبها عدة اتفاقيات مع رؤساء قبائل « الصبيحة » و « الفضلى » و « يافع السفلى » و « الحوشبى » ٠

وكانت هذه الاتفاقيات التى عقدها البريطانيون مع حكام الامارات والمشيخات المجاورة لعدن فى جنوب اليمن بمثابة النواة التى نمت حولها بالتدريج ما يسمى « بمحمية عدن البريطانية » ، أما معاهدات الحماية الرسمية فلم يبدأ عقدها الا فى سنة ١٨٨٦ م وكان أولها مع سلطان « سقطرة » ٠ وكانت بريطانيا تهدف من توسعها حول عدن الى تأمين هذه المدينة لتضمن بواسطتها سلامة خطوطها البحرية الى الهند والشرق الأقصى ٠

ومن الملاحظ أن المعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع حكام الامارات المجاورة لعدن تتحد معظمها فى جوهر واحد ، ينحصر فى تحمل بريطانيا مسئولية حماية الامارة وحاكمها ضد أى عدوان خارجى ، مقابل تعهده بعدم اقامة أية علاقات مع دولة أخرى غيرها ٠ وقد استمرت هذه الحماية قائمة حتى نشوب الحرب العالمية الأولى وفى أثناء هجوم الترك على لحج دون أن تتصدى لهم أية فرق عسكرية

---

(١) محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ٠

(٢) Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, p. 126.

بريطانية نظرا لانشغال الانجليز عن هذا الميدان المحلي بالميادين الحربية العالمية. وقد ترتب على عدم وفاء بريطانيا بالتزاماتها نحو « الامارات المحمية » فقدان هذه الحماية لفعاليتها (١) .

أما من حيث ثقل تلك الحماية ومدى تعمق النفوذ البريطـاني فان ذلك اختلف من امارة لأخرى ، وتبعا لذلك اختلفت نسبة المشاهرات التى تدفعها بريطانيا لحكام تلك الامارات وشيوخها . وهذه المشاهرات فى حد ذاتها ليست ذات بال الا أنها فى نظر هؤلاء الشيوخ كانت بمثابة تقدير لهم ، بينما كانت للانجليز أبلغ وسيلة لوضع يدهم على تلك الربوع وأربابها من باب الحماية على الرغم من أنهم لم يتخـذوا فيها وسائل دفاع عسـكرية تدرأ عنهـا أى عدوان خارجى .

ويوضح الواسعى تاريخ تلك الامارات واتجـاه السياسة البريطانية فيها معبرا عن وجهة النظر اليمنية بقوله : « وهذه الامارات التسع كانت سابقا بيد الدولة العثمانية ، وأئمة اليمن اعتبرها (اعتبروها) ولا تزال تعتبرها نواحى، من حيث تقسيماتها الادارية ، وقد اشترط فى المعاهدة التى عقدت بين بعض النواحى وبين الانكليز شرطان مشهوران وهما :

الأول : أن يقيد رئيس تلك الناحية بالانكليز ، دون سواهم من الدول ، ولا يحق له أن يفاوض دولة ، أو يراسلها ، أو يعـاهدها ، أو يقبـل مساعدات مالية منها ، بدون اطلاع الدولة البريطانية العظمى عليها ، أو اجازتها .

الثانى : لا يحق لذلك الرئيس أن يبيع أو يؤجر أو يهب أو يرهن شيئا من أرضه أو ملكه ، لغير الحكومة البريطانية ، واذا أخل المعاهد بأحد هذين الشرطين، فان الراتب يقطع عنه ، ذلك الراتب الذى شرع يدفع له منذ ذلك الحين . وفى بعض تلك المعاهدات لبعض النـواحى ، زيادة عن هذين الشرطين ، « وأن يذعن لما توجبه السياسة الانكليزية » (٢) .

وعلى الرغم من أن معالم السياسة البريطانية فى جنوب اليمن مع الأمراء المحليين كانت تتغير من آن لآخر تبعا لتغير حكام عدن البريطانيين أنفسهم ، فان هذه السياسة كانت تتميز بأنها تلتزم « أقل ما يمكن من التدخل » (٣) . كما كانت هـذه السياسة البريطانية تتصف بالمرونة التى وضحت فى المعاهدات الولائية ، والمشاهرات المالية ، ومدافع الترحيب والتوديع احتفاء بزيارة السلاطين لعدن ورحيلهم عنها ، وتقليدهم الألقاب والنياشين ، ومساندتهم لبيت طامع فى

---

(١) Reilly, B. : Aden and the Yemen, pp. 15-17.

(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٥٦ – ٥٨ .

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 252.

الملك ضـــد بيت مالك ، حتى تكون لهم السيادة عن طريق التفريق بين الأمراء والسلاطين وتعميق الهوة بينهم ، وتحريض بعضهم على البعض الآخر ومحاولة استغلال كل أمير على حدة متبعين سياسة « فرق تسد » • فالحكومة البريطانية أو بالأحرى ادارة شركة الهند الشرقية البريطانية اتبعت منذ البداية مع القائد هينز «Capt. Haines» أول حاكم بريطاني لعدن التقليل من امداده بما يحتاج اليه من الجنود لحماية عدن ، فكان اذا قامت على الانجليز قبيلة من القبائل يثير الحاكم الانجليزى قبيلة أخرى عليها ، لان التعليمات التى كانت ترد اليه من الشركة المذكورة كان مضمونها : « حرض القبيلة الموالية على القبيلة المعادية فلا تضطر (تحتاج) الى جنود بريطانية » •• « واذا كان هدر الدماء أمـرا يؤسف له فمثل هـذه السياسة تفيد الانجليز فى عدن لانهـا توسع الثلمة بين القبـائل » (١) •

ويؤكد أمين الريحانى أن الانجليز فى عدن ونواحيها ما كانوا يبغون غيرهم من الأوربيين هناك ، وقد وجدوا بعض أمراء العرب الذين قبلوا أن يعاهدوا على ذلك لقاء مشاهرات يقبضونها ذهبا وفضة وحماية عند اللزوم بما لدى الانجليز من جند وسلاح • ويضيف الريحانى الى ذلك قوله ان كلمة الانجليزى وعهده يتلخص فى « سنساعدك يا حضرة الأمير لتحفظ استقلالك فندفع عنك كل صائل من الداخل ومن الخارج » • وكان هدف بريطانيا من هذه الحماية واضحا فى جميع المعاهدات وهو على حد قول الريحانى أيضا : « لا يحق للأمير أو السلطان، أو الشيخ أن يفاوض ، أو يراسل دولة أخرى ، أو يعاهدها ، أو يقبل مساعدات مالية منها بدون معرفة بريطانيا العظمى واجازتها كما لا يحق لهذا المتعاقد معهم أو ذاك أن يبيع أو يؤجر ، أو يهب أو يرهن شيئا من أرضه أو ملكه لغير الحكومة البريطـانية » (٢) •

على أن هذا التقييد الذى فرضته الحماية البريطانية على النواحى التسع فى جنوب اليمن لم يكن ليضـير أهالى تلك النـواحى من ناحية مصالحهم القريبة والمباشرة ، ما دامت بريطانيا تغريهم وتقدم لهم المشاهرات المالية ، ومظـاهر التبجيل والاحترام ، وتظهر لهم استعدادها لحمايتهم من أى عدوان خارجى(٣)• وكانت العشائر القبلية التى تقطن هذه النواحى تتصف بحرصها الشديد على الاستقلال الذاتى ، وتمسكها بالتفكير المحلى المحدود ، والخضوع المطلق لرئيس القبيلة أو شيخها والتعود على حياة الفقر والقناعة بالقليل • وقد أدركت بريطانيا طبيعة سكان تلك النواحى فتركتهم يتمتعون بحريتهم الذاتية المحدودة ومنحتهم المال ومظاهر الاحترام ، ولم تطالبهم الا بعدم الارتباط بغيرهم ، ولم يكن هذا

---

(١) Jacob, H.F. : Ibid., p. 45.

(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤١ •

(٣) الريحانى : المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤١٧ •

ليسوءهم لدرجة كبيرة لا سيما وأن علاقاتهم الخارجية كادت تكون معدومة ٠ بل ان بريطانيا حرصت من جانبها على ابقاء تلك النزعة المحلية الاستقلالية التى تفصل كل ناحية عن الأخرى ، حتى تتمكن من تحقيق مطامعها وأهدافها الاستعمارية من خلال هذا التفتيت السياسى فى جنوب اليمن (١) ٠

وتلقى لنا بعض الضوء على موقف الحكام المحليين فى النواحى التسع من البريطانيين فى جنوب اليمن تلك المناقشة التى دارت بين أمين الريحانى الذى زار اليمن فى العشرينات من القرن الحالى وبين السلطان على بن مانع الحوشبى أحد حكام تلك النواحى ٠ وبرغم أن هذه الزيارة تمت بعد جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ م وتغير ظروف الموقف هناك فى ذلك الوقت ، الا أن هذا الحديث يفسر أيضا ما كانت عليه علاقة الحكام المحليين بالانجليز فى أثناء وجود الترك هناك ، لأن هذه العلاقة لم تتغير طبيعتها عما كانت عليه من قبل ، كما تفسر هذه المناقشة علاقة السلاطين بعضهم ببعض وموقفهم من الامام يحيى فى جبال اليمن ٠ فقد قال سلطان الحواشب للريحانى : « أنا بين أربعة يا أمين، والأربعة يقصرون حياتى ، هذا ابنى وهذه لحيتى البيضاء ، هو ابنى الوحيد يا أمين ولكنى أذبحه والله ولا أسلمه رهينة لأحد ٠ أما الأربعة فالواحد منهم فوق (يقصد الامام يحيى) يشهر علينا الحرب لأننا هادئون ساكتون لا نعتدى على أحد ، والآخر تحت (يقصد شيخ قبيلة الصبيحة وهى احدى قبائل النواحى التسع) يغزونا لأنه يظن أننا أغنياء وأن خزانة الانجليز تحت أمرنا ، والثالث هناك (يقصد شيخ قبيلة الضالع فى احدى تلك النواحى وهى تقع شرقى الحواشب) ، والرابع (سلطان لحج) عدونا اليوم صديقنا غدا لا نعرف والله متى ينقلب ولم ينقلب ، وعلينا أن نحاربهم كلهم ، واننا والله نحاربهم يا أمين حتى نفنيهم أو يفنونا ٠٠ لا والله لا نأخذ من القوافل الا مجيديا واحدا على كل جمل ، والامام يأخذ مجيدين ، وصاحب لحج يأخذ ثلاثة » ٠

ثم سأل الريحانى سلطان الحواشب عن مقدار المشاهرة التى يأخذها من الانجليز ، فنظر السلطان على بن مانع الحوشبى اليه ، بينما وضع يده على لحيته ورفع ثلاث أصابع من اليد الأخرى وقال : « ثلاثمائة روبية ٠٠ وهى والله غير كاملة يدفعونها كل ستة أشهر ٠٠ ونحن علينا أن نؤمن للقوافل الطرق ، وأن نطعم أهلنا ورجالنا » ٠ ثم أضاف الى ذلك : « الانجليز ضرورة يا أمين » ٠ وقد سأله الريحانى عما اذا دفع له الامام مشاهرة على النحو الذى يفعله الانجليز فهل يتركهم ويواليه ٠ فأجاب الحوشبى على الفور بقوله : « لا والله لا أنا متعاهد والانجليز فلا أخلف ، وسأبقى صديقهم دائما ٠ الانجليز يا أمين يعقلون ، عندهم حكمة كما عندهم مال ، نعلم أنهم غير مسلمين ، والمسلمون اخوان ،

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ٠

ولكن القلب يعرف الأخ يا أمين ، والسياسة لا تعرف غير الضرورة » (١) ٠

ونلاحظ فى هذه المناقشة أن روح المنافسة والعداء كانت سائدة بين حكام النواحى التسع فى جنوب اليمن وان كل حاكم منهم كان يحاول السيطرة على النواحى الخاضعة لجيرانه من الحكام الآخرين ٠ كما يتضح أيضا عداؤهم للامام يحيى وعدم رغبتهم فى الانضواء تحت لوائه واستنفارهم من التبعية له ورفضهم تسليمه الرهائن للتعبير عن ولائهم ٠ وجدير بالذكر أن هذه المناقشة حدثت فى الوقت الذى كان فيه الامام يدبر زحفه على هذه النواحى لضمها الى ملكه الذى ورثه عقب جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ م ٠ ويهمنا فى هذه المناقشة أن نشير الى أن حكام هذه النواحى اعتبروا البريطانيين ضرورة كما أكد ذلك سلطان الحواشب الذى كان يتقاضى منهم هو وجيرانه مشاهرات مالية تخفف من حـدة الفقر الذى كان يعانى منه سكان تلك الجهات نتيجة لقلة مواردها ، واعتمادهم فقط على جبـــاية الأموال من القوافل العــابرة التى لم تكن لتفى بحاجاتهم ٠ كما أنه يبدو أن مظاهر الاحترام والتبجيل التى أظهرها البريطانيون لهؤلاء الحكام جعلتهم يفضلونهم على الامام يحيى الذى كان يفرض عليهم نظام الرهائن البغيض ٠ كما أن تمسك الانجليز والتزامهم بأقل قدر من التدخل فى الشـــئون الداخلية لتلك النواحى جعل الحكام المحليين يتمسكون بصـــداقتهم للانجليز بينما كانوا يخشون سيطرة الامام واستحواذه على مقدراتهم مما جعلهم يرفضـــون صداقته رغم ما بينهم وبينه من روابط الدين والوطن ٠ وقد عبر الحواشبى عن صداقته للبريطانيين بقوله : « أنا متعاهد والانجليز فلا أخلف ، وسأبقى صديقهم دائما » ، وبرر موقفه هذا منهم بقوله ان « السياسة لا تعرف غير الضرورة » ٠

كما يوضح لنا موقف العبادلة حكام لحج من البريطانيين فى جنوب اليمن ذلك الحديث الذى دار بين نزيه مؤيد العظم وبين السلطان محسن بن على بن مانع نجل سلطان لحج الذى عاصر هجوم العثمانيين على بلاده فى سنة ١٩١٥ ، ومات برصاص الانجليز الذى أطلق عليه خطأ فى أثناء فراره الى عدن ظنا من القوات البريطانية هناك أنه ورجاله يمثلون طلائع الترك ٠ وقد تولى السلطان محسن أمور السلطنة بعـد وفاة أبيه وعاد اليها بعـد جلاء العثمانيين عن لحج فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ ٠ **وقد دار بين نزيه العظم والسلطان محسن هذا الحديث على النحو التالى :**

نزيه العظم : كيف أنتم والانجليز ؟

السلطان محسن : الانجليز أصحاب أبينا من قبلنا ، ونحن واياهم أصحاب ،

---

(١) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٩٧ ٠

وهم يدفعون لنا معاشا كل شهر ، واذا ذهبنا الى عدن يطلقون المدافع حين وصولنا ، وذلك للترحيب بنا ٠

نزيه العظم : كيف حالكم والامام ؟

السلطان محسن : حالنا حسنة لا أخذ ولا عطاء ، نحن فى أرضنا وعمال الامام فى أرضه فاذا تجاوزوا على حدودنا ، نحاربهم والله ، نحاربهم حتى نفنى جميعـا ٠

نزيه العظم : هـل يجـوز لكم وأنتم مسلمون أن تحاربوا اخوانكم المسلمين ؟ ألا تخافون الله ومن يوم الله ؟

السلطان محسن : والله نخاف من الله ومن يومه ، ولكن عمال الامام قوم ظلام ، ونحن لا نريد أن نعاملهم بشىء ٠

نزيه العظم : ألا تفضلون عمال العرب المسلمين على الأجانب الانجليز ؟

السلطان محسن : نحن لا نفضل واحدا على واحد ، وقد عقد آباؤنا مع الانجليز اتفاقات ، وما دام الانجليز محافظين على هذه الاتفاقات فنحن معهم ٠

نزيه العظم : واذا اتفق الامام معكم ، ألا ترغبون أن تتفقوا معه ، وهو أفضل من الانجليز ؟

السلطان محسن : والله نتفق معـه ونحارب الانجليز أيضـا ، لأننـا لسنا قبيلة أحد ، وليس علينا سلطان ، فمن يملأ كفنا قروشا فهو سلطاننا الحقيقى (١) ٠

ويتضح من بداية هذا الحديث علاقة البريطانيين بحكام لحج الذين كانوا يتقاضون منهم معاشا شهريا ، كما كانوا يتلقون مظاهر الاحترام والتبجيل عندما كانوا يزورون عدن ٠ هذا بينما كانت علاقة حكام لحج بالامام يحيى علاقة جوار لا يربطها تحالف مما جعلها عرضة للانهيار اذا اعتدى أحدهم على الآخر ٠ وقد كان الامام يتمسك بملكية أجداده للنواحى التسع فى جنـوب اليمن مما كان يؤدى به الى الاعتقاد بتبعية هـذه النواحى لسيادته وكان ذلك يؤدى بالتالى الى اثارة المشاكل بين حين وآخر ٠ على أن الأمور سويت تقريبا بعد أن أخرج الانجليز الامام يحيى من النواحى التى سيطر عليهـا بعد جلاء العثمانيين عن اليمن ، وعقد الامام مع البريطانيين معاهدة فى سنة ١٩٣٤ م (٢) ترتب عليها اقرار الأمور نسبيا فى المنطقة ٠ ومن الملاحظ أن حكام لحج الذين

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ ٠

(٢) Treaty of Friendship and Mutual Co-operation between His Majesty in respect of the United Kingdom and of India and the King of Yemen, White paPer, Cmd. 4752, 1934.

كانوا يعـانون من الفقر ويهـدفون الى الحصـول على المسـاعدات المالية كانوا لا يفرقون بين جهة وأخرى تقدم لهم هذه المساعدات سواء كانت بريطانيا أم الامام الزيدى ، وبخاصة بعد أن كف الامام عن مطالبتهم بالتبعية لسيادته حين اضطره البريطانيون الى ترك النواحى التابعة لحمايتهم . وقد أشار السلطان محسن فى حديثه مع نزيه العظم الى أن آباءه عقـدوا مع البريطـانيين اتفاقات يحافظون عليها وعلى وجود العلاقات الودية مع بريطانيا طالما بقيت على الوفاء والالتزام بعهودها ، وأن هذه الاتفاقات والمشاهرات المالية ومظاهر الود والاحترام هى التى جعلت حكام لحج يقفون الى جانب الانجليز فى جنوب اليمن ويحاولون صد العثمانيين عن بلادهم فى أثناء زحفهم تجاه عدن فى مطلع الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٥ .

اتفاقات الحـدود بين العثمانيين والبريطانيين فى جنوب اليمن :

برزت الى الوجـود مشكلة الحـدود فى جنوب اليمن بين منطقتى نفوذ العثمانيين والبريطانيين بعد أن استقر الجانبان فى أواسط القرن التاسع عشر، فقد سيطر الانجليز على عدن فى سنة ١٨٣٩ م بينما احتل الترك تهامة اليمن فى سـنة ١٨٤٩ م وتمكنوا من السيطرة على صنعاء فى سـنة ١٨٧٢ م وجعلوا اليمن ولاية عثمانية . وفى أثناء الفترة التى امتدت منذ سنة ١٨٧٣ م حتى مطلع سنة ١٩٠٢ م كانت الحدود تتذبذب من آن لآخر بين منطقتى نفوذ العثمانيين فى جنوب اليمن (١) . غير أنه فى الفترة الممتدة من يناير سنة ١٩٠٢ م حتى مايو سنة ١٩٠٤م تم تحديد خط الحدود بواسطة لجنة مختلطة «أنجلو ــ تركية» ، وقد اتفق نهائيا على ارساء تلك الحدود فى الاتفاقية البريطانية العثمانية التى عقدت فى شهر مارس سنة ١٩١٤ م . وهكذا كانت الجزيرة العربية فى مطلع الحرب العالمية الأولى فى بعض أجزائها مقسمة بين قوتين غير عربيتين ، هما بريطانيا والدولة العثمانية . غير ان هذا التقسيم النظرى تجاهل الحقيقة وهى أن الجزء الأعظم فى مجالى النفوذ البريطانى والعثمانى فى الجزيرة العربية كان فى يد الحكام العرب والقبائل العربية . ففى جنوب اليمن كان نفوذ السلطات البريطانية لا يمتد أبعد من عشرة أميال من مدينة عدن نفسها ، أى انه كانت توجد منطقة تبلغ مساحتها ٤٢٠٠ ميل مربع تقريبا ــ خارج منطقة مساحتها ٨٠ ميلا مربعا هى مساحة عدن المحتلة نفسها ــ مقسمة بين عدد من الزعامات القبلية المحلية ، وان ارتبطت هذه الزعامات مع بريطانيا بمعاهدات حماية مقابل مساعدات معينة . ولم يختلف الوضع كثيرا بالنسبة للعثمانيين ، فلم يكن لهم

(١) The Admiraly Handbook of Arabia, 1916, p. 197.

نفوذ فعلى فى كل ممتلكاتهم ، بل انحصر نفوذهم فى المناطق التى لهم فيها حاميات مقيمة ، وان اعترفت بريطانيا بمجال نفوذهم فى تلك الممتلكات العثمانية(١) •

وعلى الرغم من أن اتفاقية الحدود البريطانية العثمانية التى وقعت فى لندن سنة ١٩١٤ م قد أقرت تسوية مشاكل الحدود بين بريطانيا والدولة العثمانية فى الجزيرة العربية (٢) فان العثمانيين كانوا يتمسكون بالسيادة النظرية على الجزيرة العربية بأكملها ، وان كانوا يعترفون من الناحية العملية بخضوع تسع قبائل متاخمة لعدن « للحماية البريطانية » ، حتى عرفت المناطق التى تسكنها تلك القبـائل فى المعاملات الدبلوماسية « بالمحميات التسع » • وقد ظل هذا التعريف متداولا لمدة طويلة برغم أن مجموع القبائل التى أصبح لها علاقات تعاهدية مع الحكومة البريطانية فى جنوب اليمن قد زاد بمرور الوقت كثيرا عن القبـائل التسع الأصلية (٣) • وهكذا ارتضى الجانبان العثمانى والبريطـانى حدودا معينة تنظمها معاهدة متفق عليها ومعترف بها ، وان أغفل فيها جانب اليمنيين أصحاب البلاد الذين لم يعترفوا بتلك الاتفاقية باعتبارها عقدت بين مغتصبين للأراضى اليمنية •

وترجع أسباب الاتفـاق بين الدولة العثمانية وبريطـانيا على الحدود بين منطقتى نفوذهما الى أن الدولة العثمانية كانت قد تعرضت فى الفترة التى أعقبت عقد الصلح بينها وبين الامام يحيى فى سنة ١٩١١ م لأزمات عصيبة متتالية ، كان أولها الحرب الطرابلسية التى رجحت فى نهايتها كفة ايطاليا وانحسر النفوذ العثمانى دون رجعة عن طرابلس الغرب ، وكان ثانيها الحرب البلقانية فى سنة ١٩١٢ التى انتهت بخروج الولايات البلقانية من ممتلكات الدولة بعد أن تكبد الترك خسـائر فادحة • أما ثالث هذه الأزمات فقد تبـلور فى اقتناع الدول الأوربية وعلى رأسها بريطـانيا بضرورة اتبـاع سياسة جديدة لحل « المسألة الشرقية » ، وذلك بالاتفاق على تحديد مناطق نفوذ كل منها فى البلاد العثمانية استعدادا واحتسابا لليـوم الذى يصبح فيه اقتسـام الامبراطورية العثمانية المنهارة أمرا محتـوما ، حتى لا يتعرض الجميع فجأة لكارثة خطيرة اذا نشبت المنافسة بينهم • وكانت كل دولة من الدول الأوربية الكبيرة تطمع فى امتلاك بعض الأقطار من الممالك العثمانية ، وهذه المطامع كانت تتعارض وتتصادم فى معظم تلك الأقطار ، وكانت كل دولة تتمسك بموقفها تمسكا شديدا ، فلا تتنازل عن شىء من مطامعها ترضية لمنافساتها • ومع ذلك ، لم تكن هذه الدول تجد لزوما للتعجيل فى حل الأمور ، بل كانت تكتفى بالعمل على توسيع نفوذها ،

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, pp. 309-310.

(٢) جان جاك بربى : جزيرة العرب • (ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز) ، ص ١٣٧ •

(٣) Sir Bernard Reilly, : Aden and Yemen, p. 16.

انتظارا لحلول الفرص المواتية لتحقيق مطامعها بكاملها ، وكانت انجلترا من أولى الدول التى تؤمن بذلك وتحرص على تمامية الدولة العثمانية ٠

فلما أنهكت الحروب الطرابلسية والبلقانية قوى الدولة العثمانية رأى ساسة أوربا ومن بينهم ساسة الانجليز وجوب التعجيل بالاتفاق على تقسيم ممتلكات الدولة بعد أن اعتقدوا أن عمرها لن يطول كثيرا ٠ كما أن خروج الولايات الأوربية من حوزة السلطنة العثمانية غير تركيبها الداخلى تغييرا جذريا جعل من المستحيل عليها أن تبقى على حالتها السابقة طويلا ، فقد زادت النسبة بين العرب وبين مجموع سكان السلطنة زيادة كبيرة ، كما أن نسبة الأرض الى المجموع أيضا زادت زيادة محسوسة ، فكان لابد أن ينتج عن ذلك صعوبات وأزمات جديدة قد تؤدى احداها الى انهيار السلطنة بصورة فجائية تثير حربا كبرى بين الدول الأوروبية التى تنتظر سقوط « الرجل المريض » لتنقض على أملاكه ٠ بل ان رجال الحكومة العثمانية أيضا أدركوا وجوب تسوية المسائل المعلقة بين دولتهم وبين الدول الأوروبية حتى يصونوا بلادهم من خطر الاضمحلال ٠ وكان حقى باشا ــ الذى أحرز مناصب وزارة الخارجية فالصدارة العظمى ــ على رأس القائلين بذلك والداعين الى اتباع « سياسة التمويه » للوصول الى اتفاق مع الدول الأوربية ، وعلى الأخص مع بريطانيا (١) ٠

ولهذه الأسباب بدأت سلسلة من المفاوضات بين الحكومة العثمانية وكل من روسيا ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وألمانيا من جهة ، وبين كل واحدة من الدول المذكورة والدول الأخرى من جهة ثانية ٠ كما تقدمت ايطاليا بعد ذلك ببعض المطالب ودخلت فى المفاوضات التى جرت فى جو ملائم للتسوية وانتهت بالتوقيع على عدة اتفاقيات ٠ وقد كانت هذه الاتفاقيات جميعها سرية فلم تذع حين عقدها ، بل ان الأتراك أنفسهم لم يذيعوها الا فى سنة ١٩٥١ م عندما خصص « يوسف حكمت بابور » أحد مجلدات كتابه « تاريخ الانقلاب التركى » لبحث هذه المفاوضات والاتفاقيات ، مستندا الى محفوظات وزارة الخارجية ٠ وقد نشر هذا المجلد فى السنة المذكورة ، بين مطبوعات « لجنة التاريخ التركى » ويقع فى ٥١٢ صفحة من القطع الكبير ٠ وقد تولى حقى باشا المفاوضات مع البريطانيين فى لندن ومثل بلاده هناك ٠ وقد نجمت عن هذه المفاوضات مجموعة من الاتفاقيات مع عدة بيانات تم التوقيع عليها فى تواريخ مختلفة فى عامى ١٩١٣ م ، ١٩١٤ م ، ويهمنا منها بشكل مباشر اتفاقية المحميات وحضرموت ، وهى الاتفاقية التى عقدت بين الحكومتين العثمانية والبريطانية لتحديد الحدود بين المنطقة التى يدعى الانجليز حمايتها وحدود الممتلكات العثمانية التى اغتصبها الترك فى اليمن ٠ وقد وقع على هذه الاتفاقية كل من حقى باشا عن الدولة

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ ٠

العثمانية و « السير ادوارد غراى » عن بريطانيا فى ٩ من مارس سنة ١٩١٤م(١)، **وهى تتضمن الأمور التالية :**

١ ـ تم تعيين الحـــدود بين ولاية اليمن ، وبين عـدن والنـــواحى التســع « المحمية » ٠

٢ ـ منطقة « جبل نعمان » (وتشمل ٥٥٠ ميلا مربعا) بقيت داخل حـدود السلطنة العثمانية ٠ غير أن الحكومة العثمانية تعهدت بأن لا تترك المنطقة المذكورة الى دولة أخرى ٠

٣ ـ تخلت الدولة العثمـــانية عن كل ما كان لها من حقـوق ومطـالب فى حضرموت (٢) ٠

وهذا يعنى أن الدولة العثمانية اعترفت بحماية بريطانيا على جنوب الجزيرة العربية وتخلت عن المطالب المتعلقة بحضرموت ، كما وافقت على تحديد الحدود بين ولاية اليمن وبين « المحميـات البريطـانية » ٠ وجدير بالذكر أن اليمنيين لا يعترفون بهـذه الاتفاقية التى استغل فيها الانجليز كعادتهم ضـعف الدولة العثمـانية عقب الحربين التى خاضتهما مع ايطـاليا فى سنة ١٩١١ ، ومع دول البلقـان فى سنة ١٩١٢ م فحملوها بأساليبهم على توقيع هـذه الاتفـاقية التى تنازلت فيهـا عن حقوق الشعب اليمنى التى اغتصبها فى أثنـــاء فترة الحكم العثمانى فى اليمن ٠ بل ان الأتراك أنفسهم شعروا بما فى هـذه المفاوضات والاتفاقيات من مساس بحقوق الســيادة العثمانية غـير أنهم حاولوا أن يعالجوا الأمـر بصـورة غريبة عندما كتب الصدر الأعظم سعيد حليم باشا فى احدى رسائله الرسمية : « ان المفاوضات التى تجرى بين الدول الأوربية حول الأمور التى تتعلق ببلادنا تخل بحقوق سيادتنا اخلالا كليا ، ولذلك يجب علينا أن لا نتبلع نتائج تلك المفاوضات ، بل يجب علينا أن نتجاهلها تماما » ٠ غير أن تجاهل رجال السلطنة العثمانية لهذه المفاوضات لم يكن ليغير شيئا من حقائق الأمور لأن مفاوضات الدول الأوربية فيما بينها كانت توجه المفاوضات التى تجرى بين الدول العثمانية وبين كل واحدة من تلك الدول ٠ وقد ذكر « يوسف

---

(١) سيتون وليمز ، م٠ ف٠ : بريطانيا والدول العربية ، عرض للعلاقات الانجليزية العربية (١٩٢٠ ـ ١٩٤٨) ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ ٠

بعد التوقيع علىهذه الاتفاقية فى التاريخ المذكور ، تم التصديق عليها فى لندن فى ٣ من يونية سنة ١٩١٤ ، وكانت قد سبقتها عدة بروتوكولات لتحديد الحدود فى جنوب اليمن وقعت فى الفترة الممتدة بين عامى ١٩٠٣ ـ ١٩٠٥ ٠

Aitchison, C.V. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and the Neighbouring Countries, Vol. XI, p. 42.

(٢) أمين سعيد : اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى ، ص ١٥٤ ـ ١٥٩ ٠ (للاطلاع على النص المترجم للاتفاقية انظر الملحق رقم ١٥) ٠

حكمت بابور » فى مؤلفه المشار اليه أن تجاهل العثمانيين للمفاوضات المذكورة يشبه « عمل النعـــامة التى تدفن رأسها فى الرمال وتتوهم أنهـــا خفيت عن الأبصـــار » ٠

وقد وضعت هذه الاتفاقيات « أسس اقتسام آسيا العثمانية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية » ورسمت خطوط اقتسامها بصورة فعلية ، مما جعل ساطع الحصرى يقول : « ان أسس اقتسام البلاد العربية ــ التابعة للدولة العثمانية ــ كانت قد تقررت قبل الحرب العالمية الأولى ، تحت علم الحكومة العثمانية نفسها » (١) ٠

وجدير بالذكر أنه فى أعقاب جلاء العثمانيين عن اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى كتب الامام يحيى الى السلطات البريطانية فى عدن بأنه لم يعترف باحتـــلال العثمانيين لليمن وأنه بالتالى لا يعترف ولن يلتزم بالمعـــاهدات التى عقدوها مع بريطـــــانيا ٠ وقد أكد الامام أن كل هـــذه الأقاليم التى اغتصبها العثمانيون والبريطانيون فى اليمن هى ملك لأسلافه الذين كانوا يحكمونها قبل مجىء الأجانب اليها وأنه الوريث الشرعى لكل تلك المناطق ٠ وقد اعتبر الامام الاحتـــلال العثمانى والبريطـــــانى لبعض مناطق اليمن فى القرن التاسع عشر اغتصابا غير شرعى لهذه المناطق ، وأن الحدود تم تخطيطها بين جانبين مغتصبين لا يملكان الصلاحية القانونية ، وأن احتلاله لبعض مناطق النفوذ البريطانى فى جنوب اليمن انما هو استرجاع لأملاكه السليبة ٠

غير أن بريطانيا كانت لها وجهـــة نظـــر مخالفة لوجهـــة النظر اليمنية التى أبداها الامام يحيى كما أنها قدمت حججا مقابل الحجج التى أوضحها ، اذ رأت بريطانيا أن أملاك الأئمة الزيديين قبل القرن السابع عشر كانت محصورة فى المنطقة المحيطة « بصعدة » فى مرتفعات اليمن الشمالية ٠ كما أنها رأت أن نفوذ الأئمة وسلطتهم لم تكن فعالة على الاطلاق عندما كان ميدان اليمن كله خاليا امامهم فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠ هذا فضلا عن أن السلطة التى أسسها الأئمـــة كانت عوامل الانهيـــار قد اعترتها قبل ظهور بريطانيا على مسرح الأحداث اليمنية بشكل واضح منذ احتلالها لعدن فى سنة ١٨٣٩ م ، وقبل عودة الأتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٩٤٩ بناء على استنجاد بعض الزعماء اليمنيين الذين كانوا يأملون فى استقرار الامور على أيدى العثمانيين بعد أن عمت الفوضى فى أرجـــاء البـــلاد نتيجة لتنافس الأئمـــة وتصارعهم طمعا فى الاستئثار بالامامة ٠ وأخيرا كان البريطانيون يحتجون بأن المذهب الزيدى الذى يقبل أتبـــاعه حكم الأئمة الزيديين ليس سائدا فى كل أرجاء اليمن ، وأن ثمة مذاهب أخرى عديدة يؤمن بها جزء كبير من الشعب اليمنى ولا يرتضون الخضوع

---

(١) ساطع الحصرى : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ ــ ٢٢٧ ٠
Jacob, H.F. : Op. cit., p. 242.

لحكم الأئمة الزيديين ولا يقبلون ذلك الا كرها (١) . ولعل رأى « السير برنارد رايلى » أحد حكام عدن فى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٩٣١ م الى ١٩٤٠ م يكمل وجهة نظر بريطانيا فى هذا الموضوع ، فهو يعتبر أن الامام يحيى بصفته وريثا للامبراطورية العثمانية فى اليمن عليه أن يلتزم بالاتفاق العثمانى البريطانى بخصوص تحديد حدود « المحميات » ، وذلك طبقا للقانون الدولى . ولهذا يعتبر الامام من وجهة نظره البريطانية فى موقف المعتدى عندما هاجم « الضالع » فى سنة ١٩٢٠ م . و « البيضاء » فى سنة ١٩٢٣ م . و « العوذلى العليا » فى سنة ١٩٢٤م ، و « العوذلى السفلى » فى سنة ١٩٢٦م(٢) بعد أن تم جلاء العثمانيين عن اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ م .

وقد حاولت بريطانيا دائما أن تتخذ من المعاهدة التى عقدت بينها وبين الدولة العثمانية بشأن تحديد الحدود بين منطقتى نفوذ كل منهما فى جنوب اليمن سندا تتمسك به لابقاء تلك الحدود المتفق عليها على ما هى عليه لأنها كانت تحرص كل الحرص على جعل المنطقة الخلفية لعدن خالية من كل نفوذ أجنبى يهدد حاميتها فى عدن نفسها (٣) ، التى كانت تعتبر مركزا للتموين والتأمين لطريقها البحرى الهام الى الهند والشرق الأقصى . وقد بلغ الأمر ببريطانيا أن اعتبرت أن أى نفوذ عربى يمتد من اليمن نفوذا أجنبيا يستحق المقاومة وبخاصة بعد المحاولات العربية لاخراج البريطانيين من عدن فى الفترة التى أعقبت سيطرتهم عليها فى سنة ١٨٣٩ م ، وبعد التجربة المريرة التى مرت بها بريطانيا فى سنة ١٩١٥ م عندما هاجم العثمانيون النواحى الخاضعة لحمايتها فى جنوب اليمن وسيطروا على لحج وطرقوا أبواب عدن نفسها فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا مشغولة فى الميادين الأخرى العديدة فى أثناء الحرب العالمية الأولى كما سنوضحه فى الفصل التالى .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928 p. 311.

(٢) Sir Bernard Reilly : Op. cit., p. 17.

(٣) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .



الفصل السادس

العثمانيون فى اليمن
فى أثناء الحرب العالمية الأولى
(١٩١٤ – ١٩١٨)

أولا – موقف العثمانيين والبريطـانيين فى جزيرة العرب عند قيام الحرب العالمية الأولى .

ثانيا – السياسة العثمانية فى مطلع الحرب العالمية الأولى .

ثالثا – التحركات العسكرية العثمانية فى أثناء الحرب العالمية الأولى .

رابعا – جلاء العثمانيين عن اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

العثمانيون فى اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)

اولا ـ موقف العثمانيين والبريطانيين فى جزيرة العرب عند قيام الحرب العالمية الأولى

قبل أن تجف الدماء العثمانية التى أريقت فى حرب البلقان ، كان التغلغل الألمانى فى شئون الدولة العثمانية قد بلغ أوجه وبخاصة عندما عقدت الحكومة العثمانية مع ألمانيا معاهدة دفاعية سرية فى ٢ من أغسطس سنة ١٩١٤ م ، وهو نفس اليوم الذى أشهرت فيه ألمانيا الحرب على روسيا ٠ وقد تعهدت الدولة العثمانية فى هذه المعاهدة بمساعدة الألمان ضد الروس ، كما تظاهرت بالحيدة فترة من الزمن ، حتى بدا لها أن استعداداتها الحربية قد اكتملت بدرجة كافية أرسلت أسطولها فضرب فى ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩١٤ الموانى الروسية على البحر الأسود ٠ وقد ردت روسيا على هذا الاعتداء العثمانى باشهار الحرب على الدولة العثمانية ، وهكذا أقحم العثمانيون أنفسهم فى الحرب العالمية الأولى ٠

وكانت انجلترا قد ارتابت فى الاستعدادات الحربية التى أجراها العثمانيون فى الجزيرة العربية فى مطلع سنة ١٩١٤ م بعد التقارب الذى تم بينهم وبين الألمان مما جعلها تحس بخطورة التغلغل الألمانى فى شئون الدولة العثمانية على مصالحها ومواصلاتها الى الهند ٠ ولما كانت المصالح البريطانية متضاربة مع المصالح العثمانية فى الجزيرة العربية مما أثار الاحتكاك والنزاع الدائمين بين الجانبين فان ميدان الحرب كان سيصل حتما الى هناك ، لا سيما وأنه كان واضحا منذ البداية انحياز الدولة العثمانية الى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ٠ وعندما أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على الامبراطورية العثمانية فى ٥ من نوفمبر سنة ١٩١٤ م اثر هجوم الأسطول العثمانى على الموانى الروسية ، فان الدولة العثمانية أعلنت بدورها الحرب على الدولتين فى ١١ من

نوفمبر سنة ١٩١٤ م (٢٢ من ذى الحجة ١٣٣٢ هـ) (١) وأشهرت انضمامها الى ألمانيا ، فأصبح العداء صريحا بينها وبين الحلفاء ٠ فكانت الامبراطوريات الألمانية والنمساوية والعثمانية فى جانب وروسيا وفرنسا وبريطانيا ومستعمراتها واليابان والبلجيك وصربيان والجبل الأسود فى الجانب الآخر ، وشملت الحرب فى فترة لم تزد على أشهر ثلاثة من ٢٨ من يوليو الى أكتوبر سنة ١٩١٤ خمسا من قارات العالم ٠ ومنذ بداية هذه الحرب حرص الجانبان المتصارعات على اتخاذ الخطوات الحربية والدبلوماسية لكسب المعركة ، فكانت الجزيرة العربية أحد ميادينها ، وان انحصر الصراع فيها بين العثمانيين والبريطانيين نظرا لما كان لهما هناك من نفوذ ومصالح عديدة ٠

على أن كسب معركة العالم العربى كله وليس الجزيرة العربية وحدها أصبح هدف الجانبين المتصارعين فى الحرب العالمية الأولى ، اذ أن موقف العرب ازدادت أهميته فى ترجيح كفة الحلفاء على أعدائهم ، وأصبح أمرا ذا أهمية مباشرة للحلفاء عامة وللمصالح البريطانية بصفة خاصة ٠ وكانت تركيا فى مركز تستطيع معه أن تهدد مصالح بريطانيا فى نقطتين هامتين بفضل استيلائها على الشام والعراق ، فكانت تسيطر على قناة السويس من جانب ، وعلى رأس الخليج العربى من جانب آخر - حيث تقع آبار النفط الهامة التابعة للشركة الانجليزية الفارسية ٠ وكانت بريطانيا تدرك الخطر الذى يهددها فى الجزيرة العربية نفسها ، اذ كان الترك يستطيعون اتخاذ مراكز عديدة على طول ساحل البحر الأحمر لبث الألغام التى تدمر البواخر البريطانية كما كان يمكنهم أن يبعثوا برسلهم من هناك الى مصر والسودان وداخل افريقيا لامداد أهالى البلاد بالسلاح واثارة مشاعرهم ضد الحلفاء ٠ هذا فضلا عن وجود الحامية العثمانية فى اليمن التى كانت مؤلفة من فرقتين وكان يخشى تهديدها للبريطانيين فى عدن ٠ وثمة أمر خطير كان الحلفاء يهتمون به ويتوجسون من نتائجه لتعلقه بالدعاية السياسية ضدهم وهو : « الخليفة السلطان اذا أعلن الجهاد ، ونال تأييد شريف مكة له ، تمكن من تحويل الحجاز الى مركز لبث الدعاية المهيجة ، لا لتثير البلاد العربية فحسب ، بل لتحرك كذلك الأقوام الكثيرة الاسلامية وغير العربية التى تعيش تحت حكم الحلفاء ، أو على أطراف المناطق التابعة لهم » (٢)٠ ومن هذا كانت الجزيرة العربية مسرحا للمنافسة فى المجالين الحربى والدبلوماسى على السواء فى أثناء الحرب العالمية الأولى وخاصة بين العثمانيين والبريطانيين مما جعل كلا الجانبين يستميتان فى محاولات كسب ود الأمراء والزعماء المحليين على اختلاف درجات قوتهم وأهميتهم ٠ وكان يزيد من عنف هذه المنافسة اعتماد الترك على ما لخلافتهم من نفوذ معنوى فى الجزيرة ، وحاميات عثمانية موزعة

(١) Brémond : Yémen et Saoudia, p. 78.

(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب (ترجمة حيدر الركابى) ص ١٤٨ - ١٤٩ ٠

فى أرجائها ، واستناد بريطانيا الى مناطق نفوذها ومستعمراتها الواقعة على بعض سواحل الجزيرة ، الى جانب سلسلة من المعاهدات والاتفاقات التى عقدتها مع بعض الزعماء المحليين أمثال آل العبادلة فى لحج ٠

على أن النفوذ العثمانى فى الجزيرة العربية كان يمتد على مساحات أوسع وأبعد مدى من النفوذ البريطانى ، فقد كانت بريطانيا تختار النقط الاستراتيجية التى يهمها الاستيلاء عليها دون أن تهتم كثيرا بضيق الرقعة المحتلة أو اتساعها ، وهذا ما فعلته عند سيطرتها على عدن ٠ وقد كان هذا الفارق المساحى يعتمد على أساس تاريخى فضلا عما كان يصاحبه من نفوذ معنوى للخليفة العثمانى فى الجزيرة ، ولهذا كانت الجزيرة خاضعة للنفوذ العثمانى أساسا ، بينما كان النفوذ البريطانى لا يمثل الا منافسا زاحفا يحتل نقطا معينة لحماية خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية (١) ٠

غير أن النفوذ الفعلى للعثمانيين فى الجزيرة العربية كان ضعيفا بوجه عام ، ولم يكن يبدو واضحا الا حيث وجدت القوات العثمانية ٠ وكانت الحامية التركية الموجودة حينذاك فى الجزيرة مؤلفة من أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن ٠ وكانت سلطة الحسين شريف مكة على القبائل فى الحجاز كافية لتشكيل قوة كبيرة من بينها يمكنها الاشتراك فى الهجوم على مصر اذا أراد الحسين ذلك ٠ بل كان باستطاعته أن يجند من البدو ما لا يقل عن الأربعين ألفا ببنادقهم ، بينما كان يستحيل على الترك أن يتوصلوا الى اثارة البدو بدون مساعدته ٠ وكانت الحامية التركية فى الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين ، ولكن تمرد القبائل هناك كان قد وصل حدا لم يتجرأ معه الترك على التوغل فى داخل البلاد بل ظلوا محصنين فى قلاعهم ومراكزهم البعيدة ٠ وقد فرض هذا الوضع على الأتراك ضرورة الحصول على مؤازرة الحسين اذا أرادوا أن يتوصلوا الى تجنيد العشائر العربية ٠ وكان تأييد الحسين للترك سيمكنهم من توجيه حامياتهم المحصورة كيفما شاءوا ، كما سيساعدهم على تشكيل قوة كبيرة من رجال العشائر يمدون بها القوى التى تتألف منها الحملة الموجهة الى قناة السويس حينذاك لمحاربة البريطانيين فى مصر والسيطرة على القناة ٠

أما نفوذ الادريسى فى عسير فلم يكن له قيمة عسكرية فى مطلع الحرب العالمية الأولى الا فى نطاق حدوده المحلية ٠ فقد كان باستطاعته أن يعطل خطوط المواصلات التركية بين الحجاز واليمن ، وأن يهدد مؤخرة الترك اذا هاجموا عدن ٠ على أن فائدة الادريسى الكبرى للحلفاء انحصرت فى سيطرته على المنطقة الساحلية مما جعله يتمكن من الحيلولة دون استعمال الترك لشواطئ عسير الطويلة كقاعدة بحرية معادية ٠

---

(١) السيد مصطفى سالم : اليمن والامام يحيى ، ص ١٩٠ ٠

وكان موقف الامام يحيى بالنسبة لطرفى النزاع فى الحرب العالمية الأولى يعد من أخطر المسائل التى أثارت اهتمام البريطانيين فى عدن · ذلك لأنه بدا واضحا أن الصلات الظاهرية للحامية العثمانية فى اليمن ـ التى كانت تتألف من فرقتين كاملتين ـ مع الأهالى اليمنيين كانت ودية وبخاصة فى الفتـرة التى أعقبت الصلح بين الامام والدولة فى سنة ١٩١١ م مما كان يخالف تماما طبيعة العـلاقة التى كانت بين حـكام الحجاز العثمانيين وأهله والتى كانت تكتنفها البغضاء والكراهية · ولما كان هجوم الأتراك على عدن أمرا محتمل الوقوع ، فان الأمل فى نجاح هذا الهجوم سيقوى ويتحقق اذا وقف الامام من الترك موقفا مؤيدا أو اشترك معهم أتباعه فى هذا الهجوم ·

أما فى الجهات المتاخمة للخليج العربى فان موقف ابن الرشيد فى شمر وابن سعود فى نجد ، كان يتوقف بالدرجة الأولى على النزاع القائم بينهما ، وكان من المسلم به أن ابن الرشيد سيقف فى صف الترك حالما تعلن الحرب · ولهـذا عنـدما انضمت الدولة العثمانية الى جانب المـانيا فى الحرب ، أسرعت انجلترا تفاوض أمراء الغرب للوقوف الى جانبها أو لتضمن على الأقل حيادهم وعدم انحيازهم للدولة العثمانية وحلفائها · واستمرت المفاوضات فى سـنة ١٩١٥ م بين انجلترا وكل من الادريسى والشريف حسـين ، وعبـد العزيز آل سعود · وكان هدف بريطانيا من هذه المفاوضات مع الأمراء العرب هو محاربة الترك فى الجزيرة العربية نفسها ، وصدهم عن تأليف كتلة عربية يقفون بها فى وجه النفوذ البريطانى أو يقطعون على بريطانيا الطريق الى الهند (١) ·

ولقـد كان محمد الادريسى أول من لبى دعوة الانجليز فحالفهم فى أبريل سنة ١٩١٥ ، وتلاه فى ذلك ابن سعود فعقد مع الانجليز معاهدة بعد ستة أشهر تقريبا أى فى ديسمبر سنة ١٩١٥ · وكان الشريف حسين ثالث الأمراء العرب الذين تحالفوا مع الانجليز فى مطلع الحرب العالمية الأولى فحالفهم فى يناير سنة ١٩١٦ وأعلن الثـورة العربية ضـد الحكم العثمانى (٢) · وقد اختلفت هـذه الاتفاقات بعضها عن البعض الآخر ، وان اتحدت معاهدة الانجليز مع الادريسى وابن سعود فى الغرض الذى طمحت اليه بريطانيا ، اذ لم يكن فى وسع الأميرين العربيين القيـام بدور أكبر من طاقتهما العسـكرية والروحية ضـد الأتراك العثمانيين · ولهذا كانت القيمة الفعلية لهاتين الاتفاقيتين مبنية بالدرجة الأولى على نتائجهما السلبية ، اذ قضيا نهـائيا على أى أمل فى التحالف بين هذين الأميرين والدولة العثمانية · ولا يعنى هذا التقليل من أهمية العمليات الحربية التى قام بها الادريسى ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن وبخاصة فى منطقتى عسير

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٩١ ·

(٢) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ط ٢ ، ص ٢٢٩ ·

وتهامة . ولكننا نهدف الى القول بأن تحالف الانجليز مع الشريف حسين كان أكثر فعالية وأكبر أهمية بالنسبة لبريطانيا تبعا لما كان يتمتع به الحسين من مركز كبير ومكانة دينية مرموقة بين أمراء العرب فى ذلك الحين ، جعلته يعتقد فى نفســه وجعلت كثيرين من العرب يعتبرونه زعيمــا للنضال العربى ضــد الاستبداد العثمانى .

واذا كانت بريطانيا قد بذلت جهودها لجذب الأمراء العرب للوقوف الى جانبها أو لضمان حيادهم على الأقل فى مطلع الحرب العالمية الأولى ، فان الأتراك العثمانيين قاموا بدورهم بالمجهــودات الضرورية للحصــــول على تعهــد العرب بمساندتهم ضد بريطانيا وحلفائها فى الحرب المذكورة . ولهذا بعثوا برسلهم فى أرجـــاء الجزيرة يحملون الهــدايا والعبــارات المعسولة الى أمراء العــرب وزعمائهم . وكان طبيعيا أن أثمرت مفاوضاتهم فورا مع ابن الرشيد الذى كان تواقا الى محــالفة الترك ، وان لم يؤد ذلك الى نتيجــة ذات فائدة كبيرة سوى تأييدهم له ضد ابن سعود الذى كان يخشى بأسه . ولم ينتفع الترك كثيرا من الامــام يحيى الذى فضــل البقاء على الحياد فى هــذا الصراع الدائر بين القوتين الكبيرتين . وكمــا يئس الترك من الادريسى قبل نشوب الحرب ، بل أصبح عدوهم اللدود بعد تحالفه مع الانجليز فى أبريل سنة ١٩١٥ ، فانهم يئسوا كذلك من الشيخ مبارك بن الصباح أمير الكويت الذى كان مرتبطا بمعاهدة مع بريطانيا فى سنة ١٨٩٩(١) ، وعقد معها معاهدة ثانية عندما قامت الحرب ، تقضى بقيام التحالف الفعلى بين الطرفين وذلك فى ٣ من نوفبر سنة ١٩١٤ .

ولم يفز رسل الترك أيضا الذين زاروا ابن ســعود بأى وعد قاطع منه للوقوف الى جانبهم ، وكانت حجته فى ذلك ادعاؤه الخوف من هجوم بريطانيا على سواحله فى الخليج العربى ، بل ان ابن سعود فى ذلك الحين كان يتفاوض مع حكومة الهند الانجليزية ، وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة بينهما فى ابريل سنة ١٩١٥ م . وكان الترك يأملون حتى بداية الحرب العالمية الأولى فى انضمام الحسين الى جانبهم وكانوا يعرفون أهمية مركزه بين الأمراء العرب فى ذلك الحين ، غير أن علاقة الحسين بالترك كانت تتحدد دائما برغبته الشخصية فى الاستقلال ، وانتهت اتصــالاته السرية مع الانجليز فى القــاهرة الى اعلانه الثورة ضد الترك فى يناير سنة ١٩١٦ .

كان هــذا هو موقف كبار أمراء العرب الستة فى الجزيرة العربية فى مطلع الحرب العالمية الأولى من القــوى المتصـــارعة ، وبخاصــة الامبراطوريتين العثمانية من جهة والبريطانية من جهة أخرى لما لهما من حاميات ومناطق نفوذ ومطامع واسعة فى الجزيرة . وقد رأينا ابن الرشيد وقد انحاز الى تركيا ،

(١) Hurewitz, J.C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, p. 219.

وابن الصباح وقد انحاز الى بريطانيا ، بينما وقف الامام يحيى على الحياد وان وضح تقربه للترك وتضامنه معهم ، هذا فى الوقت الذى كان الشريف حسين وابن السعود والادريسى يقبلون على محالفة بريطانيا وينتظرون أن تحقق لهم وعودها المغرية ثمن ثورتهم وخروجهم على الدولة العثمانية (١) .

وسنحصر بحثنا فيما يلى على تتبع العلاقات بين الأتراك العثمانيين وبين زعماء اليمن وقادته الذين تمثلوا فى سلطان لحج فى جنوب اليمن ، والامام يحيى فى جبال اليمن ، والادريسى فى عسير والمخلاف السليمانى فى شمال اليمن ، مع توضيح موقف هؤلاء جميعا من الصراع الدائر بين الترك والانجليز فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وحتى تخلص اليمن نهائيا من الحكم العثمانى .

ثانيا ــ السياسة العثمانية فى اليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى

قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة أشهر كان الأتراك العثمانيون قد بدءوا يستعدون لخوض غمار هذه الحرب منذ فبراير سنة ١٩١٤ على وجه التحديد وقبل أن تعلن دولتهم انضمامها لدول وسط أوربا . ونشطت عمليات الاستعداد لدى الحامية العثمانية المرابطة فى اليمن فى ذلك الوقت ضمن خطة الاستعدادات العامة فى الدولة . فاشترى الترك هناك كميات من الأسلحة والذخيرة من ميناء جيبوتى فى شرق افريقيا ، وتمكن وكيلهم فى عدن من نقل هذه الكميات الى الحديدة على احدى السفن المحلية ، فضمت الى كميات الأسلحة والعتاد التى اكتظت بها اليمن فى ذلك الوقت نتيجة للحروب الكثيرة التى خاضها الترك لتدعيم حكمهم فى البلاد (٢) .

وقد قدرت قوة الجيش العثمانى فى اليمن فى أبريل سنة ١٩١٤ بحوالى خمسة آلاف جندى وذلك بعد أن نقلت قوات كبيرة منها الى ميادين الحروب الأخرى التى خاضتها الدولة العثمانية فى أوروبا وآسيا الصغرى ، لا سيما بعد عقد صلح دعان مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١ م . أما عن توزيع القوة العثمانية المرابطة فى اليمن فقد كان يتغير من وقت لآخر حسبما تقتضيه طبيعة الأحوال السياسية وتطورات الأحداث المحلية . وبصفة عامة كان يعسكر فى صنعاء العاصمة جزء كبير من القوة العثمانية ، بينما كانت القوات العثمانية المرابطة فى الحديدة تقل عن سابقتها تبعا لوقوع الحديدة فى المرتبة الثانية من ناحية أهمية مركزها الحربى . وكانت تخرج من الحديدة فرق عثمانية منتظمة للمحافظة على « اللحية » وعلى المراكز الواقعة بين « اللحية » و « زهران » التى

---

(١) جورج انطونيوس : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٢) Jacob, H.F. : Kings of Arabia, p. 154.

تمتد على طول الحدود العسيرية · أما فى « مناخة » التى كانت تمتاز بمناعتها الطبيعية فقد كان يعسكر فيها طابور عثمانى موزع بين القلاع والمراكز التى عرفت بحصانتها ، التى كانت تخرج منها السرايا الى كل من منطقة « حراز » و « حجيلة » لضبط الأمن واخماد حركات التمرد ومرافقة محصلى الضرائب وتدعيم الادارة العثمانية هناك · هذا بينما وضعت باقى الفرق العثمانية فى المدن اليمنية الرئيسية سواء كانت فى تهامة أو فى وسط الهضبة · وفضلا عن ذلك فقد كان هناك مركز تركى قوى فى « الشيخ سعيد » ، كما كان هناك خط دفاع يمتد من « مخا » عبر « تعز » و « ماوية » ويصل الى « قعطبة » وكان الترك يعسكرون فيه وتعبره دورياتهم بصفة دائمة فى طرق ممهدة تربط هذه المراكز بعضها ببعض (١) ·

ولقد زادت هذه القوة العثمانية المرابطة فى اليمن عندما اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى مما جعل « جاكوب » المعاون الأول لحاكم عدن البريطانى يذكر على لسان أحد الضباط الأتراك أنه كان يعسكر باليمن خمسة وثلاثون طابورا عثمانيا يقدرون بحوالى أربعة عشر ألفا من الرجال كان أغلبهم من السوريين المجندين فى جيش الدولة (٢) · وقد ازدادت الاستعدادات الحربية تدريجيا عقب اعلان الحرب فوفد كثير من الضباط الأتراك الى الحديدة ومعهم جميع المعدات الحربية اللازمة · كما قام بعض الضباط من أركان حرب القوات العثمانية فى اليمن يرافقهم بعض مشايخ البلاد بالطواف على الحدود الممتدة والمتاخمة لمنطقة نفوذ بريطانيا فى جنوب اليمن لاستطلاع حقيقة الموقف هناك ومعرفة كل جديد ، بل ان الأتراك أرسلوا رسلهم الى داخل لحج لمعرفة آخر الأنباء ، كما قاموا بنقل عدد من المدافع من صنعاء الى تعز لتدعيم قواتهم فى الجنوب (٣) · هذا فضلا عن أن الترك استحصلوا على تعهد من بعض المشايخ اليمنيين وهم أحمد نعمان ومحمد ناصر والسيد أحمد باشا بحماية الحدود الجنوبية لليمن من أى عدوان بريطانى ولم يطلبوا من الدولة من أجل ذلك الا امدادهم بالأسلحة والذخيرة · ويبدو واضحا أن تعهد هؤلاء المشايخ اليمنيين كان مرجعه الى عدم رغبتهم فى أن ترسل اليهم الدولة جنودا من الترك يعيثون فسادا ويحيلونها ميدانا للحرب والدمار ·

ولم يكتف الترك بهذه الاستعدادات الحربية فى اليمن وبهذه التعهدات من بعض المشايخ اليمنيين لحماية حدودهم وذلك لمواجهة الموقف فى مطلع الحرب العالمية الأولى ، بل قاموا بمحاولات سلمية لجذب سلطان لحج الى جانبهم بشتى الوسائل والدعايات الممكنة · فأوعز الوالى العثمانى محمود نديم بك الى الامام

---

(١) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, pp. 178-179.

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit,, p. 168.

(٣) أحمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ·

يحيى أن يسعى لاستمالة سلطان لحج الى دولة الخلافة ، وأن يكفل لأهالى لحج وفاء الترك بالوعود والتعهدات التى سيقطعونها لسلطانهم على بن أحمد العبدلى ٠ وكان السلطان على هذا قد بعث كتابا الى الامام يحيى من قبل يخبره فيه بأن الدولة العثمانية خاطرت بكيانها عندما قبلت الدخول فى هذه الحرب ، كما أشار الى «أن معظم أهل الاسلام يكرهون ذلك ، لأن مصالح المسلمين والاسلام مرتبطة بمصالح بريطانيا العظمى وحلفائها وعلى الأقل فليس للمسلمين فى هذه الحرب ناقة ولا جمل » ٠ وواضح من خطاب السلطان على انحيازه لجانب الانجليز نتيجة للمعـاهدات المعقودة بينه وبينهم ، وعدم رضائه عن دخول الدولة فى حـرب ضدهم لاقتناعه بعدم جدواها للاسلام والمسلمين ٠ وعلى أية حال فقد قام الامام يحيى بمراسلة السلطان على بناء على مطلب الوالى محمود نديم بك واسترضاء لخاطره وحمل مندوبه السيد محمد على الشريف كتابا الى سلطان لحج ، كما كلفه بأن «يكتشف الأحوال فى هذه الجهة» (١) ٠ وكانت هذه هى المحاولة الأولى التى قام بها الترك لاجتذاب سلطان لحج الى جانبهم واستعانوا فيها بصديقهم الامام يحيى الذى انحصرت سياسته حينذاك فى التأنى والتمسك بالحياد المشرب بالعطف والميل الى حكومة محمود بك نديم والى اليمن دون أن يعرض نفسـه لعداء بريطـانيا وحلفائها ٠ وكان الامام يحيى بسياسته هـذه ينتظر الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغيير الأحوال ومساعدة الظروف ٠

موقف العثمانيين من سلطان لحج فى جنوب اليمن فى مطلع الحرب العـالمية الأولى :

على أن سلطان لحج على بن أحمد بن على حاول من جهته أن يجنب أهالى اليمن مصائب هذه الحرب التى ليس لهم فيها أية مصلحة خاصة ٠ وكان اتجاهه هذا نابعا من اقتناعه الشخصى بعدم جدوى هذه الحرب لشعب اليمن ، ومن اطمئنانه للانجليز فى عدن وكان قد ارتبط معهم بمعاهدات واتفاقات تعهدوا له فيها بحمايته من أى عدوان تتعرض له بلاده ٠ كما أن « الجنرال شو » حاكم عدن البريطانى كان قد أبلغ السلطان على فى سنة ١٩١٤ م (ذى القعدة سنة ١٣٣٢ هـ) بأنه « من سوء الحظ أن أصبحت دولة بريطانيا العظمى فى حالة حرب مع دولة تركيا » ، كما أصدرت حكومة عدن منشورا وعدت فيه العرب بالمحافظة على حرمة البـلاد المقدسة وحريتها وذلك محاولة منها لاكتسابهم الى جانبها ٠ ويتضح مما ذكره العبدلى من أن دعاية بريطانيا انطلت على سلطان لحج وأوقع نبأ نشوب الحرب الاستياء فى نفسه اذ يقول : « واستاء السلطان السير على بن أحمد بن على لهذا النبأ ، وتعجب من مسلك الأتراك ، كمـا سره وعد

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ٠

بريطانيا العظمى باحترام حرية الحرمين الشريفين والمحافظة على كرامة البلاد المقدسة ، وأن ذلك مما يزيد ويؤكد اخلاصه للدولة البريطانية العظمى » (١) ٠

ولهذا فاتح سلطان لحج مشايخ اليمن المتصلين بالترك فى أمر تجنب هذه الحرب وتخابر بصفة خاصة مع محمد ناصر باشا قائمقام « القماعرة » وتمت بعد ذلك مقابلة بين مندوب سلطان لحج وهو السيد على بن محمد الجفرى ، وبين الحاج على الكمرانى مندوب محمد ناصر باشا وذلك فى بلدة المسيمير فى أوائل سنة ١٩١٥ (محرم سنة ١٣٣٣هـ) ٠ وقد أوضح الجعفرى مندوب سلطان لحج نتيجة هذا اللقاء بقوله : « وبعد أن تخابرت مع الحاج على الكمرانى اتفقنا جميعا على أن ضرر نزول الأتراك لمحاربة عدن سيكون ضررا عائدا على أهل بر اليمن بسبب الحصار البحرى الذى تضربه بريطانيا العظمى على سواحل اليمن ٠ والأولى أن يسعى مشايخ اليمن فى تسكين حركات الأتراك ويقنع السلطان حكومة عدن ألا تحاصر سواحل اليمن ، وتعتبر ولاية اليمن أرضا عربية محايدة٠ وختمنا المقابلة باستصواب هذا التدبير ووجوب نزول الباشا محمد ناصر الى لحج لمقابلة السلطان على واتمام هذه المكرمة ٠ وبعد مدة جاء الحاج على الى لحج ومعه مندوب الباشا محمد ناصر وأشاروا على سلطان لحج أن تظهر حكومة عدن نفسها بمظهر القوة لكى يتمكنوا من اقناع الأتراك » (٢) ومعنى ذلك أنه قد وجد اتجاه لدى بعض اليمنيين لتجنب الدخول فى حرب ضد بريطانيا وتفضيل حياد اليمن حتى لا تتعرض سواحله للحصار البريطانى البحرى بما يسببه من مشاكل اقتصادية ٠ غير أن ضغط الترك على هؤلاء الشيوخ اليمنيين لمشاركتهم فى محاربة الانجليز كان يؤدى بالكثيرين منهم الى السير فى ركب الترك حيثما يذهبون ، ولعل ذلك هو ما دفع الحاج على الكمرانى والسيد على الجفرى أن يشيرا على سلطان لحج بأن تظهر حكومة عدن البريطانية نفسها بمظهر القوة ، حتى يمكنهما اقناع الترك عن طريق ارهابهم بقوة الانجليز أن يخلدوا الى السكينة ، فيبقى اليمن محايدا لطرفى النزاع فى هذه الحرب الكبرى ٠

غير أن الأتراك عاودوا محاولتهم للمرة الثانية لاجتذاب سلطان لحج الى جانبهم لمهاجمة الانجليز فى جنوب اليمن ، وذلك بأن أرسلوا اليه عددا من المشايخ اليمنيين أمثال محمد ناصر باشا والقاضى عبد الرحمن ، والشيخ أحمد نعمان ، والشيخ فايد صالح الطيرى باشا ، فوصلوا الى « جول مدرم » الواقعة فى أرض « الحواشب » وطلبوا مقابلة سلطان لحج أو مندوبه فقابلهم الصنو محسن فضل نيابة عن السلطان على بن أحمد ، وكان هدفهم : « استمالة سلطان لحج بالوعد والوعيد وتشويقه الى أن يشترك معهم فى الحرب ضد حكومة

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ٢٠٧

(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٩

بريطانيا العظمى وحلفائها » · بل ان الوالى العثمانى حمل هؤلاء الشيوخ اليمنيين رســالة من قبله الى سلطان لحج حاول فيهـا اجتذابه الى جانب الترك وذلك بمخاطبته بعبارات الود والاخاء ودعوته « لنصرة الدين الحنيف » وذلك بالتفاوض مع وفد المشــايخ اليمنيين بما يرضى الله ورسوله واعزاز دين الاسلام واتحاد الكلمة (١) ·

والى جانب محاولة الترك اثارة الحمية الدينية لدى سلطان لحج ليقف الى جانب الدولة فى حربها ضد الانجليز فى جنوب اليمن ، فان بعض أعضاء الوفد وعــدوا الصنو محسن بتسليم عــدن لسلطان لحج بعــد فتحها وطرد الحامية البريطانية منها · كما لوح البعض الآخر بقوة الترك بصفة عامة وحلفائهم الألمان عنــدما أدركوا أن الحامية العثمانية فى اليمن لا تقوى على مهاجمة حصن عدن الحصين · ولم ينطل هذا الوعد والوعيد على سلطان لحج مما جعل الصنو محسن يقول انهم : « حاولوا أن يجربوا مغالطات لا أعلم هل كانوا يعتقدونها حقا أم كانوا يموهون بها على البسطاء فقالوا ان الأسطول الألمانى سيهاجم عدن من البحر يوم يهاجمها الأتراك من البر ، وقالوا ان أسرابا من الطيارات تصل يومئذ من برلين الى عدن وتجعلها رمادا ، وأن فيالق عديدة شاهانية زاحفة برا الى اليمن ، وأن مدافع حصــن الشيخ سعيد العظيمة سترسل مقذوفاتها الجهنمية فتحرق حصــون عــدن » · ولذلك كانت روح المبالغة والدعاية واضحة فى كل ما عرضــوه · بل قد تبين للعضــو محسن عندما التقى بأعضاء الوفد أفرادا أن مشايخ اليمن الشافعيين حينــذاك لم يقبلوا طوعا على الاشتراك مع الترك فى حربهم ضد بريطانيا فى الجنوب اليمنى ، ولكن الترك دفعوهم الى ذلك بعد أن وصلتهم الأوامر مشددة من أنور باشا لاشغال الانجليز فى عدن واجبارهم على توجيه جزء كبير من قواتهم اليها ، وخاصة من الامدادات التى ظنوا أن حكومة الهند البريطانية سترسلها الى السويس لصد حملة أحمد جمال باشا عن مصر ·

كما أخبر بعض أعضاء الوفد الصنو محسن بأن على سعيد باشا هو الذى أشار بمهاجمة لحج والاستيلاء عليها لأنه خشى أن يتعطل الفيلق العثمانى الموجود باليمن فى فترة الحرب التى لا يعرف مداها مما قد يؤدى الى عدم كفاية حاصلات اليمن المحصورة لحاجة جنوده فيتعرضون بذلك للمجاعة ، لهذا رأى « أن يستولى على لحج المشهورة بكثرة حبوبها وأرزاقها فى اليمن لضم حاصلاتها الى حاصلات اليمن لســد حاجة الفيلق وعائلات الضباط » (٢) · وتوضح المكاتبات التى تبودلت بين القائد العثمانى على سعيد باشا والقومندان أحمد توفيق وبين الوالى محمود نديم بك أن الأتراك ــ على الرغم مما نهبوه وسلبوه واقترضوه واستولوا عليه بأى وجه كان من حاصلات وأملاك السلطنة العبدلية ورعاياها ومن غيرها

(١) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ (أنظر الملحق رقم ١٦) ·
(٢) العبدلى : المصد السابق ، ص ٢١١

من بلدان اليمن والنواحي التسع في أثنـاء الحرب العالمية الأولى ـ كانوا في ضائقة شديدة في اليمن ، كما يفهم ذلك من النزاع الذي قام بينهم بخصوص توزيع الحاصلات بين « الفرق العسكرية والملكية » (١) ٠

وهـكذا كان هدف الترك في اليمن في مطلع الحـرب العـالمية الأولى أن يجتذبوا الى جانبهم سلطان لحج ليحولوه عن تحالفه مع بريطانيا ، وليكونوا عن طريق تضامنه معه ـ الى جانب غيره من شيوخ القبائل اليمنية ـ جبهة عثمانية تحـارب الانجليز في عدن وتناوئهم وتشـغلهم عن توجيه قواتهم ضـد تركيا وحلفائها في الميـادين الحربية الأخرى ، وبخاصة حكومة الهند البريطانية التي كان من المتوقع أن تصد حملة الترك على السويس ٠ كما أراد الترك أن يضمنوا استحواذهم على خيرات لحج مما يجنبهم المجاعة اذا ما ضعف انتـاج ما تحت أيديهم من أراضي اليمن عن سد حاجات الحامية العثمانية أثناء تعرض اليمن للحصار في فترة الحرب التي قد يطول أمدها ٠ وقد استعملوا مع سلطان لحج مختلف الأساليب من وعد ووعيد واغراء وتهديد ودعايات واشاعات أظهروها في رسائلهم وحملوها رسلهم ، غير أنها لم تجد نفعا مع السلطان علي بن أحمد الذي منعه من الاتفاق معهم ثقته في الانجليز ، وارتبـاطه معهم بعهـود ، واطمئنانه لقوتهم ومقدرتهم على حمايته ، هذا فضلا عن معرفته بأطماع الترك ، ورغبتهم في السيطرة على بلاده ، واستنزاف خيراتها ، والتحكم في مقدراتها ٠ وسيؤدي عدم الاتفاق بين الترك وسلطان لحج بالاضافة الى ما فرضته استراتيجية الحرب العثمانية في ذلك الوقت ، الى هجوم الترك على لحج وفرض سيطرتهم عليها في مطلع سـنة ١٩١٥ (١٣٣٣ هـ) ، على النحـو الذي سنوضحه عنـد عرضنا للعمليات الحربية في اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى ٠

موقف العثمانيين من الامام يحيى في جبال اليمن في مطلع الحـرب العـالمية الأولى :

والى جانب الاستعدادات الحربية التي قام بهـا الترك لتعزيز حاميتهم باليمن في مطلع الحرب العالمية الأولى ، واستحصـالهم على تعهـد بعض المشايخ اليمنيين بحماية الحدود الجنوبية من أي عدوان بريطاني نظير تزويدهم بالأسلحة والذخائر اللازمة ، وفضلا عن المحاولات المتعددة التي قاموا بها لاجتذاب سلطان لحج للوقوف الى جانبهم دون جدوى ، فان الأتراك العثمانيين كانوا من قبل كل هذه الخطوات ، وفي أثناء القيام بها ، قد أمنوا جانب الامام يحيى زعيم أكبر قوة مناهضة لهم في اليمن قبل عقد صلح دعان في سنة ١٩١١ ، وأرضوه بكل ما أراد ليبقى على العلاقات الطيبة التي تولدت بينهم وبينه عقب اتفاق الصلح ،

---

(١) العبدلي : المصدر نفسه والصفحة نفسها ٠

وحتى لا يتنكر لهم وينقلب عليهم فى وقت تكاثر فيه أعداؤهم ، وكانوا أحوج ما يكونون الى استقرار الأمور داخل اليمن حتى لا يسدد اليهم خنجرا فى القلب . ولهذا « فازوا بأن يركنوا اليه فى ضبط جانب من بلاد اليمن واحتمال جملة من المهام ، بصفة مفوض من طرف الخليفة ، وهى خدمة ثمينة مكنتهم من أن يتفرغوا لمحاربة أعدائهم ، وتمكنوا أن يقترضوا منه ما احتاجوا اليه من الحب والنقد » (١) .

على أن الامام يحيى لم يستغل فرصة دخول الدولة العثمانية فى معترك الحرب العالمية الأولى ليضرب ضربته للتخلص من الحكم العثمانى فى اليمن ، كما أنه فى نفس الوقت لم يناصب منافسيها الانجليز العداء ، بل تميز موقفه من الجانبين المتصارعين بالتزام الحياد ، دون أن يقوم بعمل ايجابى واضح لمساعدة احدى القوتين على الأخرى ، وانما تصرف بكل حذر ودقة تبعا لما أملته عليه مصالحه الخاصة ، على النحو الذى سنوضحه فيما يلى .

هناك رأى لا يخلو من المبالغة يصور الامام شخصية تجمع بين المثالية والتعصب لمبادئه ، وقد ذكره سلفاتور أبونتى بقوله : « وفى أثناء الحرب العظمى الأولى ، رفض الامام يحيى بشمم واباء ، كل محالفة اقترحها عليه الانجليز ، وبرغم أنه حارب الأتراك لضمان استقلال بلاده ، الا أنه آثر أن تقطع رقبته ورقاب أولاده على أن يحالف الكفار .. » (٢) . ولكن الامام يحيى لم يكن من المثالية والتعصب كما وصفه هذا الرأى ، بل كان يتصرف من وحى الدوافع المادية للابقاء على كيانه ، وللاستفادة بأكبر قدر من الفائدة التى كان يتوقع أن تتمخض عنها نتائج هذه الحرب الكبرى ، التى تورطت فيها الدولة العثمانية نفسها باعتراف كبار ساستها ومن بينهم طلعت باشا ، فقد عبر عن ذلك فى مذكراته التى نشرت بعد مقتله وجاء فيها : « لما صدقنا على تلك المعاهدة (معاهدة التحالف بين الدولة العثمانية وألمانيا فى أول أغسطس سنة ١٩١٤) لم يكن منتظرا قط وقوع الحرب ، ولكن عندما وقعت تلك الحوادث الهائلة علمنا أن ألمانيا لم تطلب الاتفاق معنا الا لأنها ظنت أن الساعة قد دنت ، وأنها نظرت الى المستقبل بعين تخترق حجب الغيب . ولم تمض بضعة شهور حتى رأينا بوق الحرب ينفخ فى دول أوربا فيهيب . وللحال شعرنا بحرج موقفنا ، لأنه بمقتضى المحالفة التى عقدناها قبل وقوع الحرب كان يجب علينا أن ننضم الى أحد الفريقين المتحاربين فكان يزورنا فى كل يوم سفيرا ألمانيا والنمسا ليسألانا : « متى تخوضون غمار الحرب معنا ، فتبرهنون بذلك على اخلاصكم وتوفون بوعدكم ؟ » ، لو شئنا لكان فى امكاننا أن نجيب أن حكومة ايطاليا أحد أعضاء

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الامام يحيى ، (ترجمة طه فوزى) ، ص ٥٧ .

المحالفة الثلاثية لم تشهر الحرب على أعدائكم ، وألمانيا أيضا لم تحترم امضاءها في المعاهدة التي تقضي ببقاء البلجيك على الحياد ، ولكن كنا نتحاشى جوابا مثل هذا لأنه بمثابة رفض بات لمعاهدتنا الجديدة » (١) ٠

فالامام يحيى كان يربطه بالدولة العثمانية صلح دعان المنعقد في سنة ١٩١١ ، الذي كان يقضي بأن يدفع الترك مرتبـا شهريا له ولبعض كبار رجال قبائله ٠ ولقد حافظ الترك على دفع هذه المرتبات حتى قيام الحرب العالمية الأولى التي أدت الى عجز الدولة عن الوفاء بالتزاماتها المالية قبل الامام ورجاله ، مما كان يعني اخلال الترك بشروط الهدنة ، ويمنح الفرصة للامام – اذا أراد – للتنصل من اتفاق الصلح ٠ غير أن الامام يحيى لم ينقلب على الترك ولم يعلن من جديد ثورته عليهم ، برغم أن فرصـة دخولهم الحرب كانت سترجح كفته ، لانشغال قوات الدولة في ميادين القتال الأخرى ، ولتعذر وصول الامدادات الى الحامية العثمـانية في اليمن في زمن الحرب ولمـا قد تتعرض له من هجمات الأساطيل المعادية ٠ ولم يحاول الامام يحيى أن يساعد الانجليز ضد الترك ، كمـا لم يحاول أن يسـاند الترك ضـد الانجليز ، بل اقتصرت المفاوضات التي حدثت بينه وبين سلطان لحج والتي كانت تعتبر مفاوضات مع الانجليز أنفسهم بطريق غير رسمي لأنها تمت بواسطة حليفهم سلطان لحج وفي داخل بلاده وليس في عدن (٢) ، اقتصرت هذه المفاوضات فقط على جس نبض الانجليز ومعرفة نياتهم حتى يساعده ذلك في تقرير موقفه من القوى المتصارعة بما يحقق له مصالحه الخاصة ٠

وعندما حاول العثمانيون تعويض الامام يحيى عن عدم وفائهم له ولأتباعه بالمرتبات الشهرية حرصا منهم على ارضائه حتى ينحاز الى جانبهم ، وذلك بأن اقترحوا عليه أن يخلوا له صنعاء وضواحيها ، وأن ينقلوا مركزهم الى تعز في الجنوب ، فان الامام يحيى رفض هذا العرض الذي قدمه له الترك برغم اغرائه ٠ ويرجع سبب ذلك الى أن الامام كان يرى أن انتقاله الى صنعاء تاركا « شهارة » مركزه المذهبي الحصين حيث كان يتجمع من حوله أتبـاعه الزيديون بقبائلهم العاتية ، كان سيؤدي الى اضعاف مركزه نتيجة لابتعاده عن منطقة تجمع القبائل التابعة له التي كانت تدعم نفوذه ، كما كان يمكن أن يؤدي ذلك الى خروج تلك القبائل عن طاعته ، ويفقده ولاءها وتأييدها ، بل ان الامام كان يخشى الى مدى بعيد هـذا الانتقال الذي عرضـــه التـرك لأنه كان يرى أنهم كانوا يدفعـون « المشاهرات » الى هذه القبائل مباشرة ، ولم يكن ذلك يتم عن طريقه مما أدى الى تعلق هذه القبائل بالترك ، وفي الوقت نفسه كان ذلك « يبعدهم عن سيدهم

---

(١) العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ٠
(٢) أمين الريحاني : ملوك العرب ط ٣ ، ج ١ ، ص ١٤٦ ٠

الأصلي » (١) . هذا فضلا عن أن الامام لم يكن يشرفه كثيرا أن يحصل على صنعاء كمنحة من الترك وتعويض مما لا يليق بمكانته وبنضال أجداده الأئمة ضد الحكم العثماني . غير أنه كان يخشى بالدرجة الأولى أن يؤدى انتقاله الى صنعاء الى وقوعه تحت ضغط الترك وتأثيرهم وتدخلهم فى كل شئونه وفرض سيطرتهم وارادتهم عليه ، فى الوقت الذى يكون فيه بعيـدا عن المراكز الحصينة للامامة الزيدية فى جبال اليمن الشمالية . على أن رفض الامام يحيى الانتقال من شهارة الى صنعاء لم يكن يعنى عداءه للترك ، اذ ظل الامام على مهادنته لهم ، كما بقى على موقفه الحيادى من القوى المتصارعة فى أثناء الحرب العالمية الأولى (٢) .

ولقـد كان صلح دعان المنعقد بين الامام يحيى والدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ ، من الأسباب الواضحة التى جعلت الامام يلتزم بموقفه المتهادن من الترك فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما كان هذا الصلح ذريعة استند اليها الامام فى رفضه لمطلب الانجليز الانضمام اليهم عندما عرضوا عليه ذلك عن طريق سلطان لحج . ولهذا قال العبدلى وهو يوضح مفهوم سلطان لحج عن موقف الامام يحيى : « كان الأتراك قد أمنوا جانب الامام يحيى وأرضوه بما أراد ، فلذلك لم تظهر من سيادته رغبة فى أن يجتنب اليمن مصائب حرب لمصلحة ألمانيا ، ولأنه كان يومئذ مقيدا بميثاق ائتلاف العشر سنوات الذى عقده مع أحمد عزت باشا » (٣) . على أن هذا الصلح لم يكن ليفرض على الامام هذا الموقف المتهادن ، كما لم يكن ليشكل أمامه عائقا كبيرا لو أراد أن ينقلب على الترك منتهزا فرصة دخولهم الحرب الكبرى . بل ان الامام اتخذ هذا الموقف حفاظا على مصالحه الشخصية التى رأى أنها ستتحقق الى أبعد مدى بالتزام سياسة المهادنة والحياد . ولقد رأى الامام يحيى فى ذلك الوقت أن منافسه الادريسى أشد خطرا عليه من الترك وأولى بالمخاصمة والعداء ، اذ كان الامام قد أمن جانب الترك ولو أثناء سنى الصلح الذى عقده معهم ، بل انه كان يعلم أن دولة الترك فى محنة بعد أن تكاثر عليها أعداؤها ، وأنها مشغولة بالحرب التى تورطت فيها ، وأن حكمها فى اليمن سينتهى اذا ما منيت بالهزيمة . أما الادريسى فقد كانت قوته تزداد يوما بعد يوم ، ورقعة نفوذه تمتد تدريجيا على حساب منطقة نفوذ الامام ، كما أن كثيرا من القبائل اليمنية وبعضها من الزيدية انضمت الى الادريسى ورأت فيه زعيما وقائدا لمواصلة نضالها التاريخى ضد الترك بعد أن تحول عنه الامام باتفاقه مع الدولة ، كما أن الادريسى تحالف مع بريطانيا ضد الترك فأخذت تمده بالأسلحة والذخائر والمساعدات المالية ، كما كان أسطولها من البحر قادرا على حماية تحركاته الحربية ضـد الترك فى تهامة ، مما كان

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 158-159.
(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .
(٣) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ .

سببا فى تدعيم قوته وتقوية شوكته • وهذا كله أبرز للامام خطورة الادريسى التى فاقت خطورة الترك فى ذلك الوقت بالنسبة له ، مما جعله يتمسك بسياسة المهادنة معهم ، حتى يتفرغوا لدرء خطر الأدارسة فى شمال اليمن ، ومحــاربة الانجليز فى جنوبه • بل ان الامام تغاضى عن وفاء الترك له ولأتباعه بما تعهدوا به من التزامات مالية ، كما لم يضن عليهم ببعض المساعدات المستترة التى لم تخرجه عن حياده ، وذلك تقديرا منه لصعوبة العبء الذى كانوا يحتملونه فى أثنــاء الحرب الكبرى • وقد رأى الامام أن مصلحته الشخصية تقتضى تمسكه بالحياد مع الانتظار والاستعداد وترقب مجىء الفرصة المناسبة التى يتمكن فيها من التخلص من أعدائه ، الادريسى ، والترك ، والانجليز ، واحد بعد الآخر •

وعندما قام الانجليز بضرب الشيخ سعيد بالقنابل من البحر فى نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وذلك ردا على الاستعدادات الحربية التى قام بهـا العثمانيون هناك التى شملت تحصــين المنطقــة وتدعيمها بالجنود ، وكانت بريطانيا قد اعتبرت هذه الاستعدادات تهــديدا مباشرا لمركزها الهام الحيوى فى جزيرة « بريم » من الناحية الحربية ، فان هذا الحادث قد أزعج الامام ، غير أن بريطانيا أسرعت بالاعتذار له مؤكدة أن هذا اجراء فرضته الضرورة العسكرية دون أن تهدف من ورائه الى أية أغراض توسعية •

وعلى الرغم من أن الامام يحيى أجاب على الانجليز بتأكده من عدم رغبتهم فى التدخل فى شئون العرب ، وعبر لهم عن أسفه لما حدث فى الشيخ سعيد ، مؤكدا أن هذا الحادث قد أثار مشاعر العرب فى كل مكان (١) ، فان الامام كان يتظاهر بتأكده هذا بحسن نية الانجليز حتى يتجنب عداءهم • أما ما أبداه من أسف وما أوضحه من غضب المشاعر العربية لوقوع هــذا الحادث ، فان ذلك كان محاولة منه لاقناع بريطانيا بالعدول عما يخشاه من قيامها بعمليات توسعية فى الأراضى اليمنية تضر بمصلحته ، وذلك حتى لا تثير ضدها الرأى العــام العربى الذى كانت تحتاج الى مساندته ضد تركيا فى أثناء الحرب •

ولكى يتعرف الامام يحيى على حقيقة نيات بريطانيا وأهدافها فانه أرسل منــدوبا من قبله الى لحج فى ينــاير ١٩١٥ م ، تمكن من مقابلة السلطان على بحضور « هارولد جاكوب » المساعد الأول لحاكم عدن البريطانى • وقد عبر المنــدوب عن اعتــذار الامام عن الاشتراك فى أى أعمال عدائية ضد الترك نظرا لارتبــاطه معهم بموجب اتفــاقية الصــلح فى دعان فى ســنة ١٩١١ لمدة عشر

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 159.

سنوات (١) ٠ ومن الواضح أن اتصالات الامام يحيى هذه بالانجليز عن طريق سلطان لحج ومفاوضاته معهم كان الهدف منها استطلاع نيات الانجليز ، ومعرفة خطتهم الحربية التى يزمعون القيام بها ضد الترك فى اليمن ، لما سيترتب على ذلك من آثار خطيرة تتصل بمركزه ونفوذه ومصالحه هناك ٠ ولا شك أن الامام كان يخشى أن تؤدى الحرب بين الدولة العثمانية وبريطانيا الى دخول الانجليز الأراضى اليمنية المجاورة للنواحى التسع ، دون أن يتمكن الترك من صدهم على الحدود المشتركة ، مما يؤدى الى سيطرة الانجليز على الأراضى التابعة لنفوذه ٠ وكان أشد ما يخشاه الامام أن يصبح حاكما تحت رعاية بريطانيا ، كما هو الحال فى النواحى التسع التى تشكل جزءا من اليمن الكبرى ، والتى كان يعتبرها الامام ملكا لأجداده ٠ ولهذا فان الموقف كان يتطلب من الامام يحيى مزيدا من الحكمة واليقظة جعلته يتجنب الاصطدام بالقوات العثمانية الجاثمة فوق أراضيه حتى لا ينكمش نفوذه فيضعف عن منافسة الادريسى ، كما جعلته يتصرف بحذر مع الانجليز حتى لا يلقى باقى اليمن مصير النواحى التسع فى جنوبه (٢) ٠ وقد أرسل الامام يحيى فى أواخر سنة ١٩١٥ م رسالة الى « الكولونيل جاكوب » ــ المعاون الأول فى عدن ــ التزم فيها بعدم عدائه لبريطانيا ، وأكد فى نفس الوقت اخلاصه للدولة العثمانية (٣) ٠ ولقد نجح الامام يحيى فى التزامه بالحياد ازاء القوى المتصارعة فى اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وان كان كثير من المؤرخين وبخاصة الأوربيون يذكرون أن الامام يحيى انحاز الى جانب تركيا فى الحرب المذكورة (٤)٠ وأننا نميل الى رأى العبدلى فى هذا الصدد ونراه معبرا عن حقيقة موقف الامام يحيى فى ذلك اذ يقول : « أما سياسة الحضرة الامامية آنئذ ، فكانت التأنى والتظاهر بالحياد المشرب بالعطف ، والميل الى حكومة محمود بك نديم والى اليمن ، دون أن يتعرض لعداء بريطانيا العظمى وحلفائها ، وانتظار الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغير الأحوال ومساعدة الظروف » (٥) ٠

موقف العثمانيين من محمد الادريسى
فى شمال اليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى :

أوضحنا فيما سبق موقف العثمانيين فى اليمن فى مطلع الحرب العالمية

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 159.
(٢) Helfriz, H. : The yemen, A Secret Journey, p. 124.
(٣) Brémond : Op. cit., p. 81.
(٤) Lenczewski, G. : The Middle East in the World Affairs, p. 455.
(٥) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ ٠

الأولى بالنسبة لسلطان لحج فى الجنوب ، وبالنسبة للامام يحيى فى وسط جبال اليمن · ويهمنا أن نعرف كذلك موقف العثمانيين من الأدارسة فى عسير والمخلاف السليمانى فى شمال اليمن فى مطلع الحرب نظرا لخطورة الدور الذى قام به الادريسى ضد الترك فى أثناء الحرب ، وبخاصة بعد اتفاقه مع بريطانيا التى أمدته بالمال والسلاح ، ودعمت تحركاته الحربية فى تهامة بواسطة بعض قطع الأسطول البريطانى فى البحر الأحمر ·

ولقد عرفنا أن الترك تمكنوا من التفريق بين قطبى المقاومة اليمنية المتمثلين فى الامام يحيى من جهة ، ومحمد الادريسى من جهة أخرى ، بعد أن عقدوا مع الامام صلح دعان فى سنة ١٩١١ واعترفوا بوضعه الخاص بين أتباعه الزيديين · وحدث ذلك فى الوقت الذى لم يصلوا فيه مع الادريسى الى اتفاق مماثل ، مما جعل الادريسى ينفرد بحمل لواء النضال ضدهم وضد حليفهم الامام يحيى صديقه بالأمس الذى نكص على عقبيه واشترك معهم فى محاربته · ولقد دفع ذلك الادريسى الى التحالف مع ايطاليا فى أثناء حربها ضد الترك فى طرابلس الغرب مما زاد من حقد الترك عليه ودفعهم الى محاولة التخلص منه بعد أن حاربهم فى عسير بأسلحة الايطاليين وأموالهم ، حتى شغلهم فعلا عن استرداد طرابلس الغرب · وقد وقف الامام يحيى الى جانب الترك فى محاربتهم للادريسى ، وكان يسره أن يتمكن الترك من القضاء على الادريسى قبل خروجهم من اليمن ، حتى لا يعكر صفو الجو فى المستقبل أو ينافسه فى وراثة الحكم العثمانى فى البلاد · وعندما أحس الادريسى أن ايطاليا استنفدت أغراض تحالفها معه بعد سيطرتها على طرابلس ، فانه أسرع الى تلبية نداء بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى وتحالف معها لتكون عوضا له عن ايطاليا ، ولتشاركه وتؤازره فى نضاله ضد الترك العدو المشترك لكليهما · فكان الادريسى بذلك أول من انضم الى الحلفاء من أمراء العرب ، وأول من حمل السلاح فى البلاد العربية ضد دولة الترك حليفة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى (١) ·

وقد اختلف موقف الادريسى من الأجانب والأحلاف اختلافا بينا عن موقف الامام يحيى تبعا للأوضاع الخاصة بكل منهما · فمركز الامام يحيى الدينى كان يمنعه أمام أتباعه من الانضمام للقوى غير الاسلامية ومحالفتها ضد الأتراك العثمانيين المسلمين ، كما كان اتفاق الصلح المنعقد بين الامام والترك فى سنة ١٩١١ م يفيد الامام من الناحية المظهرية عن محالفة أعداء الدولة · بينما اختلف الأمر بالنسبة للادريسى الذى لم يكن ملتزما ومتعصبا لاتخاذ موقف اسلامى معين ، ولم يقلل من مكانته بين أتباعه تحالفه السابق مع ايطاليا ونضاله المستمر ضد الأتراك المسلمين · هذا فضلا عن أن تركز نفوذ الادريسى بصفة أساسية

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٨ ·

بالقرب من الساحل كان يسهل اتصاله الى مدى بعيد بالقوى المسيطرة على البحر كايطاليا وبريطانيا - بينما أدى تركز نفوذ الامام يحيى على الهضبة التى تبعد عن البحر ١٥٠ ميلا الى الداخل الى صعوبة اتصاله بالقوى المذكورة ٠ كما كانت الفرق العثمانية تحيط الامام بسياج منيع يحول بينه وبين هذا الاتصال، الى جانب وقوعه تحت تأثير الدعاية العثمانية الألمانية التى نشطت فى أرجاء العالم العربى فى أثناء الحرب وفى بلاد اليمن بخاصة لوقوعها بالقرب من مناطق النفوذ البريطانى المتفرعة من عدن ٠ على أن السبب الأساسى الذى حدد موقف كل من الامام يحيى والادريسى بالنسبة للأجانب والأحلاف كان ينبع مما تقتضيه مصالحهما الشخصية وأهدافهما الذاتية فهى وحدها التى فرضت على الامام التمسك بالحياد ، بينما فرضت على الادريسى التحالف مع بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى ٠

وقد رحب الادريسى بالتفاوض مع الانجليز عن طريق حكام عدن وسارع الى التحالف معهم لمحاربة الأتراك العثمانيين فى اليمن ، وقد انتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة بين الادريسى والانجليز فى ٣٠ من أبريل سنة ١٩١٥ ٠ واذا كان الادريسى قد ضمن بعقد هذه المعاهدة حصوله على المساعدات البريطانية من أسلحة وأموال الى جانب مساندة الأسطول البريطانى لتحركات القوات الادريسية فى تهامة ، فان الانجليز كانوا يعتبرون تحالفهم مع الادريسى بمثابة اجراء وقائى ضد أية محاولات معادية قد يقوم بها الامام يحيى صديق الترك ضد القوات البريطانية فى عدن (١) ، وذلك بعد أن ضمن الانجليز انضمام الادريسى الى جانبهم وقيامه باغارات مستمرة على القوات التركية فى اليمن تشغلها عن منازلة الحلفاء فى الميادين الحربية الأخرى وتستنزف قدرا كبيرا من امكانات الدولة العثمانية ٠ وسوف نستعرض ملخصا لبنود هذه المعاهدة الادريسية البريطانية (٢) التى حددت الأسس التى قام عليها تحالف الادريسى مع الانجليز ، وموقف كل منهما بالنسبة للأتراك العدو المشترك بينهما ، وبالنسبة للامام يحيى صديق الترك الذى حاول أن يلتزم بالحياد ازاء القوى المتصارعة فى اليمن فى فترة الحرب تبعا لما كانت تقتضيه مصالحه الشخصية ،

فقد تضمنت هذه المعاهدة ما يلى :

١ - أن الأهداف الرئيسية لهذه المعاهدة هى شن الحرب ضد الأتراك وتعزيز ميثاق الصداقة بين السيد الادريسى ورجال قبائله وبريطانيا ٠

٢ - يوافق السيد الادريسى أن يشن الهجوم ويحاول طرد الأتراك من

---

(١) Hurewitz, J.C. : Op. cit., Vol. II, p. 12:

(٢) العقيل : المخلاف السليمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ ٠

قواعدهم فى اليمن ، وأن يضايق القوات التركية فى اليمن بأقصى قوته ومن ثم يوسع رقعة امارته على حساب الأتراك ·

٣ ــ أن هدف السيد الادريسى الأول ضد الأتراك فحسب ولا يمس ما يثير الخصومة والعداء مع الامام يحيى الذى لم يمد يده فعلا للأتراك ·

٤ ــ تلتزم الحكومة البريطانية بحماية امارة السيد الادريسى ضد أى هجوم بحرى يشنه أى عدو لضمان الاستقلال بامارته ، وتتعهد بريطانيا بأن تتخذ جميع الوسائل الدبلوماسية للنظر فى المشاكل التى تنشأ بين السيد الادريسى والامام يحيى وبين أى منافس ·

٥ ــ ليست لدى حكومة بريطانيا أى رغبة فى توسيع حدودها فى غرب الجزيرة العربية ولكنها لاترغب الا أن ترى مختلف حكام العرب يعيشون معا فى سلام ، كل فى نطاق امارته وكلهم يحتفظون بصداقة الحكومة البريطانية ·

٦ ــ أن الحكومة البريطانية كدليل منها على تقدير العمل الذى سيقوم به السيد الادريسى أمدته بالمال والمعدات الحربية ، وستستمر فى تقديم العون له فى الحرب طيلة مدة اشتراكها بقدر النشاط الذى يقوم به السيد الادريسى ·

٧ ــ أنه فى الوقت الذى تفرض فيه بريطانيا الحصار على الملاحة فى جميع الموانى التركية فى البحر الأحمر منذ عدة أشهر فقد أعطت السيد الادريسى الحرية الكاملة فى الملاحة والتعامل التجارى بين موانئه وعدن ، وأن بريطانيا اذ تقدم هذا الامتياز رمزا للصداقة القائمة بينهما تتعهد بأن هذا الامتياز سيستمر ولن يتعرض للتوقف ·

٨ ــ تعلن هذه الاتفاقية حتى يصادق عليها من الحكومة الهندية وتصبح سارية المفعول ·

وقد وقع هذه المعاهدة الادريسية البريطانية السيد مصطفى بن السيد عبد العلى عن الجانب الادريسى ، كما وقعها عن الجانب البريطانى « الميجر جنرال شو B. G. L. Show » المعتمد البريطانى فى عدن ، وذلك فى يوم الجمعة ٣٠ من أبريل سنة ١٩١٥ (١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٣ هـ) ، ثم صادق عليها فيما بعد « هاردنج » حاكم الهند العام فى ذلك الوقت (١) ·

وتوضح هذه المعاهدة معالم السياسة التى اتبعتها بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى لمحاربة النفوذ العثمانى المنافس لها فى اليمن من جهة ،

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ط ٢ ، ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ ·

ولاشغال الترك بحرب محلية هناك تستنفد منهم جهدا كان يمكن أن يوجه الى ميادين الحرب الأخرى ضد الحلفاء — من جهة أخرى . ولهذا اتفقت بريطانيا مع الادريسى على محاربة الترك عدوهما المشترك ، واشغالهم داخل المنطقة اليمينة، واستنفاد قوتهم هنـــاك ، ومنعهم من استخدام موانى اليمن ضـــد المصـــالح البريطانية . وقد تعهدت انجلترا للادريسى بامداده بكل ما يحتاج اليه من أموال ومؤن طوال فترة الحرب ، كما تعهدت بالمحافظة على أراضيه وحمـاية استقلاله من أى عدوان يهدد بلاده . وفى الوقت الذى اختنقت فيه موانى اليمن بالحصار البريطانى البحرى فى أثناء الحرب ، فان بريطانيا تعهدت للادريسى فى هـذه المعاهدة بفتح موانئه مع عدن ممـا أدى الى تمتع المنطقة التابعة لنفوذه برواج تجارى . ولا يعنى هذا أن بريطانيـا تركت للادريسى مطلق الحـرية فى تصريف هذه المساعدات التى قدمتها له فى أية وجهة يراها أو تبعا لما تقتضيه مصالحه الشخصية ، بل انها قيدت تصرفاته وحددت مجال نشاطه ضد الأتراك فحسب دون أن يثير الخصومة والعداء مع الامام يحيى طالما كان موقف الأخير محايدا لا يتحيز الى جانب الترك . وحتى اذا نشب نزاع بين الادريسى والامام ، فان بريطانيا احتفظت لنفسها باتخـاذ جميع الوسائل الدبلوماسية للتوفيق بينهما ، وذلك لأن بريطانيا كان يهمها فى ذلك الوقت أن تستقر أحوال الجزيرة العربية بما يحفظ لها منـاطق نفوذها ، وأن ترتبط مع حكامها العرب بروابط الصداقة حتى لا يتحولون عنها الى مساعدة أعدائها الترك .

وقد ذكر جاكوب أن بريطانيا أمدت الادريسى بموجب هـذه المعـاهدة بكميات من الأسلحة الخفيفة والذخائر ، كما سلمته أربعة مدافع للحصار وثلاثين مدفع « هاون » على أن الأدارسة كانوا يفضلون استعمال المدافع التى قدمتها لهم ايطاليا فى سنة ١٩١١ (١) ويرجع ذلك الى اكتســابهم مهـارة فائقة فى استعمالها نتيجة تدريبهم السابق عليها . وعلى أية حال استطاع الأدارسـة المسلحون بأحدث أنواع الأسلحة الايطالية والبريطانية أن يهاجموا « اللحية » فى مايو سنة ١٩١٥ م . **وكان على رأس قـوات الأدارسـة القـائد مصطفى ابن عبد المتعال الادريسى الذى قسم الجيش الى قسمين :**

— القسم الأول بقيادة أحمد الحازمى وتوجه الى « اللحية » بمحازاة الســاحل .

— القسم الثانى بقيادة الحسن بن أحمد بن مسمار وتوجه الى « دير حســين » .

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 176.

وقد هاجم القسم الأول من جيش الأدارسة ميناء « اللحية » (١) ، غير أنهم لم يتمكنوا بسبب عدم انتظام صفوفهم وترتيب تحركاتهم من التغلغل الى مراكزها الدفاعية الأصلية (٢) . وهنا بدأ تعاون بريطانيا مع الادريسى فى تلك الحرب عندما قام الأسطول البريطانى بضرب « اللحية » من البحر فى يونية سنة ١٩١٥ . وكان ذلك تأكيدا من بريطانيا لمعاهدتها مع الادريسى التى لم يكن مدادها قد جف بعـــد وتشـجيعا له على مواصلة النضـــال ضد الأتراك العثمانيين فى اليمن .

ثالثا ـ التحركات العسكرية العثمانية فى اليمن فى أثنـاء الحرب العالمية الأولى

العمليات الحربية فى شمال اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى :

عند بداية اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ كانت معظم شبه الجزيرة العربية باستثناء عدن وامارات الخليج العربى خاضعة للسيادة العثمانية على درجـات متفاوتة . فكانت الســيادة العثمانية فى وسط شــبه الجزيرة العربية سيادة اسمية فقط ، فنجد والحسا على وجه التحـديد كانتا مستقلتين من الناحيــة الفعلية . بينما كان ولاء الحجاز للحكومة العثمانية مشــكوكا فيــه بسبب الســياســة الاستقلالية التى كان يتبعها فى ذلك الوقت الشريف حسين بن على ، وذلك على الرغم من وجود بعض الحاميات العثمانية التى كانت تعسكر فى المواقع المهمة هناك وبخاصة على امتداد خط سكة حديد « سوريا ـ المدينة » . أما فى أقصى الجنوب فى ولاية اليمن العثمانية فكانت الحامية العثمانية المعسكرة هناك تدين بالولاء للحكومة العثمانية وتمثل أداة طيعـة لتنفيـذ سياستها (٣) . وهـذا ما جعل بريطانيا تسارع بالاتفاق مع الادريسى فى أبريل سنة ١٩١٥ ، وتوجه أسطولها لمساندة تحركات الأدارسة ضد الأتراك فى المنطقة الساحلية ، حتى تشغل تركيا بذلك الميدان عن الميادين الأخرى للحرب الكبرى ، وفى نفس الوقت تضمن عدم تعرض طريقها البحرى الى الهند ، ومحطة الفحم الهامة فى عدن ، والقاعدة البريطانية الحربية هناك ، لهجوم القوات العثمانية المعسكرة فى ولاية اليمن . بل ان بريطانيا كانت تخشى كذلك أن يسيطر الترك على جزيرة بريم Perim التى على الرغم من كونها جزيرة صغيرة الا أنها كانت مركزا استراتيجيا هاما عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، كما كانت بريم محطة تلغرافية هامة وحيوية بالنسبة لشبكة المواصلات

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) Hogarth, D.G. : Arabia, p. 127.

(٣) Lenczowski, G. : Op. cit., p. 57.

البريطانية (١) . على أن بريطانيا كانت تحرص على عدم توسيع نطاق العمليات الحربية على سواحل اليمن ، كما كانت تحرص على ذلك أيضا فى الميدان الجنوبى هناك بصفة خاصة وذلك حتى لا تجهد نفسها أكثر مما ينبغى فتشغل بذلك عن الميادين الهامة الأخرى ذات الأثر الحاسم فى تقرير مصير الحرب العالمية فى ذلك الوقت .

وقد تمكن الجيش الادريسى من الاستيلاء على « اللحية » بمساعدة الأسطول البريطانى واتخذها القائد مصطفى الادريسى مركزا للقيادة العامة . وكان طبيعيا أن يثير هذا الهجوم الادريسى حقد الأتراك مما جعل القائد العثمانى الذى كان يسيطر على المنطقة ويدعى غالب بك أن يقوم بعدة تحركات لتجميع جنوده فى « الواعظات » ، وأن يغرى بالأموال بعض قبائل وادى « مور » و « الواعظات » للانضمام الى قواته . وقد هاجم غالب بك المعسكر الادريسى فى « دير حسين » واستولى على جميع ما به من ذخائر ومؤن وأسلحة بعد معركة عنيفة هزم فيها الجيش الادريسى (٢) . غير أن الأتراك لم يتمكنوا من استعادة ميناء « اللحية » من قبضة الأدارسة ، لا سيما وأن الأسطول البريطانى الذى ضرب الميناء وساعد الأدارسة فى الاستيلاء عليه كان يقف بالمرصاد لصد أى هجوم تركى .

وتجدر الاشارة الى أن الادريسى غضب من ضرب الانجليز لميناء « اللحية » بمدافع أسطولهم وقد كتب اليهم معبرا عن أسفه وما ألم بشعبه من ضيق نتيجة لضرب هذه المدينة العربية (٣) . ولا شك أن الادريسى كان يكره الترك ويدرك قيمة المساعدات البريطانية لترجيح كفته عليهم ، غير أنه ساءه كثيرا أن ضرب الانجليز لميناء « اللحية » لم يلحق الضرر بالترك فحسب ، بل سبب أضرارا بالغة لأهالى المدينة فى نفس الوقت .

وقد بقيت بعض قطع الأسطول البريطانى فى ميناء « اللحية » على استعداد لتقديم أية مساعدات ممكنة للجيش الادريسى . وعندما وقعت معركة « دير حسين » التى هزم فيها جانب من الجيش الادريسى وانقض الترك على معسكر الأدارسة واستولوا على ما به من مؤن وعتاد ، فان الجانب الآخر من الجيش الادريسى فى « العطن » لم يتمكن من الاشتراك فى المعركة لوجود مراكز قوية للمدفعية التركية على طول الطريق الممتد بين « العطن » و « دير حسين » وخاصة فى جبل « الملح » . وقد بقى هذا الجانب من الجيش الادريسى محتفظا بمراكز فى « العطن » حتى باغته الترك بهجوم مفاجىء فانسحبت فلول الأدارسة

(١) Lenczowski, G. : Ibid., p. 60.

(٢) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٩ .

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 164.

الى داخل ميناء « اللحية » واتصــل قائدهم بالقــائد العام مصطفى الادريسى لدراسة الموقف وتقرير المقاومة أو الانسحاب ٠ وقد قرر القائد العام للأدارسة الانسحاب عن طريق الساحل الى « ميدى » بعد أن اتضح له عدم جدوى المقاومة، فأسرع التــرك بالاستيلاء على معســكر « العطن » الذى كان يحتله الأدارســة واستولوا على ما به من عتاد ومؤن اشتد بها ساعد الجيش التركى ٠ وقد تخوف الترك من مهاجمة « اللحية » خشية أن يكون جيش الأدارسة المنسحب قد تحصن فى قلاعها واستحكاماتها ، خاصة وأن الأسطول البريطانى كان يحمى تحركات الأدارســة من البحر ، غير أن جــواسيس التــرك أعلموهم بأن المدينة خالية مما شجعهم أخيرا على التقدم اليها واحتلالها ٠ وقد تم ذلك فى الوقت الذى التجأ فيه القائد الادريسى ومن بقى معه من الأدارسة الى الأسطول البريطانى الذى نقلهم الى « ميــدى » بعد أن ضرب بمدافعه مدينة « اللحية » من جديد ، مما اضطر الترك الى اخلائها والانسحاب بعيدا عن مرمى المدافع فلجئوا الى مدينة « الزهرة » و « جبل الملح » و « الواعظات » ٠ على أن الأدارسة برغم انسحابهم من مدينة « اللحيــة » فانهم احتفظوا بمراكزهم فى الميــدان الجنوبى الشرقى لعسير والمخلاف السليمانى فى جهتى « البترى » وبلاد « بنى نشر » (١) ٠

وعندما رأى الادريسى أن العبء قد ثقل على عاتق رجال قبائل المخلاف السليمانى الذين كانوا يمثلون الدعامة الأساسية لقواته ، فانه أراد أن يدخر شيئا من قواهم لما قد يسفر عنه المستقبل ٠ وكان لدى الادريسى من الأموال ما يمكنه من تجنيد حشود المرتزقة من قبائل « يام » و « حاشد » و « بكيل » وعين لهم قائدين من رجال المخلاف أولهما منصــور بن حمود أبو مســمار ، والثــانى أحمــد عبد الله بن بكرى المروانى ٠ كما استعان الادريسى بجنود مرتزقة من الصومال شكل منهم حرسه الخاص ، غير أنهم لم يتآلفوا مع الأهالى فاضطر الى توزيعهم على المراكز التابعة لسيادته ٠ وعلى أية حال فقد هاجمت قوات الادريسى المراكز التركية فى وادى « مور » غير أن قواته منيت بالهزيمة ، مما شجع قبائل « وادى مور » و « عبس » على الانضمام للأتراك ، فضــلا عن قبــائل « الواعظات » التى لم تتحول عن ولائها للترك تبعا لمصانعة زعيمها « هادى هيج » معهم (٢) ٠

على أن الأعمال الحربية التى تلت ذلك فى شمال اليمن فى أثناء الحرب العالميــة الأولى بين الأدارســة والأتراك لم تتعــد بعض التحركات المحــدودة للمحافظة على المراكز التى كان يحتلها كلا الجانبين ٠ هــذا على الرغم من أن الترك كان لديهم عدد ضخم من الجنــود فى هذه الجهة تبعــا لتوزيع القــوات

---

(١) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١١ ٠

(٢) العقيل : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٢ ٠

العثمانية فى اليمن على النحو الذى سبق أن أشرت اليه · وقد ظلت بريطانيا فى أثناء فترة الحرب تساند الادريسى وتمده بالمساعدات التى حددتها المعاهدة المعقودة بينهما فى ٣٠ من أبريل سنة ١٩١٥ م · كما عادت بريطانيا فعقدت مع الادريسى معاهدة ثانية فى ٢٢ من يناير سنة ١٩١٧ م ، اعترفت فيهــا باستيلاء الادريسى على جزر « فرسان » من الترك وبأنها أصبحت جزءا من ممتلكاته · ونظرا لأن بريطانيا كانت تعتبر الادريسى حليفا لها ولم تعتبره أميرا خاضعا لحمايتها فانها أكدت فى هذه المعاهدة الأخيرة « استقلاله فى جميع تلك الممتلكات » (١) ·

ويرجع ضعف النشاط الحربى بين الأدارسة والترك فى شمال اليمن فى السنتين الأخيرتين من سنى الحـرب العالمية الأولى الى خوف كل جانب منهمـا من الجانب الآخر · فالترك كانوا يقدرون تحالف الادريسى مع بريطانيـا التى يهدد أسطولها المراكز العثمانية الواقعة على سواحل اليمن ، مما جعلهم يقنعون فقط بالدفاع عن هذه المراكز ضد اغارات الأدارسة أو الهروب بعيدا عن مرمى مدافع الأسطول البريطانى · أما الادريسى فرغم ما كان يحسه من قوة بتحالفه مع بريطانيا ، وبأن ذلك كان يمكنه من مضايقة الترك خاصة فى المنطقة الساحلية التى يمكن أن تدعم تحركاته فيها مدافع الأسطول البريطانى ، فان الادريسى فى قرارة نفسه كان يخشى انتقام الترك اذا ما تخلت عنه بريطانيـا · وكان الادريسى يعلم بطبيعة الحـال أن بريطانيـا كانت دائما حليفة للأتراك قبـل انضمامهم لألمانيا التى كانت هزيمتها تبدو فى الأفق ، فكان يخشى أن يصفو الجو من جديد بين بريطانيا والأتراك فتبقيهم فى اليمن ، فينتقمون منه أشد انتقـام · وقد أثار ارتياب الادريسى فى نيات الانجليز تراخيهم فى مساندة سلطان لحج الذى هجم الترك على بلاده فى جنوب اليمن ، ولهذا رأى أن اخلاصه للانجليز واطمئنانه اليهم لن يكون الا اذا تمكنوا من طرد أعدائه العثمانيين من اليمن حتى لا يشـكلوا هناك خطـرا يهدد مستقبله · ويفسر لنا ذلك خـوف الادريسى من رفع علمه على جزر « فرسان » بعد استيلائه عليها من يد الترك حتى لا يزيد من ثائرتهم عليه ، فيتعرض لانتقـامهم فى المستقبل كمـا خشى فى نفس الوقت أن يرفع عليها العلم البريطانى حتى لا يتهم بأنه باعها للانجليز فيثير بذلك على نفسه سخط اليمنيين ولعنتهم (٢) ·

وقد استفاد الادريسى من تحالفه مع بريطانيـا فى أثنـاء الحرب العالمية الأولى ، وحتى بعد خروج الترك من اليمن فى أعقاب تلك الحرب · واذا كنا قد استعرضنا المعونات الحربية التى قدمتها بريطانيا للادريسى فى أثناء الحرب ،

---

(١) Hurewitz, J.C. : Op. cit., Vol. II, p. 12

(٢) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 176-177.

فان الادريسى استفاد من هذا التحالف أيما استفادة فى المجال الاقتصادى أيضا عندما حافظت بريطانيا على جعل موانئه مفتوحة للتجارة ، بينما فرض أسطولها حصارا بحريا خانقا على بقية الموانى اليمنية • وقد احتكر الادريسى بذلك تجارة المنطقة وتصرف فى أسعار السلع كما شاء ، وجنب بلاده الضيق والاختناق الاقتصادى الذى عانى منه اليمنيون وحتى سكان المدن الساحلية اليمنية الأخرى فى أثناء الحرب • وقد لجأ بعض مشايخ القبائل القاطنة على ساحل البحر الأحمر الى عرض خدماتهم على الانجليز ، ليخلصوا أنفسهم مما حل بهم من فاقة فى أثناء الحصار • ومن بين هؤلاء شيخ ميناء « خوخة » ــ ذلك الميناء الذى عرف بأهميته التجارية وبالخدمات التى كان يقدمها للسفن التجارية العابرة ــ وقد عرض هذا الشيخ خدماته على الانجليز فى عدن بعد أن شكا اليهم عدم اهتمامهم بمساعدة قبيلته • وحتى قبيلة الزرانيق القاطنة على الساحل اليمنى والمعروفة بشدة البأس ، تقربت هى الأخرى للانجليز لتحصل على مساعداتهم وعرضت عليهم موانئها لاستغلالها بعد أن عانت الأمرين من الحصار • غير أن بريطانيا كانت ترفض هذه العروض التى رأت فى قبولها توسيعا غير مرغوب فيه لالتزاماتها فى فترة الحرب العصيبة • وسيؤدى تخلى الانجليز عن مساعدة قبيلة الزرانيق الى التجائها الى الفرنسيين فى « جيبوتى » الواقعة على الساحل الافريقى المواجه لليمن ، غير أن الفرنسيين أحجموا عن مساعدة الزرانيق وأحالوهم الى عدن (١) دون جدوى •

على أن العثمانيين والامام يحيى تعرضوا كذلك لوطأة الحصار الذى فرضته بريطانيا على سواحل اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى • وقد حاولوا الحصول على احتياجاتهم اللازمة بمختلف الوسائل الممكنة ومن مصادر متعددة • وكان من بين أهداف الحملة التى وجهها الترك الى لحج هو توفير الامكانات الاقتصادية اللازمة للأتراك المحصورين فى اليمن ، حتى يتجنبوا الضائقة الاقتصادية التى كانوا يتوقعون حدوثها اذا طالت فترة الحرب ولازمها هذا الحصار العنيف • ويؤكد العبدلى هذا الرأى بقوله : « ان على سعيد باشا هو الذى أشار بمهاجمة لحج والاستيلاء عليها لأنه خشى أن يتعطل الفيلق فى اليمن ، ولا تكفيه حاصلات اليمن المحصورة فيموت جوعا ، فرأى أن يستولى على لحج المشهورة بكثرة حبوبها وأرزاقها فى اليمن لضم حاصلاتها الى حاصلات اليمن لسد حاجة الفيلق وعائلات الضباط » • كما أشار العبدلى الى أن المكاتبات التى تبودلت بين على سعيد باشا والقومندان أحمد توفيق ومحمود نديم تبين بوضوح بل وتؤكد « أن الأتراك مع ما نهبوه وسلبوه واقترضوه واستولوا عليه بأى حال كان من حاصلات لحج وأملاك السلطنة العبدلية ورعاياها ومن

---

(١) Jacob, H. F. : Op. cit., pp. 173-174.

غيرها من بلدان اليمن والنواحى التسع ، كانوا فى ضائقة شديدة فى اليمن كما يفهم من ذلك النزاع الذى قام بينهم بخصـــوص توزيع الحاصلات بين الفرق العسكرية والملكية » (١) ، على النحو الذى سنوضحه عند دراستنا للعمليات الحربية فى جنوب اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى ٠

وقد عبر الواسعى عن الضائقة الاقتصـــادية التى اجتاحت اليمن نتيجة لحصار الأسطول البريطانى لسواحله بقوله « ثم فى شهر شوال (أوائل سنة ١٩١٤ م ، ١٣٣٢ هـ) انقطعت البواخر البحرية وعظم الحرب ، ودخلت سنة ١٣٣٣ هـ (نوفمبر ١٩١٤ م) واشتدت الحرب العظمى وامتنعت القطـارات والبواخر البحرية وأصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك ومكثت الحرب خمس سنوات الى نهاية سنة سبع وثلاثين هجرية (١٣٣٧ هـ ، ١٩١٨ م) ٠ واليمن فى الزراعـة والثمار هـذه المدة قد تحسنت حالها ولم ينقطع عنها الا الغـاز والسـكر ٠٠ وأما المأكولات فموجودة ، واليمن استغنى بنفسه مع وجود وفرة الفواكه والثمار ، ويوجـــد نوع من السـكر فى اليمن الأسفل » (٢) ٠ ومن الملاحظ أن الواسعى لا يعبـر فقط عن الضائقة الاقتصـادية التى نتجت عن الحصـار البريطانى الذى عانى منه اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، بل انه يوضح كذلك أن أهالى اليمن اتجهوا الى العناية بزراعة أراضيهم حتى يهيئوا لبلادهم اكتفاء ذاتيا يقيهم كارثة المجاعة اذا ما استمر الحصار البحرى لسواحلهم سنين عديدة ٠ وكانت الأرض اليمنيـة جديرة بالوفاء باحتيـاجات اليمنيين لثرائها الطبيعى وكثرة خيراتها فأنتجت لهم ما سد حاجتهم وهيأ لهم فعلا الاكتفاء الذاتى الذى جنب بلادهم ويلات المجاعة فى أثناء الحصار البرى الايطالى (٣) والبريطانى للسواحل اليمنية ٠

العمليات الحربية فى جنوب اليمن فى أثنـاء الحرب العـالمية الأولى :

أشرنا فيما سبق الى أن بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى قامت بمحاصرة السواحل اليمنية بأسطولها المنيع وذلك لكى تقطع المواصـلات بين اليمن وبين باقى أجزاء الامبراطورية العثمانية ، حتى تضيع الفرصة على الحامية العثمانية الموجودة هناك من المساهمة فى العمليات الحربية المضادة لقوى الحلفاء فى أثناء الحرب ٠ وقد زاد من ضيق الحصار على العثمانيين فى اليمن التحالف

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ ٠
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٢٩ ــ ٣٣٠ ٠
(٣) محمد أنعم غالب : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن ، ص ٢٢ ٠
Bury, G.W. : Op. cit., p. 116.

الذى تم بين ابن سعود وبريطانيا فى سنة ١٩١٥ م ، واشتعال الثورة العربية ضدهم بزعامة الشريف حسين فى الحجاز • وقد أدى ذلك الى قطع الطريق الصحراوى الطويل عبر الحجاز ونجد الذى كان وسيلة الاتصال الوحيدة بعد انقطاع الطريق البحرى ، فكادت الدائرة بذلك تكون مقفلة حول العثمانيين المحصورين فى اليمن • كما يبدو أن الترك أحسوا بقوة البحرية البريطانية ، وأن معركة الساحل سوف يكسبها الانجليز لا محالة ، فالأسطول البريطانى يسيطر تماما على البحر كما أنه كان يساند تحركات الادريسى وعملياته الحربية ضد الترك فى شمال اليمن ، ولهذا اتجه العثمانيون بكامل استعدادهم لمهاجمة لحج ومحاولة غزو عدن ومناوأة الانجليز من ناحية البر • ولا شك أن تحول الترك الى الجبهة الجنوبية فى اليمن كان خطة عسكرية صائبة أبعدت قواتهم عن مرمى قذائف الأسطول البريطانى فى المناطق البحرية فى الساحل الشمالى المواجه لعسير كما جعلتهم يتجهون الى ضرب الانجليز فى المناطق البرية البعيدة عن الساحل حيث تضعف نسبيا جيوشهم واستعداداتهم عن النيل من القوات العثمانية وهزيمتها (١) • وتجدر الاشارة الى أنه فى ذلك الوقت كانت موارد اليمن التى أنهكتها الثورات والحروب الطويلة قد أصبحت محدودة لا تكاد تفى باحتياجات العثمانيين الذين مكثوا فيها طويلا وينتظر أن تطول اقامتهم نتيجة للحصار المحكم المضروب حول الولاية فى البر والبحر بواسطة بريطانيا وأعوانها • وكان الترك يتوقعون أن اعتمادهم الكلى على موارد اليمن المحلية سيثير بالضرورة أهالى اليمن الذين لم ينمح من ذاكرتهم تاريخ نضالهم السابق وصراعهم الدامى ضد الحكم العثمانى فى بلادهم • ولم يكن الترك كذلك يطمئنون تمام الاطمئنان الى موقف الامام يحيى الذى بدا فى مظهره محايدا بل ومساندا لهم فى محنتهم فى بعض الأحيان ، لأنهم كانوا يرونه مترقبا لسقوطهم حتى ينقض عليهم ويرث البلاد بعدهم اذا أتيحت له الفرصة ، وان كان يطمئنهم بعض الشىء اتفاق الصلح المعقود بينهم وبينه فى سنة ١٩١١ م ، والمحاولات التى اشترك فيها معهم لاجتذاب سلطان لحج وابعاده عن محالفة بريطانيا • وهكذا كانت هذه العوامل مجتمعة تحث العثمانيين فى اليمن على التحرك والبحث عن مخرج لهم من الضائقة التى واجهوها فى مطلع الحرب الكبرى الأولى فى تلك الولاية المحصورة •

وبهذا قرر العثمانيون فى اليمن أن المخرج الوحيد لهم من تلك الضائقة هو الاتجاه جنوبا ومهاجمة النواحى التسع المحيطة بعدن ، بل مهاجمة عدن نفسها • وعدن فى ذلك الوقت كما يقول الريحانى « مدينة التجارة والفحم والمضارب العسكرية • فهى من الوجهة الحربية جبل طارق الشرق • ومن

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢١٥ •

الوجهة التجارية مركز توريد وتوزيع مهم فى البحر العربى · ومن الوجهة البحرية العمومية هى مستودع فحم لبواخر العالم التى تجرى بين الشرق والغرب · وهى للبواخر الانكليزية المستودع الثالث فى الطريق بين الجزر البريطانية والهند · أما المستودعان الأول والثانى ففى جبال طارق والسويس » (١) · **وكانت خطة الدولة العثمانية وحلفائها تهدف الى طرد الانجليز من عدن واحتلالها ، واحتلال جزيرة بريم ، وكلتاهما تشرفان على المدخل الجنوبى للبحر الأحمر · وكان هذا الهجوم جزءا من الخطة العامة التى** رسمتها الدولة العثمانية وحلفاؤها **لمهاجمة الانجليزية فى مصر والاستيلاء على قناة السويس** ، وحرمان بريطانيا من **الشريان الحيوى فى خطوط مواصلاتها الامبراطورية الى الهند والشرق** (٢) · **وقد أكد العبدلى ذلك عندما ذكر أن العثمانيين فى اليمن** « وصلتهم أوامر مشددة من أنور أن يقلقوا راحة الانكليز فى عدن ويجبروهم على ارسال عسكر اليها ، وأن يشغلوهم فى اليمن بقدر الامكان ، وكأنهم أرادوا بذلك أن يشغلوا فى عدن جانبا من المدد الذى يظنون أن الهند سترسله الى السويس لكبح جماح حملة أحمد جمال باشا على مصر » (٣) · كما يؤكد أمين الريحانى أن **هدف الترك من مهاجمة عدن هو اشغال الانجليز عن الميادين الأخرى للحرب الكبرى الأولى** بقوله : « فعول على سعيد باشا الجركسى قائد القوات العثمانية فى اليمن على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير اشغال الانجليز هناك » (٤) · واذا كان هذا هو الهدف العسكرى من وراء مهاجمة العثمانيين لعدن والنواحى التسع ، فقد كانوا يرمون أيضا من وراء ذلك الى ايجاد حل لضائقتهم الاقتصادية المتوقعة خاصة اذا طالت فترة الحرب (٥) ، على النحو الذى سبق أن أوضحناه ·

وهكذا تحددت الجبهة التى سوف يزحف تجاهها رجال الحامية العثمانية فى اليمن ، سواء كان الغرض من ذلك محاولة الاستيلاء على عدن والنواحى التسع ، وهو هدف صعب لم يتحقق لنهايته نتيجة لمناعة عدن وقوة تحصينها ، أم كان الغرض الاستيلاء على بعض تلك النواحى ، واشغال الانجليز حول عدن ، والاستعانة بمحاصيل المنطقة لسد حاجة الحامية العثمانية ، وهو الأمر الذى تحقق فعلا · وقد كانت هذه الجبهة أفضل للترك وأجدى لهم من الجبهة الشمالية فى عسير التى أوضحنا العمليات الحربية التى حدثت فيها فى أثناء الحرب العالمية الأولى ضد الأدارسة لابعادهم عن محالفة الانجليز ووضع حد لتوسعهم

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ·

(٢) Lenczowski, G. : Op. cit., p. 61.

(٣) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٠ – ٢١١ ·

(٤) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠١ ·

(٥) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ ·

المدعم بمدافع الأسطول البريطاني على حساب الممتلكات العثمانية . ذلك لان جبهة عدن على أية حال كانت مجابهة مباشرة من العثمانيين لأعدائهم الانجليز فى جنوب اليمن (١) ، وكان سيترتب على نجاح الترك فيها أو فشلهم آثار ذات فعالية أبعد مدى فى خطة الحرب الكبرى من القضاء على الادريسى أو وضع حد لتعاونه مع بريطانيا لاشغال الترك فى شمال اليمن . هذا على الرغم من أن « لينوفسكى » يقلل من قيمة العمليات الحربية التى دارت فى اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى لعدم تناسقها مع العمليات الحربية الرئيسية للخطط العسكرية التى وضعتها تركيا وحلفاؤها بقوله : « ان التحركات التركية اليمنية لم تكن متناسقة مع العمليات الحربية الرئيسية للخطط العسكرية التى وضعتها الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، ولذلك كانت غير ذات تأثير على سير الحرب بصفة عامة » (٢) .

وعلى أية حال فقد قررت القيادة العثمانية فى اليمن الزحف على عدن والنواحى التسع ، وكان الانجليز يرون أن تلك النواحى وبخاصة لحج بمثابة خط دفاع أول عن عدن نفسها . ولهذا عندما علمت بريطانيا بخطة الترك أرادت أن تقوم ببعض العمليات الحربية التى قد ترهبهم وتوقف زحفهم على عدن . وتنفيذا لتلك الخطة الدفاعية فقد أوقف الانجليز ثلاثة طوابير من جنودهم فى البحر الأحمر كانوا متجهين من الهند الى السويس ، وضربوا فى ١٠ من نوفبر سنة ١٩١٤ م جزيرة الشيخ سعيد ليدمروا الآبار والحصون والمستودعات فيها . ولكنهم لم يستطيعوا ، لشدة الأنواء ، النزول الى الجزيرة فنزلوا الى البر قريبا منها فى حمى مدافع البواخر الحربية البريطانية ، فتقهقر الترك الى داخل البلاد، ثم دمر الانجليز قلعة « تربة » وغيرها من الحصون فى تلك الناحية ، وغنموا بعض المدافع ، ظنوا أنهم أوقفوا الترك ومنعوهم من مجرد التفكير فى الزحف على عدن . غير أن الترك أوقفوا زحفهم لمدة سبعة أشهر فقط ثم أعادوا الكرة على جزيرة الشيخ سعيد فاحتلوها ، وتوجهت جنودهم من « ماوية » الى « لحج » للهجوم على عدن (٣) . وجدير بالذكر أن اعتداء الانجليز على الشيخ سعيد أغضب الامام يحيى الذى كان يعتبرها جزءا من أملاك أجداده التى ورثها بحكم امامته . وقد احتج الامام على هذا العدوان البريطانى مما جعل « الكولونيل جاكوب » المعاون الأول يومئذ فى دار الاعتماد بعدن يكتب اليه قائلا أن الضرورة الحربية هى التى حملت الانجليز على ضرب الشيخ سعيد دون أن يكون لهم

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٠١ .
(٢) Lenczowski, G. : Op. Cit., p. 60.
(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ – ٣٦٦ .

فى ذلك قصد خفى أو سياسى ، وأن جلاءهم عن تلك الناحية فى أقرب فرصة سوف يؤكد ذلك (١) ٠

وعندما وصلت القوات العثمانية الى « الضالع » فى فبراير سنة ١٩١٥ م (١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٣٣ هـ) فقد كتب الأمير نصر الى السلطان على سلطان لحج يصف له حملة الترك وتحركاتهم بقوله : « ان الحركة قوية جـدا وجيوشا تركية وامامية ويمانية لا لها قدر (كذا) وأن الدولة العثمانية أخذت مصر والخور (يقصد قناة السويس) وأقفلت باب المندب (كذا) وحصنته بالعساكر ٠ والآن جهزت عســاكرها من طريق اليمن وواصلين الى « قعطبة » و « ماوية » و « الراهدة » وطريقهم « الدريجة » و « الداهدة » من حدودنا ٠ والآن الثورة والحركة قوية بالمرة ظاهرا وباطنا ومتوجهين الى عدن ، ونحن قد رفعنا للانكليز بالحقائق وأيضا سمعنا أنكم عاونتم الدولة البريطانية بخمسين ألف ٠ ورؤساء الترك سمعوا بذلك واغتاظوا للمعاونة منكم للانكليز ٠ وسمعنا من بعضهم أن عنـــد وصولهم قرب لحج بأنهم يطلبــون منكم تسليم المعــاونة بالمثنى ٠ الآن حبينا اعلامكم بذلك وعندما يصلوا قريب لحج لازم علينا قوام العهد ، ونتداخل بينكم بموجب المخوة ، وتصلح جميع الأمور ، وندخل أوجاهنا لكم ولهم » (٢) ٠

ونلاحظ أن ما ذكره الأمير نصر عن اشتراك جنــود الامام يحيى فى الحملة العثمانية على لحج يجانب الحقيقة ، لأن الامام لم يقبل أن يزج بنفسه فى الصراع القائم بين الترك والانجليز ، احتفاظا منه بقوته للانتفاع بها فى تدعيم كيانه بعد تصفية هذا الصراع الذى لا مصلحة له فيه ٠وقد أكد القائد العثمانى سعيد باشا موقف الامام هذا بقوله ان الامام كان يعارض رأيه فى الزحف على عدن ، وانه قد كتب للامام يطلب منه المساعدة فلم يلب الامام مطلبه (٣) ٠ غير أنه يمكن القول ان بعض رجال القبائل اليمنية من أتباع الامام قد اشتركوا مع العثمانيين فى الهجوم على لحج بصفتهم الشخصية ومن أجل مصالح خاصة ، وليس بصفتهم ممثلين للامام يحيى الذى رفض أن يقحم نفسه فى تلك الحرب (٤) ٠ وحسب الترك ما استفادوه من الامام يحيى فقد قال العبدلى : « انهم فازوا بأن يركنوا اليه فى ضبط جانب من بلاد اليمن واحتمال جملة من المهام ، بصفة مفوض من طرف الخليفة ، وهى خدمة ثمينة مكنتهم من أن يتفرغوا لمحاربة أعدائهم وتمكنوا أن يقترضــوا منه ما احتاجوا اليه من الحب والنقد » (٥) ٠ أما الحرب الدعائية

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 159.

(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ٠

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ص ٣٦٧ ٠ Jacob H. F. : op. cit. p. 164.

(٤) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ٠

(٥) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ ٠

والنفسية التي شنها الترك وصاحبت حملتهم الزاحفة تجاه عدن ، عندما أطلقوا الاشاعات بأنهم قد استولوا على قناة السويس بل على مصر كلها وأقفلوا باب المندب ، ليوهموا أهالي النواحي بأن عدن هي المحصورة ، فقد لقيت هذه الحملة بعض النجاح مما جعل العبدلي يقول ان الترك « كانوا يجدون في خراف قحطان الضالة كثيرا ممن يصدق ذلك » (١) • وكان الترك يقصدون بحملتهم الدعائية هذه التظاهر بأنهم يهدفون الى مهاجمة عدن فقط • وحاول الترك أن يؤكدوا ذلك عندما بعث القائد العثماني على سعيد باشا الى سلطان لحج يستأذنه بالمرور عبر سلطنته المستقلة ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه ، فأبى السلطان على « لانه حليف الدولة البريطانية وتحت حمايتها » (٢)• على أن العبدلي يؤكد أن السلطان على أدرك أن الترك ما كانوا يقصدون الا الاستيلاء على لحج يستأذنه بالمرور عبر سلطنته المستقلة ويعده بالمحافظة عليه وعلى ملكه ، والذين كانوا يتوسطون لتحسين علاقاته مع حكومة ولاية اليمن العثمانية • ثم يضيف العبدلي قوله ان نية الترك قد تحققت بعد ذلك عندما أقر القائمقام رءوف بك عند بعض رجال حكومة عدن أنه لم يكن في عزمهم مهاجمة عدن الا اذا حصلوا على امدادات كبيرة ، وانما كانت خطتهم الاستيلاء على لحج والسيطرة على مقدراتها • ويختتم العبدلي رأيه هذا بقوله : « فلذلك كانت مقاومة السلطان والتجاؤه الى عدن ضربة على على سعيد باشا ، وسببا لبقاء أكثر عرب المحمية على موالاة حكومة عدن » (٣) •

وتجدر الاشارة الى أن أمين الريحاني ، ذلك الأديب الصحفي الرحالة العربي الأصل الأمريكي الجنسية ، الذي قام بزيارة اليمن والبلاد العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى وكتب عن ملوك العرب الذين قابلهم آنذاك ، قد ذكر أن ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية في الغرب من أخبار تلك الزاوية العربية القصية والتحركات العسكرية التي دارت فيها في ذلك الوقت لم يكن فيه كلمة عن نكبة لحج وعما حل بالاسرة المالكة وبسلطانها « حليف بريطانيا العظمى » ، وانما تضمن فقط الاشارة الى أن السلطة الانجليزية في عدن احتاطت للأمر بما لديها من قوات الدفاع القليلة ، وأنها أمرت بنقل الحامية البريطانية من عدن الى الشيخ عثمان ثم بالتقدم الى لحج • وذكر الريحاني أن التقارير الرسمية جاء فيها « ان شدة الحر وقلة الماء وفرار الهجانة المأجورين أخرت الجنود في الطريق وحالت دون الغاية المقصودة » • ثم أشار الريحاني الى أن طليعة الجيش البريطاني وصلت الى غايتها ونازلت الأتراك خارج لحج قبل أن يصل الجنود اليها ، فدارت الدائرة على الانجليز ، فتقهقروا

---

(١) العبدلي : المصدر نفسه ، ص ٢١٢ •
(٢) أمين الريحاني : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٧ •
(٣) العبدلي : المصدر السابق : ص ٢١٣ •

عن لحج مهزومين ، فدمرها الاتراك فى ٥ من يوليو سنة ١٩١٥ م ونهبوها ، ثم زحفوا على الشيخ عثمان فاحتلوها فى اليوم التالى (١) · واختتم الريحانى توضيحه لما وصل الى الدوائر الحربية فى الغرب بالطرق الرسمية عن تلك الحرب بقوله : ان النجدة البريطانية التى وصلت بعد ذلك الى عدن أخرجت الترك من الشيخ عثمان فى ٢٠ من يوليو ، فعادوا الى لحج وتحصنوا فيها وظلت شرذمات منهم فى « أم العبد » و « الوهط » ، فحاول الانجليز مرارا أن يخرجوهم منهما فلم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن قامت بنجدتهم عشائر العرب التى استنجدوا بها · ولكن الانجليز لم يستطيعوا ولا حاولوا بعدئذ أن يخرجوا الأتراك من لحج ، فظلوا فيها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (٢) ·

هذا ما وصل بالطرق الرسمية الى الدوائر الحربية فى الغرب عن أخبار الصراع الذى دار بين الترك والانجليز فى جنوب اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى · ومن الملاحظ اغفال ذكر الكارثة التى حدثت لسلطان لحج حليف بريطانيا على يد الأتراك كان محاولة من الانجليز لاخفاء جريمتهم ، اذ تركوا سلطان لحج يقع وبلاده فريسة فى يد الأتراك رغم تعهدهم بحمايته من أى عدوان أجنبى تتعرض له بلاده · ولا شك أن اذاعة أخبار تلك الكارثة كان من شأنه أن يشكك حلفاء بريطانيا فى تعهداتها اليهم فيفقدوا الثقة فيها ويتخلوا عن مساعدتها فيضعف جانبها فى الحرب الكبرى فى ذلك الوقت ، الأمر الذى كانت تتجنب حدوثه بشتى الوسائل الممكنة · على أن تفاصيل هجوم الترك على لحج سنستعرضها فيما يلى بعد التثبت منها من مصادر متعددة ·

فى السنة الثانية من الحرب العالمية الأولى أى فى صيف سنة ١٩١٥ كان للدولة العثمانية فى اليمن خمسة وثلاثون طابورا ، أى خمسة عشر ألف جندى ، معظمهم من السوريين ، وكان يعسكر قسم منهم فى « ماوية » فى جنوب اليمن تحت قيادة أمير اللواء على سعيد باشا الجركسى الذى أضاف الى قواته قوة من العربان اليمنيين · وقد عرف عن سعيد باشا أنه كان كريم الاخلاق جوادا مما جذب اليه عدة آلاف من رجال قبائل « الحواشب » و « اليوافع » و « الصبيحة » (٣) · وقد خرجت جيوش سعيد باشا من ماوية زاحفة تجاه لحج حيث كان السلطان على يعد العدة لمواجهة الترك وصدهم عن بلاده · وقد استعان سلطان لحج ببعض العشائر المجاورة وحشد قواته التى بلغت نحو ألفى مقاتل فى « الدكيم » الواقعة على مسافة عشرة أميال من لحج · غير أن تكاليف الاحتفاظ بهذا العدد الى جانبه كانت باهظة لا تتحملها ميزانيته الصغيرة (٤) ·

---

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٦ ·
Scott, H. : In the High Yemen, p. 230.

(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ص ٣٦٦ ·

(٣) الريحانى : المصدر نفسه ، ص ٣٦٧ ·

(٤) Jacob, H. F. Op. cit., p. 165.

وكانت حكومة عدن البريطانية قد أرسلت الى الدكيم فرقة من الخيالة فى عدن Adentroop تحت قيادة « السردار ملك دادخان الهندى » ثم سحبتهم الى لحج وأبقوا بعض الأشخاص للمخابرة معهم « بالهليو » (١) ·

وقد تخلى عن مساندة سلطان لحج ضد الأتراك عـدد من الأمراء اليمنيين المجاورين لبلاده ، لخوفهم من قوة الترك ولعدم ثقتهم فى مســاندة الانجليز وحمايتهم · ومن بين هؤلاء السلطان على مانع الحوشبى ·وقد اكتشف العبادلة حكام لحج خطابا واردا من الأمير على بن صالح الحوشبى الى السلطان المذكور وفى طيه رسالة من على سعيد باشا قائد الحملة التركية يدعو فيهـا سلطان الحواشب للرجوع الى المسيمير والاتصال بالترك لاتمام الاتفاق الذى بدأوه مع الأمير على بن صالح بشأن اعطاء الحواشب منطقة « زايدة » التابعة للعبادلة حكام لحج · وقد أكد ذلك عدم اخلاص السلطان الحوشبى لجاره سلطان لحج ، وكان السلطان الحوشبى هذا قد عاد الى بلاده بعد أن حصـل على أسلحة قليلة من حكومة عدن ، غير أنه كان يائسا من حماية الانجليز مما جعله يعقد العزم على الاذعان للترك والاتفاق معهم ، وقد صرح بذلك لمقبل عبد الله القطيبى ومحمد ابن الأمير حسن اللذين أرسـلا من « الدكيم » لمعرفة اتجـاهه ، كما أكد لهم الحوشبى « أنه ما لم تصل جنود بريطانيا العظمى وعساكر لحج لصد الأتراك عن بلاده فانه عثمانى مصالح للأتراك » (٢) ·

وقد أرسل سلطان الحواشب فى « المسيمير » خطابا لقوات العبادلة فى « الدكيم » بعد أن أحرق أطرافه انذارا بالخطر ليحثهم على ارسال المدد فى أسرع وقت « والا فانه لا يلام بعد ذلك » كما كتب مثل هذا الخطاب الى حكومة عدن وسلطان لحج العبدلى · ثم عاد سلطان الحواشب فأرسل كتبا أخرى الى «الدكيم» تكذب خبر وصول الترك الى حدوده وتحذر العبادلة من ارسال أى مدد اليه لأن الأمر لا يستلزم ذلك · ويبدو أن الحوشبى فعل هـذا ليتجنب غضب الترك وليظهر اخلاصه لهم وعدم تعاونه مع العبادلة حلفاء الانجليز بعد أن فقد الأمل فى حمايتهم له وصد الترك عن بلاده · وقد أرسل العبادلة أربعة من الخيالة الى « الدريجة » لاستطلاع الموقف فرأوا جميع قرى الحواشب قد أخليت وفر سكانها بمواشيهم وأثاثهم وأرزاقهم الى شوامخ الجبال خوفا من الترك الذين تمكنوا من مد أسلاك البرق الى «الدريجة» وكادت تصل الى هناك طلائع قواتهم · وقد أبلغ الكشافون رجال العبادلة فى « الدكيم » بأن الترك قد اجتازوا الحدود وذلك لكى يستعدوا لمواجهتهم ·

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٤ ·

(٢) العبدلى : المصدر نفسه والصفحة نفسها ·

وهكذا اصطدم الترك بالعبادلة فى « الدكيم » وسرعان ما دارت الدائرة على اللحجيين لأن الترك فاقوهم عددا وعدة · وفى تعبير موجز ذكره العبدلى يصف ما حدث فى تلك المعركة بقوله : « وحقيقة كان حالنا وحالهم كمن يناطح بالقارورة الجبل » (١) · وترجع أسباب هزيمة اللحجيين الى قلة عددهم وعتادهم الحربى بالنسبة لما كان لدى الترك من رجال وعتـاد ، كمـا أن اللحجيين لم يكونوا على شيء من النظام فى تحركاتهم العسـكرية ، على عكس ما كان لدى الترك من نظام ودراية بالخطط الحربية · هذا فضلا عن تأخر وصول النجدة الانجليزية اليهم الا بعد وقوع الهزيمة فعـلا · وقد ذكر أمين الريحانى أن التقارير الرسمية وردت فيها أسباب ثلاثة لتأخر وصول تلك النجدة ، هى : شدة القيظ وتعذر الحصول على الماء ، وفرار الجنود البريطانيين الهجانة على وجه الخصوص · غير أن الريحانى أضاف أنه سمع فى عدن أن الجنود الهنود عصوا يومئذ ضباطهم الانجليز لأنهم كرهوا أن يحاربوا اخوانهم المسلمين (٢) · على أن المصادر المختلفة تجمع على أن الانجليز أبطئوا فى انجاد اللحجيين ، ثم انهزموا بعد ذلك أمام القوات العثمانية ·

وقد أسرع سلطان لحج بابلاغ نبأ هزيمة جنوده فى « الدكيم » لرجال حكومة عدن البريطانية ، وأوضح لهم أن قصره سيصبح فى اليوم التالى تحت وابل قذائف المدافع التركية · وقد أرسلت حكومة عـدن فرقة من جنودها توجهت الى لحج بعد أن قضت ليلتها فى الشيخ عثمان · وقد هاجم الترك مدينة « الحوطة » حيث تجمع اللحجيون وأطلقوا عليها المدافع ، واحتدم القتال بين الجانبين · وكان قد وصل الى المدينة جانب من الجنـود الهنـود والبريطانيين لمساعدة سلطان لحج غير أنهم وصلوا بعد فوات الوقت ولم يتمكنوا من احضار مدافعهم وعتادهم · وقد ذكر العبـدلى أن عـدد الذين دافعوا عن « الحوطة » من اللحجيين والبريطانيين لا يزيد على سبعمائة مقاتل ولكنهم قاتلوا قتـال الأبطال ، وأن الترك أنفسهم قد شهدوا لهم بذلك (٣) ·

وعندما دخل الأتراك الجانب الغربى من مدينة « الحوطة » كان السلطان على وأسرته لا يزالون فى القصر المقام فى الجانب الشرقى من المدينة يدافعون عن أنفسهم ، فاضروا أن يخرجوا منه عندما بدأت الحجارة تتسـاقط عليهم من الجدران التى كانت تخترقها القنابل ، ثم بادروا بالفرار قبل الفجر متجهين الى بلدة « الشيخ عثمان » احدى ضواحى عدن · وفى ذلك الوقت كان الجنود البريطانيون قد خرجوا من تلك البلدة لينجدوا اللحجيين ، فالتفوا بالسلطان

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٦ ·
(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ص ٣٦٧ ·
(٣) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ ·

وأسرته تحت جنح الظلام ، فظنوهم من كشافة العدو ، فأطلقوا عليهم النيران . فقتلوا عددا منهم وأصيب السلطان على بسبع رصاصات وقتل فرسه • وقد أعيـد السلطان مجروحا الى القصر (١) وبقى فيه الى بعـد شروق الشمس ، حيث أخرجه من بقى من جنوده فى القصر محمـولا على الأكتاف وكان التـرك يطلقون عليهم نيران بنادقهم من أطراف المدينة فأصـابوا بعض الذين يحملونه بجروح خفيفة • غير أن هؤلاء ساروا بسلطانهم على تلك الحـالة حتى وصلوا بالقرب من « الرباط » ، حيث كانت هنـاك سيارة نقلت السلطان على الى عدن ، فتوفى هنـاك متأثرا بجراحه (٢) • وقد عبر « هارولد جاكوب » عن موقف الانجليز ازاء هذه الكارثة التى حلت بسلطان لحج بقوله : « اننا فى اهمالنا مسئولون عن وفاة السلطان على المبتسرة » (٣) •

وهكذا سيطر العثمانيون على لحج التى فر منها الى عدن من سلم من أسرة العبادلة الحاكمة وكثيرون من الأهالى • وقد دمر الترك قصور السلاطين ونكلوا بأهل المدينة • وقد عبر العبدلى عن ذلك بقوله : «وأصبحت المدينة خرابا وأهلها فقراء ، ففشت المجاعة فى البلاد وضجت العباد ، واضطر العـاهل على سعيد (قائد الترك) أن يبيع الى العبادلة جانبا مما غنم منهم من الحبوب • وكانت الخلائق من الأهالى تتزاحم لشراء ما يسد الرمق بأغلى الأثمان حتى فتح الله لهم الطريق الى سوق عدن » (٤) •

وتجدر الاشارة الى أن القوات العثمانية النظامية التى هاجمت لحج والتى قدرت بنحو ألفين وثلاثمائة جنـدى معظمهم من التـرك والسوريين ، كانت مقسمة الى ثلاثة آلايات توزيعها على النحو التالى (٥) :

الآلاى الأول : ويتألف من : الطابور (١ ، ٢ ، ٣) من الآلاى ١١٦
ومن : الطابور (١ ، ٢ ، ٣) من الآلاى ١١٨
بقيادة : القائمقام سامى بك

وموقعه : فى الجناح الأيمن ويقابل غربى مدينة الحوطة •

الآلاى الثانى : ويتألف من : الطابور (١ ، ٢ ، ٣) من الآلاى ١١٥
ومن : الطابور (٣) من الآلاى ١١٩

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٧ •
(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ •
(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 167.
(٤) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٨ •
(٥) العبدلى : المصدر نفسه ص ٢١٨ — ٢١٩ •

بقيادة : القائمقام رءوف بك
وموقعه : فى القلب ·

الآلاى الثالث : ويتألف من : الطابور (١ ، ٢ ، ٣) من الآلاى ١١٧
ومن : الطابور (١) من الآلاى ١١٩
ومن : بلوكين من الآلاى ١٢٠
بقيادة : محمد حسنى بك
وموقعه : فى الجناح الأيسر ·

وأما الأسلحة التى زودت بها هذه القوات العثمانية فكان بيانها كالآتى :

العدد	نوع الأسلحة
٨	مدافع سريعة الطلقات
١٢	مدفعا عاديا للجبال
٦	« مانتنلى »
٢	« هاون »
٢	« أوبوس »
٣٠	« متراليوز ماشنجن »

هـذا بالاضـافة الى طابور كامل للاسـتحكامات ، وفرقة صغيرة من السوارى (١) ·

وقد رافق هذه القوات فى هجومها على لحج ما يقرب من ستة آلاف مقاتل من رجال القبائل اليمنية جمعت بين المرتزقة والطامعين فى الغنائم ممن استطاع الترك اجتذابهم الى جانبهم ، أو من وقفـوا الى جانب الترك اضطرارا بعد أن فقدوا الأمل فى حماية الانجليز لبلادهم على نحو ما فعل سـلطان الحواشب ·
وقد نظم الترك هذه القبائل اليمنية التى شاركتهم فى الهجوم على لحج فى سبع فرق على النحو التالى :

الفرقة الأولى : تحت قيـادة القائمقام محمـد ناصر باشا ، وهم قبائل قضـاء القماعرة ·

الفرقة الثانية : تحت قيادة السيد أحمد باشا ، وهم من القبائل المحيطة بتعز ومن جبل صبر ·

الفرقة الثالثة : تحت قيادة عبد الله بن يحيى ، وهم قبـائل الضباب وجبل حبشى ·

الفرقة الرابعة : تحت قيادة القائمقام يوسف حسن ، وهم قبائل قضاء العدين·

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٩ ·

الفرقة الخامسة : تحت قيـادة القائمقـام اليـاس بك ، وهم قبائل اب وجبلة ونواحيهما ٠

الفرقة السادسة : تحت قيادة القائمقام عبد القادر نعمان ، وهم قبائل الحجرية الذين جاءوا من طريق « عقان » والتقوا بالقوة الكبرى فى بلاد الحواشب ٠

الفرقة السابعة : تحت قيادة السلطان على مانع الحواشبى ، وهم قبائل الحواشب٠

الطابور الملى : تحت قيادة اليوزباشى اسماعيل الأسود ، ويتكون من أربعمائة نفر ، ومعهم رجال من قبائل الأصابح ويافع ، وألحق هذا الطابور بالفرق العربية (١) ٠

وعندما دخلت هذه الفرق من رجال القبائل اليمنية الى لحج مع القوات العثمانية فقد امتلأت بهم بيوت المدينة واستنفدوا المؤن والأرزاق مما كاد يؤدى الى احداث مجاعة لدى القوات العثمانية نفسها ٠ وقد رفع « مأمور الأنبار » تقريرا بذلك للقائد العام الذى أصدر أمرا لرؤساء القبائل اليمنية بالرجوع الى بلادهم لكى يحتفلوا مع ذويهم بعيد الفطر ، بينما كان الهدف الأساسى هو الحد من استهلاك المؤن والمحاصيل حتى تفى بحاجة القوات العثمانية المعسكرة فى لحج حينـذاك ٠ وقد عـاد كثيرون من رجال القبائل اليمنيـة الى بلادهم ، وقد حملوا معهم من « الغنائم والمحاسن والذخائر والمفارش والأثاث والملابس والكتب شيئا عظيما » (٢) ٠

وقد أوضح العبدلى صورة لأعمال النهب والسـلب والتخـريب التى اجتاحت لحج عقب هجوم الترك عليها يرافقهم رجال القبائـل اليمنيـة بقوله : « وقد رئى كثير من أجلاف اليمن يلبسون أقمصة نساء لحج المذهبة ، ويتبخترون بها فى الأسواق ٠ وخسرت البلاد اللحجية فوق الخسارة المادية خسارة أدبية عظيمة لما ضـاع فى هـذه الحرب بأيدى الناهبين من الكتب النفيسة النادرة الوجود ، فلم يتركوا من مدخرات هـذه المدينة ونفائسها ومكاتبها شيئا حتى مفارش المساجد وقناديلها ، وخربوا أكثر جدران بيوت الحوطة بحثا عن الكنوز بين جدرانها ، وارتكبوا من الفظائع ما يتعالى عنه أهل الايمان » ٠ غير أن العبدلى لا يسترسل فى تحيزه ضد الأتراك وأعوانهم من رجال القبائل اليمنية الذين هاجموا بلاده ، بل انه كان منصفا فى حكمه عندما نجده يعود فيذكر « أنه والحق يقال لم يخطر على بال أحد من هؤلاء المجاهدين أن يسبى ولدا من أولاد اللحجيين لأجل بيعه ، أو بنتا ليتمتع بها بوصفها ملك يمينه كما كان يفعل المجاهدون ٠

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢١٨ ٠

(٢) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ ٠

البقارة من أصحاب المهدى والخليفة التعايشى بأهل السودان ولله الحمد »(١) ٠

وعندما اضطرت الحامية البريطانية تحت ضغط القوات العثمانية الزاحفة الى اخلاء بلدة « الشيخ عثمان » فقد عاد اليها مباشرة بعض اليمنيين من أهلها ومن غيرهم ونهبوا ما فيها وقتلوا بعض التجار ٠ كما ذهب بعضهم وأخطر الترك الذين أرسلوا عددا من جنودهم تمكنوا من احتلال تلك البلدة ، ووضعوا حدا لأعمال النهب والسلب وأقروا الأمور هناك ٠ غير أن الانجليز تمكنوا ثانية من احتلال « الشيخ عثمان » فى ٢١ من ابريل سنة ١٩١٥ بعد أن وصلت اليهم نجدة عسكرية من مصر للمشاركة فى الدفاع عن عدن والمحافظة على مركزها الهام (٢) ٠ وكانت حكومة عدن قد استنجدت فى ذلك الوقت بفرنسا فى جيبوتى ، فأمدتها الأخيرة بحوالى ٨٠٠ جندى من مدغشقر ، كما أرسل « الجنرال مكسويل » القائد العام فى القاهرة فرقة هندية للمشاركة فى الدفاع عن عدن (٣) ٠

وبعد أن استرجعت بريطانيا مدينة « الشيخ عثمان » فان العمليات الحربية فى جنوب اليمن بين الأتراك والانجليز لم تتعد المناوشات بين الجانبين ، وكان يعقبها الانسحاب الى المراكز الأصلية ٠ وعلى الرغم من قلة أهمية تلك العمليات الحربية فى حد ذاتها ، الا أن كلا الجانبين التركى والبريطانى حرصا على ابقاء قوات لا بأس بها هناك لتقف كل منها فى وجه الأخرى لصد أى هجوم أو اعتداء ٠ وكان يمكن للجانبين أن يستفيدا بقواتهما هذه فى الميادين الأخرى العديدة استعدادا للحرب الكبرى الأولى ، بل ان العثمانيين كانت لديهم جبهة أخرى مفتوحة فى شمال اليمن يحاربون فيها الأدارسة فى عسير ، وكان الأسطول البريطانى فى ذلك الوقت يساند تحركاتهم ضد الترك ، وبخاصة فى المناطق الساحلية ٠ وقد استمرت هذه الأوضاع على ماهى عليه دون تغيير حتى أعلنت الهدنة العامة سنة ١٩١٨ ، ليس أمام « الشيخ عثمان » فحسب ، بل فى الجنوب العربى بأكمله (٤) ٠

أما بالنسبة لأسرة العبادلة التى كانت تحكم لحج فقد عرفنا أن من سلم منها قد فر الى عدن وكان معهم كثيرون من أهالى لحج ، ويقول العبدلى أن عددهم بلغ « نحو أربعة آلاف نفس أو يزيدون » ، وهم أعيان البلاد وساداتها وحاشية السلطان وأقاربه ومن رؤساء القبائل ، فتفرقوا فى البلاد بين عدن ومعلا ،

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٠

(٢) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٢١ ٠

(٣) Jacob, H.F. . Op. cit., p. 169.

(٤) Brémond : Op. cit., p. 80.

وبين أحمد ، والشيخ عثمان ، والعماد ، وأبين ، وصهيب ، وتركوا أراضيهم وبيوتهم وأموالهم ومواشيهم ، واستولى الأتراك على جميع ذلك ، وبحثوا على الديون والرهون التي للمهاجرين عند الناس ، وطالبوا بها المراهنين والمدينين ، ونال أذى عظيم خلقا كثيرا لتهمتهم بأن لديهم أموالا أمانة أو ديونا لأحد المهاجرين » (١) ·

ثم يستطرد العبدلي قائلا : « وارتكب الأتراك كثيرا من أمثال هذه الجرائم فلم يتركوا من أموال المهاجرين من العبادلة قطميرا بل مدوا أيديهم الى أموال الأهالي الذين بقوا تحت رحمتهم ، فكانوا يأمرون أحيانا بالقبض على بعض الأعيان وسجنهم لمجرد تهمة فارغة توسلا للحصول على المال ثم يطلقونه ، فيعلنون في جريدة صنعاء أن التاجر فلان تبرع بمبلغ كذا وكذا ألف ريال لمجاريح الجيش أو لبناء مستشفى أو غير ذلك ، كما فعلوا بسعيد على عون من أعيان نوبة عياض وبغيره أيضا ، والله يعلم أنهم انما أخذوا تلك الأموال قهرا لا تسليما · ولما بلغهم أن الفقهاء ينكرون عليهم نهب أموال المسلمين استصدروا فتوى من شيخ الاسلام بالآستانة صرح لهم فيها باباحة أموال المهاجرين لأنهم فروا من بلاد المسلمين الى بلاد النصارى ، وبعبارة أخرى من منطقة الخوف الى منطقة الأمن · فقد تعجب الفقهاء في اليمن من جرأة هذا الرجل على الدين ، وجاهر بعضهم بفساد هذه الفتوى اذ لم نسمع من قبل أن مفتيا يفتي باستحلال أموال المسلمين ودمائهم » (٢) ·

وبعد أن توفى السلطان على بن أحمد بن على بعد نقله الى عدن متأثرا بجراحه فقد خلفه ابن عمه السلطان عبد الكريم فضل بن على · وقد كان من أول أعمال السلطان الجديد أنه احتج احتجاجا شديدا على الحكومة البريطانية لأنها لم تقم بواجب المعاهدة بينها وبين أجداده ، فلم تجد حكومة لندن مفرا من قبول هذا الاحتجاج ؛ وعزلت حاكم عدن وقائد الحامية البريطانية فيها · وقد أقام السلطان عبد الكريم والأسرة المالكة اللحجية في عدن مدة الحرب كلها وهم يستعينون على الدهر بما كانت تدفعه حكومة عدن لكل منهم ، بينما كانت أملاكهم وقصورهم وبلادهم في حوزة الترك يتمتعون بها وبخيراتها (٣) ·

وقد ذكر العبدلي أن الشيخ فضل بن عبد الله العقربي حاكم « بير أحمد » اراد أن يؤمن ناحيته من عدوان الترك ، وقد اتفق مع القائد العثماني على سعيد باشا أن يتعهد له بالامامة مقابل رفع « الراية العثمانية » على حصن

---

(١) العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٣ ·
(٢) العبدلي : المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ·
(٣) الريحاني : المصدر السابق ، ص ٣٦٨ ·

بير أحمد · وقد خفقت راية العثمانيين على دار الشيخ فضل أياما حتى رأتهـا الخيالة الهندية البريطانية فأنزلتها على الفور ، وجاءوا بالشيخ فضل الى عـدن حيث احتج عليه حاكمها لموالاته للترك · غير أن الانجليز أطلقوا سراح الشيخ فضل بعد أن تعهد لهم بعدم رفع راية العثمانيين فى « بير أحمد » · وقد ذهب الشيخ فضل بعد ذلك لمقابلة السلطان عبد الكريم وكان منفعلا مدهوشا حائرا حيث التقى بالعبدلى وسأله الرأى فى هذه المحنة · وقد أوضح العبدلى أنه أجاب على الشيخ فضل بقوله : « هـذه أيام محنتنا ، والصبر حكمة ، فللصبر عاقبة محمودة الأثر · جاء هؤلاء الأتراك من أهالى جبال اليمن متيقنين بعجزهم عن أن يمسوا عدن الحصينة بسوء فلا يقصدون غير أذيتنا فى بلادنا » (١) · والعبدلى يشير فى قوله هذا الى أن الترك كانوا يقصدون من زحفهم فى جنوب اليمن احتلال لحج فقط ، وليس مهاجمة عدن التى كانوا يعلمون بقوة حصانتها ، وبعدم مقدرة قواتهم على اقتحامها ·

على أن الشيخ فضل هذا عندما عاد الى « بير أحمد » فانه لم يســلم من عدوان الترك الذين أرسلوا اليه بلوكين من جنودهم وعددا من أعوانهم قادوه الى سجن لحج ، وأساءوا معاملته فى بادىء الأمر ثم أحسنوا المعاملة ، وقد بقى لديهم أسيرا حتى نهاية الحرب · أما « بير أحمد » فقد ظلت مأوى لجواسيس الأتراك وطلائعهم فى فترة الحرب وذلك لقربها من المراكز البريطانية · وقد دعا والى عدن البريطانى أهالى « بير أحمد » الى الاقامة فى عدن ، والشيخ عثمان ، والمعلى ، بعد أن هدمت « بير أحمد » بناء على أوامره (٢) · وكان والى عدن يهدف من ذلك الى اجتذاب أهالى المنطقة الى جانب الانجليز بعد أن تخلص من « بير أحمد » التى كانت وكرا لجواسيس الترك ومخابراتهم ·

ويمكننا القول بأن الفترة التى أعقبت سيطرة الأتراك العثمانيين على لحج واستيلائهم على مدينة الحوطة عقب معركة « الدكيم » فى ٥ من يوليـو سنة ١٩١٥ م لم تحدث فيها عمليات حربية حاسمة سـوى بعض المعـارك المحلية والغزوات الصغيرة · فالترك لم يحاولوا من جانبهم مهاجمة « الشيخ عثمان » الا فى بداية زحفهم ثم خلدوا الى السكينة بعد أن صدهم الانجليز عنها ، كما لم يحاولوا الهجوم على « عدن » لعلمهم بحصانتها ومنعتها ، ولأن الانجليز كان يمكنهم الحصول على الامدادات اللازمة عن طريق الأسطول البريطانى المحاصر لسواحل اليمن فى ذلك الوقت · أما بالنسبة لموقف الانجليز فانهم لم يروا فى اخراج الترك من لحج فائدة حاسمة لهم فى الحرب العظمى ، وهذا ما أكده

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ·

(٢) العبدلى : المصدر نفسه والصفحة نفسها ·

الجنرال « وليم ولتن » قائد الجيش البريطاني في عدن في المنشور الذي أصدره في مايو سنة ١٩١٦ م ووزعه على نواحي اليمن الجنوبية لتهدئة أهلها وترضيتهم ولتوضيح أسباب تقاعس الانجليز عن مساعدتهم لصد الزحف التركي عـــن بلادهم . فقد جاء في هذا المنشور الذي أورد العبدلي بعض مقتطفاته : « أنــه ليس لضعفنا امتنعنا عن حرب الأتراك الذين في لحج ، ولكن مملكة الدولة الانكليزية واسعة جدا ويلزمنا معاملة الميادين التي فيها العدو واحدا بعد الآخر بالتعاقب بحسب الخطط التي رسمتها الدولة ، فنحن قد استولينا على أرض الكمرون ، وعلى الجزائر الكائنة في البحر الأوقيانوسي ، وعلى أفريقيا الجنوبية الغربية ، والآن نحارب الجرمن في أفريقيا الشرقية ، وعندما ينجز عملنا هناك وسينتهي في مدة أشهر قليلة ، بعد ذلك سيأتي الوقت الذي نفكر فيه بمصير الاتراك في أرض العرب ، وعلى كل حال فلا تكون الموقعة الفاصلة في أرض العرب بل هي في فرنسا » (١) .

كما أورد العبدلي تعليقا (٢) نشرته جريدة « الديلي تيمس » البريطانية في يومي ٢٥ ، ٢٦ من يولية سنة ١٩١٧ م تحت عنوان « أرض حماية لم تحم » وتقصد بها النواحي التســع في جنوب اليمن ؛ وقد شرحت الجريدة جــواب « اللورد كرزن » على سؤال « اللورد لمنجتن » في مجلس العموم البريطاني بشأن عدن على النحو التالي :

« ذكرت الرأي العام أن بندر عدن البحــري المهم الكائن عــلى الطريق الرئيسية البحرية الى الهند واستراليا محصور بالأتراك من الجهة البرية منــذ سنتين . قالت فلا يمكن أن يقال أن رواية حركاتنا العســكرية بقرب عدن أكسبت الجيش البريطاني شهرة أو مجدا ؛ بل بالعكس فانا دحرنا الى حصوننا حيث نقيم الآن ، تاركين جيشا ضعيفا للعدو يطوف في الأرض كيف شاء بين القبائل المشمولة بحماية عدن لأسباب عجزنا عن حمايتهم . فعلى سعيد باشا والى الاتراك في اليمن انحدر من الجبال في شهر يونية سنة ١٩١٥ وقاتل في لحج أقرب نقط الحماية لعدن جزءا من حامية عدن القليلة على مســافة خمسة وعشرين ميلا من حصن عدن ، فاندفعت قواتنا الى الوراء واستولى الأتراك على « الشيخ عثمان » الواقعة على مسافة سبعة أميال من حصن عدن . وفي تلــك الاثناء قتل سلطان لحج الغيور على مصلحة الدولة البريطانية وتخرب جانب من عاصمته الصغيرة ، وبعد مدة قصيرة طردنا الأتراك من « الشيخ عثمان » الى مسافة في البر حيث جمعوا قواهم وتمسكوا بلحج واستداموا يحومون حــول البندر » .

---

(١) العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٢٩ .
(٢) العبدلي : المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

« ذكر اللورد كرزن فى المجلس أن الأتراك قاموا فى الستة الأسابيع الماضية بغزوتين عقيمتين وأنهم لا يستطيعون أن يهددوا عدن تهديدا خطيرا وهى الآن آمنة مطمئنة • وهذه هى الحقيقة » •

« وقال ان غالب القبائل الذين هم تحت الحماية لا يزالون مخلصين لجانب الدولة البريطانية ، فهذه المسألة هى موضع الاستفسار » •

« لماذا لا ينبغى لهم الاخلاص ؟ لأننا بموجب المعاهدات تعهدنا لهم بالحماية ولكنهم تركوا منذ سنتين تحت ضغط الاتراك ، نحن نحجم أن نشير بأى مظاهرة ثانية فى جهة الشرق فى هذا الوقت الضيق ، ولكن الحالة الحاضرة بعدن مخزية ومعيبة ، فالأتراك يسحبون لحانا حيث يشاءون ، وأصوات مدافعهم تسمع الى سطوح مراكب البريد ، فى حال كون مخابرات على سعيد باشا مع دولته مقطوعة ، ولا تصله ذخائر جديدة بسبب الثورة الحجازية ، فهل يمكننا تمزيق جيشه والوفاء بمعاهداتنا مع القبائل • فلولا معارضة اللورد مورلى فى مد سكة حديدية ضيقة الى مسافة ستين ميلا فى بر عدن لأمكن منع العدو عن احتلال أرض الحماية » •

ويوضح هذا التعليق الذى نشرته « الديلى تيمس » أن قسما من الرأى العام البريطانى كان يشعر بالخزى والعار لتخلى قواته فى عدن عن حماية القبائل اليمنية فى النواحى التسع من عدوان الترك برغم المعاهدات التى تعهدت فيها بريطانيا بحمايتهم • كما يبدو من هذا التعليق أن ثمة دعوة قد وجدت فى ذلك الوقت لدى البريطانيين لاخراج قوات سعيد باشا من النواحى « وتمزيق جيشه والوفاء بمعاهداتنا مع القبائل » على حد التعبير الذى ورد بالتعليق المذكور • غير أن الحكومة البريطانية فى ذلك الوقت لم تستجب لهذه الدعوة لعدم اقتناعها بجدوى بذل الجهود فى اخراج العثمانيين من تلك النواحى بالنسبة لترجيح كفتها فى الحرب الكبرى ، بل ان بريطانيا كانت تجد ميادين أخرى عديدة فى تلك الحرب كفيلة بتحقيق أهدافها بهزيمة الامبراطورية العثمانية نفسها وليس بهزيمة احدى حامياتها المعزولة فى أقصى الجنوب اليمنى •

على أن تلك القوة العثمانية التى كان يقودها على سعيد باشا والتى نجحت فى السيطرة على لحج وكادت تطرق أبواب عدن ، كانت السياسة العثمانية تهدف من ورائها الى جانب اشغال الانجليز فى جنوب اليمن عن الميادين الأخرى للحرب الكبرى ، الى ما هو أبعد من ذلك اذا تم النصر لألمانيا وحلفائها ، ذلك بأن تمتد يد الأتراك الى الصومال ومنطقة شرق أفريقيا القريبة من الساحل اليمنى • غير أن على سعيد باشا كان مقتنعا بعدم كفاية القوة العثمانية التى

يقودها ، وعدم مقدرتها حتى على اقتحام عدن الحصينة · وكانت الأنباء تــرد تباعا الى علي سعيد باشا بهزيمة العثمانيين في ميادين العراق والشام الى جانب اخفاق ألمانيا وحلفائها ، مما جعله يؤمن بسوء خاتمة دولته · وقد قال علي سعيد باشا يوما لبعض أصدقائه بعد أن مضى عامان منذ بداية الحــرب « انقطــع الآن رجائي بنصر ألمانيا ، فقد وجدت بريطانيا المدة الكافية لأن تحشد جنودها في ميادين فرنسا » (١) · وكان علي سعيد باشا يرى الأمراض والحميــــات تفتك بجنوده فتكا ذريعا حتى أفنت منهم عددا عظيما وضاقت بهم المقـــابر اللحجية ، مما اضطر الترك الى تشييد مقابر جديدة لقتلاهم في أنحاء البلاد ، وقد دفعته هذه الكوارث الى عدم التفكير في مهاجمة عدن والقيام بمغــــامرة خاسرة ·

موقف حكام النواحي اليمنية المجاورة لعــدن بين العثمانيين وبريطـانيا :

سبق الاشارة الى المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية في مطـلع الحرب العالمية الأولى بعد انضمامها لدول وسط أوربا لاجتذاب الأمراء العرب ليقفوا الى جانبها ضد بريطانيا وحلفائها · وقد عرضنا تلك المحاولات التي تمت مع سلطان لحج علي بن أحمد العبدلي ، وكانت قد تكررت أيضا مع بقية سلاطين ومشايخ النواحي المجاورة لعدن ، الذين كانوا مرتبطين مع بريطانيا بمعاهدات تحالف ، كما كانت تدفع لهم مرتبات شهرية ، وتبدى لهم مظاهــر التبجيــل والاحترام عندما كانوا يقومون بزيارة والى عدن البريطاني · وفي نفس الوقت حاول البريطانيون من جانبهم أن يجتذبوا اليهم سلاطين النواحي ومشايخهــا مؤكدين لهم خطأ دخول الدولة العثمانية تلك الحرب ضدهم ، كما حاولوا أن يقنعوهم بعدم وجود أية أغراض عدائية لدى بريطانيا ضد العرب · وقد أصدر الانجليز منشورا دعائيا بهذا المعنى ــ سبق الاشارة اليه ــ ليؤكدوا احترامهم للأماكن الاسلامية المقدســة · وكان لسلطان لحج دور كبير في اقناع سلاطين النواحي ومشايخها بحسن نية بريطانيا لا سيما وأنه كان يتمتع هــو وأسرته بينهم بمكانة رفيعة وهيبة واحترام · بل كان لصداقة سلطان لحج مع الامام يحيى أبلغ الأثر في تحديد موقف الامام المهادن لبريطانيا · وكان موقف بعض أهالي عدن من الانجليز قد اتصف بالتأييد والمساعدة مما كان له أكبر الأثر في نشر دعاياتهم في النواحي المجاورة ؛ وتأييد كثير من مشايخها وسـلاطينها للسياسة البريطانية · وقد ذكر « جاكوب » أنه ليس أدل على ذلك من مهاجمة

---

(١) العدني : المصدر السابق ، ص ٢٣١ ·

السيد عبد الله عيدروس قاضي عدن وشيخها الأكبر للدولة العثمانية عندما ذكر هذا السيد أن الدولة أقحمت نفسها فى حرب ضد بريطانيا التى وصفها بقوله : « الصديق الحميم للمسلمين ، الصديق الذى طالما قدم المعونة للباب العالى » · كما قال « جاكوب » ان السيد عبد الله عيدروس هذا قد أكد أن حكومة عدن البريطانية « أحسن وأعدل حكومة عملت من أجل الاسلام ، وأنهم (أى أهالى عدن اليمنيين) أصدقاؤها منذ احتلالها لعدن فى سنة ١٨٣٩ م » (١) · وواضح أن التحيز بارز فى رواية « جاكوب » هذه مما يجعلنا نميل الى القول بأن بعض أهالى عدن فقط هم الذين أيدوا هذا الاتجاه ضد دولة الخلافة العثمانية ، وهؤلاء البعض ممن اتفقت مصالحهم الشخصية مع أهواء بريطانيا · ويؤكد ذلك أن بعض سلاطين النواحى الجنوبية فى اليمن ومشايخها سرعان ما غيروا موقفهم هذا من بريطانيا بعد أن دخلوا تحت طائلة الترك الذين جثمت قواتهم العثمانية فوق أراضيهم · بينما كان موقف الانجليز متميعا سلبيا ، ولم يقدموا لأهالى البلاد المساعدات اللازمة فى الوقت المناسب لصد هذا العدوان برغم اتفاقات الحماية المعقودة معهم · وقد تكون بريطانيا قد فوجئت بالهجوم التركى على لحج عندما تعهدت لسلاطين النواحى بالحماية بينما لم تكن قواتها فى عدان تكفى للقيام بالتزاماتها ازاء تلك التعهدات ، ولا أدل على عجز قوات بريطانيا عن الوفاء بالتزاماتها من ذلك الاخفاق الذى واجهته فى « الشيخ عثمان » عندما تراجعت أمام القوات العثمانية ، ولم تتمكن من استرجاع « الشيخ عثمان » الا بعد أن وصلت اليها النجدة من خارج عدن ·

وقد حاول الانجليز أن يبرروا عجزهم هذا عندما ذكر قائدهم بأنهم لم يكونوا مهتمين بميدان الجنوب العربى لقلة تأثيره فى ترجيح كفتهم فى الحرب الكبرى وأنهم شغلوا بالميادين الحربية الأخرى ذات الآثار الحاسمة فى تلك الحرب · وقد رأى الانجليز أن الميادين الصغيرة يمكن أن يعالج أمرها فيما بعد ، ولا يجب أن تبذل فيها جهود لن تعود عليهم بفوائد كبيرة في ذلك الوقت · وكان الانجليز مطمئنين لعدم خطورة مثل هذه الميادين الصغيرة لأنهم كانوا يسيطرون على البحار ، كما كانوا واثقين من حصانة عدن وعدم مقدرة القوات العثمانية المهاجمة على اقتحامها ، هذا فضلا عن أنهم رأوا العثمانيين فى اليمن وقد أصبحوا محصورين من قوات بريطانيا وأسطولها وبين حلفائها فى الحجاز ونجد · بل ان الانجليز كانت لديهم الرغبة فى الاجهاز على قوة الترك المناوئة لهم فى جنوب اليمن (٢) ، غير أن انشغالهم فى ذلك الوقت أدى الى ارجاء

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 161—162.

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ·

تصفيتهم للنفوذ التركي في المنطقة ، حتى يطمئنوا أولا الى احراز النصر في الميادين الحاسمة للحرب الكبرى ؛ مما يجعل هذه التصفية نتيجة حتمية لانتصار الحلفاء على تركيا وحلفائها ٠

غير أن سلاطين النواحي الجنوبية في اليمن ومشايخها لم يكونوا جميعهم على علم كامل وفهم عميق لأبعاد السياسة البريطانية ، وقد فوجئوا بالترك يستولون على بلادهم ويسيطرون على مقدراتهم بينما رأوا بريطانيا تقف موقفا سلبيا متخاذلا متناسية تعهداتها لهم بالحماية والمساعدة ٠ فكان طبيعيـــا أن يترتب على ذلك كما قال العبدلي أن « اضطر بعض أمراء المحميات مثل الأمير نصر ، والأمير علي بن مانع الحوشبي الى منافقة الأتراك والتحالف معهم وذلك عندما خذلتهم بريطانيا ، وبقى الباقي على ولائه ، وبخاصة أمير لحج » (١) ٠ ولعل كل من بقى على ولائه للانجليز كان قد تمكن من الفرار من قبضة الترك أو كان بعيدا عن الوقوع تحت سيطرتهم ، أو لعله كان قد لجأ الى الانجليز في عدن حيث كانوا يغرونه بالمشاهرات المالية وبالألقاب السامية ومظاهر الاحترام والتكريم ، وبمنحه الأمل في استرداد بلاده بعد طرد الترك عندما تحين الفرص المناسبة ؛ الأمر الذى حدث فعلا مع سلطان لحج وأقاربه من أمراء العبـادلة الذين لجئوا الى حلفائهم الانجليز في عدن ٠

ويبرر العبدلي موقف الأمير نصر أمير الحواشب بقوله : « الذين قبلوا يد الأتراك كالأمير نصر على مانع الحوشبي فانما أخذوا بالمثل ٠٠ يـد لا تقدر تعصرها بوسها ٠٠ وقد كان الأمير نصر وعلى مانع الحوشبي يومئذ في حالة لا يحسدان عليها ؛ وما عاونا الأتراك عن طيب خاطر وانما ٠٠ اذا عكرت العيش عصرت ٠٠ وبلا شك فقد نال الأمير نصر من الأتراك مشاق كبيرة ؛ ولكنه عندما يئس من مساعدة دولة بريطانيا ؛ وعرف أنه ترك للأعداء ؛ ألزمه الضعف بأن ينافق الأتراك ، الذين أظهروا أنفسهم في بداية الأمـر من خيار المسلمين ، وتحايلوا بالترغيب والترهيب على كثير من الناس حتى قضوا منهم وطرا ٠ فلما طلب السلطان على مانع من على سعيد باشا (قائد القوات العثمانية) الوفاء بالوعد بخصوص أرض « زايدة » أجابه بأنه قد تحقق لديه ثبوت ملكها للعبادلة وليس في وسعه أن يملكها للحواشب ، فقنع الســـلطان على مانع من الغنيمة بالاياب » (٢) ٠

ومن الملاحظ أن العبدلي بعد أن برر موقف الأميرين اللذين انحازا الى جانب الترك عندما يئسا من حماية الانجليز وقد تركوهما فريسة في يد الأعداء ،

---

(١) العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢١٣ ٠
(٢) العبدلي : المصدر السابق ، ص ٢٣١ ٠

فانه حاول أن يؤكد أن الترك ليسوا أفضل من الانجليز وليسوا أوفى منهم فى الالتزام بالعهود ، عندما أوضح كيف تهرب على سعيد باشا من تعهده كسلطان الحواشب بتمليكه أرض « زايدة » ، بحجة ملكيتها أصلا للعبادلة الذين غنم الترك جميع أملاكهم بحق الفتح ، وبخاصة بعد أن لاذوا بالفرار ولجئوا الى حلفائهم الانجليز فى عدن ٠

ولم يقتصر الأمر على هذين الأميرين ، بل ان السلطان الفضلى أذعن كذلك للترك وعاد الى لحج بعد أن رفض الانجليز امداده بالسلاح ، كما فعلت ذلك أيضا عشيرة يافع ٠ بل ان أمير الضالع هاجم الانجليز بجرأة عندما رفضوا مساعدته لاسترداد بلاده ، وأعلن انضمامه للترك وأصدر منشورا فى ديسمبر سنة ١٩١٥ م أوضح فيه أن « الحكومة (العثمانية) الاسلامية هى حكومته ، وأن السلطان (العثمانى) هو خليفته وأنه سيطيع من (كانت) طاعته من طاعة الله ورسوله » ٠ وقد حاول على سعيد باشا أن يكافىء سلطان الحواشب على مانع بأن نصبه سلطانا على لحج ، ولكن الأخير آثر الرجوع الى عاصمته « المسيمير » دون أن يشترك مع الترك بدور معين ٠ بينما أعلن زميله الأمير نصر أن مبدأه هو مسايرة الاتجاه السائد متمثلا بالمثل القائل « أينما دارت الزجاجة درنا معها » وكان ذلك نتيجة لاحساسه بوطأة الحكم التركى (١) ، وبعدم مقدرته على مواجهته والتصدى لمقاومته ، فلم يجد وسيلة أخرى سوى الاذعان والاستسلام ٠

ومن ناحية أخرى فان بعض السلاطين والشيوخ فى النواحى الجنوبية لليمن التى لم تخضع لسيطرة العثمانيين ، ظلوا على ولائهم للانجليز ، أمثال السلطان العوذلى الذى أبدى اعجابه بالمنشور الذى أصدرته حكومة عدن مظهرة احترامها للامام ، وقد أكد هذا السلطان أن الانجليز هم أفضل الأصدقاء بالنسبة للعرب ، ومن الواضح أن دعاية الانجليز وأموالهم قد لعبت دورها فى اصدار مثل هذا التصريح ٠ بل ان قاضى « بيحان » صرح فى المساجد والأسواق العامة بأن العرب جميعا يدينون لبريطانيا وأن الواجب عليهم تقديم المساعدات الممكنة للانجليز ٠ كما بقيت قبائل كثيرة موالية لسلطان لحج المقيم فى عدن بين حلفائه الانجليز على الرغم من الدعايات التى كان يبثها الترك ؛ وتحايلهم بالترغيب والترهيب ؛ ومحاولاتهم الافادة من الرابطة الدينية لجذب القبائل اليمنية الى جانبهم ٠ ومن بين هذه القبائل « يافع الموسطة » و « الضبى » و « العوالق » وقد أرسل شيوخها كتبا عديدة الى السلطان عبد الكريم فى عدن تعرض عليه كل امكاناتها للمساعدة فى طرد الترك من لحج ونواحيها ٠ غير أن

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 170.

السلطان عبد الكريم لم يستطع القيام بأية محاولات لاجلاء الترك عن بلاده ، لأن حليفته بريطانيا كانت تحجم عن ذلك لانشغالها بالميادين ذات النتائج الحاسمة فى الحرب الكبرى على النحو الذى سبق أن أوضحناه ٠

وتجدر الاشارة الى أن الادريسى فى عسير ضايقه كثيرا انتصار الترك فى لحج لأنه كان يخشى أن يؤدى ذلك الى انتصارهم ورفع معنوياتهم فى الجبهة الشمالية فى اليمن حيث يقوم بدوره فى محاربتهم ٠ وقد وصف موقف انجلترا السلبى ازاء تحركات الترك ونجاحهم فى لحج بأنه كان تراخيا من الانجليز وليس ضعفا منهم فقد كان يعلم أن لديهم من القوة فى عدن ما يمكنهم من صد الترك ووقف حركاتهم ٠ بل ان شيخا « يافعيا » وجه النصح للانجليز بضرورة التحرك لاجبار الترك على الخروج من لحج حتى لا تفقد بريطانيا ثقة العرب فيها ٠ هذا فضلا عن أن المبعوث المكى الذى قام بزيارة عدن فى نوفمبر سنة ١٩١٦ م عبر عن ضيقه وأسفه لعدم قيام بريطانيا بالدفاع عن لحج ضد عدوان الترك ، والتمس من الانجليز أن يقوموا بعمل فعال لانقاذ لحج مما يجتذب اليهم قلوب العرب وتأييدهم ويشكل مواجهة ايجابية لمزاعم الدعاية التركية الألمانية (١) ، ولا شك أن هذا المبعوث كان يهدف بذلك الى خدمة الثورة العربية التى تزعمها الشريف حسين ضد الترك فى الحجاز ٠ وكانت هزيمة الانجليز وسلبيتهم فى الدفاع عن المناطق العربية التى تعهدوا بحمايتها كفيلة بأن تضعف ثقة العرب فى بريطانيا التى اعتمد الحسين على مساندتها له فى ثورته ٠ ولهذا كان الحسين بطبيعة الحال يخشى أن يؤدى فقدان الثقة فى بريطانيا الى عدم تأييد العرب لثورته ضد الدولة العثمانية ، والى فقدان الأمل فى كسب أنصار جدد (٢) ، فى الوقت الذى كانت حملات الدعاية التركية الألمانية قد استغلت هذا الموقف لصالحها ضد الحسين وبريطانيا أيما استغلال ٠

تكريم الانجليز لحلفائهم العبادلة حكام لحج اللاجئين اليهم فى عدن :

أشرنا فيما سبق الى أن السلطان عبد الكريم سلطان لحج خلف ابن عمه الراحل السلطان على بن أحمد الذى توفى متأثرا بجراحه بعد أن التجأ الى حلفائه الانجليز فى عدن عقب اقتحام الترك لبلاده ٠ وقد أقام السلطان الجديد وأسرة لحج المالكة فى عدن مدة الحرب كلها وهم يستعينون على الدهر بما

---

(١) Jacob, H.F. : Op. cit., pp. 171—172.

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ٠

كانت تدفعه حكومة عدن البريطانية لكل منهم (١) ٠ وقد حرصت بريطانيا على ارضاء سلطان لحج واشعاره بالتكريم فى أثناء وجوده فى عدن ، وذلك لتحافظ على ولاء العبادلة وأتباعهم فى نواحى اليمن الجنوبية وحتى تحصل على مساندتهم دائما لها ضد النفوذ العثمانى ٠ وقد أقام الانجليز فى عدن فى سنة ١٩١٧ م (٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٣٥ هـ) حفلا كبيرا دعى اليه عدد من العسكريين والمدنيين وقناصل الدول وأعيان عدن لتكريم السلطان عبد الكريم واهدائه « حسام الشرف » من « اللورد ويلنجتون » والى ولاة بومباى ٠ وألقى « الجنرال ستيورات Stewart » والى عدن كلمة أشاد فيها بالخدمات الجليلة التى قدمتها للانجليز أسرة العبادلة خلال السبعين سنة الماضية وخص بالذكر السلطان فضل بن على ، والسلطان أحمد فضل ، والسلطان على بن أحمد بن على ، ثم السلطان عبد الكريم بن فضل بن على نفسه ٠ وقال عن السلطان عبد الكريم : « ان أعماله الشاقة فى مراسلاته مع أهل البر قد حفظت جدا مصالح كلا الطرفين (يقصد العبادلة والانجليز) وقد أعاننا فى تشكيل شرذمة من رجاله الذين هم الآن يشاركون فى العمل ضد العدو (الأتراك العثمانيين) » ٠ وقبل أن يقدم « ستيورات » الى السلطان عبد الكريم السيف المهدى اليه قال : « انى أنا وأسلافى وكل من ائتلف مع عائلتكم الكريمة بهذا المقام مرتاحون جدا لاقرار الامتيازات الممنوحة لجنابكم ، ونسأل الله أن يرينا عاجلا رجوعكم الى مملكتكم (سلطنة لحج) التى سيكون غيابكم عنها مؤقتا » (٢) ٠

وقد رأيت أن أورد فيما يلى نص الخطاب الذى ألقاه السلطان عبد الكريم سلطان لحج ــ ونشره العبدلى ــ ردا على « الجنرال ستيورات » فى هذا الحفل الذى أقامه الانجليز فى عدن لتكريمه ، لما فيه من توضيح لموقف العبادلة من بريطانيا وعدائهم المشترك للأتراك العثمانيين فى ذلك الوقت ٠ فقد قال السلطان عبد الكريم :

« أيها الجنرال ستيورات والجنرال دولتن والكولونيل جيكب والضباط والأعيان الحاضرون ٠ انى لا أدرى كيف أشكر سيادة والى بمبى اللورد ويلنجدن شكرا كافيا على اهدائه حسام الشرف الى ، بل على اظهار تحننه نحوى ٠ وانى كذلك أظهر ثنائى لكم يا حضرة الجنرال ستيوارت على ذكركم بالاطناب الخدمات الصادرة من أسلافى فى الماضى والعمل الحقير الذى صدر منى فى أثناء اقامتى الوقتية ها هنا (يقصد فى عدن) ٠ فانى حقيقة مغمور بالاحسان الذى

---

(١) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ ٠
(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨ ٠

بذلتموه وأسلافكم وصديقي الكولونيل جيكب ، فالجميع قد قام بالممكن لتطييب خواطرنا في ملجئنا ، وانى لم أتوقع مثل هـذه الهدية الكريمـة من الدولة (بريطانيا) مع أنه خطر ببالى أن أعمل القليل الذى فى استطاعتى عملـه لمساعدة الدولة وانه ليسوؤنى جدا حالة كونى فى الحالة التى أنا فيها مبعد عن وطنى عن قبائلى لست قادرا على القيام بما هو فوق ذلك ، ولكنى أشعر بتسلية عظيمة لأن الدولة وجنابكم استحسنتم وفائى وان ذلك ارث ورثته عن عائلتى . وانى أرجو بمعاونة الله الكريم أن أتمكن من اقامة البراهين الدائمة على الاخلاص الذاتى وانى لا أشك فى أن هذه الحرب الهائلة ستنتهى بالظفـر لجلالة الملك الامبراطور (ملك انجلترا) وحلفائه الأبطال وأن الدول ذات المقاصد السيئة (يقصد الدولة العثمانية وحلفائها) ستنال العقاب الذى تستحقه ، وأشـكر جميع الحاضرين لتشريفهم هذا المحفل » (١) .

بل ان السلطان عبد الكريم سافر من عدن الى مصر فى سنة ١٩١٨ م (جمادى الأولى سنة ١٣٣٦ هـ) فى الوقت الذى كانت فيه الحماية البريطانية مفروضة عليها وذلك بدعوة من « نائب ملك بريطانيا العظمى الذى حضر الى مصر خصيصا من قبل ملك بريطانيا ليقلد رجال دولته وأصدقاءها الأوسـمة والنياشين . وقد رافق سلطان لحج أخوه الصنو محسن فضل بن على ، وابن عمه أحمد منصر محسن ، والشيخ محمد فضل العزيبى ، والأمير صالح بن سعيد ابن سالم ، كما رافقهم « الميجر برنارد رايـلى Bernard Reilly » ــ الـذى أصبح والبا لعدن فيما بعد ــ نائبا عن حكومة عدن . وقـد أقـام السلطان عبد الكريم فى مصر أياما محوطا بكل اكبار واكرام ، ودعى لمقابلة نائب ملك بريطانيا فى دار النيابة البريطانية ، كما دعى مرة أخرى للاحتفال بتقليـده نيشان امبراطورية الهند من الدرجة الثانية K.C.I.E. مع لقب Sir وقد أقيمت مأدبة تكريما للسلطان عبد الكريم فى دار النيابـة البريطـانيـة حضرها عظماء مصر وسلطانها أحمد فؤاد بن اسماعيل ، ورجال دولته ، ونائب ملك بريطانيا حينذاك و « المجير جنرال ستيوارت » والى عدن و « الميجر ايلى » . كما قابل السلطان عبد الكريم السلطان أحمـد فؤاد سلطان مصر فى قـصر عابدين حيث أكرم وفادته (٢) . وقد ذكر العبدلى أنه فى أثناء تلك المقابلات أوضح السلطان عبد الكريم للمعتمد البريطانى وجوب ضم القسم الشـافعى من اليمن الى القسم الزيدى تحت سيادة الامام يحيى ، وأن بعض أولى الرأى

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ .

(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ .

من العرب والانجليز كانوا يميلون فى ذلك الوقت الى عدم ضم القسم الشافعى من اليمن الى حكم امام صنعاء ، ويفضلون مساعدة الشوافع على الاستقلال التام عن السلطة الزيدية • وأضاف العبدلى قائلا أن السلطان عبـد الكريم وأخاه الصنو محسن كانا من ألد خصوم هذه الفكرة (فكرة استقلال القسم الشافعى عن القسم الزيدى) احتفاظا بوحدة اليمن تحت سلطة واحدة ، هى سلطة امام صنعاء ، وانه لولا ما قاما به من الجهود الجدية لكان للشوافع دولة مستقلة داخل اليمن منفصلة عن حكم الامام يحيى بعد جلاء العثمانيين عن البلاد فى سـنة ١٩١٨ م (١) • ولعل هذا يوضح موقف سلاطين لحج من قضـية الوحـدة اليمنية ، تلك القضية التى ستثار عقب جلاء الترك عن اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى •

العلاقة بين الترك فى لحج والانجليز فى عدن فى أثنـاء الفترة الأخيرة من الحرب العالميـة الأولى :

بينما كانت الأسرة المالكة اللحجية وعلى رأسها السلطان عبد الكريم تقيم فى عدن لاجئة لدى حلفائهـا الانجليز • فان الأتراك كانوا يتمتعون فى لحج بأملاك العبادلة وقصورهم وبخيرات البلاد ومحاصيلها التى جعلتهم فى غنى عن تلقى مواد التموين من مركز القيـادة العثمانية فى داخل اليمن • بل من الفريد فعلا أن يصبح الترك بعد اسـتقرارهم فى لحج على شىء من اليسر وجانب من الأمن والاطمئنـان ، وأن تنشـأ بينهم وبين الانجليز فى جنوب اليمن علاقات طيبة يستغرب قيام مثلها فى أيام الحرب بين جانبين متحاربين (٢) •

وأسـباب ذلك ترجع فى الدرجة الأولى الى بعد الفريقين عن ساحة الحرب الكبرى وعن مركز حكومتيهمـا ، فى الوقت الذى كان الجنود والضـباط من الجانبين يسمعون فيـه بويلات الحـرب وأهوالها ويشكرون العزة الالهية التى أبعدتهم عن تلك الويلات والأهوال مسـافات بعيدة • وعندما اطمأن الانجليز على مركزهم فى عدن و « الشيخ عثمان » فانهم تركوا لحج للأتراك ، كما أن الترك عندما أمنوا على لحج ونواحيها من محاولات بريطانيا لاستردادهـا فانهم تركوا عدن للانجليز دون احداث أية مناوشات • وبهذا قنع كل فريق بما ملكت يده بصفة مؤقتة حتى تنجلى النتائج النهائية للحرب الكبرى ، وقد كللت هذه القناعة بحرص كل جانب منهما على اظهـار المودة والتعاون للجانب الآخر • ويبدو أن تجمد الموقف فى جنوب اليمن وبخاصة فى السـنتين الأخيرتين من سنى الحرب

---

(١) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ •
(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٦٨ •

العالمية الأولى قد دفع الترك والانجليز فى المنطقـــة الى الانصراف للعمل من أجل مطالب الحياة الضرورية والحصول على مستلزماتها · ففى لحج تعـاون الأهالى مع الجنود الترك فى فلاحة الأرض فازدهرت بالاخضرار والثمـــار تلك البقعة الخصبة ولا سيما وادى « دبن » فعاد اليسر الى لحج بعد نكبتها فى بداية الفتح التركى (١) · كما أن القائد العثمانى على سعيد باشا الذى كان قد أمر بمنع دخول القبائل اليمنية الى عدن فى بداية الفتح المذكور عاد فسمح بمرور القوافل بعـد أن اكتفى بفرض ضرائب انتقال ذكر عنهـا العبدلى أنها كانت « ضرائب فادحة على البضـائع الخارجة من لحج » (٢) ، وكان الانجليز يحرصون على ارسال البضائع المختلفة من عدن الى بعض القبائل المجاورة للمحافظة على ولائهـا لهم وعدم التحول عنهم الى جانب الترك ، وان كان « جاكوب » قد عبر عن دوافع بريطانيا فى تسيير قوافل البضائع من عدن الى القبائل المجاورة بقوله انها كانت « من أجل مصالح أصدقائنا الذين يعتمدون على عدن فى الحصول على احتياجاتهم حتى لا يصابوا بكارثة » (٣) · على أن جانبا كبيرا من تلك البضائع الواردة من عـدن كان يصـل الى يد الأتراك المعسـكرين فى لحج ويفى بنسبة كبيرة من احتياجاتهم الضرورية (٤) ·

ولما كانت عدن الواقعة فى فوهة بركان لا يرى فيها ولا من حولها ما توفر فى لحج من مزارع خضراء ، فقـد رأى الانجليز كذلك – وأحوالهـم فى عـدن متشابهة مع أحـوال الترك فى لحج من ناحية العزلة عن مركزى حكومتيهما فى أثنـاء فترة الحرب بظروفها الصعبة – أنه لا مانع لديهم من تبادل الحاجات الضرورية مع الترك طالما أن كلا الجانبين فى حاجة الى ما لدى الآخر من امكانات · وهكذا بدأ التعاون بين الترك والانجليز فى جنوب اليمن ، فنقلت كميات من البقول من الانتاج الزراعى فى لحج الى عدن التى أرسلت بدورها الى الترك الأرز والسكر والخمور · ولعل الريحانى قد بالغ الى حد ما فى تقدير هذا التعاون عندما ذكر أنه « بينما كانت رحى الحرب تطحن الانسانية فى شمالى فرنسة وتملأ الأرض هولا وقبورا ، كان الترك والانجليز فى هذه الزاوية المباركة من اليمن السعيد يتبادلان المعروف والاحسان · وكان للقائد الجركسى سعيد باشا الفضل الأكبر فى ذلك بشهادة الانجليز أنفسهم · أما العرب فلا يزالون يذكرونه حتى اليوم بالفخر والاعجاب » · اذ لا يخفى على أحد أن غرض الطرفين من هذا التعاون الى جانب توفير الاحتياجات اللازمة للجنود التى تخفف عليهم وطأة الحرب وملل الترقب والانتظـار ، هو الحصول على معلومات عسكرية مفيدة بشأن الامكانات

---

(١) الريحانى : المصدر السابق ، ص ٣٦٩ ·
(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣١ ·
(٣) Jacob, H. F. : Op. cit., p. 169.
(٤) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٣١ ·

الحربية للجانبين من حيث أعداد الجنود وأسلحتهم وخططهم وتحركاتهم(١) حتى لا يأخذ أحدهما الآخر على غرة اذا وردت اليه أوامر مفاجئة من حكومته بالهجوم ٠ وكان رجال القوافل يقومون بمهمة التجسس والمخابرات خير قيام نتيجة لانتقالهم الدائم وأسفارهم المستمرة بين منطقتى نفوذ الترك والانجليز فى جنوب اليمن ٠

وعلى أية حال فان ذلك التعاون الذى حدث بين قوات الترك فى لحج وقوات الانجليز فى عدن والذى استفاد منه الجانبان اقتصاديا وعسـكريا وكانت قد فرضته طبيعة المنطقة وانعزالها عن الميادين الأخرى للحرب العالمية الأولى كما هيـأته ظروف العامين الأخيرين من أعوام الحرب والجمود الذى اعترى الموقف فى تلك المنطقة ، فان ذلك التعاون ــ كمـا يقول الريحانى وان كان تعبيره هذه المرة أيضـا مبالغا فيه نسبيا ــ كان أشـبه بصلح عقد بين الحلفاء والدول الوسطى أو بالأحرى بين ممثليهم فى عدن وفى لحج قبل انتهاء الحرب الكبرى الأولى بعامين كاملين (٢) ٠

رابعا ــ جلاء العثمانيين عن اليمن
فى نهاية الحرب العالمية الأولى

انتهاء الحرب العالمية الأولى ووصول أنباء الهدنة الى اليمن فى سنة ١٩١٨ :

استمرت الأوضاع فى اليمن قائمة على ما هى عليه فى العامين الأخيرين من أعوام الحرب العالمية الأولى دون حدوث تغيرات ظاهرة ٠ فالامام يحيى كان معتزلا السياسة والحكم مقيما فى جبال « شهارة » فى وسط اليمن ومتمسكا بالحيـاد بين القوى المتصارعة حينذاك ٠ بينما كان الادريسى فى عسير والمخلاف السليمانى يتلقى المعونة والمساعدة من الانجليز الذين كان أسطولهم يحاصر السواحل اليمنية ويدعم تحركات الأدارسة فى المنطقة السـاحلية الشمالية ، هذا فى الوقت الذى كان فيه سلطان لحج عبد الكريم ومعظم أفراد أسرته يقيمون فى ضيافة حاكم عدن البريطـانى الذى كان يحـاول بدوره اجتذاب قبائل النواحى الجنوبية من اليمن لمناوأة الأتراك المعسـكرين على مقربة منه فى لحج ٠ وكان الوالى العثمانى محمود نديم بك مقيما فى صنعاء عاصمة الولاية بينما كان على سعيد باشا قائد الجيوش العثمانية المحتلة مقيما فى لحج وكان الأتراك يسيطرون على البلاد اليمنية الواقعة من لحج حتى صنعاء ومن اللحية على الساحل حتى المخـا ٠ أما اليمنيون من شـوافع وزيديين « فقد كانوا على الجملة قانعين بتلك الحال ، راضين عن الترك وسلطانهم يومئذ المالى » (٣) ٠ ولم تطرأ على تلك الأوضاع القائمة فى اليمن فى

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢١٠ ٠

(٢) الريحانى : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ ٠

(٣) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٥ ٠

ذلك الوقت تغيرات ظاهرة الا فى أعقاب اعلان هدنة « موندروس Mondrus » فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩١٨ م بعد أن خرجت الامبرطورية العثمانية من الحرب العالمية الأولى مندحرة واضطر الترك الى توقيع تلك الهدنة مع الحلفاء . وقد أملى الحلفاء المنتصرون شروطهم على الترك مثل فتح الدردنيل والبسفور ، ونزع سلاح الجيش التركى ، وتسليم البوارج الحربية التركية ، واســتعمال بواخر الحلفاء للموانى التركية ، واستسلام الحاميات التركية فى الحجاز وعسير واليمن وسوريا والعراق واستسلام الموانى التركية فى شمال أفريقيا (١) .

وقد ذكر العبدلى أنه قد شاع فى عدن — حيث كان يقيم مع بقية أفراد أسرة العبادلة حكام لحج — ظهر يوم ٣١ من أكتوبر سنة ١٩١٨ م أن الهدنة قد عقدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا وحلفائها وأن تلك الاشاعة تحققت فى مساء ذلك اليوم، ثم أوضح العبدلى انه فى صباح اليوم التالى أرسل السلطان عبد الكريم سلطان لحج المقيم فى عدن كتابا الى والى عدن البريطانى « الجنرل ســتيوارت » جاء فيه « اننى فى قلق عظيم منذ البارحة لعدم اشعارى بكيفية قبول الهدنة مع بقاء بلادنا تحت يد الأعداء » . اذ كان من الطبيعى أن يخشى سلطان لحج أن ينتهى النزاع بين الدولة العثمانية وبين بريطانيا وحلفائها دون أن يسترد بلاده التى سلبت منه نتيجة لتحالفه مع الانجليز وحلفائها ومعاداته للدولة العثمانية ، وكان يخشى أن تتخلى عنه بريطانيا أو تتأخر عن مساعدته لاستعادة بلاده كما تركت سلفه من قبل يقع فريسة لهجوم الترك وعدوانهم . غير أن والى عدن البريطانى حرص على تدارك الأمر حتى لا يفقد سلطان لحج نهائيا ثقته ببريطانيا فأرسل اليه خطابا شخصيا نشره العبدلى وكان مضمونه على النحو التالى :

« ان الذى بلغنى رسميا هو أن الهدنة عقدت أمس بين تركيا وبريطانيا وحلفائها ولم أتلق أدنى تفصيل ، انما مما لا ريب فيه أن معنى الهدنة هو أن تركيا قبلت جميع شروط دولتنا . وفى تلغرافات اليوم العمومية أن تركيا سلمت بلا قيد ولا شرط . وانى على يقين من أن جنابكم ستكونون قابضين على زمام مملكتكم فى أقرب وقت » (٢) .

كما أن « الجنرال ستيوارت » والى عدن أرسل خبر الهدنة رسميا الى على سعيد باشا قائد القوات العثمانية المعســكرة فى لحج مع أحد أفراد أسرة العبادلة حكام لحج وهو عبد الله بن على بن أحمد البان . وقد قبض الأتراك على هذا الرسول واحتجزوه يوما ثم سمحوا له بالوصول الى على سعيد باشا واخباره بنبأ الهدنة بصفة رسمية (٣) .

---

(١) فاضل حسين (دكتور) : محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية ، ص ٩ .
(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤١ .
(٣) العبدلى : المصدر نفسه والصفحة نفسها .

وقد تولى أيضا « الكولونيل هوم » حاكم ميون البريطانى ابلاغ حقى بك قومندان باب المندب ما ترجمته من الأصل التركى المنشور بكتاب العبدلى:

« ان الهدنة عقدت بين الدولة العثمانية ودولة الانكليز وحلفائها وقد أعلنت الكيفية الى جميع الجهات بتوقيف المحاربة ٠ ونظرا لأحكام هذا التلغراف فان الصلح سيكون فى أقرب وقت حسب ظنى وتخمينى ، فبالطبع أن وقوعها انما لأجل اجراء المذاكرات الصلحية خاصة ، وانى أعرض هذا التلغراف مع ابرازى الود لصميم لكم واننى بكل سرور سأقبل كل من يرغب الوصول من ضباطكم الى ميون بالصورة الودية وسيعاملون أحسن معاملة » (١)٠

وقد رفع قومندان باب المندب هذا الاخطار الوارد من حاكم جزيرة ميون البريطانى فى حينه الى سعيد باشا قومندان لحج ليحاط به علما وليقرر التصرف اللازم تبعا لما يراه ٠ وهكذا انتشر نبأ الهدنة فى اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى ٠

موقف العثمانيين فى لحج فى أعقاب هدنة موندروس فى سنة ١٩١٨ م :

بادر القائد العثمانى على سعيد باشا بسرعة الرد على خطاب حاكم جزيرة ميون البريطانى الذى أخطره فيه بنبأ عقد الهدنة عن طريق قومندان باب المندب بخطاب عبر فيه عن سروره واغتباطه بوصول تلك الأنباء (٢) ٠ ويتضح من الخطاب المذكور أن على سعيد باشا ارتضى الاذعان للأمر الواقع بعد أن قبلت الدولة العثمانية الشروط التى فرضها عليها الحلفاء لوقف القتال فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٩١٨ م ، بعد الضربات القاسية التى واجهت القوات العثمانية فى سوريا والعراق وبعد انتصارات الحلفاء المتتالية فى جميع الميادين ٠ ويبدو أن على سعيد باشا كان موقنا بسوء خاتمة ألمانيا وحلفائها ، وبأن الهزيمة بالتالى ستلحق بدولته وستؤدى الى انحسار نفوذها عن ممتلكاتها العربية ومن بينها اليمن فى أقصى الجنوب ٠ وكانت الأخبار تصل اليه تباعا عن طريق عدن ، مما جعله يستجيب على الفور للأمر الواقع بمجرد اخطاره بعقد الهدنة ٠ كما أن على سعيد باشا لم يكن له أغراض شخصية توحى اليه بالبقاء فى اليمن سوى خدمة دولته والقيام بواجبه العسكرى ، وقد رأى أنه استكمالا للقيام بواجبه أن يعاون دولته بالاذعان لأوامرها وتنفيذ تعهداتها وذلك باتخاذ الخطوات اللازمة نحو الانسحاب من اليمن والجلاء عنها تبعا لشروط الهدنة ٠ ولعل على سعيد باشا كان يدرك أن احتفاظه بلحج والتصدى لمقاومة جيوش الخلفاء التى انتصرت فى جميع الميادين الكبرى سينتهى حتما باكراهه على التسليم أو اخراجه من

(١) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ ٠

(٢) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، (انظر ملحق رقم ١٧) ٠

لحج مشيعا بفضيحة الهزيمة ، ولهذا لم يتردد فى قبول أمر الجلاء عن لحج والتسليم لأقرب وال انجليزى تبعا للأوامر التى وصلت اليه من أحمد عزت باشا ، التى أكد فيها غاية التأكيد أن الهلاك محقق للقوات العثمانية اذا تباطأت فى التسليم للحلفاء (١) •

وهكذا توجه على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج تجاه عدن حيث قابل واليها البريطانى وتحقق من وقوع الهدنة وهزيمة دولته فسلم نفسه وقواته التى بلغت ألف جندى تقريبا الى الانجليز • وقد استقبل الانجليز على سعيد باشا فى عدن استقبالا طيبا كان مبعثه تلك العلاقات الطيبة التى قامت بين الجانبين التركى والبريطانى فى جنوب اليمن فى أثناء العامين الأخيرين من سنى الحرب التى سبق أن أشرت اليها مما جعل أمين الريحانى يقول : « ولما أعلنت الهدنة دخل على سعيد باشا الى عدن ليسلم سيفه الى الانكليز ، فاستقبل فيها استقبالا جميلا • دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور » (٢) •

كما أشار « جاكوب » المعاون الأول لوالى عدن البريطانى فى كتابه الى كيفية استقبال على سعيد باشا فى عدن وامتدح شخصيته على الرغم من العداء العسكرى بينهما بقوله : « وقد دخل على سعيد باشا عدن دخول المنتصر ، فقد قابلته الجماهير هاتفة له ، وذلك لأنه حارب بيدين نظيفتين • وكان جنديا ممتازا ، وكذلك اداريا من الدرجة الأولى • وقد أكسبته شخصيته عند زحفه الى الجنوب (تجاه عدن) كثيرا من الأصدقاء » (٣) • وقبل أن ينسحب على سعيد باشا من لحج رأى أن عملية الانسحاب هذه سوف تحمله تكاليف كثيرة مما جعله يفكر فى الحصول على مساعدات مالية فأرسل برقية تعبر عن غرضه هذا الى قائمقام الحجرية اليمنى عبد الوهاب نعمان بك فى ٤ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م (٤) •

ويلاحظ أن على سعيد باشا فى تلك البرقية حاول أن يؤكد نبأ هزيمة الدولة العثمانية أمام قوى الحلفاء ، ويرجع أسبابها الى قيام الثورة العربية ضد العثمانيين فى الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق (٥) • غير أن هذا ـ كما هو معروف ـ لم يكن السبب الوحيد برغم أهميته فى هزيمة الترك ، بل ان هناك أسبابا عديدة أدت فى النهاية الى تلك الهزيمة • ولكن على سعيد باشا أشار

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٢ •

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ص ٣٦٩ •

(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 182.

(٤) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ، (انظر الملحق رقم ١٨) •

(٥) Lenczowski, G. : Op. cit., p. 59.

ذكر « لينوفسكى » أنه تبعا لتقدير بريطانيا كانت الثورة العربية بزعامة الشريف حسين فى الحجاز مسئولة عن شغل ٦٥٠٠٠ جندى من العثمانيين فى محاولة اخمادها •

الى ذلك السبب بالذات ليبرز اخلاص اليمنيين وبخاصة الشوافع للدولة العثمانية ومساندتهم لها ، فى الوقت الذى تخلى فيه عنها عرب الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق . وكان يهدف بذلك الى اظهار تقدير الترك لعرب اليمن حتى يستدر عطفهم ويحصل على مزيد من مساعدتهم ، ويؤكد هدفه هذا عندما قال لنعمان بك : « فاذا قدمتم له خيرا ليكون نهاية لخدماتكم فسيسطر اسمكم جليا فى التاريخ ، واذا لم تقدروا فأكتفى بأن أقابلكم بالشكر لخدماتكم التى قد بذلتموها نحونا الى الآن » . كما أشار على سعيد باشا الى أن والى اليمن العثمانى محمود نديم بك وقائد القوات العثمانية فى العاصمة أحمد توفيق بك أوقفا ارسال المعونات الى الجنود المعسكرين فى لحج ، واستأثرا لأنفسهم بما حصلاه واقترضاه من الشعب اليمنى ، مما جعله فى حاجة ماسة الى الحصول على معاونة أهالى « الحجرية » ، تلك المعونة التى حددها « بخمسة أو ستة آلاف ريال وسأرسل لكم حالا سندا مخصوصا بذلك » حتى ينقذ ضباطه وعساكره الذين كانوا « فى حاجة الى الدرجة النهائية » . وجدير بالذكر أن العثمانيين حصلوا على مساعدات كثيرة ومتنوعة من الشعب اليمنى عامة ، ومن الشوافع اليمنيين على وجه الخصوص ، فى أثناء الحصار البحرى البريطانى الذى تعرضت له اليمن فى فترة الحرب العالمية الأولى . وقد خففت هذه المعونات كثيرا من وطأة الحصار ، كما ساعدت العثمانيين فى أثناء هجومهم على لحج حتى تم انسحابهم منها فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ويبدو أن على سعيد باشا اضطر الى طلب المعونة المالية من قائمقام الحجرية اليمنى عبد الوهاب نعمان بك ليستعين بها فى تمويل عمليات انسحاب قواته من لحج الى عدن ، دون أن ينتظر المساعدة من والى اليمن العثمانى محمود نديم بك أو من قائد الفيلق العثمانى فى صنعاء أحمد توفيق ، لأنهما عارضا التسليم للانجليز ، وأشاعا فى عاصمة الولاية أن نبأ الهدنة تزوير وخديعة انجليزية لاثارة الفتنة والحاق الهزيمة بالعثمانيين . بل انهما عاتبا كذلك على سعيد باشا لمقابلة والى عدن البريطانى ، كما رماه بعض أشياعهما فى اليمن بالخيانة والميل للأعداء . ولهذا فان على سعيد باشا لم يتوقع منهما المساعدة ، فحاول أن يحصل عليها من قائمقام الحجرية بخاصة وأنه كان من اليمنيين الشوافع الذين كانوا أقرب للعثمانيين من اخوانهم أتباع المذهب الزيدى . وتعبر البرقية التى أرسلها أحمد توفيق قومندان الفيلق العثمانى الى على سعيد باشا فى لحج عن وجهة نظر الأول ازاء موضوع الهدنة والتسليم (١) . فأحمد توفيق باشا فى تلك البرقية حاول أن يجعل على سعيد باشا يعتقد أن نبأ الهدنة المبلغ اليه من الانجليز نبأ مصطنع من قبلهم لتشجيع الثورة والتمرد ضد الحكم العثمانى فى اليمن حتى يمكنهم ذلك من استعادة

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ – ٢٤٧ ، (انظر الملحق رقم ١٩) .

لحج • ثم يشير القائد العثمانى أحمد توفيق باشا الى أنه كان يجب على سعيد باشا أن يكذب نبأ الهدنة الذى تلقاه من الانجليز طالما أن الأوامر لم تصل اليه بعد من عاصمة دولته مما يؤكد صدق هذا النبأ من عدمه ، كما أن أحمد توفيق وجه اللوم لعلى سعيد باشا لذهابه الى عدن ومعه أركان حربه وياوره وزعمه صحة الأقوال التى سمعها من القائد البريطانى مما لا يتفق مع المبادىء العسكرية ومع تعليمات القيادة العثمانية • ثم يشير الوالى العثمانى الى تصرفات على سعيد باشا ويظهر أنها على النقيض من تصرفات الضباط العثمانيين فى منطقة تهامة « وكذلك الأفراد والضباط والامراء فى لحج » موضحا أنهم كانوا يحبون وطنهم ، ولم يقبلوا الاستسلام أو التقهقر شبرا واحدا عن خطواتهم التى تقدموها •

ثم يشير أحمد توفيق باشا فى برقيته التى أرسلها الى على سعيد باشا الى أنه هو والوالى العثمانى محمود نديم بك والامام يحيى موجودون فى صنعاء ، وأنهم مسئولون عن الشعب اليمنى ويعملون من أجل الحفاظ على حقوقه • ثم يحذر أحمد توفيق زميله على سعيد باشا من مغبة التصرف فى حقوق الشعب اليمنى دون انتظار لأوامر العاصمة العثمانية ، وقد عبر عن ذلك عندما خاطبه بقوله : « فأنتم وحدكم المسئولون ماديا ومعنويا عن العواقب الوخيمة التى قد تنتج اذا فعلتم شيئا من ذات أنفسكم بدون أن نأمركم ، وبناء على الأمر الصريح القطعى الذى سيصل من حكومتنا (العثمانية) بالشفرة » • ثم يوضح أحمد توفيق باشا فى ختام برقيته أن الأموال التى اقترضها من اليمنيين صرفت جميعها فى توفير احتياجات الجنود والموظفين العثمانيين ، وأنه اذا كانت قوات على سعيد باشا تفتقر الى المآكل والملبس والضروريات فان ذلك يرجع الى سوء التصرف فى موارد لحج الزراعية والجمركية وأموال لواء تعز ، وأنهى أحمد توفيق باشا برقيته بأن طلب من على سعيد باشا اطاعة أوامره بقوله : « نأمركم بالانقياد الى الأمر ، وبالطاعة العسكرية » •

ولكى يؤكد أحمد توفيق قومندان الفيلق العثمانى لعلى سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج تآزر الامام يحيى مع العثمانيين وعدم موافقته على التسليم للبريطانيين ، فقد أبرق اليه بصورة من كتاب زعم أنه قد وصله من الامام يحيى (١) • ويتضح من هذا الكتاب رفض الامام لفكرة التسليم للانجليز رفضا قاطعا لأسباب من بينها : عدم وصول أوامر صريحة تقضى بذلك من عاصمة السلطنة العثمانية ، وعدم ورود أى اخطار للامام بالهدنة من والى عدن البريطانى على النحو الذى ذكره على سعيد باشا ، ولأن الدولة العثمانية كانت ملتزمة ببعض الالتزامات ومدينة بمبالغ طائلة للامام يحيى ويجب أن تفى بتلك

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ، (انظر الملحق رقم ٢٠) •

الالتزامات والديون قبل أن يرحل عن البلاد جندى واحد من جنودها • وقد أخطر الامام بذلك والى اليمن محمود نديم بك ، كما أخطر كذلك قومندان الفيلق أحمد توفيق ، هذا الى جانب اخطار والى عدن وقومندانها لحسم الأمر لدى الجهات المعنية والأطراف المتصارعة • وكان أحمد توفيق يعزز وجهة نظره فى عدم التسليم للبريطانيين مستندا الى كتاب الامام يحيى لاقناع على سعيد باشا بذلك ليحول بينه وبين التسليم •

وكانت سياسة القائد العثمانى فى صنعاء أحمد توفيق التى اتجهت الى عدم التسليم للانجليز تتفق مع مصلحة الامام يحيى بطبيعة الحال ، لا سيما وأن الامام كان يعتبر نفسه الحاكم الشرعى للبلاد ، وأن الترك اذا استسلموا فيجب أن يكون استسلامهم له دون غيره لأنه صاحب فضل على الدولة كما قام بمساعدتها فى محنتها فى أثناء الحرب اذ أمدها بالمال والرجال برغم اعلانه الحياد ازاء القوى المتنازعة فى ذلك الحين • ولهذا أرسل الامام يحيى برقية الى على سعيد باشا قائد العثمانيين فى لحج يحثه على عدم التسليم للبريطانيين «الكافرين» لأن ذلك على حد تعبيره « يحمل على غير خدمة الدين والوطن » (١) •

ولم تقتصر محاولات التأثير على القائد العثمانى سعيد باشا وتوجيهه الى عدم التسليم للانجليز على تحذير أحمد توفيق باشا بعد مطابقة ذلك لتعليمات الدولة من جهه أو لبرقية الامام يحيى التى أشار فيها الى تنافى ذلك مع خدمة الدين والوطن وعدم الوفاء بالتزامات الدولة ازاء عهودها وديونها للامامة من جهة أخرى ، بل انه فضلا عن ذلك أبدى بعض الموظفين وتجار لواء تعز لعلى سعيد باشا « استياءهم من تغير الأحوال وتبديل الحكم العثمانى فى اليمن وتخوفهم من سوء المصير » وذلك فى برقية أرسلوها اليه (٢) عبروا فيها عن تقديرهم لجهاده فى المحافظة على منطقة لحج التى كانت عرضة للوقوع فى قبضة البريطانيين فى أثناء الحرب العالمية الأولى ثم استيائهم لسحب القوات العثمانية منها وتعطيل المستشفى العثمانى هناك وبيع الممتلكات الحكومية • كما أبدوا له ولاءهم للدولة العثمانية قديما وحديثا ، واخلاصهم لعاصمة الخلافة الاسلامية ومساندتهم لجهاد « الدولة العلية » وكفاحها ضد أعدائها • وقد طالبوا على سعيد باشا بابلاغ « مقر الخلافة » بارتباطهم بالدولة وولائهم لسيادتها ، وأكدوا عليه عدم الانسحاب قبل اخطارهم بالأسباب التى تدعوه الى ذلك ، وبمدى صحة الاشاعات التى كانت تصل اليهم •

هذا ما ذهب اليه كل من والى اليمن العثمانى محمود نديم بك وقائد

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ، (انظر الملحق رقم ٢١) •
(٢) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، (انظر الملحق رقم ٢٢) •

العثمانيين فى صنعاء أحمد توفيق ، والامام يحيى ، وبعض موظفى وتجار لواء تعز من ارتيابهم فى صحة الأنباء الخاصة باعلان هدنة « موندروس » فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩١٨ م ، واعتبارهم أنها خديعة بريطانية يحاول بها الانجليز بث روح الهزيمة والانكسار بين العثمانيين واليمنيين على السواء ٠ غير أن ناصر عنبرى مدير « الشيخ سعيد » كان له رأى آخر يجانب الحقيقة أيضـــا وان اتخذ اتجاها جديدا ، فقد زعم صحة خبر الهدنة وأن الدولة العثمانية تمكنت من خديعة بريطانيا وحلفائها وسحقت أساطيلهم على النحو الذى أوضحه فى البرقية التى بعث بها الى على سعيد باشا (١) ٠

غير أن الارتيـاب فى صحة أخبـار الهـدنة الذى عبر عنه قائد الفيلق العثمانى أحمد توفيق والامام يحيى وموظفو وتجـــار لواء تعز ، أو تأييـد أنبائها على أنها خديعة حاولت بها الدولة العثمانية أن تقتنص أساطيل الحلفاء كما زعم مدير « الشيخ سعيد » ، وقد عبر الجميع عن ذلك فى برقيـاتهم التى أرسلوها للقائد العثمانى فى لحج على سعيد باشـا ليقنعوه بعـــدم التسليم للانجليز ، فان تلك المحاولات لم توقفه عن تنفيذ ما اقتنع به وصمم على اتمامه فقد أعلن على سعيد باشا انتهـــاء الحرب بينه وبين الانجليز ، وأن مهمته فى اليمن قد انتهت فلم يعد محاربا وأصر على التسليم (٢) على الرغم من عدم وصول أوامر صريحة اليه من دولته تقضى بذلك ، بل انه استند فقط الى الاخطار الذى ورد اليه من والى عدن البريطـانى للافادة بأنباء الهـدنة الذى سبق الاشارة اليه ٠ وقد رأى على سعيد باشا أن يسلم ما تحت يده من الأراضى اليمنية الى الانجليز اذا لم يسارع من يهمه أمر تلك البلاد فى التوجه اليه وتسلمها منه ٠ وكان على سعيد باشا يعرف أن الامام يحيى باعتباره حاكم اليمن الشرعى حينذاك والوريث الطبيعى للحكم العثمانى هناك يجب أن تسلم اليه تلك الأراضى التى يحتلها الترك بعـد انسحابهم منها فى أعقاب الهدنة ٠ غير أن على سعيد باشا لم يتح الفرصـة من جانبه للامام الذى تخلف عن مشاركته فى مهاجمة لحج وتمسك بموقفه الحيادى ازاء القوى المتصارعة ٠ وقد رأى الامام يحيى حينذاك أنه لا يستطيع أن يلبى نداء على سعيد باشا ، فيرسل قواته لتسلم لحج وغيرها قبل أن يسلمها سعيد باشا للانجليز ، لأن أوضاع الامام فى اليمن لم تكن قد استقرت بعد بالقدر الذى يمكنه من القيام بتلك المحاولة ٠ كما أن الامام لم يرغب فى اثارة الانجليز ضـده فى الوقت الذى أوشكت فيه بلاده أن تحصل على استقلالها ، بل انه فضل أن تسير الأمور فى سلام حتى يعد للأمر عدته ، لا سيما وأن الادريسى كان يقف له بالمرصـاد فى عسـير ويحاول السيطرة على تهامة وكان لديه من القوة ما يمكنه من ذلك ٠

---

(١) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٥١ ، (انظر الملحق رقم ٢٣) ٠

(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ٠

واذا كان الوالى العثمانى محمود نديم بك قد ارتضى تماما بموقف الامام يحيى الحيادى ازاء القوى المتصارعة فى أثناء الحرب ، الأمر الذى طمأنه على عدم قيام الزيديين بأية أعمال عدائية ضد الترك خاصة فى الوقت الذى زحفت فيه قواتهم على لحج ، فان على سعيد باشا كرجل عسكرى يهمه النصر فى معركته قبـل كل شىء ، كان يريد من الامام أن يشترك بنفسه أو يدفع أنصاره على أقل تقدير لمساندة الترك فى زحفهم تجاه عدن ، الأمر الذى لم يرتضه الامام وامتنع عن تنفيذه • وقد آزكى ذلك الامتناع روح الخلاف بين الامام وعلى سعيد باشا فاندفع الأخير مستسلما للانجليز عقب الهدنة دون أن يحرص كل الحرص على تسليم ما تحت يده من الأراضى اليمنية للامام يحيى مكتفيا بالاشارة الى استعداده لتسليمها لمن يهمه الأمر اذا أسرع بالحضور اليه للتسلم ، وذلك فى الخطـابين اللذين أرسلهما لكل من القائدين العثمانيين : أحمـد توفيق وحسين باشا المتقاعد فى صنعاء عاصمة الولاية • وكان قد أشيع هناك أن على سعيد باشا قد خان وطنه وسلم البلاد اليمنية التى تحت يده للأعداء الذين اشتروه بالرشوة والمال • ولكن على سعيد باشا حاول فى هذين الخطابين أن يرد عن نفسه تلك الاتهامات لأصحابها ، كما رماهم بالجبن والتكاسل ، بينما أشاد بكفاح القوات العثمانية وشدة تحملها من أجل حماية « اليمن المقدس » •

ومن الملاحظ أن أهمية الخطاب الأول الذى أرسله على سعيد باشا القائد العثمانى فى لحج الى أحمد توفيق باشا قائد الفيلق العثمانى فى صنعاء (١) تتمثل فى توضيحه لحدود الأراضى الواقعة فى قبضة الترك فى جنوب اليمن والتى انسحبوا منها فى نهاية الحرب العالمية الأولى • كما أن هذا الخطاب دافع فيه على سعيد باشا عن نفسه وزد التهم التى وجهت اليه بأنه سلم ما فى حوزته للانجليز ، وأشاد بكفاحه ونضال الجنود العثمانيين وشدة تحملهم للصعوبات التى واجهوها فى تلك الحرب ، بينما أشار الى أن الامام يحيى والوالى العثمانى فى صنعاء لم يكن لهما دور فى ذلك الا القاء التهم واطلاق الاشاعات • هـذا فضلا عن أن هذا الخطاب كان يحمل نداء موجها من على سعيد باشا الى الامام يحيى أو من يهمه أمر تلك النواحى اليمنية من حكامها الأصليين بالحضـور لتسلمها منه قبل ضياع الفرصة ، غير أنه يشير فى نفس الوقت الى علمه بتقاعد هؤلاء وتقاعسهم عن محاربة البريطانيين فى جنوب اليمن • وجدير بالذكر أن الأحرار اليمنيين فى القاهرة كانوا يرون أن الخطاب المشار اليه والخطاب الثانى الذى سنستعرضه فيما يلى ، وثيقتان هامتان تدينان الامام يحيى بالتقاعس عن تلبية هذا النداء ، وعدم انتهازه الفرصة لاسترجاع النواحى «المحمية» (٢) •

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٥ ، (انظر الملحق رقم ٢٤) •

(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٩٨ •

ومحاولة طرد الانجليز من الجنوب العربى كله وضم تلك البقاع الى اليمن الأم كما كانت قبل تعرضها للاستعمار البريطانى الدخيل ٠

أما فى الخطاب الثانى الذى بعث به على سعيد باشا الى القائد العثمانى حسين باشا المتقاعد فى صنعاء (١) ، فمن الملاحظ أنه عبر عن سروره بأنباء قيام مظاهرات وطنية فى عاصمة الولاية لمساندة جنود الدولة العثمانية ، الى جانب تعهدات الامام يحيى بتقديم المعونات للدولة مما يجعله « فى غاية الوطنية والديانة » ٠ غير أن على سعيد باشا يعود فيذكر أن تلك المظاهرات لم تكن فعالة وايجابية حتى ذلك الحين لأنه لم يترتب عليها تقديم مساعدات مالية أو عسكرية للدولة ترجح كفتها فى الحرب ٠ بل انه يؤكد أن أبناء اليمن كانوا خلال سنى الحرب الأربع متفرجين وكأن شعارهم « نحن نرتاح وعساكر الترك يحافظون على حدود بلادنا » الأمر الذى جعله يطالب وينادى بأن يسعى كل صغير وكبير منهم للوفاء بواجباته الدينية والوطنية على أن تحدوه غيرة « لا تعرف الملل » ٠

وقد أشاد على سعيد باشا بكفاح العثمانيين ونضالهم من أجل الدفاع عن اليمن عندما قال « فجهادنا مملوء بالشرف » بينما أعلن أن هذا الجهاد بالنسبة للترك قد انتهى واختتم،أما بالنسبة لليمنيين فقد بدأ «دور الجهاد حربيا وسياسيا واداريا لاخواننا العرب» ، وأن الواجب الانسانى يحتم على اليمنيين مساعدة اخوانهم العثمانيين بكافة الوسائل الممكنة من أجل « ايصـــالهم الى أوطانهم وأحضان أمهاتهم سالمين » ٠

ثم يشـير على سعيد باشا الى أن تلك المســاعدة ليست ســوى « شكر ومكافأة للعثمانيين للمحافظة على وطنهم (اليمنى) الى الآن ، واستشهاد الآلاف منهم فى سبيل دفع العدو من أن يستولى على شبر من أرضهم » ٠ ويرى سعيد باشا أنه قد آن الأوان لأهل البلاد اليمنية صغيرهم وكبيرهم أن يقرروا مصيرهم كما يشاءون ويتمنى أن يسمع عنهم ما يسره ٠ واختتم على سعيد باشا خطابه هـذا بأسلوب ساخر تهكم فيه على الذين لا عمل لهم فى صنعاء ســوى شرب الخمر واكتناز الذهب « هو ثمن دماء أولاد العثمانيين » ثم يبعثون اليه وهو المجاهد المناضل بتوصياتهم ، وهو يقصد بذلك الامام يحيى والوالى العثمانى وأشياعهما حتى قال « ومسببو مصائبنا هم بصنعاء » ثم ذكر أنه سـيحاول الانتظار فى لحج حتى ترد اليه الأوامر النهائية من الآستانة ٠ ومعنى ذلك أن على سعيد باشا رفض أن يقـوم بأية تحركات تكون مصلحتها لغير حســـاب دولته (٢) ، وان كانت علاقته بالانجليز فى عدن التى عززها ما حل بالمنطقة

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ، (انظر الملحق رقم ٢٥) ٠
(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٥ ٠

من ركود فى العامين الأخيرين من سنى الحرب ، كما أن يأسه من حرص الامام على التوجه لتسلم لحج والنواحى التى فى قبضته سيدفعه ذلك فى نهاية الأمر الى التسليم للبريطانيين ، وان حاول أن يبرر موقفه هذا بأنه وجه نداء لذوى الشأن من اليمنيين بالتوجه الى لحج لتسلم بلادهم على النحو الذى نلاحظه فى الخطابين المشار اليهما ٠

موقف العثمانيين فى صنعاء فى أعقاب هدنة موندروس فى سـنة ١٩١٨ م :

اختلف الموقف فى صنعاء فى أعقاب الهدنة المتفق عليها فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩١٨ م فى تفصيلاته عن الأحداث التى جرت فى جنـوب اليمن فى ذلك الحين ٠ فالوالى العثمانى محمود نديم بك والقومندان أحمد توفيق قائد الفيلق العثمانى فى صنعاء ــ وكانت علاقتهما بالامام يحيى طيبة على عكس ما كان عليه الحال مع على سعيد باشا ــ حاولا أن يتيحا للامام يحيى فرصـــة دخول صنعاء وتسلمه مقاليد الحكم فيها ، وأن يقيم فى قصر « غمدان » ويمتلك كل ما فيه من معدات ٠ بل ان قائد الفيلق العثمانى أمر بتسليم الامام كل الأسلحة والمدافع والممتلكات الحربية وفاء له بالديون التى اقترضتها منه الدولة فى أثناء سنى الحرب الكبرى (١) ٠ كما حاول الوالى العثمانى أن يتوسط بنفوذه لخدمة أغراض الامام ، وأن يبرز شخصيته بمركزه الجديد بما له من مظاهر السيادة والسلطة كوارث شرعى للحكم العثمانى فى اليمن ، فبادر بارسال برقية عن طريق على سعيد باشا الى والى عدن البريطانى فى ١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م (٢) ردا على كتاب الأخير فى ٥ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م الذى أطلعه فيه على أنباء الهدنة ٠

وتتبين من تلك البرقية حرص الوالى العثمانى محمود نديم بك على ابراز أهميـة الامام يحيى وشخصيته التـاريخية باعتبـاره الوريث الطبيعى للحـكم العثمانى فى اليمن وحاكم البلاد الشرعى بعد جلائهم عنها ٠ كما أكد محمود نديم « أن أمر البلاد فى يد حضرة الامام » ، وأن الامام أخطره بعدم خروج أحد من العثمانيين الا بناء على أوامره ، ولهذا فالموقف كان يستلزم وصول مبعوث من قبل الدولة العثمانية يحمل تعليمات بالشفرة المتفق عليها الى الامام يحيى وذلك بعد أن أصبحت « حقوق ايفاء شروط الهدنة اليوم هذا فى يد حضرة الامام » ٠ وقد أوضح محمود نديم للوالى البريطانى فى عدن أنه على الرغم من تصديقه لأنباء الهدنة فانه مضطر لانتظار تعليمات الباب العالى قبل أن يتحرك عن مواقعه، لا سيما وأن « المادة ١٦ من شروط الهدنة ، وفى المادة ٥ المصرح بها وفى عموم

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ ٠

(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ ، (انظر الملحق رقم ٢٦) ٠

شروط الهدنة لا يوجد ايضاح ولا حتى اشارة بأن تترك الحكومة الملكية أمور الادارة » . هذا فضلا عن أن تأمين البلاد يستلزم ابقاء بعض الجنود العثمانيين تبعا لما تقتضيه المادة رقم ٥ من شروط الهدنة ولكن على أن يكون ذلك مشروطا بموافقة الامام يحيى ، وسوف يقوم هؤلاء الجنود العثمانيون بواجبهم بتأمين البلاد الى جانب القوات التابعة للامام . وأخيرا طلب والى اليمن العثمانى من والى عدن البريطانى ضمان حقه فى المخابرة الرسمية مع حكومته العثمانية فى الآستانة للقيام بمهام منصبه فى الولاية .

ويبدو واضحا أن موقف والى اليمن العثمانى محمود نديم بك فى صنعاء من الامام يحيى ، فقد اختلف اختلافا بينا عن موقف على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج الذى لم يبد أية رغبة أو محاولة لتأكيد حق الامام يحيى فى وراثة الحكم العثمانى فى اليمن أو مساعدته فى هذا السبيل . على أن محمود نديم بك لم يكتف فقط بتأكيد حق الامام فى وراثة حكم العثمانيين فى اليمن لوالى عدن البريطانى فحسب ، بل انه حاول كذلك أن يجمع حول الامام شيوخ القبائل التى كانت تفكر فى التحول عنه الى جانب البريطانيين وأعوانهم فى جنوب اليمن ، وكانت بعض تلك القبائل على صلة وثيقة بعلى سعيد باشا . ومن بين هذه القبائل قبيلة « القماعرة » التى أرسل الوالى العثمانى محمود نديم بك برقية الى شيخها محمد ناصر يحذره من سماع أقوال « المفسدين » ، ويرغبه فى الالتفاف حول الامام يحيى بقوله :

« الحذر أن تسمعوا أقوال المفسدين ، وتعلموا درجة محبتى لكم منذ خمس عشرة سنة ، حضرة الامام قائم معنا بالمال والروح ، مع اعلاء شأنكم فوق ما أنتم عليه الآن ، قاضى اللواء قريبا متوجه اليكم وسيفهمكم التفاصيل . الحذر أن تسمعوا أقوال أحد المأمورين أو غيرهم من الآن وصاعدا ان صدر لكم اشعار من المأمورين بأى وجه كان من دون الاستئذان منا بالشفرة لا تعتمدوا وهذا سند بيدكم أمانا منا وتأكيدا لكم ودمتم » (١) .

ولم يكتف الوالى محمود نديم بك بارسال برقية لشيخ قبيلة « القماعرة » محمد ناصر ، بل انهالتمس من الامام يحيى أن يحرر برقية من قبله الى شيخ « القماعرة » ليجتذبه الى جانبه ، تبعا للخطة التى كان يهدف بها محمود نديم تدعيم مركز الامام كوريث للحكم العثمانى فى اليمن . وقد طلب الامام يحيى من شيخ « القماعرة » اعلامه « بمقدار موجود المهمات الحربية والآلات والأفراد وغيرها من الأشياء ، ليستقر بذلك الخاطر » وذلك بعد أن حاول اجتذابه اليه بقوله : « وقريبا ان شاء الله ترون ما يسركم من اعلاء مقامكم فوق ما أنتم فيه وذلك قريبا ، واعتمدوا تلغراف الولاية الصادر اليكم يومنا هذا ، ولا تخدعوا

---

(١) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ ــ ٢٥٨ .

المأمورين الذين هم بجواركم لان بهذا الأمر رأينا بعض ميلان الى أعداء الله . واحفظوا ما لديكم من قليل وكثير ولا تفرطوا بشيء قطعيا » (١) .

وبعد أن تلقى شيخ قبيلة « القماعرة » محمد ناصر برقيتى الوالى العثمانى: محمود نديم بك والامام يحيى ، فانه رأى أن يرسل صورة البرقيتين الى على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج ليستطلع رأيه فى التصرف المناسب (٢) . وكانت العلاقة بين على سعيد باشا وشيخ قبيلة «القماعرة » وطيدة الصلة لدرجة التبعية ، مما جعل الوالى محمود نديم بك يسارع الى بذل مساعيه ليحول دون تحول شيخ « القماعرة » بدوره الى البريطانيين . فأراد أن يجتذبه الى جانب الامام يحيى ممنيا اياه بأعلى المراتب وأوفر الغنائم ، بخاصة أن « القماعرة » كان لديهم مهمات حربية وآلات عثمانية لها قيمتها مما جعل الوالى والامام يحرصان على كسب وده واجتذابه الى جانبهم . وهكذا يبدو واضحا الدور الذى قام به والى اليمن العثمـانى محمـود نديم بك فى تهيئة الفرصة للامام يحيى ليرث حكم العثمانيين فى اليمن ، بل انه حاول أن يسـاعد الامام كذلك فى تدعيم مركزه بتجميع القبائل اليمنية من حوله ، وبخاصة تلك القبائل التى كان لديها من المهمات الحربية والأسلحة العثمانية ما يقوى عضد الامام ويزيد من قوته .

أما بالنسبة لموقف الانجليز من محاولات والى اليمن العثمانى محمود نديم بك ابراز شخصية الامام يحيى كوريث شرعى للحكم العثمانى فى اليمن ، حتى يصبح « أمر البلاد فى يد حضرة الامام » فان والى عدن عبر عن موقف بريطانيا بعدم قبوله توسط محمود نديم للاتصال بالامام يحيى ، لأن الأخير لم يكن طرفا فى الحرب كما أنه اعتبر محايدا لادخل له فى تقرير الموقف . بل ان والى عدن رأى أن قبول الدولة العثمانية لشروط الهدنة أمر حتمى فرضته قوانين الحرب التى تدعمها فقط القوة العسكرية ، ولهذا فانه لم يجد ضرورة لاستصدار أوامر أخرى بشأن توقف الادارة المدنية للولاية ، باعتبارها تابعة بطبيعة الحال للادارة العسكرية وبخاصة فى وقت الحرب . أما بالنسبة للمسائل المالية المعلقة ومشاكل الحدود فان الوالى البريطانى فى عدن أوضح أن الحكومة البريطانية ستوجد حلولا لها فى المستقبل . وقد عبر والى عدن عن وجهة نظر بريطانيا هذه فى الخطاب الذى أرسله الى والى اليمن العثمانى محمود نديم بك (٣) ردا على كتابه الذى سبق الاشارة اليه .

وجدير بالذكر أن ذلك الاختـلاف الملحوظ بين وجهة نظـر الانجليز التى أوضحها والى عدن من جهة ، وبين وجهة النظر العثمانية التى أوضـحها الوالى

---

(١) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .
(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .
(٣) العبدلى : المصدر نفسه ، ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ، (انظر الملحق رقم ٢٧) .

محمود نديم من جهة أخرى بالنسبة لموقف الامام يحيى فى أعقاب هدنة «موندروس» فى سنة ١٩١٨ م باعتباره الوريث الشرعى للحكم العثمانى فى اليمن ، فان ذلك الاختلاف سيكون سببا مباشرا فى المشاكل التى ستثار بعد ذلك بين الامام يحيى والانجليز على تحديد الحدود بين منطقة نفوذه ومنطقة النفوذ البريطانى فى جنوب اليمن · بل ان الانجليز سوف يحتلون الحديدة المنفذ الطبيعى للعاصمة صنعاء لتكون فى يدهم ورقة رابحة يساومون بها الامام ثم يسلمونها الى منافسه الادريسى على الرغم من العلاقات الودية التى أشار والى عدن الى وجودها بين الامام وبريطانيا · وكانت بريطانيا تهدف من مساعدة الادريسى فى أعقاب الحرب الكبرى وبعد جلاء العثمانيين عن اليمن الى الابقاء عليه حليفا لها ومنافسا للامام حتى لا يقوى الأخير بالدرجة التى تشكل خطرا على مصالحها فى جنوب اليمن ·

انسحاب العثمانيين من اليمن فى نهاية الحرب العالمية الأولى :

بعد أن استعرضنا فى هذا الفصل موقف العثمانيين فى اليمن فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فاننا سوف نحاول أن نرتب اللحظات التاريخية الأخيرة فى قصة الحكم العثمانى فى اليمن على النحو التالى ·

عندما رأت بريطانيا أن نشاط العثمانيين الحربى فى تهامة على الرغم من ضآلته الى جانب سيطرتهم على لحج ، يعد ذلك جزءا من نشاط دول الائتلاف المعادية للحلفاء ، فان قائدها البريطانى «الجنرال اللنبى» قام بزحفه المعروف على العثمانيين فى فلسطين ، وأصبح ضرب الموانى التى يسيطر عليها الأتراك ومحاصرة الاسطول البريطانى للسواحل العثمانية فى جزيرة العرب جزءا من الخطة الحربية للهجوم العام لحملة «اللنبى» · وهكذا قام الاسطول البريطانى بضرب الموانىء اليمنية التى يسيطر عليها الترك «كالحديدة» و «المخا» و «الصليف» و «اللحية» · كما أمدت بريطانيا حليفها الادريسى فى شمال اليمن بمزيد من المؤن والعتاد الحربى وطالبته بسرعة الهجوم برا على الأتراك العثمانيين هناك · وفى تلك الأثناء انهارت خطوط دول الائتلاف فى جميع الميادين أمام قوى الحلفاء المنتصرة فانهزمت بذلك الدولة العثمانية وخسرت معركتها وآمالها فى نهاية الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ م · وقد دخلت جيوش بريطانيا وفرنسا الى الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وصدرت أوامر سلطان العثمانيين الجديد محمد رشاد بواسطة الوزارة العثمانية الجديدة لجميع القوات التركية فى البلاد العربية بالاستسلام والرحيل بوساطة بواخر النقل البريطانية · وقد تسلم الادريسى ميناء «اللحية» وبلدة «الصليف» وغيرها من البلاد التى كان يسيطر عليها الترك فى شمال اليمن · كما خلى الميدان للجيش الادريسى بانسحاب

الأتراك فى جهة بلاد اليمن «قيس» و «الحميسين» و «حجور» فانطلق الأدارسة فى توسعهم الى قرب «حجة» حيث اصطدموا بمقاومة قوات الامام يحيى وجها لوجه، وأخيرا استطاعت القوات الادريسية أن تدعم مراكزها فى تلك الجهات بالقوة(١) ٠

أما فى وسط اليمن فان الامام يحيى توجه الى «الروضة» احدى ضواحى صنعاء حيث حضر اليه عدد من مشايخ القبائل اليمنية ذكر عنهم الواسعى أنهم كانوا «من جميع النواحى وصحبتها البقر والغنم فذبحتها أمام داره فرحا وسرورا بقدومه ، وحصل للناس بقدوم الامام (يحيى) سرور عظيم لم يعهد مثله ، ثم خرج أكابر السادة والعلماء والتجار والأعيان من صنعاء الى الروضة لزيارة الامام» (٢) ٠ وقد سبق أن أشرنا الى أن العلاقات كانت طيبة بين الامام يحيى والوالى العثمانى محمود نديم بك على عكس ما كان عليه الحال بين الامام والقائد العثمانى فى لحج على سعيد باشا ، ولهذا فلم يكن مستغربا أن يرجه محمود نديم بك دعوة الى الامام يحيى لدخول صنعاء ويبدى استعداده لتسلمه مقاليد الحكم باعتباره وريثا شرعيا للحكم العثمانى فى اليمن ٠ وهكذا دخل الامام يحيى صنعاء فى شهر نوفبر سنة ١٩١٨ (صفر سنة ١٣٣٧هـ) بناء على دعوة الوالى العثمانى (٣) ، الذى أمر بتسليمه «قصر غمدان» وما فيه من معدات ٠ كما أمر القائد العثمانى أحمد توفيق بتسليم الأسلحة والمدافع وكل ممتلكاتهم الحربية للامام مقابل ما كان له من ديون عليهم على النحو الذى أعلن فى ذلك الوقت(٤) ٠ ويصف الواسعى يوم دخول الامام الى مدينة صنعاء بأنه « كان يوما مشهودا ، وحصل للناس السرور والفرح والحبور ، ونظم الامام أمور صنعاء ، ومنع المأمورين من الظلم والارتشاء ، وأرسل معلمين الى سائر القرى ٠ وأمر بازالة البدع ، والحث على الصلاة فى أوقاتها والمحافظة على الجمع والجماعات (صلوات الجماعة) ، وأطاعته جميع البلاد ، وأخذ منهم الرهائن » (٥) ٠

وبالنسبة للأتراك العثمانيين فى جنوب اليمن فان البرقيات والمكاتبات التى تبودلت بين قائدهم فى لحج على سعيد باشا وبين الوالى العثمانى محمود نديم بك والامام يحيى من جهة ، ووالى عدن البريطانى من جهة أخرى — التى سبق أن أشرت اليها — قد انتهت جميعها بوصول أوامر العاصمة العثمانية باخراج « القوة العسكرية والادارة الملكية العثمانية » (٦) من اليمن ، تبعا

(١) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٢ — ١١٣ ٠
(٢) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٣١ ٠
(٣) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ ٠
(٤) الجرافى : نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ٠
(٥) الواسعى : المصدر السابق ، ط ٢ ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ ٠
(٦) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٦٠ ٠

لشروط هدنة موندروس المنعقدة فى ۳۰ من أكتوبر سنة ۱۹۱۸ م ۰ ولهذا اتجه على سعيد باشا الى عدن حيث سلم سيفه وعساكره لواليها البريطانى فى شهر ديسمبر سنة ۱۹۱۸ م (ربيع الأول سنة ۱۳۳۷ هـ) (۱) ۰ بعد أن باعوا جميع الحبوب المخزونة فى المخازن من مزروعات لحج وباع الضباط العثمانيون أسلحتهم وأثاثهم بأبخس الأثمان حتى بلغت قيمة السيف خمسة قروش مصرية وتسلم الجنرال (بتى) لحجا ، وعسكر جنوده البريطانيون فى (أم القفع) ۰

على أنه فى الوقت نفسه تقريبا الذى سلم فيه على سعيد باشا قواته لوالى عدن البريطانى كانت الحديدة هدفا لقنابل الأسطول البريطانى ، لأن العثمانيين هناك حاولوا المقاومة نتيجة لتردد الوالى العثمانى محمود نديم بك فى الاقتناع بالتسليم لبريطانيا ، ثم احتلت القوات البريطانية مدينة الحديدة بعد ضربها مباشرة (۲) ۰ وقد أوضح الواسعى صورة لحادثة ضرب الأسطول البريطانى للحديدة بالقنابل واحتلالها بقوله : « وفى هذه السنة (۱۹۱۸ م – ۱۳۳۷ هـ) هجم الانجليز على الحديدة بأحد عشر أسطولا على حين غفلة بعد طلوع الفجر من غير اعلان ولا استعداد ، وضربها بالمدافع وخربها ، وذهبت أموال كثيرة وفر أهلها الى التهائم فى حالة يؤسف لها ولم يأخذوا معهم شيئا وكل أحد نجا بنفسه ، والمدافع تطلق قنابلها ، ثم احتل الانكليز الحديدة وتراجع الناس ، وصار أكثر الناس يسكنون الخرائب وفى البيوت القش وبعضهم صلح منزله بما يقدر عليه » (۳) ۰ ويقول أمين الريحانى أن الحديدة ضربت مرتين من البحر ، المرة الأولى فى سنة ۱۹۱۲ م فى أثناء الحرب التركية الايطالية ، والمرة الثانية فى سنة ۱۹۱۸ م فى الحرب العظمى الأولى عندما حمل الجنرال اللنبى على الترك فى فلسطين ، فكان ضرب الحديدة جزءا من الهجوم العام ۰ كما ذكر الريحانى أن قنصل الانجليز كان يومئذ على ظهر البارجة التى كانت تصدر منها الأوامر باطلاق المدافع ۰ وكانت دار القنصلية ، بأمر القنصل نفسه ، الهدف الأول لقنابل الأسطول ، لأن فيها حسب ادعائه أوراقا سرية ، غير أن الريحانى يذكر أن الاشاعات لا تثبت ذلك الادعاء ، اذ قيل أن القنصل أمر بتدمير بيته لأن فيه أثاثا شاء حرقه طمعا فى الحصول على التعويض ۰ وقد دفعت له الحكومة البريطانية أضعاف قيمته تعويضا (٤) ، غير أنها لم تفعل ذلك مع اليمنيين أصحاب الحديدة الذين لاذوا بالتهائم « لا يلوون على شىء ولم يأخذوا معهم

---

(۱) العبدلى : المصدر نفسه والصفحة نفسها ۰

(۲) Rihani, A. : Arabian Peak and Desert, Travels in Yemen, p. 228.

(۳) الواسعى : المصدر السابق ، ط ۲ ، ص ۳۳۲ ۰

(٤) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ص ۲۳٤ ۰

ما يقوم بحاجاتهم ، اذ كانوا يكتفون بالنجاة من الموت المحتوم » (١) ٠

على أن الانجليز كانوا يرمون من وراء ضربهم للحديدة واحتلالها وضع أقدامهم فى اليمن لمواجهة الامام يحيى ومساومته عليها ، بعد أن بدا أنه يريد أن يقوم بدوره كاملا كوريث شرعى للحكم العثمانى ٠ وكانت بريطانيا تعلم أن الحديدة بالنسبة للامام ذات أهمية بالغة لأنها المنفذ الطبيعى لصنعاء ٠ وقد انتهز الانجليز فرصة تردد الترك فى الاستسلام ليضعوا يدهم عليها حتى لا يتهموا فيما بعد بأنهم بدءوا بالعدوان ٠ بل ان الانجليز ادعوا أن قواتهم دخلت الحديدة للمحافظة على الأمن والنظام ، وأنهم سيعيدونها للامام بعد استقرار الموقف ، وذلك تبعا لما ورد بكتاب والى عدن المرسل للامام يحيى ردا على احتجاجه على ضرب المدينة وتخريبها (٢) ٠ غير أن الانجليز كانوا يهدفون من سيطرتهم على الحديدة الوقوف فى وجه توسع الامام يحيى حتى لا يشكل خطرا على مصالحهم فى اليمن ٠ بل ان العقيلى يذكر أن الانجليز كانوا يهدفون أيضا الى اتخاذ الحديدة نقطة البدء فى الانطلاق لتأسيس مستعمرة جديدة تتصل برا بمستعمرة عدن ٠ وتمهيدا لبلوغ تلك الغاية فانهم ضربوا نطاقا من الأسلاك الشائكة حول المدينة وأخذوا فى استمالة شيوخ القبائل المجاورة (٣) ، على نحو ما حدث مع شيوخ النواحى التى تجاور مستعمرة عدن ٠

وجدير بالذكر أن الانجليز اضطروا فيما بعد الى تسليم الحديدة للادريسى فى ٣١ من يناير سنة ١٩٢١ م بعد أن فشلت محاولاتهم وبخاصة بعثة « جاكوب » ــ التى أرسلوها عن طريق الحديدة وحالت قبيلة القعرى دون وصولها الى صنعاء ــ للاتفاق مع الامام الذى أمر قواته بالزحف على النواحى التسع المجاورة لعدن ليضطر الانجليز ويساومهم على اخلاء الحديدة (٤) ٠ كما أن القبائل اليمنية هاجمت الانجليز فى الحديدة مما ترتب عليه تغيير ثلاثة قناصل لم يوفق واحد منهم فى تهدئة الحالة فضلا عن التمكين لسياسة بريطانيا خلال السنة التى احتلوا فيها المدينة (٥) ٠ وقد قام الانجليز باستفتاء أهل الحديدة فى الانضمام الى الحكومة التى يرغبونها بعد جلاء الأتراك ، فتمسك معظمهم اما بعودة الحكم العثمانى واما الانضمام الى « الحكومة العربية المصرية » (٦) ٠ وأخيرا أوعز المعتمد البريطانى فى الحديدة للجيش الادريسى

---

(١) العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وامام ، ص ٩٢ ٠

(٢) Rihani, A. : Op. Cit., p. 229.

(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٣ ٠

(٤) Survey of Internationl Affairs, 1925, Vol. I, 321.

(٥) العقيلى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١١٣ ٠

(٦) الريحانى : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ ٠

فدخل المدينة ، وباشر ادارتها وتم جلاء الانجليز عنها ٠ وعندما تأسست الحكومة الادريسية فى المدينة استدعى الادريسى خمسة من زعماء تجار الحديدة الذين أظهروا ميلهم الى الأتراك والى المصريين ورحلهم الى عاصمة الأدارسة فى جيزان ، حيث ظلوا سبعة أشهر أسرى فى قلعتها ، ثم أعلموا بذنبهم وبالجزاء الموقع عليهم فافتدى بعضهم نفسه بالمال ، وقدم الآخرون أبناءهم للادريسى رهائن الولاء والاخلاص (١) ٠ وعلى أية حال فقد سلم الانجليز الحديدة للادريسى على كره من أهلها « الذين كانوا لا يرغبون فى حكم امام صنعاء ولا امام صبيا (الادريسى) » (٢) ، ويرجع ذلك الى أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة ويفضلون العمل فى هدوء بعيدا عن ضوضاء السياسة وخطر الصراع بين الزعماء المتنافسين ، الذين سببوا الخراب والدمار لمدينتهم دون أن يقدموا اليهم أية تعويضات ، بل يجمعون منهم ما يكفى لشئون الادارة ، ويفرضون عليهم ضرائب باهظة ، جعلت كثيرين منهم يفضلون الهجرة الى عدن ، على الرغم من أن الادارة الادريسية قاومت الهجرة وقبضت على بعض البارزين من التجار المهاجرين وأسرتهم فى « ميدى » (٣) ٠

ولا شك أن تسليم الانجليز مدينة الحديدة للادريسى كان تدخلا من بريطانيا فى توزيع الاراضى والحدود بين الحكام المحليين المتنافسين ، مما أثار الامام يحيى ضد بريطانيا وجعله يتجه الى مهاجمتها فى النواحى التسع فى جنوب اليمن باعتبارها جزءا من أملاك أجداده ينبغى له أن يسترده ٠ وكان يهدف من ذلك بطبيعة الحال الى اتخاذ تلك النواحى «رهينة مقابل مينائى : اللحية والحديدة» (٤) التى سيطر عليها الادريسى بمساعدة بريطانيا ٠ وقد أكد «جاكوب» ذلك عندما قال : «ان الحديدة لم تكن ملكا خاصا لنا حتى نمنحها للغير ، كما أن الادريسى لم يغتنمها من الترك فى أثناء الحرب ، وكان أول واجب علينا بعد عقد الهدنة مع تركيا أن نبعد الادريسى عن منطقة أصبحت بالاكتساب للامام وحده ، اذ أن الحديدة هى الميناء الطبيعى لصنعاء » (٥) ٠

على أن حكم الأدارسة سوف يعتريه الضعف والانهيار بعد وفاة محمد الادريسى فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٢٣م٠ولم يستطع ابنه الأمير على تسيير دفة الأمور لصغر سنه (٦) ٠ مما جعل امارة الأدارسة تمر خلال السنوات التى مضت بين ١٩٢٠ – ١٩٣٠م فى أدوار اضطراب داخلى ، فصارت مثارا لأطماع جيرانها

(١) الريحانى : المصدر نفسه ، ص ٢٣٧ ٠
(٢) العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ ٠
(٣) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 249.
(٤) Survey of International Affairs 1928, p. 311.
(٥) Jacob, H.F. : Op. cit., p. 241.
(٦) Survey of International Affairs, 1925, p. 322.

وبخاصة الامام يحيى الذى تمكن من طرد الأدارسة من الأراضى اليمنية التى كانت تحت يد الترك قبل جلائهم وأن يحصرهم فى عسير فقط • وقد حدد الواسعى انتصارات الامام يحيى على الأدارسة بقوله : « واستلم (الامام يحيى) باجل ثم الحديدة من دون حرب ، واستلم الموانى التى على ساحل البحر الأحمر « ابن عبـــاس » و « الصليف » و « اللحية » و « ميدى » ، ثم مدن « الضحى » و « الزهرة » و « المغيرة » و « الزيدية » و « المراوغة » وغيرها ، وعين الامام لهذه عمالا وحكاما ومعلمين » (١) • بل ان الامام يحيى احتل بعض أراضى عســير وواصل الزحف شمالا ، مما حمل الأدارسة على خلع الأمير على ، ووضعوا عمه السيد حسن الادريسى مكانه • وكان ابن ســعود قد احتل الحجاز فعقد معه معاهدة تحالف عام ١٩٢٦م ، بوساطة السيد أحمد الشريف السنوسى الكبير ، الذى سارع من ليبيا لينقذ امارة نسيبه حسن الادريسى • وظل الأمر كذلك الى أن ضغطت المطامع على هذا الأمير ، فاضطر فى النهاية أن يطلب ضم بلاده الى ملك حليفه ابن سعود ، فطويت بذلك صفحة الأدارسة (٢) •

وعلى أية حال ، فقد سلم القائد العثمانى فى لحج على سعيد باشا نفسه ورجاله لوالى عدن البريطانى فى شهر ديسمبر سنة ١٩١٨م (ربيع الأول سنة ١٣٣٧هـ) وأصبح الجنود العثمانيون بطبيعة الحــال أسرى فى عدن ، ومكثوا فيها أياما ، حتى لحق بهم زملاؤهم فى بقية أجزاء اليمن ممن تجمعوا فى المناطق الساحلية ، وبخاصة فى « اللحية » و « الحديدة » وحملتهم اليهــا البــواخر البريطانية (٣) • وقد رحلت بعد ذلك القوات العثمانية المستسلمة من عدن الى جزير مالطة بواسطة البواخر البريطانية ، التى أوصلتهم فيما بعد الى بلادهم فى الأناضول •

واذا كنا قد لاحظنا اختلافا بينا بين موقف والى اليمن العثمانى محمود نديم بك من جهــة وموقف القائد العثمانى فى لحج على سعيد باشا من جهة أخرى بالنسبة لشخصية الامام يحيى ، فان هذا الاختلاف بالتالى أدى الى التأثير فى مجرى حياة كل منهما • فالوالى العثمانى حاول أن يبرز أهمية الامام وشخصيته التاريخية ويمهد له ليكون خليفة للحكم العثمانى فى اليمن ، فكان يؤكد ذلك فى خطابه لوالى عدن ليوحى للانجليز بالتفاهم مع الامام باعتباره الحاكم الشرعى للبلاد بعد جلاء العثمانيين عنهــا • بينما رفض على سعيد باشــا أن يتحمس للامام ، وامتنع عن تقديم أية مساعدة له أو تمهيد ليرث مقاليد الحكم بعد زوال السيادة العثمانية عن اليمن • ورأينا أن «على سعيد» حاول أن يبرئ نفسه من

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ص ٣٣٨ •
(٢) محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها ، ج٢ ص ٢٢٢ •
(٣) العقيلى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١١٢ •

عدائه للامام وميله للانجليز بما ضمنه خطابيه للوالى العثمانى وللقائد أحمد توفيق فى صنعاء ، معبرا عن استعداده للتسليم لمن يهمه الأمر اذا أسرع بالحضور اليه لتسلم ما تحت يده من الأراضى اليمنية • غير أنه كان واضحا أن على سعيد باشا لم يرتض موقف الامام الحيادى فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، مما جعله يعتبر الامام متخاذلا عندما رفض الاشتراك مع الترك فى مهاجمة الانجليز فى جنــوب اليمن ، ذلك الهجــوم الذى انتهى فقط بالسيطرة على لحج • ولهذا فان على سعيد باشا اتجه منذ ابلاغه بأنباء الهدنة الى التسليم للانجليز ، والاسراع بمغادرة البلاد اليمنية التى قاسى هو ورجاله فيها الأمرين ، دون أن يهتم كثيرا باتاحة الفرصة للامام يحيى لتسلم ما تحت يد الترك من الأراضى اليمنية الأمر الذى سهل على الانجليز وأشياعهم من حكام تلك المنطقة العودة الى تلك الأراضى والسيطرة عليها •

وقد سافر على سعيد باشا الى الأناضول كآحد الجنود الأتراك الذين انتهت مهمتهم فى احدى بقاع الامبراطورية العثمانية(١) • أما محمود نديم بك فكانت علاقاته الطيبة بالامام يحيى تشجعه على أن يؤثر البقاء فى اليمن « هو وبعض الموظفين الآخرين من العثمانيين – بلغ عددهم حوالى تسعمائة – تحت ظل حكومة الامام (المتوكل على الله) • فأقاموا هناك ، وقد أعطاهم الامام الرواتب والمعاشات اللازمة ، وقد عين بعضـا منهم فى المناصب الحكومية » (٢) على حـد تعبير الواسعى • وكان محمود نديم بك وراغب بك (٣) من بين العثمانيين الذين استعان الامام يحيى بخبراتهم ، وأسهموا بدور ايجابى وفعال فى خدمة بلاد اليمن المستقلة •

وقد تمت تلك الأحداث الحاسمة فى تاريخ الحكم العثمانى فى اليمن خلال فترة زمنية وجيزة ، وانتهت بانسحاب القوات العثمــانية من اليمن بأكمله فى أوائل سنة ١٩١٩ م (٤) ، وبذلك حصل اليمن على استقلاله الذى تأكد وصودق عليه واعترف به دوليا فى ٢٤ من يوليو سنة ١٩٢٣ فى أثناء الدورة الثـانية لمؤتمر الصلح الذى عقد بمدينة لوزان لتسوية المسائل التى لم تسو بين الترك والحلفــاء (٥) • وقد نصت المادة السادســة عشرة من معاهدة « لوزان » على « تنازل تركيا عن جميع حقوقها فى الأراضى الواقعة خارج الحدود التى عينتها المعاهدة » ، وكانت اليمن خارج نطاق تلك الحدود كما أشارت المادة الستون

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ •
(٢) الجرافى : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ •
(٣) Brémond : Op. cit., p. 87.
Scott, H. : Op. cit., p. 120.
(٤) Brémond : Op. cit., p. 84.
(٥) فاضل حسين (دكتور) : المصدر السابق ، ص ١٥ •

من المعاهدة المذكورة الى أن الدول التى فصلت عن تركيا لها الحق فى أخذ الممتلكات العثمانية الواقعة فيها ، مما منح الامام يحيى الحق فى ملكية ما كان فى اليمن من ممتلكات عثمانية بعد جلاء العثمانيين عن بلاده فى أواخر سنة ١٩١٨ م ٠ وقد صارت معاهدة « لوزان » نافذة اعتبارا من اليوم السادس من شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ بعد أن أودعت اليونان وثائق ابرامها فى ١١ من فبراير سنة ١٩٢٤ م ، وتركيا فى ٣١ من مارس سنة ١٩٢٤ م ، وبريطانيا وايطاليا واليابان فى ٦ من أغسطس سنة ١٩٢٤ م (١) ٠

وهكذا انتهى الحكم العثمانى فى اليمن ، وبدأت البلاد عهدها كدولة مستقلة تحت حكم الامامة الزيدية ، التى كان يمكنها أن تجنى ثمار الاستقلال ، للارتقاء بالشعب اليمنى ، ولالحاقه بركب الحضارة الحديثة ٠

(١) فاضل حسين (دكتور) : المصدرالسابق ص ١٦ ـ ١٩ ٠

الخاتمـــة

أثار الحكم العثمانى فى مقدرات اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية

سوف نختتم هذا البحث بمحاولة تقييم الآثار التى تركها العثمانيون فى مقدرات اليمن ، تلك الآثار التى كان يمكن أن تكون فى مجموعها أساسا معقولا وبداية مناسبة يزدهر بعدها اليمن فى أعقاب الاستقلال ، ليرقى الى مستوى شقيقاته من البلاد العربية الأخرى التى انحسر عنها النفوذ العثمانى ، ويشاركهن فى ركب التقدم والمدنية . غير أننا وجدنا أن الامامة الزيدية بنظامها العتيق ، وعدم تدرجها نحو النظم الدستورية الحديثة ، قد شكلت عقبة كئودا فى وجه التطـور التقدمى فى اليمن . ذلك لأن الامامة لم تستفد من التجديدات التى أدخلها العثمانيون على أوجه الحياة اليمنية المختلفة ، كما لم تواصل اتمـام المشروعات الاصلاحية التى وضع العثمانيون أساسها وبدءوا فى تنفيذها ، وأقبل عليها اليمنيون بعد أن لمسوا فوائدها وأحسوا بحاجتهم الى المزيد من صنوفها النافعة . ولهذا فان الشعب اليمنى فى نهاية الأمـر حارب حكم الامامة البالى وأطاح بمقدراته الى الأبد ، وأعلن تحول البلاد الى جمهورية عربية يمنية ، ليأخذ بذلك مكانه تحت الشمس ، وليستعيد مكانته بين أمم العالم بما يتناسب مع حضارته العريقة وأمجاده الخالدة .

ومما لا شك فيه أن الحكم العثمانى الأخير فى اليمن لم يكن بصفة عامة خيرا على تلك البلاد ، شأنها فى ذلك شأن شقيقاتها العربيات التى تعرضت لنير الاستبداد العثمانى فى أحلك أيامه . ذلك لأن الحكام والمسـئولين العثمانيين الذين كانت توفدهم حكومة الآستانة كثيرا ما كانوا يخطئون ويفعلون ما يؤاخذون عليه فى تصريف شـئون اليمن فى أثنـــاء تبعيتهـا للدولة العثمـــانية . وقد تناولنا بالدراسة فى الفصول السابقة الأحداث التى جرت فى اليمن فى عهد الاستبداد الحميدى والتى تميزت تصرفات العثمانيين فيها باتباع أساليب

العنف والقمع والتعسف ضد الحركات الثورية التى قام بها اليمنيون ، وكذلك فى أثناء الفترة الأولى من عهد حكومة الاتحـاديين فى مطلع العهد الدستورى العثمانى قبل الاتفاق على الصلح مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١م . وكان يدفع العثمانيين الى ذلك ـ وبخاصة الاتحاديين منهم الذين تمسكوا بالمركزية المتطرفة وسياسة التتريك العنصرية وفكرة الاخضاع قبل الاصلاح ـ رغبتهم فى الابقاء على سيادتهم الفعلية فى اليمن فى وقت تعرضت فيه دولتهم لكثير من الهزات والانتكاسات فى أوربا . كما كان العثمانيون يحولون دون تسرب أنباء الثورة وتيارها العنيف الذى اجتاح اليمن الى بقية الولايات العربية التابعة لهم حتى لا تفقد دولتهم سيطرتها على تلك الولايات ، وبخاصة ولاية الحجاز التى تضم الأماكن الاسلامية المقدسة فيفقد العثمانيون بفقدها مركزهم المرموق بين الامم الاسلامية باعتبار سلطانهم خليفة المسلمين و « حامى حمى الحرمين الشريفين » . وفى سبيل ذلك استعمل العثمانيون أساليب البطش والعنف والاضطهاد مما كان يزيد لهيب ثورة اليمنيين اشتعالا ضد الحـكم العثمانى وممثليه من الموظفين العثمانيين العسكريين والمدنيين على السواء .

بل ان كثيرا من هؤلاء الموظفين العثمانيين كانوا يعتبرون تكليفهم بالعمل فى بلاد اليمن نفيا لهم وابعادا فى تلك الولاية النائية ، فكانوا يكرهون البقـاء هناك ، ويتطلعون دائما الى بلادهم . وكان هذا الفهم وذلك الشعور ينعكس فى تصرفاتهم ، فتحولت كراهيتهم هذه لمهمتهم الى نقمة على الشعب اليمنى ، واساءة فى معاملة أبنائه الأبرياء ، مما كان يعمق الهوة ويزيد من عوامل الشـقاق والبغضاء فى كثير من الأحيان بين العثمانيين واليمنيين على النحو الذى سبق الاشارة اليه على مدار البحث .

وقد فرض العثمانيون على الشعب اليمنى أنواعا من الضرائب والرسوم الجمركية ليتمكنوا بوساطتها من تغطية نفقات القوات العثمانية فى ولاية اليمن ومرتبات الموظفين العثمانيين هناك ، الى جانب القيام ببعض الاصلاحات واقامة بعض المنشآت وارسال ما يتبقى بعد ذلك الى خزانة الدولة العثمانية المجهدة فى ذلك الحـين . ولا شـك أن هذه الضرائب وتلك الرسوم ضايقت اليمنيين كثيرا نظرا لأنهم لم يعتادوها من قبل ، كما أنهم كانوا يدفعون أنواعا أخرى منها للامام الزيدى فى نفس الوقت تمثلت فى ضريبة الزكاة والعشور وغيرها واستندت فيها الامامة الى نصوص من الشريعة أولتها تبعا لما كانت تقتضيه مصالحها الخاصـة . وقد نتج عن ذلك أن ناء اليمنيـون بحملهم وأرهقتهم الضرائب بأنواعها المختلفة أشد الارهاق ممـا جعلهم يتهربون من محصليها العثمانيين الذين تولوا جمع ما يخص الامام منها أيضا بعد اتفاق الصلح الذى عقد بين الجانبين فى سنة ١٩١١م . وقد استخدم العثمانيون أساليب الضغط والارهاب فى تحصيل هذه الضرائب من أبنـاء اليمن ، وأساء بعض الولاة

العثمانيين استعمال سلطاتهم فى هذا السبيل ، فاستغلوا الشعب اليمنى أبشع استغلال ، مما جعل الحكم العثمانى يشكل عبئا جاثما على صدور اليمنيين ٠

بل ان بعض الولاة والموظفين العثمانيين عسكريين ومدنيين على السواء اتصفوا بالجشع والطمع وحاولوا أن يستحوذوا على ثروات طائلة فى أثناء بقائهم فى اليمن ، وسلكوا فى سبيل ذلك مسالك عديدة كان لها أسوأ الأثر لدى اليمنيين ٠ فقد اضطهد بعض الولاة والمأمورين الأتراك عددا من علماء اليمن وأبنائه وصادروا أموالهم ، وتآمروا ضد الأهالى الأبرياء ، وأثاروا حقد الباب العالى على اليمنيين وبخاصة أتباع المذهب الزيدى قبل اتفاقهم على الصلح مع الامام يحيى فى سنة ١٩١١ وقد تفشى داء الرشوة بين الموظفين العثمانيين فى ولاية اليمن النائية ، حيث ضعفت الرقابة عليهم وازداد تسلطهم على رعاياهم اليمنيين ، بل ان بعض الموظفين العثمانيين كانوا يحاربون الولاة المصلحين فى كثير من الأحيان ويتآمرون عليهم للتخلص منهم حتى لا تغل أيديهم عن استغلال الشعب اليمنى والاساءة اليه ٠ ولهذا اضطر بعض الولاة العثمانيين أن يذعنوا لرغبة الموظفين الترك وأن يقفوا مكتوفى الأيدى أمام محاولاتهم للاستحصال على الرشوة وابتزاز الأموال من أهالى الولاية ، وذلك فى الأوقات التى ضعفت فى أثنائها الادارة العثمانية المسئولة فى اليمن عن معارضتهم ومنعهم من ارتكاب مثل هذه المظالم فى معاملتهم للشعب اليمنى ، وقد أشرنا الى كل ذلك فى الفصول السابقة ٠

وجدير بالذكر أن الحكم العثمانى فى اليمن لقى هجوما عنيفا من كثيرين من الكتاب العرب حتى اعتبر فى رأيهم أهم الأسباب التى أدت الى تخلف الشعب اليمنى ، فقد بالغ أحدهم وهو نزيه مؤيد العظم فى تشويه صورة الحكم العثمانى بقوله : « ان اليمانيين منذ القدم أهل جد ونشاط ، واذا رأيناهم اليوم متأخرين عن غيرهم من الأمم فلاشك أن ذلك يعود الى الامبراطورية العثمانية التى أهملت شأن اليمن كما أهملت غيره من الأقطار العربية كل الاهمال ٠ وكانت تعتبر بلاد اليمن مستعمرة حقيرة وتعامل أهلها معاملة سيئة ، ولم يكن لها هم غير جباية الضرائب وارسالها الى العاصمة العثمانية اشباعا لبطن عاهلها ورجاله ٠ واذا طاف المرء بلاد اليمن من أقصاها الى أقصاها ، لا يجد للدولة العثمانية أثرا من آثار المدنية غير الحصون والقلاع وبعض المستشفيات العسكرية والأسلاك البرقية ومدرسة أو مدرستين صناعيتين ٠ وكان رجال تركيا لا يرسلون الى اليمن الا كل مغضوب عليه من الموظفين الملكيين والعسكريين ، غير ناظرين الى المقدرة العلمية والأهلية والشخصية ، فكان هؤلاء الموظفون يسيئون استعمال وظائفهم ، ويرتكبون الموبقات والمحرمات ويتناولون الهدايا والرشوات وهذا مما أثار خواطر اليمانيين وجعلهم فى احتراب دائم مع الحكومة العثمانية » (١) ٠

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ج١ ، ص ٥٥ ـ ٥٦ ٠

على أنه مهما قيل عن الحكم العثمانى الأخير فى اليمن ، فان أحدا لا يستطيع أن ينكر أن العثمانيين حرصوا على ادخال كثير من الاصلاحات الحديثة ، ولكنهم كانوا يصطدمون دائما بالثورات والعناصر الرجعية التى كانت تحركها الامامة مما جعل مدة حكمهم مملوءة بالحروب وقمع الثـورات ، وجعلهم يضطرون الى استخدام القسوة فى كثير من الأحيان ، فكان ذلك يصرفهم بطبيعة الحال عن مواصلة الاصلاح · وكان بعض أولئك المصلحين من العثمانيين يريدون دفع اليمن الى الأمام ليسير مع الزمن ، ولكنهم كانوا اذا فعلوا ذلك وجدوا من يتهمهم من أهل اليمن بخروجهم عن الدين · ولم يحاول العثمانيـون بحالة من الأحوال تأخير الشعب اليمنى أكثر من غيره من شعوب الشرق العربى التى كانت تحت سيطرتهم ، اذ كانوا جميعا سواء فى تحمل الأذى من جراء المظالم فى تلك الأيام· وقد خلد التاريخ لبعض الولاة والموظفين العثمـانيين فى اليمن أعمالا جليلة وعدلا وحبا للشعب اليمنى واهتماما بشأنه ، ولكن أمثال هؤلاء كانوا قلة اذا قيسوا بالآخرين (١) ·

وعلى الرغم من كل ذلك فقـد لاحظنا أن اليمن قد تمتع فى عهد الحـكم العثمانى الأخير وبخاصة بعد الانقلاب الدستورى العثمانى بحكم معتدل كان يتناسب وحالة ذلك العصر ، ثم حرم اليمن من ذلك الحكم المعتدل بعد أن ملكت الامامة زمام الأمور هناك فى عهد الاستقلال · وهذا ما حدا بالكثيرين الى القول بأن الحكم العثمانى فى اليمن لو كتب له البقاء والاستمرار لساعد اليمنيين على التدرج فى ظله نحو الحياة العامة المناسبة · ذلك لأن الولاة والمتصرفين وكبار رجال الحكم من العثمانيين لم يكونوا منفردين بالسلطان فى معظم الأحيان ، بل كانوا يرجعون الى الدوائر العليا فى الآستانة عاصـمة الدولة العثمانيـة ، ويحاسبون أمامها عما يكون قد حدث من تقصير فى تصريف شئون البلاد · ومعنى ذلك أن الشعب اليمنى كان يتمتع نسبيا بحرية شعبية فى ظل الادارة العثمانية وكان فى استطاعة أبنائه أن يشكوا وأن يقاوموا ظلم العثمانيين مما جعلهم يعتادون على حكم نظامى قائم على علاقات محددة بين الحاكم والمحكوم · وقد وجدت فى كل لواء وقضاء مجالس محلية ، يطلق عليها « مجلس الادارة » كانت تضم أعضاء من صفوة أبناء البلاد الواقفين على حاجات مواطنيهم · وكان هؤلاء خير أداة لمعاونة الحكومة فى تطبيق العدالة · لأنهم كانوا يعتبرون وسطاء بين الشعب وولاة الأمور المسئولين من العثمانيين · وبهذا كان ميسورا الى حد ما الوقوف على رغبات الشعب ، وكان ميسورا استجابة مطالبه فى كل نواحى الحياة ·

وكان هناك مجلس شعبى آخر وهو « المجلس العمومى » للولاية ، ومقره

---

(١) أحمد فخرى (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ١٦٠ ·

صنعاء عاصمة اليمن ، ورئيسه الوالى العثمانى ، ونائب الرئيس من الوطنيين ذوى الخبرة فى شئون البلاد ، وأعضاؤه يبلغون الثلاثين نائبا . وهذا المجلس كان يتمتع بسلطة واسعة كبرلمان مصغر ، يفتتح فى موعد معين باحتفال شعبى عظيم ، ويلقى فيه الوالى العثمانى خطبة الافتتـــاح ، كمـا هو معمول به فى البرلمانات الكبرى على النحو المعروف ، يذكر فيه الوالى ما تم فى السنة الماضية، وما قامت به حكومة الولاية من اصلاحات وتعمير وتعليم ، وبالجملة كل ما أدخل على مرافق البلاد من تحسين ونهوض . وكانت لهذا المجلس عدا سلطته الواسعة، ميزانية خاصة ، لها أبواب فى الانفاق ذات بنود محددة ، كما كانت له ادارة نشيطة وسكرتيرية عاملة طيلة السنة الحكومية .

هــذا عدا ما كان لليمن من نواب يمنيين يتمتعون بالوطنية والكفاية ، ويمثلون الشعب اليمنى فى البرلمان العثمانى (مجلس المبعوثان) ، يناقشون ويجادلون ويسألون ويستجوبون من أجل المصلحة العامة لبلادهم ، فكان للشعب اليمنى رهبته لدى الحكام المحليين ، المنفذين لقوانين الدولة . ولو بدا منهم أى تقصير نحو الشعب سارع أولئك النواب اليمنيون فى توجيه الســـؤال والاستجواب ومطالبة الحكومة فى الآستانة بتطبيق العدالة والنهوض بالبلاد الى المستوى اللائق بمكانتها وتاريخها . وقد أتاح كل ذلـك للشعب اليمنى فرصة التعود على الحياة المنظمة وعلى السلطان الشعبى نسبيا فى تلك الفترة القصيرة ، مما ساعد على تنمية الاستعداد الموجود لديه لممارسة تقرير مصيره ، وتهيئته للحياة العامة المستنيرة .

بل انه لوحظ فى الحقبة الأخيرة للحكم العثمانى فى اليمن أنه كانت هناك محاكم متنوعة مؤسسة ومنتشرة فى أرجاء البلاد ، من شرعية وتجارية ، ووطنية أهلية ، واستئناف لكل هذه ، وتمييز خاص (أى محاكم للنقض والابرام) . كما يضاف الى ذلك نظام النيابات ، حيث كان يوجد النائب العمومى ومركزه صنعاء ، ووكلاء النائب العمومى فى الألوية والأقضية ، وأكثرهم ممن تخرجوا من كلية الحقوق بجامعة الآستانة ، وبعضهم ممن تدرب فى القضاء ورقى فى السلك القضائى حتى وصل الى رئيس محكمة أو رئيس نيابة . أما كبـــار القضـــاة ورؤساء المحـــاكم الكبيرة فقد كانت الدولة تنتخبهم من كبار رجال القانون والتشريع والفقه وممن يجيدون العربية ويتحلون بالنزاهة والخلق(١) . كما شهد العهد العثمانى الأخير فى اليمن انتشار المستشفيات الصـــحية فى البلاد ، ووجود عدد من الأطباء والصيدليات ، كما أن المدارس انتشرت على اختلاف أنواعها فى جميع أنحاء اليمن ، وكان التعليم مجانا على نفقة الدولة(٢). فقد كان فى صنعاء ومدينة « أبها » عاصمة عسير ، خمس مدارس ، للصناعة

(١) اليمن المنهوبة المنكوبة : (مجهول المؤلف) ، ص ١ – ٣ .

(٢) Bury, G.W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen, p. 73.

ولتعليم الايتام والبنات ، ومدرسة عسكرية للتعليم العسكرى الاعدادى الذى يوصل الطالب الى الكلية الحربية بجامعة الآستانة • كما أقام العثمانيون مدرسة للصناعات فى الحديدة وقد شاهد أطلالها نزيه العظم الذى قام بزيارة اليمن فى سنه ١٩٢٧ م وكانت قد تهدمت اثر المعارك التى دارت حولها بين جيش الامام يحيى وجيش الأدارسة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولم تعمل الامامة على تجديدها فيما بعد (١) • هذا عدا ما كان من نظام شائع فى ولاية اليمن ، فى النواحى الادارية على وجه الخصوص ، فقد كلف بالعمل عدد من كبار الموظفين وصغارهم المتعلمين الذين قاموا بواجبهم فى خبرة وكفاية مما جعل الدولاب الحكومى فى جميع مرافق الحكومة بالولاية يسير سيره فى بقية الولايات العثمانية الأخرى • وفضلا عن ذلك وجد التمثيل السياسى والقنصلى لكثير من الدول بعاصمة الولاية وبعض ألويتها وأقضيتها • وكان بصنعاء كما فى بقية الولايات العثمانية مصلحة تدعى « ديوان الشئون الأجنبية » وكان هذا الديوان مرتبطا بالولاية ومديره يتقن عددا من اللغات الأجنبية •

وقد اهتم العثمانيون اهتماما بالغا بشئون القبائل والعشائر اليمنية ، وحاولوا تنظيم حياتهم ، وتدبير عيشهم ، وتعويدهم حياة السلم والأمن فى ظل القانون والنظام ، حتى تنعم الولاية بالسلام ويسودها الاستقرار • وكان الأئمة من قبل يحرضون القبائل بعضها على البعض الآخر من أجل تحقيق مآربهم الشخصية والقضاء على منافسيهم مما كان يثير الفوضى والاضطرابات فى البلاد •

كما أولى العثمانيون الشئون العمرانية فى اليمن عنايتهم الفائقة • ففى عهدهم كان تجميل صنعاء ، وشق الطرقات بها ، وأنشئوا أحياء حديثة فى عاصمة الولاية ، منها حى « بير العزب » الذى أقامه العثمانيون خارج سور صنعاء على أحدث طراز فى عصره (٢) • وفى هذا الحى كثرت الحدائق حول المنازل الحديثة التى أقامها العثمانيون والتى حوت كل وسائل الراحة ، كما أقاموا عددا من المقاهى فى أحد الشوارع المجاورة « للسوق العربى » فى صنعاء وكانت كلها ذاخرة بالرواد من عثمانيين ويمنيين على السواء •

وقد اعتنى العثمانيون كذلك بشئون الزراعة فى اليمن ، وأدخلوا كثيرا من الأساليب الزراعية الحديثة ، واستوردوا ما ليس موجودا باليمن من الخارج لتنمية موارد الولاية ، مما يعود على أهلها وعليهم بالخير والكفاية ولا سيما فى الأوقات التى تعرضت فيها اليمن للحصار البحرى الايطالى والبريطانى ، وقد

---

(١) نزيه مؤيد العظم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧ •
هانز هولفرتز ؛ اليمن من الباب الخلفى (ترجمة خيرى حماد) ، ص ١٦٧ •
(٢) Bury, G.W. : Op. cit., p. 69,

جادت الأرض اليمنية الغنية بالكثير من الخيرات مما أثبت أن اليمن ذات ثروات طبيعية هائلة · كما أقام العثمانيون فى مناخة طاحونتين هوائيتين كانتا تعملان بصفة دائمة لطحن الغلال لحاجة الولاية (١) ·

وأنشأ العثمانيون فى اليمن نظاما ماليا محدد المعالم ، فكانت بصنعاء ادارة عامة منظمة لها فروعها العديدة بمختلف الأقاليم ، وكان يتولى الادارة من يطلق عليه لقب « الدفتردار » ويعتبر منصبه نائبا عن وزير المالية فى الولاية ، وكان يتبعه المحاسبون ؛ ومديرو المال ؛ وكبار الصيارفة وصغارهم ، ومأمورو التحصيل ، والمحصلون · وقد استعمل فى اليمن من العملات العثمانية الجنيه التركى الذهبى والريال المجيدى الفضى ، وكان يستعمل هناك من العمــلات الأجنبية الجنيه الانجليزى والجنيه الفرنسى وريال ماريا تريزا النمسوى ، كما كان يتعامل أهالى الحديدة بالروبية الهندية أيضا (٢) ·

وقد ازدهرت التجارة اليمنية ابان العهد العثمانى وأثرى من ورائهــا كثيرون من أهالى البلاد سواء من كان منهم فى المناطق الجبلية ، أم فى المناطق الساحلية · وكان فرع البنك العثمانى فى الحديدة يؤدى ما ينعش الحالــة الاقتصادية فى اليمن · كما كان الاستقرار والمحافظة على الأمن من الأمور التى كانت تحرص الادارة العثمانية على توفيرها ، مما ساعد فعلا على ازدهار التجارة وانعاشها · وقد نال العثمانيون تقدير واعجاب أهالى المدن اليمنية وبخاصــة من عاش منهم بالقرب من المراكز الادارية العثمانيــة ، اذ أمكنهم أن يروا ويلمسوا الجهود التى كان يبذلها جهاز الادارة العثمانى للمحافظة على الأمن والاستقرار فى البلاد وتجنيبهــا الفوضى والاضطــرابات · بل انهم كـــانوا يعتقدون على أقل تقدير أن العثمانيين لم يكونوا أسوأ من أئمتهم السابقين ، لا سيما وأن العثمانيين كانوا يتصدون دائما لمقاومة غارات القبائل التى كانت تشن بتحريض من الأئمة لسلب المدن اليمنية ونهبها (٣) ·

كذلك حاول العثمانيون أن ينتفعوا ويفيدوا الولاية اليمنية من الثروات الطبيعية الموجودة فيها فى مجالات أخرى غير الزراعة ، فأقاموا منشأة ملاحات الصليف التى كان يستفيد منها ويعيش عليها كثير من العمال والعاطلين ، هذا فضلا عما كانت تدره من أموال طائلة على خزانة الولاية نتيجة لاستغلال الملح فى الأغراض التجارية · وفى عهد الامامة عقب الاستقلال تعطل استغلال ملح الصليف تجاريا واقتصر على الاستفادة منه محليا ، ورفضت حكومة الامامة منح

---

(١) Bury, G.W. : Ibid., p. 117.
(٢) Bury, G.W. Ibid., p. 130.
(٣) Bury, G.W. Ibid., p. 134.

امتياز استغلاله تجاريا لأى شركة أجنبية تمسكا منها بسياسة العزلة وبحجة خشيتها من التدخل الأجنبى فى شئون البلاد (١) ٠

وقد اتجهت نية الحكومة العثمانية فى اليمن ـ وبوشر فعلا ذلك ـ نحو شق الطرق وتعبيدها فى الجبال العالية المرتقى والسهول المنخفضة المترامية ، والعمل على ايجاد شبكة من السكك الحديدية تصل مناطق البلاد النائية ببعضها لتسهيل الانتقال ، وتيسير عمليات التصدير والاستيراد من منطقة الى أخرى ، وبين اليمن وغيره من البلاد ، مما يهيىء الرفاهية للولاية وينعش اقتصادياتها ٠ وقد اهتم العثمانيون أولا بالطريق الموصل بين الحديدة وصنعاء ؛ ولهذا الطريق أهميته الاستراتيجية الى جانب أهميته الاقتصادية حيث كان يربط العاصمة بالميناء الطبيعى لها وهو الحديدة ٠ وقد اهتم العثمانيون بتحسين واصلاح ميناء الحديدة للغرضين الاقتصادى والحربى فأصبح الميناء الأول لليمن ٠ وقد أنشأ العثمانيون أرصفة جديدة لهذا الميناء فى رأس الكثيب شمال الحديدة كلفتهم أربعة عشر ألفا من الجنيهات تقريبا ٠ وقد تعاقدوا مع مهندسين أجانب أشرفوا على تنفيذ هذا المشروع ٠ كما أنشأ العثمانيون فى الحديدة مكثفا ينتج عشرة أطنان من الثلج يوميا ، وقد كلفتهم مولدات الأيدروجين مبلغ ألف من الجنيهات ، واستوردت بالتعاقد مع أحد المصانع الايطالية (٢) ٠

ثم بدأ العثمانيون فعلا فى مد خط حديدى من رأس الكثيب ويمر بميناء الحديدة والى الداخل على مدى نحو خمسين كيلو مترا حتى قرب « الطنمية » الواقعة بالقرب من « باجل » (٣) ، وسارت أول قاطرة فى حفل افتتاح مهيب ، حضره الوالى العثمانى وكبار رجال الولاية ورجال السلك القنصلى باعتباره أول حادث تاريخى فى حياة اليمن العمرانية والاقتصادية ٠ وكانت قد تعاقدت وزارة الأشغال العمومية العثمانية مع شركة فرنسية لانجاز هذا المشروع ، وأمر عزت باشا فى سنة ١٩١١ م باقتلاع الأعشاب وتمهيد الأرض من رأس الكثيب على بعد عشرة أميال شمال الحديدة ليبدأ من هناك الخط الحديدى ويمر بالحديدة ثم يتجه عبر الهضبة الوسطى الى صنعاء ٠ وبعد البدء فى تنفيذ المشروع على هذا النحو اشتعلت نيران الحرب الطرابلسية ، فاستبدل المهندس الايطالى المشرف على التنفيذ بآخر فرنسى ، غير أن الأخير لم يكن على وفاق مع مساعديه ولا مع السلطات العثمانية فى الولاية ٠ وجدير بالذكر أن الفرنسيين الذين حضروا الى اليمن لتنفيذ هذا المشروع قاموا باعداد خريطة لليمن لم تكن بياناتها تامة كاملة ، وقد عثر على هذه الخريطة القاضى محمد راغب التركى الأصل

---

(١) السيد مصطفى سالم : اليمن والامام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) ، ص ٤٦٩ ٠

(٢) Bury, G. W. : Op. Cit., p. 126.

(٣) نزيه مؤيد العظم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٩ ٠

الذى عمل مستشارا للامام يحيى بعد جلاء العثمانيين عن البلاد . ولم تعن الامامة باعداد خريطة لليمن ، مما جعل القاضى راغب هذا يبدى أسفه لنزيه العظم « لعدم وجود خريطة تفى بالمرام » (١) . وقد ضربت مدافع الأسطول الايطالى سواحل اليمن فى سنة ١٩١٢ حتى يشغل العثمانيون عن مقاومة ايطاليا فى طرابلس الغرب ؛ فخرب جانب من معدات المشروع ؛ ثم انسحبت ادارة الشركة الفرنسية دون استكمال الانشاءات المطلوبة (٢) . وقد أهمل هذا الخط الحديدى بعد ذلك ولم تعمل الامامة على اصلاحه وانجازه فى عهد الاستقلال ، فاقتلعه بعض العامة واستخدموه دعامات فى أبنيتهم (٣) ، فخسرت اليمن بذلك مشروعا هاما كان سيعود على البلاد بأرباح طائلة وخيرات كثيرة .

بل انه سبق مشروع الخط الحديدى هذا قيام العثمانيين فى اليمن بتنظيم البريد ومد أسلاك البرق بين كثير من المدن اليمنية (٤) . ولا شك أن البرق كانت له أهميته الاستراتيجية الخطيرة فى اليمن حيث الجبال الشاهقة الارتفاع والطرق الصعبة الوعرة . وكثيرا ما كانت تتعرض أسلاك البرق للقطع والتعطيل فى أثناء قيام الثورات اليمنية ضد الحكم العثمانى . وفى تلك الحالة كان العثمانيون يستعيضون عن البرق بمراكز الاشارة المرئية الواقعة على مسافات متقاربة على طول الطريق بين الحديدة وصنعاء . على أنه كان بين هاتين المدينتين يوجد خطان ثنائيان : أحدهما للبرقيات المحلية والعامة والآخر للبرقيات الحكومية . ويتصل هذا الخط الأخير بالعالم الخارجى من الحديدة الى الشيخ سعيد عن طريق بيت الفقيه وزبيد ثم مخا ، ومن هناك يتصل بخط بحرى قصير الى جزيرة بريم . وكان هذا الخط يعمل جيدا فى سنة ١٩١٣ م غير أنه كان أكثر عرضة للتعطيل لبعده عن مراكز الحراسة التى تقوم بها السلطات المحلية العثمانية فى اليمن . وقد امتد خط آخر للبرق من صنعاء الى ذمار عبر المنطقة الجبلية وكان يصل الى بريم وأب وتعز ثم يمتد جنوبا حتى المخا ، وقد ذكر « برى » أن هذا الخط كان معطلا فى سنة ١٩١٥ م . وفضلا عن ذلك فقد وجد خط برقى ثالث بين الحديدة واللحية ، وكان يتفرع منه خط يصل الى الصليف ومن هناك يمتد خط برقى بحرى الى جزيرة كمران حيث كانت توجد محطة للحجر الصحى للحجاج الشرقيين (٥) . وقد عين مدير

---

(١) نزيه مؤيد العظم : المصدر نفسه ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

(٢) Bury, G. W. Op. Cit., p. 128.

(٣) عبد الواسع الواسعى : تاريخ اليمن ، فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن . ط ٢ ، ص ٣٥ .

(٤) Bury, G.W. Op. Cit., p. 57.

(٥) Bury, G. W. Ibid, pp. 164-165.

عام ، للبرق مقره فى صنعاء عاصمة الولاية ؛ وكان يتقـاضى مرتبا مقداره ستون جنيها ذهبيا كل شهر • وقد منح هذا المدير لقب « صاحب السعادة » ؛ كما منح هذا اللقب أيضا لمدير عام جمرك الحديدة ؛ ومدير الشرطة فى الولاية ؛ وقومندان الجندرمة •

وقد سبق أن أشرت الى أن نظام الجندرمة قد أتاح الفرصة لليمنيين للانتظام فى سلك الجندية وتلقى التدريبات التى كانت تلقن للجنود العثمانيين• وقد أثبت اليمنيون مهارة فائقة فى صفوف الجندرمة مما شـجع الـوالى العثمانى اسماعيل حقى باشا على محـاولة استبدال العساكر التركية بعساكر غيرهم من العرب اليمنيين ؛ غير أن الباب العالى عارضه فى ذلك ، وانتهى الأمر بعزله عن الولاية على النحو الذى سبق أن أوضحته • ولا شك أن انتظـام اليمنيين فى هذا التشكيل كان حادثا هاما فى تاريخ اليمن اذ نتج عنه خلق نواة لتكوين جيش نظامى يمنى • كما انخرط كثير من أبناء اليمن فى سلك الجيش العثمانى وبخاصة عقب الصلح الذى عقد بين الدولة العثمانية والامام يحيى فى سنة ١٩١١ م ، ولم تعد الامامة تعترض على ذلك كما كانت تفعـل من قبل عندما كانت تخشى أن يصبح اليمنيون المجندون سلاحا ضدها فى يد الأتراك ، وقد تعلم اليمنيون المجندون أشياء كثيرة من العثمانيين ، واكتسبوا خبرات نافعة من مخالطتهم والاندماج معهم فى حياة مشتركة (١) •

من كل هذا يتضح لنا أن أبنـاء الشعب اليمنى ، من كان منهم فى المناطق الجبلية الآهلة بالسكان ، أم أهل تهامة والسواحل ، قد تفهمـوا من العثمانيين فى أثناء حكمهم الأخير لليمن نواحى الحياة العامة الراقية نوعا ما ، وأدركوا معنى الكيان الفردى وتمتعـه بحقوقه الشخصـية ، كما تفهموا سبل التمدين العصرية والتعود نسبيا على أساليبه ، وأقبل اليمنيون على التثقيف العصرى بحيث لقن الكثيرون من شبابهم شيئا من العلوم الحديثة تبعا للمستوى التعليمى حينذاك ، واستعادوا الى جانب ذلك صناعات ومعـارف عديدة على يد العثمانيين العاملين فى حكومة الولاية (٢) •

وعلى النقيض من كل ذلك كان نظام الحكم فى اليمن فى عهـد الامامة الزيدية عقب الاستقلال ، اذ كان الامام يحيى الذى تولى زمـام الأمور هناك « يقبض على شئون شعبه الروحية والدنيوية » على السواء ، كما ادعى القدسية التى آمن بها أتباع المذهب الزيدى من اليمنيين وبخاصة فى الأجزاء الجبلية من

---

(١) الواسعى : المصدر السابق ، ٢ ، ص ٢٦٠ – ٢٦١ •

(٢) اليمن المنهوبة المنكوبة : (مجهول المؤلف) ، ص ٤ – ٦ •

بلاده (١) • بل ان الامام يحيى كان من « غلاة المحافظين فى آرائه الاجتماعية ، وهو من أنصار القديم ودعاته والمتمسكين به » ، وان أشار أمين سعيد الى ميل الامام الى الاستفادة من المخترعات الحديثة ، الأمر الذى كان يعارضه بعض أتباعه من الزيديين (٢) •

وقد أكد « هيوسكوت Hugh Scott » أوتوقراطية حكم الامام يحيى فى اليمن عقب الاستقلال بقوله : « ان الملكية فى اليمن تعد من أكثر الملكيات أوتوقراطية فى العالم » (٣) • ذلك لأن الامام كان حكمه مطلقا ، اذ أمسك بزمام الأمور فى بلاده ؛ وركز السلطة كلها فى يديه ؛ ولم يسمح بالتصرف فى صغائر الأمور الا بعلمه وموافقته ، وكان لا يوافق على وجود شكل دستورى لحكم اليمن ؛ بل تعمد أن تكون السلطة كلها فى يده هو ؛ دون الوزراء أو الأمراء أو الاداريين عموما • ولم يكن لملك اليمن « حكومة » بالمعنى المعروف ، بل كان له « بلاط » ؛ ولهذا كان الامام يحيى ملكا أوتوقراطيا بكل معنى الكلمة • فالامام كان يعين « وزراء » ، وهذه الألقاب التى كان يخلعها عليهم لم تكن سوى ألقاب شرف لأن معظمهم كانوا من أولاده وبخاصة فى أواخر أيامه ، « أما مراكزهم فهى وسائد الديوان التى يجلسون عليها فى حضرة مليكهم ، وأما سكرتاريوهم فيؤخذون من بين الكتاب الذين يتجمعون فى أبهاء « المقام » (قصر الملك) وغرف الانتظار فيه » (٤) • وكان أحد أولاد الامام يحيى على سبيل المثال وزيرا للمواصلات فى الوقت الذى كانت فيه المواصلات فى اليمن محدودة الى أقصى حد ، وتقوم فى الغالب على ظهور البغال والابل ، كما لم يهتم الامام بتعبيد الطرق • أما البريد فكان صورة بدائية وأما البرق فقد أهملته الامامة ولم تبد اهتماما بشأنه (٥) •

ولم تحرص الامامة على معرفة رأى الشعب اليمنى فى شئون بلاده ، الا فى الظروف الاستثنائية التى كان لا يريد فيها الامام أن يتحمل المسئولية بمفرده • وفى تلك الحالة كان الامام يجمع مجلسا يضم وجهاء البلاد وعلماءها وذوى الرأى فيها ممن عرفوا بالخبرة والحنكة وبعد النظر وأصالة الرأى ، لكى يبحثوا الموقف من جوانبه المختلفة ويشتركوا مع الامام فى تحمل المسئولية • فالامام يحيى على سبيل المثال لم يؤثر عنه أنه جمع مجلسا لبحث شئون الدولة الا عند اعلان الانسحاب من الضالع عندما طلب الانجليز منه ذلك ؛ حتى لا يتحمل

---

(١) Stark, F. : The Arab Island. p. 26.

(٢) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، ص ١٨٩ •

(٣) Journal of The Royal Central Asian Soc., XXVII, 1940, p. 22.

(٤) سلفاتور أبونتى : مملكة الامام يحيى (ترجمة طه فوزى) ، ص ١٠٢ — ١٠٣ •

(٥) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٥٤ •

المسئولية بمفرده فى جلاء قواته عن تلك المنطقة التى أصبحت مرتعا للنفوذ البريطانى بخاصة وأن عدن كانت مركزا لنشاط الانجليز التوسعى فى جنوب اليمن ٠

ومعنى ذلك أن الحكومة اليمنية فى أعقاب الاستقلال كانت هى الامام ، كما كان الامام هو الحكومة ، ولهذا كان يصدر قراراته فى كل أمر من أمور الدولة جل أو هان أولا بأول ٠ وكان من العبث محاولة العثور على وزارات للوزراء على نحو الدواوين المعروفة بدرجاتها الوظائفية الا ما ندر ، أو ما يشبه المكاتب الخاصة ببعض الشئون ، مثل تقديم المعلومات أو القيام بالعمليات الحسابية الخاصة بأموال الدولة ٠ وكانت أموال الدولة هى فى نفس الوقت أموال الامام ؛ وكان له السلطة المطلقة فى التصرف فيها على النحو الذى يراه ؛ دون أن يستشير شعبه أو حكومته ٠

أما عن صورة الحكم الامامى فى أجزاء اليمن المختلفة عقب الاستقلال ؛ فكانت صورة مصغرة من حكم الامام نفسه ؛ اذ كان أمراء الوحدات الادارية الكبرى يتبعون نفس النظام القائم فى العاصمة المركزية ٠ وكان عدد هذه الوحدات حينذاك خمسة وهى : تعز ؛ وحجة ؛ والحديدة ؛ وآب ؛ وصنعاء ؛ وكانت كل وحدة ادارية منها تسمى لواء ٠ وكان اللواء ينقسم الى أقضية ؛ والأقضية تنقسم بالتالى الى نواح ٠ وحتى هذا النظام فانه كان استمرارا للتقسيم الادارى فى العهد العثمانى بعد أن لبس ثوبا اماميا أوتوقراطيا أفقده الكثير من الميزات المقصودة منه (١) ٠

بل ان « سيوف الاسلام » أو أنجال الامام يحيى وبخاصة فى العشر السنوات الأخيرة من حكمه عقب الاستقلال كانوا يديرون شئون الألوية ، ويعاونهم عدد من « العمال » الموظفين ومديرو النواحى ٠ وكان لهؤلاء الأمراء صلاحيات غير محدودة ، اذ كانوا أمراء الجيش المرابط فى مناطقهم ، وأمراء الشرطة ، والجباة ، وحكام الشرع ؛ ومأمورى الخزائن ، كما كانوا مسئولين عن كل شىء أمام « جلالة الامام » والدهم ، بل انهم كانوا يقلدونه فى مظهرهم وطريقة حكمهم لسكان الألوية (٢) ، بنفس الطريقة الاوتوقراطية التى يتبعها الامام نفسه فى عاصمة البلاد ٠

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٥٥ ٠

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ط ١ ، ص ١١٠ ــ ١١١ ٠
(كان سيف الاسلام أحمد أميرا لتعز ، وأمير الحديدة سيف الاسلام عبد الله مع توليه وزارتى المعارف والدفاع ، وأميراب هو سيف الاسلام الحسن ، وأمير صنعاء هو سيف الاسلام الحسين)٠

ولا يعنى هذا أن هؤلاء الأمراء كانت لهم حرية التصرف فى مناطقهم تبعا لما تقتضيه ظروف كل منطقة ، بل ان الامام حرص على الانفراد بالتصرف فى كل شىء فى اليمن ، فكان على جميع الحكام والعمال فى الألوية المختلفة أن يرجعوا فى قراراتهم وأحكامهم — ولا سيما ما كان متصلا منها بالشئون المالية — الى « الحضرة الشريفية » أى الى الامام الذى كان يشرف مباشرة على كل ما يصرف من « بيت المال » مهما كان نوعه · بل ان الامام كان يشرف حتى على الأمور الخاصة بصغار الموظفين ، « فالمستحق لرفع درجته ، ولو كان نصف دينار مثلا لا بد أن تصدر به ارادة ملكية خاصة ، وعلى هذا نقيس جميع مصروفات مرافق الدولة » (١) ·

بل ان الامامة الزيدية بنظامها هذا أيضا عرقلت الطريق أمام الوحدة الوطنية فى اليمن ، اذ كانت تحكم البلاد بنوع من توازن القوى تحققه لنفسها · أولا فى الشمال عن طريق اثارة الخلافات بين القبائل واستباحة دماء قبيلة لأخرى ، ثم كانت تحكمه أيضا بنوع آخر من التوازن بين اليمن الشمالى واليمن الجنوبى الذى يسمونه باليمن الأسفل · حتى استطاعت الامامة بذلك أن تخلق على الأرض اليمنية حياتين — حياة السهل الشافعى الذى يزرع ، وحياة الجبل الزيدى الذى يحكم ويسيطر ، وبالطبع فانه ولو أن مظهر هذا الخلاف كان دينيا الا أن بواعثه ودوافعه كانت بعيدة كل البعد عن الدين · وكان يساعد على ابقاء حكم الأئمة ، ويزيد من تعقيد المشكلة أن اليمن لم يكن فى الحقيقة سوى أوصال منعزلة متقطعة بفعل عدم وجود ما يربط بينها · وكان الأئمة يستشعرون الخطر دائما من وجود طريق يحقق الاتصال بين جماهير الشعب اليمنى · وعندما شيدت الصين الطريق الذى يربط ما بين الحديدة وتهامة وما بين صنعاء وما حولها الذى تم فى السنوات الأخيرة من عهد حكومة الامامة ، فان الأئمة أنفسهم كانوا يقاومون فكرته دائما حتى أصبح على لسان المواطن اليمنى الآن قولا بات مأثورا ·· « سهمى فى الجنة ليكن من نصيب الذين بنوا الطريق » ·

وكان يزيد أيضا من تعقيد الظروف حول قضية الوحدة الوطنية فى اليمن فى أثناء عهد الأئمة هذا الاصرار على أن يبقى الشمال الجبلى بلا وسائل تدبر عيشه سوى البندقية التى يستطيع بها غزو السهل المزروع فى الجنوب · هذا فضلا عن الأسلوب الذى كان يجرى بوساطته الحكم فى اليمن حينذاك والذى تمثلت أغرب صوره فيما يسمى هناك بالخشبات ؛ فكان لشيخ القبيلة أن يقيم حول دياره خشبة وحاجزا لا يستطيع أحد أن يعبره الا بأمر ؛ وللحراس

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٥٩ ·

المدينة هذا الحق ؛ ولصاحب القرية هذا الحق أيضا ؛ ثم شاع الحق حتى أصبح في مقدور كل فرد أن يقيم خشبة تسد الطريق وتمنع الناس من العبور الا اذا دفعوا • وان أكثر المظاهر التى تبدو واضحة حتى الآن ، بتأثير الانعزالية التى حرصت على ابقائها حكومة الامامة مما مزق اليمن أوصالا ، ذلك الاختلاف الواضح فى اللهجات اليمنية ليس بين لواء وآخر أو بين مدينة وأخرى ، بل بين قرية وقرية وبين جبل وجبل (١) ، الأمر الذى تحاول حكومة الجمهورية العربية اليمنية الآن أن تتخلص منه بربط اليمنيين بعضهم ببعض باقرار الأنظمة المناسبة وتدعيم وسائل المواصلات المختلفة ، وتنشيط عمليات الاعلام وتبصير اليمنيين بقضية الوحدة الوطنية فى بلادهم التى تشكل الأساس الأول الذى ستقوم عليه نهضة اليمن فى ظل نظامه الجمهورى الجديد •

وهكذا كان نظام الحكم فى اليمن فى عهد الامامة بعد جلاء العثمانيين عنها يتميز بشكل خاص مطلق فى طبيعته ، فالامام كان يقبض على زمام الأمور كلها بين يديه ، ويتصرف فى كل شيء بارادته ، وتبعا لما تمليه عليه أغراضه ، واذا كان الامام قد استعان ببعض الكفاءات من حوله ، فان ذلك كان بصورة محدودة للغاية تبلورت فى استشارتهم فقط دون التزام بآرائهم ، بل ان هؤلاء كانوا مسئولين أمامه دون غيره ويستمدون سلطاتهم منه بصفة شخصية ، فأنى لهم اذن أن يعارضوه • وكان هذا النظام مخالفا للنظم التى أقامها العثمانيون فى اليمن ، الى جانب مخالفته للصورة التى كانت عليها النظم الدستورية الأخرى القائمة فى البلاد العربية حينذاك •

ويبدو أن هذا النظام الخاص الذى سارت عليه الامامة الزيدية فى اليمن فى أعقاب جلاء العثمانيين كان يرجع الى غلبة الطابع الدينى والقبلى عند الامام يحيى من جهة ، والى ملائمة هذا النظام للظروف التاريخية التى عاشها هذا الامام من جهة أخرى • اذ كان حكمه يقوم على أساس دينى مذهبى ، جعله يشجع التعصب لدى أتباعه الزيديين ، لأن ذلك كان يخدم مصالحه الشخصية ، ويدعم مكانته بين قومه • وكان النظام القبلى هو البيئة الصالحة لنمو مثل هذا التعصب المذهبى الذى كان يدعم الامامة مما جعل الامام يحرص على ابقاء الروح القبلية بنظمها الاجتماعية العتيقة ، كما كان يشجع القبليين أيضا على التمسك بالأوضاع البالية الفاسدة التى تبقى له سيطرته ونفوذه ، وذلك تحت شعار المحافظة على التقاليد المتوارثة •

---

(١) الاهرام : العدد ٢٨٨٠٢ فى ١٩ من أكتوبر ١٩٦٥ ، ص ٥ • من تحقيق كتبه الصحفى مكرم محمد أحمد ناقش فيه رأى الاستاذ أحمد محمد نعمان رئيس وزارة اليمن السابق حول موضوع امكانية تحقيق الوحدة الوطنية فى اليمن •

أما بالنسبة لملاءمة نظام الامام هـــذا ـ الذى خلف الحـــكم العثمانى فى اليمن بعد الاستقلال ـ للظروف التى عاشها الامام يحيى ، فقد رأينا أن هذا الامام بدأ حياته السياسية بالحرب ضـد العثمانيين واستمرت حـروبه معهم حتى عقد صلح دعان فى سنة ١٩١١ م ٠ وبعد جلاء العثمانيين عن اليمن دخل الامام فى حروب مستمرة مع كثير من معارضيه وأعدائه فى أرجاء البـلاد لم يهدأ أوارها نسبيا الا فى سنة ١٩٣٤ م ٠ وقد رأى الامام أن حكمه هـــذا بنظمه الأوتوقراطية وبسيطرته المحكمة على كـل شئون البلاد وثرواتها خـير ضمان له على تدعيم ملكه ، بينما كا نالشعب اليمنى يئن تحت وطأة الحروب القاسية التى أوقعته الامامة فيها ٠ ولا أدل على ذلـك من الحـديث الذى دار بين أمين الريحانى ـ الذى قام بزيارة اليمن فى الثلاثينات من القرن الحـالى فى عهد الامامة الزيدية عقب الاستقلال ـ وبين أحد اليمنيين الذين التقى به فى استراحة صغيرة تقع على الطريق بين « أب » و « يريم » فى أثناء رحلته من عدن الى صنعاء برا ، وقد طلب الريحانى من هذا اليمنى بعض اللبن فأجابه الرجل بقوله : « لا غنم عندنا ولا بقر ولا ماعز ، لو كان عندنا فليس من يرعـاها ، شبابنا فى عسكر الامام ، وأولادنا هاربون من التجنيد ، و « العمال » أخذوا أغنامنا كلها زكاة وضرائب لبيت المال » (١) ٠ ويبرز لنا هذا الحديث بوضـوح حالة الفقر المدقع والقلق والاضطراب التى سادت الحياة اليمنية ، وابتزاز الامامة لثروات الشعب اليمنى ، وسـوء نظـام الحكم فى عهد الامامة عقب الاستقلال (٢) ٠

وعلى أية حال فانه لا أدل على مدى فاعلية الحـــكم العثمانى فى حياة اليمنيين وأفضليته على حكم الامامة الذى لم يحقق لليمن التطور التقدمى خـلال عهد الاستقلال ، من ذلك الرأى الذى ورد فى احدى رسائل الأحرار اليمنيين الذين استصرخوا فيها العالم العربى والرأى العام العالمى لنجدتهم من مظالم الامامة ومفاسدها والذى تضمن ما يلى :

« وخلاصة القول أن الحكم العثمانى فى اليمن خاصة بالرغم من الأخطاء التى كانت تعتوره وبالرغم من أن مؤرخى العرب وكتابهم قد تناولوا حكم الأتراك فى البلاد العربية بالنقد والتجريح الا أنه قد كان والحق يقال أرفق باليمانيين من ولاتهم الحاليين (فى عهد الامامة) وأحرص عـلى مصالح الاهـالى ، وأحفظ لعزتهم وكرامتهم عن حكم هذا العهد الاستغلالى ، الذى أعاد الى الأذهـان حكم القرون الوسطى فى عصور الجهل والظلام ، والذى أهلك الحرث والنسـل

(١) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١١١ ٠
(٢) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٥٦ ـ ٤٦٢ ٠

وترك أكثر البلاد بلاقع تنعى أهلها الذين تركوها فرارا من الظلم والعسف الى خارج البلاد ، أو ذهبوا ضحية الأمراض والأوبئة الفتاكة التى تسرح وتمرح فى البلاد ولا ترى مقاومة ولا مكافحة » (١) ٠

كما أن أمين الريحانى قد أكد أن مظاهر التخلف والجمود كانت سائدة فى مختلف نواحى الحياة اليمنية حينذاك بقوله : « وكأنك فى السياحة فى تلك البلاد السعيدة تعود فجأة الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا أدوية ؛ ولا أطباء ولا مستشفيات فى اليمن ٠ ان الامام هو كل شىء ، هو العالم ؛ والطبيب ؛ والمحامى ؛ والكاهن » (٢) ٠

وفى حديث دار بين الكاتب الايطالى سلفاتور أبونتى الذى قام بزيارة اليمن فى الأربعينات من القرن الحالى وبين القاضى محمد راغب التركى الأصل الذى فضل البقاء فى اليمن بعد جلاء العثمانيين عنه وعمل مستشارا للامام يحيى ، فقد أوضح راغب هذه الصعوبات التى كانت تواجه دعاة الاصلاح فى اليمن بقوله : « اننا نعمل على ترقية هذه البلاد المحبوبة ، وفى هذا جهد شائق لذيذ أقدم عليه بشغف ، ولكن للوصول الى هذا الغرض يجب التغلب على الكثير من المصاعب وتخطى الكثير من العقبات ، وأولى هذه العقبات هى المقاومة العنيفة والعراقيل التى يضعها المتعصبون فى طريق كل تجديد ٠ وليس من شك فى أنه يجب علينا أن نعمل هنا الكثير لأن كل شىء محتاج الى اصلاح بل يجب خلقه من جديد » ٠

ولا شك أن هذا الحديث يبرز دور بعض المصلحين من العثمانيين فى اليمن حتى بعد الاستقلال اذ حاول هؤلاء أن يقدموا خدماتهم لمساعدة البلاد على التقدم والارتقاء ٠ ويؤكد لنا ذلك بقية الحديث الذى دار بين سلفاتور أبونتى والقاضى راغب ، اذ أوضح الأخير دوره مع الامام يحيى وموقف الامام نفسه من قضية الاصلاح فقال : « ولقد كان الامام ولا يزال (الامام يحيى فيما مضى) عدوا لاتفاقات الاقامة لأنه يرى أن اليمن بسبب طريقة نظام حياته الخاصة وتقاليد شعبه وبسبب أحواله وظروفه ليس فى حالة تسمح له باستقبال الممثلين الأجانب أو بارسال ممثلين الى الخارج فى الوقت الحاضر (نهاية الأربعينات من القرن الحالى) على الأقل ، اذ لا تزال تنقصنا الدرجات والوظائف لنظامنا القنصلى والدبلوماسى ٠ ولا يجهل ملكنا (يقصد الامام يحيى) ما يعلقه كل بلد حر من الأهمية العظمى على علاقاته الدولية ، وانى

---

(١) اليمن المنهوبة المنكوبة : (مجهول المؤلف) ص ٦ ٠

(٢) أمين الريحانى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٤ ٠

لعلى يقين من أن هذه المسألة يمكن اعادة بحثها معه فى أقرب فرصـــة • ولقد بدأنا فى ادخال اصلاحات جدية على طريقة الحكم فى بلادنا بقصد التخفيف بقدر المستطاع من الأعباء الملقاة على كاهل الامام ، والتى زادت على حدود طاقته • ولجعل الوسائل الادارية أحدث وأكثر مرونـــة مما هى الآن ، كما يجب أن نعمل على تقسيم العمل الادارى وتوزيعه بانشاء درجات وادارات ذات رؤســاء مسئولين » (١) •

بل انه قد لوحظ أن الامام يحيى حتى نهاية حياته الطويلة فى ســـنة ١٩٤٨ م ؛ لم يقم بتغيير النظم المالية والادارية التى وضعها العثمانيون فى اليمن فى أثناء خضوعها لحكمهم الأخير • وقد ذكر نزيه مؤيد العظم الذى قام بزيارة اليمن فى أواخر عهد هذا الامام أن « حكومة اليمن لم تعن الى هذا اليوم بطبع أوراق خاصة بمعاملاتها ؛ وهى لا تزال تستعمل دفاتر الدولة العثمانيـــة وأوراقها » • فالامامة بذلك لم تقم بتجديد شىء مما بدأه العثمانيون ووضـعوا أساسه فى النواحى الاصلاحية فى اليمن • ومما يثير الأسف حقا ما يقال بأن تلك الدفاتر التى كانت من مخلفات العثمانيين فى اليمن لم تستعمل استعمالا صحيحا فى عهـد الامامة عقب الاستقلال بل استعمل منهـا الورق الأبيض فقط (٢) • وكان العثمانيون فى أثناء حـكمهم الأخير فى اليمن قد أنشـئوا مطبعة صغيرة ظلت هى المطبعة الوحيدة الموجودة فى البلاد حتى فى عهد الامام يحيى عقب الاستقلال • وكانت تطبع فيهـــا جريدة « الايمان » وهى جريدة صغيرة كانت تصدر مرة كل شهر منذ بداية الأربعينات من القرن الحالى (٣) •

والأدهى من ذلك أن الجيش اليمنى الذى اعتمد عليه الامام يحيى وكان موضع عنايته واهتمامه قال عنه محمد حسن عضو البعثة العراقية العسكرية التى قامت بزيارة اليمن فى أوائل ســنة ١٩٤٠ م أن « تدريب هذا الجيش كما شهدناه فى بدء زيارتنا لليمن ، هو القيام بمسيرات ، واتقان بعض الايعازات والحركات التركية ، التى كانت موجودة فى الدولة العثمانية ، ويدير هـذا الجيش بقية من الرجال العثمانيين والعسـكريين الذين آثروا البقاء فى اليمن تحت ظل الدولة الامامية الحديثة ، وهم ما زالوا حتى الآن يحملون الشارات والرتب العثمانية ويرتدون اللباس العثمانى » • ثم استعرض محمد حسن بعد ذلك نظـام التجنيد ، وحياة الجند ، ونظـام الجيش (٤) ، وكلها تؤكد بقاء النظم التى أدخلها العثمانيون فى اليمن فى أثناء خضوعهـــا للحكم العثمـــانى

---

(١) سلفاتور أبونتى : المصدر السابق ، ص ١٠٥ – ١٠٧ •
(٢) نزيه مؤيد العظم : المصدر السابق ، ص ٦٥ •
(٣) سلفاتور أبونتى : المصدر السابق ، ص ١٠٨ – ١٠٩ •
(٤) محمد حسن : المصدر السابق ، ص ١٣٦ •

الأخير ، دون أن تمسها يد الامامة بالتطوير والتجديد مما يحملها مسئولية هذا الجمود والتخلف ٠

وتجدر الاشارة الى أن غلبـــة الطابع الدينى والقبلى لدى الامام يحيى ، والظروف التاريخية التى عاشهـا ، كما فرضت عليه ذلك النظام الأوتوقراطى الجامد فى حكم اليمن من جهة ، فقد فرضت عليه تلك العوامل أيضا التمسك بالعزلة الشديدة عن العالم الخارجى من جهة أخرى ٠ وعندما تولى حكم اليمن الامام أحمد فانه سار على نهج والده يحيى بعد مقتله على أيدى الثوار اليمنيين فى سنة ١٩٤٨م ، ثم جاء الامام البدر فى سنة ١٩٦٢م ، وأعلن التزامه بسياسة والده أحمد ، فلم تكن هناك نية للتطوير أو تخطيط سياسى جديد يساعد على تقدم البلاد وخروجها من عزلتهـــا ٠ واذا كانت العزلة فى بعض الأحيان تعد سياسة صحيحة اتبعتها كثير من الدول فى مرحلة التكوين والبناء حتى اكتمل نموها الداخلى ، فان الجمود على اتباع ســياسة العزلة يؤدى بالتالى الى عكس النتيجة المرجوة منها ٠ وهذا ما حدث فى اليمن فى عهد الامامة بعد مضى فترة غير قصيرة فى أعقاب الاستقلال ٠ اذ جمدت سياسة الأئمة على التمسك بالعزلة حتى أن المعاهدات التى عقدوها مع عدد من الدول الأجنبية فى فترة الاستقلال كان معظمها لأغراض موقوتة ، ولم تحظ تلك المعاهدات باهتمام الأئمة وحرصهم على أن تتحقق دائما غاياتها المقصودة فى الحصـــول على المعونات المختلفة التى تساعد على تقدم اليمن ٠ ولقد قيل فى السنوات الأخيرة من حكم الامامة قبيل قيام ثورة اليمن الوطنية فى ســـنة ١٩٦٢ م أن اليمن قامت بعدة مشروعات انشائيه بعد عقدها للعديد من المعاهدات التى تتيح لها فرصة تلقى المعونات الاقتصادية من كثير من الدول الشرقية والغربية على حد ســواء ، ومن بين هذه المشروعات بناء مينـــاء الحديدة بالتعاون مع الاتحاد السوفيتى ، والطريق بين الحديدة وصنعاء الذى قامت على انشائه البعثات الفنية الصينية ، واقامة بعض المصانع ، وما أشـــبه ذلك من خطط ترمى الى النهوض بالبلاد فى الميـــدان الاقتصـــادى ، كالسماح لشركات التنقيب من المانية وايطالية وأمريكية بالبحث عن النفط والمعادن فى جبال اليمن وسهولها ٠ ولكن جميع هذه المشاريع واجهت معوقات كثيرة بسبب تقاعس السلطات الامامية المسئولة فى اليمن حينئذ عن المساهمة فى تحقيقها (١) ٠

ولهذا كانت فعالية تلك المعاهدات تتحطم فى معظم الأحيان على صخرة العزلة التى فرضتها الامامة على اليمن ٠ بل ان سياسة العزلة هذه جعلت انضمام الامام يحيى الى جامعة الدول العربية فى سنة ١٩٤٥ م مشوبا بالكثير من مظاهر التردد والخوف وهو نفس الموقف الذى اتخذه الامام يحيى تجاه الدول العربية

---

(١) هانز هولفوتز : اليمن من الباب الخلفى (ترجمة خيرى حماد) ، ص ٦ ، ٧ ٠

نتيجة لخوفه من الدخول فى علاقات خارجية (١) ٠ وقد بدا واضحا موقف اليمن الانعزالى فى عهد الأئمة حتى بعد أن أصبح لليمن مقعد فى الأمم المتحدة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ (٢) ٠

وخلاصة القول ان التبعة والمسئولية التاريخية تقع على حكومة الامامة فى اليمن التى اعتبرت نفسها سلطة مقدسة لا تعلوها سلطة أخرى ، كما اعتبرت البلاد مزرعة هى صاحبة غلتهـا الشرعية ، وذلك عندما أمضت عهـــدا استغرق قرابة نصف قرن من الزمان بعد جلاء الأتراك العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨م ولم تفعل خلاله شيئا يبرر موقفهـا ازاء حســاب التاريخ ، حيث لم تؤد ما كان مفروضا عليها حيال شعب عربى آلت اليه مقاليد أموره ، بل تصرفت فى شئونه بسلطان مطلق وقيدته عن اللحاق بركب التقدم الذى وصلت اليه الشعوب العربية الأخرى التى انحسر عنها فى نفس الوقت نفوذ العثمانيين ٠

ولم يكن من المســتغرب بعد كل هذا أن تظهر فى اليمن تيارات مضادة لسياسة الامامة وأن يحاول اليمن مرارا الاطاحة بحكومتها الرجعية ٠ فقد نتج عن ثورة اليمنيين فى سنة ١٩٤٨ م أن راح الامام يحيى ضحية لسياسته الرجعية وأفكاره الجــــامدة ٠ ثم تجددت محاولات الثورة مرارا فى عهد الامام أحمد ، وكانت أبرزها المحـــــاولة التى تزعمها أحمد الثلايا فى سنة ١٩٥٥ م واستشهد بعد فشلها عندما قام الامام أحمد بحركة انتقامية ضد أحرار اليمن ٠ وعلى الرغم من كل ذلك فان اليمنيين الأحرار كانوا على استعداد لتشجيع وتأييد أى حركة ترمى الى توطيـــد علاقات اليمن شـــــقيقاته العربيات حتى ولو صـــدرت تلك الحركة عن حكومة الامامة ذاتها ٠ ولهذا فان أحرار اليمن فى القاهرة ســـارعوا الى تأييد اتحاد اليمن الفيدرالى مع الجمهورية العربية المتحدة فى « اتحاد الدول العربية » وأعلنوا تأييدهم فى ٨ من فبراير ســـنة ١٩٥٨ م (٣) ٠ وقد دخلت حكومة الامام أحمد فى هذا الاتحاد لتغطية الموقف المتأزم داخل اليمن ذاتهـا ، بعد أن أخذت العناصر الثورية تنشط ضد نظام الامامة لتخلص البلاد من التخلف والجمود ٠ وكان أحرار اليمن يعلمون ذلك تماما حتى انهم لم يتمكنوا من اخفاء قلقهم من أن تعمل الامامة على عدم وضع هذا الاتحاد موضع التنفيذ على المستوى الايجابى الجدير بالآمال المعلقة عليه ، وقد بدا ذلك واضحا فى بيان التأييد ٠ وأن ما توقعه الأحرار اليمنيون من عدم جدية حكومة الامامة فى القيام بمسئوليات الاتحاد المذكور قد تأكد بالفعل ، مما جعل حكومة الجمهـــورية العربية المتحدة تصدر قرارا فى ٧ من ديسمبر سنة ١٩٦١ م أعلنت فيه حل الاتحاد ، وضمنته

---

(١) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤٦٩ ٠

(٢) عدنان ترسيسى (دكتور) : اليمن وحضارة العرب ، ص ٦ — ٧ ٠

(٣) حسن ابراهيم حسن (دكتور) : اليمن البلاد السعيدة ، ص ١٧٨ — ١٨١ ٠

موقف المسئولين السلبي في اليمن خلال ثلاث سنوات ونصف سنة من اقامة هذا الاتحاد (١) . وازاء هذا الموقف السلبي من قبل حكومة الامامة فقد بذل الأحرار اليمنيون مزيدا من النشاط الثوري المعارض لهـــا ، والذي نجح في الاطاحة بنظام الامامة الى الأبد واعلان قيام جمهورية اليمن العربيـــة الفتية في اليـوم السادس والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٦٢ م (٢) .

ولهذا فيمكننا القول بأن قيام ثورة اليمن الوطنية التي نتج عنها اعلان النظام الجمهوري لأول مرة في تلك البلاد يمثل البداية الفعلية لعهد التحـــرر الحقيقي والتطور التقدمي لليمن ، بعد تخلصه نهائيا من الحكم العثماني وحكم الامامة الزيدية على السواء .

---

(١) عدنان ترسيسي (دكتور) المصدر السابق ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

الملاحـق

رتبت الملاحق التالية تبعا للاشارة اليها فى معرض الرسالة . وهى تشتمل على مجموعة من الخطابات ، والبرقيات ، وبعض القوانين ، والاتفاقيات والمنشورات . كما تتضمن اربعة جداول توضح تسلسل سلاطين آل عثمان ، والأئمة الزيديين فى اليمن . وأسرتى العبادلة فى لحج والأدارسة فى عسير . هذا فضلا على خريطة توضيحية لحدود ولاية اليمن العثمانية فى الفترة الممتدة بين عامى (١٨٧٢ ـ ١٩١٨) ، وموجز باللغة الانجليزية لموضوع البحث . ونظرا لأهمية هذه الملاحق مجتمعة فى القاء مزيد من الضوء على عناصر الموضوع ، فقد أوردتها فى نهاية الرسالة استكمالا للفائدة .

أولا ـ الوثائق

1

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى أمير عسير محمد بن عائض فى سبتمبر سنة ١٨٦٥ (١٤ من ربيع الثانى سنة ١٢٨٢هـ) للتوسط من أجل فض مشكلة عسير وتهدئة ثورتها وديا فى ذلك الحين (١) .

دفتر ١٢ صادر عابدين ص ٢٥ رقم ٩٠
(فى ١٤ من ربيع الثانى ١٢٨٢ هـ)

الى : الأمير محمد بن عائض أمير عسير :

بسم الله الرحمن الرحيم ـ من خديوى مصر الى صاحب المجد المنيع والشرف الرفيع الهمام الشهير (محمد بن عائض) أمير عسير دام فى أمن الملك الكبير الحمد لله المجيب السميع الولى المتعالى الرفيع ، والصلاة على النبى الكريم الشفيع وعلى آله وأصحابه الذين أطاعوا اوامر الله ورسوله وأولى الأمر فأحرزوا بذلك أجر المطيع ـ وبعد فاننا معاشر المسلمين كما أنا تجمعنا أخوة الديانة المحمدية وتضمنا كلمة التوحيد على اختلاف الألسن والطبائع البشرية ـ فيجب علينا الاتحاد آراء وقوى ، ولا تتفرق كلمتنا باتباع الهوى ـ فمن المعلوم بمقتضى نص كتاب الله العزيز وجوب الانقياد لأمر امام اتفق أكثر المسلمين على خلافته لتكون الكلمة واحدة والقلوب متفقة متحدة فهذا هو عين السلامة لجميع المسلمين

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، ص ٤١٥ ـ ٤١٧ ، هذه الوثائق منقولة عن قسم المحفوظات التاريخية بالقصر الجمهورى بالقاهرة (عابدين سابقا) .

وصلاح الأمة المحمدية على اليقين ، فمن خرج عن دائرة الاتحاد بسبب من الأسباب مما يوجب الاختلاف والتضاد ، فالواجب عليه الرجوع الى الانقياد والاذعان وألا يتمادى فى العصيان — فان هذا مما يجلب على من خرج من الطاعة الندامة الزائدة ويوجب اشغال العساكر الاسلامية فى سفك دماء المسلمين بلا فائدة ، وان من مقتضيات ديانتنا أن ينصح بعضنا بعضا بما تقتضيه الأخوة والصداقة وأن نحفظ دماءنا من السفك والاراقة .

فبناء على ما ذكرنا اقتضى رأينـا أن نكون من الناصحين لحضرتكم لأننا بسبب حبنـا ديانتنا الشريفة المقرونة بالعز والتأييـــد ومودتنا لجميع الأمم الاسلامية التى تجمعها كلمة التوحيد لا نريد وقوع التفرق بينهم ، ولا يجوز حصول المخالفة بين كلمتهم ، فمرادنا الاصلاح بين جموع التوحيد والايمان بأن لا يتصف أحد منا بصفة العصيان والطغيان بل نكون يدا واحدة قوية مجتمعة ، وسطوة كاسرة قامعة على من يريد السوء بأهل الاسلام من الأعداء اللئام — ففرض على الموحدين جميعا أن يكونوا اخوانا وأن يخلصوا بينهم مودة ورضوانا ، وأن يطيعوا أمير المؤمنين وخليفة الرسول الأمين — فان قبلتم نصحيتنا ورجعتم للطاعة والانقياد ودخلتم فى زمرة الاتحاد فنكون نحن وساطة بين سلطاننا الأعظم ومولانا الأفخم وبين حضرتكم بما يكون خيرا لكم فى الدنيا والآخرة ، وانى لمحب لكم ولبيتكم لأنى أحب عمار بيوت المجد والشرف على الدوام بأن تبقى مؤيدة مدى الأيام ولا أريد لها الخراب والانهدام — فان قبلتم النصح وأردتم الخير والنجاح فنقوم بالشفاعة لكم عند مولانا الســـلطان فى العفو عما فرط منكم من الاغواء النفسانى ، وباصدار فرمان سلطانى بأن تتركوا (غامض) و (زهران) و (حلى) و (مفعص) للايالة الحجازية ، وتضم قبائل (بالقرن) و (شعران) و (بيشة) الى عسير وتسمى كلها « بالمتصرفية العزيزية » منسـوبة الى الاسم الشريف السلطانى وتكونوا أنتم اميرا عليها — بشرط أن تكونوا تابعين للدولة العلية بأداء ما يقرر عليكم من المرتبات كما أن ذلك من مقتضيات التبعية ، وأن تكون الطرق والسبل آمنة للعابرين وأبناء السبيل وألا يحصل عدوان وتسلط على أحد بالنهب والسلب ويعطى لكم رتبة أمير الأمراء بعنوان « باشا » وتكونون أنتم باشا متصرف عسير ولواحقها التى تسمى « العزيزية » وانى متكفل في اعطاء ما ذكرناه من طرف مولانا السلطان دام بقاؤه فتلك منة عظيمة وعناية جسيمة ، فالذى أرى وأعتقد أنكم لا تخالفون رأينا وتقبلون نصحيتنا فان فيه خيرا لكم وحسن العاقبة وهو أولى لكم من الاصرار على المخالفات المتعاقبة — وما أريد الا الاصلاح واتفاق المسلمين على الخير والفلاح — واذا لم تقبلوا هذه النصيحة الخيرية فى الدين وتعديتم للمحاربة واراقة دماء الموجودين وهو أشد نكالا وأعظم وبالا فعند ذلك تنقلب المودة التى بيننا الى العداوة الكبرى فتكونون أنتم السبب فى سوق الجيــوش المتكاثرة من أرض القاهرة الى تلك البقاع وخراب تلك الديار

والرباع . وسفك الدماء المحقونة واضاعة الحقوق المصـــونة ، فالأولى الانقياد والطاعة قبل وقوع تلك الساعة فانه يعظم الخطب ويشتد الكرب بعد الميل لنوازع الشيطان واشهار نزع طاعة السلطان ولا ينزل النكال الاكبر الا على من طغى واستكبر وعتا وتجبر ــ واذا أذعنتم لما ألقينا اليكم من النصيحة وحسن المراد فتدوم بيننا فى المستقبل الاخوة والوداد ــ وانى اعلم جيدا انكم تميلون الى طاعة السلطان ولا ترضون بارتكاب الاثم والعدوان فانه لا يحسن من مثل الأمير وقوع أمر ينشأ منه للمسلمين الشر والتدمير بل ظنى أنكم تحترزون من جانب شريف مكة المكرمة فى بعض الأمور لما عسى أنكم تعتقدون أنه هو المأمور ــ فانى اعطى لكم الأمان وأتحمل على الضمان بايفاء ما حررت لكم من طرف السلطان ان قبلتم النصيحة ورجعتم الى الطاعة الصحيحة فانى التزمت التوسط فى اتمام هذا الأمر الخطير ، والله ميسر كل عسير ، وتكفلت أيضـا بألا يلحق بكم من طرف حضرة الشريف ضيم وبأس بل تكونون آمنين من كل الناس ما دمتم مراعين الشروط المذكورة بالتمام ، والسلام ختام .

٢

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى كامل باشا ممثل مصر لدى الباب العالى فى اكتوبر سنة ١٨٦٥م(٥ من جمـادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ) لمطالبـة الدولة العثمانيـة بتنفيذ ما وعدت به مصر أمير عسـير حتى لا تحرج معه ، وحتى لا تتجدد الثورة فى عسير من جديد (١) .

دفتر رقم ٢٢ صادر عابدين وثيقة ١٢٢
فى (٥ من جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ)

الى : كامل باشا :

لقد تلقى الجناب العــالى خطابكم المتضمن نتيجـة الآراء الخاصة بمسألة عسير وذلك ردا على ما كتبه فى هذا الموضوع وينوه بأن مسألة عسير هذه على ما يفهم من خطاب سيادة شريف مكة الأخير ستنتهى على وجـه يتفق ورغبات السلطنة السنية ــ ولما كان الجناب العالى قد اقترح فى خطابه السابق منح أمير عسير رتبة الميرميران مع لقب الباشوية لاستمالته للدولة ، وقد كتب سموه الى

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٨ .

أمير العسير ينصح له بوجوب ابداء حسن نيته بتقديم الطاعة للدولة العلية توطئة لمنحه هذه الرتبة وقد تعهد سموه لهذا الأمر بالسعي لتمنح له الرتبـة المشار اليها ـ فان سموه لا يسعه الا أن يمتعض من اغفال ذكر هذا الاقتراح في خطاب دولته الأخير ويذكر الجناب العالي بما لمسألة العسير من الأهمية القصوى في البلدان العربية ولذا فان حسمها بالطريقة المقترحة يوفر على الدولة الشيء الكثير من الجهود والنفقات ـ ومن أجل ذلك يلفت نظر دولته الى أن اغفال اقتراحه هذا من شأنه أن يثير حركة العسير من جديد كما أن من شأنه أن يحرج موقف سموه ازاء تعهده لأمير العسير بمنحه هذه الرتبة ٠

٣

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى والى اليمن فى الحديدة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٥م (١٠ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٢هـ) لتسهيل مهمة البعثة المصرية المرسلة للتنقيب عن الفحم الحجرى فى منطقة الحديدة (١)٠

دفتر رقم ٢٢ صادر عابدين وثيقة رقم ٢٠٤
فى (١٠ من جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ)

الى : والى اليمن

لما كان قد اتصـل بعلمنا أن ثمة فى منطقة (الحديدة) من أعمال ولاية اليمن بعض الأماكن الغنية بالفحم الحجرى ونظرا لأن ـ وجود الفحم الحجرى على هذا الوجه سيكون له أبعد الأثر فى انعاش البلاد ودر الخير الجزيل على الخزينة الجليلة فتحقيقا لهذه الغاية وللتأكد بادىء الأمر من صحة وجود الفحم الحجرى هناك قد أرسلت الى (الحديدة) على باخرة خاصة بعثة برياسة (أمين بك) مهمتها التنقيب والبحث عن هذا النوع من الفحم حتى اذا ما تأكد للبعثة صحة هذا الخبر أمكننا الاتصال بالباب العـالى توطئة لاتخاذ الاجراء اللازم لاستخراج هذا الفحم واستغلاله لصالح الدولة فالمرجو من جنابكم الشريف أن تسهلوا لهذه البعثة مهمتها وان تسدوا اليها جميع معونتكم ٠

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٩ ٠

٤

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى اسماعيل صادق بك قائد العساكر المصرية فى الحجاز فى شهر نوفمبر سنة ١٨٦٥ م (١٠ من جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ) لاخطاره بارسال بعثة مصرية للتنقيب عن الفحم الحجرى فى منطقة الحديدة ، ولتوجيه الأوامر اليه بارسال قوة مصرية لمصاحبة البعثة حتى انتهاء مهمتها (١) ٠

دفتر ٢٢ صادر عابدين وثيقة رقم ٢٠٦
فى (١٠ من جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ)

الى : صاحب العزة اسماعيل صادق بك قائد العساكر المصرية بالحجاز ٠

بالنظر لما يشاع عن وجود معدن الفحم فى (الحديدة) الكائنة بالأقطار اليمنية فقد رئى ترتيب لجنة وارسالها برفقة صاحب العزة (أمين بك) لاكتشاف الفحم وقد أرسلت بالفعل مع باخرة خاصة — فنأمركم بتخصيص بلوكين من الجنود النظامية المصرية التى تحت امرتكم ليكونا بمعية البك المذكور منذ وصوله لحين الانتهاء من مهمته ويكونا تحت أمره طيلة مدة الانتداب ونطلب منكم التنبيه على ضابط البلوكين بالطاعة له والانقياد لأوامره ٠

٥

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى اسماعيل صادق بك قائد القوات المصرية فى الحجاز فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٦٥ م (٧ من شعبان سنة ١٢٨٢هـ) للتنبيه عليه بسحب القوات المصرية من اليمن بعد انتهاء مسالة عسير (٢) ٠

محفظة سايرة ترجمة الوثيقة بدون رقم
فى (٧ من شعبان ١٢٨٢ هـ)

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٩ ٠
(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤١٩ ٠

الى : اسماعيل صادق بك (١)

بما أنه قد حل أوان عودتكم الى الوطن مع الجنود والضباط الموجــودين فى معيتكم لانتهاء مسألة عسير ــ فقد صدر أمرنا الى صاحب العزة (مصطفى بك) قائد الباخرة (الابراهيمية) المنتدب للسفر الى سواكن بأنه بعد اركاب الأورطة السودانية المقرر نقلها من هناك الى هنا ــ أن يتوجه مباشرة الى (جدة) ويأخذ أورطة من الجنود النظامية الموجودة بمعيتكم ثم يعود الى السويس ، ثم يبادر الى نقل العساكر والمهمات والحيوانات الباقية (بجـــدة) الى هذه الجهة ــ وصدرت اليه التعليمات اللازمة ، فاذا ما وصل من (سواكن) الى (جدة) نأمركم بانزال أورطة من الجنود النظامية من ضمن معيتكم وارسالهم ، وكلما وصلت الباخرة تركبون فيها عساكر ومهمات بقـــدر استيعابها ــ وبعد انتهاء نقـل الجنود النظاميين تنقل جماعة السرسوارى بمهماتها ودوابها ــ ثم تعودون مع الفرقة الأخيرة وتحضرون معها ــ ونوصيكم ببذل الهمة الفائقة لعدم حدوث أية حركة تخالف الرضا والقانون سواء فى الباخرة او أثناء انتظار الباخرة فى (جدة) ــ والتوسل بالأسباب الكفيلة بعدم ضياع شىء من الحيوانات والمهمات الموجودة أثناء النقل ، والعمل على الحصول على الرضا والممنونية بهذه الوسيلة أيضا ــ ونبلغكم بأنه تقرر عودتكم على هذه الصورة كما أنه كتب بذلك الى حضرة صاحب الدولة والى الحجاز .

وهذه للاحاطة بما ذكر .

٦

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى محمد «باشا» بن عائض أمير عسير فى يناير سنة ١٨٦٦م (٢٨ من شعبان سنة ١٢٨٢هـ) لابلاغه البشرى بمنحه ما وعده بتحقيقه نتيجة لتوسط مصر لدى الباب العالى (٢) .

٢٢ صادر عابدين ص ٩٣ متفرقات

فى (٢٨ من شعبان ١٢٨٢ هـ)

الى : محمد باشا بن عائض أمير عسير

من خديوى الأقطار المصرية وما والاها من الأقاليم السـودانية الى حضرة

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٠ .
(٢) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢١ ــ ٤٢٢ .

الأمير الكبير ذى الحسب الشهير (محمد باشا بن عائض) ـ قائمقام صنجق العزيزية اليمانية دامت معاليه وسعدت أيامه ولياليه غب سلاما يفوح عرف الثناء فى أثنائه ويلوح لطف الولاء من أرجائه ـ أحمد اليكم الله سبحانه وتعالى على نعمة تدوم بالشكر وتتوالى وأسأله لنا ولكم ولجميع المسلمين دوام السلامة ، وحسن الحال فى الدنيا والدين وأطالكم بحسن مودة تألف عليهـا الخواطر وصفت لديها السرائر فدلت عليها الظواهر ، وقد كنت طالعتكم اولا بما اقتضته أخوة الاسلام وأوجبته رغبتى فى اتحاد كلمة الموحدين على الدوام ، ومحبتى لبقاء الزمان ، وعرفتكم أنكم اذا برئتم مما قيل فيكم من عدم المطاوعة وأثبتم ما توسمته فى حسن نيتكم من البقاء فى دائرة المتابعة ـ فانى معهد لكم بما هو أنفع وأجدى ومتكفل بأن توجه اليكم رتبة أمير الأمراء ـ فلما أظهرتم ما أعلمه فيكم من الطاعة الحقيقية ، وأظهرتم صفاء الطوية لجانب الدولة العلية السلطانية ، ترتب على انى أفى بما وعدت واقتفى أثر ما تعهدت ليتحقق لديكم منه بعد أن اسماعيل كان صادق الوعد فكاتبت دار الخـلافة العلية بما هو الواقع من عدم الخـلاف واستلمت لكم من جانب السلطة اليمنية أعطاف الألطاف وحررت اليكم ثانيا بالبشارة بحصول ما سبقت اليه الاشارة ـ والذى أوجب تأخر ما ذكر للآن عن ناديكم انما هو تأثير ما قد قيل فيكم مما أوغر الصدور وأوعر سهول الأمور فما زلت أكرر المراجعة فى نفى شائبة الشـبه عن جهتكم وأعيد المكاتبة فى اثبات حسن نيتكم وبراءة ساحتكم حتى يتحقق لدى السلطنة ما أنتم عليه من حسن الحال ، وزال من النفوس آثار ما سبق من القيل والقال فصفت الآن لهم القلوب وتم بحمد الله تعالى الأمر المطلوب ، ووردت لنا من الباب العالى مكاتبة رسمية تعلن اتحافكم بتلك الرتبة البهية بعنوان الباشوية ـ وصدر فى ذلك فرمان سلطانى بمزيد الاعزاز وقد بعث به على الفور الى حضرة الباشا والى الحجاز ليبادر بارساله اليكم ، وعن قريب يكون الفرمان بمشيئة الله لديكم فتهنأ بهـا رتبة بهر فضلها ورفعة فاخرة أنت أهلها وتجلها مكرمة يسوق ببهجتها النادى ونعمة تسر الأحبة وتسود الأعادى ـ وان لكم عندى محبة تقرب القلوب على بعد ديارها ومودة تدوم ان شاء الله على عهد استمرارها ، وصفاء لا يألف التكدر حماه ووفاء لا يعرف التغير مرماه ، فانى أحب ذوى المجد القديم وأراهم أهلا للوداد والتكريم وأنافس فى موافاتهم على تنائى جهاتهم وأرغب فى مصافاتهم على اختلاف حالاتهم وتمنى دوام خيرهم ولا أوشى بهم عند غيرهم ـ تلك سـجية جبلت عليها ومزية دفعنى الله اليها وسنة ألفتها منـذ عرفتها وشنشنة كلفت بهـا وما تكلفتها فكونوا واثقين بدوام مودتنا اليـكم وليكن لنا أيضـا مثل ذلك لديكم .

وقد بعثت لكم ثانيا (أحمد أفندى اليمنى) ليشافهكم بالسلام منا ويبلغكم بعض تفاصيل المودة الحقيقية عنا والله يوفقنا للسداد والخير ويدوم بنا على منهج الرشاد ويبقينا على أحسن حال بجاه شفيع الأمة ونبى الكمال .

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى الامير محمد باشا بن عائض قائمقام العزيزية اليمنية فى ١٠ من مارس سنة ١٨٦٧م (٣ من ذى القعدة سنة ١٢٨٣هـ) لابلاغه بارسال هـدية اليـه من مصر ولدعوته للخلـود للسكينة (١) .

سجل ٢٤ صادر عابدين صورة المكاتبة العربية رقم ٣٤٣

فى (٣ من ذى القعدة ١٢٨٣هـ)

الى : الأمير (محمد باشا بن عايض) ـ قائمقام العزيزية اليمنية

الحمد لله الذى حث على الطاعة والانقياد ونهى عن المنافرة والمخالفة والتضاد والصلاة والسلام على سيدنا محمد الناهى عن الخلف والشقاق ، المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق وعلى آله وصحبه التابعين لهداه الذين اجتهدوا فى رضاه والسلام عليكم ورحمة الله ـ أما بعد فقد تلقينا أنه حصل منكم بعض تجهيزات عسكرية فى الحدود العسيرية فقلت هذا خلاف ما أعهده من شمائل الأمير ، وضد الذى أعتقد فيه من الصلاح والخير الكثير ، وتسكين الفتنة وتحصيل الهدنة وتيسير العسير ـ فلذلك لم أصدق بوقوع هذا الخبر من جنابكم فأرسلت حامل كتابى هذا (أحمد بك اليمنى) معاون معيتنا الى منيع رحابكم وفى اعتقادى أن الأمير مستقيم لا يميل عن الرشد حتى يستدعى تقويمه وتعديله ، وعاقل لا يتصدى الى ما لا يحسن فعله ولا ينبغى له ، والواصل لناديكم على يد المرمى اليه على سبيل الهدية بندقية مذهبة مسدسة من المصنوعات المصرية وخيمة كبيرة مع ما يتعلق بها من أدوات وزوج طبنجات من الذى يضرب ست مرات والمأمول دوام العهد القديم وعدم زوال ما بيننا من الود الصميم .

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ص ٤٢٥ .

٨

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى محمد باشا بن عائض فى ١٢ من مايو سنة ١٨٦٨م (٧ من محرم سنة ١٢٨٤هـ) لتحذيره من نتائج العودة للتمرد والثورة ضد العثمانيين فى عسير (١) ٠

مقيدة بدفترة نمرة ٢٤ عابدين صفحة ١٠٦ بدون رقم
فى (٧ من محرم سنة ١٢٨٤)

الى : محمد باشا بن عائض

بسم الله الرحمن الرحيم

من خديوى الأقطار المصرية وما والاها من الأقاليم السودانية الى ــ حضرة محمد باشا بن عائض قائمقام صنجق العزيزية اليمانية ٠

الحمد لله الذى أمر المسلمين بالطاعة والاتباع ونهاهم عن الشقاق والمنافرة والنزاع والصلاة والسلام على رسوله الكريم خير داع وعلى آله وصحبه خير الآل والصحب والأتباع وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته ــ وبعد ٠

فلما بلغنا من السالف تشبثكم ببعض تجهيزات عسكرية فى جهات الحدود العسيرية وأرسلنا لكم فى أوائل شهر ذى القعدة الماضى بمكاتبة من جهتنا على يد (احمد بك) معاون معيتنا نحذركم من الميل الى المنازعة والخصام وننصح لكم بالحذر عن الخروج عن دائرة الطاعة والانقياد ، علما بما يجلبه الخلاف من الشرور وما يوجب الشقاق من فساد الأمور بعد أن سكتت الفتن وهجمت المحن وانقطعت الاحن ــ وكذا أرسلنا اليكم ببعض الهدايا تذكيرا لكم لما فى الطاعة والعودة من المزايا ، وفى المنافرة والعصيان من الآفات والخطايا ــ والآن بلغنا ما استعظمنا خبره وأكبرنا أمره من أنكم تخطيتم الحدود وأتيتم بما يخالف العهود ، وهذا أمر يجر ما يجر ويأتى بما لا يسر من غضب حضرة أمير المؤمنين وحامى حمى الدين المبين وذلك لا نرضى حصوله منكم ولا نحسب أن يسمع عنكم ــ (والذى أشير به عليكم وأنصح به اليكم أنكم اذا كنتم تخطيتم الى محل خارج حدود صنجق العزيزية اليمانية على خلاف ما سبق عليه الاتفاق بينكم وبين امارة مكة المكرمة وولاية الايالة الحجازية ــ فتخلوا عنه وأخلوا جيدكم منه وعودوا للطاعة والموادعة

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧ ٠

وصدق النية واخلاص الطوية لجانب السلطنة السنية حسما للشر وحقنا للدماء وحفظا للعهود ورعاية للوفاء وابقاء للأمن والأمان) وخروجا من غضب حضرة السلطان ـ والا تغير ما عندنا من المودة اليكم ، ويحوج الحال بالضرورة لأن تكون عليكم بأن نبعث اليكم العساكر والجنود لأداء ما عقدت بينكم وبين السلطنة السنية أيدى العهود فهناك لا يحصل لكم الا الندم من تجاسركم على ما يوجب فى المسلمين اراقة دم .

فأنصح لكم ألا تتبعوا الهوى ولا تغتروا بما عندكم من القوى فان عقبى ذلك غير مأمون ومن يتعدى فى حدود الله فأولئك هم الظالمون ـ وانى جازم أن تقابلوا هذا النصح بالقبول وتعودوا للاخلاص وحسن الطاعة كما هو المأمول .

٩

الخطاب المرسل من والى مصر اسماعيل الى « القبوكتخدا » وهو ممثل مصر لدى الباب العالى فى ١٤ من مايو سنة ١٨٦٧ (٩ من محرم سنة ١٢٨٤هـ) لاخطاره بحرص مصر على عدم تأويل موقفها من أمير عسير الثانى بعد أن حذرته من نتائج العودة للتمرد على الدولة ومحاربة العثمانيين (١) .

سجل ٢٤ عابدين وثيقة رقم ٤٠٢
فى (٩ من محرم ١٢٨٤)

الى : القبو كتخدا

كان قد ورد لنا من أمير مكة ومن دولة والى الحجاز أن (محمـــد باشا ابن عائض) متصرف العزيزية (باليمن) شرع فى القيام باستعدادات عسكرية وأنهما يحسان فى ذلك سوء نيته وطلبا منا أن نرسل له رسالة تهديدية بالاقلاع عن حركاته ، فكتبنا له رسالة تهديدية عربية وأرسلناها مع بعض أشياء كان قد رجانا فيها من قبل مع مندوب من قبلنا وزودنا المندوب المذكور بنصائح شفوية شديدة يوجهها الى المذكور ـ وقد ورد الينا أخيرا كتاب آخر من المذكورين مؤرخ فى ذى الحجة نرسل لكم بطى هذا صورة منه جاء فيه أن الباشا المذكور عاد الى الاستيلاء على الأماكن التى سبق استردادها منه وطلب منا أن نرسل اليه برسالة أخرى أشد من الأولى وأن نرسل هذه الرسالة اليهما أولا ليتوليا هما بعثها اليه فأرسلنا رسالة عربية مرســـلة صورة منهـــا لكم بطى هـــذا وبعثناها اليهما كطلبهما .

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

ولو كان حضرتاهما قد أوضحا فى كتابهما السابق الأمر على حقيقته لكنا بادرنا الى اتخاذ ما يتطلبه الموقف من الاجراءات ولكنهما اقتصرا فى كتابهما المذكور على القول بأنهما يحسان بأن حركاته عدوانية ولم يشرحا الأمر شرحاً مفصلا لذلك اكتفينا بارسال رسالة تحوى بعض النصائح والتهديدات فقط . والواقع أن المذكور قبل أن تصل اليه رسالتنا الأولى حتى قبل أن يصل مندوبنا الى (جدة) كان قد استولى على الأماكن المذكورة لذلك كانت رسالتنا فى هذه المرة كما ستعرفون من الاطلاع على صورتها المرفقة شديدة جدا ومؤكدة فى التهديد .

ونظرا للاستعجال الزائد الذى أبداه المذكوران لم يمكنا الانتظار حتى تكتب للباب العالى ويرد الرد منه بل كتبنا رأسا للمذكور .

وتحرر هذا لاشعاركم بالحقيقة .

١٠

الخطاب المرسل من محمد بن عائض أمير عسير الى خديوى مصر اسماعيل فى ٣٠ من يوليـو سـنة ١٨٧٠ م (غرة جمادى الأولى سـنة ١٨٧٠ م (غرة جمادى الاولى سنة ١٢٨٧ هـ) للتعبير عن مشاعر الود والصداقة التى تربطه بمصر ، ولطلب امداده بفنيين مصريين لاصلاح المدافع فى عسير (١) .

محفظة ١٩ بحر برا وثيقة رقم ١٢٥

فى (غرة جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ)

من محمد بن عائض

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم انا نرفع اليك أكف الضراعة والابتهال ونتوسل اليك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تديم عزك السرمدى ونصرك الأبدى الى حضرة حامى حمى الأقطار المصرية بفرمانه الصادق ومشيد بنيان الممالك اليوسفية بآرائه الثاقبة حضرة فخامة دولة الخديوى الأعظم لا زالت شمس اقباله فى بروج السعد شارقة ونحور أعدائه فى دمائهم غارقة وبعد ـ فلينهى الى الحضرة التى هى محط رحال الآمال أن الداعى المخلص لم يزل مشتاقا الى مكاتبتكم وسائلا عن عافيتكم التى هى غاية المقصود من الرب المعبود وقد صدر كتابان قبل هذا ونرسلهما

---

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ٤٣٠ .

عن طريق وكيل القومبانية (بجدة) ولم ندر هل عاقها عائق ـ فاخترنا من حمل خطابنا هذا من أتباعنا ليكون ردا لجواب بيده ان شاء الله تعالى ٠ وقد أوصيناه بثلاث خصال يخبر بها من تنتدبونه (أحمد بك اليمنى) أو غيره ، ولم نشرح شيئا فى الكتاب لأجل الخطر من كثرة الحساد لنا بمحبتكم والتقرب منكم ، واذا رأى حضرة أفندينا ارسال واحد سباك لفك المدافع خاصة وتوضيب جميع ما يتعلق بها فهو لدينا من جزيل الاحسان وقوتنا لأفندينا ٠

والله يعلم انا صادقون فى ذلك ٠

والدهر مجرب ـ ولا خير فى قول بلا عمل ودمتم والسلام ٠٠

الداعى المخلص محسوبكم
محمد بن عائض

١١

الخطاب المرسل من خديوى مصر اسماعيل الى الباب العالى فى ١١ من فبراير سنة ١٨٧١م (١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٧هـ) بشأن تكفل مصر بارسال المؤن (من ارز وسمن وسكر) الى القوات العثمانية فى الحجاز واليمن فى ذلك الحين (١) ٠

سجل ٢٤ عابدين الوثيقة رقم ١٢٧٢ (ملخص لترجمة الوثيقة)
فى (١٨ من ذى القعدة ١٢٨٧هـ)

من : الديوان الخديوى

الى : الباب العالى

يخبره بوصول مكاتبته التى يطلب فيها ارسال خمسمائة ألف أقة أرز وخمسين ألف أقة سمن وخمسة وعشرين ألف أقة سكر لأجل الفرقة العسكرية الشاهانية التى أرسلت الى الحجاز واليمن ويرد عليه بأنه أصدر الأوامر المؤكدة المشددة للمختصين باعداد وتجهيز الكميات المذكورة وارسال نصفها الى ميناء (الحديدة) والنصف الآخر الى الأمكنة التى يخصصها سعادة (رديف باشا) ٠

أما أثمان هذه الأشياء ومصاريفها فسيرسل بها كشف فيما بعد ـ ثم يعرض استعداده لتلبية أى طلب ٠

(١) شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المصدر السابق ص ٤٣١ ٠

نص « القانون الأساسى العثمانى فى ممالك الدولة العثمانية » الصادر فى الاستانة فى سنة ١٨٧٦ م فى مطلع عهـد السـلطان عبد الحميد الثانى ، وكان هذا القانون نتاج جهود كثيرة بذلها زعماء الاصلاح وعلى رأسهم مدحت باشا ، وقد عطله عبد الحميد طيلة سـنى حكمه الاستبدادى ، ولم تطبق بعض مواده الا فى مطلع العهد الدستورى العثمانى فى سنة ١٩٠٨ م (١) .

المادة ١ : أن الدولة العثمانية تشمل الممالك والخطط الحاضرة والولايات الممتازة وهى كجسم واحد لا تقبل الانقسام أبدا لأية علة كانت .

المادة ٢ : أن عاصمة الدولة العثمانية هى مدينة اسلامبول وهذه المدينة ليس لها أدنى امتياز على غيرها من البلاد العثمانية ولا هى معافة من شىء .

المادة ٣ : أن السلطنة السنية هى بمنزلة الخلافة الاسلامية الكبرى وهى عائدة بمقتضى الأصول القديمة الى أكبر الأولاد من سلالة آل عثمان .

المادة ٤ : أن حضرة السلطان هو حامى الدين الاسلامى بحسب الخلافة وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها .

المادة ٥ : ان حضرة السلطان مقدس وغير مسئول .

المادة ٦ : أن حقوق سلالة بنى عثمان وأموالهم وأملاكهم الذاتية ومخصصاتهم المالية فى مدة حياتهم هى تحت الضمانة العامة .

المادة ٧ : أن عزل الوكلاء ونصبهم وتوجيه المناصب والرتب واعطاء النياشين واجراء التوجيهات فى الآيالات الممتازة وفقا لشروطها وضرب النقود وذكر الاسم فى الخطاب وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية واعلان الحرب وذكر الاسم فى الخطب والصلح وقيادة القوات البحرية والبرية واجراء الحركات العسكرية والأحكام الشرعية والقـانونية وسن النظامات المتعلقة بدوائر الادارة وتخفيف المجازاة القانونية أو العفو عنها وعقد المجلس العمـومى وفضه وفسخ هيئة المبعوثين عند الاقتضاء بشرط انتخاب أعضاء جديدة لها ، جميع ذلك من جملة حقوق السلطان المقدسة .

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٨ .

● فى حقوق تبعة الدولة العثمانية العامة

المادة ٨ : يطلق لقب عثمانى على كل فرد من أفراد التبعة العثمانية بلا استثناء من أى دين ومذهب كان · ويسوغ الحصول على الصفة العثمانية وفقدانها بحسب الأحوال المعينة فى القانون ·

المادة ٩ : أن جميع العثمانيين متمتعون بحريتهم الشخصية وكل منهم مكلف بعدم تجاوزه حقوق غيره ·

المادة ١٠ : أن الحرية الشخصية هى مصونة من جميع أنواع التعدى ولا يجوز اجراء مجازاة أحد بأى وسيلة كانت الا بالأسباب التى يعينها القانون ·

المادة ١١ : أن دين الدولة العثمانية هو الدين الاسلامى · ومع مراعاة هذا الأساس وعدم الاخلال براحة الخلق والآداب العمومية تجرى جميع الأديان المعروفة فى الممالك العثمانية بحرية تحت حماية الدولة مع دوام الامتيازات المعطاة للجماعات المختلفة كما كانت عليه ·

المادة ١٢ : أن المطبوعات هى حرة ضمن دائرة القانون ·

المادة ١٣ : أن تبعة الدولة العثمانية مرخصة بتأليف كل نوع من أنواع الشركات المتعلقة بالتجارة والصناعة والفلاحية ·

المادة ١٤ : يسوغ لكل فرد من أفراد التبعة العثمانية أو الجملة منهم تقديم عرضحال بحق مادة مخالفة للقوانين والنظامات المتعلقة بالعموم الى مرجع تلك المادة كما أنه يحق لهم تقديم عرضحالات ممضاة الى المجلس العمومى بصفة مدعين أو متشكين من أفعال المأمورين ·

المادة ١٥ : أن التعليم حر وكل عثمانى مرخص له بالتدريس العمومى والخصوصى بشرط مطابقة القانون ·

المادة ١٦ : جميع المكاتب هى تحت نظارة الدولة وسيصير النظر بالوسائل التى من شأنها جعل تعليم التبعة العثمانية على نسق اتحاد وانتظام واحد لا تمس أصول التعاليم الدينية عند الملل المختلفة ·

المادة ١٧ : أن العثمانيين جميعهم متساوون أمام القانون كما أنهم متساوون كذلك فى حقوق وظائف المملكة ماعدا الأحوال الدينية والمذهبية ·

المادة ١٨ : يشترط على التبعة العثمانية معرفة التركية التى هى اللغة الرسمية لأجل تقلد مأموريات الدولة ·

المادة ١٩ : يقبل في مأموريات الدولة عمـــوم التبعة ويعينـــون في المأموريات المناسبة بحسب أهليتهم واستحقاقهم ·

المادة ٢٠ : أن تكاليف الدولة تطرح وتوزع بين جميع التبعة بحسب اقتدار كل منها وفقا لنظاماتها المخصوصة ·

المادة ٢١ : كل أحد أمين على ماله وملكه الجارى تحت تصرفه بحســب الأصول ولا يؤخذ من أحد ملكه مالم يثبت لزومه للنفع العام ويدفع ثمنه الحقيقى سلفا وفقا للقانون ·

المادة ٢٢ : أن مسكن كل أحد في الممالك العثمانية مصون من التعدى ولا تقدر الحكومة أن تدخل جبرا في مسكن أحد أو منزله الا في الأحوال الى يعينها القـانون ·

المادة ٢٣ : لا يسوغ اجبار أحد على الحضور الى محكمة غير المحكمة المنسوب اليها قانونيا وفقا لقانون أصول المحاكمة الذى سيصير ترتيبه ·

المادة ٢٤ : المصادرة والتســـخير من الأمور الممنوعة وانمـا يستثنى من ذلك التكاليف والأحوال التى تعين في أوقات الحرب بحسب الأحوال ·

المادة ٢٥ : لا يجوز أن يؤخذ من أحد بارة واحدة باسم ويركو ورسومات او بصفة أخرى مالم يكن ذلك موافقا للقانون ·

المادة ٢٦ : أن التعذيب وكل أنواع الأذى ممنوع قطعيا بالكلية ·

● في وكلاء الدولة

المادة ٢٧ : أن مسند الصدارة والمشيخة الاسلامية يفوضان من قبل الســلطان الى الذوات الذين يثق بهم وكذلك مأموريات باقى الوكلاء فانها تجرى بموجب ارادة سلطانية ·

المادة ٢٨ : أن مجلس الوكلاء ينعقد تحت رئاســة الصدر الأعظم وهو مرجع الأمور الداخلية والخارجية أما قراراته المحتاجة الى الاستئذان فانها تجرى بموجب ارادة سنية ·

المادة ٢٩ : أن كلا من الوكلاء يجرى من الأمور العائدة الى ادارته ما هو مأذون باجرائه وفقا لقواعده وأما ما كان خارجا عن دائرة مأذونيته فيعرض الى الصدر الأعظم يجرى مقتضيات المواد التى تحتاج الى المذاكرة ويستأذن عنها من الحضرة الســـلطانية وما كان محتاجا منهـا للمذاكرة يعرضه ويستأذن الى مجلس الوكلاء للتذاكر به ويجرى ايجابه بمقتضى الارادة

السنية التى تصدر بها . أما أنواع ودرجات هذه القضايا فستعين بنظام مخصوص .

المادة ٣٠ : أن وكلاء الدولة مسئولون عن الأحوال والاجراءات المتعلقة بمأمورياتهم .

المادة ٣١ : اذا تشكى واحد أو أكثر من أعضاء مجلس المبعوثين على أحد وكلاء الدولة بما يوجب عليه المسئولية فى المواد التى هى من متعلقات هيئة المبعوثين فعلى رئيس هذه الهيئة الذى يتقدم له بتقرير التشكى أن يرسل ذلك التقرير وبظرف ثلاثة أيام الى الشعبة التى تتعلق بها المذاكرة فى أنه هل يجب احالته الى الهيئة المناط بهـا رؤية هذه المواد أولا وفقا لنظام هيئـة المبعوثين الداخلى وهـذا بعـد أن تفحص هـذه الشعبة ذلك التقرير وتجرى التحقيقات اللازمة وتستوفى الايضاحات الكافية من الذى اشتكى عليه فان قررت بالأكثرية أن هذا التشكى حرى بالمذاكرة تقدم قرارها الى هيئة المبعوثين للاطلاع عليها . واذ مست الحاجة تستدعى المشتكى عليه وتسمع الايضاحات التى يقدمها بنفسه أو بواسطة غيره فان وافقت أكثرية الهيئة المطلقة أى ثلثاها على لزوم المحاكمة تتقدم المضبطة المتضمنة طلب المحاكمة الى مقام الصدارة العظمى وغب عرضها للأعتاب السلطانية تحال الدعوى الى الديوان العالى بموجب ارادة سنية .

المادة ٣٢ : ان أصول محاكمة الوكلاء الذين يقعون تحت التهمة ستعين فى قانون خصوصى .

المادة ٣٣ : لا فرق البتة بين الوكلاء وبين أفراد العثمانيين فى الدعاوى الشخصية الخارجة عن مأموريتهم فتجرى المحاكمة على هـذه القضايا فى المحاكم العمومية التى تتعلق بها ذلك .

المادة ٣٤ : اذا حكمت دائرة التهمة فى الديوان العالى على أحد الوكلاء بكونه واقعا تحت التهمة ينزل عن مأموريته الى أن تظهر براءته .

المادة ٣٥ : اذا وقع اختلاف على مادة ما بين الوكلاء وبين هيئة المبعوثين وأصر الوكلاء على تقرير تلك المادة فرفضتها هيئة المبعوثين ثانية رفضا قطعيا بأكثرية الآراء مبينة تفصل الأسباب الموجبة لذلك فللحضرة السلطانية حينئذ وحدها ان تغير الوكلاء أو أن تفض المبعوثين بشرط انتخاب هيئة جديدة خلافها فى المدة القانونية .

المادة ٣٦ : اذا اقتضت الحال ضرورة فى غير وقت انعقاد المجلس العمومى لوضع قانون صـيانة للدولة من الخطر ووقاية الأمن العام من الخلل ولم يكن الوقت كافيا لجمع المجلس للمذاكرة بهذا القانون الأساسى وبموجب ارادة

يكون لقرارها قوة القانون للحكم مؤقتا الى أن تجتمع هيئة المبعوثين وتعطى قرارها بهذا المعنى ٠

المادة ٣٧ : يحق لكل من الوكلاء فى أى وقت شاء أن يحضر اجتماعات كلتا الهيئتين أو أن ينيب عنه فيها أحد رؤساء المأمورين الذين تحت ادارته وله التقدم فى الكلام على الأعضاء ٠

المادة ٣٨ : اذا استدعى أحد الوكلاء الى مجلس المبعوثين بموجب قرار الأكثرية لاعطاء ايضاح عن أمر ما يحضر الى المجلس بنفسه أو يرسل أحد رؤساء المأمورين الذين تحت ادارته ويجيب عن المواد التى يسأل عنها ويحق له أن يؤخر جوابه اذا رأى لزوما لذلك آخذا المسئولية على نفسه ٠

● فى المأمورين

المادة ٣٩ : جميع المأمورين ينتخبون من أرباب الأهلية والاستحقاق للمأموريات التى تفرض اليهم بحسب الشروط المعينة فى النظام وكل مأمور ينتخب على هذه الصورة لا يجوز عزله ولا تغييره ما لم يبد منه حقيقة ما يوجب العزل قانونا او يستعفى من تلقاء نفسه أو يرى عزله لازما لضرورة تقتضيها أحوال الدولة ومن كان من أصحاب الاستقامة وحسن السلوك من المأمورين وعزل عن ضرورة كما ذكر يكون جديرا بالترقى ويعين له معاش التقاعد أو العزل بحسب نص النظام الخصوصى الذى سيصير ترتيبه ٠

المادة ٤٠ : سيعين نظام مخصوص لوظائف كل مأمورية وكل مأمور هو مسئول فى ادارة وظيفته ٠

المادة ٤١ : من الواجب على كل مأمور احترام أمره ورعايته الا أن الطاعة لا تتجاوز الدائرة المعينة قانونا والطاعة للآمر فى أمور المخالفة للقانون لا تقى من المسئولية ٠

● فى مجلس العمومى

المادة ٤٢ : أن المجلس العمومى يركب من هيئتين تسمى احداهما هيئة الأعيان والأخرى هيئة المبعوثين ٠

المادة ٤٣ : أن كلا من هيئتى المجلس العمومى تجتمع فى ابتداء شهر تشرين

الثاني من كل سنة وتفتح بموجب ارادة سنية وتقفل بارادة سنية فى أول آذار ولا يجوز انعقاد احدى هاتين الهيئتين بغير وقت اجتماع الأخرى.

المادة ٤٤ : اذا رأت الحضرة السلطانية وجوبا تقضيه احوال الدولة فانها تفتح المجلس العمومى قبل وقته ، وتقصر اجتماع المجلس كذلك ، أو تطيله عن المدة المعينة .

المادة ٤٥ : أن افتتاح المجلس العمومى يتم بحضرة الذات السلطانية أو بحضور الصدر الأعظم نائبا عنها أو بحضور وكلاء الدولة مع أعضاء الهيئتين ويتلى حينئذ نطق سلطانى فى ما يلزم اتخاذه فى المستقبل من الوسائل والتدابير بخصوص أحوال الدولة الداخلية وصلاتها الخارجية فى السنة الحالية .

المادة ٤٦ : أن الأعضاء الذين ينتخبون أو يعينون للمجلس العمومى يحلفون بالأمانة للحضرة السلطانية وللوطن بمراعاة أحكام القانون الأساسى والأمور المودعة لعهدتهم والابتعاد عن مخالفة ذلك ، وهذا اليمين يتم بحضور الصدر الأعظم فى يوم افتتاح المجلس ومن لم يكن حاضرا من الأعضاء فى ذلك اليوم يحلف هذه اليمين بعينها بحضور الرئيس والهيئة التى هو منها .

المادة ٤٧ : أن أعضاء المجلس العمومى أحرار بابراز آرائهم وأفكارهم ولا يقيد أحد منهم بوعد أو تهديد ما ولا يرتبط بتعليمات البتة ولا يجوز القاء التهمة على أحد منهم بوجه من الوجوه بسبب ابراز آرائه أو بيان أفكاره بأثناء مفاوضات المجلس الا اذا بدا منه مخالفة لنظامات المجلس الداخلية فحينئذ تجرى معاملته بموجب النظامات المذكورة .

المادة ٤٨ : اذا اتهم أحد أعضاء المجلس العمومى من قبل الهيئة المنسوب اليها بجناية أو بمحاولة الغاء القانون الأساسى أو بالارتكاب وتقررت هذه التهمة بموجب أكثرية تلك الهيئة المطلقة ، أى بثلثى الآراء أو اذا حكم قانونيا على أحد الأعضاء بالحبس أو النفى فتسقط عنه صفة العضوية وتجرى محكامته ويحكم بمجازاته على أفعاله هذه فى المحكمة التى يتعلق بها ذلك .

المادة ٤٩ : يحق لكل عضو من أعضاء المجلس العمومى أن يبرز رأيه بنفسه أو يمتنع عن أعضاء رأيه فيما يتعلق برفض أو قبول مادة مطروحة تحت المذاكرة .

المادة ٥٠ : لا يجوز أن يكون شخص واحد عضوا فى كلتا الهيئتين المذكورتين فى وقت واحد .

المادة ٥١ : لا يسوغ الشروع بالمفاوضات فى احدى الهيئتين بدون حضور نصف

الأعضاء المرتبين وعضو واحد زيادة عن النصف · وتقرر كل المواد بأكثرية الأعضاء الحاضرين المطلقة خلا الأمور المشترطة بها أكثرية هى ثلثا الأعضاء واذا تساوت الآراء فرأى الرئيس يحسب مضاعفا·

المادة ٥٢ : اذا قـدم شخص ما عرض حال الى احـدى هيئتى المجلس العمومى بخصوص دعوى متعلقة بشخص ثم ظهر أن ذلك الشخص لم يقدم دعواه الى مأمورى الدولة الذى يتعلق بهم رؤيتها ولا الى مرجع أولئك المأمورين فان عرض حاله يرفض ويرد له ·

المادة ٥٣ : أن سن قانون جديد أو تغيير بعض القوانين الموجودة متعلق بهيئة الوكلاء ، الا أنه يحق لكل من هيئتى الأعيان والمبعوثين أن تطلب تجديد قانون أو تغيير القوانين الموجودة فى المواد التى هى ضمن دائرة وظائفهم ، وحينئذ يستأذن من الحضرة السلطانية بواسطة الصـدر الأعظم · فان صدرت الارادة السنية بذلك تحال الكيفية الى مجلس شورى الدولة لأجل ترتيب اللوائح المقتضية على مقتضى الايضاحات والتفاصيل التى تؤخذ من الدوائر التى يتعلق بها ذلك ·

المادة ٥٤ : أن لائحة القوانين التى يرتبها مجلس شورى الدولة بعد أن يجرى البحث والتدقيق عليها وقبولها فى هيئة الأعيان تكون دستورا للعمل اذا صدرت الارادة السنية السلطانية باجرائها · وكل لائحة قانون ترفض رفضـا قطعيا من قبل احدى هاتين الهيئتين لا يجوز طرحها ثانية تحت المذاكرة فى تلك السنة ·

المادة ٥٥ : كل لائحة قانون لا تعتبر مقبولة ما لم تقرأ أولا فى هيئة المبعوثين ثم فى هيئة الأعيان بنـدا ، بندا ، ويقرر كل منها بأكثرية الآراء ثم تقرر بالأكثرية أيضا فى هيئة المجلس العمومية ·

المادة ٥٦ : لا يسوغ لهيئتى المجلس أن تقبلا أحدا أتى اليها للافادة عن مادة ما بطريق الوكالة ولا أن تسمعا تقريره ما لم يكن من هيئة الوكلاء أو من حضـر بالنيابة عنهم أو من نفس أعضاء المجلس أو من المأمورين الذين استدعوا للحضور رسميا ·

المادة ٥٧ : أن المفاوضات فى الهيئتين تجرى باللغة التركية أما لوائح المفاوضات فانها تطبع وتوزع على الأعضاء قبل اليوم المعين للمذاكرة ·

المادة ٥٨ : أن ابراز الآراء فى كلتا الهيئتين يتم اما بتصريح الأسماء أو بالاشارة المخصوصية أو بالطريقـة السرية الا أن ابراز الآراء بالطريقـة السرية يتوقف على أكثرية الأعضاء الحاضرين ·

المادة ٥٩ : أن ضبط الأحوال الداخلية فى كل هيئة منوط برئيسها ·

المادة ٦٠ : أن رئيس وأعضـاء هيئـة الأعيـان يعينهم حضرة السلطان رأسا ولا يتجاوز عددهم ثلث هيئة المبعوثين ٠

المادة ٦١ : أن من يعين بصفة عضو فى هيئة الأعيـان يجب أن يكون قد فعل ما يجعله أهلا للثقة العثمانية وسبقت له خدمات حسنة مشـهودة فى الدولة ولا يكون سنه دون أربعين سنة ٠

المادة ٦٢ : ان مدة العضوية فى هيئة الأعيان هى مدة الحياة وتوجه هذه المأمورية لمن هو أهل لها من معزولى الوكلاء والولاة والمشيرين وقضاة العسـكر والسفراء والبطاركة ورؤساء الحاخامية والفرقاء البرية والبحرية ولغيرهم من الذوات الحاصلين على الصفات المطلوبة ٠ أما من يعين من أعضـــاء هيئة الأعيان لاحدى مأموريات الدولة بطلبه فتسقط عنه صفة العضوية

المادة ٦٣ : أن معاش العضوية الشهرى فى هيئة الأعيـان عشرة آلاف قرش واذا كان لأحد الأعضاء معاش آخر أو غير مخصصات من الخزينة دون عشرة آلاف أو أكثر تبقى على حالها ٠

المادة ٦٤ : أن هيئة الأعيان تدقق البحث فى القوانين ولوائح الموازنة الصادرة من هيئة المبعوثين فان وجدت بها مايخل أساسا بالأمور الدينية أو بحقوق حضرة السـلطان السنية أو بالحرية أو بأحكام القانون الأسـاسى أو باستقلالية ملك الدولة أو بأمنية المملكة الداخلية أو بوسائل المدافعة والمحافظة على الوطن أو بالآداب العمومية فلها أن ترفضها قطعيا مع ايراد ملاحظتها أو أن تردها الى هيئة المبعوثين لأجل اصلاحها وتصحيحها ٠ أما اللوائح التى تقبلها وتصادق عليها فتقدم للصدر الأعظم وكذلك المعروضات التى تقدم للهيئة تفحص بالتدقيق وتقدم لمقام الصدارة اذا وجد لزوم لذلك مع اضافة الملاحظات اللازمة عليها ٠

المادة ٦٥ : أن عدد أعضاء هيئة المبعوثين يكون باعتبار شخص واحد من كل خمسين ألف نفس من ذكور التبعة العثمانية ٠

المادة ٦٦ : أن أمر الانتخاب مؤسس على الطريقة السـرية وستقرر كيفيـة الانتخاب فى قانون مخصوص ٠

المادة ٦٧ : لا يمكن الجمع بين عضوية هيئة المبعوثين ومأمورية أخرى فى الحكومة خلا من ينتخب من الوكلاء لهذه العضـوية فيجوز له ذلك وأما من ينتخب لهيئة المبعوثين من باقى مأمورى الدولة فهو فى خيـار من قبول ذلك أو رفضه الا أنه اذا قبل العضوية يفصل من مأموريته الأولى ٠

المادة ٦٨ : لا يجوز أن ينتخب لهيئة المبعوثين أولا : من لم يكن من تبعية الدولة العلية ، ثانيا : من كان حائزا مؤقتا على امتياز لخدمة أجنبية بمقتضى النظام المخصوص ، ثالثا : من لم يكن عارفا باللغة التركية ، رابعا : من كان سنه دون الثلاثين ، خامسا : من كان مستخدما عند شخص آخر فى وقت الانتخاب ، سادسا : من حكم عليه بالافلاس ولم يعد اعتباره ، سابعا : من كان مشهورا بالتصرفات السيئة ، ثامنا : من حكم عليه بالحجر حكما لاحقا ولم يفك عنه الحجر ، تاسعا : من كان ساقطا من الحقوق المدنية ، عاشرا : من يدعى أنه من التبعية الأجنبية · فجميع هؤلاء لا يجوز انتخابهم بهيئة المبعوثين أما فى الانتخاب الذى يجرى بعد أربعة سنوات فيشترط على المنتخب أن يكون عارفا القراءة والكتابة فى اللغة التركية نوعا ما ·

المادة ٦٩ : أن انتخاب المبعوثين العمومى يجرى مرة واحدة فى كل أربع سنين ومدة مأمورية كل من المبعوثين هو عبارة عن أربع سنين ويجوز تجديد انتخابه ·

المادة ٧٠ : أن انتخاب المبعوثين العمومى يبتدأ به قبل شهر تشرين الثانى الذى هو بداية اجتماع الهيئة بأربعة أشهر على الأقل ·

المادة ٧١ : أن كلا من أعضاء هيئة المبعوثين يعتبر كنائب عن عموم العثمانيين وليس عن الدائرة التى انتخبته فقط ·

المادة ٧٢ : من الواجب على المنتخبين أن ينتخبوا المبعوثين من أهالى دائرة الولاية التى هم منها ·

المادة ٧٣ : اذا فضت هيئة المبعوثين بارادة سنية يبتدأ بانتخاب جميع الأعضاء الجدد بحيث تتمكن الهيئة من الاجتماع بعد ستة أشهر على الأكثر ·

المادة ٧٤ : اذا توفى أحد أعضاء هيئة المبعوثين أو وقع تحت الحجز لأسباب قانونية أو انقطع عن الحضور الى المجلس مدة طويلة أو استعفى لداعى صدور حكم ما عليه لسبب قبول مأمورية أخرى فيتعين عضو خلافه بحسب الأصول قبل الاجتماع التالى ·

المادة ٧٥ : ان مأمورية العضو الذى ينتخب عوضا عن أحد المبعوثين تدوم فقط الى وقت الانتخاب العمومى الآتى ·

المادة ٧٦ : يعطى لكل من المبعوثين عشرون ألف قرش من خزينة الدولة عن مدة الاجتماع فى كل سنة وتعطى له أيضا مصاريف الطريق ذهابا وايابا باعتبار كون المعاش الشهرى خمسة آلاف قرش وفقا لنظام المأمورين الملكيين ·

المادة ٧٧ : تنتخب هيئة الأعيان ثلاثة أشخاص لرئاسة الهيئة وثلاثة أشخاص لكل من الرئاستين الثانية والثالثة ثم تقدم أسماء هذه الأشخاص التسعة الى الحضرة الشاهانية وبموجب ارادة سـنية يعين أحد الثلاثة الأولين لرئاسة الهيئة وشخصان من الستة الباقين بصفة وكيلين للرئيس وتجرى مأموريتهم على هذه الصورة ·

المادة ٧٨ : أن المذاكرة والمفاوضات فى هيئة المبعوثين تجرى علنا غير أنه اذا وقعت مادة مهمة أو عند طلب الوكلاء أو خمسة عشر عضوا من أعضـاء المبعوثين اجراء المذاكرة سرا على أمر ما حينئذ يصرف الأشخاص الموجودون فى محل اجتماعها خلا أعضائها وبموجب قرار الأكثرية تقبل أو ترفض الطلب المتقدم لها وتجرى المفاوضات علنا أو سرا بحسب القرار المذكور ·

المادة ٧٩ : لا يجوز القاء القبض على أحد أعضاء هيئة المبعوثين بمدة اجتماع المجلس ولا محاكمته ما لم يثبت بموجب قرار أكثرية الهيئة وجود سبب كاف لالقاء التهمة عليه من قبل الهيئة أو ما لم يرتكب جنحة أو جناية ما ويمسك بوقت ارتكابه ذلك أو عقبه ·

المادة ٨٠ : أن هيئة المبعوثين تتذاكر بلوائح القوانين التى تحال لها فما كان منها متعلقا بالمالية أو بالقانون الأساسى يسوغ لها أن ترفضه أو تقبله أو تصلحه · وغب تدقيق البحث على المصاريف العمومية بالتفصيل كما هو مصرح به فى قانون الموازنة تقرر مقدارها بالاتفاق مع هيئة الوكلاء وتعين كذلك مع هيئة الوكلاء أنواع الواردات المقتضية لمقابلة المصاريف العمومية ومقدارها وكيفية توزيعها واستحصالها ·

● فى المحـــاكم

المادة ٨١ : أن القضاة الذين ينصبون من قبل الدولة بموجب النظام المخصوص وتعطى لأيديهم البراءة الشريفة فهـؤلاء لا يعزلون وانمـا يجـوز قبـول استعفائهم · أما صورة ترقى القضاة ومسالكهم ومبادلة مناصبهم وكيفية اجراء تقاعدهم وعزلهم عند صدور الحكم عليهم بذنب ما ، جميع ذلك مصرح فى النظام المذكور وهذا النظام موضح به كذلك الأوصاف المطلوبة من القضاة ومن باقى مأمورى المحاكم ·

المادة ٨٢ : أن جميع أنواع المحاكمات تجرى فى المحاكم علنا والاعلامات التى تصـــدر منها مأذون بنشرها غير أنه يجرى المحاكمة سرا فى الظروف المنبعثة بالقانون ·

المادة ٨٣ : يحق لكل أحد أن يستخدم لدى المحاكمة جميع الوسائل القانونية للدفاع عن حقوقه ٠

المادة ٨٤ : لا يسوغ لاحدى المحاكم لأية علة كانت أن تمتنع عن رؤية دعوى هى من متعلقاتها ولا يجوز توقيف الحكم بدعوى ما أو تأخيره بعد الشروع فى رؤية تلك الدعوى أو بعد اجراء التحقيقات الأولية المقتضية لرؤيتها ، ما لم يكف المدعى عن ملاحقة دعواه ٠ ولكن حقوق الحكومة فى الدعاوى الجنائية تأخذ مجراها النظامى ٠

المادة ٨٥ : كل دعــوى يجب أن ترى فى المحكمة التى يتعلق بها رؤيتها أما الدعاوى التى تقع بين الأفراد والحكومة فانها ترى كذلك فى المحاكم العمومية ٠

المادة ٨٦ : أن المحكمة بجملتها تكون عارية من كل نوع من المداخلات ٠

المادة ٨٧ : أن الدعاوى الشرعية ترى فى المحــاكم الشرعية والدعاوى النظامية ترى فى المحــاكم النظامية ٠

المادة ٨٨ : أن أنواع المحاكمة ووظائفها ودرجات حقوقها وأمر توظيف القضاة كل ذلك يعود به على القوانين ٠

المادة ٨٩ : لا يجوز قطعا لأية علة كانت ترتيب محاكم غير اعتيادية ولا لجان لرؤية بعض دعاوى مخصوصة والحكم بها خلال المحاكم القانونية وانما يجوز فقط التحكيم وتعيين مولين بحسب مفاد القانون ٠

المادة ٩٠ : لا يجوز لقاض أن يجمع بين مأموريته القضائية ومأمورية أخرى ذات معاش فى الحكومة ٠

المادة ٩١ : سيجرى تعيين مدعين عموميين للدفاع عن الحقوق العامة فى الأمور الجنائية أما وظائف هؤلاء المدعين ودرجاتهم فستقرر فى القانون ٠

● فى الديوان العــالى

المادة ٩٢ : يتألف الديوان العالى من ثلاثين عضوا منهم عشرة ينتخبون بالقرعة من رؤساء وأعضاء مجالس التمييز والاستئناف ٠ وهذا الديوان ينعقد عند الاقتضاء بموجب ارادة سنية فى دائرة هيئة الأعيان ووظيفته انما هى محاكمة الوكلاء ورؤســاء محاكم التمييز وأعضائها وكل من اعتدى على ذات الحضرة السلطانية وعلى حقوقها وكل من حاول القــاء الدولة فى خطر ٠

المادة ٩٣ : ينقسم الديوان العالى الى قسمين يسمى أحدهما دائرة التهمة والآخر ديوان الحكم ٠ أما دائرة التهمة فأعضاؤها تسعة ينتخبون ثلاثة من هيئة الأعيان وثلاثة من ديوان التمييز والاستئناف وثلاثة من أعضاء شورى الدولة وكلهم ينتخبون بالقرعة من الأعضاء الذين يعينون للديوان العالى ٠

المادة ٩٤ : يعطى القرار فى هذه الدوائر بأكثرية الثلثين على صحة التهمة الملقاة على الذوات المتشكى عليهم أو عدمها أما أعضاء دائرة التهمة فلا يحضرون فى ديوان الحكم ٠

المادة ٩٥ : أن عدد الأعضاء فى ديوان الحكم واحد وعشرون عضوا من أعضاء الديوان العالى منهم سبعة من هيئة الأعيـان وسبعة من ديوان التمييز والاستئناف وسبعة من شورى الدولة ٠ وهذا الديوان يحكم حكما باتا وبمقتضى القوانين المؤسسة فى الدعاوى التى قررت دائرة التهمة لزوم المحاكمة عليهـا ويتم حكمه بموجب قرار أكثريته بثلثى أعضائه ٠ أما أحكام هذا الديوان فلا تقبل الاستئناف ولا التمييز ٠

● فى الأمور المالية

المادة ٩٦ : أن تكاليف الدولة لا يترتب منهـا شيء ولا يصير توزيع شيء منها ولا جمعه ، ما لم يتعين بقانون ٠

المادة ٩٧ : أن لائحة الدخل والخرج فى الدولة هى بمنزلة قانون موضح به مقدار وارداتها ومصروفاتها تقريبـا فكل تكاليف الدولة يعول بأمـر ترتيبها وتوزيعها وجبايتها على هذا القانون ٠

المادة ٩٨ : أن اللائحة المذكورة أى قانون الموازنة العمومية يصير البحث والمصادقة عليها بندا بندا فى المجلس العمومى وكذلك الجداول المرتبطة بها المتضمنة تفاصيل الواردات والمصارفات تقسم الى أبواب وفصول ومواد متعددة وفقا للأصول المتأخذة نظاما وتجرى المذاكرة عليها أيضا فصلا فصلا ٠

المادة ٩٩ : أن قانون الموازنة العمومية يطرح أمام هيئة المبعوثين عقب اجتماع المجلس العمومى ليمكن وضعه فى موقع الاجراء عنـــد دخـول السـنة المتعلق بها ٠

المادة ١٠٠ : لا يجوز صرف شيء من أموال الدولة خارجا عن الموازنة ما لم يعين ذلك بقانون مخصوص ٠

المادة ١٠١ : اذا مست الحاجة لصرف مبلغ ما خارج عن الموازنة فى غير وقت اجتماع المجلس العمومى وذلك لأسباب اجبارية غير اعتيادية فان هيئة

الوكلاء تستأذن من الحضـــرة السلطانية عن ذلك آخـــذة المسئولية عليها وتتدارك المبلغ اللازم لصرفه بموجب الارادة السنية التى تصدر ٠ وعليها أن تقدم لائحة ذلك الى المجلس العمومى عند اجتماعه ٠

المادة ١٠٢ : أن حكم قانون الموازنة هو لسنة واحدة فقط ولا يجرى فى غير تلك السنة غير أنه اذا فض المبعوثان لأسباب غير اعتيادية قبل تقرير الموازنة فيســـوغ للوكلاء بموجب ارادة ســـنية أن يداوموا اجراء حكم موازنة السنة الماضية الى أن يلتئم مجلس المبعوثين ، بشرط أن لا يتجاوز ذلك مدة سنة ٠

المادة ١٠٣ : أن لائحة قانون المحاسبة القطعية يتضمن مقدار المبالغ المتحصلة من واردات السنة المعينة لها وحقيقة المصاريف التى صار دفعها بتلك السنة ٠ وينبغى أن تكون هيئتها وأبوابها موافقة بالتمام لقانون الموازنة العمومية ٠

المادة ١٠٤ : أن قانون المحاسبة القطعيـــة يطرح أمام المجلس العمومى فى كل أربع سنين على الأكثر من ختام السنة المتعلق بها ٠

المادة ١٠٥ : يترتب ديوان محاسبات لأجل رؤية حساب المأمورين الموكلين بقبض أموال الدولة وصرفها ولأجل فحص المحاسبات السنوية التى تقدم من الدوائر المختلفة ، وهـــذا الديوان يقدم الى هيئة المبعوثين فى كل سنة تقريرا حاويا خلاصة فحصه وتدقيقاته ونتيجة أفكاره وملاحظاته وفى كل ثلاثة أشـــهر يعرض أيضا على الحضرة السلطانية بوساطة رئيس الوكلاء تقريرا عن أحوال المالية ٠

المادة ١٠٦ : أن ديوان المحاسبات يؤلف من اثنى عشر عضوا يعينون بموجب ارادة سنية ويستمرون فى مأموريتهم مدة حياتهم ولا يعزل أحـــد منهم ما لم تصادق هيئة المبعوثين بالأكثرية على لزوم عزله ٠

المادة ١٠٧ : سيترتب نظام مخصوص لتعيين الصفات المطلوبة من أعضاء ديوان المحاسبات وتفاصيل وظائفهم وصـــــورة استعفائهم وتبـــديلهم وتوقيتهم وتقاعدهم وكيفية تشكيل الأقلام المتعلقة بهذا الديوان ٠

● فى الولايات

المادة ١٠٨ : أن أصـــول الولايات ستؤسس على قاعدة توسيع دائرة المأذونية وتفريق الوظائف وستعين درجاتها بنظام مخصوص ٠

المادة ١٠٩ : سيترتب قانون مخصوص أوسع من القانون الجارى الآن لانتخاب

أعضاء مجالس الادارة فى الولايات والألوية والأقضية لانتخاب أعضـاء المجالس العمومية التى تلتئم كل سنة مرة فى مراكز الولايات ٠

المادة ١١٠ : أن وظائف المجالس العمومية كما سيصرح به القانون المذكور هى المذاكرة والمفاوضة فى الأمور النافعة كتنظيم الطرق والمعـابر وترتيب الصناديق وترقية أسباب الصنائع والتجارة ونشر المعارف العمومية ومن خصائصه أيضـا حق التشكى الى المحلات المقتضية عند وقوع مغايرات للقوانين والنظامات المؤسسة لأجل اصلاح ذلك سواء كان بأمر توزيع الأموال الأميرية وجبايتها أو بالمعاملات العمومية ٠

المادة ١١١ : يترتب فى كل قضاء مجلس لكل ملة ، ينتخب أعضاؤه من أفراد تلك الملة ويكون من خصائصه النظر بمداخل المسقفات والمستغلات والنقود الموقوفة لكى تصرف بحسب شروط واقفيها ومعاملتها القديمة لمن له حق فيها وللخيرات والمبرات والمناظرة أيضا على صرف الأموال الموصى بهـا حسبما هو محرر فى وصية الموصى وعلى ادارة أموال الأيتام وفقا لنظامها الخصوصى ٠ أما هذه المجالس فانها تعرف الحكومات المحلية ومجالس الولايات العمومية مرجعا لها ٠

المادة ١١٢ : أن الأمور البلدية تجرى ادارتها فى مجالس الدوائر البلدية التى سيصـير ترتيبها فى دار السـعادة وفى الخارج وسيصـير وضع قانون مخصوص لتنظيم الدوائر البلدية ووظائفها وكيفية انتخاب أعضائها ٠

● فى مواد شتى

المادة ١١٣ : اذا ظهرت بعض علائم وأمارات تنذر بوقوع اختلال ما فى احدى جهـات المملكة فيحق للحكومة السنية حينئذ أن تعلن الادارة العرفيـة مؤقتا فى ذلك المحل فقط ٠ والادارة العرفية انمـا هى ابطال القوانين والنظامات الملكية بصورة مؤقتة ٠ وسيترتب نظام مخصوص لكيفية ادارة المحل الموضوع تحت الادارة العرفية ٠ أما الذين يثبت بوساطة تحقيقات ادارة الضابطة الصحيحة أنهم سبب فى اختلال أبنية الحكومة فللحضرة السلطانية وحدها الحق أن تخرجهم من الممالك المحروسة وتبعدهم عنها ٠

المادة ١١٤ : أن التعليم الابتدائى يجعل اجباريا على كل فرد من جميع أفراد العثمانيين وتفاصيل ذلك تقرر فى نظام مخصوص ٠

المادة ١١٥ : لا يجوز توقيف أو ابطال بند من بنود هذا القانون الأساسى لأية علة كانت ٠

المادة ١١٦ : اذا اقتضت الظروف والأحوال تغيير بعض المواد المدرجة فى هذا

القانون الأساسى أو اصلاحها ووجد لزوم حقيقى وقطعى لذلك فيجوز تغييرها على الشروط الآتية وهى : أنه متى طلبت هيئة الوكلاء وكل من هيئة الأعيان والمبعوثين اصلاح قضية ما فاذا صادقت هيئة المبعوثين على ذلك بأكثرية هى الثلثان وصـــدرت ارادة سنية بشأنه فان هذا الاصلاح يعتبر دستورا للعمل . أما المادة التى يطلب اصلاحها فتبقى مرعية الاجراء حائزة قوة الحـكم والنفوذ الى أن تجرى عليهـا المذاكرة وتصـدر بشأنها الادارة السنية كما ذكر .

المادة ١١٧ : اذا اقتضى الحال تفسـير احـدى المواد القانونية فاذا كان ذلك من الأمور العدلية يتعلق تفسيره فى محكمة التمييز وان كان من أمور الادارة الملكية فذلك من خصائص شورى الدولة وان كان من مواد هذا القانون الأساسى فذلك متعلق بهيئة الأعيان .

المادة ١١٨ : ان القوانين والنظامات الجارى العمل بهـا الآن وجميع المعاملات والعوائد تبقى نافذة ومرعية الاجـراء ما لم يصر الغاؤها أو اصـــلاحها بالقوانين والنظامات التى تسن فى المستقبل .

المادة ١١٩ : أن التعليمـات المؤقتة التى ترتبت بشـأن المجلس العمومى فى ٢٠ من شوال سنة ١٢٩٣ هـ تبقى أحكامها جارية الى نهاية اجتماع المجلس المذكور الأول وبعد ذلك يضحى حكمها باطلا .

فى ٧ من ذى الحجة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م)

١٣

الخطاب المرسل من امام اليمن الزيدى يحيى ابن محمد حميد الدين الى وفد علماء مكة الذين اوفدهم اليه السـلطان العثمانى عبد الحميد الثانى فى منتصـف عـام ١٩٠٧ م (١٨ من شعبان سنة ١٣٢٥ هـ) وقد اجاب فيه الامام على خطابهم اليه لدعوته الى عقد الصـلح مع الدولة ووضـع حـد للقتال الدائر فى اليمن حينذاك (١) .

---

(١) عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، ط ٢ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . والصلاة والسلام على القائل من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار . وعلى آله المطهرين من الأرجاس ، المصطفين على كافة الناس ، وعلى صحابته الراشدين ، أولى العفة والعزيمة فى الدين .

أما بعد ، فانه وصل الينا كتاب جليل من علماء مهابط التنزيل ومعارج ميكائيل وجبرائيل ، السيد الجليل عبد الله بن عباس ورفقائه العلماء التسعة الأكياس ، أفرغ الله عليهم سحائب الرضوان والتسليم . وأوضح بحميد سعيهم الصراط المستقيم ، وصرف عنهم كل شيطان رجيم ، ونزههم عن خدمة ضمير كل جبار أثيم ، ووفقهم الى مطابقة مراده ومراد سلطان الاسلام وحامى حمى الدين القويم . متضمنا للنصيحة ، معرفا بما دهم الاسلام من تكالب ذوى الملل القبيحة ، ملوحا بما لم يكن من مواد ، ومن حاد الله ورسوله ، ومعرفا بما هو المعروف من حق وقدر سلطان الاسلام أيد الله به الدين ، ونصره على الكفرة والمشركين . فنقول :

الحمد لله الذى قيض لنا من يفهم الخطاب ، ويعرف الخطأ من الصواب ويدرك مدارك الأحكام ، ويحكم الشرع الذى ارتضاه لنا العلام . وها نحن نقدم نفثة مصدور ، وزفرة محرور . اعلموا حماكم الله تعالى أن الله ، ولله والحمد اختار لنا دينا قويا هو أشرف الأديان ، فبعث الله به أفضل الرسل سيد ولد عدنان . وأكمل له ذلك الدين ، فقال : « اليوم أكملت لكم دينكم » ثم قبض الله رسوله اليه ، وقد أوضح المنهج ، وأزال العوج عن خير القرون . فما زال الاسلام ينمو ويرتفع ، والضلال ينقص ويتضع . وكان كلما حدثت بدعة أزيلت، أو مظلمة ارتفعت ، حتى تولى ذو الملك العضوض ، فتناقص ذلك التمام ، وتكاثر الفساد من عام لعام . واختلف على الدين الولاة ، ومدت الى جانب أعناقها لابتلاع الاسلام العداة . ولمعت نيران الشر ، وظهرت الفحشاء والمنكر . وكان ما كان من مغلوب وغالب ، ومطلوب وطالب . ومكن الله الدولة العثمانية من الحماية للدين ، وحفظ حوزته من الكفرة المعتدين .

وكانت بلاد اليمن بيد أسلافنا من الآل الأكرمين من المائة الثالثة الى التاريخ (١) ، ولم ينفك قائم الحق عنها اما متوليا لجميعها أو بعضها ، كما هو معروف فى تواريخ اليمن .وكانت المعارك مستمرة بين أسلافنا ومن ناوأهم لرغبة أهل اليمن فى ولاية ساداتهم وأولاد نبيهم ، رضى الله عنهم ، واعتقادهم

(١) يقصد الى الآن (أى تاريخ كتابة الخطاب) .

وجوب توليهم ونصرتهم ، وكما يعرفونه من أحوالهم وأن لا ارادة لهم غير الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر المخوف ، واقامة الشريعة وتعديل المائل ، وارشاد الجاهل وتقريب المؤمنين وابعـاد الظالمين · ثم لما توجه أحمـد مختار باشا من الحضرة السلطانية الى اليمن ، وكان قائما ذلك الوقت الامام محسن بن أحمد وكان بينه وبين المأمورين ملاحم · ثم بعـده الامام شرف الدين ولا زال ظلم المأمورين يتضـاعف من عـام الى عـام · وتنوعهم فى المعاصى وارتكاب الشهوات ظاهرا بلا حياء ولا احتشام · وكلما ظهر شىء أو زاد كثرت البغضاء فى قلوب أهل اليمن للمأمورين ، فالايمان يمان والحكمة يمانية ، حتى قام والدنا رضى الله عنه ، وقد ضرب ضلال المأمورين بجرأته · وتطاردت أفراس شهواتهم فى حلبة الفجور وميدانه فكان بينه وبين المأمورين ما كان حتى مضى لسبيله ، ولحق بحزب جده الأمين وجيله · فانتصبنا لذلك المقام ، حين نفر أهل اليمن من مأمورى السلطنة على الدوام · ولم نقم والله لدرهم ولا دينار ولا لطلب علو ولا فخار · ولكنه أكرهنـا على ذلك قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ونحوها من صرائح الكتاب والسـنة ·

ثم كان بين أهل اليمن والمأمورين ما كان ، وكان منا غاية الاحسان لأتباع سلطان الاسلام · كما قد عرفه ممن له بما كان أى المام · وعقد الصلح بيننا وبين المأمورين مؤكدا بذمة الله وذمة رسوله مع اغفال النظر عن امكان الغدر وخفر الذمم ·

فلم يرعنا الا محررات من الحاج أحمد فيضى باشا ، مشعرا بما تقشعر منه الجلود من نقضه تلك العقود ، وخفره لتلك الذمم والعهود · فراجعناه ونصحناه وأعلمناه بما فى خفر ذمة الله من التعرض للوبال والاستعجال للنكال فما زاده الا شـدة وثقة بما فى يده غير الله من العـدد والعـدة ، وكان ما كان من اخراب الدور وسفك الدماء وذهاب الأموال ، ولم يكن منا الا مجرد الدفاع المأمور به شرعا ، ثم أردنا السكون والاشتغال بما أماته المأمورون من احياء العلم الشريف واقامة شريعة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعلم الناس معالم الدين ، وارسال المعلمين الى القرى لتعليم أهلها الصلوات ، فلم يشعرنا الا تجاوز يوسف باشا الحدود ، وتبنيد الابناد وتجنيد الجنود ، وادخاله الى طرف بلاد حاشد والى ما هو بأيدينا فلم يسعنا السـكوت فكان ما كان · نعم والمأمورون لم يزالوا يثيرون غضب السلطان على أهل اليمن ، ويستنجدون منه الاجنـاد المترادفة والأموال المتكاثرة ويشيرون باستئصال أهل البيت النبوى والدين المصطفوى · وينسبونا عندهم الى الخوارج والرافضة وربما يخرجوننا عن دائرة الملة المحمدية ولا والله ما لنا مذهب غير ما كان عليه خير القرون والسلف الصالحون ، وانا لنبرأ الى الله من الخوارج والروافق وأهل البدع المحدثة ، والمأمورون يعرفون

ذلك منا لكنه حداهم على ذلك ماجبلوا عليه من حب جمع الأموال والتسلق لأخذها من غير الوجه الحلال ، ولم يتم ذلك الا باستمرار القتال ، والتنقل من حال الى حال فتراهم يحسبون على الأموال الميرية ما يأخذونه على الأهالى بيد العدوان ، ويضاعفون أجر الحيوانات على أنهم كثيرا ما يغتصبونها ولا يعطون أهلها شيئا وهم مع ذلك على اللذات والشهوات عاكفون وعلى التفنن فى الفجور يتنافس منهم المتنافسون . فتنكرهم المساجد والجوامع ، ويجحدهم شهر الصوم الذى هو لكل خير جامع . وتعرفهم الكئون والأقداح ، وتصافيهم رباب القدود الملاح . وكل هذا بين واضح سترونه عيانا ان لم يضرب عنكم الحجاب ، وتوصد الأبواب . ومع ذلك نراهم يصادقون لرابطة عداوتنا كل ضال ، حتى انهم ليقربون الباطنية الكفرة ويعطونهم كثيرا من الأموال . ولا وايم الله ، ما هذا دندنتهم الجامعة غير عداوتنا آل محمد ، مع أن مصادقتهم لمثل الباطنية فيما يزيدنا الى الناس حبا ويزيدهم الى الناس كراهة وبغضا ، واسألوا أهل الانصاف عن جميع ما حررناه . ولقد أكثر المأمورون على سلطان الاسلام تزويدات الكلام ، حتى خيلوا اليه أن محاربتنا أقدم من محاربة الكفار الطغام وشغلوه بمحاربة آل النبى المختار . وفى خلال المدة السابقة أرسل سلطان الاسلام ، أيد الله به شريعة سيد الأنام ، هيئة بعد هيئة ، ومفتشين بعد مفتشين ، وكلما خرج أحد منهم تلقاه المأمورون بالاحسان وأدخلوا عليه من يتكلم بمرادهم ، وحالوا بينه وبين ما هو مأمور بامضائه . وسيكون ذلك أو نوع منه معكم أو قد كان ، حتى لقد أرسلنا كتبا عديدة الى الباب العالى من طرق شتى لم يعد لنا جواب رأسا لاحتفال المأمورين بردها عن ذلك الباب .

وأما الأحكام الشرعية فما كأنهم أمروا بغير هدمها ومحو اسمها ، وطمس رسمها . فانا لله وانا اليه راجعون . عودا على بدء ، النصيحة مقبولة ان شاء الله تعالى غير انا نحب أن تطلعوا على ما دار بيننا وبين الوالى أحمد فيضى ومن كاتب الينا من المأمورين لتعرفوا مسلكنا فى الانصاف . وبعدنا عن الميل والاعتساف . وستعرفون حقيقة الحال وها نحن ننشدكم الله والاسلام ، هل تجدون ناسخا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر المخوف ؟ أم هل تجدون من محرم للدفاع عن الأموال والأعراض والنفوس والبنات والبنين ؟ أم هل من مانع لقتال من أضاع أركان الاسلام ؟ أم هل من تثريب على من اقتفى الأثر بآيات قراء القرآن والحجة على الأمة فى كل عصر وأوان ، الذين أوجب الله محبتهم على كل بنى الانسان ؟ أم هل من ناسخ لآيات : ومن لم يحكم بما أنزل الله . وانا نحذركم من دسائس المأمورين فان لهم طرقا الى جلب أمثالكم الى اتباع مقاصدهم ، كما انتخبوا لخدمة أفكارهم أناسا من أهل اليمن ، وجعلوهم آلة لهم فى كل مكان حتى بلغ بهم الحال الى أن أرسلوهم للوفادة للباب العالى للتعبير عنهم بما علموهم كما يفعلونه اذا وصل مثل حضراتكم أو مفتش فهم يمرون عليه فى كل يوم

بأماكن الأمراء ، ويدلسون بأقوال لا يعبأون بظهور الكذب فيها والافتراء . ثم ابحثوا عن العلة الباعثة فان من عرف الداء عرف الدواء .

وانا نمد الى الله أكف الابتهال أن يجعل على أيديكم جبر كسر اليمن الميمون ، وأن يقذف فى قلب سلطان الاسلام الرأفة والرحمة باستدراك حشاشة أهله فهم مؤمنون .

وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حرر فى ١٨ من شعبان المعظم سنة ١٣٢٥ هـ .

١٤

نص المنشور الذى طبعه محمد الادريسى فى خارج اليمن والذى أوضح فيه مبررات ثورته ضد الأتراك العثمانيين . وهذا المنشور سجل متكامل يوضح تطور العلاقات العثمانية الادريسية منذ ظهور الادريسى فى سنة ١٩٠٧ (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الأمين الذى اصطفاه الله من خيرة العرب فأرسله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وأنزل عليه فى كتابه العزيز كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، وأبان له من أحوال الأمم السابقة ما فيه مزدجر لقوم يعقلون فقال لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . وحدد له الحدود وبين له الأحكام وقال ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، وقال ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . فأولئك هم الكافرون ، فأولئك هم الفاسقون .

أما بعد فقد قال الله تبارك وتعالى « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . وقال

(١) محمد بن أحمد العقيلى : المخلاف السليمانى او الجنوب العربى فى التاريخ ج ٢ ص ١٥٦ – ١٦٦ .

صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان » . وقد علمت أن بعضا ممن تطلب لهم الهداية من الله ولا أزيد قد نقلوا عنى ما الله يعلم أننى منه براء ، ونسبوا لى ما لا يصـــدر الا عن المفسدين ، وشوهوا كثيرا من الروايات التى يروونها عنى بالباسها لبـاس التغرير والتمويه وكذبوا على أولئك العرف المخلصين الذى قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ما يفتخرون به ، فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « انى لأشتم ريح الايمان فى جهة اليمن أو كما قال وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال العلم يمان والحـكمة يمانية ، وفى رواية الايمان يمان والحكمة يمانية ، واذ كان ذلك كذلك كان حقا على أن أذكر مجلا الحقيقة لتطمئن به نفوس اخوانى المسلمين فى غير جزيرة العرب والله على ما أقول وكيل ٠

نحن بحمد الله مؤمنـــون من أهل السنة والجماعة نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـــوم الآخر ونعمل على ما يوافق الشريعة المطهرة مبلغ علمنا وطاقتنا ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونجتهد فى ازالة البدع الضارة بالدين وأهل الدين غير مرائين ولا مداحين ولا ماكرين ولا مخادعين لا ندعى شيئا من الدعاوى العريضة التى يموه بها ذوو الأوهام على عقول العوام ، فلا ننتحل المهدية كما يزعمون ولا نشعوذ كما يفترون ولا نزعم كشفا ولا شيئا من علم الغيب كما يشيعون (سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العزيز الحكيم) بل لا نتصور شيئا يحاوله ذو البطالة العاجزون ، ولا نريد خلافة ولا ملكاكما يتوهمون ، ولا نطلب جاها ولا مالا ولا شيئا من الأغراض الدنيوية الفانية التى يتهالك عليها الطامعون اللهم الا ما يكون بلاغا الى الدار الآخرة ووسيلة لمصلحة الاسلام والمسلمين من طريق شرعى نتحرى فيه ما استطعنا ٠ وسواء علينا فى طلب الخير ظهرت النتيجة على يدينا أو على أيدى واحد من العاملين المسلمين ، فاننا علم الله نطلب الخير للخير ونتباعد ما استطعنا عن الشر وكل ما نتهم به هو الصلاح والاصلاح وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ٠

ولقد كان لى من سلفى الطاهر أسوة حسنة وفى طريق تربيتى وما يعرف العارفون بى من الأخلاق التى أنا عليها ، وسيرتى وسريرتى منذ نشأتى أكبر برهان على ما ذكرته بحمد الله ٠ سيقول القراء اذا فما تللك الضجة التى شغلت كثيرا من الآفاق ، وما هو السبب فى هذا الذى يزعمون من البغى والخروج والتشويش على الدولة فى الوقت الذى أصبحت فيه على شـفا جرف هاو من الانهيار بسبب اختلاف أحزابها ، وتغير أطوارها ، وعدم تماسك رجالاتها ، والقاء زمامها بيد أغرارها ، وتغلب أشرارها على أخيارها مع ما انتابها من اعتداء المعتدين وما تخشاه من أيدى الطامعين ، مثل خلق هذا للدولة موظفوها وبعض ضباطها المارقون أولئك الذين ملأت الدولة الآن بهم جوف المناصب وتركتهم

على غلوائهم وصلفهم وكبريائهم يعيشون في الأرض بلا خشية ولا حياء ، فنراهم يستبيحون الحرام وينتهكون الأعراض ويتجاهرون بالمعاصي والخروج عن الحدود التي حد الله ورسوله غير مبالين ولا متأدبين ، فلا الصلاة يؤدون ، ولا الشهر يصومون ، ولا هم في حكمهم يعدلون ، ولا لأصاغرهم بله أنفسهم عن الايغال في أرزاق الرعية يزجرون • وناهيك بالرشوة وعكوفهم عليها مع عبثهم في أموال الرعية واحتقارهم للأمة العربية واللغة العربية ، واهمال جميع المصالح العامة واهانة رجال الدين الى غير ذلك مما لا يصدر الا عن القوم الظالمين الغادرين ، كل هذا مع رغبة أولئك العجم الذين لا خلاق لهم في ايجاد القلاقل واثارة الفتن ليتمكنوا من حمل الدولة فوق ما تتحمله من الأثقال التي تنوء بها الدولة ذات القوة على جمع الجنود وتجييش الجيوش حتى تكون لهم مندوحة للاشتراك مع المتعهدين سرا في تلك التعهدات الكبيرة التي تكال فيها أموال الدولة جزافا فيملأون من هذه النار بطونهم وبطون شركائهم ، ولا يهمهم بعد ذلك عمرت الدولة أم خربت ، صلحت أحوال الناس أو فسدت •

ليت شعري اذا كان هذا عمل الحاكمين في جزيرة العرب منبع النبوة ومهبط الوحي بين ظهراني عرب البادية السذج الخلص وعلى مرأى ومسمع منهم ، بل قد ينال أهل البادية أنفسهم ما تئن منه أهل الحاضرة ، أترى أنه مع هذا يمكن للعربي أن يصدق أن حكامه مسلمون مهما حاولت اقناعه ومهما أطلت في ايراد الحجج عليه بالطرق المختلفة ، في حين أن بلاغة العمل فوق كل بلاغة وبيانه فوق كل بيان ، كلا لا جرم أنه قد أصبح من البدء يسيطر على أعمال الدولة الأحداث الأغرار الذين يثيرون عليها الفتن ، ويقيمون عليها القلاقل ، وسواء علينا أكان ذلك بعلم المراجع العليا كما يعبرون بحيث يكون سكوتهم على ذلك لأي مقصد من المقاصد أو بغير علم منهم •

ولقد نما الينا في المدة الأخيرة أن أمثال هؤلاء الشبان قد أصبحوا يبيعون البلدان ولا سيما العربية بأبخس الأثمان ، وبعد فقد عرف القراء مما نشر قبل الآن في بعض الجرائد المصرية اننا لما عدنا من طلب العلم بالديار المصرية وغيرها الى بلاد اليمن حيث المهد الأول لنا ، وجدنا الناس على أسوأ مما تركناهم عليه من شدة النفرة بينهم وبين رجال الحكومة ، كما وصفناها آنفا وجدناهم كذلك على ما هم عليه في الامتناع عن دفع الأعشار ، والمحاكمة الى الطواغيت ، واختلال الأمن في جميع الأنحاء بسبب المطالبات بالثأر وترك الحكومة حبل الناس على غاربهم ذلك الأمر الذي أوقف جميع الأعمال والحركات سواء التجارية أو الزراعية وغيرها الى حد كان الرجل معه لا يمكنه أن يخرج من محله قيد شبر الا اذا كان معه من عشيرته من يجيرونه ، ومن الأسلحة ما يدفع به الغائلة وما أكثرها • ولو رأيت اذ ذاك لرأيت ما يفتت الأكباد ، ويمنع الرقاد ويطيل

السعاد ، نعم لو رأيت لرأيت المساجد معطلة والشرعية مهملة والأرض قاحلة والمصائب متواصلة ، فلا يمكن لرجل أن يخرج الى بلده الا حاملا لسلاحه مصاحبا رفقته لتتولى حراسته ، بل لو رأيت لرأيت من السلب والنهب وقتل الأرواح البريئة ما تزعج منه النفوس الثابتة وتلين له القلوب القاسية ، بل رأيت من الحروب الأهلية الدائمة بين القبائل والعشائر والأفخاذ ما يذهب بالأموال ويرمل النساء وييتم الأطفال ويقطع النسل ويقلل الذرية ، كل ذلك نراه اذ ذاك حاصلا على مرأى ومسمع من الحكومة ورجالها دون أن تحرك ساكنا أو تعمل عملا لايقاف سيل هذا البلاء الجارف ، وقد لا تجد لأحد من الحكام والموظفين اهتماما بأمر من هذه الأمور الا ما يكون من ورائه ربح له على انفراده أو بالاشتراك مع بعض أعوانه ·

ولقد وصلت الحال بالحكومة نفسها الى أنها لا يمكنها أن تستقى من مواقع الماء حتى تعد العدة وتجيش الجيوش وتحتمى بالجار ، فكيف هذا العار لا ريب مع هذا ان اشتد الضيق بالكافة ، وصار العقلاء يبحثون عن مخرج من هذه الحالة ولا يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لو لواليه وهم يجمحون لما اشتدت الأزمة وأراد الله أن يفرجها جعل لنا من ذلك مخرجا ، اذ وفقنى للدخول بين قبيلتين عظيمتين للصلح ، والصلح خير ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه وما كان ليتم ذلك ، ولولا ارادة الله وقوته الالهية على اسقاط الدماء السابقة واحتلال التحاكم الى الشريعة المطهرة محل التحاكم الى الطواغيت ، واقامة الحدود الشرعية على حسب ما أنزل الله فى كتابه وما بينته سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم وما أرشد اليه هدى السلف الصالح والأئمة المجتهدون رضوان الله عليهم أجمعين · بذلك استتب الأمن فى أرض هاتين القبيلتين وسارت التجارة وصلحت الزراعة ، وآمن الناس على الأنفس والأموال وهدوء البال وحفظت الذرارى والأطفال وأقيمت الصلاة بين الأفراد والجماعات وحوفظ على حدود الله تعالى ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، هناك اشرأبت أعناق القبائل الأخرى للانتظام فى هذا السلك ومالت نفوسهم الى الراحة النفسية وترك المعنى الحاصل بسبب التنافر والتخاصم والتخاذل ، ومن المعلوم أن أنفة العرب وشهامتهم تمنعان كل قبيلة من البدء بطلب الصلح فتتابعت الى رسلهم سرا ، فوفق الله هذا الضعيف الى الدخول بين عدة قبايل فتم الصلح بينهم ببركة الاخلاص ، ففازوا بمثل ما فاز اخوانهم السابقون فكان ذلك قذى فى أعين بعض المأمورين ولو أخلصوا لحكومتهم وأمتهم لكان ذلك من أكبر أمانيهم لعموم الأمن وسهولة أدائهم لمأموريتهم · نعم كان ذلك قذى فى أعين البعض وفرصة للبعض الآخر ، أو جعلوا هذا الأمر متكأ يتكئون عليه لحمل الدولة على انفاق النفقات الباهظة فيما لا طائل تحته ، وبذلك يكون لهم ولشركائهم من المتعهدين ما يشاءون من الأرباح ، لهذا أخذ الذين فى قلوبهم مرض يشيعون

الاشاعات ويخلقون الترهات ويذيعون الأباطيل والمفتريات ويلهبون نيران الثورة من الجانبين ، فاجتهدت فى اطفاء تلك الجذوة فى أول اشتعالها بالحكمة والموعظة الحسنة مع حسن المعاملة وكثرة المجاملة وطلب التفاهم حتى يزول ما علق بالنفوس من سيئة فلم أفلح ، اذ غلبت غواية الغاوين على رشد الراشدين ووجدت عبارات الظالمين أذنا صاغية عند ذوى الحل والعقد من رجال الدولة البعيدين عن مشاهدة الحالة والاملاء عليها بالقسط ، فصدرت الأوامر بتجهيز الجيوش وارسالها لمقاتلة هذا الضعيف الذى لا حول له ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وذلك بسبب ما ظهر على يديه من الاصلاح الذى لم يرق فى أعين الحكام مع ظهور فائدته .

فلما رأى العرب ذلك داخلهم فى حكامهم الريب ، وأخذت نفوسهم تفكر حتى ثبت لديهم ، وبعيد أن تقنع البدوى بصد ما يظهره له العيان أن هؤلاء العمال انما هم على غير الملة الاسلامية وظنوا وبعض الظن اثم أن هذه الجيوش انما أرسلت لمقاتلتهم حتى يردوهم عن دينهم ان استطاعوا ، فتأهبوا للدفاع عن أنفسهم وعن دينهم وعن راحتهم وأمنهم ودبت فيهم الحمية العربية والغيرة الاسلامية ، فأخذت ألطف من حدتهم لأعيدهم الى الحكمة والسكون حتى أقنعتهم بأن يقفوا موقف المدافعين عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم مع القيام بواجب الدين ، فوقفوا هذا الموقف حتى حضر سعيد باشا الى اليمن بجيشه الجرار . والرجل على ما يظهر من العقلاء المتبصرين ، عندئذ لم يرد سعادته أن يقتحم ذلك الصعب حتى يرود الأمر بنفسه فعمد وعمدت الى التلاقى ، فلما خبرنا وعرف الحق وظهر له كذب تلك الاشاعات ظهور الشمس لذى عينين ، اتفق معنا على أن نبقى على ما نحن عليه ، وأن الحكومة تقبل أن تكون الأحكام فى هذه القطعة العربية على حسب الشريعة الاسلامية . فلما تم هذا الاتفاق بيننا أجهدت نفسى فى مساعدة الدولة حسبة لله تعالى وساعدتها على مد التلغراف ، ولم تكن قد تمكنت فى عهد وجودها باليمن من ذلك على ما كان فيها من كثرة النفقات التى كانت تذهب أدراج الرياح . وقد أعنتها بعشرة آلاف عود من القوائم اللازمة لذلك ، وكانت قبل ذلك تدفع فى العود الواحد ليرة ثم لا تكاد تضع ما تبتاعه من الأعواد حتى تتخطفه أيدى البدو الذى لا تصل اليهم أيدى الحكومة . كل ذلك عملته وأقنعت العرب بدفع ما تيسر من الاعشار باسم الزكاة ، ولم يكونوا يدفعون للحكومة شيئا وعملت غير ذلك من المساعدات التى لا أرى سعة فى الوقت لشرحها ، كنت أظن أنى بهذا العمل قد خدمت الحكومة أجل خدمة ، وأن رجالها سيحفظون لى ذلك ويعرفون لى اخلاصى لدولتى وملتى ودينى وقومى فيصادقون على هذا الاتفاق ويدعون هذه البقعة التى لم تختلط بالأجنبى تقام فيها حدود الله ، ويتركوننى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر مرتاح الضمير من غير تشويش ولا تكدير ، ولكن ساء مثل القوم فأظهروا من الحوادث، ما أظهر أن ذلك الاتفاق لم يكن الا خدعة يراد بها تخدير أعصاب العرب الى أن

يدخل أولئك الماكرون فى أحشاء الأمة فيقطعون أوصالها ويبطلون أعمالها وما الله بغافل عما يعمل الظالمون ·

لم يرع العرب بعد ذلك الا ما فاجأهم الموظفون من أن المراجع العالية كما يعبرون لم تصدق على الصلح بهذه الطريقة ، ثم نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى الدين وأظهروا الرضا بعدم اقامة الحدود وأخذوا يشنعون على اقامة الحدود وترك الحق لولى الدم ، وقالوا ان المدنية تأبى ذلك · ثم أظهروا لنا منشورات نشرتها الدولة حرضوا فيها بأنهم تفضلوا على المسلمين فى هذه البلاد أو منحوهم من عند أنفسهم منحة العمل بالشريعة فى المدنيات دون الجنائيات ، وشنعوا بمن يتشدد فى طلب ذلك فى الجنائيات ، الى غير ذلك مما يخالف مقاصدهم وتأباه أغراضهم ودستورهم الحديث · علمنا بذلك فقلنا لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ويا لهذا الخذلان متى كانت الشريعة تقام دون أن تقام حدودها ، وما الذى يمنع ذلك وبلاد العرب خلو من كل الأجانب عن الدين ، فاذا فرضنا أن الدولة تجد صعوبة فى تنفيذ الشريعة كما هى فى غير بلاد العرب ، فما هى الصعوبة فى تنفيذها هنا مع رضاء الأهالى بذلك وسرورهم به وظهور نتائجه لهم وتشددهم فى طلبه · ثم ما هى تلك المدنيات التى منحونا الحكم منها على مقتضى الشريعة ولا ثروة عندنا ولا تجارة ولا تزاحم فى البلاد ليقتضى منازعات مدنية لا يحصل التراضى بحكم المحكمين ، أتراهم توهموا أنهم عملوا اصلاحا فى البلاد فأوجدوا فيها تجارة لن تبور وصناعات رائجة وزراعات مثمرات الى غير ذلك فظنوا أن المنازعات المدنية شىء كبير يعد من المحنة لهؤلاء المتمسكين بدينهم أن يتفضل عليهم بأن يكون الحكم فيها على حسب الشريعة الاسلامية · أعوذ بالله من محاربة الله والعمل على سخط الله ، لقد كنت أسمع قبل الآن أن تلك المفاسد التى رأيتها ورآها كل من وطئت قدمه الحرمين الشريفين ، تلك المفاسد التى تقشعر منها أبدان الشريعة المطهرة وتنهار بها أبنيتها ، وذلك الخوف الذى يلازم حجاج بيت الله الحرام الذى جعله الله حرما آمنا مع فشو السلبة وقطاع الطريق وقتلة الأنفس الطاهرة البريئة ، كل ذلك كنت أسمع أن بعض رجال الدولة القائمين بالأمر يقصدون الى وجوده ويساعدون عليه لمآرب يريدونها وحاجات فى أنفسهم يقضونها ، وأنه لولا هذه المآرب وتلك الحاجات لعملت الدولة وما هى بالضعيفة العاجزة عن ايجاد الأمن فى هذه القطعة الطاهرة على محوه تأمينا للمسلمين الذين تدفعهم الحمية الاسلامية والقصد لتأدية الواجب الشرعى أن يتركوا آباءهم واخوانهم وأزواجهم وعشيرتهم وأوطانهم وكافة مصالحهم الدنيوية « ويأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام » كنت أسمع فلا آلو جهدا فى الدفاع عن الدولة ورجالها ·

أما الآن وقد رأيت ورأى العرب وقوف أولئك العمال فى سبيل اقامة

الحدود الشرعية وتجهيز الجيوش لمحاربتنا على ذلك مع صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وحبس الذاهبين من اليمن لأداء الفريضة ، فقد كان يداخلنى الريب ولا أخطيء اذا قلت أن ذوى الرأى من العرب أصبحوا بحيث لا يمكن اقناعهم بغير ذلك ، ومع ما أنا عليه من الارشاد الى السلم والعمل عليه ودعوت العرب اليه والى أن يقفوا فى موقف المدافع ٠٠ ولم تلبث الحكومة أن أشاعت أنها جيشت لرجال اليمن جيوشا لا قبل لهم بها وأنها أغدقت عليهم من وفير المؤن والذخائر ما يكفى لاستئصالنا ، وأباحت لهم تحريق المنازل كما هى عادتها فى العرب المسلمين من رعاياها دون غيرهم ، كما أباحت لهم التمثيل والتنكيل والضرب على أيدى رعيتها بما لا قبل لهم بها ذلك الأمر الذى حظرته على نفسها قبـل أعدائها الخلص ، ونشرت المنشـورات فى شأنه حاضة على حسن المعاملة واظهار المجاملة فى بدء حربها معهم ٠ لما سمعنا بذلك تأهبنا مكرهين للدفاع عن أنفسنا وانتظرنا قضاء الله ، واذا بهم قد صرفهم صارف من الحوادث الأخرى ففضلوا العودة الى تلك الخديعة الأولى خديعة الكلام فى الصلح ريثما تزول الموانع ويتوفر لديهم الأسباب لاتمام مقاصدهم ٠ عندئذ أرسلوا لنا رسـولهم الشيخ توفيق يخاطبنا فى ذلك ، فعرضنا اليه المقابلة مع سعيد باشا ، فأخبروا بأنه مفوض اليه فى الأمر وأن فيه الكفاية ، فقلنا مرحبا بحقن الدماء على أساسنا الأول ألا وهو أن تكون الأحكام فى ديارنا على حسب الشريعة الاسلامية لا فرق بين مدنيها وجنائيها وغير ذلك وأن يعرف لنا بصفة رسمية ذلك الحق الطبيعى الاسلامى ألا وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لا يكون لأحد من المأمورين الفضوليين ذوى الغايات سبيل علينا اذا نحن قمنا بما علينا من واجب ، أو دعت الحال لأن نقوم بالتوفيق بين القبائل ذلك مع بقاء الحال على ما هى عليه للدولة ، فتركنا وانتظرنا اجابة الدولة فأهملونا ساخرين منا سخر الله منهم ، وجهزوا لنا الجيوش ثانيا وأعدوا لنا حملتين عظيمتين ذاتى بأس شديد ، كما أشاعوا والله أشـــد بأسا وأشـــد تنكيلا حملتين فى آن واحـــد احداهما من الشمال وهى مؤلفة من عدد عظيم من الجيش العامل بعدده المستوفاة والآلة النارية ومدافعه السريعة وغيرها والبعيدة المرمى وعدد كبير جدا ٠

كما أذاعوا بتشهير فى الجرائد السيارة من أتباع الشريف حسين بن على تحت قيادته وقيادة صاحبى السعادة ولديه المحروسين ، وقد لا يخفى على أحد ما نشر فى ذلك الحين من أن هـذا الجيش المشـترك قد زودته الدولة بالمؤن والذخائر الكافية لتدمير جميع البلاد العربية ، وثانيها من الجنـوب فى جيزان وهذه الحملة القوية كلها من الجيش العامل ذى الحول والطول ، وأذاعوا أن هاتين الحملتين ستقضيان على جميع العباد والبلاد التى فى طريقها ، فاعتمدنا على الله الذى لا حول لنا ولا قوة الا به وفوضنا أمرنا اليه سبحانه وقلنا كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ٠ ولقد ساعدتنا والحق

يقال معونة الله وله الشكر وبشهامة العرب وعدم وصول شيء من هذه الأخبار الكبيرة والتهويلات الكثيرة التى لا يعرف أمثالها أعراب البادية ما المقصد منها ، لما أعيتنا الحيل ولم نتمكن من الوصول الى حل سلمى تحفظ معه حدود الله وشريعته اضطررنا الى الدفاع عن أنفسنا ، ووقفت العرب موقف المدافع حتى اذا وقعت الواقعة مع كل من الجيشين ، جيش الشمال وجيش الجنوب ، ظهر أن تلك الوعود والبرق جعجعة بلا طحن وأن تلك الاشاعات ليست الا كفارغ البندق اذ زلزل ذانك الجيشان عند النزال زلزالا شديدا ، ونصرنا الله عليهم وأعد لهم عذابا عظيما ، ذلك أن جيش الشمال المشترك قد ناله من الخذلان ما أوقع الكثير من أدواته ومؤنه وذخائره ومهماته فى أيدى العرب ، فاضطر جناب الشريف هداه الله الى أن يتبع خطة أخرى هى خطة توسيط الرحم وبعض المؤثرات التى لا تخفى تارة أخرى حتى تمكن من أن يسير الى جهة أبها من طريق وعرة غير مسلوكة تبتعد عن الطريق المعتادة الموصلة بينها وبين القنفدة ، تلك الطريق التى مرابطة عرب اليمن فيها وقد فضله على طوله ووعورته لكيلا يعود مخذولا الا بعد أن يدخل أبها كأنما مأموريته انما كانت دخول أبها ، فكان ذلك من غير أن يلتقى بالعرب اليمنية مرة أخرى ٠ ولم يلبث أن خرج منها مع البازى عليه سواد وسار فى طريقه الثالث الذى هو أشد منه وعورة عما جاء خائفا منه يترقب وقد فضل هذا الطريق الثالث الشديد الوعورة الطويل المسافات المشتمل على أصعب العقبات القليل المياه طريق بيشه ، ذلك الطريق الذى يسير الى شرقى الطائف جهة نجد لانه طريق القرادين المخذولين المشردين ٠ وقد بلغنى أنهم زوروا الحقائق وأخذوا يزعمون أن دخولهم أبها كان بما لهم من الغلبة ، ولكننا نحن العرب العارفين لا يهمنا كلام المتكلمين اذا ما خلوا بأرض بعيدة ، فنحن رجال الأعمال لا اعتماد لنا الا على الله وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

أما جيش الجنوب فقد انتهى أمره بواقعة الحفائر تلك الواقعة التى وقف فيها العرب موقف المدافعين على مياه الحفائر على بعد ثلاثة أرباع الساعة من جيزان وقد تمركز جيش الحكومة المنظم بجيزان وجبالها ، وتمكنوا فى قلاعهم وطوابيهم ، وثبتوا مدافعهم الفخمة على الجبال والآكام المجاورة للبحر ، وأمدتهم مراكبهم الحربية بالمساعدة وأخذوا يزعجون العرب باطلاق المدافع من البر والبحر ، والعرب صابرون مستسلمون لقضاء الله وقدره ٠ حتى اذا كان يوم الاثنين منتصف جمادى الثانية سنة ١٣٢٩ هـ خرجت قوة الجيش المنظم هاجمة ومعها المدافع سريعة الطلقات تحت حماية المدافع التى فوق الاكمات والتى فى المراكب البحرية والتى فى القلاع ، وعملوا من حيلهم العسكرية ما شاء الله أن يعملوا ، كل ذلك ولا حول للعرب ولا قوة الا بالله العلى العظيم الذى ألقى عليهم الصبر فثبتوا وذكروا الله كثيرا فصدقهم الله وعده للصابرين وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ٠ نعم صبر العرب ودافعوا عن

إقامة حدود الدين فدارت رحا الحرب على ذلك الجيش العرمرم حتى هلك كله الا النزر اليسير الذين نجاه الفرار ولم تعده الجراح · وقد وقع فى أيدى العرب من البنادق والذخائر والمهمات والمدافع السريعة الطلقات والمكنات ما جعل لهم قوة فوق قوتهم ونشطهم نشاطا يقدره قدره من يعرف الحالة · ثم عادت البقية الباقية من الجيش الى جيزان فسلط الله عليها ومن جاءوا من المدد اليها ريحا وجنودا جوية وأمراضا وبائية ذهبت بالباقى وبالمدد الا نزرا يسيرا اضطر أخيرا الى الجلاء عن جيزان ، فاستراح وراح والله من ورائهم محيط وهو على كل شيء قدير ·

بعد هذا كله لم يلبث أن جاءنا من والى عسير كتاب يجنح فيه للسلم تاريخه يرجع الى ما بعد الحوادث الأخيرة مع الطليان فصدعنا بأمر الله وجنحنا معه متوكلين على الله وأرسلنا الى سعادته رسولا من كبار العرب ليخاطبه فى ذلك حسبما طلب ، وزودنا ذلك الرسول فى طريقه وهو على مقربة من (أبها) أن سعادة الوالى انما يريد بنا خدعة وانه قد نصب لنا شراك حبـاله فوقف خارج المدينة حيث مأمنه وأرسل اليه الكتاب وأعلمه بأنه قد جاء مبينا داعى السلم وانه يريد المخابرة فى ذلك ليعلم ما ينتهى اليه الأمر والله الموفق· فما كان جوابه الا أن أرسل اليه مكتوبا طويل الذيول مملوءا بالعظمة والعلو والكبرياء ، لا تخلو كلمة من التهديد والوعيد ورفض الاتفاق : وهاكم شيئا مما جاء فيه بالحرف الواحد (قد أخذت كتابا من حسين أفندى وفيه يذكر أنكم سألتموه عن بيان الشروط مع الحكومة وكيفيتها فعجبت فى هذا الطلب فهذه الحال تصير الشبهة ممكنة وأن الحادث الذى هو الآن واقع مع الكفار مناسب لأفكاركم فلا حاجة للشروط فهل تسير شروط بين الحكومة والرعية ، فما وظائف الرعية الا الطاعة للحكومة ولأوامرها ، وقد عزمنا متوكلين على الله أن نرسـل حملة عسكرية لتربية العاصين المخالفين بشدة والعفو عن المطيعين واعطائهم الأمان ، ولم يكن طلبنا اتخاذ عسير عن عجز منا واستعانة بهم وأن القوة التى تزيد عن الخمسين طابورا المنحشدة فى الزيدية والزهرة واللحية والتى عندنا مقدار سـبعة عشر طابورا هى كافية لكل عدو فى اليمن وعسـير فى الداخل وفى الخارج · وأنتم تعلمون بذلك وأيضـا تقدرون عاقبة البغى والفساد الخ ··· وصلنا هذا المكتوب ووصلتنا مكاتيب أخرى أرسلت من بعض عمـال الحكومة الى العرب وفيها أكثر من ذلك ، فما أظن القارىء يخفى عليه شدة أسفنا · على أن رجال الدولة الآن على هذا النمط ، وأنهم هم الذين يخلقون الفتن ويثيرونها كلما قربت من الانتهاء ، انهم دائما واقفون حجر عثرة فى سبيل اطفاء الفتن على نحو ما سبق بيانه ولا سيما فى سبيل هذه الظروف والأوقات الحرجة · هداهم الله ·

نص الاتفاقية التي عقدت بين الحكومتين العثمانية والبريطانية لتحديد الحدود بين منطقتي نفوذ الدولتين في جنوب اليمن في ٩ من مارس سنة ١٩١٤ ٠ ولم يعترف اليمنيون بتلك الاتفاقية التي عقدت بين مغتصبين للأرض اليمنية وهي تفقد بذلك صفة الشرعية (١) ٠

جلالة ملك بريطانيا وايرلندا والأراضي البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند من جهة ، وجلالة امبراطور العثمانيين من جهة أخرى يرغب كلاهما في اتمام وابرام البروتوكولات (الملحق A) التي وقعها المفوضون العثمانيون والبريطانيون في سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٤ و ١٩٠٥ م للدلالة على خط الحدود التي عينوها لفصل ولاية اليمن عن أراضي تسع مقاطعات عدن كما جرت الاشارة اليها باللون الأزرق في الخرائط الأربعة الملحقة (الملحق B) ٠

عين جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والأراضي البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند صاحب المعالي السير ادوارد غراي بارون في المملكة المتحدة وفارس في جوقة ربطة الساق وعضو في البرلمان وسكرتير دولة جلالة الملك في الأمور الخارجية ٠ وعين جلالة امبراطور العثمانيين سمو ابراهيم حقي باشا الصدر الأعظم السابق الحامل للأوسمة الامبراطورية العثمانية والمجيدية المرصعة ٠

لقد تبادل كلاهما أوراق اعتمادهما وبعد أن وجدت بأنها قانونية اتفقا على ما يلي :

المادة الأولى : أن الفريقين المتعاقدين يثبتان ويبرمان البروتوكولات التي وقعها القوميسيرون العثمانيون والبريطانيون في سنة ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٥، والتي ترد نصوصها في الملحق A من هذا الاتفاق ٠

المادة الثانية : اثباتا لما تعهد به في القسم الأول من البروتوكول المؤرخ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٠٥ يصرح امبراطور العثمانيين بأنه لم يتنازل بأي وجه من الوجوه عن الأراضي التي تبلغ مساحتها نحو ٥٥٠ ميلا مربعا انكليزيا والملاصقة لجبل نعمان ـ حصن مراد والواقعة ضمن حدود مقاطعة صبيحة القديمة ، والأراضي المذكورة هي المبينة باللون الأصفر على الخريطة كملونة للمرفق (ج) للاتفاقية المذكورة ٠

---

(١) أمين سعيد : اليمن ، تاريخه السياسي منذ استقلاله في القرن الثالث الهجري ، ص ١٥٤ ـ ١٥٩ ٠

المادة الثالثة : بما أن النقطة رقم (١) (وادى بنا) المشار اليها على الأولى من الخرائط الملحقة (الملحق B) بهـذه الاتفـاقية هى آخـر نقطة على الشاطىء الشرقى المرسومة فى تلك البقعة فقد اتفق الفريقان المتعاقدان وقررا وفقـا للبروتوكول المذكور وتحفظـا للشروط والتحديدات الواردة به بأن حدود الأراضى العثمانية تبع خطا مستقيما يبدأ من أكمة الشوب متجها للشمال الشرقى نحو صحراء الربع الخالى بانحراف ٤٥ درجة ٠ وهذا الخط يلتقى فى الربع الخالى على الخط الموازى لدرجة ٢٠ مع الخط المستقيم المتجه مباشرة نحو الجنوب والمبتدىء من نقطة واقعة على الشاطىء الجنوبى من خليج عجير فاصلا الأراضى العثمانية من سنجق نجد وأرض قطر وفقا للمادة الثانية من الاتفاقية الانكليزية العثمانية والخاصة بالخليج الفارسى والمناطق المجاورة له المؤرخ فى ٢٩ من يوليو سنة ١٩١٣ والخط الأول من هذين الخطين مشار اليه باللون البنفسجى والخط الثانى باللون الأزرق على الخريطة الخاصة الملحقة بهذا الاتفاق (الملحق ج) ٠

المادة الرابعة : يصدق على هذه الاتفاقية ومبادلة وثائق الابرام فى لندن فى أقرب وقت ممكن لا يزيد عن ثلاثة أشهر ٠

واثباتا لذلك فقد وقع المفاوضات هذا الاتفاق ووضعا عليه ختميهما ٠
تم فى لندن بنسختين أصليتين فى ٩ من مارس سنة ١٩١٤ م ٠

أ ٠ غراى

أ ٠ حقى

وتمت مبادلة وثائق التصديق فى لندن فى ٣ من يونيو سنة ١٩١٤ م ٠

الحاضرون عن تركيـا : مصطفى رمزى بك أميرالاى أركان حرب مفوض عثمـــانى ٠

المستر ، هـ ٠ فيتز موريس مفوض بريطانى ٠

بعد المداولة بالتفصيلات بشأن حدود صبيحة فى برج أم عشار (الحرج) المشار اليها برقم ٦٥ و ٦٩ على الخريطة وبعد فحص الوثائق والبراهين الأخرى المتعلقة بها يصرح المستر فيتز موريس المفوض البريطانى بأنه بالرغم من أن هـذه الوثائق والبراهين وبالرغم من أن شهادة السكان الذين سئلوا فى سنة ماضية فى تلك البقعة تدل على أن حدود صبيحة الغربية تمتد الى الأكمة ومن هناك تمر فى عكار وتصل الى المكان المدعو قدام ، فان الحكومة البريطانية المدفوعة بروح المسالمة والعواطف التقليدية الودية نحو الحكومة العثمانية ، لم تر من

الموفق أن تصر خـلال عمليات التخطيط على المحافظة على حقوق شيوخ صبيحة فى الأراضى التى يطلبونها والممتدة خلال عملية خط (أكمة عكار وقدام) لذلك فقد وافقت على اقتراح هـؤلاء المفوضـين بتخطيط الحـدود على أساس خط يبتدىء من برج أم عشـارة (٦٥) ويمتد مسافة ٢٥ كيلو مترا فى شمال شرقى برج أم عشار ليصل الى قمة جبل نعمان الواقعة على الخط الذى يفصل المياه بين البحر الأحمر وخليج عدن على شرط ألا تحاول الحكومة الامبراطورية العثمانية مطلقا اعطاء الأراضى الواقعة بين هذا الخط الأخير والخط المنوه عنه أعلاه (أكمة ــ عكار ــ قدام) الى دولة ثانية وعلى أثر المداولات التى جرت بين الحكومتين الصديقتين أعلم السفير البريطانى فى الآستانة الحكومة الامبراطورية العثمانية بأن التعليمات المتعلقـة بهذا الأمر قد ارسلت من قبل الباب العـالى الى المفوض العثمانى وبالفعل فقد صرح الأميرالاى مصطفى رمزى بأنه تلقى فى ١٩ من مارس بواسطة وزارة الحربية تعليمات مستندة على ارادة جلالـة السلطان تأمره بتخطيط مقاطعة صبيحة بخط ينتهى فى حصـن مراد وبأنه بحسب التعليمات الواردة اليه بتعهد الباب العالى بعدم اعطاء الأراضى الملاصقة لخط نعمان حصن مراد فى شمال هذا الخط الى دولة ثانية ٠

وبناء على ذلك فقد وضع المفوضان وضعا مفصلا لشطر خط الحدود الذى سيبتدىء فى برج أم عشارة (٦٥) وينتهى فى حصـن مراد ، ورسما هـذا الخط على الخرائط التى وقعاها وتبادلاها أما فيما يتعلق بقسم الحـدود الواقع فى الشمال الشرقى للنقطة المشار اليها برقم أعلى وادى أعنى بحسب الارادة السنية الصادرة فى ١٢ من فبراير سنة ١٩١٣ م الخط الذى يبتدىء فى أكمة الشوب ويمتد فى الاتجاه الشمالى الشرقى الى الصحراء فان المستر فيتز المفوض البريطانى يصرح بأن شـطرا من هذا الخط أى الحد بين مريس وشويب قد جرى تخطيطه سابقا ولم يبق الا تعيين قاعدة امتداد هذا الخط الى الصحراء وبأنه وفقا للارادة السنية المنوه عنها سابقا يجب أن يتبع هذا القسـم من الحدود بصورة عامة الخط المستقيم الممتد من أكمة الشوب فى الشـمال الشرقى الى الصحراء ما عدا الانحرافات التى تتطلبها طبيعة الأرض وبأن الوثائق والبراهين الأخرى التى قدمها شيوخ يافع تدل بدون جدال على أن الأماكن المدعوة ربيعتين نوى وذها بياتى هى جزء من مقاطعة يافع نوان العواليق وكل أقسامهم الفرعية وتوابعهم وكذلك كل منطقة يافع الواقعـة جنوبى وشرقى الخـط الشـمالى الشرقى المذكور آنفا تخص المقاطعات التسعة ٠ أما الأميرالاى مصطفى رمزى المفوض العثمانى فيجيب بأنه بحسب التعليمات التى وردت اليه من حكومته يعترف بأن قاعدة تخطيط النقطة رقم ١ فى وادى بناهى بوجـه عام وفقـا للأوراق السنية الصادرة فى ١٢ من فبراير سنة ١٩٠٣ م الخط الممتد شمالا بدرجة ٤٥ الى الشرق من أكمة الشوب الى الصحراء على شرط يبقى دل جوابان

فى ناحية قضاء رضا ويعترف بأن عزل الربيعتين ونوى وذها بياتى تؤلف جزءا من مقاطعـــة اليوافع وبأن العواليق وكل أقسامهم الفرعية وتوابعهم وجميع منطقة يافع الواقعة فى جنوبى وشرقى الخط الشمالى الشرقى المذكور آنفا تخص المقاطعات التسعة ٠

ويضيف المفوض العثمانى الى ذلك أن السكان القاطنين فى جوار الشيخ سعيد وغيرهم القاطنين من الجهة العثمانية من عادتهـم الحصـــول على المـاء من المنابع الواقعة فى ناحية صبيحة ويأمل أن لا يوجد مانع فى المستقبل من استمرارهم فى الانتفاع من هذه المنابع كما فى السابق ٠ ويصرح المستر فيتز موريس بأن حكومته لا ترى مانعا من هذه الجهة ٠

لقد اتفق مفوضا الحكومتين الصديقتين على محتويات هذه الوثيقة ووقعا نسختين منها وتبادلا هاتين النسختين ٠

طربى شيخ سعيد	**مصطفى كولونيل مفوض عثمـانى**
٢٠ ابريل سنة ١٩٠٥	ج٠ هـ فيتز موريس مفوض بريطانى

يمتد خط الحدود من نقطة (٦٥) فى اتجاه عام نحو الشمال ويتبــــع الجانب الجنوبى من الطريق الممتد فى سفح جبل أم بدار فى جـــانب وادى خمسانة (٥٢) من اليســـار الى المضيق المدعو نجد مشرق (٣٧) والمرقـــوم (٦٦) على الخريطة ٠ ومن هناك يصعد الى المرتفع الشمالى جبل طقاسو (٤٧) ويجتاز وادى الغرف (٩) الى نقطة واقعة على بعد نصف كيلو متر من غربى قرية خبال (٣٦) ومن ثم يصعد الى قمة جبل نعمان (٦٧) ومن هذه النقطة ينعطف فى اتجاه جنوب غربى ويتبع الخط الذى يفصل المياه بين البحر الأحمر وخليج عدن مارا بنقطة برهم روس (٣٤) جبل أم نجاح (٣٩) جبل سيف برج الهائمة (ممر واقع على مسافة كيلو متر ونصف فى قرية الهائمة) (٤٩) نجد أم رهاز (٥٤) جبل سن سنفه الى أن يبلغ قمة جبل جريبة (٦٨) ثم ينحدر الخط من مرتفع الجنوب الغربى من جبل جريبة ويتجه نحو الغرب مارا بخط مستقيم الى قمة جبل كحبوب ومن هناك يجتاز المنطقة المقفرة فى خط مستقيم الى قمة جبل الكوة (٦٩) تاركا بئر الحجرى فى الناحية التركية من قمة جبل الكوة (انظر خريطة الشيخ سعيد على نسبة ١ الى ٤٠٠٠٠) يتبع خط الحدود المرتفعات الى أن يصل الى أعلى نقطة فى المرتفع الجنوبى الشرقى فى جبل الكوة ٠ هذه النقطة المشار اليها برقم (٧٠) والمعينة باشارة حدود هى واقعة على بعد ٦٠٠ ياردة تقريبا أى ما يقرب من ٥٥٠ مترا فى الغرب والجنوب من التل المدعو جبل مجيبة على الخريطة ٠ ومن هذه النقطـة الأخـيرة تمتد فى خـط مستقيم الى الجبـل

الصخرى (٧١) المعين باشارة حدود وهو الجبيل الشمالى من الجبيلين الواقعين فى شمال وغرب جبل سويدية ومن هناك يتوجه رأسا الى نقطة (منمرة ٧٢ ومشار اليها بعلامة) وهى أعلى قمة فى الهضبة المعروفة باسم حصن مـراد (المعروفة أيضا باسم الشيخ مراد) وتتجه صوب القمة فتصل الى شاطىء البحر الى النقطة المرقومة ٧٣ على الخريطة ٠

الكولونيل مصطفى امضاء ـ مفوض عثمانى
ج ٠ هـ فيتز موريس ـ مفوض بريطانى

١٦

الخطـاب المرسـل من محمود نديم بك والى اليمن العثمـانى الى علـى بن أحمد العبـدلى سـلطان لحـج لمحاولة اجتذابه الى جـانب العثمانيين لمحـاربة الانجليز فى جنوب اليمن فى مطلع الحرب العالمية الأولى (١) ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أمير الأمراء الكرام ذو المجد والاحتشام محبنا العزيز السلطان على بن أحمد المحترم حفظه الله ٠ من بعد السلام التام ورحمة الله على الدوام ٠

نبدى قبلا صدر الى جنابكم كتاب حضرة الامام الهمام حفظه الله ٠ مع كتاب من طرف حضرة العلامة الفاضل قاضى لواء تعز عبد الرحمن أفندى عن أمرنا ٠ وبهما موضح المرام والحقائق ٠ وبهذه الدفعة صار اعزام القـاضى المومى اليه وبمعيته رؤساء مجاهدى لواء تعز ، وهم محمد ناصر باشا قائمقـام القماعرة ٠ وأحمد نعمان بك قائمقام الحجرية ٠ ووكيل قائمقام قعطبة الشيخ قايد صالح وشيخ مشايخ قضاء رداع صالح طيرى باشا لأجل الاتفاق والمذاكرة مع حضرتكم بما يرضى الله ورسوله واعزاز دين الاسـلام واتحـاد الكلمة ٠ وقد أعطيناهم التعليمات اللازمة بهذا الشأن ترجو من ديانتكم وديانة كافة اخواننا أمراء لحج وجميع عائلتكم الكريمـة البـدار لنصرة الدين الحنيف وان أردتم التشريف لتسريع واكمال الأمور بهذا الطرف للمذاكرة من الرأس نكون لحضرتكم من الشاكرين والله يحفظكم ويوفقنا جميعا لما فيه الرضى ودمتم فوق مارمتم ٠

فى ١٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٣٣ هـ　　　　　　والى اليمن
قومندان الحركة العسكرية　　　　　　**محمود نديم**
اميرالاى على سعيد

---

(١) احمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ٠

١٧

الخطاب المرسل من على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج الى حـاكم جزيرة ميون (بريم) البريطانى للتعبير عن اغتباطه بأنباء الهدنة في نهاية الحرب العالمية الأولى(١) ٠

الى جناب قومندان ميون القائمقام هوم دام بقاه

تناولت بيد السرور تبليغكم المشعر بعقد الهدنة بين الدولة العثمانية وبين دولة انكلترة العظمى وحلفائها بتاريخ ٣١ من تشرين أول سنة ١٩١٨ م ثم وصلنا التبليغ المذكور بعينه بعد مرور ثلاثين ساعة من طرف حضرة والى عدن مؤيدا اشعاركم ٠ فاشكر اهتمام جنابكم على سبقكم ٠ وأيضا أقدم لكم تشكراتى الخاصة على تلطفكم بالمساعدة لمن يرغب الوصول من ضباطنا الى ميون لأجـــل المزاورة وقد أمرنا ضباطنا بدخول من يرغب منهم كما أننا أمرناهم بالاجتناب عن كل ما يسوء الطرفين ٠ فنرجو من البارى التوفيق بعقد صلح شريف مديد ودمتم محروسين ٠

قائد الجيوش العثمانية بلحج

أمير الـلوا

على سعيد

١٨

البرقية المرسلة من على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج الى قائمقام الحجرية اليمنى عبد الوهـاب نعمـان بك يطلب منـه امداده بمساعدات مالية لتغطية نفقات انسحاب قواته من لحج فى نهايـة الحـرب العـالمية الأولى (٢) ٠

من سعيد باشا الى قائمقام الحجرية عبد الوهاب نعمان بك

نفيــدكم مع الأسف أن الدولة العلية وحلفاءها قد تحقق انكســارهم وأن الالمان عقدوا الهدنة وتوقفت الحرب العمومية ٠ والسبب الوحيد لهذا الانكسار هو أن اخواننا العرب أهل الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق قاموا على حكومتنا

(١) احمد فضل العبدلى : نفس المصدر ، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣ ٠

(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ٠

السنية بالحرب واشتركوا مع العدو فعلا وقد قبلت دولتنا اضطرارا سرعـــة اخراج عساكرها التى فى اليمن وعسير والحجاز وفلسطين وسورية والعراق كما هو فى شروط الهدنة ٠ وبما أن حكومتنا قد أعطت الحكم القطعى بذلك فنحن مجبورون على ترك تربة اليمن المقدس وأهله اخواننا المجاهدين المحترمين الذين اشتركوا معنا منذ أزيد من أربع سنين(١) وان كنا نفدى بأرواحنا ودمائنا فى سبيل المحافظة على تلك التربة المقدسة ولكن من حيث ان حضرة الامام مخالف للأمر ولسرده بعض الأسباب ابتدأت المخابرة مع دار السعادة فى هـذا الباب وستكون الحركة ضرورية بموجب الأوامر الصادرة والجواب الذى سيؤخذ ٠ فاذا نحن تركنا هذا اليمن المقدس فانا نتمنى لاخواننا فى الدين الاتحاد والاتفـاق التام وأن لا يقبلوا تولية النصارى قطعيا لنكون على الدوام فى سلوان بحسن فعلهم ولو سمعا ٠ وقد امتننت لبيانكم من أنكم ستعاونونا وستخدمونا ٠ أما والى اليمن وقومندانها فمن يوم وصولهم الى منطقتنا (أورثوا السكتة) لادارة واعاشة عساكرنا بحصرهم عمـوم التحصيلات والقروض لنفوسـهم النفيسة وتعقبوا المسلك الذى يهدد بمجاعة منطقتى ولكنكم ستجعلوننى ممتنا للغاية فيما اذا عاونتمونا بخمسة أو ستة آلاف ريال وسأرسل لكم حالا سندا مخصوصا بذلك لأن ضباطنا وعساكرنا متضايقون وفى حاجة الى الدرجة النهائية وهؤلاء أبناء العثمانيين الذين دافعوا عن هـذا اليمن المقدس بدمائهم وأرواحهم وقـد أصبحوا اليوم معرضين للأمراض والجوع والعرى فاذا قدمتم له خيرا ليكـون نهاية لخدماتكم فسيسطر اسمكم جليا فى التاريخ ٠ واذا لم تقدروا على هذه المعاونة فأكتفى أن أقابلكم بالشكر لخدماتكم التى قد بذلتموها نحونا الى الآن ودمتم ٠

حرر فى ٤ من تشرين ثانى سنة ١٣٣٤ م ٠

١٩

البرقية المرسلة من احمد توفيق قومندان الفيلق العثمانى فى صنعاء الى على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج لتكـذيب أنباء الهدنة فى نهاية الحرب العالمية الأولى ولمنعه من الانسحاب من لحج أو التسليم للبريطـانيين فى عدن (٢)

من قومندان الفيلق الى على سعيد باشا

(١) كان اخلاص شوافع اليمن للاتراك لسبب لا يخفى على من يعرف اليمن ٠
(٢) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ ٠

ان التلغراف المرسل من ميون الى المندب ومنها مفتوحا اليكم الذى رفعتموه الينا لم يكن فيه شيء عن شروط الهدنة غير أنه يذكر وقوعها فقط . فمثل هذه الاشعارات الواصلة من المصادر الانكليزية يحتمل أن تكون غالبا مصطنعة من طرف العدو الذى يعمل لأجل احداث الثورة فى اليمن حتى يتيسر له استرداد لحج فكان يجب تكذيبه ورده ما لم يصل الأمر من مركز سلطتنا وأنتم بالعكس أشغلتم الأفكار ونسيتم أن من يتواجهون فى المناطق المحايدة هم مندوبو الامة من الطرفين فقط فمساعدتكم بوصول أركان وأمراء الانكليز الى نقطة صبر وحتى دخولكم عدن بخلاف أمرنا مع أركان حربكم وياوركم وزعمكم صحة الاقوال الطبيعية التى سمعتموها من قائد العدو والقاء معيتكم فى الخوف والتشويش ، واقتراحاتكم الغير صائبة على من هو فوقكم . كل هذا لا يأتلف بأى صورة مع المبادىء العسكرية بالخصوص مع القيادة وقد وصل الاشعار بعينه الى منطقة تهامة وأجيب عليه حتى من أحد اليوزباشية جوابا يليق بالعسكرى وكما هو واقع فى سائر المناطق المعسكر بها فيلقنا وكذلك الأفراد والضباط والأمراء فى لحج يحبون وطنهم وبمدافعاتهم الفعالة وبتضحياتهم المستمرة أثبتوا أنهم لا يقبلون الاهانة وانى قانع بأنهم لا يتقهقرون شبرا عن خطواتهم التى تقدموها وأنهم ليسوا من أولئك السذج الذين تنطلى عليهم حيل العدو ودسائسه الثابت أمثالها مرارا وأن كل واحد منهم يفهم الحقائق فليس هنالك ما يوجب قط انـــزال عيالهم وعائلاتهم المتفرقة فى مختلف البلاد الى السواحل بهذه السرعة فأنا الوالى والركن الاعظم للاسلام وهو حضرة الامام الذى اتفق مع الحكومة موجودون هنا ونحن نعتبرهم كلهم أولادنا ونحن المسئولون عنهم ماديا وأدبيا اذا وقع حال مثل ذلك لا سمح الله ، أما الضباط الآن فليس لهم أن يفتكروا فى غير العدو الذى أمامهم ووطنهم وواجباتهم العسكرية ، حافظوا على ثباتكم كما أمرناكم قبلا وأنتم وحدكم المسئولون ماديا ومعنويا عن العواقب الوخيمة التى تنتج اذا فعلتم شيئا من ذات أنفسكم بدون أن نأمركم ، وبناء على الأمر الصريح القطعى الذى سيصل من حكومتنا بالشفرة ، وأما مسألة الفلوس التى اقترضناها من العدين أعطينا القسم الأعظم منها الى منطقتكم والذى تحصلنا عليه من زبيد من قرض وغيره أعطى منها ثمانية وأربعون ألف ريال لاعاشة العساكر الجائعة فى تهامـة لمـدة كم شهر والعشرون الألف الباقية للمأمورين الملكية فى صنعاء والعســاكر الموجودة فى المركز ولاعاشة عائلات الامراء والضباط الموجودين فى مختلف المناطق والذين تراكمت مرتباتهم من أربعين الى خمسين شهرا فالمائتان والثلاثمائة ألف ريـال التى سمعتم عنها من أفواه أفراد العسكر ومن أفواه بعض الناس لو كانت هى من زلط الحجارة لا يمكن جمعها ، فايمانكم بمثل هذه التقولات وعدم اعتمادكم على آمركم الذى تعهد من كل الوجوه بمقررات هذا الفيلق ليس فقط لا يتفق مع المبادىء العسكرية بل لا يتفق مع أى مسلك آخر فالقسم الأعظم من أموال لواء

تعز وخصوصا سبعة آلاف وخمسمائة ريال من محمد ناصر باشا وأموال لحج الزراعية والجمركية كل هذه تركت الى منطقتكم ولم نسألكم عنها حسابا ولولا حصول اللزوم القطعي لمواجهة حضرة الامام لشرعنا في اجراء التحقيق والتفتيش عن كل هذا لأجل اظهاره ، واذا كان العساكر حسب اشعاركم جياعا وعرايا فذلك لأنه قد وقع سوء الاستعمال في هذه الأموال · وخلاصة القول ان الزمان غير مساعد للمناقشات القلمية الطويلة العريضة نأمركم بالانقياد الى الأمر وبالطاعة العسكرية ·

قائد الفيلق

أحمد توفيق

٢٠

الخطاب المرسل من الامام يحيى بن محمد حميد الدين الى أحمد توفيق قائد الفيلق العثماني في صنعاء للتعبير عن رفضه لفكرة استسلام العثمانيين للبريطانيين في جنوب اليمن في نهاية الحرب العالمية الأولى (١) ·

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة قومندان الفيلق الهمايوني الهمام الأكبر أحمد توفيق حرسه الله ، شريف السلام التام ورحمة الله صدورها بعد اطلاعنا على ما وصل الينا من مقام الولاية ومنكم نقلا عما رفعه حضرة قومندان منطقة لحج علي سعيد باشا وما معه من مواد المتاركة ومن التبليغ المحرر الى حضوركم بالشفرة من حضرة عزت باشا وصورة ذلك بامضاء المومى اليه عن مسند الصدارة العظمى الى حضرة قائد لحج وتأملنا ما فيه الأمر بلزوم تسليم القطعات العسكرية الموجودة بهذه القطعة الى من يستلمها من طرف حكومة الانكليز وتعجبنا لذلك كثيرا · أولا لعدم ورود شيء الينا من مسند الصدارة · ثانيا انه لم يرد الينا ما ذكره قائد لحج من التبليغ من والى عدن · فأنتم تعرفون ما بيننا وبين الحكومة العثمانية من الائتلاف المتعلق ببعض مواد العسكر وغيرهم مع مالنا لدى الحكومة من المطلوبات المتكاثرة البالغة مبلغا عظيما لا يمكننا معه الاذن باعزام نفر واحد · بناء عليه حررنا اخطارا الى حضرة والى الولاية وحررنا هذا لحضرتكم اعلاما أن اعزام العسكر من المستحيل وأنه ان كان منكم أو أحد من معيتكم التصميم على ذلك فلا بد لنا من المنع على أي

(١) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ·

وجه كان • وقد حررنا تلغرافا الى والى عدن وقومندانها وبينا له ما ذكر وأفدناه أنه لم يصل الينا ما ذكره سعيد باشا من التبليغ وانا نمنع أيضا عزم أحد من الضباط وعائلاتهم فليكن منكم اغلاق هذا الباب واجراء الاخطارات الشديدة الى جميع المأمورين فانا لا نريد تكدير خاطركم لكن للضرورات أحكام وقد عرفتم ما قمنا به مع الحكومة من لدن الائتلاف الى التـاريخ ودمتم • والسلام عليكم ورحمة الله •

٢١

البرقية التى ارسلها الامـام يحيى بن محمد حميد الدين الى على سعيد باشا قـائد القوات العثمانية فى لحج يحثه فيها على عدم التسليم للبريطانيين وذلك فى نهاية الحـرب العالمية الأولى (١) •

من عبد الله الامام يحيى الى حضرة قائد المنطقة بلحج سعيد باشا حرسه الله بلغ الينا من حضرة الوالى والقومندان باشا عدم حسن تحريرنا الى والى عدن ذلك التلغراف المرسل بواسطتكم لذلك أحببنا الايضاح لحضوركم اعلموا أنه لما كان الاطلاع على مفاد حضرة عزت باشا وعرفنا مفاد كتابكم الى حضرة الوالى والقومندان أحمد توفيق باشا حصل معنا التصميم على القتال حتى الممات من دون خوف ولا مراقبة لغير الله •

وحشدنا القبائل واتخذنا لذلك جميع الوسائل وأمر (٢) ما اذا أعداء الله الانكليز هو محفوف بغرابة الكذب لكنه لما رأينا فيما كتبه حضرة عزت باشا من أنه ان لم يكن التسليم الى الانكليز فان التهلكة محققة أردنا صون جانب الحكومة ومأمورين اليمن عن مسئولية الدولة ورضينا تحمل تلك المسئولية وتلونا قوله تعالى « فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم » فمثل هذا يحمل على غير خدمة الدين والوطن وهل يرضى أحد من أهل الديانة والمتانة الاسراع الى التسليم الى الكافرين والدخول تحت ذمتهم وقد بقى له مجـــال لمنع ذلك على أن الامر كما أسلفنا محفوف بغرابة الكذب • ثم انه لو فرض صـــدق ذلك الأمر على بعده وكان منا جميعا القيام بالدفاع لكان استحسان ذلك لدن الخلافة الاسلامية(٣) خصوصا بعد أن نزهنا الحكومة ومأمورين اليمن عن المسئولية أما ما فى بيننا

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ •
(٢) كذا فى الأصل •
(٣) كذا فى الأصل أيضا •

وبين الحكومة فالطريقة واحدة والمسلك واحد والملة واحدة ولم نرد التوصل الى شيء يغير بالحكومة حالا ومآلا بل أردنا دفع ذلك كليا ٠

أما اذا كنتم مصممين على التسليم كما ظهر من طلب العائلات الى لحج فليكن منكم التصريح بذلك وأى مانع عن ارسال الحكومة هيئة لتبليغ الاوامر اللازمة التى يغلب الظن بصدقها ثم أى مانع للانكليز عن بث الجرائد اخرة لنشر الأخبار فالأمر مفتقر الى دقة النظر واحالة سليمات الفكر ٠ والسلام عليكم ١٧ من صفر سنة ١٣٣٧ هـ ٠

٢٢

البرقية التى ارسلها موظفو وتجار لواء تعز من اليمنيين لعلى سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج يعبرون فيها عن استيائهم لأنباء اتجاه العثمانيين للجلاء عن لحج فى نهاية الحرب العالمية الأولى ، كما يعبرون عن تقديرهم لجهود على سعيد وولائهم للدولة العثمانية (١) ٠

حضرة القائد الكبير للجيوش الاسلامية بلحج سعيد باشا دام نصره

قد علم العموم أن دولتكم السبب الوحيد لاحياء حفظ هذا النقطة اليمانية عن تعدى الأعداء اليها ٠ وأنها لولا ما أبرزتموه من الثبات والمتانة الدينية وبذل النفس للجهاد فى سبيل الله حتى صرتم مظهرا للتوفيق والنصر الالهى والظفر الغير المتناهى فقلدتم أعناق ساكن القطعة اليمانية طوق الامتنان الذى لا يقوم بشكر أقلها الشأن وأصبحتم شمسا مشعة على هذه القطعة يهتدى بنوركم فى ليل الخطوب فاجتذبتم أزمة القلوب وحزتم أعظم الاجور من علام الغيوب ، وبينما العموم يشكرون فعلكم الجميل اذ شاعت أخبار مفجعة وحركات مدهشة فأظلم ليل الخطب واعتكر بعد أن كان فجر الاصباح أسفر وتأيدت تلك الاشاعات بسحب الموجود فى المركز من القوة وتعطيل المستشفى وبيع الاشياء الاميرية وأخذ الامراض الى غير ذلك مما ترى معه الافكار مضطربة والآراء مشتتة والعقول مختلفة والاخبار غير مؤتلفة والعموم ناظرون الى رأيكم الصائب ودهائكم العظيم واليقين العام بديانتكم وشهامتكم عدم الاعتماد على القاءات الاعداء مع أنه يتصور خديعتهم بكل خبر مشابه للصدق وتزويراتهم غير مجهولة ولو كان ذلك حقا فلا يخفاكم حبنا للدولة العلية العثمانية قديما وحديثا وارتباطنا بعاصمة الخلافة الاسلامية لا نستبدل به غيره بذلنا أهالى هذا اللواء النفس والنفيس فى

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ ٠

المظاهرات والمعاونات بأمر الجهاد والامل العمومى بديانتكم أن لا تتركوا التبليغ الى مقر الخلافة بأننا مرتبطون بها وغير منفكين عن سلطتها ونسألكم بالله أن لا تتحركوا حتى تعلمونا السبب الباعث لترك هذه القطعة هملا وبتر عضو من الاسلام ونرجوكم تسكين روعة العموم بانبائنا بالنتيجة . وها نحن منتظرون التفاتكم الكلى علينا ببذل مزيد العناية بالمراجعة ان كان لهذه الاشـاعة صحة فرمان ، ٢٠ من صفر سنة ١٣٣٧ هـ ١٧ من تشرين ثانى سنة ١٣٣٤ رومى .

عن كافة أهالى وأشراف وعلماء

مدير صبر	محكمة كاتبى		أمين صندوق
عبد العزيز	يحيى بن على الحداد		عبد الاله
باشكاتب	رئيس بلدية	لواء تعز مفتى	تجـار
محمد	محمد	على	محمد خياط
تجار	تجار	تجار	علمـاء
نورى	محمد مصلى	على مصلى	عبد الولى

٢٣

البرقية التى ارسلها ناصر عنبرى مدير « الشيخ سعيد » الى قائد العثمانيين في لحج على سعيد باشا ، وزعم فيها صحة انباء الهدنة فى نهاية الحرب العالمية الأولى وان الدولة العثمانية تمكنت من خديعة بريطانيا وحلفائها وسحقت اساطيلهم ، وذلك ليحتـاط عـلى سـعيد باشا ويكون على بصيرة وحذر(١) .

يومنا هذا استخبرنا من بعض المعتمدين بأن بوابير أعداء الله الانكليز والفرانسيز مقدار مائة الى مائة وخمسين بابورا نقلى وحربى قبل أسبوع قصدت دار السعادة سرا يريدون التعرض على جناق قلعة ودار السعادة وظاهرا لأسباب المتاركة للمصالحة ففتح لهم باب البوغاز ودخلوا لحتى توسطوا بالبوغاز وعند توسطهم بالبوغاز حتى جناق قلعة لبعض أسباب ظهرت بتلك الساعة أغلق باب البوغاز وأطلق عليهم عموم المدافع المرتبة بالبوغاز فأهلكوا بعضهم فى يوم أمس وصلت هذه الاخبار بميون سرا لأعداء الله والدين فاشتدت أحزانهم وغضبوا غضبا هائلا وأيقنوا بهلاكهم وأظهروا عويلهم . فنسترحم من دولتكم الايقاظ لعموم المواقع المرتب بها العساكر لدولتنا المنصورة بالانتباه عن الغفلة ولأجل المعلومات تجاسرت بالعرض فرمان ٤ من تشرين ثانى سنة ١٣٣٤ رومى .

مدير الشيخ سعيد

ناصر عنبرى

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥١ .

الخطاب المرسل من علي سعيد باشا قائد القوات العثمانية في لحج الى احمد توفيق باشا قائد الفيلق العثماني في صـــنعاء في ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٨ م في اعقـــاب الهدنة في نهاية الحرب العالمية الأولى لتبرئة نفســـه من التهم الموجهة اليه بتسليمه ما في حوزتـه من الأراضي اليمنية للانجليز ، ويطلب حضــور من يهمه الامر لاستلام تلك الأراضي(١) .

ان القلاع المهمة والأراضي التى استرددناها من الانكليز مثل قلعة باب المندب والشيخ سعيد وسواحل المخا وذباب وكذا النواحي التسع الموجودة الآن تحت اشغالنا وتأثيرنا وهي :

لحج ، والصبيحة ، والحواشب ، والضالع ، ويافع العليا والسفلي ، وبلاد الفضلي ، تلك النواحي باعتبارها أوسع من لواء تعز في داخل جنوبي اليمن وعلى الساحل من باب المندب الى شقرة ماعدا شبه جزيرة عدن ، فجميع هذه الأراضي المذكورة في قبضتنا ونحن المحافظون عليها . وأما البلدان التى تعود تابعيتها الينا حضرموت ، وبلاد الصـــومال ، حتى بلاد الدناكل ، وقد عقدت مقاولاتهم بتابعيتنا ، وأوراق المقاولة المعقودة محفوظة بأيدينا تحت أسماء كل من الأمراء والمشايخ وعقال وأهالي البلدان المذكورة . أما المواقع والخطط الحربية والنقط المهمة الموجودة فيها قوتنا العسكرية ، وعليها المدار والمقابلة لباب عدن والشيخ عثمان فهي كما سيأتي :

الدرب . وبير ناصر . ودار هيثم المسمى دار المشايخ . والمجهالة ، وكدمة الاصلح . وبير جابر . والمحاط . وبما أن حكومتنا المتبوعة قد قبلت أساسات الصلح مع حكومة انكلترة وحلفائها ، وعقدت الهدنة بتاريخ ١٨ من تشرين أول سنة ١٣٣٤ رومي ، وبعد أن رست مراكب الانكليز وحلفائها في مراسي دار السعادة بالصورة الودية ، وسويت أمور وضع المهادنة ، فبهذه الصورة التى هي عن قواعد الهدنة المبلغة رسميا من حكومة انجلترا حصـــل هيجان عظيم بين العساكر والاهالي وفي داخل الخطط الحربية فتلافيت الأمر مسرعا لأجل تسكين ذلك الهيجان . ولكي نفهم من قريب نوايا العدو ، وكان ضروريا أن تلاقيت مع والي وقومندان عدن لأجل هذا الغرض ، ولتأمين المخابرة بين اليمن ودار السعادة

---

(١) أحمد فضل العبدلي : المصدر السابق ص ٢٥١ ــ ٢٥٤ .

لا لغرض آخر يوجب الشك وسوء الظن · وكما ظهر لى من جواب سيادة الامام بتعبير كلمة (لقد ساءنا) قاصدا بهذا التعبير تقبيحى ، وما حمله على ذلك الا مقاصدكم وأغراضكم الخصوصية لبعض أسباب ، كاشتراككم مع والى ولاية اليمن بنشرياتكم واشاعاتكم غير اللائقة والمخالفة للحقيقة ، قاصدين بذلك اهانتى عند عمـــوم أهـالى اليمن المحترمين ، الذين ليس لهم وقـــوف على الحقيقة لسوء تفسيركم لها ·

ولكنى قانع وقائل أن كل ذلك ليس له عندى أهمية بمثقال الذرة ، لما لى من سوابق الخدم ، خصوصا فى هذه التربة المقدسة اليمانية ، وما قمت به من المحافظة والمدافعة والثبات والمحاربة المتواصلة ضد العدو فى باب المندب وباب عدن منذ أربع سنوات ، وكل ذلك بمساعدة ومظاهرة رؤساء مجاهدى وأهالى لواء تعز ، لما بذلوا من أرواحهم وأموالهم خدمة للدين والوطن ·

أما حضرة الامام ، ووالى الولاية ، وجنابكم ، فلم يكن لكم نصيب فى شىء من المعونة المادية أو الفعلية نحونا سوى الكلام لا غير ، مع حرماننا من كل شىء ·

ويشهد على ذلك كل من أرباب الشرف وأصحاب الوجدان ، من عموم أهالى اليمن من ذكر وأنثى حتى الصبيان · وفوق كل شىء ، فالتواريخ والوثائق ستبين ذلك بالصراحة · والحاصل أن لليمن مفتاحين مهمين ، هما لحج وباب المندب ، اللذين هما من أهم ما يكون لسلامة ومحافظة عموم اليمن فكل من له علاقة وصلاحية من الذوات فليشرف سريعـا للاستلام · أما نحن فقد أمرت حكومتنا المتبوعة المفخمة باجازتنا ، وختمت وظيفتنا ، فلســـنا مأذونين بالبقاء بصفة محاربين فى هذا الوطن الذى نعتبره وطننا الثـانى · وقد كفانا ما لقيناه نحن العساكر العثمانيين والفدائيين فى هذه المدة الطائلة من المتاعب المضنية للأجساد ، والمفاداة بأرواحنا العزيزة ضد العدو وتحت قذائف الطيارات والمدافع (والمكاين) وبين الرمال والخبوت من غير ماء فى أيام الصيف الجهنمى ونحن معرضون للحميات لشدة الرطوبة فى داخل الخنادق أيام الشتاء من جهة ، ومن الجهة الأخرى كل هذه الدماء التى أرقناها والأرواح التى أزهقناها فى هذا السبيل ، انما هى للمحافظة على عرض وشرف ووجدان أهل اليمن المقدس الذى هو من ضمن الحرمين الشريفين من تجاوز الاعداء · والحالة هذه مع كونى لا زلت ولم أزل مضحيا بروحى ليلا ونهارا فى سبيل الدين والوطن ، وبحسب الوظيفة مع الحرمان الكلى ، ففوق كل هذا يرموننا من بعيد بما يسهل على طباعهم ، ولكنه عندنا من أغلظ القول ، مشيعين فى حزم واصرار أنى لمقابل بعض المنافع الخسيسة سأعيد لحجا وما حولها للأعداء · فاننا نرجوكم خاصة ، أن تتفضلوا بالتبليغ لمن يلزم ، ليسارع بارسال أى كائن يكون ممن له حمية وطنية قهرمانية

بالوفود الى باب المندب والى لحج لاستلامها قبل فوات الوقت • ومع أنى لا أقبل أصلا أن أكافأ بالتهم المهينة التى يقصدون باذاعتها وافترائها أن يلصقوها بى ، ولكن المفتريات مردودة ومعادة لمذيعيها وقائليها وناشريها بتمامها •

٢ من تشرين ثانى سنة ١٣٣٤ رومى — قائد منطقة الحركات بلحج

أمير اللـــواء

على ســـعيد

٢٥

الخطاب المرسل من على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج الى اللواء حسين باشا المتقاعد فى صنعاء فى ١٢ من نوفمبر ســـنة ١٩١٨ للاعراب عن اغتباطه بأنباء قيام مظاهرات وطنية فى عاصمة الولاية لمساندة قوات الدولة فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فضـــلا عن تعهدات الامام يحيى بتقديم المعونات اللازمة . ويؤكد سعيد باشا ان دور العثمانيين فى اليمن قد انتهى وبدأ دور اليمنيين فى تقرير مصيرهم على النحو الذى يرتضونه لأنفسهم (١) •

حضرة أمير اللواء حسين باشا المتقاعد بصنعاء

ان اشعاركم بخصوص وقوع بعض مظاهرات وطنية فى صنعاء ، كما وقع فى بداية الحرب العمومية ، وفى حرب طرابلس الغرب ، وأن تأمينات حضرة الامام القوية فى غاية الوطنية والديانة لهو موجب للسرور •

ان مثل هذه المظاهرات لم تبد لحد الآن فعلياتها التامة بالمال والرجال لمصلحة الحكومة السنية • نتمنى أن نسمع ونرى تحقيق وقوعهـا بعد الآن . واجرائها فعلا وتماما من أصحاب البلاد الحقيقيين ، أريد أن أؤمل بعد هـذه المظاهرات ، أن أولاد اليمن لا يكونون متفرجين ، كما كان الواقع منذ أربع سنين، ولسان حالهم يقول نحن نرتاح وعساكر الترك يحافظون على حدود بلادنا ، بل يسعى كل صغير وكبير منهم ويتقدم بالغيرة التى لا تعرف الملل الى ايفاء واجباتهم الدينية والوطنية • أما نحن الأغراب ، فجهادنا المملوء بالشرف فى الدفاع داخل الخنادق مع الحرمان التام من الوسائل قد ختم • ومن الآن فان دور الجهاد حربيا وسياسيا واداريا لاخواننا العرب • فالوظيفة الانسانية الاولى التى تترتب على

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ •

عموم أولاد اليمن ، أن يقوموا بالمعونة من كل الوجوه للعثمانيين فى ايصالهم الى أوطانهم وأحضان أمهاتهم سالمين ، وأن يبذلوا المروءة والسعى فى ذلك شكرا ومكافأة للعثمانيين للمحافظة على وطنهم الى الآن ، واستشهاد الآلاف منهم فى سبيل دفع العدو من أن يستولى على شبر من أرضهم ٠

وأؤمل أن يعترف بذلك حضرة الامام قبل كل أحد ، ان الواجبات القطعية للأحوال العمومية ، والاوامر الصريحة من مركز السلطنة ، يستلزم مع الأسف وداع العثمانيين لاخوانهم العرب المحترمين بعيون دامعة ٠ ولم يبق محل هناك للتفسير والتأويل ٠ وانى أنتظر وصول كتابكم الذى ذكرتموه ، ولكنى أستغرب التوصية لنا بالثبات من جنابكم ٠ فالتمدح بالنفس عيب ٠ وانما التلغرافات الواردة من كل الجهات أجبرتنى على القول بأنه لا ينكر أحد ما لقيناه فى اليمن مدة أربع سنين من دروس الثبات والغيرة والشجاعة ، وما بعثناه فى هذا الفيلق الذى كان فى حالة العجز والجمود فى بداية الحرب ، من روح الحركة والفتح والاسترداد للبلاد ، وجعلناه مثالا لمن يقتدى به ٠ ويعترف لى بذلك المخالفون أهل الحسد ، وانى وان كنت أشكر كلمات جنابكم ، وكلمات حضرة الامام اللطيفة ، ولكنى أحتج على مثل تلك التواصى من الذين لا عمل لهم ولا أمل منذ أربع سنين سوى املاء رءوسهم ومعدهم ببخار العرقى (الخمر) ، وملء صناديقهم بذهب هو ثمن دماء أولاد العثمانيين ، ان العساكر جميعا بلحج مراض (مرضى) ومسببو مصائبنا هم بصنعاء ، فاذا أمكن انتظارنا فى لحج للأمر الأخير من حكومتنا ، فسنجتهد ياحضرة الباشا المحترم ٠

١٢ من تشرين ثانى سنة ١٣٣٤ رومى ٠ — قائد منطقة الحركة بلحج

أمير اللواء

على سعيد

٢٦

البرقية المرسلة من والى اليمن العثمانى محمود نديم بك والى عدن البريطانى ردا على كتاب الأخير الذى انباه بالاتفاق على الهدنة فى نهاية الحرب العالمية الأولى وقد أكد الوالى العثمانى فى برقيته حق الامام يحيى فى وراثة الحكم العثمانى فى اليمن ، مما اوجب تسليمه اسلحة العثمانيين وممتلكاتهم فى الولايــة . بعد أن انحسر عنها نفــوذهم تبعــا لشروط الهدنة (١) ٠

بوساطة قائد منطقة الحركات فى لحج الى حضرة ذى الاصالة قائد عدن

(١) أحمد فضل العبدلى : المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ ٠

اطلعت على شروط الهدنة المطوية بكتابكم وقد أمرتنا حكومتنا قبل الحرب ان نجرى جميع الحركات في اليمن بالمشاورة مع حضرة الامام . وبناء عليه فقد تواجهنا مع حضرته للمذاكرة بخصوص الهدنة وكانت نتيجة المذاكرة كما يأتي :

١ ـ لم يصل الينا ولا الى حضرة الامام أمر من حكومتنا فى حركة العساكر العثمانية بهذه الصورة مع ترك السلاح بموجب المادة ١٦ من شروط الهدنة ومع اعتمادنا على صحة تبليغكم العالى فانكم تسلمون معنا بأنه لا يمكن تحركنا من دون أن يبلغنا أمر .

٢ ـ من حيث ان أمر البلاد فى يد حضرة الامام فالأمر الوارد الينا المنقول صورته أعلاه والتلغراف المرسل منه الى جنابكم العالى المؤرخ ١٠ من صفر سنة ١٣٣٧ هـ يتضمن عدم امكان خروج فرد واحد من العثمانيين من هنا ذكرا أم أنثى فضلا عن العسكر .

٣ ـ فى المادة (١٦) من شروط الهدنة وفى المادة (٥) المصرح بها وفى عموم شروط الهدنة لا يوجد ايضاح ولا حتى اشارة أن تترك الحكومة الملكية أمور الادارة .

٤ ـ بالنظر الى أن حقوق ايفاء شروط الهدنة اليوم هذا فى يد حضرة الامام لا أرى وسيلة لتنفيذ ذلك سوى وصول مأمور مخصوص من دار السعادة وجلب أمر تلغرافى واضح بالشفرة التى بينه وبين الصدارة .

٥ ـ اذا وجب خروج الحكومة الملكية من هنا سواء كان فى أثناء الهدنة أو فى خلال عقد الصلح يتوقف على استحصال نقل المأمورين وعائلاتهم على تسوية مطلوبات حضرة الامام وينحصر على استحصال رضاه القطعى وعلى تأمين داخلية البلاد . وهذا لا يتأتى الا بالقوة العسكرية ، والقوة المعاونة التى يضاف عليها من طرف حضرة الامام برضاه واختياره . ومع أنى مقتنع بهذه النظرية أرجو استحصال رضاء حضرة الامام وابقاء العساكر الموجودة هنا لتأمين داخلية البلاد بموجب المادة (٥) من شروط الهدنة .

٦ ـ حيث ان المادة (١٢) من شروط الهدنة تسمح بالمخابرة الرسمية أطلب حق المخابرة مع حكومتى للقيام بواجبى بحكم منصبى المودع فى عهدتى ، وأرجو التفضل بقبول احتراماتى الخالصة سيدى .

٣ من تشرين ثان سنة ١٣٣٤ رومى
١٦ من تشرين ثان سنة ١٩١٨ م

والى اليمن
محمود نديم

الخطاب المرسل من والى عـدن البريطانى الى والى اليمن العثمانى محمود نديم بـك ردا على برقيته السابقة • والخطاب يوضح وجهة نظر الانجليز فى اعتبار الامام يحيى محـايدا ولا دخل له فى تقرير الموقف فى اليمن بعد هزيمة العثمانيين فى الحرب الكبرى الأولى ، كما ان بريطانيا اعتبرت قبـول العثمـانيين لشروط الهدنة امرا حتميـا فرضـته قوانين الحرب مما لا يستلزم بالتالى استصدار أوامر جديدة بشأن توقف الادارة العثمانية المدنيـة لولاية اليمن باعتبارها تابعة للادارة العسكرية العثمانية وخاصة فى وقت الحرب (١) •

أصالة محمود نديم بك والى ولاية اليمن

أخذت تلغرافكم المؤرخ ١٦ من تشرين ثانى سنة ١٩١٨ م فليكن معلوما لدى أصالتكم أن قوة النفوذ العسكرى فى زمان الحرب مرجحة على كل القوى • وكذلك عموم شرائط المتاركة التى من طرف العسكرية ليست على تركيا وحدها فقط • فألمانيا أيضا قد قبلت تلك المتاركة جبرا • ولذلك لم نرفع الكيفيـة لأصالتكم فلا نرى لزوما أن نذكر أمرا آخر بخصوص الادارة الملكية ليتوقف أمرها وتابعيتها للعسكرية • وبما أن حكومة انكلترة وحلفاءها لا ترى لزوما لاجراء مقاولة أخرى مع الامام لكونهـــا لا تعده متفقا مع تركيا • بل تعده محايدا الى الآن • فقبول تركيا لشروط الهدنة جبرا وبما أن بين حكومة انكلترا والامام ودادا قديما كنت قد أخبرته بشروط الهدنة من طرف الحكومة وبينت له أن الحكومة تنتظر منه بذل المعاونة الكلية بخصـــوص جلاء الادارة الملكية وقوة الاتراك العسكرية • وأخبرته أيضا أن الحكومة الانكليزية قررت أنها ستحل المسائل المالية والأرضية فى المستقبل •

وأما المادة الخامسة فليست عائدة لليمن فالذى تعود لليمن وتحتوى على الشروط فهى المادة السادسة عشر فقط القسم الاخير منها يعود الى (أطنة) أما الأمر الذى أخذته من نظارتنا الحربية فى لوندرة يتضمن ارسال عموم المخابرات التلغرافية التى تأخذها منكم من اليمن بوساطتها لأجل نقلها الى استانبول ومع هذا أعرض لكم احتراماتى الخالصة •

والى عـدن

استيورت

---

(١) احمد فضل العبدلى : المصدر السابق : ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ •

ثانيا ــ الجداول

جدول رقم (١) : سلاطين الدولة العثمانية ومدة حكم كل منهم (١)

رقم	اسم السلطان	مدة الحكم من	مدة الحكم الى
١	السلطان عثمان الأول	١٢٩٠	١٣٢٦
	(تاريخ استقلاله ١٢٩٩)		
٢	السلطان أورخان	١٣٢٦	١٣٥٩
٣	السلطان مراد الأول	١٣٥٩	١٣٨٩
٤	السلطان بايزيد الاول	١٣٨٩	١٤٠٢
٥	السلطان محمد الأول	١٤٠٢	١٤٢١
٦	السلطان مراد الثانى	١٤٢١	١٤٥١
٧	السلطان محمد الثانى (الفاتح)	١٤٥١	١٤٨١
٨	السلطان بايزيد الثانى	١٤٨١	١٥١٢
٩	السلطان سليم الأول (ياووز)	١٥١٢	١٥٢٠
١٠	السلطان سليمان الأول (القانونى) (٢)	١٥٢٠	١٥٦٦
١١	السلطان سليم الثانى	١٥٦٦	١٥٧٤
١٢	السلطان مراد الثالث	١٥٧٤	١٥٩٥
١٣	السلطان محمد الثالث	١٥٩٥	١٦٠٣
١٤	السلطان احمد الأول	١٦٠٣	١٦١٧
١٥	السلطان مصطفى الأول	١٦١٧	١٦١٨
	(للمرة الثانية)	١٦١٨	١٦٢٢
١٦	السلطان عثمان الثانى	١٦٢٢	١٦٢٣
١٧	السلطان مراد الرابع (٣)	١٦٢٣	١٦٤٠
١٨	السلطان ابراهيم	١٦٤٠	١٦٤٨
١٩	السلطان محمد الرابع	١٦٤٨	١٦٨٧
٢٠	السلطان سليمان الثانى	١٦٨٧	١٦٩١
٢١	السلطان أحمد الثانى	١٦٩١	١٦٩٥
٢٢	السلطان مصطفى الثانى	١٦٩٥	١٧٠٣
٢٣	السلطان أحمد الثالث	١٧٠٣	١٧٣٠
٢٤	السلطان محمود الأول	١٧٣٠	١٧٥٤
٢٥	السلطان عثمان الثالث	١٧٥٤	١٧٥٧
٢٦	السلطان مصطفى الثالث	١٧٥٧	١٧٧٤

(١) أبو خلدون ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ .
(٢) فتح العثمانيون اليمن لأول مرة فى عهده فى سنة ١٥٣٨ (٩٤٥ هـ) .
(٣) خرج العثمانيون من اليمن فى عهده فى سنة ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) .

تابع جدول رقم (١) :

رقم	اسم السلطان	مدة الحكم من	الى
٢٧	السلطان عبد الحميد الاول	١٧٧٤	١٧٨٩
٢٨	السلطان سليم الثالث	١٧٨٩	١٨٠٧
٢٩	السلطان مصطفى الرابع	١٨٠٧	١٨٠٨
٣٠	السلطان محمود الثانى	١٨٠٨	١٨٣٩
٣١	السلطان عبد المجيد (١)	١٨٣٩	١٨٦١
٣٢	السلطان عبد العزيز (٢)	١٨٦١	١٨٧٦
٣٣	السلطان مراد الخامس	١٨٧٦	١٨٧٦
٣٤	السلطان عبد الحميد الثانى	١٨٧٦	١٩٠٩
٣٥	السلطان محمد الخامس (رشاد) (٣)	١٩٠٩	١٩١٨
٣٦	السلطان محمد السادس (وحيد الدين)	١٩١٨	١٩٢٢
٣٧	عبد المجيد (خليفة فقط)	١٩٢٢	١٩٢٤
	اعلان الجمهورية التركية فى ٢٩ من اكتوبر سنة ١٩٢٤م .		

جدول رقم (٢) : الأئمة الزيديون فى اليمن ومدة تولى كل منهم الامامة (٤)

اولا : الأئمة الزيديون قبل وصول العثمانيين الى اليمن (٨٩٨ - ١٥٣٨)

رقم	اسم الامام	محل الوفاة	مدة توليه الامامة هجرية من	الى	ميلادية من	الى
١	الهادى يحيى بن الحسين	صعدة	٢٨٤	٢٩٨	٨٩٨	٩١١
٢	المرتضى محمد بن الهادى	صعدة	٢٩٨	٣٠١	٩١١	٩١٣
٣	الناصر احمد بن الهادى	صعدة	٣٠١	٣٢٥	٩١٣	٩٣٤

(١) أرسل العثمانيون الى اليمن فى عهده فى سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٥ هـ) حملة لم تستطع البقاء فى صنعاء فارتدت الى الساحل حيث عسكرت فى تهامة .

(٢) تمكن العثمانيون فى عهده من السيطرة على صنعاء ١٨٧٢م (١٢٨٩هـ) واقاموا حكومة عثمانية فى اليمن استمرت حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

(٣) تم فى عهده جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ م (١٣٣٧ هـ) بعد هزيمة الدولة العثمانية فى نهاية الحرب العالمية الأولى .

(٤) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٩ .
الأئمة المذكورون هم الذين اشتهروا وكان لهم دور فعال فى حكم اليمن ، أما الدعاة والمحتسبون فهم كثيرون لا يتسع المجال لذكرهم .

تابع جدول رقم (٢) :

رقم	اسم الامام	محل الوفاة	مدة توليه الامامة – هجرية – من	هجرية – الى	ميلادية – من	ميلادية – الى
٤	المنصور يحيى بن الناصر	ريدة	٣٢٥	٣٦٦	٩٣٤	٩٧٦
٥	ابنه الدعى يوسف	صعدة	٣٦٦	٤٠٣	٩٧٧	١٠١٢
٦	المنصور القاسم بن على العيانى	عيان	٣٨٩	٣٩٣	٩٩٩	١٠٠٣
٧	المهدى الحسين بن القاسم	ريدة	٣٩٣	٤٠٣	١٠٠٣	١٠١٢
٨	ابو هاشم الحسن بن عبد الرحمن	ناعط	٤٢٦	٤٣١	١٠٣٥	١٠٤٠
٩	ابو الفتح الديلمى	عنس	٤٣٧	٤٤٤	١٠٤٦	١٠٥٣
١٠	المتوكل احمد بن سليمان	حيدان	٥٣٢	٥٦٦	١١٣٨	١١٧١
١١	المنصور عبد الله بن حمزة	ظفار	٥٨٣	٦١٤	١١٨٥	١٢١٧
١٢	المعتضد يحيى بن المحسن	ساقين	٦١٤	٦٣٦	١٢١٧	١٢٣٩
١٣	المهدى أحمد بن الحسين	شوابة	٦٤٦	٤٥٦	١٢٤٩	١٢٥٨
١٤	يحيى بن محمد السراجى	رنحافة	٦٥٦	٦٦٠	١٢٦١	١٢٦٢
١٥	االمنصور الحسن بن بدر	رنحافة	٦٦١	٦٧٠	١٢٦٢	١٢٧٢
١٦	المهدى ابراهيم بن تاج الدين	تعز	٦٧٠	٦٧٤	١٢٧٢	١٢٧٦
١٧	المتوكل المطهر بن يحيى	ذروان حجة	٦٧٦	٦٩٧	١٢٧٨	١٢٩٨
١٨	المهدى محمد بن المطهر	صنعاء	٦٩٧	٧٢٨	١٢٩٨	١٣٢٧
١٩	المؤيد يحيى بن حمزة	ذمـــار	٧٢٩	٧٤٩	١٣٢٨	١٣٤٩
٢٠	الواثق المطهر بن محمد	صنعاء	٧٣٠	٧٥٠	١٣٣٠	١٣٥٠
٢١	المهدى على بن صلاح	السودة	٧٣٠	٧٣٠	١٣٣٠	١٣٣٠
٢٢	الداعى أحمد بن على الفتحى	رغافة	٧٣٠	٧٥٠	١٣٣٠	١٣٥٠
٢٣	المهدى على بن محمد	صعدة	٧٥٠	٧٧٣	١٣٥٠	١٣٧٣
٢٤	الناصر صلاح الدين بن المهدى	صنعاء	٧٧٣	٧٩٣	١٣٧٣	١٣٩٣
٢٥	المنصور على بن صلاح الدين	صنعاء	٧٩٣	٨٤٠	١٣٩٣	١٤٣٦
٢٦	المهدى احمد بن يحيى المرتضى	الظفير	٧٩٣	٧٩٣	١٣٩٣	١٣٩٤
٢٧	الهادى على بن المؤيد	فلله	٧٩٦	٨٣٠	١٣٩٦	١٤٢٧
٢٨	المتوكل المطهر بن محمد الحمزى	ذمار	٨٤٠	٨٧٩	١٤٣٧	١٤٧٥
٢٩	المهدى صلاح بن على	صنعاء	٨٤٠	٨٤٩	١٤٣٧	١٤٤٦
٣٠	المنصور الناصر بن محمد	صنعاء	٨٤٠	٨٦٦	١٤٣٧	١٤٦٢
٣١	المؤيد محمد بن الناصر	صنعاء	٨٦٦	٩٠٨	١٤٦٢	١٥٠٣
٣٢	الهادى عز الدين بن الحسن	رغاقة	٨٧٩	٩٠٠	١٤٧٥	١٤٩٥
٣٣	الناصر الحسن بن عز الدين	فلله	٩٠٠	٩٢٩	١٤٩٥	١٥٢٣
٣٤	محمد بن على الوشلى	صنعاء	٨٨٠	٩١٠	١٤٧٦	١٥٠٥
٣٥	المتوكل يحيى شرف الدين ابن المهدى احمد بن يحيى	الظفير	٩١٢	٩٦٥	١٥٠٧	١٥٥٨

تابع جدول رقم (٢) :

رقم	اسم الامام	محل الوفاة	مدة توليه الامامة: هجرية		ميلادية	
			من	الى	من	الى
	ثانيا : الأئمة الزيديون فى أثناء الحكم العثمانى الأول (١٥٣٨ – ١٦٣٥) ٠					
٣٥	المتوكل يحيى شرف الدين بن المهدى احمد بن يحيى (١)	الظفير	٩١٢	٩٦٥	١٥٠٧	١٥٥٨
٣٦	المطهر بن شرف الدين (٢)	ثلاء	٩٦٥	٩٨٠	١٥٥٨	١٥٧٣
٣٧	الحسن بن على داود (٣)	الآستانة	٩٨٦	٩٩٣	١٥٧٩	١٥٨٥
٣٨	المنصور القاسم بن محمد (٤)	شهارة	١٠٠٦	١٠٢٩	١٥٩٨	١٦٢٠
٣٩	المؤيد محمد بن القاسم (٥)	شهارة	١٠٢٩	١٠٥٤	١٦٢٠	١٦٤٤
	ثالثا : الأئمة الزيديون بعد الحكم العثمانى الأول (١٦٣٥ – ١٨٤٩) ٠					
٤٠	المتوكل اسماعيل بن القاسم (٦)	ضوران	١٠٥٤	١٠٨٧	١٦٤٤	١٦٧٦
٤١	المهدى احمد بن الحسين بن القاسم	الغراس	١٠٨٧	١٠٩٢	١٦٧٦	١٦٨١
٤٢	المؤيد محمد بن المتوكل اسماعيل	ضوارن	١٠٩٢	١٠٩٧	١٦٨١	١٦٨٦
٤٣	المهدى محمد احمد بن الحسن ابن القاسم (٧)	المواهب	١٠٩٨	١١٣٠	١٦٨٧	١٧١٨
٤٤	المنصور الحسين بن القاسم بن المؤيد	شهارة	١١٢٧	١١٣١	١٧١٦	١٧٢٠

---

(١) دام حكمه أربعين عاما ثم اعتزل الامامة فى آخر أيامه وهاجر الى الظفير بحجة وبقى بها حتى مات ، وفى أيامه قام المماليك بغزو اليمن ثم جاء من بعدهم الاتراك العثمانيون فى سنة ١٥٣٨م

(٢) تولى الحكم بعد اعتزال والده وحارب العثمانيين فى مواقع كثيرة ٠

(٣) حارب العثمانيين بعد وفاة المطهر لمدة سبع سنوات ، غير أنهم تمكنوا بعد ذلك من القاء القبض عليه ونفوه الى الآستانة حيث مات مع غيره من المنفيين من أبناء المطهر ٠

(٤) هو مؤسس الدولة القاسمية ، وقد تمكن من الانتصار على العثمانيين وحصرهم في عدة مناطق معينة من اليمن ٠

(٥) توسع فى عصره نفوذ الدولة القاسمية ، والتحم مع العثمانيين فى معارك عنيفة منها موقعة « الحفاء » بضاحية صنعاء ، وفى عهده تم جلاء الترك عن اليمن فى سنة ١٦٣٥ م بعد حروب طويلة ناصره فيها أخواه الحسن والحسين مناصرة فعالة ٠

(٦) أجمع المؤرخون على أنه تمكن من بسط نفوذه على جميع أجزاء اليمن الكبرى التى تشمل حضرموت أيضا ٠

(٧) يسمى بصاحب المواهب نسبة الى قرية « المواهب » التى أسسها والواقعة فى شرقى ذمار ٠

تابع جدول رقم (٢) :

رقم	اسم الامام	محل الوفاة	مدة توليه الامامة: هجرية من	هجرية الى	ميلادية من	ميلادية الى
٤٥	المتوكل القاسم بن حسين (١)	صنعاء	١١٢٨	١١٣٩	١٧١٦	١٧٢٧
٤٦	الناصر محمد بن اسحق	صنعاء	١١٣٥	١١٣٥	١٧٢٣	١٧٢٣
٤٧	المنصور الحسين بن القاسم	صنعاء	١١٣٩	١١٦١	١٧٢٧	١٧٤٨
٤٨	ابنه المهدى عباس	صنعاء	١١٦١	١١٨٩	١٧٤٨	١٧٧٥
٤٩	ابنه المنصور على	صنعاء	١١٨٩	١٢٢٤	١٧٧٥	١٨٠٩
٥٠	ابنه المتوكل احمد	صنعاء	١٢٢٤	١٢٣١	١٨٠٩	١٨١٦
٥١	ابنه المهدى عبد الله	صنعاء	١٢٣١	١٢٥١	١٨١٦	١٨٣٥
٥٢	الهادى احمد بن على السراجى	صنعاء	١٢٤٧	١٢٤٧	١٨٣١	١٨٣١
٥٣	المنصور على بن المهدى (٢)	صنعاء	١٢٥١	١٢٥٢	١٨٣٥	١٨٣٦
٥٤	الناصر عبد الله بن الحسن بن احمد بن المهدى (٣)	صنعاء	١٢٥٢	١٢٥٦	١٨٣٦	١٨٤٠
٥٥	الهادى محمد بن المتوكل احمد	صنعاء	١٢٥٦	١٢٥٩	١٨٤٠	١٨٤٣
٥٦	المتوكـــل محمد بن يحيى بن المنصور (٤)	صنعاء	١٢٦٠	١٢٦٥	١٨٤٤	١٨٤٩

رابعا : الأئمة الزيديون عقب عودة العثمانيين الى اليمن (١٨٤٩ ـ ١٩١٨) ٠

رقم	اسم الامام	محل الوفاة	هجرية من	هجرية الى	ميلادية من	ميلادية الى
٥٧	المنصور احمد بن هاشم	صنعاء	١٢٦٤	١٢٦٥	١٨٤٨	١٨٤٩
٥٨	المؤيد العباس بن عبد الرحمن	صنعاء	١٢٦٦	١٢٦٦	١٨٥٠	١٨٥٠
٥٩	الهادى غالب بن المتوكل محمد	صنعاء	١٢٦٧	١٢٦٨	١٨٥١	١٨٥٢
٦٠	المنصور محمد عبد الله الوزير	السر	١٢٦٩	١٣٠٧	١٨٥٣	١٨٩٠
٦١	المتوكل الحسن بن احمد	حوث	١٢٧١	١٢٩٥	١٨٥٥	١٨٧٨
٦٢	المنصور حسين بن محمد بن الهادى	صنعاء	١٢٧٥	١٢٧٩	١٨٥٩	١٨٦٣

(١) تمرد عليه بعض رجال أرحب بصنعاء فى سنة ١٧٢٦م (١١٣٨هـ) وتمكن من قمع تمردهم ٠

(٢) فى عهده تمكن الترك والمصريون تحت اللواء العثمانى من الاستيلاء على بعض مناطق تهامة وشمالى اليمن كما أقام المصريون حكما أتاح الاستقرار المؤقت لسكان تلك المناطق ، وقد مات هذا الامام وهو فى سجن الناصر عبد الله بن الحسن الذى تولى الامامة من بعده ٠

(٣) احتل الانجليز فى عهده عدن فى ١٩ من يناير سنة ١٨٣٩م (٣ من شوال سنة ١٢٥٣ هـ) وقد قتل فى ثورة همدان فى سنة ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) ٠

(٤) مهد لدخول الترك الى مدينة صنعاء فى سنة ١٨٤٩ م (١٢٦٥ هـ) مما شجع منافسه على تحريض أهالى صنعاء ضده فقاموا باعتقاله ثم خلعوه عن الامامة فى السنة المذكورة ٠

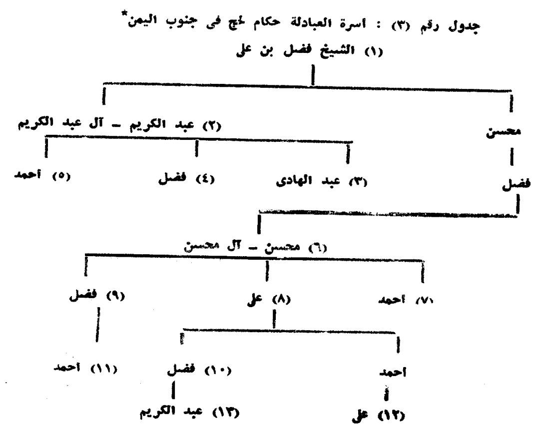
تابع جدول رقم (٢) :

رقم	اسم الامام	محل الوفاة	مدة توليه الامامة هجرية من	هجرية الى	ميلادية من	ميلادية الى
٦٣	الهادى شرف الدين بن محمد	المدان	١٢٩٦	١٣٠٧	١٨٧٦	١٨٩٠
٦٤	المنصـــور محمـد بن يحيى حميد الدين	القفلة	١٣٠٧	١٣٢٢	١٨٩٠	١٩٠٤
	خامسا : الأئمة الزيديون بعد جلاء العثمانيين الاخير عن اليمن حتى قيام ثورته الوطنية (١٩١٨ – ١٩٦٢ م) .					
٦٥	المتوكـل يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين (١)	صنعاء	١٣٢٢	١٣٦٧	١٩٠٤	١٩٤٨
٦٦	ابنه الناصر احمد	صنعاء	١٣٦٧	١٣٨٢	١٩٤٨	١٩٦٢
٦٧	ابنه البدر محمد (٢)	—	١٣٨٢	١٣٨٢	١٩٦٢	١٩٦٢

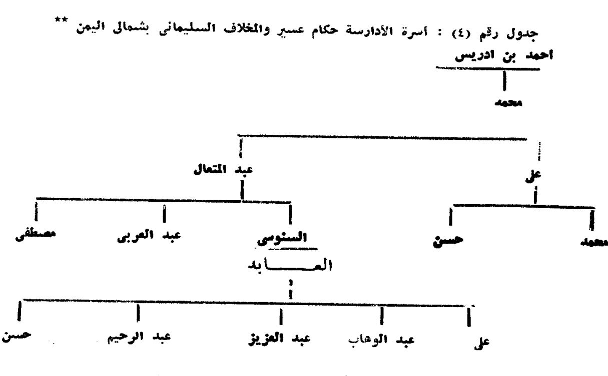
(١) تم فى عهـده جلاء العثمانيين عن اليمن فى سنة ١٩١٨ بعد هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى .

(٢) قام الشـعب اليمنى بثورة ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأطاح بنظام الامامة وأعلن قيام الجمهورية العربية اليمنية .

جدول رقم (٣) : اسرة العبادلة حكام لحج فى جنوب اليمن*



جدول رقم (٤) : أسرة الأدارسة حكام عسير والمخلاف السليمانى بشمالى اليمن **



(★) أحمد فضل بن علي محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٩٠ .
(★★) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ص ٢٧٦ .

مصادر البحث

أولا : مصادر باللغة العربية

الوثائق

مجموعة من الوثائق العربية المتداولة عن دار الوثائق القومية بعابدين بالقاهرة والعائدة لأعوام ١٨٦٥ – ١٨٦٦ – ١٨٦٧ – ١٨٧٠ – ١٨٧١ م٠ وهى توضح الدور الهام الذى قامت به مصر فى جزيرة العرب بصفة عامة ، وفى اليمن على وجه الخصوص فى تلك الفترة ، كما تلقى ضوءا على احدى المراحل المتتالية لتطور العلاقات العثمانية اليمنية قبيل عودة الاتراك العثمانيين الى اليمن فى سنة ١٨٧٢ م ٠ وهذه الوثائق مدرجة بدار الوثائق القومية على النحو التالى :

دفتر ٢١ عابدين	وثيقة رقم ٣٧	مايو ١٨٦٥ م	٢٠ من ذى الحجة ١٢٨١ هـ
محفظة سايرة	وثيقة بدون رقم	أغسطس ١٨٦٥ م	١٥ من ربيع أول ١٢٨٢ هـ
محفظة سايرة	وثيقة بدون رقم	أغسطس ١٨٦٥ م	٦ من ربيع ثان ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ عابدين	وثيقة رقم ٨٦	سبتمبر ١٨٦٥ م	١٣ من ربيع ثان ١٢٨٢ هـ
محفظة سايرة	وثيقة رقم ٩٣	سبتمبر ١٨٦٥ م	١٣ من ربيع ثان ١٢٨٢ هـ
دفتر صادر عابدين	وثيقة رقم ٩٠	سبتمبر ١٨٦٥ م	١٤ من ربيع ثان ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ عابدين	وثيقة رقم ١٢٢	أكتوبر ١٨٦٥ م	٥ من جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ
محفظة سايرة	وثيقة بدون رقم	أكتوبر ١٨٦٥ م	١٩ من جمادى الأول ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ عابدين	وثيقة بدون رقم	أكتوبر ١٨٦٥ م	وبدون تاريخ
دفتر ٢٢ عابدين	وثيقة رقم ١٤٦	أكتوبر ١٨٦٥ م	١٩ من جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ عابدين	وثيقة رقم ١٩٥	أكتوبر ١٨٦٥ م	١٠ من جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ صادر عابدين	وثيقة رقم ٢٠٤	نوفمبر ١٨٦٥ م	١٠ من جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ صادر عابدين	وثيقة رقم ٢٠٦	نوفمبر ١٨٦٥ م	١٠ من جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ
محفظة سايرة	وثيقة بدون رقم	٢٧ ديسمبر ١٨٦٥ م	٧ من شعبان ١٢٨٢ هـ
دفتر ٢٢ عابدين (بند متفرقات)	وثيقة بدون رقم	يناير ١٨٦٦ م	٢٨ من شعبان ١٢٨٢ هـ
سجل ٢٤ صادر عابدين	وثيقة رقم ٣٤٣	١٥ من مارس ١٨٦٧ م	٣ من ذى القعدة ١٢٨٣ هـ
دفتر ٢٤ عابدين (ص ١٠٦)	وثيقة بدون رقم	١٢ من مايو ١٨٦٧ م	٧ من محرم ١٢٨٤ هـ
سجل ٢٤ عابدين	وثيقة رقم ٤٠٢	١٤ من مايو ١٨٦٧ م	٩ من محرم ١٢٨٤ هـ
محفظة رقم ١٩	وثيقة رقم ١٢٥	٣٠ من يوليو ١٨٧٠ م	غرة جمادى الأولى ١٢٨٧ هـ
سجل ٢٤ صادر عابدين	وثيقة رقم ١٢٧٢	١١ من فبراير ١٨٧١ م	١٨ من ذى القعدة ١٢٨٧ هـ

وتجدر الاشارة الى أن بعض هذه الوثائق قد وردت نصوصها فى الكتاب التالى :
الجمل ، شوقى عطا الله (دكتور) الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الاحمر (١٨٦٣ م – ١٢٧٩ هـ) من مطبوعات « الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مطبعة لجنة البيان العربى » – القاهرة ١٩٥٩ م ٠

المخطوطات

❊ ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود بن علي (كان موجـــودا سنة ١٠١٠ هـ) : « الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية » ـ مخطوط مصور عن نسخـــة بقلم المؤلف بمكتبة راغب « باشا » ٩٧٩ ، ٤٧٨ ق ، ميكروفيلم بمعهـــد المخطوطات بدار الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة برقم ٣٥٦ .

❊ ابن لطف الله ، نور الدين عيسى (المتوفى في اثناء القرن الحـادى عشر الهجـــرى) : « روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح » ـ مخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٢٠ .

❊ الحنفى ، قطب الدين بن علي الدين (المتوفى سنة ٩٩٠ هـ) : « البرق اليماني في الفتح العثماني » ـ مخطوط بمكتبة بلدية الاسكندرية برقم ٤٢٧٠ ج ، ف ٣٠١ .

❊ الموزعي ، عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد (نائب الشريعة في مدينة تعز) : « كتاب الاحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » مخطـــوط نسخ في سنة ١٣٢٣ هـ بمكتبة علي اميرى برقم ٢٣٧٩ ، صـــورة مكبرة للمخطوط بدار الكتب بالقاهرة برقم ح ١٨٩٠٩ .

الكتب

★ ابن أبي الحسن ، نجم الدين عمارة اليمني : تاريخ اليمن ـ مطبعة كلبرت ـ لندن ١٨٩١ م (١٣٠٩هـ) .

★ ابن اياس ، محمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور (أربعة أجزاء) ـ الطبعـــة الاولى ـ القاهرة ١٨٩٣م (١٣١١هـ) .

★ أبونتي ، ســــلفاتور : مملكة الامام يحيى (ترجمة طه فوزي عن الايطالية) ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩٤٧م (١٣٦٦هـ) .

★ الأعظمي ، احمد عزة : القضية العربية ، أسبابها ومقدماتها وتطوراتها ونتائجها ـ جزآن ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة الشعب ـ بغداد ١٩٣١م (١٣٤٩هـ) .

★ الأعظمي ، علي ظريف : مختصر تاريخ بغداد ـ بغداد ١٩٢٦م .

★ انطونيوس ، جورج : يقظة العرب (ترجمة حيدر الركابي) ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ١٩٤٦م .

★ انيس ، محمد (دكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤/١٩١٤م) ـ الطبعـة الاولى ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة .

★ البركاتي ، شرف عبد المحسن : الرحـلة اليمانية للشريف حسين باشا امير مكة المكرمة ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٩١٢م (١٣٣٠هـ) .

★ برو ، توفيق علي : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ـ رسالة من مطبوعات معهد الدراسات العربية العمالية ـ الطبعة الاولى ـ القـــاهرة ١٩٦٠م .

★ البصير ، محمد المهدى : تاريخ القضية العراقية ـ بغداد ١٩٢٣م ٠

★ البكرى ، صلاح : فى جنوب الجزيرة العربية ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة الحلبى ـ القاهرة ١٩٤٩م ٠

★ بيربى ، جان جاك : جزيرة العرب (ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز) ـ الطبعة الأولى ـ من منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت ١٩٦٠م ٠

★ بيهم ، محمد جميل : قوافل العروبة ومواكبها (الجزء الثانى) ـ بيروت ١٩٥٠ م ٠

★ ترسيسى ، عدنان (دكتور) : اليمن وحضارة العرب ، مع دراسة جغرافية كاملة ـ من منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٤ ٠

★ الجرافى ، عبد الله عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ـ مطبعة الحلبى ـ القاهرة ١٩٥١ ٠

★ جمال « باشا » : مذكرات جمال « باشا » ، تعريب على احمد شكرى ـ القاهرة ١٩٢٣ ٠

★ حسن ، حسن ابراهيم (دكتور) : اليمن البلاد السعيدة ـ القاهرة ١٩٥٨م ٠

★ حسن ، محمد : قلب اليمن ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٧م ٠

★ حسين ، فاضل (دكتور) : محاضرات عن مؤتمر لوزان وآثاره فى البلاد العربية ـ القيت على طلاب معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٥٨م ٠

★ الحصرى ، (أبو خلدون) ساطع : يوم ميسلون ، صفحة من تاريخ العرب ـ مطبعة الكشاف ـ بيروت ١٩٤٦م ٠

ـ محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة الرسالة ـ القاهرة ١٩٥١ ٠

ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ـ الطبعة الثانية ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ يوليو ١٩٦٠م ٠

★ حمدان ، جمال (دكتور) : دراسات فى العالم العربى ـ مطبعة النهضة ـ القاهرة ١٩٥٨ ٠

★ خير الله ، خير الله : معضلة الشرق ، الأقطار العربية المحررة (ترجمة عارف النكدى) ـ بيروت ١٩١٩م ٠

★ داغر ، أسعد : ثورة العرب ـ القاهرة ١٩١٦ ٠

★ الدملوجى ، صديق : مدحت باشا ـ بغداد ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ٠

★ الرافعى ، عبد الرحمن (بك) : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ـ الجزء الثالث عن عصر محمد على (باشا) ـ الطبعة الاولى ـ مطبعة النهضة ـ القاهرة ١٩٣٠م (١٣٤٩هـ) ٠

★ الريحانى ، امين : ملوك العرب (جزآن) ـ الطبعة الاولى ـ المطبعة العلمية ـ بيروت ١٩٢٤ ٠

ـ تاريخ نجد الحديث وملحقاته ـ الطبعة الثانية ـ دار الريحانى للطبع والنشر بيروت ١٩٥٤ ٠

★ الزبيرى ، محمد محمود : الامامة وخطرها على وحدة اليمن ـ بيروت ٠

★ سالم ، السيد مصطفى : تكوين اليمن الحديث ، اليمن والامام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) ـ الطبعة الاولى ـ مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٦٣ ٠

★ سرهنك ، اسماعيل (باشا) : حقائق الأخبار عن دول البحار ـ (جزآن والثالث غير كامل) القاهرة (١٣١٢ ـ ١٣١٦هـ) ٠

★ السروجي ، محمد محمود (دكتور) : سياسة مصر العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسير (١٨٦٤ – ١٨٦٦) – فصلة من مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية – المجلد التاسع – ديسمبر ١٩٥٥ ٠

★ سعيد ، أمين : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم – مطبعة الحلبى – القاهرة ١٩٣٣ ٠
– اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلاله فى القرن الثالث الهجرى – الطبعة الأولى – دار احياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٥٩ ٠

★ شرف الدين ، أحمد حسين : اليمن عبر التاريخ ، من القرن الرابع عشر قبل الميلاد الى القرن العشرين – الطبعة الأولى – مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ١٩٦٣ (١٣٨٢هـ) ٠

★ الشهرستانى : ابو الفتح بن أبى القاسم عبد الكريم بن أبى بكر (٤٦٧ – ٥٤٨هـ) : الملل والنحل – الجزء الأول – الطبعة الاولى – القاهرة ١٩٠٩م (١٣٨٢هـ) ٠

★ طربين ، احمد (دكتور) : الوحدة العربية بين (١٩١٦ – ١٩٤٥م) – الطبعة الاولى – مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة ١٩٥٩ ٠

★ العبدلى ، احمد فضل بن على محسن : هدية الزمن فى اخبار ملوك لحج وعدن – الطبعة الأولى – المطبعة السلفية – القاهرة ١٩٣٢م (١٣١٥هـ) ٠

★ العرشى ، حسين بن أحمد : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وامام – (تحقيق الأب انستاس الكرملى) – مطبعة البرتيرى – القاهرة ١٩٣٩ ٠

★ العظم ، رفيق (بك) : الجامعة العثمانية والعصبية التركية (من مجموعة آثار رفيق «بك» العظم ، نشرها عثمان العظم) – القاهرة ١٣٤٤هـ ٠

★ العظم ، نزيه مؤيد : رحلة فى بلاد العربية السعيدة – مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه – القاهرة ١٩٣٨ ٠

★ العقاد ، صلاح (دكتور) : الاستعمار فى « الخليج الفارسى » – القاهرة ١٩٥٦ ٠

★ العقيلى ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلاف السليمانى او الجنوب العربى فى التاريخ – الجزء الأول طبع بمطابع الرياض ١٩٥٨ (١٣٧٨هـ) – الجزء الثانى طبع بمطابع دار الكتاب العربى بالقاهرة ١٩٦١م (١٣٨٠هـ) ٠

★ على ، محمد كرد : خطط الشام – دمشق ١٩٢٧م ٠

★ غالب ، محمد أنعم : نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن – (تقديم الكتاب بقلم الاستاذ أحمد محمد نعمان رئيس وزراء اليمن الأسبق) ٠

★ فخرى ، أحمد (دكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها – مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية – القاهرة ١٩٥٧ ٠

★ فريد ، محمد (بك) : تاريخ الدولة العلية العثمانية – القاهرة ١٨٩٦ ٠

★ فيضى ، سليمان : فى غمرة النضال – بغداد ١٩٥٢ ٠

★ لبيب ، حسين : تاريخ المسالة الشرقية – القاهرة ١٩٢١ ٠

★ ماضى ، محمد عبد الله (دكتور) : دولة اليمن الزيدية ، نشأتها ، تطورها ، علاقاتها ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية – القاهرة – مايو ١٩٥٠ ٠

- النهضات الحديثة فى جزيرة العرب – الجزء الأول « فى المملـــكة العربية السعودية » – القاهرة ١٩٥٢م ٠

★ مجهول المؤلف : اليمن المنهوبة المنكوبة – (يحوى هذا الكتاب معلومات مدعمة بالوثائق عن حكم آل حميد الدين فى اليمن فى عهد الامام يحيى ، ويوضح مدى تدهور أحوال البلاد حينذاك ، ويستصرخ احرار اليمن والعروبة والاسلام والانسانية لانقاذ الشعب اليمنى – ولم يشر الكتاب الى الجهة التى تولت نشره أو تاريخ اصداره) ٠

★ مختار ، محمد : التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنجية والقبطية ٠

★ مؤنس ، حسين (دكتور) : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث – مطبعة حجازى – القاهرة ١٩٣٨م٠

★ نعمان ، احمد محمد : انهيار الرجعية فى اليمن – القاهرة ٠

★ الهمدانى ، ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب بن يوسف بن داود : صفة جزيرة العرب – القاهرة ١٩٥٣ ٠

★ هولفرتز ٠ هانز : اليمن من الباب الخلفى (ترجمة خيرى حماد) – بيروت ١٩٦١ ٠

★ الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهمـــوم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن – الطبعة الأولى – المطبعـة السـلفية – القاهرة ١٩٢٧ ٠ (١٣٤٦هـ) – الطبعة الثانية – مطبعة حجازى – القاهرة ١٩٤٧ (١٣٦٦هـ)٠

★ وليمز ، سيتون (م٠ف) : بريطانيا والدول العربية ، عرض للعـــلاقات الانجليزية العربية ١٩٢٠ – ١٩٤٨ ، (ترجمة وتعليق الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى) – مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة ١٩٥٢ ٠

★ وهبة ، حافظ : جزيرة العرب فى القرن العشرين – الطبعة الثانية – مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٤٦ ٠

الدوريات

- الوقائع المصرية ، العدد ٦ – الصادر فى ٢٨ ديسمبر ١٨٦٥ ٠

المجـلات

- مجلة المقتطف : الصادرة فى القاهرة ، وأصحابها فارس نمر ، ويعقوب صروف ومكاريوس شاهين

المجلد ٣٤ – ج ١ ، ٢ ، ٣	الصادر فى سنة ١٩٠٩ ٠
المجلد ٣٥ – ج ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦	الصادر فى سنة ١٩٠٩ ٠
المجلد ٣٦ – ج ٢ ، ٣	الصادر فى سنة ١٩١٠ ٠
المجلد ٣٧ – ج ١ ، ٥	الصادر فى سنة ١٩١٠ ٠
المجلد ٤٢ – ج ٦	الصادر فى سنة ١٩١٣ ٠
المجلد ٤٤ – ج ٥	الصادر فى سنة ١٩١٤ ٠
المجلد ٩١ – ج ٤	الصادر فى سنة ١٩٣٧ ٠

- مجلة المنار : الصادرة فى القاهرة ، وصاحبها الشيخ رشيد رضا .

المجلد ١٢ - ج ١٢	الصادر فى يناير سنة ١٩١٠ .
المجلد ١٥ - ج ٢	الصادر فى ١٨ من فبراير سنة ١٩١٢ .
المجلد ١٦ - ج ١	الصادر فى ٨ من يناير سنة ١٩١٣ .
المجلد ١٦ - ج ٤	الصادر فى ٧ من أبريل سنة ١٩١٣ .

الجرائد

- جريدة الأهرام : الصادرة فى القاهرة ، وصاحب امتيازها جبرائيل بشارة تقلا .
الأعداد الصادرة - فى أعوام ١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢ ، ١٩١٣ ،
والعدد ٢٨٨٠٢ الصادر فى ١٩٦٥/١٠/٩ .

- جريدة المؤيد : الصادرة فى القاهرة ، وصاحبها الشيخ على يوسف .
جميع الأعداد الصادرة من منتصف عام ١٩٠٨ م حتى عام ١٩١٤م .

- جريدة اللواء : الصادرة فى القاهرة ، وتمتلكها شركة مساهمة من على فهمى كامل وشركاه ، ومدير السياسة المسئول منصور مصطفى رفعت جميع الأعداد الصادرة من منتصف عام ١٩٠٩ حتى منتصف عام ١٩١٠ م ، ومن أول عام ١٩١١ م حتى نهاية يونية ١٩١١ م ، ومن أول ديسمبر ١٩١١ م حتى ٣٠ من يونيو ١٩١٢ م .

REFERENCES

DOCUMENTS

الوثائق

— Admiralty Handbook of Arabia.
Published for Official Use, 1916, Reissued by H.M.S.O., 1920.

— Aff. Etrang. Corr. Polit. S., 1865.

(من الوثائق الفرنسية المنقولة عن ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية والمحفوظة بدار الوثائق القومية بعابدين بالقاهرة) .

— Aitchison, C.V. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads relatingto India and the Neighbouring Countries, Vol. XI, Delhi, 1933.

— HureWitz, C. : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol. I, II, U.S.A. Princeton, 1956. First Pub.

— White Paper, Cmd. 4752, 1934.
Treaty of Friendship and Mutual Co-operation between His Majesty in respect of the United Kingdom and of India and the King of the Yemen.

TEXTS

— Antonius, George.
The Arab Awakening,
Hamish Hamilton, London, 1938.

— Bérard, Victor.
— Le Sultan, l'Islam et les Puissances, Paris, 1907.
— La Révolution Turque, 1909.

— Berreby, J. J.
La Péninsule Arabique, Payot, Paris, 1958.

— Brémond, E. Yemen et Saoudia. Charles-Lovauzelle and cie, paris, 1ére Ed., 1937.

— Bury, G.W.
Arabia Infelix or the Turks in Yemen, Macmillan and Co., London, 1915, (It includes chapters on natural history and agricultural products).

— Douin.
Histoire du Régne du Khédive Ismail t. I.

— Earle, E. M.
Turkey, The Great Powers, and the Baghdad Railway, Macmillan, New York, First Ed., 1935.

— Edib, Halide.
Conflict of East and West in Turkey, Lahore, 1935.

— Emin, Ahmed.
Turkey in the World War, U.S.A., 1930.

— Engelhardt.
La Turquie et le Tanzimat, t. I, Paris, 1882.

— Ferid, Mohammed.
Etude sur la crise ottomane actuelle (1911-1912), Genève, 1923.
Etude sur la crise ottomane actuelle (1914-191), Genève, 1915.

— Fesh, Paul.
Constantinople aux derniers jours d'Abdul Hamid, Paris, 1907.

— Harris, W.B.
A Journey through the Yemen ; and some general remarks upon that country, London, 1893. (Besides the lively personal narrative, there is a first part consisting of general information, especially a valuable historical summary).

— Helfritz, H.
The Yemen. A Secret Journey, Allen and Unwin, London, Translated by M. Hero First Pub. in English 1958. (In German 1956).

— Hogarth, David George.
— The penetration of Arabia, a record of the development of Western knowledge concerning the Arabian Peninsula (N.Y., 1904).

— The Nearer East,
H. Frawde. London, 1905.

— Arabia.
Clarendon Pr., Oxford 1922, First Ed.

— Jacob, Harold F.
Kings of Arabia, Mills and Boon, London, 1923.
(Much valuable information on ancient and recent history, the people, etc.).

— Jung, Eugène.
La Révolte Arabe t. I.
Paris, 1924.

— Kammerer,
La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité, Le Caire, 1920.

— Lammens, S.J.
La Syrie, Précis Historique, 2 Vols.
Beyrouth, 1921.

— Lenczowski, George.
The Middle East in World Affairs, New Second Edition, 1956.

— Longrigg, S .H.
Four Centuries of Modern Iraq, Oxford, 1925.

— Mandelstone, André.
La Turquie, Paris, 1918.

— Midhat, Ali Haydar.
Midhat Pasha, Paris. 1908.

— Neibuhr, C.
Voyage en Arabie et en d'autres pays circonvoisins, Amsterdam, 1776.

— Nicolaides, N.
Une Année de Constitution, Bruxelles, 1909.
— Pinon, René.
L'Europe et l'Empire Ottoman, Paris, 1917.
— Playfair, R.L'
A Histor of Arabia Felix or Yemen «from the commencement of the Christian era to the present time, including an account of the British Settlement of Aden». (Selections from the Records of the Bombay Government, No. 49. New Series. Bombay, contains a bibliography).
Bombay, 1859.
Poincarré, Raymond.
Au service de la France, Vol. V.
— Reilly, B.
Aden and the Yemen.
Her Majesty's Stationery Office, London, 1960.
— Rihani, Ameen.
Arabian Peak and Desert,
Travels in Yemen. Constable and Co. Ltd.
London, 1930.
— Saab, Hassan (Dr.).
The Federalists of the Ottoman Empire,
Amsterdam. 1958.
— Sanger, Richard H.
The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr. ;
New York. 1954, First Pub.
— Scott, Hugh (D.).
— The Yemen in 1937-38. Journal of the Royal Central Asian Society, Vol. 27, 1930.
— In the High Yemen, Murray, 1942.
Stark, Freya.
The Arab Island.
A.A. Knopf. New York, 1945, First Ed.
— Stripling.
The ottoman Turks and Arabs, Urobs. 1942.
— Tritton, D.S.
The Rise of the Imams of Sanaa, O.U.P.
Madras, 192.
— Wavell, A.J.B.
A Modern Pilgrim in Mecca and a siege in Sanaa.
Constable and Co. Ltd., Londo, 1921.
— Zeine, N.Z.
Arab-Turkish relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut,

PERIODICALS

— Survey of International Affairs.
Royal Institute of International Affairs.
Years 1052-1982.

— Correspondance d'Orient, revue économique, politique, littéraire
Directeur : Georges Samné Paris..

15/ 4/1910	15/ 2/1911
15/6/1910	1/10/1913
15/12/1910	1/ 6/1914
5/ 2/1911	25/ 7/1916

Journal of the Royal Central Asian Society.
The Royal Central Asian Soc.
Vol. XXVII, Part I, 1940.
Revue du Monde Musulman. La Mission Scientifique du Maroc.
Vol. IV, Janvier 1908, Vol. IX, Sept. 1909, Vol. X, Janvier 1910 et Vol. XXI Décembre 1912.

ملاحظات خاصة بالمصادر

لا شك أن أهم العقبات التى تواجه المهتمين بالدراسات اليمنية تنحصر فى قلة المصادر العلمية التى يمكن الرجوع اليها بل ندرتها فى بعض الاحيان . فالحكومة اليمنية لم تحتفظ بسجلات منظمة لوثائقها فى عهد الامامة ، كما أن الطبيعة القبلية التى اتصف بها الشعب اليمنى وكثرة ثوراته وحروبه المذهبية واضطراب أحواله بددت الكثير من تراثه . ولم يبق للدراسين الا نذر قليل من المخطوطات التى عثر عليها فى بعض المساجد اليمنية كالجامع الكبير بصنعاء ، وفى حوزة بعض فقهاء اليمن وأعلامه .

وقد توجهت بعثات عربية الى اليمن لتصوير هذه المخطوطات وسعت للحصول على نسخ زائدة منها . وقد عثرت على بعضها وعلى صور (ميكروفيلم) لها بدار الكتب بالقاهرة وبمعهد المخطوطات بدار الأمانة العامة لجامعة الدول العربية وبمكتبة محافظة الاسكندرية . ويستدل من هذه المخطوطات على أن اليمن قد شهدت حركة تاريخية نشطة فى عهد الفتح العثمانى الأول (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) وفى أعقابه . وقد اخترت من بينها المخطوطات الأربعة التى أشرت اليها فى قائمة المصادر واعتمدت عليها فى توضيح الجذور الأولى للعلاقات العثمانية اليمنية .

وقد اتجهت للبحث عن مصادر جديدة توضح جوانب الموضوع ، فوجدت فى مجموعة الوثائق العربية والأجنبية المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ما ساعدنى على معرفة تطور العلاقات العثمانية اليمنية التى شاركت فيها مصر

بدور واضح وفعال كجزء من سياستها العربية أثناء تبعيتها هى الأخرى للسيادة العثمانية ·

وساعدتنى فى هذا المجال أيضا مجموعة من كتب للوثائق المنشورة أخص بالذكر منها كتاب الدكتور شوقى عطا الله الجمل الذى حوى عددا من « الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧١ » ، وكتابى « آتشيسون » (Aitchison) و « هورفتز » (Hurewitz) اللذين تضمنا تعليقات واعية عن سياسة العثمانيين والبريطانيين فى الشرقين الأدنى والاوسط ·

وقد عثرت على عدد قليل من المؤلفات اليمنية المنشورة التى تبدو أهميتها فى تعبيرها عن وجهات النظر المختلفة لدى أهالى البلاد وموقفهم من الحكم العثمانى الذى حاول السيطرة فترة طويلة على مقدراتهم · فبينما كان الواسعى والعرشى والجرافى يعبرون عن وجهة نظر الزيديين فى وسط جبال اليمن ، كان العبدلى يتحدث عن تاريخ لحج وعدن وعن الجنوب اليمنى بأكمله · وفى أقصى الشمال فى جيزان وضع العقيلى مؤلفه — الذى أهدانى مشكورا نسخة منه طبعت بمدينة الرياض — واستعرض فيه تاريخ المخلاف السليمانى وعسير موضحا نضال الأدارسة ضد سيطرة العثمانيين على بلادهم ·

واذا كانت كتب الواسعى والعرشى والجرافى قد اتبعت طريقة المؤرخين الأوائل بالاقتصار على استعمال التاريخ الهجرى مع ذكر الأحداث مرتبة عاما بعد آخر على طريقة الحوليات وتخصيص حديثهم عن الأئمة الزيديين بشكل يؤكد تحيزهم لجانبهم ، فان كتابى العبدلى والعقيلى حاولا عرض الأحداث بأسلوب سلس مرتب تميز بالتحليل والمقارنة فى كثير من الأحيان ، وان كان العقيلى قد فاق العبدلى فى هذا المجال · وقد حوى مؤلفاهما كثيرا من الوثائق الهـامة مما ميزهما خاصة بين مؤلفات اليمنيين المنشورة ·

وتجدر الاشارة الى أهمية كتب الرحالة العرب الذين ارتادوا اليمن فى فترات متتالية رغم ما تحتويه من مبالغة فى بعض الأحيان وما تشتمل عليه من اهتمام بالنواحى العمرانية والاجتماعية والأحداث المحددة بوقت الرحلة وغالبا ما يكون قصيرا مما لا يجعلها مؤلفات تاريخية بمعنى الكلمة · غير اننى حاولت أن أستخلص من ثنايا صفحاتها معلومات تاريخية مفيدة ساعدتنى فى ربط الأحداث، وان استلزمت كثيرا من الحذر واليقظة والتحقيق والمقارنة · وأخص بالذكر منها كتاب « ملوك العرب » الذى وضعه أمين الريحانى المؤرخ الأديب الرحالة العربى الأصل الأمريكى الجنسية · وقد طاف الريحانى بأنحاء الجزيرة العربية والتقى بملوكها ورؤسائها وشيوخها فى العشرينات من القرن الحالى ، كما اتصل بكثير من الشخصيات العادية بين سكان الجزيرة للتعرف على آرائهم ومواقفهم من أحداث عصرهم · وقد حاول الريحانى أن يحلل وينقد ويرجع الأحداث الى جذورها

الأصلية ، مستعينا بعمق ثقافته وسعة اطلاعه وكثرة رحلاته وأسفاره ، مما أعطى مؤلفه أهمية خاصة بين كتب الرحالة العرب الآخرين أمثال نزيه مؤيد العظم ومحمد حسن اللذين اتصفا بالتحيز لحكم الأئمة ومحاولة تبرير النظم القائمة ، كما تحاملا على العثمانيين دون انصافهم ·

أما كتب الرحالة الأجانب فكانت هي الأخرى ذات قيمة كبيرة في توضيح أحداث التاريخ اليمني بعد تخليصها من نزعات التحيز الأوربي ومبالغات الأسلوب القصصي · فمن بينها كتاب « نيبور (Neibuhr) الرحالة الدنمركي الذي طاف بأرجاء اليمن في سنة ١٧٦٣ ، وكتاب الأديب الصحفي الايطالي «سلفاتورابونتي» الذي وضعه في أواخر الأربعينات من القرن الحالي بعنوان « ملكة الامام يحيى أو رحلة في بلاد العربية السعيدة » · وفي ذلك الوقت أيضا قام بزيارة اليمن الرحالة الدكتور هيوسكوت (Hugh Scott) وسجل مشاهداته في كتابه « في مرتفعات اليمن (In the High Yemen ...) الذي ضمنه فصلا خاصا عرض فيه موجزا للتاريخ اليمني · أما كتاب الرحـالة الألماني « هـانز هولفرتز » (Hanz Helfritz) الذي عربه خيري حماد بعنـوان (اليمن من الباب الخلفي) فقد حاول مؤلفه أن يكون موضوعيا غير انه كأي أوربي آخر كان يتحدث عن الشرق وكأنه بلاد العجائب والغرائب · وقد عرض « هولفرتز » حالة اليمن في أواخر عهد الامام يحيى (١٩٠٤ ــ ١٩٤٨) وبداية عهد الامام أحمد (١٩٤٨ ــ ١٩٦٢) غير أنه تطرق الى أحوال اليمن في عهد العثمانيين موضحا أنهم تمكنوا من وضع حد للخلافات الداخلية هناك ، فأقاموا بذلك أسس « الوحدة » التي استطاع الامام يحيى أن يشيد حكمه عليها ·

وقد اتصفت مؤلفـات البريطانيين عن اليمن بدفاعهم عن مصـالحهم الاستعمارية في جنوبه خاصة وان معظمهم قد شغلوا عدة مناصب سياسية في عدن · غير ان هذه المؤلفات لا تخلو من موضوعية وعمق والمام وفهم بالتاريخ اليمني ومجريات أحداثه · فمثلا كتاب الرحالة البريطاني بيوري (Bury) عن « العربية غير السعيدة أو الأتراك في اليمن » (Arabia Inflix or the Turks in Yemen..) الذي صدر في لندن سنة ١٩١٥ ويعد من أهم المؤلفات الأجنبية المعاصرة التي استعرضت تاريخ العثمانيين في بلاد اليمن ·

كما أن كتاب هارولد جاكوب (Harold Jacob) عن « ملوك العرب » (Kings of Arabia) لا يقل أهمية عن سابقه · فقد صدر هذا الكتاب في لندن سنة ١٩٦٣ وكان مؤلفه يشغل منصب المعاون الأول للمقيم البريطاني في عدن ثم وكيلا سياسيا لمرتفعات عدن ، كما شغل أثنـاء الحرب العالمية الأولى منصب المستشار الخاص لشئون جنوب غرب الجزيرة العربية لدى اثنين ممن تولوا منصب المندوب السامي البريطاني بالقاهرة · وفضلا عن هذه المناصب التي

شغلها «جاكوب» والتى قربته الى مصادر المعلومات كان ملما باللغات العربية وعلى دراية بعادات اليمنيين وتقاليدهم . بل لوحظ انه كان يحمل معه دائما مصحفا أثناء اقامته فى بلاد اليمن ، كما كان يحفظ عن ظهر قلب أمثالا عربية محلية وآيات قرآنية استعملها كثيرا فى كتاباته وأحاديثه . وقد كان « جاكوب » دقيقا فى عرضه لاحداث هجوم العثمانيين على لحج ومحاولتهم غزو عدن وصراعهم ضد البريطانيين فى جنوب اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى .

وهناك مجموعة من المؤلفات التى أشارت الى موضوع البحث من زوايا متعددة . فكتاب لينكوفسكى (Lenezowski) عن « الشرق الأوسط فى الشئون الدولية» (The Middle East in World Affairs...) استعرض مؤلفه العمليات الحربية فى جنوب اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأوضح موقف القوات العثمانية والبريطانية هناك ، وقارن بين ميدان الحرب فى اليمن وميادين الحرب الأخرى فى ذلك الحين

ومن أهم المصادر التى تناولت دراسة ثورات الشعب اليمنى ضد حكم الأتراك العثمانيين أشير الى كتابى هاريس (Harris) وويفل (Wavell) الصادرين فى لندن فى عامى ١٨٩٣ و ١٩١٢ فانهما سجلان متكاملان للثورات اليمنية فى أعوام ١٨٩١ و ١٩٠٤ و ١٩١٠ .

هذا بالاضافة الى مؤلفات بريمون (Prémond) ورايلى (Reilly) وهوجارث (Hogarth) وسانجر (Sanger) وبلايفير (Pleyfair) وغيرهم فقد ألقوا مزيدا من الضوء على جوانب موضوع البحث

وقد اعتمد « بلايفير » فى مؤلفه « تاريخ العربية السعيدة أو اليمن » (A. History of Arabia Felix or Yemen ...) على الوثائق السياسية الصادرة عن حكومة الهند البريطانية قبيل سنة ١٨٥٩ مما يبرز أهميته فى توضيح معالم سياسة البريطانيين فى أعقاب سيطرتهم على عدن فى سنة ١٨٣٩ وبداية بسط نفوذهم فى جنوب اليمن .

ومن الرسائل العلمية الهامة التى اطلعت عليها وأفادتنى كثيرا رسالة الصديق الدكتور السيد مصطفى سالم عن « اليمن والامام يحيى من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩٤٨ » التى تناول فيها دراسة موضوعية شاملة لعهد الامام يحيى ، موضحا الدور الذى شارك به فى أحداث اليمن وتشكيل مصيره ، فاستعرض دوره عندما وضع الأســـاس لحكم الامامة فى اليمن ثائرة على العثمانيين أولا ثم مشاركة لهم ثانيا ، ثم منفردة بالحكم أخيرا حتى مصرعه فى سنة ١٩٤٨ . وقد أفادتنى هذه الرسالة فى معرفة حقيقة دور الامام يحيى زعيم الزيديين الذين شكلوا أخطر قوة سياسية محلية واجهها العثمانيون أثناء حكمهم لليمن .

كما تعد رسالة توفيق على برو عن « العرب والترك فى العهد الدستورى

العثمانى من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٤ » من أهم المصادر التى أماطت اللثام عن تطور علاقات الترك بالعرب فى تلك الفترة ، وأظهرت كيف كانت قضية اليمن من أبرز القضايا التى وجهت هذه العلاقات وأثرت فيها أبلغ تأثير ٠

أما رسالة محمد أنعم غالب عن « التخلف الاقتصادى فى اليمن فى عهد الأئمة » فهى من المؤلفات المنهجية القيمة التى أبرزت بوضوح وجلاء العناصر المكونة للاقتصاد اليمنى والدور الذى لعبه العثمانيون فى هذا المجال أثناء حكمهم لليمن ، ثم حددت مسئولية الامامة بنظامها العتيق عن تخلف الاقتصاد اليمنى وركوده ٠ ولما كان مؤلف هذه الرسالة من أبناء اليمن الذين أتيحت لهم فرصة الدراسة فى الخارج فقد كان على دراية كافية بشئون بلاده ومشاكلها ، كما كان على درجة من العلم والثقافة ساعدته فى التعبير الصادق والبحث الجاد الذى بدا واضحا فى رسالته ٠

وأضيف الى هذه الرسائل العلمية الهامة رسالة أحمد طربين عن قضية « الوحدة العربية من سنة ١٩١٦ الى سنة ١٩٤٥ » والتى استعرض فيها معالم تاريخ البلاد العربية ومن بينها اليمن أثناء تبعيتها للدولة العثمانية ، مع ابراز بداية ظهور ملامح الاتجاه فى كل منها نحو تحقيق الوحدة العربية ، متتبعا تطور هذا الاتجاه ونموه حتى أقيم صرح جامعة الدول العربية فى سنة ١٩٤٥ ٠

ومن بين مصادر البحث أيضا مجموعة من المؤلفات التى تناولت دراسة أحوال الدولة العثمانية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعلاقاتها بالبلاد العربية ومن بينها اليمن ٠ فكتاب أستاذى الدكتور محمد أحمد أنيس عن « الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤ ــ ١٩١٩ » يعالج فى دقة وعمق موضوع التأثير العثمانى فى مجتمعات الشرق الأدنى ، ذلك التأثير الذى بدأ بظهور الأتراك العثمانيين فى المنطقة ثم توسعهم فيها وحكمهم لها حتى سقوط الدولة العثمانية وثورة شعوب المنطقة عليها فى الحرب العالمية الأولى ٠ كما أن كتاب ساطع الحصرى عن « الدولة العثمانية والبلاد العربية » يستعرض معالم الاتجاهات العــامة للعلاقات العثمانية العربية فى دقة وشمول ، مستندا الى كثير من الوثائق التركية التى اطلع عليها المؤلف والتى تخص شئون البلاد العربية ومن بينها اليمن ــ عندما كانت ايالات ثم ولايات تابعة للدولة العثمانية منذ مطلع العصور الحديثة حتى اعلان الجمهورية التركية فى أوائل الثلاثينيات من القرن الحالى ٠ والى جانب هذين المؤلفين أشير الى أهمية كتاب الصحفى التركى أحمد أمين محرر جريدة « وطن » التركية الذى صدر فى سنة ١٩٣٠ عن « تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى » (Turkey in the World War) وتناول دراسة الظروف التى جعلت الحكومة العثمانية تشترك فى تلك الحرب ، كما أشار الى الأفكار القومية التركية وروادها الأوائل ٠

أما كتاب الدبلوماسى الفرنسى انجلهارت (Engelhardt) عن تركيا والتنظيمات (La Turquie et le Tanziment) فقد صـــدر فى باريس عام ١٨٨٢ . وقضى مؤلفه شطرا كبيرا من حياته فى عاصمة الدولة العثمانية فكان قريبا من الأحـداث التى أرخ لهـا . هـذا بالاضـافة الى أهمية كتابى فيكتور بيرار Victor Berard وقد صـدرا فى باريس فى عامى ١٩٠٧ و ١٩٠٩ أولهما بعنوان (Le Sulan l'Islam et les puissances) والثانى تحت عنوان (La Révolution Turque)

كما أشير الى أهمية كتاب بول فش Paul Fesh الذى صدر فى عام ١٩٠٧ وتناول دراسة الأحداث التى دارت فى عاصمة الدولة العثمانية فى الأيام الأخيرة من عهد السلطان عبد الحميد وكان عنوانه
(Constantinople aux derniers jours d'Abdul Hamid ..)

فكل هذه المجموعة أمدتنى بمعلومات وافية عن أوضاع الدولة العثمانية وسياستها فى حكم الولايات التابعة لها ومن بينها اليمن .

وهنا ينبغى الاشارة الى دور الجرائد والمجلات العربية والأجنبية التى لجأت اليها عندما كانت تصمت المصادر عن الاجابة عما يدور بفكرى من استفسارات وتساؤلات ، كما اننى استعنت بها فى ربط الأحداث بعضها ببعض ، والقاء مزيد من الضوء عليها ، وتوضيح وجهة نظر الرأى العام عنها ، وذلك بعد تخليصها من نزعات التحيز الى جانب دون آخر وتصفيتها من شوائب الاثارة والتهويل .

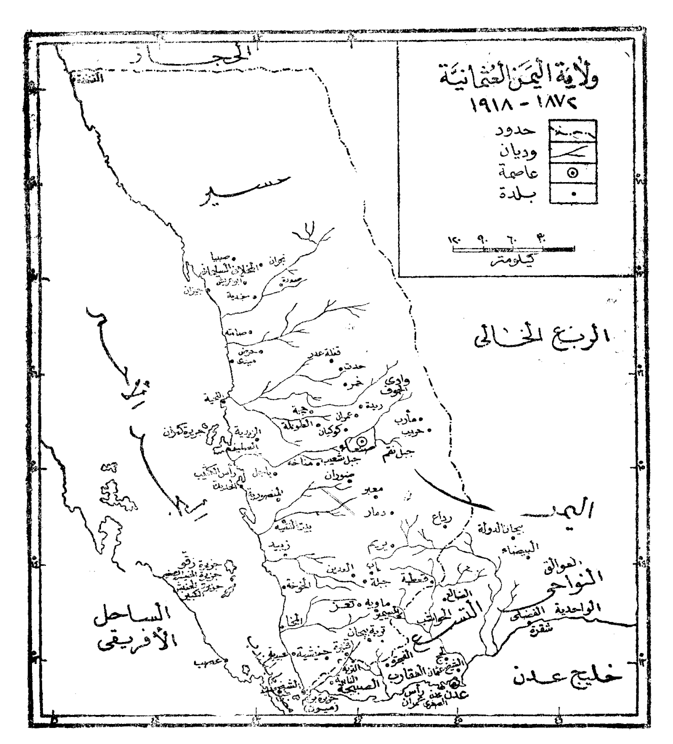
فجريدة الأهرام كانت أولى الجرائد التى اعتمدت عليها وامتلأت صفحاتها بكثير من المقالات التى عبرت عن وجهة النظر العثمانية بصفة خاصة ، كما نشرت الكثير من تصريحات القادة العثمانيين فى اليمن وموجزا لمحاضر «مجلس المبعوثان» التى برزت من خلالها القضية اليمنية ، تلك القضية التى شكلت موضوعا هاما ومثيرا فى مناقشات المجلس . أما جريدة « اللواء » فكانت تعبر عن وجهة نظر الحزب الوطنى المصرى الذى كان يميل للجامعة الاسلامية وللاخاء العثمانى حتى لا يواجه عدوين فى وقت واحد تمثلا فى الاحتلال البريطانى لمصر والتبعية للسيادة العثمانية . كما ان جريدة « المؤيد » حوت الكثير من المقالات المترجمة عن الجرائد التركية بعبارة واضحة ولغة سليمة ، كما تضمنت العديد من مقالات الاصلاحيين العرب وآراء الخصوم المنقولة عن الجرائد التركية والمنشورة فيها . هذا فضلا عن الكثير من البرقيات ونصوص القوانين الصـــادرة عن الآستانة عاصمة الدولة العثمانية والتى تتصل بالولايات العربية بصفة عامة ، وبالقضية اليمنية بصفة خاصة .

أما عن المجلات العربية التى رجعت اليها فى دراستى هذه فقد تميزت مجلة « المقتطف » بروح الاعتدال والفهم الصحيح لحوادث الانقلاب العثمـانى

ومطامع العهد الدستورى فى سنة ١٩٠٨ • بينما عالجت مجلة «المنار»موضوعاتها بحماس الخصم للاتحاديين الأتراك اذ عرف عن صاحبها رشيد رضا اخلاصه للرابطة العثمانية وللجامعة الاسلامية • وقد حوت مجلة « المنار » الكثير من رسائل محمد الادريسى زعيم الأدارسة فى شمال اليمن ومقالات بعض الكتاب اليمنيين والأحاديث الصحفية مع بعض كبار المسئولين من الضباط العثمانيين الذين اشتركوا فى اخماد الثورات اليمنية ضد الادارة العثمانية ، فضلا عما نشرته هذه المجلة من تعليقات ونقد لبرامج الاحزاب العثمانية والعربية على السواء •

ومن أبرز المجلات الأجنبية التى أشارت لموضوع البحث مجلة (Revue du Monde Musulman) فقد استعرضت قضايا العالم الاسلامى السياسية والاجتماعية ، وان حاول بعض كتابها تشويه فكرة الجامعة الاسلامية ، كما أخطأ البعض الآخر من محرريها فى بحث حوادث الانقلاب العثمانى فى سنة ١٩٠٨ • بينما تميزت عنها بالدقة مجلة (Correspondance d'Orient) وكان محررها الرئيسى الدكتور جورج سمنه يشاركه فى ذلك شكرى غانم • ورغم استعراض هذه المجلة لمعالم السياسة العثمانية فى كثير من الأحيان ، فانها كانت استعمارية الهدف متحيزة للدول الأوربية • أما مجلة (Survey of International Affairs) فقد صدرت فى سنة ١٩٢٥ وهى بذلك متأخرة قليلا من الناحية الزمنية عن موضوع البحث ، غير ان المقالات المتعلقة بقضية اليمن التى كانت تنشر بها بين الحين والآخر ألقت كثيرا من الضوء على الآثار التى تركها العثمانيون فى مقدرات اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما أشارت بوضوح لنتائج جلائهم عنه عقب هزيمتهم فى نهاية الحرب العالمية الأولى •

كان هذا عرضا عاما لأهم المصادر العلمية التى اعتمدت عليها فى دراستى موضوع البحث ولا أغمط بذلك أهمية المصادر الأخرى التى اكتفيت بعرضها فى قائمة المصادر ، فقد ساعدتنى جميعها فى معالجة الموضوع وانجازه فى صورته النهائية •



خريطة توضيحية لحدود ولاية اليمن فى الفترة
الممتدة بين عامي (١٨٧٢ – ١٩١٨)

فهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٥٨٨٣
ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٧٨٤ ـ ٠